تاريخ
مسلمى صقلية

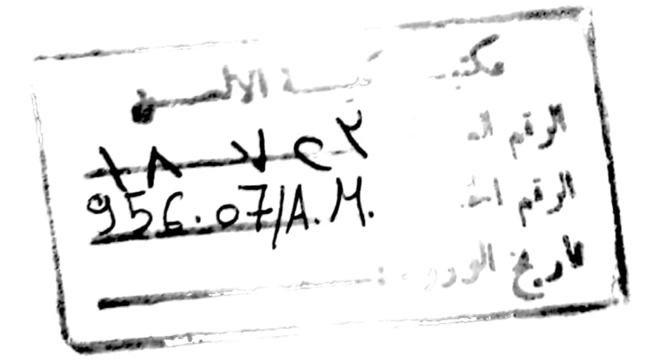
كتبه: **ميكيلى أمارى**

إعداد

د. محب سعد إبراهيم

المجلد الأول





فلورنسا
لى مونييه
٢٠٠٣

المجلد الأول

الكتاب الأول

ترجمة

أ. د. سوزان بديع إسكندر

أ. د. محب سعد إبراهيم

أ. د. سمير مرقص موسى

أ. د. سهيمة سليم صالح

أ. د. ربيع محمد سلامة

مراجعة

أ. د. سوزان بديع إسكندر

أ. د. محب سعد إبراهيم

الكتاب الثانى

ترجمة

أ. د. محب سعد إبراهيم

أ. د. عماد حسن البغدادى

أ. د. ربيع محمد سلامة

د. نرمين وجيه حكيم

مراجعة

أ. د. سوزان بديع إسكندر

أ. د. محب سعد إبراهيم

إن إصدار الترجمة العربية لكتاب «تاريخ مسلمى صقلية» الذى نشره ميكيلى أمارى سنة ١٨٥٢ جهد يتفق مع مناسبة مرور ثمانين عاماً على إقرار العلاقات الدبلوماسية بين مصر وإيطاليا ويمثل إضافة إلى معناها ومغزاها. إن هذه المبادرة الغنية بمعناها الرمزى تدخل فى إطار الاحتفالات التى تجرى تحت شعار «إيطاليا ومصر ٢٠٠٣» والتى أرادت كل من الحكومة والبرلمان القيام بها فى هذه المناسبة.

والهدف من الاحتفال بهذه الذكرى ليس تذكر حدث رسمى بعيد بقدر ما هو التوقف لحظة للتأمل والتفكير المشترك فى المغزى الذى تعنيه هذه العقود المليئة بالأحداث التى مرت ببلدين شهدا حروباً دموية وفترات من التعاون الكبير وعاشتا واقعاً متشابهاً بين الفقر والنمو والتحولات المؤسسية والاضطلاع بالمسئوليات فى أوربا والبحر المتوسط.

هكذا تمت إقامة علاقات سياسية واقتصادية وثيقة تستند على أسس قوية من التراث الثقافى من جانب وتفرض بناء مستقبل مشترك وثيق من جانب آخر. إن استخدام لفظ «مشترك» سواء عند الحديث عن الماضى أم المستقبل إنما هو استخدام جائز وضرورى إذا ما تأملنا كم من مرة أظهر الشعبان على مر العصور أنهما قادران على التعايش وعلى تحويل مسارهما معاً.

وكتاب أمارى دليل وثائقى على هذا. وإذا كانت دار نشر لى مونييه قد أقدمت على نشره بالإيطالية قبل مائة وخمسين عاماً، فإن قرارها بترجمته ونشره اليوم باللغة العربية يكتسب أيضاً مغزى أكبر، بفضل مساهمة وزارة الخارجية والمعهد الثقافى الإيطالى بالقاهرة.

ولسوف يجد هذا الكتاب بكل تأكيد مكانه الجدير به فى مكتبة الإسكندرية الجديدة الكبرى. وسيكون دليلاً ملموساً على الحوار وعلى الالتزام بالحوار فى التعامل على قدم المساواة بين بلدين تجمع بينهما تقاليد حضارية موغلة فى القدم.

وزير الشئون الخارجية

فرانكو فراتينى

مدخل
إلى الترجمة العربية لكتاب
تاريخ مسلمى صقلية - ميكيلى أمارى

فيما بين القرنين الثامن والتاسع بعد الميلاد أوفد الإمبراطور الفرنجى كارلو، الذى مازال يطلق عليه الغربيون «شارل مان»، سفراء إلى بغداد للخليفة هارون الرشيد وحصل منه على تأكيدات بصداقته كما أرسل له فيلاً هدية له. وبعد ذلك بقرن من الزمان كتبت الماركيزة برتا التوسكانية، ابنة الإمبراطور لوتاريو الثانى، كتبت إلى الخليفة العباسى المقتفى تعرض عليه الزواج بها. وفى كلتا الحادثتين كان أمراء الفرنجة يفكرون فى التحالف مع المسلمين ضد الإمبراطورية البيزنطية على الرغم من أن الفرنجة والبيزنطيين كانوا مسيحيين. وبعد ذلك، وأثناء الحروب الصليبية وحروب شبه جزيرة إيبريا، كثيراً ما تحالف فرنجة مع مسلمين ضد تحالفات أخرى بين فرنجة آخرين ومسلمين واصطدموا بهم.

ومنذ ذاك توضح كثير من الأحداث الصداقة العميقة والمستمرة بين العالم المسيحى الغربى والعالم الإسلامى على الرغم من الحروب المتوالية وأعمال القرصنة من كلا الجانبين.

ومن المعروف أن المسيحيين والمسلمين قد تحاربوا كثيراً ونشر كل منهم الأكاذيب عن الآخر. أما ما هو غير معروف ولكنه حقيقة واقعة ومهمة فهو أن الثلاثة عشر قرناً من العلاقات بين أوربا والإسلام قد تميزت بعلاقات مستمرة وطيبة فى المجالات الاقتصادية والتجارية والعلمية والتكنولوچية والدبلوماسية. فبفضل المسلمين فيما بين القرن العاشر والثالث عشر استطاعت أوربا أن تكون على اتصال بمنجرات الإغريق الفلسفية والعلمية

وبالمستحدثات العلمية التى وصلت من فارس والهند والصين. وهكذا أخذ الغرب عن المسلمين علوم الجبر والفلك والكيمياء والطب.

إن الرأى الشائع بين الغربيين والمسلمين من ذوى الثقافة المحدودة والمتزمتين منهم وهو أن العلاقة الرئيسة بين أوربا والإسلام كانت علاقة تصادم حربى إنما هو نتيجة سوء الفهم والوقيعة بين الجانبين.

لقد بدأ الأوربيون مبكراً فى دراسة العالم الإسلامى. ففى منتصف القرن الثانى عشر وفى طليطلة التى استعادها المسيحيون منذ بضع عشرات من السنين، بدأت محاولة لترجمة معانى القرآن إلى اللاتينية. وبعد ذلك، وفيما بين القرنين الرابع عشر والسابع عشر، ظهرت مدارس فى الاستشراق والدراسات الإسلامية.

ومنذ بداية حركة التنوير فى القرن الثامن عشر توطدت حركات ثقافية استشراقية يشهد عليها **ديوان الغرب والشرق** لجوتة **والاختطاف من القصر** لموتزارت. وأظهرت غزواً حقيقياً للذوق الشرقى الإسلامى (وإن لم يكن ذوقاً عربياً بل تركياً وفارسياً) وإن بدت ملامحه غير أصيلة.

لقد عاشت أوربا بعد استيلاء محمد الثانى على القسطنطينية سنة ١٤٥٣ فى خوف من أن تتمكن الجيوش التركية من غزوها (بالرغم من التحالفات الدبلوماسية المتعددة التى أبرمت بين سلطان اسطنبول وقوى مسيحية مثل فرنسا وڤينسيا). ولكن منذ بداية القرن الثامن عشر بدأ تدهور الإمبراطورية التركية: ومنذ ذلك الوقت أخذ العالم الإسلامى يبدو للأوربيين أقل عداءً، بل صار هناك ميل إليه يتسم بالإعجاب بسحره ومرحه.

وهكذا ظهرت أيضاً صورة جديدة لصلاح الدين تتغنى بحكمته واعتداله بينما كانت نظرة العصور الوسطى إليه (دانتى وبوكاتشو) نظرة تتخذه نموذجاً للنبل والفروسية ومن بعدهما جعلت نظرة جوتهلد أفرايم ليسينج منه مثالاً للتسامح. ومنذ نهاية القرن السابع

عشر ومع وقوع الثورة الفرنسية أخذ الفصل بين الدين المسيحى من جانب والسياسة الأوربية وثقافتها من جانب آخر يتعمق ويتطور. وأخذت تترسخ فى مجال الفلسفة تيارات فكرية نابعة من المادية ومن الإلحاد؛ وأخذت الحركة الانسانية تشق طريقها، تلك الحركة التى كانت تجعل من الانسان مركزاً للعالم والتاريخ؛ كما تم انتزاع كثيراً من السلطة السياسية من المؤسسات الدينية أى من الكنائس ومن رجال الدين. وبينما كانت الحركة الاستعمارية تنمو وتتطور من ناحية كان يتم توجيه النقد من ناحية أخرى للحروب الصليبية على اعتبار أنها تعبير عن عدم التسامح الدينى وعلى اعتبار أنها حروب عدوانية. وفى النهاية بدأ بناء مؤسسات دولة ومؤسسات قانونية لا تقوم على الإيمان المسيحى. نعم بقى كثير من الأوربيين مسيحيين: ولكن أوربا لم يكن من الممكن دعوتها «أمة مسيحية» لأنها لم تعد قائمة على الدين المسيحى. هذه هى أوربا التى قدم الجنرال نابليون بونابرت نموذجها للمصريين فى الثانى من يوليو ١٧٩٨.

ومع بداية القرن التاسع عشر ومع بداية الحركة الرومانسية، تغيرت كثير من هذه القيم وجرى إعادة تقويم الإيمان المسيحى. ولكن كان من الضرورى للأوربيين أن يضعوا مفاهيم جديدة لتكون بمثابة قيم فى مركز التاريخ. وهكذا ظهرت قيم الوطن والأمة والشعب.

ومع ظهور الرومانسية بدأ الترويج فى أوربا أن كل أمة ـ من حيث أنها مجموعة متجانسة من البشر تتميز بأصول عرقية ولغوية وتاريخية واحدة ـ لها الحق فى أن تحدد مصيرها وأن تتحد فى وطن واحد، أى فى جماعة واحدة دولة وشعباً. وقد أدى هذا إلى ضرورة اتحاد شبه الجزيرة الإيطالية ـ التى كانت منقسمة إلى دويلات كثيرة يخضع جزء منها لقوة أجنبية، وهى النمسا ـ فى دولة واحدة (أو فى اتحاد فيدرالى بين الدول) وإلى أن تتحرر من الهيمنة الأجنبية. وقد كان هذا هو الواجب الذى قامت به حركة «البعث».

ولقد أجرت ثقافة البعث الإيطالية نقاشاً مستفيضاً وشائكاً حول

جوهر الأمة الإيطالية. فقد أقامت فى شبه الجزيرة الإيطالية منذ القدم شعوب كثيرة تختلف اختلافاً كبيراً فيما بينها، من الفينيقيين والإغريق والإتروسك، والهندأوربيين القادمين من الشمال (مثل السلتينيين). ومع ذلك فقد قام الرومان بدءاً من القرن الثانى قبل الميلاد تقريباً بتوحيدها، وفرضوا عليها كذلك لغتهم اللاتينية.

وفى القرن الخامس الميلادى انقسمت الإمبراطورية الرومانية إلى جزئين: الإمبراطورية الشرقية وعاصمتها القسطنطينية، والتى استمرت قائمة لمدة ألف سنة؛ والإمبراطورية الغربية، وعاصمتها روما، ولكنها تفتتت بسبب غزو شعوب أجنبية (البربر) قادمة أساساً من شمال شرق أوربا وكانت شعوباً وثنية أساساً، وإن دخلت كلها تقريباً للمسيحية فيما بين القرن الرابع والسابع، وكانت لغاتها وعاداتها تختلف عن اللغة اللاتينية وعاداتها.

وعلى كل حال فإن العنصر اللاتينى قد ظل بمثابته القوة الموحدة: ولاتزال اللغة الإيطالية فى الواقع كبيرة الشبه بلاتينية القدماء. وكان هذا كافياً ليؤكد أن جذور الأمة الإيطالية كانت ـ ولاتزال ـ جذوراً لاتينية، أى رومانية.

ويتصف تاريخ إيطاليا باختلافات إقليمية عميقة: فلكل منطقة جغرافية من مناطق شبه الجزيرة تاريخها وطريقتها الخاصة (لهجتها) فى التحدث باللغة الإيطالية. وللجزر الإيطالية الكبيرة بوجه خاص، وهى صقلية وسردينيا وكورسيكا (ولكن كورسيكا تحت الحكم الفرنسى منذ القرن الثامن)، تاريخ شديد الخصوصية: تأثر فيما بين القرن الثامن والقرن الحادى عشر بظاهرة التوسع الإسلامى فى البحر المتوسط. فقد استوطنها مرات متعددة عرب وسكان قادمون من شمال أفريقية وخاصة من المغرب ومن شمال جزيرة إيبريا. وهذا يخص بالأكثر صقلية التى فتحها العرب ـ المغاربة فيما بين القرن التاسع والحادى عشر فخضعت لحكم الأغالبة والكلبيين، وصارت إمارة مقرها بالرمو ثم حدث لها ما حدث فى شبه جزيرة

إيبريا فتفتتت إلى دويلات مستقلة عديدة كثيراً ما اشتعلت الصراعات بينها. وقد أدى هذا فى نهاية القرن الحادى عشر إلى قيام حفنة من المحاربين والمغامرين القادمين من شمال فرنسا، وهم النورمان، بالاستيلاء على صقلية وتوحيدها مع الطرف الجنوبى لشبه الجزيرة الإيطالية فى مملكة واحدة (أطلق عليها فى البداية مملكة صقلية، ثم أطلق عليها فيما بعد مملكة نابولى) توالت عليها أسر مالكة مختلفة قبل أن تصبح، فى سنة ١٨٦٠ ـ ١٨٦١، جزءاً من مملكة إيطاليا المتحدة تحت حكم أسرة سافويا.

وقد شارك العلماء والمثقفون الإيطاليون فى القرن التاسع عشر مشاركة كبيرة فى بناء الدولة الإيطالية المتحدة، باعتبار أنها نتيجة طبيعية وحتمية لوحدة الأمة الإيطالية. ولكن هذا كان يمثل مشكلة تاريخية وأنثروبولوچية. فإذا نحينا جانباً اللغة الإيطالية، وهى لغة مشتركة بين جميع سكان شبه الجزيرة على الرغم من الاختلافات الكثيرة والعميقة بين لهجاتها، هل كانت توجد حقيقة وحدة قومية بين أناس خضعوا على مر القرون لغزوات أجنبية كثيرة؟ أم أن الأمة الإيطالية كانت نتيجة لانصهار شعوب وعادات مختلفة؟.

فى جزيرة صقلية، التى اتحدت منذ القرن الثانى عشر فى مملكة واحدة مع الجزء الجنوبى من شبه الجزيرة الإيطالية، والتى كانت لها خصائص تاريخية وأنثروبولوچية وثقافية خاصة ضاربة فى التاريخ، ظهر وترعرع منذ بداية القرن التاسع عشر تيار سياسى وثقافى ذو خصائص قوية وهو «التيار الصقلى».

كان أتباع «التيار الصقلى» مؤيدين لحرية إيطاليا ويشعرون أنهم جزء لا يتجزأ من الأمة الإيطالية: إلا أنهم لم يكونوا على استعداد للبقاء خاضعين لدولة البوربون التى ظلت تحكمهم منذ القرن الثامن عشر وأجبرتهم على البقاء فى مملكة واحدة مع جنوب إيطاليا.

كان ميكيلى أمارى من المتمسكين «بالتيار الصقلى». ولد أمارى فى ٧ يوليو سنة ١٧٠٦ فى بالرمو فى أسرة متواضعة من الموظفين

العموميين ورجال المهن الحرة وسرعان ما اعتنق الفلسفة المادية التى تستمد أصولها من مذهب التنوير كما اعتنق فكرة استقلال صقلية عن جنوب إيطاليا وضرورة أن تنظم شئونها فى إطار دولة حرة.

ومع اقترابه من الرومانسية الأوربية (ترجم سكوت وكمبل، وقرأ شكسبير وبيرون)، رغم بقائه مناهضاً للنزعة الروحانية والكنيسة الكاثوليكية، بدأ أمارى وهو شاب غض، فى الخامسة والعشرين من عمره تقريباً، فى الاهتمام بتاريخ جزيرته. وقد أدى التزامه السياسى إلى أن تنظر إليه حكومة البوربون نظرة سيئة، مما دفعه إلى الرحيل عن بلاده.

وقد وصل أمارى فى نهاية سنة ١٨٤٢ إلى باريس حيث جمعت الصداقة بينه وبين شخصيات مرموقة مثل ثيير وثييرى وميشيليه. وكان هؤلاء قد تأملوا طويلاً وفكروا فى الخصائص التاريخية للأمة الفرنسية ووجدوا أن مايوحدها أساساً هو التراث والتقليد اللاتينى والعقيدة الكاثوليكية والإسهام الأصيل الذى أسهم به الشعب الجرمانى من الفرنجة الذى استوطن خلال القرن الخامس بلاد الغال التى كان يسكنها اللاتين والسلتيين وهيأ الظروف لانصهارهم: حتى أن بلاد الغال أطلق عليها اسمهم.

هل كان من الممكن اقتفاء أثر طابع الأمة الإيطالية الأصيل والوحدوى والمركب بنفس النهج؟ وأثناء تفكير أمارى فى وطنه صقلية، وهى ولا شك جزء من إيطاليا، أدرك أنه لن يمكن كتابة تاريخها كتابة جادة دون أن يسأل نفسه أولاً عن الدور الذى قام به العرب وأهل شمال أفريقية المسلمون الذين احتلوها وأقاموا بها فيما بين القرن التاسع والقرن الحادى عشر. لقد قتل جانب من المسلمين بعد الغزو النورماندى، ونُقل أو أُجبر بعضهم الآخر على الرحيل، كما اعتنق جانب منهم المسيحية: وعموماً فإن جانباً كبيراً من تاريخ صقلية وفنونها وتقاليدها وطابعها العرقى واللغوى كان يرجع بشكل

مباشر أو غير مباشر إلى الإسلام العربى ـ الأفريقى. فهل كان من الممكن أن ننسب هذا الإسهام إلى «غزو» يقوم به مجموعة من البربر؟

كان على أمارى، لكى يجيب على تلك التساؤلات، أن يعمل على أن يكون مستشرقاً وعالماً فى الدراسات الإسلامية. وكانت الفرص فى باريس مواتية لهذا: فقد كانت مدرسة دى ساسى ومدرسة ميشاند وغيرهما تتسم بالحيوية. فأخذ أمارى، رغم ضيق ذات يده لحياته فى المنفى، ينهل من دراسات تاريخ صقلية واللغة العربية. وكان فى الوقت نفسه محتفظاً باتصالاته مع الأوساط السياسية لحركة البعث الإيطالى وكان اقتناعه يزداد تدريجياً بأن على صقلية نفسها أن تنبذ آمالها الاستقلالية وأن تقبل بأن تكون جزءاً من دولة إيطالية موحدة.

ومنذ سنة ١٨٤٥ كان أمارى يحاول العودة إلى إيطاليا وأن يتبوأ كرسى اللغة العربية فى جامعة بيزا. ولكنه عاد إلى بالرمو فى خريف سنة ١٨٤٨ وشارك فى الصفوف الأولى فى أول حركة ثورية إيطالية كبرى: ولما فشلت هذه الثورة عاد أدراجه فى السنة التالية إلى باريس حيث عهد إليه حتى سنة ١٨٥١ بمهمة أمين المخطوطات العربية فى المكتبة الوطنية (التى تغير اسمها تحت حكم نابليون الثالث إلى المكتبة الإمبراطورية).

وأثناء هربه من بالرمو، سنة ١٨٤٩، فكر فى كتابة **تاريخ مسلمى صقلية** وعكف فى الواقع على كتابته بدعم من مجموعة من الأصدقاء وبمساندة الناشر فليتشى لى مونييه من فلورنسا.

صدر **تاريخ مسلمى صقلية** فى ثلاثة مجلدات ضخمة فى أربعة أجزاء فيما بين عام ١٨٥٤ وعام ١٨٧٢؛ وفى غضون ذلك كان أمارى يجمع، بدءاً من سنة ١٨٥٧، فى مجموعة ضخمة تحت عنوان **المكتبة العربية ـ الصقلية** كل المصادر الضرورية له فى عمله الكبير بلغتها الأصلية العربية.

وعندما عاد أمارى إلى إيطاليا بعد تحقيق الوحدة الوطنية شغل

وظيفة أستاذ كرسى التاريخ واللغة العربية فى بيزا ثم فى فلورنسا؛ ثم استأنف نشاطه السياسى بشكل كامل وعين وزيراً وعضواً بمجلس الشيوخ. وتوفى فى فلورنسا فى ١٦ يوليو ١٨٨٩ عن عمر يناهز ثلاث وثمانين سنة بينما كان لايزال يمارس عمله بهمة ونشاط كبيرين فى إصدار الطبعة الثانية من **تاريخ مسلمى صقلية** التى قدر لها أن تصدر بعد وفاته. ومازال كثير من كتاباته محفوظاً فى بالرمو ولم ينشر.

وقد ساهم ميكيلى أمارى باحثاً وعالماً بنشاطه الدؤوب فى اثبات مدى ما تدين به أوربا للتراث الثقافى العربى - الإسلامى الكبير. فإن جانباً كبيراً من تاريخ أوربا من أسبانيا إلى صقلية وإلى بلاد البلقان انما هو تاريخ عربى وإسلامى كذلك. ولا يمكن اعتبار الإسهام العربى الإسلامى فى بناء الهوية الأوربية إسهاماً عارضاً أو هامشياً: فهو إسهام جوهرى بناء. هذه حقيقة تاريخية يجب أن ندرسها دائماً وأن نعرفها فهى حقيقة أساسية فى حياتنا الثقافية وفى بناء مستقبل قائم على السلام والأخوة بين شعوب البحر المتوسط.

فرانكو كاردينى

تاريخ مسلمى صقلية
وإسهامه فى الدراسات الإسلامية

فى سنة ١٩٦٥ عبّر فرانشسكو جابرييلى فى مقاله «**قرن من الدراسات العربية الصقلية**» الذى نشر فى الصحيفة الفرنسية *Studia Islamica*، عن تمنياته باستكمال «ترجمة تاريخ أمارى إلى العربية التى بدأت فى مصر»، على الرغم من أنه أبدى شيئاً من الارتياب فى إمكانية إتمام هذه المبادرة التى «وإن نحينا جانباً مدى الحاجة إليها وفائدتها العملية»، فلعلها تقوم شاهداً «لهذا الأثر من آثار علم التاريخ ولشهرته التى لم تضمحل» (ص١٠١).

وكان ارتياب أكبر مستعربينا ينبع من خشيته أن يكون استقبال كتاب أمارى استقبالاً سلبياً من جانب غلاة العلماء وأقلهم ميلاً لقبول منهج المقارنة الذى يميز النهج غير الإسلامى فى إجراء البحث التاريخى، بسبب بنية **تاريخ مسلمى صقلية** «التنويرية» واتجاهه الوضعى الواضح الذى يغفل عن عمد ما اختمر بفعل النفحة الدينية، لا للإسلام فقط بل وللمسيحية على وجه الخصوص. وقد وجد هذا الاتجاه، بعد عشرات السنين، السبيل لظهوره مرة أخرى فى إيطاليا فى مجال الدراسات العربية - الإسلامية، فى الجهد الضخم الذى بذله ليونى كايتانى فى **حوليات الإسلام**.

وليس ثمة شك فى أنه فى العصر الذى كان جابرييلى يكتب فيه هذا لم تكن هذه المبادرة كما يمكن ألا تكون حتى اليوم لوجوه عديدة - غير ممكنة فى إطار ثقافى يظهر فيه علم التاريخ من ناحية بنائه، كما يقول بندتو كروتشى، قائماً على ما هو أسمى من المادة. ولكن المعطيات العربية الوفيرة التى يقدمها ميكيلى أمارى - أيا كان تفسيرها - كانت ولاتزال ذات نوعية لا يمكن اغفالها أو عدم تقديرها

من جانب أى باحث يستحق هذا الاسم.

إن إسهامه المتميز - فيما يتجاوز الجوانب الخاصة بالعصور الوسطى واللاتينية والبيزنطية، التى عفا عليها الزمن لكثرة مادار بها من جدل ساخن مناهض للبابوية وللإمبراطورية البيزنطية الذى يتسق تماماً مع أفكاره السياسية - إسهامٌ يظهر فى قدرته التاريخية وفى براعته الفيلولوجية (اللتين تأكدتا تماماً من خلال الطبعة الثانية، التى قام بإعدادها كارلو ألفونسو نللينو فيما بين عام ١٩٣٣ وعام ١٩٣٩ لدار نشر روميو برامبولينى) اللتين ظهرتا فى إعادة كتابته لأكثر من قرنين من تاريخ الجزيرة الإسلامى وللفترة النورماندية التالية له، على الرغم من الافتقار أحياناً إلى الوثائق الكافية وعدم اتساق ما توفر له منها فى عصره. ولقد كانت مهمته أشق من المهمة التى واجهها صديقه رينهارد دوزى فى تلك الحقبة نفسها لكى يستكمل كتابة *Histoire des Musulmans d'Espagne*، لوفرة واتساق المعلومات المفيدة للبحث فى الحكم الإسلامى فى أوربا الذى امتد زمناً أطول حتى إن هذا يبرر العبارة التى يستحضر بها أمارى، فى نهاية كتابه، «رغبته التى لا تقاوم للنظر فى غياهب الظلام التى كانت تحيط بتاريخ صقلية قبل النورمان» والتى حركت أولى خطواته وهو مستعرب جديد.

إن رغبته وقدرته على الاستقاء من المصادر التاريخية الإسلامية الأصيلة مع الابتعاد عن تناول الموضوع تناولاً أوربياً صرفاً لما فيه من ضحالة ومحدودية وظلم، قادته إلى نتائج أعلى لاوجه لمقارنة نتائج تومازو فاتزيللو (١٤٩٨ - ١٥٧٠) بها، والذى - كما أكد أمارى - بكتابه *De rebus Siculis decades duae*، قد وجد فى سنة ١٥٥٨ «خيط الرواية الأصلية» لتاريخ صقلية، الذى قام فيما بعد بحل عقده كل من چوڤان باتيستا رامبولدى من لومبارديا (١٧٦١ - ١٨٣٦) بكفاءة وصدق بكتابه **حوليات إسلامية** *Annali Musulmani* (الذى نقده عن حق مؤرخ بالرمو الكبير «لميله لعدم الاستشهاد. ولإضافة ظروف من

عنده كانت تبدو له مناسبة لاتساق الأحداث»، والصقليون چامبتيستا كـــاروزو (١٦٧٣ - ١٧٢٤) فى *Historiae saracenico-siculae varia monumenta*، وروزاريـو جـريجـوريو (١٧٥٣ - ١٨٠٩) فى *Rerum Arabicarum, quae ad Historiam siculam spectant ampla collectio* وكذلك وعلى نحو ما ألفونسو أيرولدى فى **مجموعة وثائق صقلية تحت حكم العرب** *Codice diplomatico di Sicilia sotto il governo degli Arabi*؛ والدراسات المتواضعة التى قام بها سلڤاتورى مورسو (١٧٦٦ - ١٨٢٨) عن بالرمو فى القرن الثانى عشر ناهيك عن الكتابات محدودة القيمة التى قدمها سافريو سكروفانى (المتوفى سنة ١٨٣٥) وبيترو لانسا، وكارميلو مارتورانا، ودافيد برتولوتى وفينشنسو مورتيللارو.

ما هو السبب فى الاهتمام الضئيل للغاية بصقلية الإسلامية ليس فقط من جانب المؤرخين ورواة الأخبار المسيحيين (التابعين لروما والقسطنطينية) وإنما - وهذا هو الغريب - من جانب المسلمين أيضاً؟ وإذا كان على آخرين أكثر تخصصاً من كاتب هذه المقدمة أن يبحثوا عن الأسباب والدوافع بالنسبة للفئة الأولى، فإن أسباب عدم مبالاة الفئة الثانية قد ترجع على الأرجح إلى الاقتناع الإسلامى بأن المغرب عامة وصقلية خاصة غريبان مؤسسيا وأيديولوجياً، وأن صقلية إقليم طرفى وهامشى فى ذلك الجزء الغربى من الأراضى الإسلامية الذى كان، باستثناء إفريقية (الإقليم الرومانى القديم أفريقيا)، فى عصر هشام بن عبد الملك قد نفض عن كاهله بالثورة البربرية التى قام بها ميسره المدغرى وخالد بن حميد الزناتى النير النفسى والسياسى والاقتصادى للاعتزاز العربى ولسيادة دمشق غير الرشيدة.

ففى الواقع كان الخلفاء الأمويون - بعيداً عن تطبيق المبادئ الجامعة العامة التى دافع الإسلام عنها - قد ظهروا غير متحمسين للاعتراف بشرعية دخول الموالى فى الإسلام - وكثيراً ما كان دخولهم سريعاً - أى دخول العناصر غير العربية التى كانت على طرفى حدود

خلافتهم وهم سكان خراسان والبربر، وعارضوهم - لأسباب تتعلق باحتياجات بيت المال واتهموهم بعدم معرفتهم الكاملة بتعاليم الإسلام غير الهينة حتى يستمروا فى معاملتهم معاملة الرعايا الذميين الخاضعين للجزية أو الخراج أو الجزية والخراج، وليس باعتبارهم مؤمنين يجب عليهم دفع «العشر الشرعى» وهو هين يسير (الزكاة والصدقة).

إن العداء الإجتماعى والمالى للفاتحين العرب وخلافتهم كان يكتسى - عندما لا يتم التعبير عنه بالسلاح - برداء المعارضة الفقهية. وقد مثلت فرقة المرجئة المسلحة بقيادة ابن سريج فى خراسان (وكان نشطاً بدءاً من ١٦٦هـ/ ٧٣٤م)، والأدارسة العلويين فى فاس (١٧٢/ ٧٨٩)، والخوارج الصفاريين فى سجلماسه (١٤٠/ ٧٥٧ - ٨) والعباديين من أتباع رستم فى تاهرت (١٦١/ ٧٧٨) مثلت أبرز دليل على هذا ولم تكن قليلة الفعالية فى إضعاف دمشق وفى استبعاد سلطة بغداد، فيما بعد سنة (١٣٢/ ٧٥٠) من جانب كبير من أقصى المغرب الذى اكتفى فيه العرب بالسيطرة على أهم المراكز الحضرية بينما تسيد البربر على المناطق الريفية.

فقد الخلفاء العباسيون الجدد جزءاً كبيراً من أراضى المغرب، كما فقدوا الأندلس التى نجح عبد الرحمن بن معاوية حفيد هشام بن عبد الملك بعد هربه إليها فى أن يستقطب لصالحه المشاعر المحلية المطالبة بالشرعية وأن يؤسس إمارة قوية مستقلة اكتسبت فى أوائل القرن العاشر صفة الخلافة.

أدى كل هذا إلى أن يمنح هارون الرشيد لعامله إبراهيم بن الأغلب فى سنة ٨٠٠ حكم إفريقية حكماً وراثياً وأن يكون لها استقلال عسكرى وإدارى فى مقابل التعهد بأن تكون مناهضة للعلويين وللخوارج وللأندلس وبأن تدفع ٤٠ ألف دينار سنوياً تشكل مع المائة ألف دينار التى لم تعد ولاية مصر تدفعها لأفريقية لسد نفقاتها الضرورية، تخفيفاً لايستهان به للأعباء التى تتحملها الإدارة

العباسية.

وقد أدت اللامركزية هذه - وهى الأولى من نوعها فى تاريخ الخلافة - إلى استعادة القدرة الزراعية والتجارية استعادة قوية فى إفريقية وإلى استئناف التوسع الذى كان من نتيجته حملة عام ٨٢٧ الناجحة على صقلية البيزنطية.

إلا أن ثمار الفتح كانت بطيئة بسبب استمرار العمليات العسكرية (١٥ عاماً فى وادى مازارا، و٤٠ عاماً تقريباً فى شرق صقلية، وأكثر من نصف قرن لفتح العاصمة سيراكوزا، و٧٥ عاماً للاستيلاء على كتانيا وتاورمينا) مما أدى إلى إعاقة القيام بتحليل تاريخى مرضٍ محلياً وعرض الأحداث فى ترتيبها الزمنى بشكل دقيق.

وفى إفريقية هزم الفاطميون، وهم من الإسماعيليين، الأغالبة فى ١٩ مارس ٩٠٩ وحلوا محلهم فى السيطرة على الجزيرة - سيطرة اسمية عقب الخلافات التى وقعت مع والى الإمام الفاطمى المهدى، ابن أبى خنزير، الذى اضطر إلى العودة على وجه السرعة إلى إفريقية بسبب مقاومة المسلمين السُنيين فى الجزيرة الذين وجدوا فى أحمد بن قرهب ممثلاً لهم - وسيطرة يشوبها الاهمال بسبب اهتمام المهدية بالبدء فى تنفيذ الاستراتيچية «الشرقية» التى كانت تهدف - بعد فتح مصر والشام - إلى هزيمة «المغتصب» العباسى فى أراضيه لإعادة بناء الخلافة فى دولة موحدة يحكمها الإمام.

ولهذا استطاعت صقلية أن تفيد بدءاً من سنة ٩٤٨ من تجربة الحكم الذاتى التى بدأها الأمير الحسن بن على الكلبى الذى انتهج سياسة نالت رضا أهل الجزيرة وإن لم تنل الاستحسان نفسه من جانب المؤرخين المسلمين من غير الصقليين الذين وجدوا أنها لم تكن جديرة بأن تستثير فضول قرائهم من المسلمين لمعرفة سيرتهم وقضوا بأن يبقى ذكر أتباع دينهم من أهل الجزيرة داخل حدود أراضيهم وألا يعبر مياه قناة صقلية.

وهكذا عاشت الجزيرة ١١٣ سنة أخرى تحت الحكم الإسلامى

تتقاذفها أنواء التفكك الذى يشبه تفكك الأندلس بعد عصر الخلافة بظهور ملوك الطوائف وسطوع نجمهم فى أفقها.

وإذا كان الساسة والفلاسفة والمتصوفة وعلماء الكلام والمخترعون والعلماء قد جعلوا قرطبة تنافس بغداد نفسها وتضمن بعد ذلك الحفاظ على مبادرات فنية ـ ثقافية على مستوى عال فى اشبيليه ودنيا وسرقسطة وغرناطة، فإن صقلية نادراً ما استطاعت أن تعبر عن شخصيتها تعبيراً مماثلاً، وليس هناك طائل من الحديث عن ابن حمديس، أو على بن عبد الرحمن البلنوبى، أو عبد الرحمن التبيرى، أو عبد الرحمن الأطرابنشى، أو ابن ظفر، أو ابن القطاع، أو الإمام المازارى أو ابن الفهام أو من التباهى بالخمسمائة مسجد فى بالرمو (أقل من قرطبة بثلاثمائة مسجد)، فإذا ما ألقينا نظرة متأنية، نجد أن مساجد قرطبة تمثل نموذجاً نادراً، بينما كانت مساجد بالرمو مجرد منابر أقامها، كما يؤكد ابن حوقل، «القوم لشدة انتفاخ رؤوسهم وكان يحب كل واحد منهم أن يكون له مسجد مقصور عليه، لا يشركه فيه غير أهله وغاشيته».

وكما يقول أمارى: «وتنازع الأمراء والحكام والمغامرون الحكم هنا وهنالك.. وكانوا رجالاً ذوى مستوى متواضع»، غير قادرين على إقامة سلطة واحدة قادرة على مقاومة قوة الثأر المسيحية التى نزلت فى سنة ١٠٦١ إلى كلكاتا، بالقرب من مسينا بقوة غير كبيرة من محاربى النورمان.

ولم تكن الخلافات السياسية والثقافية البسيطة قادرة على جذب انتباه الرحالة المسلمين القلائل الذين هبطوا إلى الجزيرة وخلبت ألبابهم مناظرها الطبيعية وجمالها ـ وخاصة جبل إتنا، «جبل النار». ـ أكثر من البشر الذين لم يقتصد ابن جبير فى **رحلته** بالاستهزاء بهم بكلماته لشربهم مياه الآبار «وكثرة أكلهم البصل وفساد حواسهم بكثرة تغذّيهم بالنىّ منه.. وهو الذى أفسد تخيلّهم وضرّ أدمغتهم وحيّر حواسهم وغيّر عقولهم ونقص أفهامهم وبلّد معارفهم، وأفسد سحنة

وجوههم» أو فى وصم عدد معلميهم من المسلمين بقلة منفعتهم «لفرارهم من الجهاد وشرفه والغزو وعزه»، ذلك الجهاد الذى كان يتصدى له جنود من «البطالين والفساق متمردين، شيوخ وأحداث أغثاث رثاث قد عملوا السجادات منتصبين لأخذ الصدقات وقذف المحصنات... وأكثرهم يقودون ومنهم من لا يرى ذلك لشدة الرياء والسمعة».

وإذا كان لا يغيب عنا الحقد الكامن وراء هذه الاتهامات، فإن هذه كانت سمعة مسلمى صقلية التى أذاعها هذا الجغرافى ولم يكن من تقبل مثل هذه الافتراءات قليلين وذلك لبعدهم عن تلك الأماكن ولعدم معرفتهم بها معرفة مباشرة.

فقد حكم على الأثرياء والفقراء، على الملس والحُرش، أى على المزارعين الأحرار والعاملين من أدنى الدرجات، وعلى التجار والفقهاء والعلماء، قبل أن يحكم عليهم بالنسيان الذى توعدهم به الارستقراطيون ورجال الدين المسيحى، حكم عليهم بأن يكون مصيرهم الإهمال والنسيان من جانب الثقافة الإسلامية نفسها. وقد أخرجهم من غياهب النسيان هذه ميكيلى أمارى بجهده الفكرى والتاريخى المضنى الذى استمر عشرات السنين.

ولم يكن هذا إسهاماً قليلاً منه فى التاريخ وخاصة فى التاريخ الإسلامى.

كلاوديو لوياكونو

تقديم

ظهرت الطبعة الأولى من تاريخ مسلمى صقلية بالإيطالية فى دار نشر لى مونييه، واستغرق نشرها ثمانية عشر عاماً، فصدر المجلد الأول منها سنة ١٨٤٥ والمجلد الثانى سنة ١٨٥٨ والجزء الأول من المجلد الثالث سنة ١٨٦٨ أما الجزء الثانى والأخير فقد صدر سنة ١٨٧٤. وظهرت منه طبعة ثانية منقحة ومزيدة راجعها وكتب مقدمتها وزودها بكثير من الملاحظات العلامة المستشرق الشهير كارلو ألفونسو نللينو على أساس ما عدّله المؤلف وأضافه فى قصاصات بعد نشر الكتاب فى طبعته الأولى، إلا أن وفاته المفاجئة لم تمكنه من إخراج الطبعة الثانية بنفسه؛ وقد صدرت هذه الطبعة بكتانيا سنة ١٩٣٣ - ١٩٣٥.

كان ظهور هذا الكتاب وليد حاجة ملحة فى إيطاليا وأوربا لدراسة تاريخ هذه الفترة وتناول ما كتبه عنها رواة الأخبار والمؤرخون سواء من العرب أو الأوربيين، خاصة أن أخباراً كثيرة كانت حتى آنذاك مخطوطة لم تر النور ولم يجر تحقيقها. كما أن ظهوره كان وليد نزعة وطنية لدى مؤلفه، ميكيلى أمارى، أن يكتب عن تاريخ بلاده وموطنه الأصلى، صقلية.

وقد رأيت أن شذرات من هذا المصدر قد نقلت إلى العربية مترجمة عن لغات أخرى وأن كثيراً من أساتذة التاريخ ودارسيه قد أبدوا اهتمامهم بالاطلاع على المصدر كاملاً ومترجماً من لغته الأصلية مباشرة، أى من اللغة الإيطالية، خاصة أنه قد احتفظ بقيمته العلمية برغم مرور ما يزيد على قرن ونصف على طبعته الأولى. دفعنى كل هذا إلى تبنى هذه المبادرة فعرضتها على زملائى المتخصصين فى اللغة الإيطالية وآدابها حتى نبدأ عملاً جماعياً، نتبادل فيه الخبرة والمعرفة من أجل ترجمة كتاب من أمهات كتب المستشرقين، فرحبوا بالفكرة وتحمسوا

لها. كان هذا سنة ١٩٩٥، فسعيت للحصول على نسخة من الطبعة الثانية من الكتاب وحصلت عليها - رغم نفادها - وبدأت وزملائى فى وضع مشروع الترجمة، والسعى لدى دور النشر حتى لا توضع الترجمة عند الانتهاء منها فى أدراج المكاتب مثل غيرها من الترجمات والمؤلفات، إلا أن صعوبة النشر وتكاليفه الباهظة خاصة بالنسبة لمصدر بهذا الحجم، حالت دون تنفيذ المشروع. وبعد ست سنوات وفى عام ٢٠٠١ أبدت دار نشر لى مونييه رغبتها فى نشر ترجمة الكتاب وتحمل تكاليفه على أن تتم ترجمة الطبعة الأولى التى صدرت عن مطابعها. كان الحديث فى البداية عن ترجمة المجلد الأول من المجلدات الثلاثة التى يتكون منها الكتاب فى طبعته الأولى إلا أن دار النشر رأت بعد ذلك ترجمة الكتاب كله على أن تنتهى أعمال ترجمته فى الموعد نفسه وألا تستغرق أكثر من سنة وبضعة شهور. كان العبء كبيراً خاصة أننا نتحمل الترجمة والمراجعة والإعداد للطبع حتى نضمن بقدر الإمكان ألا تحدث أخطاء فى الطباعة التى تتم فى إيطاليا والمترجمون فى مصر.

الشكر كله للأساتذة: الدكتور سيد محمد قطب والدكتور عبد المعطى صالح والدكتور عيسى مرسى والدكتور جلال أبو زيد الذين قاموا بتدقيق اللغة العربية بالسرعة المطلوبة والدقة التى يتسمون بها

ولا يفوتنى فى هذا المقام أن أشير إلى بعض الصعوبات الفنية التى واجهتنا إبان عملية الترجمة:

١- إن لغة الكتاب ليست هى اللغة المعاصرة، بل لغة النصف الأول من القرن التاسع عشر وأن أسلوب الكاتب يتسم بسمات عديدة من الإيجاز أحياناً إلى الإطناب أحياناً أخرى، ومن الأسلوب التسجيلى العلمى المدقق إلى السرد القصصى. واختلاف الأساليب يرجع - على ما يبدو - إلى اختلاف الموضوعات التى يتناولها، وإلى طول الفترة التى استغرقها فى الكتابة. كل هذا كان يحتاج من المترجمين أن يدرسوا لغة الكاتب وأسلوبه وعصره قبل بدء عملية الترجمة ذاتها، وفى وقت قصير، وتحت ضغط كبير حتى يتم تحقيق المشروع فى توقيتاته المحددة.

٢- إن المؤلف فى نقله لبعض الألفاظ أو أسماء الأعلام أو أسماء الأماكن العربية والمدن إلى اللغة الإيطالية قد اتبع منهجاً يجعل القارئ - المترجم - فى حيرة من صحة نقل بعض الحروف والأصوات. ولهذا كان لابد من تحقيق هذه الألفاظ والأسماء، ولعلنا نكون قد وفقنا فى هذا. كما أن المؤلف قد واجه صعوبات كبيرة فى نقل بعض الأسماء من المخطوطات فناقش صحة هذه الأسماء وحاول الاختيار من بينها وانعكست الصعوبات التى واجهها المؤلف وشكلت صعوبات أخرى أثناء الترجمة.

٣- إن المؤلف عند ذكره بعض المصادر ومؤلفيها، قد كتبها فى المجلدين الأول والثانى بشكل وفى المجلد الثالث بشكل آخر. وكان أمام المراجعَيْن أن يختارا بين توحيد هذه الأسماء والعناوين أو نقلها كما هى. وقد رأينا فى النهاية الالتزام بما كتبه المؤلف كما هو حتى ننقل المادة العلمية بأمانة إلى اللغة العربية، ونترك للباحثين النظر وإبداء الرأى فى منهج المؤلف بعد ذلك.

٤- إننا وجدنا أنفسنا نتفق مع المؤلف أحياناً ونختلف معه أحياناً أخرى، وهذا حال المترجمين دائماً، وفضلنا أن نترجم بأمانة ما كتبه المؤلف، إذ إن مهمة المترجم ليست هى مهمة المحقق أو الباحث، وأن نترك المجال للمتخصصين فى التاريخ بالأخذ بما قاله المؤلف أو بتفنيد آرائه بالحجة العلمية، وهذا صميم عملهم.

٥- إن أسماء الأماكن والأنهار والبحار والمدن والقرى قد كتبها المؤرخون العرب فى العصور الوسطى بطريقة مختلفة عن نطقها المألوف فى العصر الحاضر، مما قد يشكل صعوبة على القارئ العربى الذى اعتاد قراءتها فى الصحف وسماعها فى الإذاعة والتليفزيون بنطقها الأصلى. لهذا رأينا أن نستخدم النطق الحديث منعاً لهذا الالتباس، فعلى سبيل المثال يذكر ابن الأثير اسم قلورية للدلالة على كلابريا *Calabria*، وقصريانة للدلالة على كاستروجوڤانى *Castrogiovanni*، ففضلنا الكتابة الثانية على الأولى فهى الأقرب إلى الاسم الإيطالى بنطقه الصحيح والسائد، وهكذا.

٦ـ إن الكاتب قد اهتم كثيراً بالاستشهاد بأبيات من الشعر العربى عامة ومن تراث شعراء صقلية خاصة، وقد استهوته معانيه وصوره وبلاغته فأورد بعضاً منه مترجماً هذه المعانى إلى اللغة الإيطالية. وقد رأى المترجمون نقل المعانى دون النص الشعرى الأصلى حين يؤسس الكاتب على هذه المعانى آراءه ويستشهد بها للدلالة على أحداث تاريخية أو اجتماعية بعينها، وفى غير هذه الحالة يوضع النص الشعرى الأصلى.

وفى النهاية أرجو أن يكون إسهامنا وإسهام الفريق كله نافعاً مفيداً للدراسات التاريخية وأن يكون الله قد وفقنا فى مسعانا.

ا.د. محب سعد إبراهيم

المؤلف

ولد ميكيلى أمارى فى بالرمو (صقلية) فى ٧ يوليو ١٨٠٦ وقضى السنوات الأولى من طفولته فى كنف جده لأبيه المحامى المعروف وعندما توفى جده انتقل للإقامة مع والده الذى كان ليبرالياً فى أفكاره ومبادئه: وكان كل معلميه من رجال الدين إلا واحداً من العلمانيين أثار شغفه وحماسه. عمل ميكيلى موظفاً فى الحكومة بدءاً من ١٨٢٠ وحتى سنة ١٨٤٢ فى بالرمو ثم فى نابولى. وحينذاك حكم على والده بالسجن لمدة اثنى عشر عاماً فى تهمة سياسية وطنية. وكانت اتجاهات ميكيلى السياسية تدعو إلى استقلال صقلية عن مملكة نابولى والعودة إلى العمل بدستور سنة ١٨١٢ الذى كان يضمن استقلال صقلية. وتظهر اتجاهات فكره لأول مرة فى مبحث قصير كتبه سنة ١٨٣٥ أكد فيه أن مملكة صقلية كان لها دائماً وجودها المستقل. وأنه لا ينبغى اعتبارها تابعة لنابولى. وكتب المؤلف كتاباً آخر حول المضمون نفسه فى سنة ١٨٣٩ وفيه يذكر بوضوح برنامجه السياسى الرامى إلى إيجاد اتحاد إيطالى لدول حرة متساوية ذات سيادة. واستمر الكاتب فى الدفاع عن

آرائه وفى دراسة تاريخ جزيرة صقلية والحركات السياسية بما يدفعه إلى هذا شعور وطنى متأجج. ولكن السلطات فى نابولى وجدت فى أفكاره التى يدعو إليها خطراً، فاستقلال صقلية يضر بالمصالح العامة للدولة التى كانت تسعى إلى الاندماج الكامل بين جزئى المملكة (صقلية ونابولى). ولهذا أوقف عن عمله ونقل إلى نابولى ولكنه لم يرضخ لهذا وهرب إلى فرنسا.

وفى باريس احتفى به المنفيون والمثقفون الفرنسيون. وبدأ فى فرنسا فى دراسة اللغة العربية استعداداً لكتابة تاريخ مسلمى صقلية. ولم ينس ميكيلى أمارى فى غضون هذا أفكاره السياسية الرامية إلى استقلال صقلية فى إطار اتحاد فيدرالى إيطالى برغم إعجابه الشديد بالمناضل الإيطالى ماتزينى، فنشر فى سنة ١٨٤٧ بلوزان مبحثاً بعنوان «مبحث تاريخى سياسى فى دستور صقلية من وضع بالمييرى».

وفى غضون ١٨٤٨ ـ ١٨٤٩ أصبح ميكيلى أمارى عضواً بالبرلمان ووزيراً للمالية وممثلاً للحكومة الثورية فى باريس ولندن.

وأثناء وجوده فى باريس لمتابعة طبع كتابه «تاريخ مسلمى صقلية» استمر فى متابعة أحداث بلاده. لقد تحولت أو تطورت أفكار ميكيلى أمارى التى كانت تسعى إلى استقلال صقلية لتصبح أفكاراً اتحادية ترمى إلى توحيد إيطاليا. ولهذا فعندما دعا كافور إلى دعوة برلمان سنة ١٨١٢ وبرلمان سنة ١٨٤٨ للانعقاد اعترض الداعى إلى استقلال صقلية على هذا لأن مجلساً بهذا التشكيل «سيتحرك مدفوعاً بأفكار محلية خاطئة بدلاً من المفهوم الأوسع للأمة الإيطالية».

وعند تأسيس مملكة إيطاليا صار ميكيلى أمارى عضواً بمجلس الشيوخ ووزيراً للتعليم. كما عمل أيضاً عضواً فى المجلس الأعلى للتعليم وفى المجلس الأعلى للمحفوظات. وعمل بعد سنة ١٨٦٠ فى التعليم وكرس حياته للدراسة والبحث. فقام بترجمة وتنقيح المكتبة العربية الصقلية وبالإعداد للطبعة الثانية لتاريخ مسلمى صقلية التى لم يستطع استكمالها. وتوفى فى فلورنسا فى ١٦ يوليو ١٨٨٩.

أمارى المستشرق

بدأ أمارى دراسة العربية فى باريس سنة ١٨٤٢ بهدف دراسة النصوص التاريخية الأصلية ومخطوطاتها بالعربية ليكتب تاريخ مسلمى صقلية باعتباره مقدمة لدراسة تاريخ صقلية دراسة شاملة من العصور الوسطى حتى عصره. وبالرغم من دراسته للعربية وهو فى سن النضوج ـ ولم يصل فيها إلى الكمال الذى كان ينشده لأسباب كثيرة ـ فإنه استطاع بسرعة كبيرة أن يجمع ويفسر ويقدم مادة علمية غزيرة متناثرة فى مؤلفات ومخطوطات عديدة تصعب قراءتها فى الغالب. ولم تقتصر هذه المادة العلمية على التاريخ فحسب بل شملت كل أثر أدبى قد تكون له علاقة من قريب أو من بعيد بصقلية أو صدر عن أقلام كتاب عرب صقليين. فحقق وترجم وصف صقلية لابن حوقل (١٨٤٥) وترجم لابن ظافر سلوان المطاع (فلورنسا ١٨٥١) وصنف كتاباً فى المكتبة العربية الصقلية وجمع نصوصه العربية فى الجغرافيا والتاريخ والتراجم من مكتبات فرنسا وإنجلترا بادئاً بالمسعودى ومنتهياً بحاجى خليفة. (وقد طبع النص فى ليبزيخ ١٨٥٦ و١٨٧٥ و١٨٧٧ وطبعت الترجمة الإيطالية فى تورينو سنة ١٨٨١ ـ ١٨٨٢ وفى سنة ١٨٨٧). وأثناء إقامته فى باريس عين أمارى أميناً للمخطوطات بالمكتبة الإمبراطورية، وفى تلك الفترة كتب فى سنة ١٨٥٧ ببلوغرافيا القرآن الكريم. و«تاريخ مسلمى صقلية» (فلورنسا ١٨٥٤ ـ ١٨٧٢) وهو مؤلف ضخم أخذ من المؤلف جهداً كبيراً فى جمع مادته ودراستها وكتابته بمنهج علمى.

مقدمة

برغم سيادة الثقافة الإسلامية فى أسبانيا وصقلية والصبغة الحضارية التي قدمتها لأوربا فإن تاريخها بقى مجهولاً لايحظى بما يجدر به من اهتمام فقلّما كتب المؤرخون اللاتين واليونانيون فى العصور الوسطى عنه، ولأن المؤلفات العربية قد ضاعت أثناء خروج المسلمين من تلك البلاد؛ ولأن ما تم حفظه منها فى أفريقيا أو فى الشرق ما كان يمكن أن ينتقل دون صعوبات كبيرة للغاية، من المجتمع الإسلامى إلى المجتمع الأوربى. وبعد أن تم إلى حد ما تخطى بعض هذه العقبات بدءاً من القرن السادس عشر وحتى القرن الثامن عشر فإنه يتم الآن التغلب عليها بنجاح. إن التسامح الفكرى، والنزعة إلى الدراسات التاريخية، والرحلات، والتجارة، والسيطرة الأوربية على بعض بلاد المسلمين، والتأثير على الآخرين، وأكاديميات الدراسات الآسيوية التى أقيمت واتخذت مختلف الأسماء فى انجلترا وفرنسا وألمانيا والولايات المتحدة الأمريكية، والمعاهد الانجليزية فى الهند، والصحف الدورية الخاصة بها، والحماس فى جمع المخطوطات والعملات القديمة والآثار، وتيسير تعلم اللغات الشرقية، وتواتر نشر الكتب العربية كل ذلك جعل من الممكن إجراء كثير من البحوث التى حاولت الأجيال السابقة القيام بها دون أن تنجزها. وهكذا فقد كتبت مؤلفات قيمة تلقى الضوء على تاريخ المسلمين فى أسبانيا، ونعلم أن هناك مصنفات أخرى يجرى إعدادها على أيدي متخصصين رفيعى المستوى. كما أن حوليات الحروب الصليبية يجرى إتمامها برضا المؤرخين المسلمين؛ وتخرج إلى النور أو تقدم بشكل مستمر أعمال تاريخية أخرى عن أفريقيا، وعن مصر وعن مختلف دول آسيا الدنيا.

إن الأعراف الأصيلة التى اتسم بها عصر المسلمين قد زالت عن صقلية عند استيلاء النورمان عليها وهجرة العلماء إلى أفريقيا وأسبانيا ومصر ، وكانوا يحملون الكتب معهم ، وربما ضاعت الكتب خلال حروب الاستيلاء على صقلية فى القرن الحادى عشر، أو خلال ثورة المسيحيين فى القرن الثانى عشر أو خلال تمرد المسلمين اليائس فى بدايات القرن الثالث عشر: مع أن صقلية لم تعرف ، حتى فى ذلك الزمان، فضيحة حرق المخطوطات العربية، مثلما فعل الكاردينال إكسيمنس الذى حرق ثمانين ألفا منها فى ميدان غرناطة، بينما كان كولومبوس يكتشف أمريكا. ومنذ منتصف القرن الثالث عشر وحتى منتصف القرن الرابع عشر كان لا يزال بصقلية كتاب يفهمون العقود المحررة بالعربية، ويهود يترجمون مؤلفات الأطباء العرب، ولدينا الدلائل على هذا، إلا أن معرفتهم بالعربية لم تجعلهم يتركون لنا مذكرات تاريخية ولم ينشروا سوى بعض أخطاء العرب أو المترجمين. وهكذا فإننى عندما أقرأ أحداث صقلية فى ذلك الوقت كما كتبها اللاتين أظن أنه بعد الأحداث التى قام بها منلاو الطيب ملك إيطاليا وصقلية، استولى اليونانيون، الذين أرسلهم هراكليوس إمبراطور القسطنطينية، على ترينكريا، وأطلقوا عليها اسم صقلية وهو اسم مأخوذ من كلمتين يونانيتين أولاهما تعنى تين والأخرى زيتون، وأنه بعد تمرد منياتشى نائب هراكليوس وقتله من جانب البلاط البيزنطى غدراً، سلم ابنه الجزيرة، انتقاماً له، لسراسنة تونس سنة مائة وثمان وتسعين للهجرة الموافق ثمانمائة وسبع وعشرين للميلاد . (1)

(1) انظر بارتولوميو دى نيوكاسترو ، الفصل الرابع والخمسين ، وكذلك *Anonymi Chronicon Siculum* من الفصل الأول إلى الخامس فى دى جريجوريو ، المكتبة الأرجونية، المجلد الأول ، ص ١١٥ ، والمجلد الثانى ، ص ١٢١ وما بعدها ، وخطاب الراهب كورادو ، فى كاروزو، *Bibliotheca Historica regni Siciliæ* المجلد الأول، ص ٤٧.

إن تعليل أصل اللفظ تعليلا خاطئا بالتين والزيتون، وهو ما كان غير معروف للاغريق واللاتين ، موجود فى كتابات على بن القطاع وابن رشيق، وقد عاشا فى صقلية فى القرن الحادى عشر. وكثيراً ما نجد عند المؤلفين المسلمين مفارقات تاريخية مماثلة عن الأباطرة الرومان، وكثيرا ما نجدهم يتجاهلون صواباً أو خطأً اسم هراكليوس ، على أنه كان يجلس على العرش أثناء حياة محمد (عليه السلام). ومن ثم فقد بدا لى أنه من المحتمل أن كل التعليم التقليدى المتواتر المذكور بعاليه مأخوذ عن مصدر عربى واحد . وإذا كانت هناك معلومات أخــرى عن حكم المسلمين ، فإن الرواة الصقليين، نظرا للجهـل والتحامل السائدين بعصرهم، قد اضطروا لتجاهلها أو حجبها بإرادتهـم .

وبعد ثلاثة قرون تقريباً ومع انتعاش الدراسات التاريخية فى إيطـاليا وعدم بقــاء صــقلية متخلفة عن باقى الأقاليم رفض تومازو دا شاكا (المولود سنة ١٤٩٨ والمتوفى فى ١٥٧٠) حــكاية منياتشى، واكتشف خيطا من خيوط التعــاليم البيزنطية الموروثة فى مخطوط شـــيليتزى المعروف فى ذلك الوقت بعنوان *Curopalata*، وضمنه شيئاً من التعاليم الإسلامية التى استطاع أن يوفرها له ليون الأفريقى ومن الأخبار غير المؤكدة ، فإنه كتب فى كتابه العظيم عن تاريخ صقلية العام فصلين غير موفقين تمام التوفيق عن الحكم الإسلامى.(1) وترك فيه ثغرة اهتم انطونيو داميكو دا مسينا (المتوفى سنة ١٦٤١) بملئها بما ورد فى *Escuriale* من مقتطفات لأبى الفدا وشهاب الدين (شـهاب الدين العمري) نقلها كيفما اتفق إلى اللاتينية ماركو دوبليـو سيترون، أستاذ العربية فى أسـبانيا ولم تنشر ، ولكن أجوســـــتينو إنقجيس داشاكا (١٥٩٥ ـ ١٦٧٧)

(1) *Historia Sicula* ، العشر سنوات الثانية ، الكتاب السادس .

نقل هذه الترجمة إلى الإيطالية وسردها فى حوليات بالرمو (1). وجاء جامباتيستا كاروزو دا بوليتسى عندما كان النقد والوثائق القديمة يمثلان أساسا قويا للبحوث التاريخية، فنشر فى سنة ١٧٢٠ مجموعة كتاب عصر السراسنة فى صقلية باعتباره أول أعماله المهمة حيث أضاف إلى المذكرات السابق الإشارة إليها وإلى مذكرات أخرى أقل شهرة، النص العربى **لتاريخ كامبردج** (2)، الذى اقتنى منه النسخة اللاتينية بفضل أحد المفكرين الانجليز : وقد تمت طباعة هذا النص فى روما، ذلك أن الحروف العربية لم تكن موجودة فى صقلية وكذلك لعدم وجود من يعرف قراءتها.

وهذا ما يدفعنا إلى القول بأن علماء صقلية فى القرنين السابع عشر والثامن عشر لم يحتلوا المكان الثانى بالنسبة لعلماء أحد الأقاليم الأخرى بإيطاليا أو بالخارج فيما يتعلق بدراسة حوليات الوطن. وسوف نتعجب عجبا شديدا من أن أحدا منهم لم يفكر فى تعلم العربية. ومع هذا فإنه فى تلك الحقبة كان فى روما وفى توسكانا وفى لومبارديا من يقوم بما يثير إعجابنا اليوم فى المانيا وفرنسا وانجلترا : كان يتم جمع المخطوطات الشرقية التى كان يحملها الرحالة الإيطاليون، وكان مبعوثو إعلام روما يدرسون اللغات الشرقية، وكانت تنشر عندنا كتب بالعربية والسريانية ؛ وكانت تُعَد متاحف آسيوية ؛ وتُؤلَّف مؤلفات قيمة عن القرآن وعلوم اللغة ومعاجم عربية نذكر منها على سبيل المثال معجم چيچى: أى أن الدراسات الشرقية كانت مزدهرة حتى أن رينودوت عندما أصدر فى سنة ١٧١٣ تاريخ بطاركة الإسكندرية أهداه إلى كوزيمو الثالث دى مديتشى؛ واعترف فى المقدمة أن مستشرقى أوربا كلها فى القرن السابع عشر لم يكن لديهم رأسمال آخر سوى الأعمال

(1) المجلد الثانى، *Palermo Sacro*. (١٦٥٠) ، ص ٦٢٧ وما بعدها.

(2) انظر البيان التحليلى ، الجزء الثانى ، رقم ٧.

التى صدرت عن مطابع فلورنسا . لكن هذه الأعمال كانت غير ذات فائدة لصقلية لأن نتاج الفكر كان ينتقل بصعوبة من مكان صغير إلى آخر فى إيطاليا ، وكان يعبر البحر بصعوبة أكثر . ولم تحصل صقلية كذلك على ثمرة إقدام فرانشسكو ماريا ماچو دا بالرمو ، وهو من "الرهبان القانونيين" (١٦١٢ ـ ١٦٨٦) ، وكان مبشراً تنقّل بين سوريا وإيران وما بين الرافدين وأرمينيا وچورچيا لمدة ثمانى سنوات عاد بعدها مُجيداً للغات العربية والتركية والچورچية حتى أنه كتب مؤلفاته عن قواعد هذه اللغات وأهداها إلى البابا أوربانو الثامن. (1) أما فرانشسكو تارديا دا بالرمو (١٧٣٢ ـ ١٧٧٨) فلا أدرى كيف اصطبغ بصبغة عربية استخدمها فى إصدار نص إيطالى للإدريسى نقله المالطى دومينكو ماكرى.(2) ولم تنشر صوره التوضيحية عن بعض الوثائق العربية التى ترجع للعصر النورمانى، وهى ليست ذات شأن على ما يبدو. وبعد وفاة تارديا وفاة مبكرة دون أن يترك تلاميذ، انتكست الدراسات العربية وعم الجهل بها حتى أن إحدى الكتابات الكبيرة بالخط الكوفى إعتُبرت فى بالرمو كتابة كلدانية نُقشت بعد الطوفان بقليل. وعندما كان علماء البلاد يحتاجون إلى ترجمة عبارات على الشواهد أو النقود فإن أقصر الطرق هى أن يلجأوا إلى أولاو چراردو تيشسن الأستاذ بروستوك، وكان ذائع الصيت، فى فروع فقه اللغة العربية ولكن ليس عن استحقاق فى ظنى.

ونظرا لهذا النقص الشديد، حل فى بالرمو راهب من مالطة يدعى

(1) *Syntagmata Linguarum Orientalium* ، روما ١٦٤٣ وأكثر كتب النحو شمولا هو كتاب قواعد اللغة الچورچية وكان أول أو من أوائل من كتبها فى أوربا هو ماچيو. أما قواعد اللغة التركية والنحو العربى فإنهما يدلان على خبرة كبيرة وعلى دراسات جيدة خاصة انهما مصحوبتان بما يقابلهما بالكتابة السريانية والعربية.

(2) انظر البيان التحليلى، الجزء الثانى، رقم ٢٠.

چوزيبى ڤيلاّ، وكان كاهنا لنظام الرهبانية الأورشليمية، وكان بلهجته تلك التى تختلط فيها لهجة عربية غير صحيحة مع لغة إيطالية رديئة يستطيع فهم لغة العرب بقدر ما يفهم فلاح من روما لغة سيسيرون أو تيتوليفيو دون أن يدرس اللاتينية؛ والأدهى من ذلك أن ڤيلا كان يجهل الحروف العربية ولم يتعلمها إلا بعد سنين عديدة على يد أحد العبيد العرب كان يعيش فى بالرمو. كان ڤيلا قليـل المعرفة ولكنه كان ماكرا، وجســورا وصـفيقا ودجَّـالا حتى أنه كان يمارس المتاجرة بأرقام اليانصيب وبدأ حـرفة جديدة: فقد قـام باصـطناع مخطوطتين دبلوماسيتين، كان يقول إنهمـا مكتوبتان بالعربية، ولكنه كان يعرض نصـهما الإيطـالى فقط، وقد أطلـق على أولاهما **ديوان صقلية**، وفيها زيَّف مكاتبات أمراء الجزيرة مع أمراء أفريقيـــا من الأغالبـة والفـــاطميين، وأطلق على ثانيتهما، **ديوان مصر**، وقال إنه يحتوى على مجموعة مكاتبات أمراء صقلية النورمان وفيها يروون، قضـــاءً لوقت الفراغ، شـئون ديارهم لخلفاء مصر الفاطميين حال احتضار خلافتهم. فجمع المزيف الجاهل فى مخطوطتيه الدبلوماسيتين حوليات ومسائل جغرافية وإحصائية وفى القانون العام لعصرين، ومظـــاهر الأبهة، وكل الحكايات الملفقة التى كانت تبدو له ذات فائدة، هذا بالإضـافة إلى كتـــابات منقوشـــة مزيفة نشـــرها عن القطـــع النقدية والأختام الأصـلية، والقطـع النقدية التى قام هــو بتزييفهـــا، كما تأكد ذلك، وكتب تيتو ليڤيو السـبعة عشـرة المفقودة التى تبـاهى بأنه يحتفظ بنسختها العربية. ولقد اســتمتع لمدة أربع عشرة سنة (١٧٨٣-١٧٩٦) بمظاهر التكريم ورضا الحكام ومنحهم إياه فى النهـــاية كنيسة سان بنكراتسيو الثرية. وعندما تم اكتشاف زيفه حكم عليه القضاة بالسجن فى القلعـة، ولكن الملك جعله يقضى فترة العقـوبة فى ڤيللا أنيقـة كان قد اشتراها من عائد مفاسده وأعيدت إليه مجموعـــة النقود التى جمعها وكانت تتمثل فى٣٦٤ قطعة نقود حقيقية من بينها ٢١٩

قطعة ذهبية. ولكن ينبغى أن نعرف أن أحد أمناء الحكومة كان شريكا أو محرضا على اختلاق **ديوان مصر**، بهدف ادعاء وجود قانون عام صقلى فى القرن الثانى عشر وذلك لتوسيع سلطات الأمير بتقليل سلطات البارونات. (1) وأدان الرأى العام الراهب ڤيلاّ وأدان الحكومة معه، وقد علم بهذه الفظائع، قبل أن يدينه القضاء. وعَّبر ميلى عن هذه الإدانة فى أغنية طريفة فى رباعيات شعرية شعبية...

وبالرغم من هذا فإن تزييف ڤيلاّ هيأ الفرصة لظهور دراسات جيـدة. فقد قـام مونسنيور ألفونسو أيرولدى، كبير أساقفة هراكليا، وهـو رجل نبيل ومثقف عظيم وذو سلطة، إذ كان قاضيا لمملكة صقلية أى مفوضاً للبابا رغما عن البابا، قام بمعاونة ڤيلاّ قبل أن ينكشف زيفه السياسى فى **ديوان مصر**، فأحضر على نفقته حروف الطباعة العربية من مطبعة بودونى بميلانو، واشترى كتبا، ومن مالهأنشأ فى بالرمو كرسى اللغة العربية، واستصدر من الحكومة اعتمادا بمبلغ ألف أوقية سـنوياً أى ما يعادل ١٢.٥٠٠ ليرة إيطالية لإرسال بعثة إلى أفريقيا للبحث عن المخطوطات ولكن هذه البعثة لم ترسل. والأكثر من هذا أن أيرولدى كتب مقدمة جميلة طبعت فى الجزء الأول من **ديوان صقلية** أشار فيها إلى كل مصادر تاريخ مسلمى صقلية المعروفة فى ذلك الوقت.(2) وجمع فى النهاية مجموعة من الزجاجيات وحبات العقيق الأحمر المنقوشة ويبلغ عددها مائة، وكذلك مجموعة من العملات منها ٧٠ عربية والباقى يونانية ورومانية وتنتمى للعصور

(1) أنظر شينا *Prospetto della storia Letteraria di Sicilia nel secolo XVIII,* الجزء الثـــالث، ص ٢٩٦ إلى ٣٨٣، *Lettera di Italinski* فى مجموعـــة *Mines d'Orient* الجزء الأول، ص ٢٣٦؛ والكتيبـــات الألمانية التى ذكرها *Wenrich* فى *Commentarii*، § من الجزء الثامن والعشرين حتى الثانى والثلاثين، ص ٣٦ وما بعدها.

(2) *Codice diplomatico di Sicilia sotto il governo degli Arabi,* نشر بعناية ألفونسو أيرولدى، فى ثلاثة مجلدات، بالرمو ١٧٨٩ - ٩٠ - ٩٢.

المتأخرة، وقد نسقها مورسو ودرسها كما يظهر هذا من أحد خطاباته فى سنة ١٨٢٨. وقد أوصى رئيس أساقفة هراكليا بهذه المجموعة من النقود وبكتب كثيرة لابن أخيه شيزارى أيرولدى، وكان رئيسا لمجلس بلديات صقلية، وقد أهداها جميعا إلى المكتبة البلدية فى بالرمو.

وقد أقدم روزاريو دى جريجوريو دا بالرمو (١٧٥٣ ـ ١٨٠٩) وهو رجل قانون ذائع الصيت ـ لكى يكشف زيف فيلاّ ـ على دراسة العربية على كتاب إربنيو فى النحو وقاموس جوليو وبعد ثلاث سنوات نشر بحثا رائعا عن تاريخ المسلمين مزوّداً بالعديد من الوثائق باللغة العربية *(1)* وبعد أربع سنوات أخرى (١٧٩٠) أصدر مجموعة من الأحداث والذكريات العربية المتصلة بصقلية بشكل أو بآخر، النصوص وترجمتها، وعنوانها، و *Rerum Arabicarum quæ ad historiam Siculam spectant, ampla Collectio.* ونلاحظ، تشريفا لصقلية، أن هذا العمل صدر فى وقت معاصر لصدور المجموعة الدبلوماسية المزيفة. وبالاضافة إلى الفقرات التى أعيدت طباعتها فإنه يشتمل على أجزاء جديدة: النويرى، ومجموعة كبيرة من الكتابات المزدانة بأغصان جميلة، وبعض فقرات من الوثائق. وبالنظر للزمن والظروف التى كتب فيها هذا العمل فإنه ينبغى أن نعترف بأنه نتاج إدارة وجهد عبقرى رائع: ولكننا نعترف فى الوقت نفسه بأنه عمل غير كامل، لأن دى جريجوريو لم يصل، وما كان رجل فى ظروفه بقادر على الوصول، إلى قراءة سطرين من المخطوطة العربية، وإلى التوغل فى الصيغ النحوية وإلى أن يتآلف مع التعبيرات مثلما يحدث اليوم فى مدارس ألمانيا وفرنسا بعد سنة واحدة من الدراسة. وقد كانت معرفة سلفاتورى مورسو دا بالرمو (١٧٦٦ ـ ١٨٢٨)، خليفة فيلاّ فى كرسى اللغة العربية، أفضل شيئا ما من معرفة دى جريجوريو بها؛ فعمل فى دراسة الوثائق القديمة

(1) *De suppulandis apud Arabes Siculos temporibus*، بالرمو ١٧٨٦.

والنقوش والقطع النقدية القديمة الخاصة بالعرب الصقليين؛ وترك لنا بالإضافة إلى العديد من المخطوطات، كتابا نشر (١٨٢٤ و١٨٢٧) بعنوان **بالرمو القديمة**: وفيه وصف المدينة فى القرن الثانى عشر وضمّنه وثائق شائقة ولكنه ـ على ما يبدو لى ـ قد أخطأ الرسم الطوبوغرافى.

كان الصقليون فى ذلك الوقت قد بدأوا مشروع كتابة التاريخ إذ كانوا يعتقدون أنهم قد جمعوا مادته كلها. فقام سافريو سكروفانى دا موديكا (المتوفى فى ١٨٣٥) بكتابته دون تعمق فى **أحاديث عن حكم الأجانب فى صقلية** (باريس ١٨٢٤ *Discorsi su la Dominazione degli Stranieri in Sicilia*) واتخذ منه بيترولانزا، أمير سكورديا واليوم أمير بوتيرا، موضوعا لمحاضرة أكاديمية ألقاها سنة ١٨٣٢: وهى دراسة شابة مختصرة لطبيعة المقام ولكنها أعمق من دراسة الشيخ المحنك سكروفانى. وكتب كارميلو مارتورانا دا بالرمو فى الوقت نفسه **أخبار السراسنة الصقليين التاريخية** *Notizie storiche dei Saraceni Siciliani*، وكان من المقدر لها أن تصدر فى أربعة كتب وفى أربعة مجلدات صدر منها اثنان فقط (بالرمو ١٨٣٢ ـ ١٨٣٣). وإلى جانب اعتماده على *Rerum Arabicarum* استند كذلك إلى المباحث التاريخية والثقافية الشرقية التى نشرت فى إيطاليا وخارجها حتى سنة ١٨٣٠: فأملى مُؤَلَّفا رصيناً ثريا بالمعلومات عن المجتمع الإسلامى مع نقد جيد فى مواضع كثيرة: ولكنه لا يرقى فى رأيي إلى مستوى التاريخ؛ هذا بالإضافة إلى أنه يخلو من تلك الأخبار التى كان يمكن جمعها فى صقلية لو أن المؤلف لم يعد تعلم العربية أمرا ثانويا.

ومنذ ذلك الوقت فإن ما تم كتابته فى صقلية وفى المناطق الإيطالية الأخرى لا يعدو أن يكون فى الفروع الإضافية للتاريخ، باستثناء موجز دافيد برتُلوتى المقتضب **العرب فى إيطاليا**، تورينو ١٨٣٤. ونشر السيد مورتيللارو دا بالرمو، تلميذ مورسو، فقرة من

وثيقة(1)، وعدة كتابات منقوشة على أوان وأختام، وقائمة بالمخطوطات العربية الموجودة فى صقلية وبعض قواعد اللغة العربية وتاريخ المسلمين الخ: مجلد كامل أمتدحُ منه فروع الكتابات فقط فهى مكتوبة بشكل جيد وكذلك المبحث فى قائمة العملات والزجاجيات العربية فى صقلية. (2) وقد يلزمنى أن أصحح بعض الأخطاء التى وقع فيها السيد مورتيللارو هنا وهناك والتى قد تضر بالحقائق التاريخية؛ إذ لايعنينى أن أصحح كل الأخطاء الأخرى التى وقع فيها من لم يدرس هذه اللغة دراسة جيدة. وسأقوم بهذا التصحيح بالرغم منى، لأن الثرثرات الأدبية تصيبنى بسأم مميت ولأنى أخشى أن يُظن أن النقد بسبب عداء. ولكن، مهما كان ما فى نفسى نحو المؤلف، فإنى أعتقد أن الممارسة السياسية لإنسان لا شأن لها بفضله فى دراساته، ولعلى أكون أول من يصفق لهذا الكاتب أو ذاك ولعلى أعاقبه باعتبارى مواطنا بأقسى ما فى القانون، إذا ما دعتنى الأحداث مرة أخرى لتنفيذ القوانين. هكذا فإننى عندما كتبت منذ قليـل عن مارتورانا، فإنى بوصـفى ثائرا لم يرتدع من ثوار ١٨٤٨، نسيت أنـه كان فى ذلك الوقت المسئول عن الشرطة فى بالرمو وأنه سـجن أصـدقائى. وإذا ما عدنا إلى الموضـوع فإنه يبقى لى أن أتحدث عن چوزيبى كاروزر، وهو أسـتاذ للعربية حاليـا فى بالرمو، فقد نشر بشكل لا بأس به وثائق عربية سـبق أن درسـها تارديا، ودى جريجوريو وموريسـو وكانت معرفتهم بالعربية تزيد أو تقل - شيئاً ما - عن معرفته لها.(3)

---

(1) فى *Catalogo dei diplomi ... della Cattedrale di Palermo,* الخ، بالرمو ١٨٤٢.

(2) مؤلفات ڤنشنسو مورتللارو، ماركيز ڤيللارينا، المجلد الثالث. فى المجلد الرابع يوجد شكل توضيحى لإصطرلاب جميل، يجب أن أتحدث عنه بكلمة فى هذه المقدمة.

(3) وثيقتان منهما مودعتان فى *Biblioteca Sacra*، المجلد الثانى، بالرمو ١٨٣٤، ص ٤٠ وما بعدها، والوثيقة الثالثة فى *Tabularium Capellæ Collegiatæ Divi Petri in regio Panormitano Palatio*، حرره جاروفالو، ص ٢٨ وما بعدها.

وختـاما فإننـا ندين لدومينكو سـبينيللى دا نابولى بكتـاب عن العمـلات وهـو يتناول بشكل غير مباشر المراكز الإسـلامية فى صقلية. (1)

وقد قام الأجانب بآخر الأبحاث التاريخية عن هذه المراكز بتشجيع من معهد فرنسا. فبقدر ما كانت عمليات تحضر أوربا تزداد تقدمًا بقدر ما كنا نرى ماهية اللحظة التاريخية التى عاشها مسلمو صقلية. فقد أعلنت أكاديمية النقوش عن جائزة لعام ١٨٣٣ لمن يقدم أفضل بحث عن غزوات المسلمين وحكمهم فى إيطاليا. (2) وقد منحت الجائزة - التى حجبت أكثر من مرة - فى سنة ١٨٣٨ إلى م دى نويرز، أمين مكتبة متحف التاريخ الطبيعى بباريس، على نظرة عامة طبعت فى عدد محدود من النسخ خط فيها المؤلف هذه المسائل: أسبابها ونتائجها ورسم خطتها وبيان فصول كتاب فى جزئين؛ أى السـرد التـاريخى وتأثير صقلية المسلمة على مختلف فروع الحضـارة. ولم يحـرر الكتاب، ولا أعلم إن كان قد كتبـه مؤخرا؛ ولكن من المؤكد أنه لم ينشـره. ولأن م. دى نويرز لا يعرف العربيـة فإنه اكتفى بالمواد المترجمة، التى أضيف إليهـا فى ذلك الوقت باب ابن خلدون عن صـقلية الذى صدر بالعربية والفرنسية وكتب له م. نويل دى ڤيرجى مقدمة مناسـبة وحواش علميـة رائعة. وأسـرع م. سـيزار فامين فى سـنة ١٨٤٣ بطبـع المجلد الأول من *Histoire des Invasions des Sarrazins en Italie* الذى يصـل إلى سـنة ٨٧٨؛ وهـو عمـل

---

(1) عملات كوفية صكها أمراء لونجوباردیون، ونورمان . وسڤيڤيون فى مملكة الصقليين وقد فسرها وأوضحها أمير سان چورچيو دومينكو سبينيللى وقام بنشرها ميكيلى تافورى، نابولى ١٨٤٤، فى مجلد واحد.

(2) ها هى ذى أطروحة الأكاديمية :

Tracer l'histoire des differentes incursions faîtes par les arabes d'Asie et Afrique, tant sur le continent de l'Italie, que dans les iles en dépendent, et celle des établissements qu' ils y ont formés: rechercher quelle a été l'influence de ces événements sur l'état de ces contrées et de leurs habitants.

قليل القيمة ولا أعلم إن كان مؤلفه قد ترك قبل وفاته مخطوطة بتكملته.

وقد أغرت الجائزة المقدمة من المعهد جوفانى جورجيو ونريش، أستاذ أدب التوراة فى فيينا، والمعروف بأبحاثه عن النصوص الشرقية للمؤلفين اليونانيين وعن أصل الشعر العبرى والعربى. وبعد ظهور نتيجة المسابقة أضاف لمسات إلى بحثه الجديد وقدمه للمطبعة فى ليبزج سنة ١٨٤٥ بعنوان: *Rerum ab Arabibus in Italia insulisque adjacentibus....: gestarum, Commentarii.* وقد حرره بلغة لاتينية رشيقة باقتدار وإيجاز وبراعة. وقد استعان المؤلف استعانة كبيرة بكتابات مرتورانا؛ ومزج بين المنهج الذى اتبعه مرتورانا ومنهج م. دى نويرز، وأضاف الأحداث الواردة فى النصوص العربية المنشورة بعد دى جريجوريو؛ ولكنه لم يجر أبحاثاً جديدة فى المخطوطات وبالتالى لم يُزد كثيرا على تراث مرتورانا.

إن المواد التى تم تناولها حتى هذه اللحظة، بعد تنحية المواد اليونانية واللاتينية جانبا، هى : تاريخ كمبردج وجزء للنويرى، وجزء لشهاب الدين العمرى، وجزء لابن خلدون وكثير من تراجم ابن خلكان، والقليل من المعلومات عن تراجم ومراجع كازيرى وبعض الفقرات من ابن الأثير التى وضعها م. دى فرجى على هامش ابن خلدون المذكور. وقد أفاد مرتورانا وونريش، بالإضافة إلى هذا، من كتاب إيطالى من الضرورى أن أشير إليه بكلمة : وهو كتاب **حوليات إسلامية** لرامبولدى. كان هذا الباحث الإيطالى، الذى قضى نحبه فى ميلانو فى سن متأخرة سنة ١٨٣٦، قد قام فى شبابه برحلات طويلة فى المشرق، ولم أستطع أن أجمع معلومات عنها أو عن أحداث حياته الأخرى بالرغم من الجهود التى بذلها بعض الأصدقاء فى ميلانو بهذا الصدد. ومن خلال كتاباته أجد أنه أقام فى الشام وفى القاهرة فى سنة ١٧٨٤، وفى القاهرة أيضاً سنة ١٧٨٥، ولا أعلم

تاريخ اقامته فى سميرنا (1): وعلى كل حال فإنه من المحتمل جداً أنه كان يعرف العربية العامية ولا أعتقد أنه كان يعرف اللغة العربية الكلاسيكية الفصحى معرفة متعمقة لأنه يُظهر أحياناً جهله بأيسر الأشكال النحوية وجذور الكلمات واشتقاقاتها، وأذكر على سبيل المثال كلمة شيخ التى يرجعها إلى كلمة شاه (ملك) الفارسية. والأكثر من هذا أنه كثيرا ما استقى أخباره من النصوص الأوربية وليس من النصوص الأصلية فهو يكتب الألفاظ العربية حسب نطقها بالفرنسية تارة وبالإنجليزية تارة أخرى وليس بالإيطالية إطلاقاً مثل جامع *djeami* بدلاً من *giami* ويكتب *Jamabi* و *Joafar* وهما اسما علم بدلاً ما أن يكتبهما *Giafar* و *Giannabi* الخ ولا ينبغى أن نأخذ مأخذ الجد العدد الكبير من الاستشهادات التى يورد بها أسماء مؤلفين عرب وفرس بينما هو لا يميز بين الأسماء التى ذكرها هو وبين الأسماء الواردة فى استشهادات الآخرين. ولا يأتى رامبولدى دائما باستشهادات بالنسبة لأحداث صقلية المتناثرة فى الحوليات؛ ويذكر أحياناً اسم النويرى ويقول بعكس ما يقول تماما، وأحيانا ينقل عن **تاريخ كمبردج** دون أن يشير إليه أيما إشارة، وفى حالة واحدة يرجع بشأن اشتباكات سنة ٨٨٧ بين المسيحيين والمسلمين إلى نيجيارستان ويكتبه نيجارستان. وهو كتاب قصص كُتب بالفارسية فى القرن السادس عشر وتوجد منه مخطوطات عديدة فى باريس، وطبعة ليتوغرافية صادرة فى كلكتا : ولكن لا يوجد فيه شئ عن صقلية، كما يؤكد لى العالم المستشرق م. دى فريمرى الذى رجوته أن يتصفحه لأننى لا أعرف الفارسية. أما أحداث المناطق الإسلامية الأخرى، كما استطعت أن أرى، فلم تتم معالجتها بدقة. وعلى كل حال فإن هذا العمل الضخم الذى يقع فى اثنى عشر مجلداً ويقدم ملاحظات

---

(1) *Annali musulmani*، المجلد الثانى، ص ٣٤٠، فى وصف حلب؛ المجلد الثانى، ص ٣٨٦، والمجلد الثالث، ص ٣٨٨ و٤٦٣.

محلية رصينة وكثيراً من العلم والأفكار والفلسفة وربما أحداث جديدة لا يجدى البحث عنها فى كتاب آخر، أقول إن هذا العمل سيبقى بلا فائدة إذ لا نعلم فى كثير من الأحيان إن كانت القصص مأخوذة من مصادر جيدة وإن كان المؤلف يأتى باستشهادات صحيحة أم أنه يضيف اليها من عنده أشياء يتذكرها بشكل مضطرب أو تبدو له ضرورية لاستكمال إشارة الرواة. وربما يمكن الوصول إلى القصد من حوليات رامبولدى لو أن المخطوطات العربية والفارسية التى تركها، والتى لم أستطع التوصل إلى عددها أو كنهها أو مكانها، وقعت بين يدى مستشرق على قدر عال من الكفاءة. عندئذ سوف نرى بوضوح هذا المزيج من العناصر. وبهذا فإنى وجدت نفسى مضطراً أن أرفض تماما رامبولدى بوصفه مصدرا تاريخياً.

والآن نأتى إلى مؤلفاتى. فعندما وصلت إلى باريس مضطهداً بسبب كتابى الغروب الصقلى وفى السنة الثانية عشرة بدا لى أنه لزاما على أن أسعى لكتابة تاريخ مسلمى صقلية، ظنا منى أن من بين كثير من الرجال الأقدر منى، إيطاليين وأجانب، ما من أحد يمكنه أن يجمع بين الغيرة والمعارف المحلية مثلما يتحلى بها صقلى، هذا إلي جانب الإمكانات الكبيرة التى كانت توفرها لى الإقامة فى باريس. ولأن الطريقة الوحيدة للنجاح فى مقصدى كانت هى البحث عن مادة جديدة فإننى لم أتوان فى المراهنة بعشر سنوات من المشقة فى البحث والتنقيب عن الأمور القديمة. تعلمت العربية فى باريس، وقارنت بين نصوص دى جريجوريو والمخطوطات الأصلية، وأخذت فى جمع شذرات تاريخية، ووصف جغرافى، وتراجم، والأعمال النثرية والشعرية لعرب صقلية، وعناوين أعمالهم المفقودة وكل ما كتب بالعربية بيد صقليين أو عرب عن صقلية وسكانها. ووجدت بنفسى مادة غزيرة فى المخطوطات العربية المحفوظة فى باريس وأكسفورد ولندن وليدن : وحصلت على مادة غزيرة أخرى بفضل أصدقاء لى من ليدن وكمبردج وهيدلبرج ومدريد وبطرسبرج

وتونس وقسطنطينة، والبعض الآخر خرج إلى النور بدءا من سنة ١٨٤٢ وحتى الآن : وإذا كنت لم أستطع التنقيب فى كل مكتبات ألمانيا وإيطاليا وأسبانيا، فإن الفهارس المطبوعة تؤكد لى أن الأمل فيها كان ضئيلاً أو غائباً. إن هذه المادة، بعد استبعاد الشعر الذى ليست له أهمية تاريخية، سوف تكوّن مكتبة عربية - صقلية، بدا لى أنها تيسر الحصول على كتابات مؤلفين عرب عن تاريخ صقلية فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر ولو أنها لا تعالج موضوع مسلمى الجزيرة. أما عن طباعة النصوص، وهو عمل لا يقوى عليه مؤلف فقير أو بائع كتب من إيطاليا ولا من فرنسا أو إنجلترا، فقد تكفّلت به بكل همة وحب للأدب الجمعية الشرقية بألمانيا التى طلبت منها هذا فاستجابت لطلبى بكل ترحاب بفضل اهتمام الأستاذ العلامة فليشر من ليبزج، وقامت بنشر نظرة عامة لمجموعتى هذه. وسوف تطبع النصوص على نفقة هذه الجمعية العلمية فى جوتينجا فى مجلد واحد.

أما النص الإيطالى فسوف يطبع فى مجلدين ويُذَيَّل الجزء الجغرافى منه بحواش مستقاة من وثائق القرن الحادى عشر وما بعده وسوف ينشر فى إيطاليا، كما أتمنى، متسلسلاً مع المجلد العربى بحيث يمكن بيعه معه أو دونه. إن دوق لينز، الحاصل على وسام الاستحقاق من إيطاليا لنشريات ماتيو دا چوفناتسو وآثار النورمان والزفيفيين فى مملكة نابولى والمدونة الوثائقية للإمبراطور فدريكو الثانى وللعمل الضخم الذى يقوم به عن النقود القرطجينية فى صقلية، قد تفضل بالموافقة على إعداد خريطة مقارنة لصقلية مرتبة على هذا النحو : أن يتم بعنايته تصحيح خريطة مكتب صقلية الطوبوغرافى فى أربع ورقات، وأن يضع هو عليها الأسماء القديمة، وأن أضع أنا عليها الأسماء العربية المستقاة من الإدريسى ومن مصادر أخرى، وأن يتم طباعة الخريطة بلونين بحيث يمكن التمييز للوهلة الأولى بين المواقع الحالية، ومواقع

القرن الثانى عشر والمواقع القديمة. وقد تبرع عالم الآثار الفرنسى بسخائه المعهود بأن نقش هذه الخريطة على نفقته الخاصة.

وكما أشرت فإن الشعر الذى لا يتصل بأحداث تاريخية لن يكون له مكان فى المكتبة العربية الصقلية، وكذلك أخبار المخطوطات العربية عن صقلية والوثائق والنقوش والنقود. أما بالنسبة لأخبار المخطوطات التى قد تحتل مجلداً أو مجلدين فقد نسختهما: ولكن لن يكون من اليسير إيجاد وسيلة لطباعتهما ولا أتعجل هذا. أما الباقى فهى أعمال فى مسوداتها الأولى، وعليَّ أن أعيد كتابتها فى صقلية. هذا هو حال فهرست مخطوطات مكتبة لوكيزيانا فى چرچنتى، ومكتبة اليسوعيين فى بالرمو، ودير سان مارتينو بالقرب من بالرمو، ومكتبة ڤينتيمليانا فى كتانيا ومجموعها خمسون مخطوطة طبقاً للقائمة التى أرسلها السيد مورتيللارو للكردينال ماى.(1)

ولابد من البدء فى العمل فى مجموعة الوثائق العربية فى عصور النورمان وأغلبها غير منشور، ونَشَر القليلَ منها وبشكل غير مرض تماماً دى جريجوريو، ومورسو، وچوزيبى كاروزو، ومورتيللارو؛ وهناك وثيقة واحدة نشرت بشكل صحيح وهو ما ندين به ل م. دى ڤرچى. (2) وينبغى البحث عن الوثائق فى دير موريال، وكاتدرائية بالاتينا وكنيستها، وكومندا ديلا ماچّونى فى بالرمو، وفى مقار أسقفيات كتانيا وچرچنتى وباتّى وتشيفالو وفى جميع دور المحفوظات الأخرى الكنسية والعامة؛ كما ينبغى الرجوع إلى النسخ التى قد توجد مصادفة بالمكتبات: وهو عمل يتطلب وقتاً وتكلفة وصبراً على المتاعب وخبرة فى قراءة المخطوطات العربية

(1) مورتيللارو، **الأعمال الكاملة**، المجلد الثالث، ص ١٨٩ وما بعدها.

(2) *Journal Asiatique*, اكتوبر ١٨٤٥، ص ٣١٣ وما بعدها، وقد ترجمته إلى الإيطالية ويوجد فى المحفوظات التاريخية الإيطالية، ملحق رقم ١٦ (١٨٤٧).

وحرية فى التنقل فى أنحاء صقلية. وبالمثل فإن نقوش شواهد المقابر أو الأوانى، والجواهر والرايات المخملية التى نشرها دى جريجوريو، ومورسو، ولانشى، ومورتيللارو والنقش الذى نشرته أنا وكثيراً غيرها لم ينشر تحتاج كلها تقريباً إلى تحقيق ومعاينة من جانب عيون مدرّبة والبحث عن نقوش أخرى على المبانى وفى المتاحف والمنازل. وبالنسبة للعملات القديمة فإنه ينبغى استكمال العمل الذى بدأه مورتيللارو والذى واصلته أنا وسبق أن ذكرته. أى أنه ينبغى فحص مجموعات نقود وزجاجيات اليسوعيين وجامعة الدراسات فى بالرمو التى وهب لها الفارس بولى حوالى ثلاثمائة قطعة، ومجموعة مونسنيور أيرولدى التى وهبها للمكتبة المحلية، والمجموعات الخاصة الأخرى ؛ وينبغى توسيع البحث ليشمل أرجاء الجزيرة كافة، وتمييز العملات الأصلية من المزيفة ومقارنتها بالفهارس التى قام بطباعتها كاستيليونى فى ميلانو، وسبينيللى فى نابولى وفى الخارج تيشسن، والبحث فى النهاية فى كل المجموعات الكبرى بأوربا، وهو ما قمت أنا به فى باريس فقط. وللضرورة فإنى أترك لغيرى أو لوقت آخر هذه الأبحاث التى لن يخرج منها التاريخ إلا ببعض الأسماء أو التواريخ التى تكشف عنها قطع النقود والنقوش، وبعض شئون القانون العام وبعض أسماء الأعلام وأسماء الأماكن الطوبوغرافية التى تزودنا بها وثائق القرن الثانى عشر وكذلك بعض الأفكار الفنية أو الفيلولوجية.

من هذه الطائفة من المواد استبعدت خبرين نقلهما مورتيللارو أحدهما يتعلق بأبى قنوم بن محمد بن عثمان من سجستان، مؤلف **كتاب النخل**، وهى مخطوطة ترجع إلى سنة ١٠٠٤ ميلادية وهى من ممتلكات دير سان مارتينو بالقرب من بالرمو. (1) وهذا العنوان وهذا الاسم ينبغى تصحيحهما بكتاب **النّحْل والعَسَل** لأبى حاتم سهل

(١) مورتيللارو، **الأعمال الكاملة**، المجلد الثالث، ص ١٩٠.

ابن محمد من سجستان (1)، وهى منطقة فى فارس وليست سجستا والتى تم تدميرها فى صـــقلية قبل الفتح الإسلامى بقرون كثيرة. ولهذا فلابد من استبعاد السجستانى من عداد الكتاب العرب الصقليين والذى وضـعه بينهم أحد محـــررى جريدة العلـوم والآداب، التى كانت تصدر فى بالرمو منذ وقت تحت رعـــاية الشـرطة وكان يديرها مورتيللارو. (2) وينبغى كذلك استبعاد حامد بن على الذى ظن مورتيللارو أنه صقلِّى دون أن يؤكد ذلك لوجود اسمه فى شكل توضيحى لإصطرلاب جميل من النحاس موجود فى بالرمو (3)، ورسمه حامد المذكور سنة ٣٤٣ هجرية (٩٥٤ ـ ٩٥٥) ونُقِل ـ كما أظن ـ على المعدن بعد ذلك بعدة قرون (4) حتى يستخدمه شرف الدين أحمد بن مُنجا بن ناجى بن محمد من قبيلة سعد، وقد وُلِد وعاش فى زنكلون فى أرض مصر.(5) إن اسم المؤلف صحيح وكذلك الفترة التى عاش فيها لأن عالم الفلك ابن يونس الذى قضى نحبه سنة ١٠٠٨ يذكر من بين أشهر صانعى الإصطرلاب حامد بن على هذا، ويضيف من الواسط، وهكذا يلغى أى خلاف حول موطنه.(6)

وبعد أن جمعت المادة ودرستها، دون ندم على تأجيل بعض منها قد يكون مؤثراً، كتبت التاريخ وهو الهدف من هذه الأبحاث. وها أنا ذا أبدأ فى نشره قبل المكتبة العربية الصقلية حتى أنى أقدم منه اليوم المجلد الأول، وأنوى طباعة المجلدين الآخرين فى وقت متزامن مع

---

(1) حاجى خليفة، إصدار فلوچل، المجلد الخامس، ص ١٦٣، رقم ١٠، ٥٦٨.

(2) *Giornale di Scienze e Lettere per la Sicilia*، العدد ١٣٧ (مايو ١٨٣٤)، ص ١٨ من الفصلة الملحقة عن **معجم التراجم**.

(3) مورتيللارو، **الأعمال الكاملة**، المجلد الرابع، ص ١١٠ وما بعدها.

(4) لم يكن لقب شرف الدين مستخدماً فى القرنين العاشر والحادى عشر، ولكن تنفيذ الرسم على النحاس يرجع إلى القرن الثانى عشر والثالث عشر. وبالإضافة إلى هذا فإن شرف الدين هذا لم يكن بالتأكيد أميراً ولكنه كان أحد العلماء.

(5) انظر هذا الاسم فى لب اللباب للسيوطى.

(6) *Notices et Extraits des MSS*، المجلد السابع، ص ٥٤، ٥٥.

إصدار تلك المجموعة. واستخرجت الأحداث بداية من الكتاب العرب السبعين، وأغلب أعمالهم لم تنشر، الذين تضمهم المكتبة، وسوف تقرءون أسماءهم وإشارات عن تراجمهم والمراجع الخاصة بهم فى الجزء الثانى من الجدول التحليلى فى نهاية هذه المقدمة. وبهذا يستطيع القارئ أن يحكم على المراجع العلمية التى نستشهد بها على مدار العمل. وتحتل مكانة أولى بينها **رياض النفوس**، **وتاريخ كامبردج**، وعماد الدين، وابن الأثير، **والبيان**، والنويرى، وابن خلدون، والتيجانى، وابن حوقل، والإدريسى، وابن جبير. ومن بين السبعين هناك من استقيت منه مائة صفحة ومن آخر سطرين أو ثلاثة، وهناك من استقيت منه أحداثاً جديدة ومهمة وعن آخر تكرار مُمِل أو قصص لا يستقيم لها عود أمام النقد. ويشتمل القليل منها على روايات مبكرة نظراً لضياع أفضل مؤلفات المسلمين التاريخية عن صقلية حتى لم يتبق منها سوى أسماء عشرة مؤلفين ذكرتها فى الجزء الأول من الجدول. وبالرغم من هذا فإن عادة كتّاب الحوليات العرب فى نسخ الأحداث التاريخية مع بترها هنا وهناك بدلا من أن يعيدوا صياغة الأحداث حسب أساليبهم، حفظ لنا جانباً من الكتابات الأولى. وبصفة عامة فإن عرض الأحداث وكتابة الحوليات عند العرب تهتم بالتواريخ وتشير إلى الأحداث بدلاً من أن ترويها؛ وتنقصها النظرة النقدية، ولا تروى الأسباب أو النتائج أو الأحداث العَرَضية التى تظهر فيها ميول أبطال الأحداث وملامحهم وعواطفهم.

وتستثنى من هـــذا بعض التراجم. إن من يعمل على مواد من هذا القبيل ويريد كتابة التاريخ بمفهومه اليوم، يتوقف عند كل خطوة لأنه يضطر إلى التخمين والافتراض والتشكك وكثيراً ما يستدرج لتقليد مسار الأصول الرتيب. ولحسن الطالع فإن اتجاه القرن الذى نعيشه نحو الأعمـــــال التاريخية ســـاعد منذ ثلاثين ســـنة وحتى الآن على نشـــر نصـــوص كثيرة وتعليقـــات علمية بفضلها نفهم فهماً تاماً النظم السياسية، والقوانين المدنية والجنائية والشرعية، وميول

الطوائف الدينية، وأحداث العلوم والأدب، أى كل الأحداث العامة لتاريخ المسلمين : وهذا يملأ كثيراً من ثغرات الحوليات. ومن بين هذه المؤلفات أذكرفقط الأحكام السلطانية للماوردى، وهو مبحث أساسى فى القانون العام، قمت بدراسته فى مخطوطته بباريس والآن أصبحت دراسته أيسر وأفضل بعد أن قام بنشره فى العام الماضى الدكتور إنجر فى بون. وقد أفدت كذلك إفادة كبيرة من مخطوطات باريس لابن عبد ربه، وابن القوطية، وابن الأثير، وابن خلدون وغيرهم.

ليست هناك ضرورة أن نقدم جدولاً تحليلياً للكُتاب البيزنطيين واللاتين. ومن بين البيزنطيين فضلت الكُتاب الأصليين على الناسخين؛ ولكنى فضلت **تتمة تيوفان**، التى تصحبنا طويلاً فى هذا التاريخ، على شدرينو، الذى اقتفى أثره بعض المحدثين ولا أعلم سبباً لتفضيلهم إياه. وغالباً ما استخدمت تقريباً نشريات بون باعتبارها أحدث نشريات. وبالاضافة إلى المؤلفين الذين كانوا بين أيدى مرتورانا وونريش، فإن كتاب إوستازيو، رئيس أساقفة تسالونيكى صار فى متناول الجميع، وهو يتناول فتح تلك المدينة على أيدى الجيوش الصقلية سنة ١١٨٥؛ وفيه نجد تفاصيل كانت مجهولة من قبل وبعضها يتعلق بالمسلمين الذين بقوا فى صقلية. أما فيما يتعلق بالكُتاب اللاتين الذين رأت مؤلفاتهم النور بعد موراتورى، فإننى قد أفدت من **أخبار** چوڤانى دياكونو دى فنيسيا والتى قام بنشرها تزانيتّى ومن بعده برتز ومن **أخبار** الراهب أماتو التى توضح بدرجة كبيرة أحداث الغزو النورمانى التى نقلها شامبليون؛ ومن **أخبار** بندتّو راهب سان أندريا، فى كتاب برتز؛ ومن **أخبار** منجونى، فى **المحفوظات التاريخية الإيطالية**، ومن الشعر اللاتينى حول عملية قوات بيزا وچنوه فى المهدية سنة ١٠٨٨التى بشأنها أفدت من طبعة م. دى مريل. ولكى أكون واضحاً، فإننى قد أهملت الأخبار الزائفة فى *Chronici Napolitani Fragmenta*; وفى

Chronicon Arnulphi monachi والتحريفات التى أدخلت على **أخبار** كافا، وكلها تحريفات أدخلها فرانشسكو براتيللى وهو باحث من نابولى من القرن الماضى اقترف هذا التدليس المعيب لرغبته فى التبارى مع موراتورى. وقد وفَّرَت لى بعض سير القديسين اليونانية واللاتينية والتى تم تمحيصها بحذر واجب، أحداثاً جديرة بالثقة. ومن بين الكتابات اليونانية أذكر حياة القديس يوحنا الدمشقى؛ والقديس إغناطيوس بطريرك القسطنطينية، والقديس نيلو الچوڤانى؛ ومقتطفات من حياة القديس نيتشيفورو أسقف ميليتو نشرها م. هاس فى حواشى سيرة چوڤانى دياكونو كالونسى؛ ومن بين النصوص اللاتينية تلك المدونة فى كتاب جيتانى وفيه تقدم مجموعة بولاّنديستي أحياناً النصوص اليونانية كما تهتم بتصحيحها. وقد ساعدتنى وثائق صقلية اليونانية واللاتينية بشكل خاص على دراسة أسماء الأماكن وهو ما كان ضرورياً لمعرفة المدن والقرى فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر التى صارت مهجورة جزئياً بعد إبعاد المسلمين مما أضرَّ بالزراعة فى صقلية ضرراً بالغاً، لم يتم إصلاحه بعد سبعة قرون. وبالإضافة إلى مجموعات بيرّى ودى جروسّيس، وليللو ومونچيتورى وغيرهم، استقيت هذه الوثائق من قوائم بعض الكنائس المطبوعة ومن الصحيفة الكنسية لصقلية ومن *Historia Diplomatica Federici Secundi imperatoris* الذى أصدر منه م. هويللارد - برهولّز خمسة مجلدات على نفقة دوق لينز. وفى النهاية أخذت بعض مقتطفات من تاريخ الأدب من المخطوطات اللاتينية الموجودة بالمكتبة الإمبراطورية بباريس رقم ٧٣١٠ و٧٢٨١ و٧٤٠٦ ومكتبة سان چرمان ١٤٥٠. وأولى هذه المخطوطات الذى قام هومبولدت (1) بدراسته فى وقت ما هو ترجمة لكتاب **الضوء** لبطليموس قام بها عن النص العربى أوچينيو أدميرال

(1) انظر الترجمة الفرنسية "*Cosmos*"، باريس ١٨٤٨، المجلد الثانى، ص ٥١٩.

مملكة صقلية الذى ترجم كذلك عن اليونانية النبوءات المنسوبة لسيبيليا إريتريا التى توجد منها ثلاثة مخطوطات فى باريس. أما المخطوطتان السابق ذكرهما رقم ٧٢٨١ و٧٤٠٦ فإنهما محررتان باللغة اللاتينية بقلم چوڤانى الصقلى عن اللوحات الفلكية المشهورة والمعروفة باسم لوحات الفونسو الفلكية من أعمال اليهودى ارزاكيلى الطليطلى. ولچوڤانى الصقلى نفسه، أو لآخر يحمل الاسم ذاته، المخطوطة١٤٥٠ سان جرمان، وهو مبحث فى علم البلاغة.

وفى بداية الكتاب الأول نعرض لموضوع هذا العمل وتقسيمه على أساس الترتيب الزمنى. وهذا المنهج لا يتفق مع منهج أكاديمية النقوش الذي اتبعه ونريش. فقد أردت من ناحية أن أقصر المجال على صقلية، فإن حروب المسلمين فى إيطاليا من القرن السابع وحتى القرن الثانى عشر تمثل طائفتين من الأحداث، أولاهما موضوعها هو التاريخ الخاص، أما الأخرى فلا، بل إن هذه الطائفة الأخيرة لا يمكن ان تتفق مع تلك اللهم إلا فى الحوليات العامة لإيطاليا. الطائفة الأولى تتناول الحرب، حرب الاجتياح ثم الفتح، التى كانت تنطلق من أفريقيا. وتؤدى إلى استقرارالمراكز الإسلامية فى صقلية، وتسعى للاستيلاء على شبه الجزيرة عبر مضيق مسّينا وحتى نهر التيبر وتترك مع الخراب المروع شيئاً من الحضارة. أما الطائفة الثانية فتتكون من غارات إسلامية أقل شأناً تارة من أفريقيا وتارة من أسبانيا، وقد أصابت سردينيا وكورسيكا والساحل بدءاً من مصب نهر التيبر وحتى جبال الألب المطلة على البحر: وهى غارات متنوعة لا طائل منها. ولهذا أشرت إليها إشارة عابرة أثناء الحديث عما قام به المسلمون فى صقلية. ولكنى رويت باستفاضة تامة أحداث جنوب إيطاليا لأنها مرتبطة بأحداث صقلية.

أما من الناحية الأخرى فإننى لكى أعرض مختلف ظروف الحياة فى الجزيرة قبل الفتح الإسلامى كان لزاماً علىّ أن أبدأ بالعصور القديمة التى كانت أصل هذه الظروف : وهو ما لم يفكر فيه العلماء الأجانب الذين مدحناهم من قبل. وبعد حكم المسلمين لمست الوقائع الأساسية لملوك صقلية النورمان ولأول اثنين من أسرة زڤيڤيا، ولقد كتبت هذا عن طيب خاطر بقدر ما كانت النصوص العربية توفر لى تفاصيل مجهولة عن الفترة السابقة. ولقد توقفت عند إبعاد مسلمى صقلية إلى بوليا إذ بدا لى أنه لا معنى لأن أكتب أحداث مستوطنة لوتشيرا معتمداً على إشارات واهية جاء بها رواة الأخبار بينما هناك مئات من الوثائق عن هذه المستعمرة دفينة فى سجلات الأنجونيين بنابولى : إذ أنى رأيت بنفسى الكثير منها سنة ١٨٤٠ واستخدمت كثيراً منها فى كتابتى عن حرب غروب صقلية. فإذا ما حدث ذات يوم أن فتحت محفوظات نابولى أمام الباحثين فإن غيرى، أسعد حظاً منى - سوف يستأنف هذا العمل. ثم إنى رتبت المواد ترتيباً آخر. فقد كان من سبقونى يذكرون الأخبار من بدايتها وحتى نهايتها ثم يبدأون من البداية لكتابة التاريخ التشريعى، والدينى، والأخلاقى والأدبى والفنى والاقتصادى ؛وبدلاً من أن أقلدهم، بدا لى من الأفضل أن أقدم أعمال أى طبقة من الطبقات كلما تطورت وعملت. ولذا فإنى كثيراً ما توقفت عن الحديث عن الحروب والأحداث السياسية ، لكى أصف المظاهر الحضارية والثقافية التى كانت تمثل نتائج هذه الحروب والأحداث وأسبابها. وبدلاً من أن أتناول الخطوط العديدة للروايات واحدا بعد الآخر فإننى قسمتها إلى عصور ورتبت الأقسام ترتيباً بحيث يتوازى كل قسم مع الآخر وذلك رغبة منى، بقدر ما استطعت ودون أن يؤدى هذا إلى أى لبس، فى اتباع الترتيب الزمنى وهو ما يبدو لى منطقياً أكثر من أى منهج آخر. وفى نهاية المجلد الثالث سأضع فهرساً

بأسـماء الأشخاص والأماكن وقائمة بأسـماء المؤلفين المذكورين فى المؤلَّف حسب الترتيب الأبجدى وسـأشير إلى المخطوطات التى أفدت منها.

وبالنسـبة للأسـماء والكلمات العربية فإني كتبتها بحروف لاتينية بنقـل الحـروف والإشـارات فى الأبجدية العربية الشرقية كما يلى :

١ـ الف ـ a الإيطالية
٢ ـ باء ـ b الإيطالية
٣ ـ تاء ـ t الإيطالية
٤ ـ ثاء ـ th الانجليزى
٥ ـ جيم ـ g الإيطالية
٦ ـ حاء ـ h اللاتينية
٧ ـ خاء ـ kh الإيطالية
٨ ـ دال ـ d الإيطالية
٩ ـ ذال ـ ds الإيطالية
١٠ ـ راء ـ r الإيطالية
١١ ـ زاى ـ z الإيطالية
١٢ ـ سين ـ s الإيطالية
١٣ ـ شين ـ sc أمام الحركتين e ، i و sci أو sce أمام الحركات الأخرى، بالنطق الفرنسى نفسه لـ ch والإنجليزى لـ sh
١٤ ـ صاد ـ s الإيطالية
١٥ ـ ضاد ـ dh الإيطالية
١٦ ـ طاء ـ t الإيطالية
١٧ ـ ظاء ـ z الإيطالية
١٨ ـ عين ـ صوت خاص نشير إليه بـ ›

١٩ ـ غين ـ gh الإيطالية
٢٠ ـ فاء ـ f الإيطالية
٢١ ـ قاف ـ k الإيطالية
٢٢ ـ كاف ـ k الإيطالية
٢٣ ـ لام ـ l الإيطالية
٢٤ ـ ميم ـ m الإيطالية
٢٥ ـ نون ـ n الإيطالية
٢٦ ـ هـاء ـ h وعندما تكون فى نهـاية الكلمة فإما أن تهمـل أو تكتب t.
٢٧ ـ واو ـ w الإنجليزية
٢٨ ـ ياء ـ i الإيطالية

أما الفتحة فإنى أكتبها e، و â عندما تأتى بعدها ألف مد ـ
والكسرة فإنى أكتبها i و î فى حالة المد
والضمة فإنى أكتبها o و û فى حالة المد

ويبقى أمامى الآن أن أذكر مساعدات الآخرين لى. فإنى أدين للسيدين رينو وهاس وأولهما أستاذ للغة العربية والثانى لليونانية الحديثة فى مدرسة اللغات الشرقية الحية بباريس بكل ما أعرفه من هاتين اللغتين ومن علم قراءة المخطوطات فى كل لغة من اللغتين المذكورتين؛ كما أنى أدين لهما بأنهما وجهانى لدراسة التراث الإسلامى والبيزنطى كما أنهما قادانى فى بحوثى على المخطوطات والكتب المطبوعة. ولقد قدم لى البارون ماك ـ جوكين دى سلان وهو مستشرق علامة نصـائح فى هذا الاتجاه. ولقد ساعدنى الأسـتاذان اللذان شـكرتهما سابقاً فى كل وقت وبكل مودة بل ومحبة على تفسير بعض فقرات النص أو فى التصدى لصعوبات شديدة أخرى.

قلت سابقاً إن آخرين كانوا يوفرون لى نسخاً عن كثير من النصوص العربية. وأعترف بهذا الفضـــل لصديقى الدكتور دوزى قبـل غيـره وهو حالياً أستاذ التــاريخ فى جامعة ليدن، فقد أخذ من تلك المجموعة الكبيرة من المخطوطات التى كان يدرســـها كل ما كان يمكن أن ينفعنى فى تحقيق هدفى. كمـا تفضل م. ألفونس روسو، المترجم الأول للمفوضية الفرنسية فى تونس، بإرسال مستخلصات أخرى من النصوص، وكذلك فعل الدكتور ويل، أمين المكتبة فى هيدلبرج؛ والأستاذ جَيَنجوس بمدريد؛ وم. شربونّو أستاذ اللغة العربية فى قسطنطينة، والسيد رايت؛ والكونت مينيسكالكى داڤيرونا وهم من علماء الأدب العربى ذوى الجدارة. ومن بين غير المستشرقين فقد وفّر لى كونت سيراكوزا فى سنة ١٨٤٦ نسخة من إحدى مخطوطات مدريد؛ وتدخل دوق سيراديفالكو فى السنة نفسها لكى تعار لى مخطوطة من بطرسبرج، فأرسلت إلىّ فى باريس من خلال مفوضية روسيا بكرم لابد أن أشكر عليه تلك الحكومة، رغم معتقداتى السياسية التى ليس هناك ما يدعو لتكرارها هنا. وقد حمل لى المهندس الألمانى السيد هونجر وهو قادم منذ عدة سنوات من تونس إلى باريس فقرات أخرى من النصوص نُسخت لحسابى. وقد حصلت فى سنة ١٨٤٦ على صورة من أحد نقوش صقلية وبعض الأخبار المرجعية بفضل أمير جراناتيللى المثقف الذى أدين له كذلك بدلائل الصداقة العميقة. وقد سمح لى دوق سيّراديفالكو وهو المعروف بأعماله الأثرية بأن أنسخ صوراً لنقوش أخرى كما حصلت على البعض الآخر منها من صديقى المهندس والأثرى ساڤريو كڤالاّرى. ولابد أن أشير كذلك إلى أخى وصـــهري جوزيبى دى فيورى، لمختلف الأخبار التى جمعها لى فى صـقلية. وللباحث فى الشـئون الهيلينية الصـقلى بيترو مترانجا لحصـــوله على

مقارنة نص عربى فى مكتبة الڤاتيكان؛ والسيد باور أمين المكتبة فى كمبردج، وللمرحوم صمويل لى الأستاذ بتلك الجامعة لأفضالهم علىّ فى إطار مشابه.

وبينما كنت أدرس فى باريس تم تجديد وظيفتى فى وزارة بالرمو وكان راتبى من هذه الوظيفة هو المورد الوحيد لمعيشتى وقد ساعدني أصدقاء كُثر بالمال فى الفترة من ١٨٤٤ وحتى ١٨٤٦ على أن أرد لهم هذه المســاعدة من عائد هذا العمـــل. وقد ساعدونى حباً لى وحماســـاً لعمل يتمنون أن يوضح تاريخ البلاد : وإذا كان بعضهم يشاركنى آرائى السياسية نفسها وكان البعض الآخر يقترب من هذه الآراء، فإن آخرين لم يكونوا مرتبطين بى إلا بصداقة شخصية. إن هذه الجمعية لم تكن أبداً ذات اتجاهات أو أهداف سياسية ولو بالتظاهر فقط. لقد أسس هذه الجمعية بارون فريدّانى وشيزارى أيرولدى الذى سبقت الإشارة إليه؛ وأيدها فى صقلية مريانو ستابيلى، وهو صديق صباى، وأمير جرانتيللى وأصدقاء آخرون ولقد تكفل ستابيلى بتحصيل الأموال فى صقلية وكان يرسلها إلىّ سواء جمعها أم لم يجمعها. وقد قبلت هذا العرض. واشترك كل من شيزارى أيرولدى، وماسّيمو داتزليو، والسيدة كاربى، وبارون فريدّانى، وعائلة جرجاللو، وجوڤانى ميرلو، ودومنيكو بيرانّى، والمركيز روڤّو، ودوق سامّارتينو، وأمير سكورديا، وكونت سيراكوزا، ومريانو ستابيلى، والسيد ترويزى، وصديقى الحميم سلڤاتورى ڤاجو الذى شجعنى منذ البداية وقبل هذا بسنوات طويلة على الدراسات التاريخية. والأسماء التى ذكرتها مرتبة حسب الترتيب الأبجدى. ولم يقدم كل منهم المساهمة المالية نفسها : إذ إن منهم من قام بسدادالأنصبة الخمسة بكاملها دفعة واحدة وقد كان من المفترض أن تصل تباعاً، ومنهم

من طُلب منه سداد نصيب أو نصيبين ولم يلح عليه أحد فى طلب الباقى، وتفاصيل هذا الحساب ستبقى بينى وبين المشتركين ويجب أن أعترف بفضلهم علىّ أمام جمهور القراء وأقدم شكرى لهم. وبعد أن تغيرت خطة النشر فى سنة ١٨٤٦ وقام بها الناشر السيد لى مونييه فإنى لم أستغل منذ ذلك وحتى الآن هذا الكرم الذى خصنى به المشاركون تطوعاً.

باريس، يوليو ١٨٥٤

بيان تحليلى للمصادر العربية لتاريخ صقلية
الجزء الأول. مؤلفات مفقودة

١ - **ابن القطاع** (أبو القاسم على بن جعفر بن على، المعروف بابن القطاع) سليل سلالة الأغالبة الملكية؛ ولد بصقلية عام ٤٣٣ (١٠٤١ـ ١٠٤٢)، وخرج منها بعد الغزو النورمانى وتوفى فى مصر سنة ٥١٥ (١١٢١ - ١١٢٢). وسأكتب ترجمة هذا اللغوى الكبير فى موضعها. ومن بين الأعمال الكثيرة التى كتبها **تاريخ صقلية** الذى ذكره السيوطى(1) وحاجى خليفة(2). ويبدو أنه ما من أحد من كتاب الحوليات قد قرأ هذا الكتاب. وألّف بالإضافة إلى هذا **الدرّة الخطيرة**، وهى مجموعة من أشعار مائة وسبعين شاعر عربى - صقلى (3)، ومنها حفظ لنا عماد الدين الأصفهانى(4) كثيراً من الشذرات؛ راجع هذا فى رقم ٢٨ من الجزء الثانى من هذا الجدول.

٢ - **ابو زيد الجُمرى**. وهو من أصل بربرى كما يبدو من اسمه. كتب هو أيضاً كتاباً فى أخبار صقلية. يؤكد هذا السخاوى من مؤلفى القرن الخامس عشر فى إحدى دراساته التاريخية(5)؛ ويؤكده حاجى خليفة (6). ولم يذكر الواحد أو الآخر موطن أو عصر أبى زيد هذا. ولم يذكره أى كاتب حوليات.

٣ - **ابن رقيق** (أبو اسحق إبراهيم بن قاسم بن رقيق) وقد تحرر هو أو أبوه من الرق كما يظهر

(1) مخطوطة الدكتور جون لى، ومخطوطة باريس باسم على بن جعفر الخ.

(2) طبعة فلوجل، الجزء الثانى، ص ١٣٥، رقم ٢٢٤٣ والجزء الثالث، ص ٢٠٣، رقم ٤٩٣٥.

(3) السيوطى وحاجى خليفة، المرجع المذكور.

(4) عماد الدين، فى **الخريدة**، الجزء ١١، مخطوطة باريس، المكتبة القديمة ١٣٧٥ الورقة ٢٠ الوجه الثانى، ومخطوطة المتحف البريطانى، ريش ٧٥٩٣.

(5) مخطوطة ليدن، ٦٧٧، وارن، مذكورة فى كتالوج دوزى، الجزء الثانى، ص ١٤٢، رقم ٧٥٦ وقد أفادنى بهذه المعلومات دوزى نفسه.

(6) طبعة فلوجل، الجزء الثانى، ص ١٣٥ رقم ٢٢١٣.

من لقبه. شغل منصب الأمين فى وظيفة عامة فى القيروان نحو نهاية القرن العاشر (1). كتب أخبار أفريقيا، ويشير فيها أحياناً إلى صقلية وكثيراً ما يذكره المؤلفون ومنهم: ابن وردان، وابن أبّار، وابن عذارى مؤلف **البيان**، وابن خلدون، والنويرى، والتيجانى، وأسد الأفريقى. وبقدر ما أقبلُ حكم البارون دى سلان المثقف، الذى يلقى على كاهل ابن رقيق الخرافات التى اختلطت بقصة حروب المسلمين الأولى فى أفريقيا (2)، فإنى أظن كذلك أنـه كان بإمكانه أن يكتب دون نقد حكايات الأزمان الماضية وأن يكتب بوضوح وقائع أهل زمانه. ويجب التنبه، فى إطار هذا التمييز كَم من المرات سنستند فيها إلى ابن رقيق فى كتابنا هذا.

٤ - **ابن رشيق** (أبو على حسن) ومن الجائز أنه من أصل صقلى ومن مواليد أفريقيا سنة ألف من أب يونانى من الرقيق، كان صائغاً؛ وقد عاش فى بلاط أمراء الزيريين فى المهدية وفى الوظائف العامة بالقيروان، ثم لجأ إلى صقلية وتوفى فى مازارا سنة ألف وثمان وخمسين كما يقول البعض وسنة ثلاث وستين كما يقول آخرون، وسنة سبعين فى رأى ثالث؛ وهو رجل له مؤلفات كثيرة؛ وسوف أتحدث عنه بالتفصيل فى الكتاب الرابع من هذا التاريخ. ومن بين ما كتب **أخبار القيروان**، حيث لمس أحياناً أحداث صقلية. كما نجد هذا فى كثير من استشهادات المؤلفين. ويشتمل **الأنموذج**، وهو كتاب للمؤلف نفسه على قصة، نقلها ابن خلكان، تخص أمير صقلية الكلبى يوسف. ومن بعض الأجزاء الأخرى عن ابن رشيق فإنه يبدو لنا مطلعاً على العلم الذى كان من الممكن أن يكون موجوداً فى ذلك الوقت بين اليونانيين المقيمين فى صقلية، مما يزيد من مصداقيته باعتباره كاتب أخبار.

(1) **البيان**، الجزء الأول، ص ٢٥٤ من سنة ٣٨٧ (٩٩٧) ويذكر فقرة من ابن رقيق عن أحد القضاة اسمه يوسف، وكان معتاداً على التنقل معه فى الأقاليم لجمع الضرائب.

(2) *Lettre à M. Hase* فى *Journal Asiatique* المجموعة الرابعة، المجلد الرابع ص ٣٤٩، ٣٥٠؛ *Histoire des Berbères* بقلم ابن خلدون، المجلد الأول ص ٢٩٢؛ ملاحظة المترجم.

٥ - **ابن يحيى** (أبو على حسن الفقيه) كتب **تاريخ صقلية** واحتفظ لنا منه الجغرافى ياقوت والقزوينى ببعض الأجزاء. ورغم أن لقب هذا واسمه يختلطان مع اسم ابن رشيق ولقبه، فإن كليهما عاش فى الوقت نفسه، إلا أن اسم الوالدين، والأصل اليونانى لابن رشيق وصفة الفقيه الملتصقة بابن يحيى وفى النهاية الاختلاف بين كتابيهما وأحدهما عن صقلية والآخر عن القيروان تجعلنا نرى على أساس صحيح أنهما كانا مؤلفين مختلفين.

٦ - **أبو الصلت أمية** (ابن عبد العزيز بن أبى الصلت) من مواليد دنيا فى أسبانيا سنة ١٠٦٧، وتوفى فى المهدية فى أفريقيا سنة ١١٥٤ أو فى سنة قريبة من هذا التاريخ. وهو طبيب وشاعر وعالم وعمل بالميكانيكا، وأكمل أخبار ابن رقيق (1). وهو فى هذا الكتاب أو فى غيره يروى لنا حكاية طريفة عن هزيمة جيش صقلية فى كابو ديماس سنة ١١٢٣ وقد حفظ لنا عماد الدين الأصفهانى فى **الخريدة** أشعاراً لبعض الشعراء العرب الصقليين وتراجم لهم جمعها أبو الصلت (2) فى كتاب آخر عنوانه **رسالة أهل العصر**.

٧ - **ابن شدّاد** (عز الدين أبو محمد عبد العزيز بن شدّاد بن تميم) من قبيلة صنهاجة البربرية ومن سلالة الزيرى الملكية، عاش فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر إذ إن جده تميم كان يجلس على عرش المهدية من ١٠٦٢ وحتى١١٠٧ .وطبقاً لشهادة أبى الفدا (3)، فإنه ألّف كتابين فى التاريخ أحدهما عن القيروان

(1) نأخذ هذا من التيجانى، **رحلة**، النص الفرنسى، ل. م. الفونسو روسّو، ص ١٢٠، (مستخلص من *Journal asiatique* المجموعة الرابعة، المجلد العشرين، سبتمبر ١٨٥٢، ص ١٧٦).

(2) عن هذا المؤلف انظر: ابن خلكان، النص الإنجليزى المجلد الأول، ص ٢٢٨؛ دوزى، *Historia abbadidarum* المجلد الأول، ص ٤٠٣، الحاشية ٥٢؛ ابن أبّار، **مخطوطة الجمعية الأسيوية** فى باريس، الورقة ١٠٨ الوجه الثانى؛ ابن أبى عصبة، **مخطوطة المكتبة الامبراطورية** بباريس، الملحق العربى ٦٧٣، الورقة ١٩١ الوجه الأول وما بعده.

(3) *Annales Moslemici* ، المجلد الثانى، ص ٤٤٦، سنة ٣٣٦، وعند دى جريجوريو، *Rerum Arabic.*، ص ٨١ إلى ٨٣ . أنظر أيضاً مقدمة رايسكى فى الجزء الأول من *Annales Moslemici* ، ص ٨ .

والآخر عن صقلية. ونجد فقرات من تاريخ صقلية فى حوليات أبى الفدا وبالتالى فى كتاب شهاب الدين العمري أيضاً (1). وفى النهاية استقى التيجانى من ابن شداد حكاية الاستيلاء على المهدية سنة ١١٦٠ التى علمها هذا المحرر من شاهد عيان(2).

وابن شدّاد الذى نعلم عنه الآن أخباراً محددة(3) هو تماماً *Ascanagius* حسب كاروزو والصنهاج حسب دى جريجوريو، الخ(4)، كما كان يكتب خطأ اسم الصنهاجي كما ذكره أبو الفدا. وقد نقل مونسنيور أيرولدى فى مقدمة **المدونة الوثائقية** للأب فيلاّ، اسماءه بالطريقة نفسها التى وجدها فى داهريلوت؛ وأضاف ما وثق به من كلام المزّيف فيلاّ، أن مؤلَّفَه فى ثمانية عشر جزءاً محفوظ فى مكتبة فاس(5).

٨. **ابن بشرون** (عثمان بن عبد الرحيم بن عبد الرازق بن جعفر بن بشرون بن شبيب) من قبيلة أزد العربية والمعروف بالصقلى والمهدى أى من صقلية ومن المهدية (فى أفريقيا)، لأنه قد يكون من مواليد أحد هذين البلدين ولا نعلم أيهما، ثم انتقل ليعيش فى البلد الآخر. وقد عاش فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر. وقد كتب **المختار فى النظم والنثر لأفاضل أهل العصر**، ذكر فيه كثيراً من الأسبان الأفارقة والصقليين. وقد أفاد عماد الدين الأصفهانى(6) من هذه المجموعة

---

(1) فى دى جريجوريو، المرجع المذكور، ص ٥٩ .

(2) التيجانى، **رحلة**، مخطوطة باريس، ورقة رقم ١٤١ الوجه الأول، ونص م. روسُّو، ص ٢٠١ (مستخلص من *Journal Asiatique*)

(3) راجع: ابن خلكان، طبعة م. دى سلان، النص العربى، المجلد الأول، ١٤٥، والنص الانجليزى، المجلد الأول، من ٢٨٢ وما بعدها؛ *Quatremere, Memoires sur les Khalifes Fatimides* فى *Journal Asiatique* المجموعة الثالثة، المجلد الثانى (١٨٣٦)، ص ١٣١ . ساسى، *Exposé de la Religion des Druses*، المجلد الأول، ص ٣٦٠؛ ساسى، *Chrestomathie Arabe*، المجلد الثانى، ص ٢٩٥، ٢٩٦ كان قد جاء ببعض المعلومات غير دقيقة عن بعض المؤلفين.

(4) *Rerum Arabicarum*، ص ٣٧، ٣٨.

(5) **مدونة وثائق صقلية**، المقدمة، المجلد الأول، ص ١٥ .

(6) أنظر الجزء الثانى من هذا البيان، رقم ٢٨ .

المذكورة أيضاً بين مراجع حاجى خليفة (1). وسنذكر المؤلف فى الكتاب السادس.

٩. **جمال الدين** (محمد بن سالم) قاضى مصر الأعلى، ولد سنة ١٢٠٧، وتوفى سنة ١٢٩٧؛ وعرف الامبراطور فردريك الثانى معرفة شخصية. ثم أرسله بيبرس سلطان مصر فى سفارة إلى مانفريدى؛ وأقام فى إيطاليا سنوات عديدة. وقد أشار، ولا نعلم فى أى مؤلف من مؤلفاته إلى أحوال سراسنة لوتشيرا، وإلى هزيمة مانفريدى، وإلى معرفة هذا الملك بالرياضة والفلسفة والأدب العربى. ومن هذه الفقرات لدينا نسخة أو ملخص فى حوليات أبى الفدا(2).

١٠ - **ابن سعيد** (نور الدين على بن سعيد بن موسى) من غرناطة، ولد سنة ١٢١٤ وتوفى سنة ١٢٧٤ وبالإضافة إلى مبحث الجغرافيا الذى نتحدث عنه فى الجزء الثانى من هذا البيان، وبالإضافة إلى كتاب تاريخى عن الشرق لا يعالج موضوعنا، فإنه صنف كتاباً آخر كانت تعمل به أسرته منذ جيلين. وقد أتم هو الكتاب ببحوث فى الشرق وخاصة فى مكتبات بغداد قبل هجوم التتار (3). وأقصد بهذا كتاب **المُغرب فى حلى المغرب** وقد كتب عنه المقرى قائلاً إن الكتاب الأول يتناول أسبانيا، والثانى صقلية، والثالث إيطاليا وبعض أقاليم شبه الجزيرة (4)، وعلى كل حال فإنه من المفترض أن يكون كتاب **تاريخ صقلية** كتاباً مهماً جداً فقد قدم مثقفو صقلية الذين هربوا إلى أسبانيا مادته العلمية لعائلة ابن سعيد. ولما كنت مقتنعاً بهذا فإنى

---

(1) نشره فلوجل، المجلد الرابع ص ١٤٦ والمجلد الخامس، ص ٤٣٨، رقم ١١، ٥٩٠ .

(2) *Annales Moslemici*، السنة ٦٩٧، (١٢٩٧) الجزء ٥، ص ١٤٤. كان أبو الفدا يعرف جمال الدين معرفة شخصية. عن أعماله أنظر رينو *Extraits etc. des Croisades.*، ص٢٥.

(3) قارن: رينو . *Gèographie d'Aboulfeda* المقدمة، الجزء ١، ص ١٦١؛ *Historia Abbadidarum*، الجزء ٢، ص ١٥٠ .

(4) المقرى، *The History of the Mohammedans Dynasties in Spain*. نص الأستاذ جيانجوس، المجلد الأول ص ٢٠٤، ٤٨١ .

قد حاولت لمدة عشر سنوات أن أحصل بكل الطرق على هذا الكتاب، بمساعدة الأستاذ جيانجوس الأستاذ بمدريد والذى طلبت معاونته أولاً، وبمعاونة دوزى لى فيما بعد فقد كان من ناحيته يرغب فى دراسة هذا الكتاب الشهير إذ إنه كان ولايزال مهتماً بإعادة كتابة تاريخ أسبانيا المسلمة. ولكن آمالنا التى وضعناها على سير توماس ريد، القنصل الانجليزى فى تونس، قد ذهبت أدراج الرياح إذ كنا نعتقد أنه يمتلك نسخة من ابن سعيد فكتبت له وجعلت أشخاصاً يعرفهم يكتبون له، لكن لم يصلنى ردّ أبداً.

ولقد سعى م. ألفونس روسُّو، مترجم المفوضية الفرنسية بتونس، وهو رجل مثقف لطيف، فى البحث عن هذه المخطوطة دون جدوى. ورغم هذا فإنى لا أفقد الأمل فى إمكان الوصول إلى هذا الغرض فى أى وقت، إذ يبدو لى أن نسخة من ابن سعيد محفوظة فى الجامع الكبير بطنجة وقد تكون هناك نسخة أخرى فى بطرسبرج (1)، إلى جانب نسخة السير توماس ريد.

هذه هى الكتب العشرة الأساسية التى لم نحصل عليها وهى معروفة إذ ذكرها تحديداً كُتاب آخرون أو للمقتطفات التى استقاها هؤلاء منها، وهى كتب تتناول عن قصد أو عن غير قصد تاريخ مسلمى صقلية. وبالإضافة إلى هذا يوجد العديد من كُتاب التراجم الأفارقة والصقليين من القرنين التاسع والعاشر مذكورين فى **رياض النفوس** سأشير إليهم فى الجزء الثانى من هذا البيان؛ تحت رقم ١١ الذى يتناول كتاب **الرياض**. ومن المحتمل أن يكون قد تحدث عن صقلية كثير من رواة الأخبار فى القيروان والذين نعرف

(1) راجع فى هذا الصدد *Historia Abbadidarum* لمؤلفه دوزى المجلد الأول، ص ٢١٥، الهامش. وبالنسبة لمختلف عناوين كتب ابن سعيد التاريخية سواء كانت تدل على كتب مختلفة أم كان بعضها يدل فقط على صيغ مختلفة راجع، حاجى خليفة، طبعة فلوجل، الجزء ٥، ص ٤٣٨ و٦٤٧، رقم ٨٢٢، ١١، ٤٦٨، ١٢؛ كازيرى، **المكتبة العربية الأسبانية**، المجلد الثانى ص ١٦؛ أبو الفـدا، **حوليات إسـلامية**؛ المجلد الأول، ص ٨ من مقـدمة أدلـر؛ سـاسى *Chrestomathie Arabe*، المجلد الأول، ص ٢٤٠؛ وكتّابنا المعاصرين الذين ذكرتهم فى الهوامش السابقة.

أسماءهم من خلال حاجى خليفة وغيره ولكنى لا أرى فائدة من ذكر أسمائهم هنا. وإذا صدقنا ليون الأفريقى فإن مؤلف آخر قد كَتَب أخبار صقلية وهو ابن حسين(2)، ولم أجد اسمه لدى مؤلفين أكثر دقة من ليون. وفى النهاية أنبه القراء إلى أنهم لن يجدوا هنا اسم الطبرى وهو من أشهر كُتاب الحوليات فى القرنين التاسع والعاشر، والذى كتب حولياته بدءا من العصور الموغلة فى القدم وحتى سنة ٣٠٢ هجرية (٩١٤ و٩١٥).

وكما يعرف الجميع فإن المجلدات القليلة التى لدينا فى أوربا من المجلدات الكثيرة التى يشتمل عليها كتاب الطبرى تتناول العصور السابقة على الفتح الإسلامى لصقلية؛ ولكننا لا يمكن أن نأمل إلا فى بعض الأخبار الخاصة بغزوات القرنين السابع والثامن. لقد بحثت دون جدوى فى نبذات الطبرى الموجودة فى بودليانا (هنت: ١٩٨) وفى مكتبة باريس (القسم العربى ٧٤٤)، وبالتالى بدا لى غير مفيد أن أطلع لهذا الغرض على المجلدات الثلاثة الموجودة فى مكتبة برلين التى تشتمل على الحوليات من سنة ٧٠ إلى ١٥٩ (٦٩٠ ـ ٧٧٥).

(2) ليونيس الأفريقى، *De Viris illustribus* الخ فى فابريتشوس، **المكتبة اليونانية**، الجزء ٨ (هامبورج ١٧٢٦) ص ٢٧٨ فى حياة الشريف الصقلى أى الإدريسى والتى يوجد فيها خلط بين الكونت روچيرو وابنه الملك روچيرو.

الجزء الثانى

مؤلفات موجودة

١. **ابن عبد الحكم**، (عبد الرحمن) مؤلف **فتوح مصر**، توفى سنة ٨٧٤ ميلادية. والمكتبة الإمبراطورية فى باريس بها نسختان، فى المكتبة القديمة ٦٥٥ و٧٨٥. والنسخة الأولى أجمل ولكنها أحدث وأقل صحة من الأخرى، وهى بتاريخ ١١٨٠. وهى تروى بدقة وعلى طريقة العرب القديمة فى الرواية التاريخية بالعنعنة بدءا من شاهد العيان وحتى الكاتب. وقد أخذت عنها بضعة سطور عن هزيمة الإمبراطور كوستانتى البحرية وعن مقتله فى صقلية. وقد ترجم البارون دى سلان إلى الفرنسية بعض الفقرات عن فتح أفريقيا فى *Lettre à M Hase, Journ. Asiat.*، المجموعة الرابعة، المجلد الرابع (١٨٤٤) ص ٣٥٦، وفى *Histoire des Berbères par Ibn Khaldoun* المجلد الأول، ص ٣٠١ وما بعدها.

٢. **ابن قتيبة**، (أبو محمد عبدالله بن مسلم) مؤلف **كتاب أحاديث الإمامة** الخ. وغيرها من الكتب الثمينة جداً. ولد سنة ٨٢٨ وتوفى سنة ٨٨٤. ويمتلك الأستاذ جيانجوس مخطوطة **الأحاديث** وترجم منها إلى الإنجليزية فصولاً مهمة جداً (1)، ومن بينها فصلان يعالجان عمليات فى صقلية(2). وسوف أنقل نص هذين الفصلين؛ فقد حصلت على نسخة منهما بفضل السيد جيانجوس. لقد كان يشك أنه مخطوطة آخر وأن مؤلف هذا العمل أقدم ولكن ابن شباط (3) يزيل الشك بأن وضع عنوان الكتاب واسم المؤلف على نص أحد الفصلين. راجع ابن

(1) فى كتاب المقرى المعنون *The History of the Mohammedan Dynasties in Spain* المجلد الأول، ص ١.
(2) المرجع نفسه ص ٦٦ و٦٧.
(3) أنظر رقم ٢٧ من هذا البيان.

خلكان بالنسبة لهذا المؤلف فى النص الإنجليزى من وضع م. دى سلان، المجلد الثانى ص ٢٢ ودى سلان نفسه *Histoire des Berbères par Ibn Khaldoun* المجلد الأول، ص ١٧٥.

٣- **البلاذرى**، (أحمد بن يحيى)؛ عاش فى بلاط الخليفة العباسى المتوكل، وتوفى فى بغداد سنة ٨٩٢، وكتب **فتوح البلدان**، وهى مخطوطة ليدن (٤٣٠ وارن) ومذكورة فى كتالوج دوزى، الجزء الثانى، ص ١٥٦ رقم ٧٧٧. ولدى نص فصل قصير عن فتح صقلية أرسله لى دوزى. عن كاتب الأخبار العربى المدقق الرصين هذا أنظر: همكر *Specimen Catalogi Bibl. Lugd. Batav.* ص ٧؛ دى سلان *Lettre à M. Hase* المرجع المذكور؛ رينو *Memoire sur l'Inde*، ص ٠١٦.

٤ - **المسعودى**، (أبو حسن على بن حسين)، رحالة مقدام ذو علم واسع وإن لم يسعفه موقف نقدى جيد. ولد فى بغداد ولا نعرف سنة ميلاده بالتحديد، وتوفى سنة ٩٥٦. ألف كتباً مختلفة جعلها تضم التاريخ فى مجال علم الكوزموغرافيا. وقد ذكر المسعودى اسم صقلية مرات قليلة فى كتابيه الأساسيين اللذين وصلا إلينا وهما **مروج الذهب والتنبيه** الخ، وذكرها فقط ليروى خبراً خاطئاً عن الحكم البيزنطى، وخرافة عن بركان إتنا وخبراً عن استخدام الحجر الخفاف فى زمانه. ولقد استقيت هذه الفقرات القصيرة من مخطوطات باريس، *Ancien Fonds* رقم ٥٩٨ والملحق العربى ٧١٤، ونسخ من **المروج**، رقم ٩٠، ونسخة من **التنبيه**. ويوجد من المخطوطة الأولى نص بالإنجليزية بدأه الدكتور سبرنجر ولم يستكمله. وسوف يكون بين أيدينا النص العربى والنص الفرنسى ويقوم بنشرهما المستشرق العالم درنبورج على نفقة الجمعية الأسيوية فى باريس.

٥ - **الإصطخرى**، (أبو اسحق) والذى كُنِّى باسم موطنه إصطخر، وهى برسيبولى القديمة. كتب بعد سنة ٩٥١ مبحثاً فى الجغرافيا فى أعقاب أسفار طويلة فى المشرق بعنوان **كتاب**

الأقاليم. وهو عبارة عن وصف هزيل لم يخص البلاد الغربية، ولا نجد فيه عن صقلية إلا أنها كانت أرضا خصبة بها وفرة من الحبوب وقطعان الأغنام والعبيد. وقد نقلت هذه السطور القليلة عن صورة من مخطوطة مكتبة جوتة، نشرها بالليتوغرافيا الدكتور موللر، بعنوان *Liber Climatum* للشيخ أبو اسحق الفارسى المشهور بالإصطخرى، جوتة ١٨٣٩. وعن المؤلف يمكن الرجوع إلى *Renaud, Géographie d'Aboulfeda,* المقدمة، ص 80 .

٦- **ابن حوقل**، (أبو القاسم محمد) تاجر من بغداد. بعد أسفار لمدة ثلاثين سنة وصل فيها إلى شمال أفريقيا وصقلية أصدر سنة ٩٧٦ **كتاب المسالك والممالك** وضمنه مبحث الإصطخرى وصححه وزاد عليه. وفيه فصل طويل يتضمن وصف بالرمو، قمت أنا بنشر ترجمته بالفرنسية فى *Journal Asiatique* المجموعة السادسة، الباب الخامس (١٨٤٥) ص ٧٣ وما بعدها. ثم بالإيطالية فى *Archivio Storico Italiano* المجلد الرابع، الحاشية رقم ١٦ (١٨٤٧). لقد نقلت النص عن مخطوطة باريس الحديثة والسيئة، الملحق العربى ٨٨٥، وهى نسخة من مخطوطة ليدن (٥١٤ وارنر، دوزى، الكتالوج، المجلد الثانى، ص ١٣١، رقم ٧٢٢) التى تمت مقارنة ما نقلته عن النص بها بفضل الأستاذ دوزى والدكتور موللر. ثم قمت بمقارنة النص الذى قمت بتحقيقه بالمخطوطة القديمة بمكتبة بودليانا بأكسفورد (هنت ٥٣٨). وأضفت إليه فقرات أخرى عن مدينة سالرنو ونابولى وجاييتا، وجزيرة مالطة وجبل كلال أو تلال، الذى يعتقد م. رينو أنه فراسّينيتو وهو حصن المسلمين الشهير على البحر المتوسط : وهى فقرات نقلتها عن مخطوطة باريس وقارنها بمخطوطة ليدن الأستاذ دوزى. وفيما يتعلق بوصف أفريقيا وهى وثيقة مهمة للغاية، فقد نقله إلى الفرنسية البارون دى سلان، *Journanol Asiat.* المجموعة الثالثة المجلد الثامن، ص ١٥٥ وما بعدها، وص ٢٠٩ وما بعدها. عن هذا المؤلف أنظر رينو *Géographie d'Aboulfeda,* المقدمة ص ٨٢ وما بعدها.

٧ - **تاريخ كمبردج**، هذا هو العنوان الذى أطلقه على كتاب **تأريخ جزيرة صقلية** الخ، وهو من مقتنيات مكتبة جامعة كمبردج. وهو من نوع الورق نفسه والكتابة ذاتها ومجلد فى **حوليات إوتيكيو**، بطريرك الإسكندرية. والمخطوطة حسب الرأى الذى أدلى لى به الأستاذ العلامة صمويل لي، نسخها الناسخ نفسه عن نص عربى للإنجيل يحمل تاريخ ١٢٧٢ ومحفوظ فى مكتبة كمبردج. وقد كتب إربنيو، الذى كان يمتلك هذا **التاريخ**، *Desunt hic quinque vel sex lineæ* ١٦١٣ ومن هنافإنه يمكن القول بأن الكتاب ينقصه سنة أو سنتان من الأحداث.

وتاريخ كمبردج الذى أشار إليه مارتينو لافارينا المواطن الصقلى، ثم جوليلمو كافى الإنجليزى، قام بالبحث عنه بناء على هذه الإشارات چامباتيستا كاروزو، وحصل عن طريق السيد تومازو هبوارت على نسخة من النص وعلى ترجمة لاتينية جيدة. وقد تم نشر النص والترجمة فى مجموعة كاروزو بعد أن تمت طباعتها فى روما وبعد أن وضع أسّمانى وفونتانينى لمساتهما عليهما : ثم نشرهما دى جريجوريو من جديد فى *Rerum Arabicarum*. وفى سنة ١٨٤٥ ذهبت إلى كمبردج خصيصاً لمقارنة هذه الطبعة الأخيرة بالمخطوطة، ولكن لم أكتشف شيئاً رغم المجهودات التى بذلها معى السيد چى. باور الذى أختير قبل ذلك بشهور أميناً للمكتبة وكان قد وجد المخطوطات الشرقية غير منظمة. وبعد رحيلى عن كمبردج اهتم هذا العالم المفضال بعد أن انتهى من البحث بأن يرسل لى نتيجة المقارنة التى قام بها السيد لي والسيد فاروس من سوريا وهو. شخصياً. : أضاف وصفاً دقيقاً للمخطوطة؛ بينما أرسل لى السيد لي نسخة أخرى من الدراسة. وبهذه المعاونة استطعت تصحيح بعض الهنات فى الطبعات السابقة وبالأخص التصويبات التى كانت قد أجريت على الأخطاء النحوية للأصل والموجودة فى **التأريخ** وغير موجودة فى **حوليات اوتيكيو** التى نسخها الشخص نفسه مما يجعلنا نؤكد أنها أخطاء وقع فيها مؤلف التاريخ.

والمؤلف. والذى كان يُظَن أنه اوتيكيو نفسه، ثم اسكَنجو أو صنهاجى. الذى تحدثت عنه سابقاً، كان صقلياً بلا شك وكانت لغته هى اللغة اليونانية كما ذكر دى جريجوريو (1)؛ بل وأقول إنه كان من سلالة لاتينية. ولم يكن. بكل تأكيد. واحداً من السلالة الحاكمة. فقد اتبع تقويم القسطنطينية، الذى كان مستخدماً عند المسيحيين فى صقلية؛ ولكن بدلاً من أسلوب البيزنطيين الفخم المصطنع فإنه يكتب بأسلوب المؤرخين الإخباريين فى إيطاليا وفى أنحاء الغرب الأخرى: حتى إنه يبدو لى كأنه أحد المعتوقين المسيحيين أو أحد رهبان بالرمو الذين يفكرون باللاتينية أو بالإيطالية ويملى أو يترجم إلى العربية العامية التى كان يعرفها لكى يبعث الرضا فى نفس أحد أمراء صقلية من الكلبيين. وتبدأ الرواية من سنة ٨٢٧ إلى ٩٦٤ بالمقاييس نفسها التى يستخدمها المؤرخون الإخباريون، أى أنه يكتب فى مساحة صغيرة فى رأس الصفحة وتتسع المساحة عند القاعدة، وهى عبارة عن ملاحظات تتبع المنهج التأريخى عن الأزمنة الغابرة وروايات تفصيلية كلما دنا من عصر المؤلف. ويبدو لى أنه من شبه المؤكد أن **تاريخ كمبردج** قد كُتب فى نهاية القرن العاشر: وسيبقى على الدوام واحداً من أكثر وثائق صقلية المسلمة قيمة.

٨ - **كتاب هيئة أشكال الأرض**، مخطوطة باريس، *Ancien Fonds* ٥٨٢ وتم نسخه فى ١٤٤٥ بخط جميل للغاية وهو كتاب مجهول المؤلف، ويرجع إلى نهاية القرن العاشر؛ أو أنه نسخه من كتاب الإصطخرى مع أجزاء من كتاب ابن حوقل، وإضافات لأخبار من القرن الثانى عشر، كما يعتقد م. رينو. ففى الباب الخاص بصقلية، الذى أخذته من هذه المخطوطة، نلاحظ حكماً على طباع أهل بالرمو يتناقض تماماً مع الحكم القاسى الذى حكم عليهم به

(1) راجع مقدمات كاروزو ودى جريجوريو *Rerum Arabicarum,* ص ٣٢ إلى ٣٩. وقد كرر ونريش فى *Commentarii Introductio*، § الجزء ٩ ص ٤٤ و٤٥ نتائج دى جريجوريو نفسها.

ابن حوقل: وهذا يتناسب مع ظروف المدينة تحت حكم الملك روجيرو. راجع فى هذا الصدد، رينو، *Géographie de Aboulfeda,* المقدمة ص ٨٦.

٩ - **عريب**، مؤلف **موجز الطبرى** مع إضافات ذات أهمية بالغة بالنسبة لتاريخ أفريقيا وصقلية من سنة ٢٩٠ إلى سنة ٣٢٠ للهجرة (٩٠٣ إلى ٩٣٢). وطبقاً لما ذكره الأستاذ دوزى فى مقدمته **للبيان**، المجلد الثانى صفحة ٥١، فإن المؤلف كتبه فيما بين ٩٧٣ و٩٧٦ وأعلم أن الدكتور وييل أمين المكتبة فى جوثا وكاتب سيرة محمد (عليه السلام) وتاريخ الخلفاء يختلف معه فى هذا ويختلف معه كذلك البارون دى سلان *Histoire des Berbères par Ibn Khaldoun* المجلد الأول ص ٢٦١ وهو يرى أن المؤلف هو عريب بن محمد أو ابن حميدى، وأنه أسبانى توفى سنة ١٠٩٧. ودون أن أدخل فى هذا الخلاف فإنى ألاحظ فقط أن مسار التاريخ يجعلنا نرى أن الكتاب قد تم تحريره بعد الأحداث التى يرويها بقليل أى فى القرن العاشر. وتوجد مخطوطة فى مكتبة دوقية سكرونيا، جوثا نشر الدكتور نيكلسون ترجمتها الإنجليزية بعنوان *An Account of the establishment of the Fatimite Dynasty in Africa.*

وقد نسخ لى السيد وييل نسخة من نص الفقرات الخاصة بصقلية، والتى قام فيما بعد دوزى بطباعتها فى **البيان**.

١٠ - **يحى بن سعيد**، وهو الذى استكمل حوليات إوتيكيو، وعاش فى زمانه تقريباً. ويتناول كتابه الفترة من ٩٣٨ إلى ١٠٢٦ وهو موجود فى المخطوطة الجيدة بمكتبة باريس، *Ancien Fonds* ١٣١. ويحتوى الكتاب على أخبار تفصيلية مهمة عن الفاطميين فى مصر، وبعض الأخبار عن البيزنطيين، وسطور قليلة عن موضوعنا.

١١ - **رياض النفوس**، كتبه أبو بكر عبد الله بن محمد المالكى. وهو عبارة عن مجموعة من التراجم والأخبار التاريخية عن أفريقيا منذ بدايات الفتح الإسلامى وحتى سنة ٩٦٣. وهذه مخطوطة وحيدة فى

أوربا وهى من مقتنيات مكتبة باريس، *Ancien Fonds* برقم ٧٥٢: وهو مجلد مبتور فى آخره وكتابته رديئة بها نقاط قليلة فوق الحروف أو تحتها وهى صعبة القراءة. وقد تم نسخه فى سنة ١٣٢٦ عن نسختين إحداهما ترجع إلى سنة ١١٤٩ والأخرى إلى ١٢٠٤ (1) ثم تم تصحيحه وتجليده مرة أخرى سنة ١٦٤٠ كما نقرأ هذا فى إحدى حاشياته الحديثة (2). ولم أستطع أن أجد أخباراً عن المؤلف؛ ويبدو أن حاجى خليفة لم يحصل على أخبار عنه إذ إنه يذكر عنوان الكتاب واسم المؤلف ويترك فراغاً أبيض بسنة وفاته (3). ويبدو لى أنه أملى الكتاب فى نهاية القرن العاشر أو فى بداية القرن الحادى عشر على أكثر تقدير، إذ إن المؤلف لا يشير إطلاقاً إلى ابن رقيق أو إلى أىٍّ من كُتاب منتصف القرن العاشر وما بعده. وفى مقابل هذا ينقل حدثاً سمعه حسب التقليد الشفاهى من شخص يدعى أسد عن ابن أبى العرب عن أبى العرب نفسه الذى توفى سنة ٩٤٤ (4) وإذا أضفنا إلى هذا التاريخ ثلاثة أجيال بمعدل ٢٥ سنة لكل جيل فإننا نصل إلى ما بعد سنة ألف. ويجب أن أنبه إلى أنه يقال فى موضع آخر إن صقلية كانت تحت حكم المسيحيين(5) وهو ما يحملنا إلى قرن متأخر ولكن قد تكون هذه حاشية كتبها الناسخ سنة ١١٤٠ وأدخلها على النص، كما نجد هذا كثيراً فى المخطوطات.

إن أكبر ميزات **رياض النفوس** هى أنه يتضمن فى الغالب فقرات من كُتاب التراجم المعاصرين للأحداث وكثيراً من

(1) الوجه الأول للورقه رقم ٣٣ من المخطوطة، وكان ينبغى أن تكون فى نهاية المجلد ولكنها تقع فى وسطه تقريباً حيث لم توضع فى ترتيبها أثناء التجليد.

(2) نقرأ هذا بالعربية فى ورقة موضوعة دون ترتيبها بين الورقة ٧٥ والورقة ٧٦ من المخطوطة. وقد أضيف إليها بالإيطالية: كُتب هذا الكتاب بعد ألف وخمسمائة سنة؛ وهذا تزييف واضح إذ يرجع بالكتاب؛ إلى القرن السادس الميلادى.

(3) طبعة فلوجل، المجلد الثالث، ص ٥٢١. ولا أجد التاريخ فى مخطوطات حاجى خليفة الموجودة فى مكتبة باريس.

(4) المخطوطة، الوجه الأول من الورقة رقم ٥.

(5) المخطوطة، الوجه الأول من الورقة رقم ٢٨.

فقرات أبى العرب مؤلف **طبقات افريقيا**، أى تراجم مصنفة للأعلام الأفارقة (1) واسمه الكامل هو محمد بن أحمد بن تميم، وهو من أقارب بيت الأغالبة، وهو عالم كبير وذو مركز رفيع : حتى إنه كان أحد قادة ثورة شعب القيروان ضد ثانى الخلفاء الفاطميين. ومن بين كُتاب التراجم الذين نقرألهم فى **رياض النفوس** نجد كاتباً صقلياً كما نجد تراجم لكثير من الصقليين، ومن هنا فإن هذا الكتاب، إذ يحتوى على كثير من الروايات، يكشف لنا أفضل من غيره طبائع المستوطنة الإسلامية فى صقلية، وأفكارها وغرائبها وأهواءها الغالبة وعاداتها وحياتها الداخلية كما نقول اليوم. ولن يمكن كتابة تاريخ مسلمى أفريقيا بشكل جيد إلا بعد نشر كل **رياض النفوس** وترجمته، وهو عمل شاق.

١٢. **الخذاعى**، (أبو عبد الله محمد بن سلامة بن خضر) المتوفى سنة ١٠٦٢ وقد أملى تاريخاً عاما يمكن اعتباره تاريخاً جيداً للفاطميين فى مصر، وعنوانه **عيون المعارف** الخ، أو **تاريخ الخذاعى** (مصادر المعارف وأخبار الخلفاء) أو تاريخ قبيلة خذاع (2). وتوجد فى مكتبة باريس مخطوطة منه فى *Ancien Fonds* رقم ٧٦١، أخذت منها سطرين عن العبد الصقلى المعتوق جوهر الذى فتح مصر للفاطميين.

١٣. **ابن العوام**، (أبو زكريا يحيى بن محمد بن أحمد) من اشبيلية. فى منتصف القرن الحادى عشر تقريباً كتب مؤلفاً جيداً عنوانه **كتاب الفلاح** نشره بنكويرى بالأسبانية (3) . وفيه يصف طريقة لزراعة الخضروات يطلق عليها الطريقة الصقلية وتوجد كذلك فقرات قليلة أخرى عن الصناعة الصقلية تحت الحكم العربى. وسوف أتناولها حسب نص بنكويرى.

(1) يشير إلى الكتاب التالى: ابن أبار، **مخطوطة الجمعية الآسيوية** بباريس، الوجه الأول من الورقة رقم ١٤.

(2) حاجى خليفة، طبعة فلوجل، المجلد الرابع، ص ٢٠٣ رقم ٨، ٤٦٨ والمجلد الثانى، ص ١٤٢ رقم ٢، ٢٨٠.

(3) **كتاب الفلاح** لمؤلفه الطبيب ... ابن العوام الاشبيلى، مدريد ١٨٠٢، فى مجلدين.

١٤- **بكرى**، (أبو عبيد الله عبد الله بن عبد العزيز) ، وهو شريف عربى وُلد فى أسبانيا فى النصف الأول من القرن الحادى عشر، وألّف من بين ما ألّف كتاباً فى الجغرافيا عنوانه **المسالك والممالك**. ويوجد مجلد منفصل عن هذا الكتاب محفوظ فى مكتبة باريس، *Ancien Fonds* برقم ٥٨٠ وقد نقل منه العالم م. كاترمير إلى الفرنسية وصف أفريقيا (1) الذى كتبه سنة ١٠٦٧(2). وقد أخذت منه بعض الإشارات عن غزوات المسلمين الأولى لصقلية. عن هذا المؤلف ارجع إلى مقدمة م. كاترمير؛ ورينو، *Géographie d'Aboulfeda* المقدمة، ص ١٠٥ ودوزى *Recherches sur l'histoire de l'Espagne pendant le moyen-âge* الجزء الأول، ص ٢٩٦ وما بعدها.

١٥. **الحُميدى**، (أبو عبدالله محمد بن أبى نصر) من قبيلة أزد العربية، وُلدِ فى مايوركا قبل سنة ١٠٢٩ وتوفى سنة ١٠٩٥ وقد ترك لنا تقارير عن ثلاثة شعراء صقليين من معاصريه. ويتناول كتابه أساساً تاريخ الأدب فى أسبانيا وعنوانه **جذوة المقتبس** الخ وتوجد مخطوطة منه جيدة وقديمة فى مكتبة بودليانا فى أكسفورد (هنت ٤٦٤، الفهرست، الجزء الأول، برقم ٧٨٣ وقد نقلت عنه ما يتناول موضوعنا.

١٦. **البللنوبى**، (أبو حسن على بن عبد الرحمن) صقلى يكنى بالبللنوبى نسبة إلى مدينة فيللانوفا وعمل كاتباً أى أميناً فى الوظائف العامة. وتوجد أشعاره فى مخطوطة اسكوريالى رقم ٤٥٥ وقد جمعها معاً ومع أشعار شعراء آخرين القاضى عبد الله عثمانى وكان قد ألقاها أمامه سنة ١١١٩ فى الإسكندرية. بمصر ابن حمود الذى أخذها من المؤلف نفسه. ومن هذا يتضح أن الشاعر قد عاش فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر. وقد قرأ

(1) فى الكتاب المعنون *Notices et Extraits des MSS* المجلد الثالث عشر (١٨٣١) ص ٤٣٧ وما بعدها.

(2) المرجع نفسه، ص ٦٣٣

كازيرى، الذى أخذ دى جريجوريو (1) عنه، اسم المؤلف البلبونى؛ والأسوأ من هذا فإنه بعد تصفحه للمخطوطة ولأكثر من مقطوعة افترض أنه كتب مديحاً فى كثير من الأمراء وخاصة فى ابن حمود. وقد أثار هذا الاسم الكبير فضولى، وهو اسم ينتمى إلى فرع من فروع أسرة العلويين الملكية، أقام فى صقلية واشتهر فيها بأنه تحررى وبالمكائد السياسية تحت حكم النورمان فسعيت للحصول على نسخة من مخطوطة إسكوريالى: رجوت كونت سيراكوزا فى باريس لهذا الغرض فتفضل بطلبها من ملكة أسبانيا التى أمرت باعداد نسخة رائعة من المخطوطة تحت رعاية الأستاذ. جيانجوس. وبعد أن وصل النص إلىَّ خابت أمالى. فبدلاً من القصائد الحماسية أو الهجائية لأشراف المسلمين فى صقلية وجدت قصيدة رثاء جياشة لموت أمه وأبياتا شعرية أخرى. وقصائد لابن رشيق الذى سبق ذكره(2) وكان صقلياً بالإقامة. وقد اكتشفت فى النهاية أن ابن حمود يدخل المشهد ليس باعتباره بطلا وانما راوية، كما يقول العرب، أى ملقياً لقصائد الآخرين، ومن المشكوك فيه أن يكون منتمياً إلى الأسرة الصقلية المذكورة ذات المقام العالى. وسوف أقدم للمجموعة الشعرية بالإشارات القليلة لترجمته وبعض المراجع التى يمكن استخراجها من المخطوطة، إذ إن الأشعار لا تشتمل على إشارات تاريخية. وسوف أتناول البللنوبى بالحديث فى موضعه فى الكتاب الرابع.

١٧- **ابن حمديس**، (أبو الجبار بن أبى بكر بن محمد) المولود فى سيراكوزا نحو سنة ١٠٥٢ من أسرة عربية عريقة والمهاجر إلى أسبانيا والمتوفى فى مايوركا سنة ١١٥٢، ويعد من أرق شعراء العرب، وكثيراً ما ذكر فى شعره وطنه الصقلى الحبيب ولمس فى قصائد عديدة عادات النبلاء المسلمين فى جزيرة صقلية فى فترة شبابه. وسوف أذكر هذه المقتطفات باعتبارها

(1) *Rerum Arabicarum* ص ٢٣٧

(2) فى الجزء الأول من هذا البيان تحت رقم ٤.

وثيقة تاريخية كما هى بحق، وسوف أضيف إشارات لترجمته استقيها من ديوان ابن حمديس، وهو مخطوطة مكتبة بطرسبرج الامبراطورية التى تم نسخها سنة ١٥٩٨ ووردت من القسطنطينية وأعادتها لى الحكومة الروسية بعد تدخل دوق سرّاديفالكو وأرسلتها لى فى باريس سنة ١٨٤٦. ولقد نسختها كلها، أما المقتطفات التى ذكرتها الآن فقد قام بمقابلتها بمخطوطة ترجع إلى سنة ١٢١٠ كل من المستشرق الكونت مينيسكالكى دافيرونا وعالم الدراسات الهيلينية الصقلى بيترو ماترنجا الكاتب بمكتبة الفاتيكان الرائعة التى توجد بها نسخة من هذه المخطوطة(1) القديمة الجميلة الصحيحة.

لقد ذكرت هنا ديوان ابن حمديس. ولكن كثيراً من أبياته الشعرية ذكرها كُتاب آخرون سيطول المقام لذكرهم. ولقد نقلتها من كتبهم ونسخ لى بعضها صديقى الحميم الأستاذ دوزى من مخطوطات ليدن.

١٨- **ابن بسام**، (أبو حسن على) من سانتارم، كتب فى بدايات القرن الثانى عشر كتاباً فى تاريخ الأدب عنوانه **الذخيرة**، وتمتلك نسخة منه مكتبة بودليانا بأكسفورد (٤٧، الفهرست، المجلد الأول برقم ٧٤٩). ووجدت به بيتين لابن حمديس. وعن هذا المؤلف ارجع إلى دوزى *Historia Abbadidarum*، المجلد الأول ص ١٨٩ وما بعدها.

١٩- **ابن بشكوال**، (أبو القاسم خلف) من قرطبة يقدّم فى **الصلة فى تاريخ** الخ. (**الصلة فى تاريخ علماء اسبانيا الأصليين**) الذى كُتب سنة ١١٤٠ يقدِّم ترجمة لأحد فقهاء المسلمين فى صقلية، نقلتها عن مخطوطة الجمعية الآسيوية بباريس. وهى نسخة حديثة لإحدى مدونات الاسكوريالى. عن هذا المؤلف ارجع إلى: ابن خلكان، ترجمة البارون دى سلان، المجلد الأول، ص ٤٩١؛ ودوزى *Historia Abbadidarum*، المجلد الأول ص ٣٨٠.

(1) تحمل رقم ٤٤٧، ومذكورة فى كتالوج ستيفانو أسّيمانى فى ماى *Scriptorum Veterum Nova Collectio,* المجلد الرابع، ص ٥١٨.

٢٠- **الإدريسى**، (أبو عبد الله محمد) كتب الجغرافيا، بعنوان **نزهة المشتاق** الخ. ويطلق عليها كذلك **كتاب روجيرو**، وتم نشرها سنة ١١٥٤ قبل وفاة هذا الملك بشهور قليلة. وسوف أتناول بالتفصيل فى الكتاب السادس الإدريسى وهذا العمل الجغرافى الذى يتبوأ المرتبة الأولى بين كل مؤلفات العصور الوسطى. ويكفى أن نشير هنا إلى أن وصفه لصقلية يحتوى على إحصاءات؛ وهو وثيقة تاريخية مهمة للغاية. وقد تم نشر موجز أو فُصيلة من **نزهة** فى روما سنة ١٥٩٢ بالعربية فقط، وأعيد طبعه فى باريس سنة ١٦١٩ بترجمة لاتينية قام بها اثنان من الموارنة بعنوان *Geographia Nubiensis.* وقد نقل دومنيكو ماكرى المالطى سنة ١٦٣٢ إلى اللغة العربية الباب الخاص بصقلية كما هو موجود فى الموجز، وقد وجدت هذه الترجمة فى بالرمو بين مخطوطات دومنيكو سكياڤو، وفى سنة ١٧٦٤ ظهرت فى المجلد الثامن من **كتيبات المؤلفين الصقليين** مصححة ومذيلة بالملاحظات مع مقدمة، وكتب اسم المؤلف الشريف الإدريسى. وقد قام بهذا العمل فرانشسكو تارديا الذى ذكرته فى المقدمة، والذى لما لم يستطع أن يحصل على النص اجتهد فى تصحيح أسماء الأماكن مخمناً الحروف العربية من خلال كتابة ماكرى لها باللاتينية، وغالباً ما وقع فى أخطاء ولكن فيما عدا هذا أظهر علمه بالعربية. وقد طبع دى جريجوريو الفصل المذكور ضمن *Rerum Arabicarum* بالعربية واللاتينية مع بعض التصحيحات. وبعد اكتشاف مخطوطات العمل الأصلى قام م. چوبرت بتشجيع من الجمعية الجغرافية بباريس بترجمتها كلها إلى الفرنسية(1) مع وجود كثير من الأخطاء. وقد قمت أنا بمراجعة نص دى جريجوريو، وقد أضيفت إليه المقدمة الخاصة بتاريخ أدب صقلية والنصوص الكثيرة الخاصة بالعمل الأصلى غير الموجودة بالموجز، ونصوص أخرى اضافية

(1) *Géographie d 'Edrisi* جزءان، باريس ١٨٣٦، ١٨٤٠.

تأتى بمعلومات عن تاريخ صقلية وإن كانت لا تدخل فى نطاق الوصف الجغرافى للجزيرة. وقد استعنت بالمخطوطات التالية التى أشير إليها بحروف الهجاء.

أ - مخطوطة المكتبة الامبراطورية بباريس، الملحقات العربية رقم ٨٩٣ وهى مكتوبة بحروف أفريقية غير جميلة، وقد نسخت فى أسبانيا سنة ١٥٤٤، وأشير إليها بحرف *A* فى نص م. چويرت.

ب - مخطوطة باريس، الملحقات العربية رقم ٦٥٥ بخط النسخ الخاص بسوريا ومصر وأشير إليها بواسطة م. چويرت بحرف *B* وبها خرائط جغرافية جميلة وهى أكثر دقة من المخطوطة الأولى ولكن تنقصها بعض الأوراق.

جـ - مخطوطة بودليانا (*Pokocke* ٣٧٥) الفهرست، المجلد الأول رقم ٨٨٧، وهى نسخة ضعيفة صدرت فى سنة ١٤٠٣ بخط النسخ. وهى كسابقتيها تحتوى على العمل الكامل.

ومخطوطة مكتبة أكسفورد ذاتها (*grav* ٤٢.٣٨٣٧) وهى مدونة قديمة رائعة بحروف أفريقية كبيرة، وهو المجلد الأول فقط. ولا يحتوى على وصف لصقلية لأنه يصل بالكاد إلى الجزء الأول من المناخ الثالث: وهذا النقص مؤسف للغاية لأن المخطوطة مزدانة بخرائط جغرافية رائعة الجمال.

٢١- **ابو حميد**، (محمد بن عبد الرحيم المقرى) من غرناطة وقد أصدر سنة ١١٦٢ مؤلّفاً جغرافياً متوسط المستوى عنوانه **تُحفة الألباب** الخ ويصف فيه جزر البحر المتوسط ويتحدث عن بركان إتنا، ولكن حسب قول الآخرين أنه لم يقطع صقلية طولاً وعرضاً، على ما يبدو، عندما حل بها سنة ١١١٧. وتوجد أربع مخطوطات من هذا العمل فى باريس، *Ancien Fonds* برقم ٥٨٦ والملحقات العربية بأرقام ٨٦١، ٨٦٢، ٨٦٣ وهى كثيرة بالنسبة للقليل الذى استقيته منه. عن هذا المؤلف ارجع إلى رينو، *Geogr. d'Aboulfeda.* المقدمة، ص ١١٢.

٢٢. **ابن ظفر**، (أبو عبد الله محمد) المتوفى سنة ١١٧٢، وقد قدمت تقارير طويلة عنه فى مقدمة مؤلّفه **سلوان**

المطاع(1)، ويشير فى كتابات كثيرة إلى أخبار عن حياته وعن مؤلفاته الكثيرة. وسوف أضمن المجموعة نصوص هذه الأخبار. وقد استقيتها من مخطوطات **السلوان** بمكتبة باريس *Ancien Fonds* رقم ٥٣٦ وغيرها، ومن **خير البشر**، المكان نفسه، الملحقات العربية رقم ٥٨٦؛ ومن **انباء نجباء الأبناء**، المكان نفسه، الملحقات العربية رقم ٤٨٦ و٤٨٧.

٢٣- **عبد الرحمن الصقلّى**، (أبو محمد بن محمد) وقد ترك مؤلّفاً فى الفقه والأخلاق الإسلامية عنوانه - وربما يكون قد تم تحريفه - هو **ألفاظ ظهور الأنوار**، مخطوطة ليدن رقم ٥٢٩ وقد تم نسخه سنة ١٢٣١. ولا نستطيع أن نستنتج منه العصر الذى عاش فيه المؤلف. وسوف أقدم المقدمة الموجزة لهذا الكتاب الذى أرسل دوزى لى منه بعض المستخلصات وجمعت أنا بنفسى بعضها فى ليدن.

٢٤- **ابن صاحب الصلات** (عبدالله بن محمد) من باجة وقد توفى سنة ١١٨٢ ويشير فى **تاريخ** أسبانيا إلى تاريخ خاص بعملية الموحدين ضد المهدية التى قامت بها القوات الصقلية. وبقى من هذا العمل المجلد الثانى فقط فى أكسفورد (*March* ٤٣٣، الفهرست، المجلد الأول، رقم ٧٥٨، والمجلد الثانى، ص ٥٩٥)، وقام بدراسته الأستاذ دوزى وقد تفضل بأن نسخ لى سطور النص القليلة تلك.

٢٥- **ابن وردان**، وقد كتب **تاريخ تونس** وفيه يقول إن الفتح النورمانى لصقلية قد وقع بعد سنة ٥٤٠ للهجرة (١١٤٥-٤٦)؛ وهذا الخطأ التاريخى يجعلنا نظن أن المؤلف، ولا أعرف عنه شيئاً آخر، قد عاش فى نهاية القرن الثانى عشر، إن لم يكن قد عاش بعد ذلك. وهذا لا يقلل من أهمية الفقرات التى أوردها فى كتابه من أعمال ابن رقيق وابن رشيق المفقودة.

إن مخطوطة ابن وردان، التى أجهل عنوانها، موجودة فى جامع الزيتونة بتونس. وقد أحضر لى فى

(1) **سلوان** الخ، أى **سلوان سياسى** لابن ظفر، فلورنسا، ١٨٥١.

باريس السيد هونجر، وهو مهندس ألمانى أقام مدة طويلة فى تلك المدينة، بعض المُستلات الخاصة بصقلية، وقد قمت بتقسيمها إلى فقرات لكى تكون أكثر يسراً عند الاستشهاد بها. وقد ترجم م. شربونو، أستاذ اللغة العربية بقسطنطينة، البـــاب الخاص بالأغالبة فى *Revue de l'Orient* باريس، ديسمبر ١٨٥٣، ص ٤١٧ وما بعدها.

٢٦- (مزيف) **الواقدى**. إن الكتـــاب المعنون (**فتوح الشام ومصر**)، كمـــا يعتقد العلمـــاء، كتـــاب زيفه واحد أو أكثر من المحدثين ولا نعلم فى أى عصر على وجه التحـديد ولكنهم جمعـوا فيه بين الحـــكايات الملفقة وحـــكايات مغامرات المسلمين الأولى ولكى يعطوا مصداقية لزيفهم أذاعوا أن هذا الكتـــاب من تأليف الواقـدى وهو مؤرخ شهير من القرن التاسع. ومن بين المخطوطات الكثيرة الموجودة منه فى أوربا توجد مخطوطة فى المتحف البريطانى (مكتبة البحوث، برقم ٧٣٦١) وملحق بها مجموعة من الملحقات يتناول أحدها الغارة الأولى التى قام بها المسلمون على صقلية. ويبدو لى أنه يوجد أساس صحيح يمكن استخلاصه بسهولة من الخرافات المحيطة به، وأعتقد أنه من الممكن أن نثبت أن كاتب هذا الملحق قد عاش فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر. ولهذا فإنى وضعته فى المجموعة. وسوف تظهر التفاصيل فى أحد هوامش هذا المجلد، ص ١٦٣

٢٧- **ابن شبّاط**، (القاضى عبدالله محمد بن على) من توزر فى أفريقيا وقد علق على ديوان شعر كتبه فى القرن الحادى عشر عبدالله بن يحيى من شكراتيس وهى قلعة بالقرب من قفصة فى أفريقيا. وفى تعليقه المعنون **ديوان صلة السمات** الخ جمع أخبار كتاب ثقات فى شئون فتح أفريقيا وأسبانيا وفقرات أخرى فى الترجمات والجغرافيا. ويبدو أن ابن شـــبّاط قد عاش فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر وقد أرسل لى م. الفونس روســو المترجم الأول بالمفوضية الفرنسـية بتونس بعض المُستلات من هذه المخطـــوطة القديمة الجميلـــة التى يمتلكها؛ ثم سـمح لى عندمـــا حضــر إلى بـــاريس أن أنسخ منها ما أشاء. وهكذا أخذت عن ابن شبّاط إشارة إلى هجمات مسلمى أفريقيا على صــقلية وبعض المعلومـــات الجغرافية واللغوية.

٢٨ - **عمـــاد الـدين الأصفهانى**، (أبو عبدالله محمد) ولد سنة ١١٢٥ وتوفى سنة ١٢٠١ وكان مديراً لأحد المكاتب العمومية فى ما بين النهرين ثم أستاذا بجامع دمشق، ووزيرا لنور الدين وأمين سر صلاح الدين. وقد مارس الأدب بشغف وحماس وجمع عددا كبيرا من الكُتب. وعند وفاة صلاح الدين (١١٩٣) وعدم رضاء الأمراء الجدد عنه، أخذ يُملى كتبه ومن بينها الكتابين اللذين نذكره من أجلهما هنا.

الكتاب الأول عنوانه **خريدة القصر** وهو عبارة عن مختارات من الشعراء العرب فى القرن الثانى عشر ومن بعض الشعراء الأقدمين وخصص نصف مجلد للشعراء الصقليين. وقد جمع عماد الدين بنفسه جانبا من أعمالهم وأما الجانب الآخر فقد أخذه من مختارات الصقليين لابن بشرون وابن القطـــاع والأســبانى أبو الصلت أميه وقد أشرنا إليهم فى الجزء الأول من هذا البيان. وفى مجلدات عماد الدين الأخرى نجد أشعاراً صقلية أو كتبت فى صقلية متناثرة هنا وهناك بل وقصيدة فى رثاء ابن الملك روچيرو. ويقدم عماد الدين نبذة عن حياة كل شاعر وإشارة نقدية ومقطوعات شعرية أو من النثر الأدبى. ويبلغ مجموع الشعراء الذين ينتمون لصقلية الذين تناولتهم **الخريدة** ثمانية وستين شاعراً. وقد يشغل نص أشعارهم ١٢٠ صفحة، أما النبذات عن حياتهم التى أنوى تقديمها فقد تشغل ست عشرة صفحة. وتنقسم **الخريدة**، التى تتكون من عدة مجلدات يختلف عددها باختلاف النُسَخ(1)، إلى أربعة أجزاء. فى الأول شعراء العـراق، مخطـوطة ليـدن ٢١ أ،

(1) ابن خلكان، ترجمة م. دى سلان، المجلد الثانى ص ٣٠٦، ويؤكد أن **الخريدة** لم تنشر لأنها كانت تقع فى عشرة مجلدات. وتبرهن مخطوطات باريس ولندن عدم صحة هذا التأكيد وأن هناك نسخا أخرى فى عدد أكبر من المجلدات. وهذا ما تؤكده أيضاً مخطوطة باريس، والملحقات العربية ١٠٥١، والتى لا تنطبق تماماً مع *Ancien Fonds* ١٣٧٥ أو مع مخطوطة لندن.

ومخطوطـــات باريس *Ancien Fonds* ١٤٤٧ و١٣٧٣. وفى الثانى شعراء بلاد فارس، مخطوطة أكسفورد ومخطوطات ليدن ٢١ ب و٣٤٨ وارنر. وفى الثالث شعراء الشام وشاطئ الفرات وآسيا الصغرى وشبه الجزيرة العربية، مخطوطة ليدن ٥٤٨ وارنر جزئيا، وباريس *Ancien Fonds* ١٤١٤ جزئيا. وفى الجزء الرابع مصر، مخطوطة باريس، *Ancien Fonds* ١٣٧٤؛ وفى القسم الثانى صقلية وأفريقيا، مخطوطة باريس، *Ancien Fonds* ١٥٧٥، ومخطوطة لندن، المتحف البريطانى، ريش ٧٣٩٣، وكلاهما يمثل المجلد رقم ١١ فى نسختين متشابهتين، والقسم الثالث، أسبانيا، مجلدات باريس، *Ancien Fonds* ١٥٧٦ وملحقاتها العربية ١٠٥١.

وقد عنون عماد الدين الكتاب الثانى **الفتح القسى فى الفتح القدسى**، إذ إن قسا، وهو كاهن مسيحى معاصر لمحمد (عليه السلام) كان يعتبر خطيب العرب المفوه. وفى الواقع أن المؤلف يستخدم فى وصفه لعملية صلاح الدين هذه استعارات كثيرة، وكلمات غير معتادة وعبارات غريبة وكلمات طنانة على غير المعتاد فى أسلوبه المتواضع. جاء فى هذا الجزء الفصيح الحديث عن حملة الأدميرال مرجاريتونى الذى أرسله جوليلمو الطيب إلى سواحل الشام على رأس أسطول صقلى. وقد استقيت فصلين من مخطوطات باريس، *Ancien Fonds* ٧١٤ و٧١٥. عن هذا المؤلف راجع: م. رينو، *Extraits des AuteursArabes.... relatif aux Croisades* المقدمة، ص ١٧ و١٨؛ وابن خلكان المرجع المذكور.

٢٩- **الملك المنصور**، أمير حماة فى سوريا، كتب فى سنة ١٢٠٥ **أخبار الملوك...فى طبقات الشعراء**. وتقتنى منه مكتبة ليدن نسخة معاصرة. وقد أرسل لى الأستاذ دوزى مستلة خاصة بثلاثة شعراء صقليين. لمزيد من المعلومات عن هذا العمل أنظر كتالوج دوزى، المجلد الأول، ص ٢٨٨، رقم ٨٨٤.

٣٠- **الهروى**، (على بن أبى بكر)، المولود فى الموصل والمعروف عن حق بالسايح، وقد وصل خلال ترحاله إلى صقلية بعد سنة ١١٧٣، وتوفى فى حلب سنة ١٢١٥. وفى كتابه المعنون **كتاب**

الإشارات الخ يذكر خبراً عن بركان إتنا نشر السيد صمويل لى نصه وترجمته الإنجليزية فى هامش **رحـلات ابن بطـوطة**(1). عن المـؤلف ارجـع إلى رينو، *Géographie d'Aboulfeda*، المقدمة، ص ١٢٧إلى ١٢٩.

٣١- **ابن جبير**، (أبو حسين محمد بن أحمد) من أبناء قبيلة كنانة العربية، ولد فى ڤالنسا سنة ١١٤٥ وقد مر بصقلية من ديسمبر ١١٨٤ وحتى فبراير ١١٨٥، وفى روايته لرحلاته بعنوان **رحلة الكنانى** كتب أخباراً مهمة عن أحوال مسلمى الجزيرة. وتوجد المخطوطة فى مكتبة ليدن وبعد أن حصلت على نسخة من الجزء الخاص بصقلية من الأستاذ دوزى، نشرت النص وترجمته للفرنسية فى *Journal Asiatique* المجموعة الرابعة، المجلد السادس، ص ٥٠٧، والمجلد السابع، ص ٧٣ و٢٠١ (١٨٤٥ و١٨٤٦)، ثم الترجمة الإيطالية فقط فى **المحفوظات التاريخية الإيطالية**، المجلد ٤، الحاشية رقم ١٦، (١٨٤٧). وقد عدَّل الشيخ محمد عياد الطنطاوى وهو أول علماء العربية فى المشرق، بعض مضامين النص وبعض جمل الترجمة وكتب رسالة لهذا الغرض إلى م. مُهل بمعهد فرنسا وقد تم نشرها فى *Journal Asiatique* المجموعة ٤، المجلد التاسع، ص ٣٥١ (١٨٤٧). وقد نشر السيد و. رايت مؤخراً رحلة ابن جبير كاملة وهى صحيحة بدرجة كبيرة وبها ملاحظات جيدة ووعدنا بترجمة إنجليزية لها(2).

٣٢- **ابن حمّاد**، (القاضى أبو عبدالله محمد بن على) وهو أفريقى كتب سنة ١٢٢٠ عن تاريخ القضاعى وعن أعمال أخرى ليست متوفرة لدينا وعن تأريخ معنون **النبذات المحتاجة فى أخبار ملوك صنهاجة**. ويتناول الباب الخاص بحكم الفاطميين فى أفريقيا بعض التفاصيل عن تاريخ

(1) *The Travels of Ibn Batuta*، لندن ١٨٢٩ص ٦.

(2) *The Travels of Ibn Jubair, Leiden, 1852.*

صـقلية. والمخطوطة صغيرة بكتابة أفريقية من مقتنيات م. شـيريونو، الذى ترجـم جزءاً منها إلى الفرنسـية فى *Journal Asiatique* المجموعة ٤، المجلد العشرين، ص ٤٧٠؛ وقد تكرّم بأن أرسل لى فى باريس المخطوطة الأصلية فأخذت منها الأجزاء الخاصة بموضوعنا. ولما لم يطلع م. ساسى على هذا العمـل فإنه نسب إلى ابن حماد (فى *Chrestomathie Arabe*) المجلد الثانى، ص ٢٩٦، عملاً آخر نعرف الآن مؤلفه الحقيقى.

٣٣- **عبد الواحد**، (أبو محمد بن على) من مراكش، ولد سنة ١١٨٥، وأملى سنة ١٢٢٤ تاريخاً عنوانه: **المعجب فى تلخيص اخبار المغرب** وقد طبع دوزى النص(1) وقبل نشره أرسل لى فصلاً عن السلام الذى تم التوقيع عليه بين جوليلمو الثانى ملك صقلية والخليفة الموحدى أبى يعقوب. وقد استخدمت هذا وإشارات أخرى فى تاريخ الموحدين.

٣٤. **ياقوت**، رقيق يونانى عاش فى سوريا وما بين النهرين وفارس وتوفى سنة ١٢٢٩؛ ألف معجمين جغرافيين عنوان أحدهما **المشترك** الخ ونشره المثابر وستنفلد(2) وسوف استقى منه المقالات القليلة عن صقلية. أما الآخر وعنوانه **معجم البلدان** فتوجد منه مخطوطتان فى إنجلترا إحداهما غير كاملة وهى فى أكسفورد، الكتالوج، المجلد الأول، ص ٢٠١ برقمى ٩٢٨ و٩٢٩ أما الأخرى فكاملة تقريباً وهى فى المتحف البريطانى فى مجلدين، برقمى ١٦٦٤٩ و١٦٦٥٠. **والمعجم** قاموس به معلومات عن بلاد مختلفة. وبفضل السيد و. رايت حصلت على نسخة من مقالات مخطوطة أكسفورد المتعلقة بصقلية وأنوى استكمال هذه المُستلات من مخطوطة المتحف البريطانى. ثم وصلنى أخيراً المختصر المعروف بالمعجم الذى يُعتقد أنه بقلم المؤلف نفسه وعلق عليه كتاب محدثون

(1) *The History of the Almohades by Abdo-l-Wâhid, Leidn,* ١٨٤٧.

(2) *Jacut's Moschtarik, Guttingen,* ١٨٤٦.

وعنوانه **مراصد الاطلاع** الخ(1). وقد تصفحت نموذجاً منه وهو نموذج ليدن، مخطوطة ٢٩٥ وتوجد منه نسخة حديثة فى مكتبة باريس، وملحقاتها العربية ٨٩١. وقد بدأ الأستاذ جوينبول فى ليدن فى نشر نصه.

٣٥-**ابن الأثير**، (عز الدين أبو الحسن على) ولد سنة ١١٦٠ فى عائلة عربية من الأشراف فى مدينة جزيرة فيما بين النهرين. وفى شبابه خاض حروب صلاح الدين وقام بمهام سياسية فى بغداد؛ ولكنه أحب أن ينعزل فى بيته بالموصل وأن يبقى بين كتبه وألا يتحدث إلا مع العلماء من أهل المدينة ومن الغرباء عنها الذين كانوا يذهبون لزيارته. وقد ساعدت حياته العامة السابقة وقرن الحروب الصليبية وكذلك أطلال نينوى التى كان يطل عليها كل يوم على توجيه عبقريته نحو التاريخ. وقد توفى سنة ١٢٣٣. وكتب مؤلفات عديدة من بينها **كامل التواريخ**.

وفى الحقيقة يستحق هذا الكتاب عنوانه بالنسبة للشرق بدءا من القرن السابع وحتى بداية القرن الثالث عشر سواء بسواء مع حوليات موراتورى بالنسبة لنا فى العصر الوسيط لو أن الجزء الأكبر من *Rerum Italicarum Scriptores* قد ضاع. ويبدأ الكامل بحديث مقتضب عن فضل التاريخ ويستعرض الترتيب الزمنى المستخدم عند مختلف الأقوام، ويلمس بشكل عام القوى القديمة: اليهود والفرس والعرب والرومان وأوائل المسيحية وعندما يتطرق إلى محمد فإنه يروى باستفاضة بطولات النبى والمسلمين. ومنذ بداية الهجرة وحتى سنة ٦٢٨ (١٢٣٠-٣١) يتبع المؤلف هذا الترتيب: يذكر الأحداث المهمة سنة بعد سنة فى أبواب كثيرة منفصلة ويسجل فى نهاية كل سنة الأحداث قليلة الأهمية وأخبار الوفيات فى فصل بعنوان «ذكر عدة أحداث». وعلى كل حال فإن ابن الأثير لا يتبع منهج الترتيب الزمنى بشكل قاطع بل يجمع فى الأبواب الكبيرة كل ما يرتبط بالحدث ذاته وما وقع قبله وبعده. فعلى

(1) انظر، رينو، *Géographie d'Aboulfeda* المقدمة، ص ١٢٤ وما بعدها.

سبيل المثال وقع الفتح الإسلامى لصقلية فى سنة ٢١٢ هجرية عندما نزل جيش المسلمين فى مازارا، ولكن روايته تبدأ بتمرد اوفيميو أى قبل هذا بسنة أو بأكثر من سنة وتنتهى سنة ٢٢٣. وكذلك روايته للغزو النورمانى الذى وقع سنة ٤٨٤ تبدأ بما يراه ابن الأثير سبب سقوط إمارة الكلبيين سنة ٣٨٨ وتستمر حتى وفاة الكونت روچيرو سنة ٤٩٠ والى الترتيبات السياسية التى قام بها الملك روچيرو. ويمكن أن نلاحظ الشئ نفسه فى مئات ومئات أخرى من الأحداث.

وبالإضافة إلى هذا المنهج الرائع، فإنه ينبغى علينا أن نبدى إعجابنا، مع اعتبار زمن المؤلف وأدواته، بجهد المؤلف ورؤياه فى اختيار الروايات ومقارنتها ودمجها معاً : حتى إن المسيحية لم يكن لديها فى العصر الوسيط مؤرخاً يمكن مقارنته به. واليوم قد لا أقدمه نموذجاً للنقد: فنادر جداً ما يذكر المصادر ولا يقول عنها شيئا أو يكاد لا يقول عنها شيئا فى المقدمة. ومثل كثير من العرب وغير العرب ينقل أحياناً عن كتّاب أسبق منه فيبتر روايتهم ولا يذكرهم : ولكنه فى أغلب الأحيان يؤلف بنفسه بأسلوب يتسم بالإيجاز أو بالأحرى يصل إلى لب الموضوع مباشرة، وبأسلوب منصف أو بالأحرى غير متحيز؛ إلا أنه عندما يتعرض لزمنه مؤرخا له فإنه يفقد هذا الإيجاز وتؤرقه العواطف فتخدعه الجزئيات. ومع كل هذه العيوب فإن الكامل هو أوسع وأكبر عمل منظم وصل إلينا عن القرون الستة الأولى للإسلام ويتفوق سواءً على حوليات أبى الفدا أو موجز الماشين وأبى الفرج. إن أوربا ستقوم بخطوة هامة نحو دراسة الشرق متى أخذت إحدى الجمعيات العلمية فى طبع الاثنى عشر مجلدا أو أكثر التى نحتاج إليها لطباعة نص ابن الأثير.

لقد زودنى هذا المؤلف بمعلومات تفصيلية كثيرة مجهولة حتى الآن. إن الثمانين فصلا التى أخذتها عنه، الطويل منها والقصير، تتناول ستة قرون بدءا من سنة ٣١ وحتى سنة ٦٢٥ للهجرة، وإذا ما جمعناها معا فإنها تشكل تاريخا كاملا لعلاقات المسلمين مع صقلية؛ ومن بين هذه الفصول هناك ستون فصلا

لم تنشر من قبل(1). لقد نسختها من المخطوطات التالية التى سأشير إلى الثلاث الأولى منها بحروف الهجاء إذ إنها ضرورية لكل فقرة من فقرات الاستشهاد.

أ - مخطوطة باريس، الملحقات العربية ٧٤٠، فى ستة مجلدات من سنة ١٥٥ إلى سنة ٦٢٨ مع ثغرة لنصف قرن وثغرات أخرى أقل مدة. إن المجلدات الستة لم يكتبها كلها ناسخ واحد ولكن الناسخ الذى كتب الجزء الأغلب منها كتابته واضحة وصحيحة.

ب - مخطوطات بودليانا بأكسفورد.

١- مجلدان، مارش ٣٢٤، الكتالوج، الجزء الأول، رقم ٧٣٧، ويشملان الفترة من سنة ٢٩٦ إلى سنة ٣٦٩.

٢- مجلد، بوكوكى ٣٤٦، الكتالوج، الجزء ١، رقم ٦٩٣ ويبدأ من سنة ٥٠٢ وحتى ٥٧٢ ومن خلاله غطيت الثغرة الموجودة فى المخطوطة أ وحققت الباقى. أما المجلدات الأربعة الأخرى المنفصلة الموجودة ببودليانا، الكتالوج، المجلد الأول، بأرقام ٦٩٤ و٦٩٦ و٧٨٤ و٧٦٤، فقد وفرت لى بعض البدائل.

جـ - مخطوطة باريس، الملحقات العربية ٧٤٠ مكرر، خمس مجلدات من بداية الكتاب وحتى سنة ٦٢١، قام بشرائها فى القسطنطينية سنة ١٨٤٦ البارون دى سلان لحساب مكتبة باريس؛ وأول المجلدات تم نسخه وتمت مراجعة جميع المجلدات بواسطة هذا المستشرق العظيم مع مخطوطات مكتبات القسطنطينية. إنها النسخة

(1) إن الأجزاء المنشورة نشرها السيد دى فرچيه سنة ١٨١١، فى حواشى على ابن خلدون *Histoire de l'Afrique et de la Sicile* وتورنبرج فى *Kartas* أى فى حواشى على *Annales Regam Mauritaniæ* المجلد الثانى، ص٤١١ وما بعدها. وسوف تصدر أجزاء أخرى فى *Recueil des Historiens des Croisades publié par l'Acadèmie des Inscriptions* المجلد الأول الذى يجرى طبعه حاليا بإعداد م. رينو. وقد نشر تورنبرج سنة ١٨٥٠ مجلدا لابن الأثير من سنة ٥٢٧ إلى ٥٨٣. وقد قدم دوزى ودى فريمرى ومستشرقون آخرون فى كتبهم نص بعض الفصول التى كتبها المؤلف نفسه ولكنها لا تدخل فى إطار موضوعنا.

الوحيدة الكاملة فى الغرب ولا ينقصها سوى سنة ٢٧ هجرية وعدة من المتفرقات. لقد أفادتنى هذه المخطوطة فى مقارنة النسخ التى قمت بها على أساس المخطوطات المشار إليها فى أ وب.

وللغرض نفسه استخدمت بعض المتفرقات الخاصة بابن الأثير والموجودة فى مكتبة باريس، الملحقات العربية ٧٤١ و٧٤٣ و٧٤٤.

وختاما ساعدنى على تصحيح نص ابن الأثير الأمير بيبرس منصورى المتوفى سنة ١٥٢٥ وهو مُزَوِّر مكشوف نقل فى **زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة** حوليات ابن الأثير مختصرا إياها أو مزيدا عليها. ولابد أن نعترف بقدره إذ اعتمد على مخطوطات جيدة ولأن نسخ مجلدى كتابه التى بقيت رائعة الكتابة. وهنا أتحدث عن المجلد الخامس، فى باريس *Ancien Fonds* ٦٦٨ والذى يبدأ من سنة ٢٥٢ وحتى سنة ٣٢٢ والمجلد السادس فى أكسفورد (هنت ١٩٨) ويصل إلى سنة ٣٩٩ مع وجود بعض الثغرات.

٣٦- **بهاء الدين**، (أبو المحاسن يوسف بن شدَّاد) من مواليد ١١٤٥ وتوفى سنة ١٢٣٥ وكان صديقا حميما لصلاح الدين وقاضى جيشه ثم قاضيا للقدس؛ ودون أن يذكر اسم نورمان صقلية يشير إلى مغامرتهم ضد الإسكندرية فى **سيرة السلطان ... صلاح الدين** الخ. وقد أخذت هذا الاستشهاد من النص الذى نشره شولتنس، ليدن ١٧٥٢، ص ٤١، حيث يروى قصة المغامرة بإيجاز: وهذا ما يؤكد ملاحظة م. رينو(1). بأن بهاء الدين مصدر موثوق بالنسبة للثلاثين سنة الأخيرة من حكم صلاح الدين وليس بالنسبة لمغامراته الأولى.

٣٧. **تاريخ الحكماء**، لمحمد ابن على المعروف بالزوزنى. وهو ملخص لكتاب مهم بالعنوان نفسه كتبه جمال الدين على القفطى وزير حلب المتوفى سنة ١٢٤٩. ومن المخطوطة فى مكتبات باريس وليدن أخذت

(1) *Extraits des Historiens Arabes...relatifs aux Croisades* ص ١٦.

ترجمة أرشيميدس وإمبدوكلى. وترجمة الأخير، والتى لايمكن لصقلى أن يغفلها، مهمة جدا لأنها تشير إلى كتاب لفيلسوف أجرجنتو الذى كان نصه العربى موجودا فى القرن الثالث عشر بالقدس. ولقد أفدت من مخطوطة باريس، الملحقات العربية ٦٧٢. عن **تاريخ الحكماء** ارجع إلى كازيرى **المكتبة العربية الأسبانية**، الجزء ٢ ص ٣٣٢ برقم ١٧٧٣ والذى يفترض كتابته فى القرن الثانى عشر؛ ونريش، *De Auctorum Græcorum versionibus* الخ، ليبزج ١٨٤٢، المقدمة؛ رينو، *Géographie de Aboulfeda* المقدمة ص ٥٢ هامش رقم ٤، ودوزى كتالوج مخطوطات ليدن العربية، المجلد الثانى، ص ٢٨٩ برقم ٨٨٥.

٣٨ - **أبو سعيد بن إبراهيم**، وهو صقلى ألّف كتاب **المُنجح** الخ. وهذا الكتاب الذى لم يذكره حاجى خليفة موجود فى بودليانا (مارش١٧٣، الكتالوج، المجلد الأول رقم ٦٦٤) ونقلت عنه المقدمة. وتتفق المخطوطة مع وجود اختلافات قليلة مع مخطوطة باريس، *Ancien Fonds* ١٠٢٧ والمعنونة **تقويم الأدوية المفردة** لإبراهيم بن أبى سعيد المغربى. ويدل اسمه على أنه كان ابن الطبيب الصقلى.

٣٩ - **أحمد بن عبد السلام**، وهو شريف أى من سلالة على، وهو صقلى ألّف كتابا آخر فى الطب، وهو مخطوطة ليدن (كتالوج ١٧١٦ برقم ٧٢٧، ولم أجد عليها عنوانا، وما هو مكتوب فى الكتالوج ينبغى تصحيحه **كتاب الأطباء فى الأمراض من الفرق إلى القدم**. وقبل أن أدرس المخطوطة، كان الأستاذ دوزى قد أرسل إلى نسخة مما يلزم وضعه فى المختارات، أى المقدمة وفهرست العشرين باباً الذين تشملهم المخطوطة. ويتناول حاجى خليفة بكل تأكيد المؤلف نفسه وكتابا آخر فى مقالته التالية: «**كتاب حفظ الصحة الخ**» للشريف أحمد بن عبد السلام الصقلى التونسى؛ لخصه أبو فارس عبد العزيز بن أحمد فى ثمانين باباً(1). ولم يشر هذا الكتاب أو

(1) طبعة فلوجل، المجلد الخامس، ص ٧٥، رقم ١٠٠٥٧.

غيره إلى العصر الذى عاش فيه المؤلف.

٤٠ – **ابن الجوزى**، (شمس الدين أبو مظفر يوسف) توفى سنة ١٢٥٦، ويذكر فى **مرآة الزمان**، مخطوطة باريس *Ancien Fonds* ٦٤١، خبرين مختصرين عن مسلمى صقلية.

٤١ – **ابن الأبار**، (أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن أبى بكر) من فالنسيا وهو أمين سر حكام هذه المدينة المسلمين فى منتصف القرن الثالث عشر، ثم لبنى حفص من تونس، وقد أُعدم سنة ١٢٦٠ وحرق جثمانه مع مؤلفاته لجريمة فى حق الدولة وبسبب بيت من الشعر وجدوه فى بيته ضد الأمير الحفصى المستنصر.

وقد أملى ابن الأبار، إلى جانب أعمال أخرى، **الحلة السيراء** الخ وهى مجموعة ترجمات لشعراء من السلالة الملكية فى أسبانيا وأفريقيا. ومن مخطوطة تمتلكها الجمعية الآسيوية بباريس، وهى نسخة حديثة قام بها واحد من الإسكوريال حصلت على أخبار قيمة عن الأغالبة الأفريقيين إذ أن المؤلف جمع وحقق باجتهاد كثيراً من الكتب التاريخية التى لم تصل إلينا(1).

٤٢ ـ **ابو شامة المقدسى**، (شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن بن إبراهيم) من القدس كما يظهر من لقب المقدسى، ولد سنة ١٢٠٢ وتوفى سنة ١٢٦٧ وألّف **كتاب الروضتين**، فى تاريخ أسرة نور الدين وصلاح الدين وفيه نسخ كتباً مختلفة وصلت إلينا وأخرى لم تصل والعديد من الوثائق. وقد أخذت من هذا الركام الأبواب الخاصة بالحملات التى أرسلها جوليلمو الطيب إلى الإسكندرية بمصر وإلى سوريا. واستخدمت مخطوطات باريس، الملحقات الفرنسية ٢٥٠٣، ١٣ أ، وهى نسخة غير دقيقة وحديثة، والمقتنيات العربية ٧٠٧ أ، وترجع إلى القرن ١٧، عن هذا المؤلف

(1) انظر ابن خلدون، **تاريخ البربر**، وهو نص عربى مطبوع فى الجزائر، المجلد الأول ص ٤٢٩ وما بعدها؛ وجيانجوس *Mohammedan Dynasties in Spain by Makkari* المجلد ٢، ص ٥٢٨ وما بعدها، هامش ٢٠، ودوزى *Histoira Abbadidarum* المجلد الثانى، ص ٤٦.

انظر: رينو *Extraits des Historiens..relatifs aux Croisades* ص ٢٠، وكاترمير *Histoire des Sultans Mamlouks par Makrisi* المجلد ١، الجزء ٢، ص ٤٦.

٤٣ – **ابن سبعين**، (قطب الدين أبو محمد عبد الحق بن إبراهيم) ولد فى مورثيا سنة ١٢١٧ وتوفى فى مكة منتحراً فى ١٢٧١؛ وعندما كان فى سبته حوالى سنة ١٢٤٠ أملى مبحثاً فى الفلسفة بعنوان **المسائل الصقلية**، وفيه كان يرد على القضايا التى طرحها الامبراطور فردريك الثانى ملك صقلية على العلماء المسلمين. وهذا الكتاب الموجود فى مكتبة بودليانا فى أكسفورد (هنت ٥٣٤) يلقى بعض الضوء على الدراسات التى كانت الحضارة الإسلامية تقوم بها آنذلك فى صقلية وفى شبه الجزيرة الإيطالية. ولكنه يهتم كذلك بموضوعنا. وقد كتبتُ تقريراً عنه فى *Journal Asiatique* فى السنة الماضية ١٨٥٣. وسوف أضع فى مجموعة النصوص المقدمة والمسائل التى طرحها فردريك الثانى.

٤٤ – **ابن أبى أصيبعة**، (موفق الدين أحمد بن قاسم) ولد فى بداية القرن ١٣ وتوفى فى النصف الثانى من القرن نفسه وكتب **عيون الأنباء فى طبقات الأطباء**. وهناك وفى حياة ابن جلجل (أبو داود سليمان بن حسن) وهو طبيب مشهور فى بلاط قرطبة فى النصف الثانى من القرن العاشر، نقرأ جزءا لابن جلجل نفسه يصف فيه الجهود التى بذلت فى أسبانيا سنة ٩٥٢ لترجمة كتاب *Dioscoride* من اليونانية إلى العربية والتى شارك فيها أبو عبدالله الصقلى وكان يتكلم اليونانية ـ كما يقول ابن جلجل ـ وكان على معرفة بعلم النبات والطب. وسوف أنقل هذا الجزء وفصلا عن إمبدوكلى. الأول نشره بالعربية والفرنسية م. دى ساسى عن مخطوطة باريس، *Ancien Fonds* ٨٧٣(1)، وأضيف إلى نصه البدائل الواردة فى المخطوطتين الأخرتين،

(1) فى كتاب: *Relation de L'Egyte par Abdel Latif*، الحاشية، ص ٤٩٥ وما بعدها. وقد قدم الأستاذ جيانجوس فى *The History of the Mohammedain Dynasties in Spain* المجلد ١، الحاشية، ص ٣٥ و٣٦، ترجمة إنجليزية له.

الملحقات العربية ٦٧٣ و٦٧٤. عن المؤلف انظر ساسى نفسه(1) وحاجى خليفة(2).

٤٥ - **ابن سعيد**، (أبو الحسن على) وقد أشرت إليه فى الجزء الأول من هذا البيان برقم ١٠ وقد ترك، إلى جانب أعماله الأخرى، **مختصر الجغرافيا** وقد وصلت نسخة منه إلى يدى أبي الفدا الشهير وتوجد الآن فى مكتبة باريس، الملحقات العربية ١٩٠٥. وقد أخذت منها ما يتعلق بصقلية والجزر المجاورة : وهو وصف موجز لكنه متقن. عن هذا العمل الجغرافى راجع رينو، *Géographie de Aboulfeda*، المقدمة، ص ١٤١.

٤٦- **النواوى**، (محى الدين أبو زكريا) ولد سنة *1233* وتوفى *1277*. فى **تهذيب الأسماء** الخ. يذكره أحد النحاة والفقهاء الصقليين باسم أبى حفص عمر بن خلف بن مكى. وقد أخذت هذه الفقرة من وستنفلد، جوتينجا، ١٨٤٢-١٨٤٧.

٤٧- **ابن خلكان**، (شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد) ولد فى أربيل سنة ١٢١١ وتوفى سنة ١٢٨٢ وقد كان فقيهاً، وعالماً فى الشريعة، وفى النحو، وقاضياً فى دمشق والقاهرة؛ كان رجلا فاضلا قاده ابن الأثير إلى الدراسات التاريخية وتتلمذ على يديه فى شبابه. ولدينا من ابن خلكان معجمه فى تراجم أعلام رجال الإسلام وعنوانه **وفيات الأعيان**، الذى أخذ البارون دى سلان فى نشره وهناك ترجمة انجليزية له(3).

وانتهى السيد وستنفلد من تحقيق العمل ونشره أيضاً(4). وقد أخذت عن ابن خلكان تراجم عديدة لأعيان من صقلية سأضعها ضمن مجموعتى وسوف استخدم

(1) المرجع نفسه، ص ٤٧٨.

(2) نشريات فلوجل. المجلد ٤، ص ١٣٣، ٢٨٨ رقم ٧٨٨٣ و ٨٦٤٠.

(3) **كتاب وفيات الأعيان** تأليف ابن خلكان نشره البارون ماك كوكين دى سلان، باريس ١٨٤٢، المجلد الأول، النص العربى، *Ibn Khallikan's Biographical Dictionary* الترجمة، المجلد ٢،١ باريس ١٨٤٢، ١٨٤٣. ولم ينشر المجلد ٣. وقد حصلت على عدد من أوراقه بفضل المترجم. رينو.

(4) ابن خلكان، *Vitæ illustrium viroruna*، جوتينجا، ١٨٣٥

الطبعتين المذكورتين وكذلك مخطوطات باريس، الملحقات العربية ٧٠٢ ومخطوطة أخرى من مقتنيات م. رينو.

٤٨- **القزوينى**، (زكريا بن محمد بن محمود) توفى سنة ١٢٨٣ وله كتابان نشرهما مؤخراً وستنفلد وعنوان أولهما **عجائب المخلوقات** وثانيهما **آثار البلاد** وكما أشرنا سابقاً فإن القزوينى يذكر كتابا فى تاريخ صقلية لم يصل إلينا. ويكرر فى كتابيه بعض مقتطفات أخذها عن جغرافيين أسبق منه وتتناول صقلية وبركان إتنا على وجه الخصوص. ويذكر حدثاً تاريخياً بالغ الأهمية عن مالطة ربما أخذه عن كتاب التاريخ المذكور، وخبراً مثيراً عن ساعة لها رنين، صنعت ليستخدمها الملك، وربما كان الملك روچيرو الأول ملك صقلية وتغنى بها شاعران من مالطة فى أشعارهما، وقد ذكر أحدهما عماد الدين الأصفهانى فى مختاراته.

وتوجد مخطوطات عديدة لكتاب **العجائب** فى باريس، أى فى المقتنيات القديمة ٩٩٠، وملحقاتها العربية من ٨٦٤ إلى ٨٦٧؛ كما توجد مخطوطتان لكتاب **آثار البلاد**، الملحقات العربية ٦٥٨ و٩١٥. ولقد استخدمتها لتحديد بعض البدائل لما ورد فى إصدارات وستنفلد الصحيحة جداً. والتى تمت على أساس مخطوطات أفضل.

٤٩- **البيان**، لابن عذاري المراكشى كتبه سنة ١٢٩٩ بدقة عن كتب ليست لدينا، وهو يأتى بأخبار جديدة عن تاريخ أسبانيا وأفريقيا وصقلية. وتوجد منه مخطوطة واحدة اشتراها جوليو فى المغرب وهى من مقتنيات مكتبة ليدن (رقم ٦٧ جوليوس)، ونشر الأستاذ دوزى النص مذيلاً بحواش علمية ومعجم ومقدمة رائعة عن المؤرخين العرب لأسبانيا(1). والمخطوطة بكل أسف مبتورة كما أن كاتبها لم يجد التسلسل المستمر لحوليات القرون الخمسة التى يشملها هذا العمل. وتوجد بها فقرات كثيرة من **مختصر** عريب الذى أشرت إليه برقم ٩. وقد أرسل لى دوزى قبل النشر المستلات الخاصة

(1) المعنون: البيان المغرب، *Histoire de l'Afrique et de l'Espagne*، ليدن، ١٨٤٨، ١٨٥١ فى مجلدين.

بصقلية والتى تلقى ضوءا جديدا على علاقات المسلمين بهذه الجزيرة حتى النصف الأول من القرن العاشر وفى النصف الأول من القرن الثانى عشر. وسوف أقدم هذه الفقرات طبقا لطبعة دوزى.

٥٠ – **التيجانى**، (أبو محمد عبدالله) وهو من كبار رجال بلاط تونس وترك لنا تقريرا عن رحلة قام بها فى تلك الدولة من ديسمبر ١٣٠٦ حتى يوليو ١٣٠٩، مع الأمير الحفصى أبي يحيى زكريا الذى تبوأ عرش تونس بعد هذا بسنوات قليلة. وكان الهدف الظاهر من هذه الرحلة هو الضغط على الحصار المفروض على القلعة والذى كانت تقوم به قوات صقلية فى جزيرة جربة. وبالإضافة إلى الأخبار التى تتناول هذا الحدث من أحداث تاريخ صقلية فإن التيجانى يقدم أخباراً جديدة وكثيرة عن الأزمنة السابقة استخلصها من أبحاث دقيقة عن التاريخ الأدبى والسياسى للمدن التى كان يمر بها. وتوجد تفاصيل كثيرة عن أعمال نورمان صقلية على الساحل الأفريقى فى القرن الثانى عشر، وعن حياة الأميرال الصقلى الشهير چورچيو الأنطاكى وعن أبى حسن فريانى وتضحيته السامية بحياته على غرار أتيليو روجولو وموته بالمقصلة على ضفاف نهر أوريتو فى بالرمو، الخ.

إن هذا الكتاب، وعنوانه **رحلة التيجانى** وجده م. الفونس روسّو وقدمه مترجما فى *Journal Asiatique*(1) وأهدى مخطوطة النص لمكتبة باريس، الملحقات العربية ٩١١ مكرر. ولقد تكرم م. روسّو بمنحى بعض المستلات من النص؛ فأزدت عليها للتو من مخطوطة باريس وسوف تكون جزءا قَيِّماً من أجزاء مجموعتى.

٥١– **القرطاس**، وهو ما يطلق عادة على مؤلَّف جيد وقد كتب فى مملكة المغرب سنة ١٣٢٦ ونسب إلى أبى حسن على بن زرع. ويقدم فقرات قليلة ومعروفة عن حروب الصقليين فى أفريقيا فى القرن ١٢. وهو نص عربى لا يندر وجوده فى أوربا وترجمه دومباى إلى

(1) **المجموعة الرابعة، المجلد ٢٠، (١٨٥٢) والمجموعة الخامسة، المجلد ١، (١٨٥٣) وقد تم جمع هذه الأوراق وطبعت وحدها وتكوّن مجلدا فى ٢٩٠ صفحة.**

الألمانية، ومورا إلى البرتغالية وقام الأستاذ تورنبرج بنشر ترجمة لاتينية له مؤخرا مصحوبة بحاشيات علمية تحتوى على فقرات ونصوص عربية أخرى(1). وسوف أنقل عن طبعة تورنبرج الفقرات الخاصة بصقلية.

٥٢ – **الدمشقى** (شمس الدين أبو عبدالله محمد) وقد لقب بهذا اللقب لأنه وافد من دمشق، وتوفى هَرِماً سنة ١٣٢٧ بعد أن كتب **نخبة الدهر** الخ، وهو كتاب فى الجغرافيا ألفه دون تدقيق كما يقول م. رينو، ولكنه ذو قيمة إذ يحتوى على أمور لا توجد فى كتب أخرى(2). وهكذا وجدت باباً عن صقلية وعن جزر أخرى بالبحر المتوسط، وهو مكتوب على أساس مشاهدات وملاحظات معاصرة وهو بالتأكيد ليس مجرد موجز للإدريسى. وقد أخذت هذا الباب من مخطوطتين أى من مخطوطة باريس *Ancien Fonds*، ٥٨١، ومخطوطة ليدن، ٤٦٤ وارن. وكتالوج الأستاذ دوزى، المجلد ٢،ص ١٣٤، رقم ٧٣٥، والذى أرسل لى منه دوزى مُستلة.

٥٣– **ابو الفدا** (عماد الدين بن على) وهو من سلالة صلاح الدين الشريفة، ولد فى دمشق سنة ١٢٧٢، وتولى فى سنة ١٣١٠ إمارة حماة إرثا عن أسرته. وتوفى سنة ١٣٣١. وكما يعلم الجميع فإن مؤلفيه الأساسيين هما **تقويم البلدان** و**المختصر فى أخبار البشر**.

وقد نشر كل من رينو ودى سلان فى سنة ١٨٤٠ الكتاب الأول؛ ويقدم رينو حالياً ترجمة فرنسية ظهر منها المجلد الأول بمقدمة علمية عميقة تحتوى على حياة أبى الفدا وتاريخ الجغرافيا عند العرب.

وقد قلنا فى المختصر التاريخى كيف وصلت المستلات الخاصة بصقلية، مترجمة إلى اللاتينية، بين يدى إنڤيجز وكاروزو. وقد نشر ريسكى فى ليبزج فى سنة ١٧٥٤ ترجمة لاتينية للكتاب من ظهور الإسلام وما بعده، وقد أفاد منها دى جريجوريو *Rerum Arabicarum*.

(1) *Annales Regam Mauritaniæ* أوبسال، ١٨٤٣، ١٨٤٦ فى مجلدين.

(2) **جغرافية أبى الفدا**، المقدمة، ص ١٥٠ و١٥١.

وقد قام أدلر بطبع نسخة من النص العربى، كان قد تركها ريسكى دون نشر، وفى مقابله الترجمة اللاتينية للمقارنة(1). ولن أتحدث عن نشر ـ وترجمة ـ تاريخ ما قبل الإسلام وسيرة محمد الواردة فى المختصر لأنها بعيدة عن موضوعنا. إن حوليات أبى الفدا التى ألفها متأثرا فى بعض منها بابن الأثير وفى البعض الآخر بمؤلفات أخرى، إنما هى خلاصة مختصرات.

وسوف أقدم مُستلة من الجغرافيا عن النص المحقق ومُستلات من الحوليات عن نص أدلر وسأقارنه إذا اقتضى الأمر بمخطوطة باريس الأصلية التى كتبها أبو الفدا.

٥٤- **النويرى** (شهاب الدين بن عبد الوهاب) من قبيلة بكر العربية والملقب بالنوَيْرى أو بالنُويرى نسبة إلى القرية التى ولد فيها فى مصر سنة ١٢٧٨ أو ١٢٧٣ وتوفى سنة ١٣٣٢. وقد قام ـ كما يقولون فى فرنسا ـ بقص أجزاء من هنا وأجزاء من هناك ولصقها مكوناً مؤلَّفا موسوعيا فى ثلاثين مجلدا بعنوان **نهاية الأرب فى فنون الأدب**. وهو ينقسم إلى خمسة أجزاء : وصف الكون، ووصف الأمراض، وعلم الحيوان، وعلم النبات، والتاريخ(2)، ولدينا منه مجلدات منفصلة فى مكتبات مختلفة وخاصة فى باريس، وليدن، والإسكوريال وروما.

فى الجزء الأول يعطى النويرى لمحة جغرافية عن صقلية سوف أنشرها حسب النسخة التى تفضَّل دوزى بنسخها لى من مخطوطة ليدن، ٢٧٣ وارن. كتالوج دوزى نفسه، المجلد ١، ص ٤، رقم ٥.

ويضم الجزء الأخير تاريخ أفريقيا وصقلية الذى لم يكتب فقط على أساس ابن الأثير وإنما أيضا على أساس ابن رقيق وابن رشيق وابن شدّاد وغيرهم ممن لم يطلع عليهم المؤرخ أو أهملهم. وعموما فإن النويرى يروى فى

(1) بعنوان *Annales Moslemici,* كوبنهاجن، ١٧٨٩، ١٧٩١، ٥ مجلدات.

(2) انظر حاجى خليفة، طبعة فلوجل، الجزء ٥، ص ٣٩٧ رقم ٠٦٩، ١٤، كاترمير، *Histoire des Sultans Mamlouks par Makrisi* المجلد الثانى، الجزء ٢، ص ١٧٣، رينو: *Géographie d'Aboulfeda* المقدمة، ص ١٥١.

الغالب الأحداث نفسها بتفاصيل مختلفة، وإذا ما تمت دراستها دراسة نقدية جيدة فإنه يمكن التوصل إلى مقاصدها.

وتوجد الروايات التى تلمس موضوعنا فى مخطوطات باريس *Ancien Fonds* ، ٧٠٢ أ، و٧٠٢(1)، ٦٣٨ التى استمد الأخبار منها كاردونّى ودى جينيى، حتى أن الماركيز كراتشولى، نائب ملك صقلية المعظم، عندما سمع عنها من أصدقائه التونسيين اهتم بأن يحصل على النص العربى ليضم إلى المجموعة التى يقوم دى جريجوريو بجمعها برعايته. وقد اهتم برتلمى بالأمر فتم إرسال نص الفصل الخاص بصقلية بالترجمة الفرنسية له ولبعض الفقرات الخاصة بتاريخ أفريقيا لـ م. ج. ج. كوسان، والد أستاذ العربية الحالى م. كوسان دى برسيڤال. وهكذا قام دى جريجوريو بطبع النص مع وجود بعض الأخطاء فى *Rerum Arabicarum* وأضاف معتمدا على النص الفرنسى ترجمة لاتينية أراد فيها أن يطاول م. كوسان(2) ولكنه لعدم قدرته على هذا أخطأ وبدل كثيراً من الجمل. ولقد عاقبه المستشرق الفرنسى على هذا بأن نشر ترجمته هو وبعض الحواشى التى تحتوى على نقد مهذب قاس لا رد عليه(3).

إن العمل الذى قمت به قادني إلى مقارنة طبعة

(1) طبقا للتوقيع الذى نجده فى نهاية هذه المخطوطة فإنها قد تكون مخطوطة أصلية. ويعتقد البارون دى سلان أن هذا التوقيع زائف بسبب العديد من الأخطاء فى المخطوطة. ويوجد التوقيع نفسه فى إحدى مخطوطات ليدن، كما يقول دوزى، الكتالوج، ١، ص ٥.

(2) انظر، دى جريجوريو، *Rerum Arabicarum*، مقدمة للنويرى؛ أيرولدى، **مقدمة لمدونة الوثائق** الخ للأب ڤيلاّ، وشينا، **تاريخ أدب صقلية فى القرن ١٨**، المجلد ٣، الفصل ٦.

(3) *Historie de Sicile, traduite de l'arabe du **Nuvairi** par le citoyen J. J. Caussin* فى ذيل كتاب *Voyages en Sicilie, dans la Grande Grèce et dans le Levant, par M. Le Baron de Riedesel* باريس، السنة ١٠ (١٨٠٢).

دى جريجوريو بالمخطوطات المذكورة سابقاً وإلى نقل فقرات نص تاريخ أفريقيا التى ترجمها كوسان وفقرات أخرى فاتته. وإنى مدين للأستاذ دوزى بفصول أخرى متعلقة بكتاب صقلية، منقولة عن مخطوطة ليدن. وهكذا فإننى استطعت مضاعفة شذرات مؤلفنا تقريباً التى جاء بها فى *Rerum Arabicarum* دون ذكر لأسماء الأعلام والأماكن الجغرافية التى كان علىَّ تصحيحها ولا الفقرات التى لم تترجم جيداً والتى وجدت لزاما علىَّ إعادة ترجمتها.

ويجب أن أنبه فى النهاية أن م. دى فرچى وضع ترجمة مختلف فصول **تاريخ أفريقيا** للنويرى فى ذيل جزء ابن خلدون الذى قام بنشره، وأن البارون دى سلان قد ترجم إلى الفرنسية الجزء الأول من تاريخ أفريقيا فى *Journal Asiatique*، المجموعة الثالثة، المجلد ١١ - ١٢ (١٨٤١) وأعيدت طباعته فى ذيل *Histoire des Berbères par Ibn-khaldoun*. المجلد ١، ص ٣١٥ وما بعدها. وقد حكم البارون م. دى سلان حكما قاسيا على النويرى متهما إياه باختلاق كل قصص الفتح الإسلامى لأفريقيا والتى لم يكن له دور فيها سوى نقلها عن آخرين(1).

٥٥- **الذهبى** (شمس الدين أبو عبدالله) المتوفى سنة ١٣٤٧، كان مثل معاصريه أبى الفدا، والنويرى وشهاب الدين عمرى ملخصا وعارضا إلا أنه اهتم فقط بالتاريخ وبخاصة تاريخ الأدب أو بالأحرى بتراجم رجال العلم والأدب. وهذه هى ميزة الأعمال التى وصلتنا منه. وأهمها **تاريخ الإسلام** ويتبع منهج التسلسل الزمنى وينقسم إلى عقود فى نهاية كل منها سلسلة طويلة من التراجم. ومن هذا الكتاب يوجد لدى مكتبة باريس مجلدان

(1) *Lettre à M. Hase* فى *Journal Asiatique*، المجموعة ٤، المجلد ٤، ص ٣٢٩ (١٨٤٤).

منفصلان، *Ancien Fonds*، ٦٢٦و ٦٤٦، يبدأ أولهما من السنة الأولى إلى سنة ٤٠ هجرية والثاني من سنة ٣٠١ إلى ٣٧٠.

وتوجد مخطوطة أخرى بالمكتبة نفسها، *Ancien Fonds* ٧٥٣، وتشمل السنوات من ٥٨١ إلى ٦٢٠، ويبدو لي أنها ليست من أجزاء **التاريخ**، ولكنها من **المختصر** الذي كتبه الذهبي بنفسه والذي توجد منه نسخ في مكتبة ليدن وغيرها(1). لقد أخذت معلومات قليلة جدا سواء من هذه المجلدات الثلاثة أو من مجلدي الملحقات العربية ٧٤٦، وهو من أعمال المؤلف نفسه وعنوانه **كتاب العبر**. وفي مقابل هذا أخذت نحوعشرين ترجمة لشخصيات صقلية من مخطوطة ليدن رقم ٦٥٤ وارن.، كتالوج دوزي، المجلد ٢، ص٢٠٥، رقم ٨٧٦، وهو مختصر كتبه الذهبي عن **انباء النهي** لأبي حسن علي القفطي المتوفي في منتصف القرن الثالث عشر.

٥٦- **شهاب الدين العمرى** (أبو عباس أحمد بن يحيى) المعروف بابن فضل الله والملقب كذلك بالدمشقي، نسبة إلى دمشق التي كان نازحا إليها؛ ويقال له العمرى نسبة إلى عمر الخليفة الراشد الذي كان يزعم نسبه إليه. ولد حوالي سنة ١٣٠٠ في أسرة تتمتع برضا سلاطنة مصر، وكان أستاذاً للسنة النبوية وخدم في دواوين دمشق والقاهرة وتوفى سنة ١٣٤٩. وقد كتب موسوعة على طريقته عنوانها **مسالك الأبصار** الخ. ومن بين السبعة والعشرين مجلدا التي تضمها هذه الموسوعة، فإن المجلدات القليلة التي بقيت لنا تتناول الجغرافيا والتاريخ ومختارات من الشعر. وقد أخذ الجزء الجغرافي من أعمال جيدة ومن بينها أبو الفدا، ولكن العمرى أضاف أخبارا غير قليلة جمعها بنفسه سواء من وثائق رسمية أم من تقارير الرحالة والتجار الذين كان يسألهم مستخدما استخداما طيبا وسائل الراحة التي كانت توفرها له وظيفته. وعلى كل حال فإن الفصل الخاص بصقلية الذي أخذته من مخطوطة من مكتبة بودليانا، بوكوك ١٩١، الكتالوج، المجلد ١، رقم ٩٠٠، يشتمل على

(1) كتالوج دوزى، المجلد ٢، ص ١٤٨، رقم ٧٦٣

تقارير معاصرة عن أمور تاريخية كذلك. وفي المجلد نفسه وجدت وصفا لكلابريا ولميناء ترانتو وأماكن إيطالية أخرى.

وينبغي أن نذكر كذلك فضل العمرى في أن يحفظ لنا بعض أشعار عرب صقلية وقد نقلتها من مخطوطة باريس Ancien Fonds ١٣٧٢.

وفي مقابل هذا فإن الجزء التاريخي لا ينفع إلا في مقارنته ببعض نصوص أبي الفدا الذي نقل منه العمرى في حولياته نقلا سافرا مقسما هذه الحوليات من عقد إلى عقد، ربما ليخفي نقله، ولقد قلت سابقاً إن بعض فقرات **التاريخ** الخاصة بصقلية تُرجمت عن مخطوطة الإسكوريال، وهي مخطوطة ضاعت فيما بعد ربما في حريق ١٦٧١. وقد قام دي جريجوريو بإعادة طبع النص اللاتيني الذي كان كاروزو قد قام بترجمته إلى اللاتينية عن الإيطالية التي قام بها إنفجز عن النسخة اللاتينية التي قام بها ماركو دوبليوشيترون. ولقد وجدت جزءا من النص العربي في مخطوطة باريس، *Ancien Fonds* ٦٤٢، وهو يتناول الفترة من سنة ٥٤١ إلى ٧٤٤، اي من نهاية فصل نص دي جريجوريو وما بعده، ولست آسفاً على ضياع الفصول السابقة لأن لدينا الأصل في كتاب أبي الفدا. وعند احتياجي للاستشهاد به فإني سأضيف اسم العمرى المتوارث إلى لقب شهاب الدين إذ إنه لقب شائع بين مائةمن علماء المسلمين ولكنه استخدم استخداماً سيئاً للدلالة على كاتبنا.

وأنبه كذلك إلى أنه ليس هو القاضي شهاب الدين بن أبي الدم من حماة، كما افترض دي جريجوريو(1) وأوقع ونريش(2) في الخطأ نفسه، إذ إن ذاك القاضي كان سابقا على العمرى بقرن من الزمان إذ إنه توفي سنة ١٢٤٤ وكثيراً ما يذكر أبو الفدا كتابه المعنون **تاريخ مظفري** وليس **مسالك الأبصار**(3). عن شهاب الدين العمرى أنظر: كاترمير *Notices et Extraits des MSS* المجلد١٣ ص١٥١ وما بعدها،

(1) *Rerum Arabicarum*، ص 57 .

(2) تعليقات الخ، ٦، ص ٨.

(3) أنظر مقدمة أدلر بالجزء الأول من *Annales moslemici* لأبى الفدا ص ٨.

وكتالوج بودليانا بأكسفورد، المجلد ٢، ص ٥٩٩ وكتالوج المخطوطات الشرقية بالمتحف البريطانى، الجزء ٢، ص٢٧٣، رقم ٥٧٥؛ ورينو *Gègraphie d'Aboulfeda*، المقدمة، ص ١٥٢(1).

٥٧- **ابن الوردي** (زين الدين أبو حفص عمر) توفي سنة ١٣٤٨، لخص نصف أخبار الإدريسي والدمشقي عن صقلية ونقل منهما نصفها الآخر. وأيا كانت هذه الأخبار فسوف أذكرها حسبما وردت في مخطوطات باريس، *Ancien Fonds* ٥٩٠ و٥٩٣ و٥٩٤ بعد مقارنتها مع النص الذي نشره تورنبرج(2) عن هذا المؤلف الجغرافي الضعيف المعنون **خريدة العجائب**.

٥٨- **الصفدي** (صلاح الدين خليل بن أيبك) توفي سنة ١٣٦٢ وقد ألف معجما جغرافيا وعنوانه **الوافي بالوفيات** وهو مؤلف رصين ودقيق. وتمتلك مكتبة باريس مجلدين منفصلين منه، الملحقات العربية ٧٠٦ ويشملان الحروف الهجائية العربية بدءا من حرف الحاء وحتى حرف الصاد، ومنها استقيت ثلاث تراجم من بينها ترجمتان لمسيحيين: الملك روجيرو والأميرال جورجيو الأنطاكى.

٥٩- **الدميري** (كمال الدين عبدالله) كتب سنة ١٣٧١ **حياة الحيوان** وهو كتاب في التاريخ الطبيعي وفيه يذكر الكاتب بصدد الحديث عن العقرب شعر شاعر

(1) إن الأجزاء التى أعرفها من **مسالك الأبصار** هى: الأول مكتبة بودليانا، بوكوك ١٩١، سبق ذكره ـ جغرافيا.
الثالث باريس، *Ancien Fonds* ٥٨٣، جزء آخر من الجغرافيا.
الرابع عشر باريس، *Ancien Fonds* ١٣٧١؛ المتحف البريطانى، الكتالوج، رقم ٥٧٥، الجزء ٢، ص ٢٧٣، شعراء عرب أقدمين.
الخامس عشر إسكوريال، كتالوج كازيرى، المجلد ١، ص ٦٨ رقم ٢٨٥ ـ شعراء آخرون.
السابع عشر باريس *Ancien Fonds* ١٣٧٢، سبق ذكره، شعراء آخرون.
الثامن عشر باريس *Ancien Fonds* ٦١٢، تاريخ سبق ذكره.
الثالث والعشرون (ترتيب المجلد خطأ أو هو جزء من نسخة ذات ترتيب آخر)، باريس *Ancien Fonds* ٩٠٤ ـ علم المعادن وتاريخ قديم يذكر كازيرى، الكتالوج، المجلد ٢، ص ٦ رقم ١٤٣٤ و١٦٣٥ **كتاب التعريف** وهو كتاب آخر للمؤلف نفسه.

(2) طبع فى أوبسال سنة ١٨٣٩، جزء واحد.

يمني ونهايته التعيسة إذ وجد هذا الشاعر نفسه متورطا في مؤامرة ضد صلاح الدين دبرها مصريون ساخطون تآمروا مع رجال البلاط النورمانيين في صقلية. وقد أخذت هذه الفقرة من مخطوطة باريس، الملحقات العربية ٨٧٣.

٦٠- **ابن خلدون** (ولي الدين أبوزيد عبدالرحمن بن محمد) ولد في تونس سنة ١٣٣٢ من أسرة عريقة انتقلت من جنوب شبه الجزيرة العربية إلى أسبانيا في زمن فتحها ولجأت إلى أفريقيا في القرن الثالث عشر. هو إذن من أصل شريف ولكنه فقير فبدأ حياته خطاطا لدى أمراء تونس الحفصيين. ثم انتقل إلى خدمة أعدائهم المرينديين وتنقل هكذا من خدمة حاكم إلى آخر من أولئك الذين يستولون على الحكم اليوم ثم يسقطون غدا سواءفي أفريقيا أم في أسبانيا: وكان عندهم رجلا من رجال البلاط ودبلوماسيا ووزيرا وأستاذا، غنيا ومكرما تارة وتارة أخرى سجينا ومراقبا لتنافس متآمرين آخرين معه وبسبب الشكوك التي كانت تثيرها مواقفه المتقلبة تلك. وفي الخمسين من عمره ضاق ذرعا من أفريقيا فمضى إلى مصر حيث أخذ في ممارسة التعليم العام وحصل على معاش صغير من السلطان ثم صار قاضيا حسب المذهب المالكي في القاهرة، ولكن نفوس البشر من الغرابة بمكان حتى إن هذا العالم بأمور الدولة ذاالضمير الحي فصل من القضاء لنزاهته وحزمه اللذين تمسك بهما فيما كان يرتع القضاة الآخرون في الفساد. وساقه القدر في النهاية في سنة ١٤٠٠ عند أسوار دمشق وسط شرذمة من التتار وفي حضرة تيمور لنك أسهب في مدحه فكرمه وعرض عليه أن يبقى في بلاط التتار، ولكنه استطاع بحذق أن يتخلص من هذا الموقف. ولما رجع إلى مصر تقلب بين صعود وهبوط واعتلى مرة أخرى منصب القاضي حتى توفى سنة ١٤٠٠. إن هذه التفاصيل المأخوذة من السيرة الذاتية لابن خلدون لن تبدو زائدة عن الحد إذا تذكرنا أننا نتحدث عن أول كاتب في العالم تناول بالبحث فلسفة التاريخ: ولا أعلم إن كان أحد قد استطاع أن يحلق في سماء أعلى من سمائه.

إن كتاب ابن خلدون في التاريخ الذي ألف غالبيته في

أفريقيا فى المواسم القصيرة التي قضاها في هدوء عنوانه: **كتاب العبر** الخ.

والكتاب ينقسم إلى مقدمة وثلاثة كتب وإلى سيرة ذاتية، وتتناول المقدمة علم التاريخ ويضم الكتاب الأول أفكارا عامة نقصد بها نحن فلسفة التاريخ أما الكتابان الآخران فيحتويان على النص التاريخي: أي أن الكتاب الثاني يتناول العرب وشعوب شرقية أخرى والأوربيين والكتاب الثالث يتناول البربر. إنه لوحة ضخمة مرتبة ترتيبا جيدا ولكن اليد التي قامت بتلوينها ليست هي اليد نفسها وكأنها تنتمي لرجلين يتميزان بطبيعة عبقرية مختلفة. فمن ناحية كان ابن خلدون - وهو سابق لعصره ومجتمعه - يصل وهو يتأمل في أحداث التاريخ العامة إلى اكتشاف قوانينه وكان يقع كذلك في بعض الأوهام كما حدث أيضا مع ڤيكو وغيره من المبحرين في هذه المناطق، واكتشف أيضا أسس النقد، وياله من توافق عجيب مع ڤيكو، ففي أثناء حديثه عن مثل هذه الدراسات توصل إلى أنها علم جديد اللهم إلا إذا كان أحد القدماء - يقول هذا بتواضع- قد كتب في هذا ولكن كتبه قد ضاعت(1) ومن الناحية الأخرى أخذ ابن خلدون في ملء الخانات التي تصورها بشكل جيد. وكأنه كاتب حوليات عادي. بالسلالات والأسر الحاكمة وبالأحداث التاريخية التي شهدتها كل أسرة حاكمة. وقد استخدم في هذا مادة علمية غنية ورائعة ومن بينها **الكامل** لابن الأثير، ولكنه لم يربط الأحداث بالنقد الذي كان قد أملى مبادئه، ولم يراع التناسب بين أجزاء روايته، ولم يستطع أن يتتبع تطور الأسباب المباشرة للأحداث بالإدراك الذي تمتع به اللاتينيون ومكيافيللي على سبيل المثال: وعموما فقد قام بكتابة مصنف، وبالنسبة للزمن القريب من عصره كتب عرضا للأحداث ولا غير.

وقد لاحظ البارون دى سلان، الذي قام بدراسة ابن خلدون وهو قادر على الحكم عليه، أنه كتب فلسفة التاريخ بوضوح، وروى الأحداث بأسلوب معقد ملئ بالمصطلحات المستحدثة. ولو أننا تتبعنا كل ما كتب منذ ثلاثين

(1) ابحاث شولتز، الموجودة فى *Journal Asiatique* ونقرأ هذه الفقرة فى المجموعة ١، المجلد ٧ (١٨٣٥) ص ٢٩٣ وفيها نقل المترجم النص العربى لهذه الجملة أيضاً.

سنة عن هذا المؤلف لما اتسع المجال لهذا.

وإذا ما اقتصرت على ما يقترب من موضوعنا فإني أذكر نص **تاريخ افريقيا** تحت حكم بنى الأغلب و**تاريخ صقلية** وترجمته التي قام بنشرها م. دي فرجيه، و**تاريخ البربر** الذي أرسل نصه للمطبعة في مدينة الجزائر ليطبع على نفقة وزارة الحربية الفرنسية ومن إعداد م. دي سلان والذي قام بترجمته المستشرق نفسه وقام كذلك بوضع كثير من الملاحظات العلمية وصدر منه المجلد الأول. وسوف ترى **المقدمة** . كما اصطلح على تسمية المدخل والكتاب الأول - النور قريبا بفضل م. كاتريمر وهو رجل قادر على القيام بهذا وبغيره من الأعباء. وفي الختام أود أن أذكر ترجمة التاريخ القديم لابن خلدون إلى الإيطالية مع تحقيق الكتاب وقد بدأها مواطننا الأب أري دى آستي سنة ١٨٤٠ والتي توقفت في السنة التالية بسبب وفاته المبكرة(1).

يلخص ابن خلدون في **تاريخ صقلية** ابن الأثير حتى أنه من النادر أن تجد حدثا مأخوذا عن مصادر أخرى. وفي الفصول الأخرى يأتي بأخبار قيمة. ولقد استخرجت من هذا المؤلف الفقرات التالية لأضمها بمجموعتي:

١- فقرة من المقدمة لم تنشر، وتتناول الأسطول الصقلي تحت حكم النورمان: من مخطوطة المتحف البريطاني، رقم ٩٥٧٤، وهي مخطوطة بالكتابة الأفريقية.

٢- **تاريخ صقلية** من الطبعة التي قام بتحقيقها م. دي فرجيه وروجعت على مخطوطات باريس وقورنت بمستلات من مخطوطة تونس الجيدة والتي أرسلها إلى السيد هونجر.

٣- كثير من فقرات **تاريخ البربر** التي نسخها من مخطوطة باريس، والملحقات العربية ١٧٤٢، المجلد ٧ والتي استطعت الآن مقارنتها بطبعة مدينة الجزائر.

(1) يقول البارون دى سلان الذى كثيراً ما يذكر بالتقدير أعمال هذا الشاب العالم، فى أحد هوامش *Histoire des Berbères par Ibn Khaldoun*. المجلد ١، المقدمة، ص ٣و٤ أنه قد تم طبع ١٠٨ صفحة من النص، و١٤٠ صفحة من الترجمة وأنها مازالت فى مخازن المطبعة أوراقاً لا فائدة منها.

٤- بعض الفقرات الأخرى التي لم تنشر عن أولى عمليات المسلمين في البحر المتوسط، وعن تاريخ الفاطميين وعن الحروب الصليبية وأخذتها من مخطوطات باريس، ٧٤٢ ، المجلد ٢و ٧٤٢ المجلد ٤.

٦١- **الزهري** (ابن أبى عبدالله محمد بن أبي بكر)، لخص في نهاية القرن الرابع عشر أو في بداية القرن الخامس عشر مبحثا في الجغرافيا للقمارى، نسخه أو لخصه، ولا نعرف متى، من كتاب كان قد أمر بتأليفه الخليفة المأمون (٨١٣-٨٣٣) ورسم خريطة تمثل مسطح الأرض. وهذا كل مانستخرجه من مقدمة الزهري **لكتاب الجغرافيا**، مخطوطة باريس، *Ancien Fonds* ٥٩٦٥، ومن الإشارة التي يذكرها المؤلف في الوجه الثاني للورقة ٥٨. ومن المؤكد أن القماري والزهري قد أضافا شيئا ما إلى مؤلَّف القرن التاسع، إذ نقرأ أسماء المهدية وقلعة ابن حماد التي أنشئت فيما بعد. ولكننا لانستطيع تحديد العصر الذي ترجع إليه أخبار بركان إتنا وكثير من منتجات أراضي صقلية التي توجد في فصل صقلية والتي استقيها من مخطوطة باريس.

٦٢- **المقريزي** (تقي الدين أحمد بن علي) المولود بالقاهرة سنة ١٣٦٤ والمتوفي سنة ١٤٤١، وهو مؤلف جاد لمؤلفات مختلفة(1). وقد أملى ثلاثة من بين مؤلفاته تتناول موضوعنا وهي: **المقفى**، وهو معجم للأعلام تقتني منه مكتبة باريس أحد الأجزاء *Ancien Fonds* ٦٧٥، ويبدأ من نهاية حرف الطاء (السادس عشر في الأبجدية الشرقية) وحتى جانب من حرف العين؛ ومكتبة ليدن رقم ١٣٦٦ ثلاثة أجزاء من الألف إلى الكاف (الحرف ٢٢) واللام والميم(2). ولكن أجزاء كثيرة من المؤلف مفقودة. وقد استخرجت من مخطوطة باريس تراجم الصقليين، وتفضل بعمل الشىء نفسه لي الأستاذ دوزي من مخطوطات ليدن.

وقد ترجم م. كاترمير إلى

(1) عن المؤلف أنظر : ساسى *Chrestomathie Arabe*، المجلد ١، ص١١٢ وما بعدها، كاترمير، *Histoire des Sultans Mamlouks de l'Egypte par Taki -Eddin Ahmed Makrisi,* الجزء ١، المقدمة.

(2) كتالوج دوزى، الجزء ٢، ص ٢٠٠ رقم ٨٢٠.

الفرنسية جزءا من **كتاب السلوك** وقد أخذت فقرة من النص العربي من مخطوطة باريس Ancien Fonds ٦٧٣ جـ، المجلد ٣، Ancien Fonds ٦٧٣ أ -٢.

وفي **كتاب المواعظ** الخ مخطوطة باريس، Ancien Fonds ٦٨٠ هناك إشارة إلى عالم فلك صقلي في مرصد القاهرة. وقد نشر جانبا من هذا النص م. كوسان دي برسفال في مجموعة *Notices et Extraits des MSS*، المجلد ٧ ص٤٥.

٦٣- **الزركشي** (أبو عبدالله محمد بن إبراهيم) وقد عاش في نهاية القرن ١٥ وكما يزعم عن حق م. الفونس روسّو(1) أنه كتب تاريخ أمراء الموحدين والحفصيين في تونس حتى سنة ١٤٢٩. إن هذا المؤلّف الدقيق الذي يستند إلى مادة جيدة يوفر لي فقرتين أخذتهما من مخطوطة باريس، الملحقات العربية ٨٥٢.

٦٤- **السيوطي** (جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن) المولود في أسيوط في صعيد مصر سنة ١٤٤٥ والمتوفي سنة ١٥٠٥؛ وهو مؤلف لا يعرف الكلل ولكنه غير مدقق. ويكفي أن نقول إنه من المعتقد أنه كتب أكثر من ثلاثمائة كتاب مختلف.

وقد أخذت من كتابه **تاريخ الخلفاء** مخطوطة باريس، Ancien Fonds ٦٣٩و ٧٧٦، كلمتين في إشارة تاريخية.

ومن كتابه المعنون **كتاب البغية** الخ أخذت حوالي عشرين ترجمة لصقليين. وقد ضممت بين يدي مخطوطتين، الأولى للدكتور جون لي أعيرت للأستاذ دوزي دي ليدن وتصفحتها في بيته، والثانية اقتنتها مؤخرا مكتبة باريس، الملحقات العربية ٦٨٣.

٦٥- **ابن اياس** (محمد بن أحمد) المولود في مصر وفيها كتب في سنة ١٥١٦ **نشق الأزهار** الخ وهو كتاب هزيل عن كتاب الإدريسي وغيره. ولأني أجمع كل ماكتب عن صقلية فإني لم أرد أن أهمل هذا الكتاب الذي يقدم فصلين قصيرين عن الموضوع. ونقلتهما من مخطوطات باريس، Ancien Fonds ٥٩٥، والملحقات العربية ٩٠٤.

٦٦- **المقري** (أحمد بن محمد) المولود بالقرب من

(1) *Journal Asiatique*، المجموعة ٤، المجلد ١٣، ١٨٤٩، ص ٢٥٦ وما بعدها.

تلمسان قبل سنة ١٥٩٠ والمتوفي سنة ١٦٣١ وترك لنا مؤلفا ضخما وجادا عن أسبانيا المسلمة وقد ترجم الجزء الأكبر منه إلى الإنجليزية الأستاذ جيانجوس ويسعى الآن السيد دوزي ودوجات وكرهل ورايت إلى نشر نصه العربي. وأثناء وصف المقري لقرطبة استشهد بأبيات شعرية للشاعر الصقلي ابن حمديس ونقدها. وسوف أضع هذه الفقرة وإشارات أخرى قليلة في مجموعتي بعد أن أخذتها من مخطوطة باريس، Ancien Fonds ٧٠٤.

٦٧ - **حاجي خليفة** (مصطفى بن عبدالله) من القسطنطينية توفي سنة ١٦٥٨ وهو يباري أفضل كتاب تاريخ الأدب في أوربا لعلمه ونقده وعبقريته. وله كتابان يوفران المادة العلمية عن تاريخ مسلمي صقلية وهما: **معجم المراجع** الشهير الذي يضم ١٥٠٠٠ مؤلّفاً غالبيتها عربية وقد نشره فلوجل في نصه وترجمته الأجنبية، ومنه استقيت كل الفقرات عن كتب الصقليين بعد أن راجعتها مع مخطوطات باريس(1).

وقد ترجم جان رينالدو كارلي(2) إلى الإيطالية كتاب **تقويم التواريخ** المكتوب بالتركية والفارسية وقد ترجم المُستلات الخاصة بصقلية من الإيطالية إلى اللاتينية ونشره كاروزو وموراتوري بينما أصاب دي جريجوريو وأهملها إذ إن الكونت كارلي قد عرف كيف يشوه هذا التقويم.

لقد نقلت النص الفارسي إذ لم استطع الحصول على النسخة التركية بالقسطنطينية، من المخطوطة التركية بباريس، Ancien Fonds ٤٥، وقارنته بنص ريسكيه اللاتيني الموجود بمكتبة باريس.

٦٨- **ابن ابي دينار** (أبو عبدالله محمد القيرواني) كتب في سنة ١٦٨١ **كتاب المؤنس** الخ الذي يبدأ من بدايات الفتح الإسلامي وحتى بدايات حكم العثمانيين في أفريقيا ويشتمل على تقارير طبوغرافية وأخبار عن العادات، وهو كتاب رشيد وجاد وحديث يشير في كثير من الأحيان إلى صقلية. ولقد أرسلت

(1) *Lexicon Bibliographicum et Enciclopædicum A. Mustapha Haij Khalfa* ليبزج ولندن ١٨٤٠، ١٨٥٢، ٦ أجزاء.

(2) *Cronologia Historica* لحاجى خليفة مصطفى، فنيسيا ١٦٩٧.

لي بعض المستلات من هذا الكتاب من تونس بفضل السيد هونجر؛ وأزدت عليها بشكل كبير عندما اطلعت على النسخة الموجودة في مكتبة باريس، الملحقات العربية ٨٥١. ولقد قام السيدان بوليسيير وريموسا بترجمة الكتاب إلى الفرنسية وقد أطلق على المؤلف كالعادة اسم النسبة وهو القيرواني(1) وهذه الترجمة مزودة بملاحظات رائعة ولكنها قائمة على أساس مخطوطة رديئة.

٦٩- **تشريف الأيام** الخ. ويتحدث عن الأمير قلاوون، سلطان مصر في نهاية القرن الثالث عشر. ومؤلف هذا الكتاب غير معروف ويوجد جزء واحد منه في مكتبة باريس هو الجزء الثاني، الملحقات العربية ٨١٠ وهي مخطوطة رائعة كتبت لتستخدم بكل تأكيد في بلاط مصر. وهي تحتوي على بعض الأخبار الخاصة بحرب الغروب الصقلية ونص معاهدة سياسية وتجارية بين السلطان والأمراء الأرجونيين الفونس ملك أراجونا وجاكومو ملك صقلية. ولقد قدمت أنا ترجمة إيطالية لهذه المقتنيات في طبعة «حرب الغروب»، فلورنسا ١٨٥١، الوثيقة رقم ٣٠، ص ٥٨٨ وحتى ص ٥٩٧. وكانت المعاهدة قد ترجمت من قبل إلى الفرنسية بقلم م. دي ساسي.

٧٠- **ابن قنفد** (أبو العباس أحمد بن حسن بن علي بن خطيب) أملي في القرن الرابع عشر **الفارسية** الخ وهي في جانب منها حوليات وفي جانب آخر أخبار مملكة بني حفص في تونس. ولقد نشر م. شربونو أستاذ العربية بقسطنطينة بعض فقراته في *Journal Asiatique* المجموعة ٤، المجلد ١٢، ١٣، ٢٠ وبه ملاحظات مفيدة. وسآخذ من الجريدة المذكورة النص الخاص بعمليتين للمسيحيين ضد جربة ومهدية سنة ١٢٨٢. إن هذا الكتاب وسابقه يخرجان عن الترتيب الزمني لأنهما لا ينتميان تماماً لتاريخ مسلمي صقلية ولكنهما يقدمان بعض الأخبار عن تاريخ صقلية في الأزمنة اللاحقة فأردت ألا أهملهما.

(1) *Histoire de L'Afrique* من تاليف محمد بن أبى الرينى القيروانى، باريس ١٨٤٥ وهو الجزء ٧ من *Exploration scientifique de l'Algèrie, Sciences historiques et geographiques.*

الكتاب الأول

الفصل الأول

منذ فجر التاريخ وحتى يومنا هذا وطأت أرض جزيرة صقلية أجناس متعددة : قرطاچيون وواندال وقوطيون وبيزنطيون وألمان وفرنسيون وأسبان وجاءوا بالحروب إلى الجزيرة واحدة تلو الأخرى وأشاعوا فيها الدمار وأقاموا بها ممالك جديدة سرعان مازالت ولم يبق لهم بها إلا القليل من الآثار.

ومن بين تلك التقلبات السطحية الكثيرة هناك أربعة فتوحات قامت بتغيير البلاد تغييراً جذرياً، وهى الفتوحات اليونانية والرومانية والإسلامية والنورمانية أو كما يفضل أن يطلق عليها الإيطالية. وتولى المستعمرون الدوريون والإيونيون السيادة على جزيرة صقلية فى القرن الثامن قبل الميلاد وذلك بقوتى السلاح والفكر وقد نقلوا إليها سلالتهم ونبوغهم ولغتهم وقاموا بتهذيب السكان القدامى وأغلبهم من الإيطاليين القدماء والبقية الباقية من مختلف الشعوب الشرقية وقد جعلوا الجزيرة تبهج بالمدن والآثار والمثقفين والسكان. وقاموا بتأسيس دول تبارى دول الوطن الأم. وكانوا يلجأون تارة إلى الحرية وتارة إلى الطغيان حسب ما تمليه عليهم طبيعتهم المتغيرة. وخلال ذلك العناء المستمر ازدهر فى صقلية اليونانية أنبل وأنفع ما صنع الانسان، وولد بها فخر الانسانية: ثيوقراط وأمبادوكليس وأرشميدس. وكانت حادثة مقتل أرشميدس على يد جندى رومانى ترمز بشكل كبير إلى الغزو الثانى الذى اختلفت نتائجه تماماً عن تلك التى نجدها فى الأقاليم الأخرى، فقد دمر فى صقلية أكثر مما شيد بها. وجاءت بعد ذلك حركة التجديد الثالثة لصقلية فى القرن الثامن بعد الميلاد وذلك على يد المسلمين الذين بلغوا ذروة حضارتهم وأنشأوا بالجزيرة مستوطنات عربية وبربرية، وجاءوا إلى

الجزيرة بديانة أخرى وقوانين وتقاليد ولغة وأدب وعلوم وفنون وصناعات وقوة عسكرية وعبقرية فذة تعيد إلى الأذهان، إن لم يكن عظمة العصور اليونانية وازدهارها، فبالتأكيد الأنشطة التى كانت فى تلك العصور. وكانت فترة نفوذ المسلمين قصيرة حتى إنها لم تسمح لهم باستيعاب سكان الجزيرة. ومع انهيار المجتمع الإسلامى فى صقلية وفى كل الأماكن الأخرى من جانب وظهور الأمة الإيطالية الجديدة من جانب آخر، صادفت هذه الأمة فى طريقها الحظ والنماذج العظيمة للجسارة وأنظمة حرب النورمان، فعبرت منطقة فارو تحت رايتهم فى أواخر القرن الحادى عشر. واستعادت صقلية وهى جزء منها لأسباب جغرافية وعرقية وضمت إليها السكان المسيحيين الباقين فيها، وحصدت ثمار إمكاناتها وإمكانات الآخرين. ولأن عدد النورمان الذين علموها فن الانتصار وتنظيم الدولة كان قليلاً قامت الأمة الإيطالية لتفوقها فى العدد بامتصاص تلك السلالة القوية حتى إنه خلال قرن من الزمان، لم يتبق منها سوى أسماء بعض العائلات القليلة. وبالنسبة للمسلمين فقد ذاب بعضهم داخل المجتمع الإيطالى الصقلى وهاجر البعض الآخر أو قُتِل بسيوف المسيحيين. وفى الوقت نفسه وتحت رعاية الشعب الجديد بدأ تحقيق ما كان قد بدأه العرب قبل أربعمائة عام وعادت صقلية قوية مزدهرة وتميزت بين الأقاليم الإيطالية وذلك طوال القرن الثانى عشر وفرضت سيادتها على الأجزاء الجنوبية من شبه الجزيرة ونشرت فى البر الإيطالى كثيراً من بذور التحضر الرائع الذى يتمتع به وطننا المشترك الذى قضى على العصور الوسطى.

إن تاريخ المستوطنات الإسلامية فى صقلية الذى سأتناوله يتضمن الفتحين العربى والنورمانى اللذين تركا آثاراً واضحة نراها حتى يومنا هذا. وسوف أبدأ الحديث عن أحداث صقلية قبل مجئ العرب وعن أصول الامبراطورية الإسلامية وأحوال إقليمها الأفريقى: وهو ما سيكون موضوع الكتاب الأول. وسأتناول فى الكتب الثلاثة التالية موضوع سيطرة المسلمين على الجزيرة، وفى الكتاب الخامس الغزو النورمانى وأخيراً فى الكتاب السادس سأتحدث عن

أحوال المهزومين والوقائع التى شاركوا فيها حتى النصف الأول من القرن الثالث عشر، عندما انتقل آخر المتبقين فيها من صقلية إلى بوليا ونقلت الحضارة الإيطالية مقرها، فى البداية من الجزيرة إلى الأجزاء الجنوبية للبر الإيطالى، ثم هروباً من نزوات الملوك إلى الجمهوريات العظيمة التى كانت قد ظهرت بين نهر التيبر وجبال الألب.

بدأ انهيار صقلية اليونانية، كما هى العادة، قبل انهيار قوتها السياسية وأخذت أوصال مدنها الكبرى تتقطع إذ حارب بعضها بعضا وأخذت تتمزق داخلياً، فقد أرهقها الترف وهو ابن الحضارة الذى يغتال الأم، واستنفدت قوتها ثلاثة قرون من الحروب المستمرة ضد قرطاج وهو ما يعد من أهم أسباب انهيارها؛ وسرعان ما خضعت لقوة روما الغاشمة عام (٢١٠ - ٢٤١) قبل الميلاد وقد أفادت روما من مكاسب هذا الغزو واستغلتها فقد كان أول فتح لها خارج شبه الجزيرة وأغناها حتى ذلك الوقت. وسقطت قرطاج بسهولة بعد ما أرهقتها الحروب مع صقلية؛ واتخذ الظافرون من هذه الجزيرة معبراً لغزوات أخرى فى البحر المتوسط وأخذوا عنها حلاوة الثقافة الفكرية الأولى والحياة الرغدة، ولم يشبعهم إلا التهام الإقليم كله وأطلقوا عليها صومعة غلال الشعب الرومانى. وأرادوا أن يجعلوا منها مزرعة كبيرة لا أكثر ولا أقل. وبطريقة أو بأخرى صارت الأراضى الصقلية ملكية عامة لروما أو ملكية خاصة للنبلاء؛ وبدأت تتكون فى جزيرة صقلية كما فى البر الإيطالى الإقطاعيات الزراعية الشاسعة التى ظلت تابعة لبعض الملاك الرومان أو لآخرين من أنحاء إيطاليا حتى نهاية القرن السابع ولم تزل إلا مع الفتح الإسلامى. ولكن منذ بداية حكم الرومان استخدمت رقع شاسعة من الأراضى مراع وهو ما يعد بداية للانحدار الذى تفاقم بعد أن سلم الملاك القطعان إلى عبيد ذوى علامة على جباههم يكتسون بالجلد الخشن أو يعيشون عرايا، وقد تسلحوا بالبيازر والأسياخ والعصى وأخذوا للتعيش يقومون بعمليات السلب والنهب فى مجموعات من اثنين وثلاثة فى

البداية ثم فى جماعات عصابية، حيث كان الملاك يأجرونهم بالعفو عن جرائمهم بدلاً من المال أو الغذاء(1). ومن جهة أخرى قام الفرسان الرومان أو كما قد نطلق عليهم الآن مواطنى الطبقة المتوسطة باستئجار كثير من أراضى الجزيرة لزراعتها بسواعد عبيد آخرين توضع لهم علامات مميزة؛ مقيدين بالسلاسل يُحبسون فى السجون ليلاً ويقتادون إلى العمل بالسياط(2). ويضاف إلى هذا النظام الجائر فى النشاط الزراعى ضخامة الإتاوات التى كانوا يحصلون عليها ومقدارها، كما يعتقد(3)، ربع إنتاج الأرض، ناهيك عن الضرائب على الحرف والصنائع الأخرى والتجارة.

وكان للثراء السريع للقلة من المتعهدين الأجانب وللأضرار التى ألمت بالأهالى الذين حُرِموا قانوناً أو واقعياً من المميزات نفسها؛ عاقبتان وخيمتان هما : انتقال أملاك الجزيرة شيئاً فشيئاً إلى يد الرومان وتدهور الصناعات المحلية وكذلك التجارة مع الشعوب الأخرى فيما عدا المستعمرين. ونتج عن ثقل وهوان هذا النير ذلك اليأس العام الذى أشعل بالتأكيد حرب العبيد الأولى عام (١٣٤ ـ ١٣٢) قبل الميلاد ودفع بعدد غير قليل من السكان الأحـــرار إلى الحرب الثانية عام (١٠٣ ـ ١٠١) قبل الميلاد. كما كانت لهذه الحروب جذور عميقة وقديمة جداً من الظلم والجور يســأل عنها المواطنون اليونانيون فى صقلية. وتذكر عبيد أمم كثيرة بالجزيرة، وربما كان جزء كبير منهم من صقلية، وبعد فترة من تعاقب المعاناة؛ من الجوع والسرقة، ومن المذلة والقتل، تذكروا كرامة الانسان وابتهلوا إلى السماء معتقدين أن عليها أن تثأر لها وتجمعوا فى أشهر المقدســـات، فى معبد تشريرى فى مدينة إنًّا أو أمام هياكل باليتشى الهائلة ونادوا

(1) ديودروس سيكولوس، الكتابان الرابع والثلاثون والخامس والثلاثون.

(2) فلودوس، الكتاب الثالث، الفصل التاسع.

(3) بلميرى *Somma della storia di Sicilia*، الجزء الأول، الفصل الرابع عشر. ولكنه لا يرى السبب الرئيسى للضرر فيما وجدته على ما يبدو لى، أى فى اغتصاب المواطنين الرومان ملكية الأراضى من الصقليين.

بالمساواة الطبيعية بين البشر ودافعوا عنها ببسالة، وبقوة السلاح، يساعدهم فى ذلك المواطنون بشكل أو بآخر، حتى هزمتهم روما التى كان لها باع طويل فى هذا المجال وأبادتهم جميعاً. وأرادت الطبقة الأرستقراطية الرومانية، يحركها الحذر، الذى كان صنواً لشراستها، أن تعالج الأمور بسن قوانين تجعل أحوال أهل صقلية أكثر تحملاً ولكنها لم تفلح؛ لأن ذلك القدر القليل من العدالة لم ينزع الداء من جذوره كما أن هذه العدالة اليسيرة لم تُحتَرم إذ كان جبروت الكبار فى روما يعبث بها ويخنقها. وقد ضاع الوطن بالفعل وقنط منه خيرة الناس، حتى أن ديودور وهو آخر من أنجبتهم صقلية اليونانية من قمم العبقرية وأول كاتب فى العصر القديم اهتم بتاريخ العالم، وبعد ثلاثين عاماً من الترحال والإقامة الطويلة فى روما قرابة عام (٤٥ قبل الميلاد) يبدو أنه استسلم كلية لنكبات صقلية فاعتبر مجرد فترة عابرة من التقاط الأنفاس كان مرجعها إنسانية القاضى أزيليو، اعتبرها شفاءً حقيقياً من هذه النكبات! ولم تكن نفس المؤرخ الصقلى وضيعة ولم يكن حبه لوطنه قليلاً ولكن يبدو أنه عندما رآه آخذاً فى الهــلاك استمد عزاءه من القوانين الإنســانية الماسة التى كانت تتوهج فى ذهنــه ومن نظـرته إلى الجنس البشرى على أنه أسرة واحدة على رأسها الشعب الرومانى(1). وبعد موت ديودور جرت آخر الحروب الأهلية بين المستعمرين الذين اتخذوا من صقلية ميداناً للمعركة عـام (٤٣ ـ ٣٥) قبل الميلاد ومزقوها تمزيقاً حتى إنها لم تتمكن من النهوض مرة أخرى، فقد أنهكتها العوامل الاقتصادية والأخـلاقية. وعـادت الجـراح القديمـة والحـديثة للظهـور فجأة؛

(1) ديودورس سيكولوس : الكتاب الخامس والرابع والثلاثون والخامس والثلاثون والسادس والثلاثون والسابع ولثلاثون. فى اعتقادى أن ديودور حكم على حرب العبيد الأولى حكماً سيئاً معتقداً أنها كانت مجرد مظاهرات عنيفة قام بها الدهماء. واعترف فى الثانية باستياء أهل صقلية. ولكن قانون روبيليا *Rupilia* الذى أشرت إليه علٍ والذى صدر بعد الحرب الأولى يدل دلالة واضحة على الطابع السياسى لهاتين الحربين.

وانخفض عدد سكان المدن بشكل مزعج. وخلا كثير منها من السكان وهُجِرت أجزاء كبيرة من الأراضى الزراعية. واستغل الرومان أراضى تشريرى التى احتلوها استغلالاً جشعاً(1)

ليس من السهل على من استعرض ذكريات صقلية اليونانية الرائعة أو حتى رأى فقط بقايا ذلك الازدهار من خلال خطب سيسرون التى ألقاها ضد فيرى (عام ٧٠ قبل الميلاد) أن يصدق ما آلت إليه البلاد من خراب مع بدايات الميلاد. ومع هذا فإن التدابير الضرورية التى اتخذها أغسطس لمعالجة الدمار الذى نزل بمدن كثيرة لدليل على هذا، وكذلك شهادة استرابونى الصريحة، وهو رجل يونانى معاصر، على دراية بأمور صقلية ولا أشك فى أنه كان يبالغ فى الكوارث التى حلت بالجزيرة لأن نفسه كانت جياشة بالمشاعر نحوها. وبدأ استرابونى وصفه من جهة الشرق ووجد أربع مدن فقط هى : مسينا وتاورمينا وكتانيا وسيراكوزا ولاحظ أن المدينتين الأخيرتين قد قام أغسطس بترميمهما حديثاً، وأن مدينة سيراكوزا قد تقلّصت لتحتل مساحة صغيرة بالقرب من شبه جزيرة أورتيچا بدلاً من محيطها القديم الذى كانت تبلغ مساحته ١٨٠ إستديوم وهى مساحة كبيرة بالنسبة للسكان آنذاك(2). وعلى الساحل الجنوبى، يواصل الجغرافى حديثه: توجد مدينة أجريچنتو وليليبيو وأطلال المدن التى دُمِرت

(1) بلميرى (الفصل الأول). يؤكد أن القمح الذى كانت تنتجه صقلية فى زمن فيرى *Verre* لم يصل إلا إلى مليون حمْل وبمقاييس الوقت الحالى (٢٧٥٣٦٥٩ هكتولتر) أى ثلثى الإنتاج الحالى. بالإضافة إلى أنه يعتقد أن إنتاج صقلية كله من القمح يساوى بالكاد ما كانت تنتجه دولة سيراكوزا وحدها تحت حكم جلونى *Gelone*.

(2) إن إستديوم استرابونى مدرج بمقدار ٧٠٠ لكل درجة ومن ثمة فإن محيط سيراكوزا القديمة يبلغ ١١ ميلاً ونصف بالمقياس الإيطالى أى بمقدار ٦٠ لكل درجة منه وقد أقتديت فى هذه الفقرة الخاصة باسترابونى بتفسير م. لترون فى كتابه «**دراسة نقدية للسمات الطبوغرافية لسيراكوزا**». صفحة ١٠٠ وما بعدها. (*Essaie critique sur la topographie de Syracuse*) وليس ذلك التفسير غير الصحيح الذى جعل سيراكوزا التى قلصها أغسطس مقصورة على شبه الجزيرة فقط، كما هو الحال فى يومنا هذا.

كليّة وصارت مهجورة؛ ولم يكن الساحل الشمالى مكتظاً بالسكان بالرغم من امتداده لمسافة أطول من الساحلين الآخرين وتظهر فيه مدن أليزا وتيندارو وتشفالو وبالرمو المستعمرة الرومانية وإمبوريو سچستانو. ومن بين المدن الداخلية يذكر إتنا وتشنتوربى التى قام أيضاً أغسطس بترميمها وإريتشى ومعبدها العظيم الذى تضاءل عدد كهنته وإنّا التى خططت لتكون قلعة فقط ولينتينى التى كانت تتدهور أحوالها وتسوء؛ والمدن الأخرى التى هجرها أهلها وصارت مسكناً للرعاة. إنها معلومات دقيقة ومخيفة تؤكدها أسماء المدن الرئيسة المدمَّرة، والحديث عن خصوبة الأرض العالية التى كان إنتاجها من القمح والعسل والزعفران والماشية والجلود والصوف ينقل برمته إلى روما ولا يبقى منه سوى القدر القليل ـ لاستهلاك الجزيرة ـ والكلام هنا لاسترابونى. وحتى تكتمل الصورة التى رسمها أشار إلى حروب العبيد القديمة التى انتشرت إلى حد كبير، وروى قصة شخص فى زمانه يدعى سليورو يقال عنه إنه ابن بركان إتّنا كان قد أعد جيشاً واستولى به على جزء من البلاد ولكنه هُزم بعدها وسيق إلى روما.

ويضيف عالم الجغرافيا اليونانى بأسلوب يميل إلى الرومانية ـ وشاهده الجميع فى الحلبة وهو فوق منصة على شكل بركان إتّنا، وعندما فتحت المنصة، سقط المتمرد منها ـ حسبما كان مصمماً ـ فى قفص الوحوش(1).

ولكن الثورة التى كبحت جماح روما، كسرت أيضاً بغى الأرستقراطية الرومانية فى الأقاليم وعملت أول ما عملت على تحقيق المساواة ـ فى الطاعة العامة ـ بين كل طبقات الشعب وفى أنحاء أراضيها كافة. وتنفست جزيرة صقلية، مثلها مثل بعض البلاد الأخرى، الصعداء لهذا التغيير فى الأحوال ولإعلانات أغسطس ومساعداته المادية التى سبق ذكرها، وهذه الهبات كان ينبغى أن تؤلم

(1) *Strabo, Rerum Geographicarum*، الكتاب السادس صفحة ٢٦٥ وما بعدها.

الصقليين أكثر من أن تشد عضدهم. واستمر هذا الحال - بخزى كبير - أثناء حكم الإمبراطور تيبريو وكاليجولا الذى أعاد بناء بعض آثار الجزيرة. وتوالت سلسلة من خيرة الأمراء طوت رذائل الحكم المطلق طى النسيان وهو ما يُعد نموذجاً فريداً فى التاريخ وشاركت صقلية الناقهة فى تلك النهضة المحدودة التى عمت أرجاء الأمبراطورية الرومانية : فقد حلت العديد من القرى التى عَظُم شأنها محل المدن التى دُمِّرت فى أيام استرابونى، وظهرت من جديد بعض هذه المدن، أو هكذا كان يقال، لأن حفنة من الناس عادت لتسكن بين أطلالها. وخير دليل على ذلك أعمال بلينوس وبطليموس ودليل الرحلات المشكوك فى تحديد عصره والذى يحمل اسم انطونينو : وهى كتابات ترجع إلى قرابة النصف الأول من القرن الثانى. ويشير الدليل فى الحقيقة إلى محطات الانتظار الجديدة التى شيدت حديثاً، وجاء الجغرافيان - مع فروق طفيفة بينهمـــا - بقائمة أسماء المدن يصل عددها إلى أربعة أمثـــال المدن التى ذكرها استرابونى وإلى نصف عدد المدن التى وردت عند ســـتيفان البيزنطى، وهو علاّمة عاش فى فترة متأخرة ونقب فى كتابات اليونانيين القديمة(1). وبالرغـم من أن تلك

(1) ذكر ستيفان ١٢٢ اسم مدينة وقلعة، وضع بعضها بصقلية عن طريق الخطأ ولم يذكر بعضها الآخر. (*Stephanus, De urbitus, passim*)
اما استرابونى فذكر ١٦ مدينة (المرجع المذكور) وترك دون شك الأماكن الأقل أهمية. وذكر بلينيو فى (*Historiæ Naturalis*) (الكتاب الثالث، الفصل الرابع عشر) ٦٩ مدينة، منها ٥ مستعمرات رومانية و١٢ مدينة حصينة و٣ شعوب لاتينيين و٤٨ من دافعى الجزية؛ كما ذكر بطليموس (*C. L. Ptlomei Geographiæ*) (الكتاب الثالث، الفصل الرابع) ٦٤ اسماً بين مدينة وقلعة متفقاً مع بلينيو فى ٤٧ اسماً واختلف معه فى الأسماء الأخرى ربما لأن الرومانى يتبع الجغرافية السياسية بينما بطليموس، وهو جغرافى متخصص فى الرياضيات، فيلاحظ الأماكن وليس الناس. أما دليل الرحلات :
(*Presso Fortia d'Urban, Recueil des Itinéraires anciens, Antonini Augusti Itinerarium*) العددان الثالث والعشرون والرابع والعشرون ص ٢٦ - ٢٩ فلن يفيد فى هذه الدراسة لأنه يشير إلى محطات الانتظار فقط وتوجد ٢٦ منها فى مدن مشهورة.

الأرقام موضع نقاش لأن النصوص تعوزها الدقة فإنها تصور انهيار صقلية فى القرون الثلاثة الأخيرة التى سبقت العصر الميلادى وأعمال الإعمار القليلة فى أول قرنين تاليين له؛ وهو إعمار نادر وغير مستمر فقد بدأ بعد ذلك الانهيار العام للإمبراطورية، ولأن أحوال إيطاليا كانت أكثر سوءاً من الأقاليم الأخرى بسبب محنة الملكيات الزراعية الكبيرة وكثرة العبيد بها. وبالمثل فإن صقلية، وقد صارت إيطالية تماماً، كانت أسوأ حالاً من شبه الجزيرة بسبب سقوط جزء كبير من أراضيها فى أيدى الطبقة الأرستقراطية الرومانية. ولم تكف لإصلاح هذه الفوضى الاجتماعية حصافة أغسطس أو عطف الأنطونيين أو إدارة العدالة المنصفة أو العمل المنظم تنظيماً جيداً. ومع كل هذا عادت المظاهر القديمة للظهور فى القرن الثالث وخلال ذلك الاضطراب الشامل؛ الذى يطلق عليه عصر الثلاثين طاغية، شبت حرب عبيد جديدة فى الجزيرة(1) عام (٢٥٩). وبعد انقشاع صغار الطغاة من الأماكن الأخرى وسكون الثورة الاجتماعية فى الجزيرة استمرت عملية هجر الزراعة فى أنحاء إيطاليا كافة، واستمرت كذلك هجرة السكان ولا يعد هذا الأمر آخر أســـباب غزوات البربر. وقد أطـــال الإمبراطور دقلديانوس من حياة الامبراطورية قليلاً. ثم انتقل مقرها إلى القسطنطينية عام (٣٣٠) ثم عاد إلى إيطـــاليا عند التقسيم عـــام (٣٩٥) الذى من جرائه صارت صـــقلية تابعـــة للإمبراطورية الغـــربية : ولكن ماذا كان يمكن أن يضر أو يفيد هذا التغيير ذو الطابع الإدارى إقليماً قاحلاً هالكاً ؟

وليس عندى ما يستَحق أن أذكره فيما يتعلق بغـــارات البربر الشماليين. فقد ظهـــروا أول مرة فى صـــقلية عندما بدأ الخـــوف منهمعند أقاصى حدود الإمبراطورية. وأثناء حـــكم بروبو وجدت جمـــاعة من الفـــرنجة؛ بعد أن هُزِمت فى بلاد الغـــال ونُقلت إلى

(1) *Historiæ augustæ Scriptores*، المجـــلد الثـــانى صـــفحة ٨٥. *Trebellii Pollionis, Galliani duo*، الفصل الرابع

شاطئ البحر الأسود؛ أسطولاً بحرياً صغيرا تابعاً لروماً، وقامت بالاستيلاء عليه بهدف العودة به إلى الغرب وفى طريقها المحفوف بالمخاطر من البسفور إلى مضيق جبل طارق، كانت تقوم بنهب أماكن ساحلية كثيرة انتقاماً واحتياجاً. ونزلت فى سيراكوزا وأتلفت وأفسدت بها وأعملت فيها مذبحة. ولاذ الناجون منهم إلى ثغور نهر رينو فى عام (٢٧٨)(1).

وبعد تلك الزوبعة العابرة وهلاك الامبراطورية الغربية فارق ألاريكو الحياة، كما يعلم الجميع، فى مدينة كوزنسا وكان قد أوشك على اقتحام صقلية عام (٤١٠) ولكن جنسريكو قام بمحاصرة بالرمو واستولى على ليليبيو عام (٤٤٠) وبعد هزيمة الوندال التابعين له على يد رتشيميرو عند أجريجنتو عام (٤٥٦) وبعد نهب. وليس احتلال الجزيرة. تنازل عنها لأودواكرى بموجب معاهدة عام (٤٧٦) ولكنه احتفظ فقط بليليبيو لتكون مركزاً للمراقبة له؛ يحمى من خلالها مملكته الجديدة فى أفريقيا. وحكم أودواكرى صقلية لمدة أربعة عشر عاماً. وتبقى لنا من هذه الفترة وثيقة منح امتياز أراض فى سيراكوزا(2) وبرهان على اتخاذه ما يسمى «بجانب البربر» فى الجزيرة. أما الإروليون فلم يمروا بالجزيرة أبداً، أو ربما لم يرسلوا إليها سوى حامية عسكرية صغيرة: كانت صقلية على هذا القدر من الضعف! وبعد هزيمة أودواكرى على يد الأستروجوت؛ سلمها بهدوء لتيودوريك بعد أن اقنعه كسيودور بذلك، شريطة ألا يعيث المنتصرون فساداً فى المدن والقرى، وألاّ يأتى منهم إلى الجزيرة إلا العدد الكافى فقط لحماية الحصون الرئيسة.

(1) زوزيموس، الكتاب الأول، الفصلان ٦٧، ٧١.

(2) ج. مرينى *I Papiri Diplomatici* الأعداد ٣٢ و٣٣ ويعتقد أنها أجزاء من وثيقة واحدة صادرة سنة ٤٨٩ وفيها نرى أن أودواكرى منح شخصاً يدعى بيريو وربما يكون كونت، ٦٩٠ قطعة نقود منها ٤٥٠ مخصصة لبعض الأملاك فى سيراكوزا و٢٠٠ فى جزيرة مالطة. وأنه بموجب هذه الوثيقة سلم الباقى وهو ٤٠ قطعة نقدية وجانب من أملاك مختلفة فى بيراميتانا موجودة فى أراضى سيراكوزا.

وقد حكم تيودوريك الجزيرة بشكل إنسانى أكثر مما فعل بها أسلافه من البربر وغيرهم، ولكنه لم ينس أصوله ولا هرطقة آريوس التى كان موبوءاً بها؛ حتى إن أحد نُساك ليبارى البسطاء ذكر أنه رآه عند موته يُسحب سحباً إلى جزيرة فولكان الصغيرة مُهلهل الثياب، حافى القدمين، ويداه مقيدتان وراء ظهره وينهش فيه طيف البابا يوحنا والوجيه سيّماكو وقد قاما بإلقائه فى فوهة البركان المتوهج(1)!

وأدت تلك الكراهية الوطنية والدينية الشاملة فى كل أنحاء إيطاليا إلى سقوط مملكة القوطيين بعد موت تيودوريك بوقت قصير، كما مهدت الطريق أمام السيطرة البيزنطية التى بدت غريبة بقدر أقل من غيرها. وقد جاء بها بليزاريو. وقد كان قائداً عظيماً. فى أكثر الفترات المجيدة التى عاشتها روما. وبعد أن غزا أفريقيا وقبل أن يغزو البر الإيطالى قام بغزو صقلية فى عدة أسابيع قليلة وبما لا يزيد عن عشرة آلاف رجل بسبب تواطؤ أهلها، واستولى على كتانيا بهجوم عسكرى مفاجئ، وأخذ سيراكوزا ومدناً أخرى بمعاهدات، وتمكن فقط من بالرمو بعد معركة عنيدة، وعاد إلى سيراكوزا، عاصمة الجزيرة، ودخلها منتصراً عام (٥٣٥) وقام بتوزيع عملات ذهبية على عامة الشعب الذى آمن فى الحقيقة باستعادة مجد أمته عندما سمع المنتصرين يتحدثون اليونانية واللاتينية. وكانت حرب توتيلا القصيرة عام (٥٤٩ - ٥٥٠) هى آخر غارات البربر الشماليين فى صقلية حيث لم يستعمروها أكثر من ثمانين عاماً ولم يقيموا بها مستعمرات عسكرية، ولم يتركوا بها سُلالات أو مؤسسات أو أية آثار. وأعادت الحكومة البيزنطية فى هدوء إلى

(1) لم يكن القديس غريغوريوس يعتقد بالتأكيد فى مثل هذه الحكايات الخرافية إلا أنه جعل منها ومن آلاف من شبيهاتها أمراً يصدق حتى يشيع الأوهام ويثير الناس ضد اللونجوباردين والبربر وكذلك الآريين مثل الغوطيين. انظر *Divi Gregorii Papæ Dialogi*، الكتاب الرابع الفصل ٣٠.

الجزيرة تجـــاوزات الرومان كافة واحتفظت بأسمائهم وأشكالهم؛ ولمدة قرن من الزمان بدءاً من غزو بليزاريو وأنتهاءً بمملكة كوستانسو، لم يُعرف فى تاريخ صقلية أى حدث ملحوظ سوى التغير الذى طرأ على طبيعة الروابط بين الجزيرة وبرّ إيطاليا.

على مدى ثمانية قرون كان لسكان صقلية صلة حميمة بوسط إيطـاليا؛ كأن الجزيرة قد اتخذت لها مكاناً عند مصب نهر التيبر؛ فكانت الأعمال كثيرة ومتوالية وبخاصة الحكومية والتجارية والخاصة بالدراسات الحرة لفترة وبالشئون الدينية فيما بعد؛ وكانت أكثرها تلك المتعلقـة بزراعة الأراضى. ولم تغير مداهمـات الغرباء ـ حتى توتيلا ـ أى شئ من هذا النظام، لأن الجزيرة كانت قد سارت باستسلام ريفى على درب البَرّ الذى استقر فيه المنتصرون كافة.

ولكن الغزو البيزنطى والغزو اللونجوبردى، وكانت تفصل بينهما فترة وجيزة جداً، فكّكا هذه الروابط وذلك فى القرن السادس. فقد قام الأول بنقل الأعمال المتعلقة بالحكومة إلى القسطنطينية وكانت كثيرة وذات أهمية بالغة؛ ومن بينها إدارة ضياع التاج. وقام الثانى عام (٥٦٨ ـ ٥٧٥) بتقسيم إيطاليا إلى جزئين، جزء للمنتصرين والآخر للإمبراطورية البيزنطية وكان هذا يتكون من جزر وأجزاء من ـ البَرّ الإيطالى ـ متفرقة عن بعضها وكأنها تفرقت بفعل زلازل : طرف شبه الجزيرة؛ وبعض الشرائط الساحلية المتفرقة على البحرين وفى الوسط روما ومعها أجزاء متعددة من الأراضى حتى البحر الأدرياتيكى. وصار بالطبع الجزء الخاضع للبربر الجدد فى حرب مع الحكومة البيزنطية. وكان للخوف من أمراء الحملة اللونجوبردية الطغاة أخطر الآثار على نفس كل رومانى؛ ومنها المذابح لكبار المواطنين ونهب الثروات وتدنيس الكنائس واضطهاد الأرثوذوكس واستشهادهم غالباً على يد هؤلاء الأريوسيين ومساعديهم الوثنيين، وانهيار الأنظمة المدنية وإذلال السكان بالقوانين الجائرة فأصبح الأغلبية منهم، أو أقل قليلاً، عبيداً وانقطعت كل الاتصالات بين صقلية والأقاليم الأخرى البائسة التى أصبحت مقراً وفريسة للبربر.

وعلى العكس من هذا لم يحدث تحول يذكر، أو لم تتغير على الاطلاق العلاقات المادية بين صقلية والبلاد التى ظلت تحت الحكم البيزنطى وأقيمت العلاقات المعنوية ونمت؛ وذلك بسبب لجوء كثير من الإيطاليين إلى الجزر، وللإخاء الذى انبثق من القهر الشامل الذى أصاب الأقاليم الغربية للإمبراطورية، والذى انبثق خاصة بسبب وساطة البابوات؛ الذين صار لهم أتباع كثيرون فى صقلية.

الفصل الثانى

فى اعتقاد سير القديسين المحلية، أن المسيحية كانت لها بدايات مبكرة ورائعة فى صقلية - ويقولون إن القديس بطرس أسرع بإرسال أوائل الأساقفة من أنطاكيا إلى صقلية عام (٤٤) : فأرسل كلاً من مارتشانو إلى سيراكوزا وبنكراتسيو إلى تاورمينا. وبعد سنوات قليلة جاء بيريللو إلى كتانيا وليبرتينو إلى چيرچنتى وفيلبس إلى بالرمو وباكّيلو إلى مسّينا. وكانوا جميعاً مُضْطهدين ومُعْتدين فى آن واحد، فقد قاموا بهدم معابد وثنية وإسكات صوت المنجمين وقتل التنين، وقام مارتشانو، وهو مختبئ فى دهاليز العاصمة تحت الأرض ببناء هيكل وبه تمثال يصور العذراء وقد شنقها اليهود وكذا ماريا وتايا اللتين استشهدتا فى تاورمينا حفاظاً على عفتهما؛ وقد أقيم أول دير للنساء فى العالم المســيحى عند قبريهما.

ارتاب فى تلك الحكايات. وإن كانت مثبتة دون ترتيب فى كتب كنيسة روما. عالمان صقليان عظيمان وهما چامبتيستا كاروزو وچوڤانى دى چوڤانى فى بدايات القرن الثامن عشر (1) ويلوح لى أن أضيف إلى تشكيكهما أن سفر أعمال الرسل فى وصفه الدقيق لرحلة القديس بولس إلى روما عام (٦١) وبقائه ثلاثة أيام فى سـيراكوزا (2) لم يشر - كالعادة - إلى

(1) كاروزو «مذكرات تاريخية لصقلية» الجزء الأول المجلد الثانى الكتاب الخامس. صدر المجلد الذى يحتوى على هذا الجزء فى بالرمو عام ١٧١٦ تحت حكم عائلة ساڤويا. دى چوڤانى (*Codex Siciliæ Diplomoticus*) ، المبحث الأول ص ٤٠٥ وما بعدها. المجلد الأول من هذا العمل العظيم، الذى لم يستكمل بسبب اضطهاد ظالم وأحمق، طُبع فى بالرمو عام ١٧٤٣. وبعد نصف قرن من الزمان وأكثر أحيا دى جريجوريو فى كتابه «مقدمة فى القانون العام الصقلى» ذكرى الكاتب بكلمة على استحياء. ثم ثأر له باستحقاق دومنيكو شينا فى كتابه «نظرة لتاريخ الأدب فى صقلية فى القرن الثامن عشر» المجلد الأول صفحة ٢٦٠ وما بعدها.

(2) أعمال الرسل، الإصحاح الثامن والعشرون، ١٢.

وجود أى من أصدقائه أو ممن على ديانته فى تلك المدينة؛ ومن هنا فليس ثمة ما يؤكد مذكرات القديس مارتشانو المذكورة. وإذا اتبعنا أسلوباً آخر من النقد يكفى أن نشير إلى أن الروايات المذكورة تخالف مجمل وقائع التاريخ الكنسى فى القرن الأول؛ وأننا نرى فيها الرتب الكنسية ليس فى القرن الأول، ولكن فى القرن الخامس أوالسادس، وذلك بغض النظرعن الدير الخاص بالراهبات وتقديس الصور. ويتجلى جهل من كتب القصص فى إعطائه دوراً بسيطاً أو عدم إعطائه أى دور للقديس بولس أعظم مبشر بالإنجيل عند اليونان واللاتين. ومن المحتمل أن تكون بداية الديانة المسيحية قد وصلت إلى صقلية عن طريق روما وليس عن طريق الشرق ولم تصل قبل فترة اضطهاد نيرون. ومن الممكن أن نقبل من القصص مسار العقيدة الجديدة فى الجزيرة فقط مع تصحيح التسلسل الزمنى والأحداث وبحيث لا يتعارض هذا النهج مع أحوال الصقليين فى القرن الأول، لأنه من المعروف من جهة أخرى أن سير القديسين تحتوى دائماً، من بين ما تحتويه من سبائك كثيرة، على شئ من المعادن النفيسة، كما أنها تراعى قبل أى شئ حقيقة الأنباء الجغرافية.

وكانت المسيحية فى الأصل تعمل على تَحَضُّر المقهورين ولكن لم يكن المقهورون كلهم على درجة واحدة من القدرة على التحضر، فكان لابد أن يسبق حماس النفوس المقتنعة أو المحبة، إيمان الرعاع الفظ. ولكن تلك التأملات الغيبية وتلك المبادئ الأخلاقية الثمينة وذلك الميل للمصالحة والمحبة لم يكن من الممكن إدراكها فى صقلية إلا فى المدن، كان لابد أن تجد ترحاباً بين العباقرة اليونانيين الحاذقين قبل أن تجده عند اللاتين؛ الأكثر تشبثاً بالأشياء الواقعية، فكان لابد من بذل جهد عظيم حتى تتغلغل فى هذا الخليط الفظ من سكان الريف. وكان على المسيحيين القلائل بالجزيرة، التى لم يتم التغلب عليها بسبب شدة خمول أهلها، أن يكافحوا القوى العظيمة لكل من الإمارة والطبقة الإرستقراطية والعلماء. وقد حاولت تلك القوى بشتى الطرق أن تطيح بهذه القوى الجديدة التى ظهرت فى العالم بعد أن استشعرت

خطرها. ومن ثم فقد سالت دماء الشهداء فى صقلية لمدة طويلة من القرن الثالث وفى السنوات الأولى من القرن الرابع. وعندئذ لمعت أسماء صارت ذات شعبية كبيرة، مثل اجاثا ولوتشيا ونينفا وأوبليو وأسماء أخرى كثيرة، وقد ذاع صيت لنتينى، التى كانت فى يوم ما مهداً للبلاغة اليونانية، لصمودها البطولى وعدد المسيحيين بها.

فى الوقت ذاته تحصن آخرون من سلالة السيشليوتى فى عبادة تشريرى القومية أو عبادة ڤينوس إريشينا، بمساندة بورفيريو الذى جاء إلى الجزيرة ليراقب إتنا وكتب فيها حوالى عام (٢٧٠) مبحثاً فى الدفاع عن الوثنية. وقام الفيلسوف بروبو من ليليبيو، الذى عاش فى ذلك العصر ومعه تلاميذ بروفيرو الكثيرون الذين التفوا من حوله أثناء إقامته الطويلة فى صقلية قام بشن هذه الحرب الأفلاطونية الجديدة ضد المسيحية. ولكن سفسطتهم كانت دون جدوى كما كان كذلك التعذيب الجسدى الذى عاناه أصحاب الدين الجديد دفاعاً عن المبدأ الأخلاقى. وبعد توقف عمليات الاضطهاد وبعد أن حلت حماية الحكومة محل التسامح، وحل حماس عاصف محل الحماية، آمن بالمسيح الجزء الأكبر من الجزيرة. وقد زادت من عدد المؤمنين، الأوامر الدموية التى أصدرها تيودوسيوس والتى أُغلقت من جرّائها المعابد الوثنية إلا أنها لم تكف لاجتثاث المعتقداتَ الخرافية القديمة لسكان الريف من جذورها. وحتى السنوات الأخيرة من القرن السادس - وقد لا يصدق البعض هذا - كانت آثارها تتجلى فى صقلية وكذلك فى سردينيا إذ تتحدث رسائل القديس غريغوريوس عن عبدة أصنام، بذل أسقف تيندارو جهداً كبيراً ليجذبهم للإيمان؛ وعن عبيد وثنيين قام بشرائهم يهود كتانيا ليعلموهم مبادئ دينهم(1).

(1) هذا الحَدَث الأخير من الممكن أن يفسر بطريقة أخرى، إذا افترضنا تجارة عبيد أجانب، ولكن واقعة تيندارو تبعث قليلاً على الشك، فهو يتحدث بوضوح عن عبدة أصنام كانوا لا يريدون قبول الإيمان يحميهم ذوو السطوة. وهذا يوضح أن الأمر يتعلق بفلاحى صقلية، عبيد كبار الملاك وأن هذه الحالة تشبه حالة سردينيا نفسها. وبالإضافة إلى أتباع الوثنية اليونانية والرومانية، هناك بعض العائلات التى عذبتها العبودية فى تلك الأقاليم كانت تعبد الملائكة. انظر رسائل القديس غريغوريوس، الكتاب الثانى رقم ٩٨

وقد صحب الكنيسة الصقلية التى اكتمل نضجها ظهور نظام الرتب فى عصر قسطنطين وكانت له بكل تأكيد أصول شعبية فى صقلية كما هو الحال فى كل مكان، فكانت وثيقة الصلة بنظام الرتب فى روما للصـلة الحميمة التى كانت تربط بين البلدين: رباط إخاء أثناء فترة الاضطهاد ثم إجلال بعد نهاية فترة الاستعباد، عندما احتذى النظام الكنسى نظام الامبراطورية الإدارى.

إلا أننـا نرى فى صـدر القرن الخـامس أن أسقف روما كان يتصرف فى الجـزيرة مثـل المطران، فكان يُعين أسـاقفة الجزيرة وكان يُكاتبهم مباشـرة فيما يتعلق بشـئون القـواعد والنظم، ويدعوهم إلى مجـالس الأسـاقفة فى رومـا ويرخص بتكريس الكاتدرائيـات، ويفوض شخصاً أو آخر باختصـاصاته للحكم فى القضايا المتعلقة بالكنيسـة. وكان يقـوم بتجهيز الاحتفـال بذكرى زيارة العذراء مريم لأليصـابات فى جميـع الكنائس التى لم يتغير نظـامها إلا فى القرن الثامن كما سـنذكر فيمـا بعد. وقد عظمت بالضرورة

المرسوم ١١ «عام (٥٩٣) والكتاب الخامس رقم ١٣٢ المرسرم ١٤ عام (٥٩٦) والتى نجدها أيضاً فى دى چوڤانى *Codex Siciliæ Diplomaticus* الأعداد ١١١ و١٢٧ صفحة ١٤٢ و١٧٥. وبالنسبة للتبشير فى سردينيا راجع رسائل القديس غريغوريوس الكتاب الثالث العددين ٢٣ و٢٥ الخ. وفى سردينيا بالإضافة إلى السكان الأصليين من عبدة الأصنام كان يوجد سكان يطلق عليهم *Barbaricini* البربرتشيني كانوا يتعيشون بقوة السلاح وقد عُقد معهم اتفاق حتى يؤمنوا بالمسيحية. وعن هذا الموضوع توجد رسائل أخرى للقديس غريغوريوس من بينها رسالة موجهة إلى زعيم *Barbaricini* ويبدو أن المقصود هم البربر، كما اعتقد بعض العلماء.

وتأخر إيمان سكان الريف فى صقلية مذكور بوضوح فى خطـاب المديح الذى كتبـه القديس بنكراتسـيو فى القرن التاسع، فى جـاييتا فى المجلد الأول ص ١١ من *Vitæ Sanctorum Sicolarum*، وفى مجموعة بوللنديستى *Acta Sanctorum* ٣ ابريل، ص ٢٣٧ وما بعدها. وعامة راجع بيّرو «**صقلية المقدسة**» وجايتانى ودى چوڤانى وكاروزو فى الأعمال المذكورة، من القرن الأول إلى السادس ومختصر ب. ابريل الذى لا يفرق بين الأمور ولا يميزها «تسلسل تاريخى شامل لصقلية» ص ٤٤٢ وما بعدها. إن مصادر تاريخ صقلية الكنسى فى القرون الثلاثة الأولى غالباً ما تكون سير القديسين اليونانية ومخطوطات دير كريبتا فرراتا ودير سلڤاتورى مسّينا وبالنسبة للمخطوطات اليونانية فقيمتها معروفة. أما الباقى فتفوح منها دائماً رائحة القرن الثانى عشر والثالث عشر.

مكانة أسقف روما فى صقلية حتى سمت منزلته ليكون صاحب الرئاسة الكنسية فى الغرب. وقد جعلت غزوات البربر منه حامياً لرجال الدين الغربيين.

واتبعت الكنيسة الصقلية دون معارضة كل معتقدات كنيسة روما وطقوسها فكانت إقليماً هادئاً، بالرغم من عدم جهلها، كما كانت حليفاً مخلصاً للكنيسة الرئيسة. ولم يكن قد ظهر بها أى كاتب عظيم أرثوذكسياً كان أم مهرطقاً. ويبدو أن رجال الدين لم يكونوا فى منأى عن الطعن فى استقامتهم ولم يكن عددهم كبيراً ولم يكونوا من مثيرى الفوضى : وكان الرهبان قليلين بكل تأكيد وكانوا ينتمون إلى نظام رهبانية باسيليوس بالإضافة إلى مجمـوعة من البندكتيين إذا كان هـــذا حقيقياً فى قصـــة ســـوف أتناولها بالدراســة فى الفصل الرابع من هذا الكتاب(1).

وثمة رباط قوى آخر ربط صقلية بالبابوية فى تلك الأزمنة المتأخرة وهو ملكية الأراضى التى اقتناها المواطنون الرومان من ثروات كبيرة جمعها مارشيللو وڤيرى بدهائهما، أو بجهد وبعمل شريف أو عن طـريق الربا. ولم يكن مشـروعاً فى البدايات أن يكون للكنيسة أملاك إلا أن حمية المؤمنين الجدد، ودهاء رجال الدين فى جعل الضمائر تلتف فى شباك كثيفة لا سبيل إلى الخلاص منها ودفع ثمن الغفران والبقاء إلى جوار فراش الموت مع نفوس أضناها المرض أو استثارها خوف كبير، والخلط بين أعمال الرحمة وأعمال المحبة، وجعل البلاغة والمعرفة تراثاً مقتصراً على الكهنة: لقد أدت كل هذه الأسباب القوية إلى تضاعف العطايا وهبات الوقف التى زادت بعد احتلال البربر عندما صارت ثروات المغلوبين الدنيوية مهددة وانخفضت قيمتها بشكل كبير. وهكذا وُهبت قطع من الأراضى الواسعة إلى الكنائس الإيطالية فى صقلية وكان يطلق عليها بلغة العصر أملاك أو أوقاف؛ وفى القرن السادس

---

(1) انظر التفاصيل فى دى چوڤانى *Codex Siciliæ Diplomoticus* الرسالة الثانية والثالثة والرابعة.

كان لكنيسة ميلانو أملاك فى الجزيرة من هذا النوع(1) وكذلك حصلت كنيسة رافيّنا(2) على أملاك أخرى ونالت كنيسة روما أملاكاً كبيرة ووفيرة كما كانت لديها أراض أخرى فى أنحاء إيطاليا وخارجها كافة. وعلى حد قول البابا أدريانو الأول فإن ثروات صقلية كان مصدرها هبات الأباطرة وهبات الخاصة على حد سواء. وكانت الأملاك شاسعة ومنتشرة فى أنحاء الجزيرة خاصة فى سيراكوزا وكتانيا وميلاتزو وبالرمو وچيرچنتى وهو ما دفع أساقفة روما إلى تعيين اثنين للقيام على تلك الأملاك، مقرهما فى سيراكوزا وبالرمو على غرار المراقبين الماليين لإقليمى سيراكوزا وليليبيو قديماً. وقد قام أحد المؤلفين البيزنطين فى نهاية القرن الثامن بتقدير دخل صقلية وكلابريا بثلاثة طالين ونصف من الذهب(3)، وهى إحصائية قديمة وغير مؤكدة. وكان المتصرفون والفلاحون يقومون بزراعة الضِياع، وكان هذا هو الحال فى أراضى الجزيرة كافة. وسوف نتناول ظروف حياة هؤلاء فى موضعه، ولكننا نشـــير هنا فقط إلى أن كنيســـة روما كانت تحصل ضريبة على زيجــات فلاحيها؛ وهو ما يعد مصـــالحة بين الفكر القديم الذى كان ينكر لفظـــة زواج على اقتـــران العبيد وبين العقيدة الجـــديدة

---

(1) *Divi Gregorii papæ Epistolæ*, الكتاب الأول رقم ٨٠ وفى كتاب دى چوڤانى المذكور نجده فى العدد ٧٩ ص ١٢٥.

(2) ثلاث وثائق بردية بتاريخ ٤٤٤، تتعلق بادارة ممتلكات شخص يدعى لوريتشو فى صقلية والأموال التى كان يدفعها وكيله إلى متصرفى كنيسة رافنا فى صقلية أيضاً. تجدها فى مـــارينى *Papiri diplomatici* رقم ٧٣. *Divi Gregorii, Papæ Episolæ* فى دى چوڤانى المرجع المذكور رقم ٢١١. أنيللى *Liber Pontificalis*، فى موراتورى، ... المجلد الثانى الجزء الأول ص ١٤٣، حيث يتحدث عن شخص يدعى الكاهن بندتّو كان يدير شئون أملاك كنيسة رافينا فى صقلية وعاش المؤلف فى النصف الأول من القرن التاسع. والحدث الذى ذكره أنيللى يرجع إلى منتصف القرن السابع ويدل على ثراء هذه الأملاك وفساد القائمين عليها.

(3) تيوفانيس، *Chronographia* ص ٦٣١. وبافتراض أنه يتعلق بالطالين الأتيكى وتقدير الوزن بالذهب الخالص فيكون الثلاثة طالين ونصف تساوى ٣٠٠,٠٠٠ ليرة إيطالية تقريباً؛ وبالنظر إلى أسعار الأشياء اليوم فتكون قيمتها حوالى مليون ليرة بسعر اليوم.

التى جعلت منه واحدا من أسرار الكنيسة. وثمة ضرائب أخرى جسام أشقت مُتصرّفى الكنيسة وفلاحيها وربما كانت تشمل كل سكان ريف صقلية الذين تدهور حالهم تدهوراً أكبر بسبب الإهمال فى إدارة الأوقاف كما يحلو لنا اليوم أن نطلق عليها(1). إنها تجاوزات كبيرة قلل من شأنها القديس غريغوريوس فى العصر الذى تحدثنا عنه فى نهاية الفصل السابق ويجدر بنا أن نعود للحديث عنه.

ولم يكن من الممكن أن ترضخ كنيسة روما للونجابرديين، وهم سوط عذاب اللاتين بالإضافة إلى أنهم كانوا عاجزين عن احتلال شبه الجزيرة برمتها كما فعل القوطيون. وبدلاً من مداهنة البربر الجدد سعت الكنيسة لطردهم بما لديها من أسلحة تحركها متمثلة فى البيزنطيين والإيطاليين وكان عليها أن تعمل على تعزيز القوات البيزنطية بما لها من احترام داخل إيطاليا وخارجها. ولأن الامبراطورية كانت غير قادرة على الدفاع عن روما التى يهددها اللونجبرديون والجوع، فإن الكنيسة اضطرت أن تقد بنفسها ـ ووحدها ـ المدينة الخالدة التى دفعت تقاليدها السياسية والدينية الأسقف إلى التطلع لتكون له الرئاسة فى إيطاليا وفى المسيحية ويبدو أن هذا المقصد قد أشعل حماس القديس غريغوريوس وأثار عواطفه واهتمامه ولكن مساندة البابوات له كانت مساندة ضعيفة خلال العشرين سنة الأولى للغزو اللونجبردى.

وكان القديس غريغوريوس رجلاً ذا جاه وثروة كبيرة، جميل العادات، ودود الطبع، ميالاً للشجن، عالماً بالنسبة لعصره بالرغم من معاداته للأدب الكلاسيكى الذى كان يَشتّم فيه رائحة الكفر، كاتباً ذا أسلوب سهل وإن كان غير أنيق، ومتحدثاً فصيحاً، ورصين الفكر، صلباً فى مراميه، وليناً فى أدواته، مثابراً، ونافذ الرأى، ودءوباً فى عمله، لديه قدرة على الإقناع، باحثاً دقيقاً فى أمور الغير، ومدبراً للمال ولكن ليس لنفسه، عطوفاً وسخياً بحذق بل بدهاء، بارعاً فى استغلال ضعف الغير.

(1) انظر المصادر التى ذكرها دى جوفانى، *Codex Siciliæ Diplomaticus* الرسالة الخامسة والسادسة.

وحتى رذائلهم من أجل أهداف نبيلة، كريماً فى عدله وإنسانيته وفى حميته لكنيسة روما؛ وكانت تلك الأحاسيس المتعددة تبدو له إحساساً واحداً حتى تغلبت فى النهاية الحمية الكنسية على الأحاسيس كافة وقضت عليها جميعها عندما تعارضت معها.

وكان غريغوريوس، وهو أول الأسماء من بين البابوات، والقديس فى التقويم الرومانى، والعظيم فى التاريخ، مرآة للفضيلة المسيحية تشوبها بعض الشوائب الطبيعية بسبب الضعف الإنسانى أمام تلك الفضائل، وازدادت هذه الشوائب فى بعض الأوقات والأماكن حتى تمكنت من ذلك المعدن النقى، وأفسدته وخرج منه ذلك المسخ الذى أطلق عليه الحركة اليسوعية. وقبل أن يسمح له البابا بتنفيذ الخطة السياسية التى أشرت إليها، وبعد أن يأس من إحراز النصر، أراد أن يجهز، كما يبدو لى، ملجأً آمناً لكنيسة روما وإيطاليا الأرثوذكسية. عندئذ دفعته قوة الأسطول البحرى البيزنطى ونبوغ اللونجبرديين الذين لا مجال لهم فى البحر لأن يجعل من صقلية هدفاً لتنفيذ خطته.

ترك ـ عندئذ ـ مهمة العمل الإدارى ليبحث عن طريق أضمن للسلطة فى دير من أديرة روما عام (٥٧٥) وشيد غريغوريوس على نفقته سبعة أديرة: دير فى روما وستة أديرة فى صقلية. وهذا التباين فى العطية لم يكن عن هوى، حيث إن غريغوريوس ولد فى روما من عائلة رومانية وكان محباً لمواطنيه الذين كانوا يعيشون فى عوز وعُسر شديدين. حاول كثيرون تفسير هذا الصنيع بطرق متعددة. فتخيل بعضهم أن له أملاكاً فى الجزيرة، وهو تفسير لا يبدو صحيحاً كما أنه غير كاف. ورأى آخرون أن السبب يعود إلى كون أمه سيلفيا من صقلية(1) وهذا الافتراض بلا سند وغير كاف لإماطة اللثام.

ويبدو لى أن بداية الخيط تكمن فى كتابات القديس غريغوريوس نفسه. فقبل أن يعتلى منصب البابوية حرص بشدة على أن يتجمع فى مسّينا

(1) بيرو، «صقلية المقدسة»، ص ٢٣ اشارة دى أميكو.

رهبان كلابريا الذين فروا من دوى الحروب اللونجبردية الجديدة إلى صقلية وجابوا الجزيرة بؤساء مشردين(1).

ومن المعروف أن عدداً كبيراً من الإيطاليين قد لاذوا إلى صقلية قبل عدة سنوات عام (٥٧٦) عندما اجتاح اللنجوبرديون الأقاليم الواقعة فى وسط شبه الجزيرة الإيطالية، وأثناء ذلك الاضطراب أخذ الرهبان معهم مقتنيات الكنائس ورفضوا إعادتها بعد ذلك(2).

وغنى عن البيان أن نذكر كم الفقر الذى عانى منه هؤلاء المبعدون كلهم. ولم يكن القديس غريغوريوس قادراً على أن يجود بما يملك فى عمل أصلح وأنفع لإيطاليا وروما ذاتها إلا بإيجاد مأوى لهم. ولم يكن ذلك العقل ليتخيل فى ذلك العصر سوى الدير مأوى لهم. وكانت الأديرة الستة التى شيدها تكفى لاستقبال، إن لم يكن المُبعدين كافة، فعلى الأقل أكثرهم استحقاقاً وقدرة على تنظيم هذه الجماعة وتجهيزها من الرهبان حتى يخوضوا كفاحهم فى تلك المنطقة البينية بين الدين والسياسة؛ وحتى يقودوا فى صقلية حملة دعائية لروما ضد مقر القسطنطينية؛ الذى كان يجذب الشعوب الناطقة باليونانية، وحتى يُعدوا أنصاراً لكنيسة روما استعداداً لأقسى الطوارئ فتلجأ إلى صقلية اذا ما طردها البربر، ثم ليتمكنوا فى النهاية من العبور إلى البر الإيطالى - إذا ما دعت الأحداث لهذا - ليرفعوا راية الصليب ضد الأريوسيين. ودعم القديس غريغوريوس، أثناء تجرده من أية مهام كما يبدو، دعم صداقته بكبرى العائلات الصقلية لتحقيق هذا الهدف(3).

وعند اعتلائه عرش كنيسة القديس بطرس رغم إرادته أو لمحبة أهل روما له، ازدادت خطته فى صقلية مثل كل الخطط التى كانت تدور فى ذهنه. ولست بصدد الحديث عن مدى تأثير هذا الرومانى العظيم على عصره سواء بأعماله أم بكتاباته، ولكن سوف أذكر منها : اعتناق

(1) *Divi Gregorii papæ Epistolæ*، الكتاب الأول رقم ٣٩ مرسوم ٩.
(2) الصفحة نفسها، والكتاب المذكور نفسه، الكتاب الثالث رقم ١٥ والسابع رقم ٢٧ والثامن رقم ٦٥.
(3) *Divi Gregorii papæ Epistolæ*، الكتاب الأول رقم ٣ المرسوم التاسع.

الشعوب النائية للمسيحية، وزيادة إجلال الدين ورهبته، والاستئثار بالسلطة المدنية بسبب النفوذ الذى صار للأساقفة طبقاً لتقاليد ذلك الزمن، ولبُعد الإمبراطورية البيزنطية وضعفها؛ وعلو شأن كنيسة روما، والأساليب المستخدمة بمثابرة لتحقيق ذلك بنفس خالصة أحياناً وبسوء نية فى أحيان أخرى، والتعاليم الأخلاقية أى الفلسفة وعلم اللاهوت والقواعد والنظم ودائرة رجال الدين والطقس الاحتفالى والتراتيل المهيبة وسير القديسين الوهمية. ولم يهمل دراسة أى موضوع من الممكن أن يهز الفكر ويأسر النفس ويوهم الحواس. وكانت النتيجة العامة لاعتلاء القديس غريغوريوس كرسى البابوية، أنه إذ كان يصبو إلى أن تكون له الصدارة الروحانية، قد اقترب بالضرورة من السلطة الزمنية بشكل كبير أو قليل طبقاً للصعوبات والعراقيل التى صادفها. وهكذا تحولت حاميته مع مرور الوقت إلى إمارة فى روما ووسط إيطاليا.

ووجد فى صقلية ساحة أقل لممارسة نفوذه ومع ذلك ترك فيها آثاراً كثيرة حتى إن البابوات حاولوا بإصرارهم العجيب وبعد قرون كثيرة تحويلها إلى إقطاعية. لقد فاق بالتأكيد نفوذ القديس غريغوريوس فى صقلية كل الحدود التى يمكن أن تصل إليها صدارة الكنيسة واتجه إلى تحقيق قصدين بعينهما: أما القصد الأول فهو الهدف القديم، بعد دعمه ونشره، أى أن يجعل من صقلية قلعة لرجال الدين الإيطاليين وأن يكون فيها البابا سيداً على النفوس بما أن الأجساد كانت فى حوزة الامبراطورية البيزنطية. ويبدو أن القصد الثانى هو الحصول على امتيازات حتى تأتى إدارة الأملاك البابوية التى كان يساهم فيها الحكام والأشراف والكافة، بعائد كبير يُعين شعب روما على الدفاع عن نفسه بشكل أفضل ضد اللونجوبرديين ويزيده ارتباطاً بالباباوات.

ويتجلى مقدار اهتمام غريغوريوس بأحوال صقلية فى أول رسالة بقيت لنا منه، والتى من خلالها أعد لاجتماع أساقفة الجزيرة كل عام

فى سيراكوزا أو كتانيا(1) ثم تبعتها رسالة أخرى لأصدقائه الصقليين(2) وأخرى يشجع فيها الأساقفة الصقليين على أن يتعايشوا مع القضايا الدنيوية ليدافعوا عن الفقراء(3)؛ وأخرى أملى فيها إصلاحات عميقة ودقيقة فى إدارة الأملاك(4).

ويصل عدد الرسائل المتعلقة بصقلية إلى أكثر من مائتى رسالة تتجلى فيها لأى شخص أهداف القديس غريغوريوس ووجدانه المتحمس لهذه الأهداف أكثر من تدقيقه فى اختيار وسائل تحقيقها. ونجد أنه طارد بعض من تبقى من الوثنيين، واستمال المانويّين واليهود إلى المسيحية دون اضطهاد بل تعامل مع اليهود بتسامح على المستوى الإنسانى بالتأكيد، لا المستوى الفكرى. وكان شـديد الصـرامة فى التعـامل مـع الأمـور المتعلقة بالنظـام الكنسى، وأبدى غيـرة أشـد من غيرة بطريرك القسـطنطينية وعهد صـراحة إلى الأسـاقفة بجذب الشعوب للطاعة العمياء لروما، وحصل من الشعوب على حق اختيار رجاله المخلصين للمقار الأسقفية. والأكثر من هذا أن القديس غريغوريوس عقد عزمه على إصلاح عادات رجال الدين العلمانيين والقانونيين، وأهمها - وعلى رأسها - حظر السماح للمرأة بالانخراط فى الرهبنة قبل بلوغها الستين من عمرها لأن الكهنة - كما يبدو من أكثر من مثال - كانوا يغررون بالراهبات الشابات(5). وعلى

---

(1) الكتاب الأول، الرسالة الأولى، المرسوم التاسع.

(2) الكتاب الأول، الرسالة الثالثة.

(3) رسالة القديس غريغوريوس المؤرخة فى ١٦ مارس ٥٩١ فى دى چوڤانى *Codex Siciliæ Diplomaticus* ٦٦، ص ١٠٦ وهى غير موجودة فى طبعة أعمال القديس غريغوريوس التى بين يدى.

(4) الكتاب الأول، الرسالة ٤٢.

(5) ورد هذا الإجراء فى الرسالة الحادية عشرة من الكتاب الثالث المرسوم الثانى عشر، ويزعم أن الأمر يتعلق باختيار رئيسة دير الراهبات وليس سيامة الراهبات، وهذا أيضاً رأى دى چوڤانى، المرجع السابق ص ١٥٤ ولكن يبدو لى أن نص القديس غريغوريوس محدد للغاية بحيث لا يسمح بسفسطة المفسرين.

جانب الأخـــلاق العامة، ونستعين حرفيـــاً بكلمات الحَبْر الأكبر، فإن العمل كان شـــاقاً للغاية أو بالأحرى لا طائل منه حيث وصـــل الفساد إلى درجة تحرض السـماء على إبادة الأقليم فى الحال، كما كان يقول : ولكن عزاءنا هو اهتمـــامه وما قام به من تغيير وقدم الدليل بنفســـه عندما عدّ من بين أبغض الخطـــايا الزواج من أقارب الدرجة السابعة، والذى يكفى سطران من قرار تصدره الكنيسة الآن لتحويله من زنا المحارم إلى سر من الأسرار المقدسة. وفيما يتعلق بفســـاد الموظفين فقد شجبه القديس غريغوريوس وزاده عندما جعلهم يُمنحون العطايا المعتادة من الأملاك الموروثة وكان يساند بذلك الخاصة لدى القضاة، ويُقدّم الصدقات ويرتب معاشاً لهذا وذاك، وقام بإقالة الحاكم ليبرتينو الذى منع، قبل اعتلاء غريغوريوس لمنصـبه، إرسال قمح صـقلية إلى روما، وعيّن بدلاً منه شـخصاً يدعى چوستينو كان صـديقاً أو وثيق الصـلة بالبابا. وقد استغل القديس غريغوريوس مكانته فى بلاط القسطنطينية أحسن اسـتغلال، فقد نبه إلى الأعباء الضريبية التى فرضها القائمون على شئون الإمبراطورية فى صقلية وسـردينيا وكورسـيكا، وإلى أحوال هذه الشعوب المعدمة وإلى فداحة الخطأ فى إنهاك الجـزر بالضرائب، أملاً فى أن تدعم تلك الأموال اللعينـة الحرب فى البر الإيطـالى.

وفى النهـــاية يجب الثنـــاء على الإصـــلاح الإدارى للأمـــلاك البـــابوية فى صقلية للحكمة والإنســـانية اللتين أديرا بهما، لأن هدفه كان زيادة العـــائد مـــع الإعـــلان عن اســـتنكار إيقـــاع الأذى بالملاك المجـــاورين ظلماً وقسر المزارعين على الهجـــرة وسوف نتناول هذا الموضوع بالتفصـــيل فى معرض حديثنا عن أحوال سكان الريف، وسوف نتحدث فى هذا المقام عن خطأ واضح للقديس غريغوريوس نريد الإشـــارة إليه هنا : فخلافاً لمبادئ المسيحية وأعمـــاله العظيمـــة أبقى على العبودية فى صـــقلية، بينما كان يكافحها فى البر الإيطالى، كما أنه قيد حرية الاختيار فى زيجات

المزارعين(1).

هذه هى مجمل الأعمال التى قام بها القديس غريغوريوس فى صقلية، بحماس ومحبة، وعادت على الجزيرة بمكاسب كبيرة. ومضى قُدُماً يحقق أهدافه فى الحصول على المال والقمح منها للمساعدة فى إعانة روما. وازداد التقدير غير المحدود فى صقلية له ولكنيسة روما، وقد تم تشييد عدد كبير من الأديرة على نفقة الخاصة، وقد اقتدوا فى هذا بالقديس غريغوريوس، وزادت المعرفة بالكنيسة الصقلية وعظم بهاؤها. وكانت أديرة صقلية فى الحقيقة تبارى نظيراتها فى روما خلال القرن السابع من حيث الثراء وعدد الرهبان والاهتمام بالدراسات، وخاصة التراتيل التى صادفت نجاحاً كبيراً بعد عهد القديس غريغوريوس، وكذلك الأدب الدينى اليونانى الذى وجد فى صقلية منبتاً أفضل من روما.

واعتلى العرش البابوى فى ذلك العهد القديس انجاتونى المطوّب عام (٦٧٨) والعلاّمة المحب القديس ليونى الثانى عام (٦٨٢) وكونونى عام (٦٨٦) وسيرجو عام (٦٨٧) ثم ستيفانو الرابع عام (٧٦٨) ومن بينهم كان كونونى فقط هو الذى تلقى تعليمه فى صقلية بينما كان الآخرون جميعاً من صقلية. وفى الفترة نفسها جلس على كرسى كنيسة أنطاكية بطريركان صقليان هما : تيوفانى رئيس دير بايا بالقرب من سيراكوزا عام (٦٨١) وقسطنطين وكان كاهن المدينة نفسها عام (٦٨٣)(2).

---

(1) لأجنب القارئ ونفسى كل الاستشهادات الكثيرة، فإنى لم أرجع فى هذا الموضوع إلى مجموعة رسائل القديس غريغوريوس التي توجد بها الرسائل المتعلقة بصقلية، ولكن إلى مختارات هذه الرسائل الأخيرة، فى دى چوڤانى *Codex Siciliæ Diplomaticus* من رقم ٦٠ إلى ٢٦٦ للكاتب نفسه دى چوڤانى، بيّرو *Sicilia Sacra* «صقلية المقدسة» فى «أخبار مختلف الأسقفيات» من عام ٥٩٠ إلى ٦٠٤. وجايتانى *Vitæ sanctorum sicolarum*، الجزء الأول من ص ١٨٨ إلى ص ٢٢٤.

(2) بيّرو، المرجع المذكور ص ٣٥ إلى ص ٣٨؛ وجايتانى، المرجع المذكور، الجزء الثانى من ص ١ إلي ص ٤؛ *Anastasius Bibliothecarius* فى موراتورى، ١٠، الجزء الثالث ص ١٤٢، ١٤٥، ١٤٧، ١٧٤.

ولم تكن لصقلية قبل - أو بعد - هذا أية مشاركة كبيرة فى إدارة شئون الكنيسة العامة. واستمرت دفعة الحضارة فى صقلية التى قام بها القديس غريغوريوس فى العصور المتأخرة إلى أن انتزعت الجزيرة من البابا وخضعت لبطريرك القسطنطينية. وعندئذ شق رجال الدين الصقليون طريقهم إلى الكنيسة الرئيسة الجديدة وأثبتوا جدارتهم؛ فنجد ميتوديو وهو صقلى يرتقى المنصب البطريركى وغريغوريوس اسبستا يُسام أسقفاً لسيراكوزا والقديس چوزيبى اينّوجرافو وآخرين من صقلية ذاع صيتهم فى الجدل الدينى الحاد فى القرن التاسع كما سنذكره فى حينه.

الفصل الثالث

حينما كان القديس غريغوريوس يضع الأساس الأول للسلطة الزمنية للباباوات، كان فى الجزيرة العربية شاب جم الفضائل فى طريقه لاستقبال تعاليم دين جديد. وكان قومه فى طريقهم للخروج من طور الجاهلية. وللحق عرفت الجزيرة العربية فى أزمنة بعيدة حقبة من القوة والتحضر. وقد نشأ هؤلاء القوم، مع قسوة الطبيعة، بين مناخ حار محرق وتربة جدباء قليلة الماء، يستحيل معها ممارسة أى نوع من أنواع الزراعة إلا فى بعض النواحى؛ وتستحيل معها إقامة مستقرة لجمع غفير من الناس؛ حيث لا يستطيع السواد الأعظم من السكان أن يحيا أى نوع آخر من الحياة غير حياة الترحال. ومن ثم فليس من العجيب أن زالت السلطة السياسية عن شبه الجزيرة العربية فى زمن قصير جدا كما حدث فيما بعد للدولة التى أسسها محمد(عليه السلام) ولكن هذه الحضارة لم تندثر اندثارا تاما فظلت آثارها فى مراكزها الرئيسة: فى الشمال وبين الغرب والجنوب حيث الأراضى أكثر خصوبة وحيث يوجد المحيط الذى يلطف الجو ويساعد على التجارة. هذا وقد اختفت أيضا الشعوب القديمة فمنها من هاجر كالفينيقيين؛ ومنها من سقطت دولته وفقد سلطته؛ ومنها من أبيد بفعل الكوارث العنيفة تاركاً وراءه ذكريات طفيفة للزهو الإنسانى ولعدالة السماء وانتقامها لهذا التحدى.

وهكذا وعلى مدى الحضارتين اليونانية والرومانية وحتى القرن السابع حسب التقويم الميلادى؛ لم يكن للجزيرة العربية وزن كبير بين الأمم. فى تلك الحقبة كانت توجد فى شبه الجزيرة العربية سلالتان رئيستان: السلالة الأقدم ويطلق عليها سلالة قحطان نسبة إلى الجد الأكبر-الفعلى أو المفترض-يقطان المذكور فى التوراة. وكانت هذه السلالة من عرب الجنوب تقيم فى الجزء الجنوبى أى فى شبه الجزيرة العربية السعيدة وخاصة فى المنطقة الواقعة بين الغرب

والجنوب أى اليمن كما كان يطلق عليها قدامى العرب. وكانت عبارة عن سلالة مختلطة تتحدث بلغتين: إحداهما تشبه العربية والأخرى تختلف عنها. وكانت تمضى بها الحياة بين الترحال والاستقرار. وقد عملت الشعوب المستقرة بالزراعة وأقامت فى المدن واتجهت إلى التجارة والملاحة والصناعات المدنية. وظل الجزء الأكثر ثراءً لقرون عديدة خاضعا لسيطرة بعض الإمارات الصغيرة فى مكان ثم لنظام الحكم الفردى فى مكان آخر ثم خضع فى النهاية لحكمين أجنبيين متعاقبين. وكان العديد من القبائل الرحالة المنحدرة من هذه السلالة - بعد إقامة طالت أم قصرت فى أواسط شبه الجزيرة العربية - قد نزحت إلى الشمال كما لو كان حسها الفطرى يدفعها إلى مجاورة الأمم المتحضرة. وهناك أسست دولتين: الأولى فيما بين النهرين وأطلق عليها مملكة الحيرة وكانت فى أول أمرها تدفع الخراج لبلاد فارس ثم أصبحت بعد ذلك ولاية فارسية. أما الدولة الأخرى فتقع بالقرب من الشام وكان مقرها تدمر وعرفت باسم مملكة أذينة وزينوبيا وعندما تحطمت تدمر فإن هذه القبائل التى لم تستقر فى مدن كبيرة أخرى عرفت باسم الغساسنة وكان يتولى حكمها أمير ، وخضعت للإمبراطورية الرومانية التى استولت أيضا على بعض المدن الشمالية بالجزيرة العربية مثل بطرا كما أطلق عليها الرومان.

أما السلالة الثانية فقد أخذت اسمها من عدنان وهو من ذرية إسماعيل، وكانت أكثر تماسكا من سلالة قحطان وتتحدث بلغة واحدة وتسيطر على أراضى المناطق الوسطى الشاسعة الجدباء. ولم تخضع ذرية إسماعيل - سواء كانوا رعاة رحل أو تجار قوافل. لحكام وعاشوا مستقلين فى كنف حياة القبيلة الخشنة حتى من كان لديه منهم سكنى ثابتة أتاحها المكان. وهكذا صرفت هذه الطبيعة عنها مطامع الغرباء فلم يفكر فى غزوها أو فرض سيادته عليها أحد وما كان أهلها ليتقبلوا هذا، إلا أن بعض القبائل عرفت ملوك اليمن والفرس بالاسم فقط ولفترة وجيزة.

فإذا نظرنا إلى سكان شبه الجزيرة العربية على أساس أعراقهم

يتضح أن أصليهما مختلفان الواحد عن الآخر وهذا ما يفسر تناحرهم المتبادل واستمرار العداء العرقى بينهم فى ظل الوحدة القوية بالدولة الإسلامية التى امتدت حتى سواحل المحيط الأطلنطى البعيدة، حيث وصلوا منتصرين إلى هناك. ولكن إذا نحينا جانباً صلة الدم والنسب ونظرنا إلى التقاليد فسوف نجد أن مواطنى اليمن ومزارعيه فى جهة، بينما نجد فى الجهة الأخرى بقية سلالة قحطان وكل سلالة عدنان، وسوف يتضح أن السواد الأعظم من العرب، وبالرغم من تنافسهم العرقى، يعيشون نمطا واحدا من الحياة ألا وهو حياة الرحل. تلك هى الظروف الاجتماعية التي لا تتبدل مثلها في ذلك مثل الصحراء حيث ترحال القبائل، وهى ظروف معروفة نظرا للكثير من الروايات التي تفيد المعنى نفسه منذ أيام أيوب وحتى رحالة يومنا هذا: سواء في الكتب المقدسة إلي أشعار وقصص وروايات ومشاهدات بعض المثقفين الأوروبيين. ونجد من الضروري دراسة هذه الظروف لأنه متى عرفت أنظمة القبائل فسوف يكون من اليسير معرفة أوضاع الأمة العربية وأحوالها في كل زمان ومكان.

إن القبيلة المرتحلة أو كما يطلق عليها ـ البدو ـ والتي تمثل في المقابل لدينا ـ الريفيين ـ هي كيان سياسي متماسك لا يربط بينها أي رباط آخر غير رابطة الدم، ودون أن يكون لديها أية عقوبات جزائية غير الحياء وخشية قصاص أو إغارة القبائل الأخرى. ومن هنا فإن الوحدة الأولية للمجتمعات لا تكمن في الفرد في حد ذاته ولكن في العائلة، ولا مجال لسلطة حقيقية غير سلطة كبير العائلة فهو الحاكم المطلق لأبنائه وسلالتهم ولطبقة العبيد سواء الذين أسروا في الحروب أو الذين تم شراؤهم وأيضا للموالي الذين يبقون في حمايته ولمن يأتمنونه على حيـــاتهم؛ ســـواء من الأجانب أو من الأحرار: فيقوم بتوفير الغذاء لهم وحمـــايتهم من بطش القبائل الأخرى، وعندما يستخدمون العنف ضـــد غيرهم يقوم هو بإصلاح الخطأ أو يواجه الثأر. وتكمن قوته في عدد أتبـــاعه وقوتهم وتكمن ثروتـــه في خدماتهم وعدتهم وقطعـــانهم؛ ومن هنا فليست هناك حاجة لسلطة القانون

للحفاظ على هذا الكيان متماسكا.

وخارج نطاق العائلة تتكون الجماعات وهي وإن كانت تتكون طواعية بالكامل، فإنها تخضع كذلك لعلاقة القرابة، وهكذا فإن مجموعة من العائلات تكون حلقة كما يطلق عليها العرب من اعتيادهم ضرب خيامهم على هيئة حلقات، يقوم على أمرها شيخ، أو كما نطلق عليه نحن، «مسناً» ويتم تعيينه دون انتخاب أو اقتراع وإنما بناء على السمعة التي يتمتع بها وعلى أهمية العائلة التي ينتمي إليها ومكانتها، حتى إن الأمر يصبح في الغالب متوارثا جيلا وراء جيل لفترات طويلة: ويصبح الشيخ زعيما شرفيا وقاضيا دون سلطة على الأفراد ولا يحكم بينهم بإرادته المنفردة فيما يتعلق بالأمور العامة للحلقة بل يجب أن يستشير فيها زعماء العائلات؛ أي يمثل الشيخ ـ كما يقال اليوم ـ الحلقة الخاصة به في القبيلة التي تضم العديد من الأقارب من السلالة نفسها. وتنظم القبيلة بدورها كالحلقة ويتولى أمرها شيخ يتم تحديده بالطريقة نفسها بالاتفاق وحسب الضرورة بأسلوب تحديد شيخ الحلقة نفسه، ويدير الأمور العامة للقبيلة: فهو الذي يقرر الترحال ويقرر شن الحروب أو يعقد التحالفات بموافقة الشيوخ وربما أيضا بموافقة غيرهم من زعماء العائلات. ومن المعتاد أيضا أن يقود رجال القبيلة في اشتباكاتها ومعاركها ولكن يتم أحيانا، وهو ما يحدث غالبا اليوم أكثر مما كان يحدث في الأزمنة الغابرة، يتم اختيار قائد غير سيد القبيلة لمثل هذا الغرض.

تلك هي أنظمتهم السياسية والعسكرية؛ لأنه من الصعب الفصل بينهما عند البدو، فلا يوجد لديهم أنظمة مدنية بمعنى الكلمة. فالقوة تحافظ على الممتلكات عندما لا تكفي هيبة العائلة، وإذا عجزت القوة عن القيام بذلك، يصبح النهب والسلب كسبا مشروعا وتعد حماية الأفراد من قواعد الشرف الملزمة، سواء للحلقة أو للقبيلة، فهم يمسكون السلاح عن طيب خاطر للقصاص ممن اعتدى عليهم ويبذلون كل ما لهم من سلطة ومال لدفع دية الدماء التي سفكت بأيد أحد أبناء القبيلة.

هذه التعويضات التي ينظر إليها على أنها جائرة وغير معقولة في بلد متحضر والتي تعد إنسانية لدى الشعوب البدائية كان يعمل بها منذ أمد بعيد في شبه الجزيرة العربية، على غرار ما كان يحدث في العصور الوسطى في أوروبا حين دخلها بدو الشمال؛ ولكن العرب، وهم أقل من الشعوب الجرمانية صبرا على العدوان، كان من عاداتهم عدم قبول الدية إلا بعد أن تنهك قواهم وبعد أن تأتي الحرب على الحرث والنسل. إن دية القتل، وهي أكبر من أن تتحملها عائلة بمفردها، وتثقل كاهل قبيلة بأكملها، كان من المعتاد أن تتكفل بها الحلقة التي يمكن اعتبارها شركة تأمين متبادلة ضد الأضرار: وكان بإمكانها طرد الأفراد المفسدين، فيشتتون دون أن يضمنهم أو يحميهم أحد. ويبدو أيضا أن هناك العديد من الدرجات والتجمعات الوسيطة بين العائلة والقبيلة، ويرجع ذلك إلى التفاوت الكبير في عدد رجال القبائل. فبينما نجد مئات من الرجال في قبيلة من القبائل نجد الآلاف في قبيلة أخرى أي مايقارب عدد سكان إقليم بأكمله.

إن الكيان السياسي المستقل، الذي نطلق عليه قبيلة أو بتشبيه أكثر وضوحا الفرع المنفصل عن الشجرة، يسمى بالعربية بأسماء مختلفة(1) بحسب مقدار قرب أو بعد نقطة التصاقه بالجذع الذي انتزع منه: لأن كل جزء من أجزاء القبيلة المتحدة في سلالتها ينضم مع الأجزاء الأخرى أو ينفصل عنها - إذا أراد - في فضاء الصحراء الفسيح.

ليس من الضروري أن نذكر درجات التباين بين العائلات في الثراء والـــذي كان يتمثـــل في الممتلكات المنقـولة التي لا تتـــوافر لها

(1) يسمى الأصل شعب، كعدنان على سبيل المثال ثم يطلق اسم قبيلة على أول تفرع منه. وإمارة على الثاني، وبطن على الثالث وفخذ على الرابع، وعشيرة على الخامس، وفصيلة على السادس، وكلها مسميات قاصرة وكثيرا ما تختلط ببعضها ولكن الأكثر شيوعا أن يطلق على *Tribù* اسم قبيلة. وقد اتبعت في هذا التصنيف (**كتاب العقد**)، ذلك الكتاب القديم النفيس الذي كتبه ابن عبد ربه، المخطوطة، المجلد الثاني الورقة ٤٣ الوجه الأول والذي يرجع فيه إلى ابن الكلبي.

الحماية الكافية ضد اعتداء الآخرين وما يفوق ذلك من أضرار ظواهر الطبيعة. إن التفاوت في عدد الرجال وفي ممتلكات العائلات ومكانتها في أمة تتأهب للحرب وتراعي روابط الدم بدقة متناهية؛ أمر يرجع بالضرورة إلى نبل متوارث، كما يحدث أيضا أن تتفوق شهرة قبيلة أو حلقة على غيرها، حيث إن صلة القرابة تختلط لديهم بما نسميه نحن بالمواطنة، ويبقى زمام الحكم في القبيلة - في يد الأشراف - ولكن بمدلول واسع وأخف؛ نظرا لوجود عناصر مثل الألفة مع كبير القبيلة، واحتياج الكبار الدائم لصغار القوم، وإمكانية عدم الحاجة إلى حكومة بما بها من أنظمة جافة، ثم البســـاطة والبدائية في الحياة الاجتمـــاعية. ولهذا فمن النـــادر أن ينحدر هذا الحكم حتى يصبح حـكم أقلية، ولن يصل أبدا إلى مستوى الإمارة.

إن الأنظمة القبلية البدوية تنطبق على الشعوب المستقرة، التي تنحدر في الغالب من القبيلة وتعيش وسط أراضي البدو. فهي مرغمة على الدخول معهم في دورة المال وإلا فلتتحمل غاراتهم، وتستدعي كالمعتاد جيرانها إلى فرقها الحربية. إن المنـــاطق السكنية المســـتقرة في أواسط شبه الجزيرة العربية: عبارة عن مراكز تجارية أو حقـــول مزارعين يفد إليها الأجانب وهم رجال من ســـلالات عربية أخرى، وأحيانا ينحصر الحكم فيها في يد القلة أو في يد فرد واحد في الغالب، تلك ضرورة يمليها ضمان الممتلكات ووجود خليط من شعوب متواضعة بالمكان والطبيعة البشرية التي تخف حدتها عندما تخلد إلى الراحة. ومع ذلك فبما أن الســـلاح ملازم ليد القبـــائل الحرة فلا يمكن للعبودية أن تترسخ بصـــورة كبيرة بين سكان المدن.

وللأسباب نفسها نجد أن الملامح والأعراف - وإن اختلفت - فإنها تتشابه في نقاط كثيرة. فأبناء الصحراء يتمتعون بطول فارع وبقوة الأبدان وبملامح الســلالة القوقازية الصـــميمة، فهم يتميزون بلحية غير شـــديدة الكثافة وأســـنان جـــميلة، ونظـــرة واثقـــة ثاقبـــة،

ويلتفون برداء فضفاض ويغطون الرأس والرقبة بكوفية(1) غريبة الشكل. وقد نقلت عنهم هذه الكلمة إلى أوروبا، وتتسم تصرفاتهم بالشموخ، ويستخدمون السلاح بمهارة وخفة، ويجيدون تدريب الخيول، وهي بالنسبة لهم حيوانات صديقة أكثر منها نافعة؛ ويجدون في السلب مفخرة لهم، وهم مندفعون عند الغضب، قساة القلوب في البغضاء، مضيافون لدرجة متناهية، يوفون بالوعد، متوقدو المشاعر في الحب بمعنى الكلمة، يكتفون في الغالب بزوجة واحدة، يشترونها ويطلقونها ولكن يمنعهم من إساءة معاملتها احترامهم لقرابة أبويها، وهم لا يمسكونها حبيسة الديار ولاتمنعهم الغيّرة من الصحبة العفيفة مع الفتيات، ولا من الرقص والغناء الحلو. وتفسر لنا حرية الكلمة والتعود على الحروب وصحبة الجنس الناعم، تفسر لنا إحساس البدو بالشعر بهذه الدرجة العالية. أما أهل الحضر فهم أقل منهم في نقاء أصلهم ويرجع ذلك لاختلاطهم بالجواري الزنجيات، وهم أقل من البدو قوة، يرتدون عمامات وملابس ثمينة فضفاضة ومع ذلك لا يتمتعون بالخفة والوسامة بالمقارنة بالبدو. ويجمع أهل الحضر بين الانفعالات العنيفة والغش والتدليس، ولا يعرفون رقة المشاعر، بل الشهوانية وتعدد الزوجات والطلاق والمحظيات ويزدرون النساء ويجورون عليهن عندما يتاح لهم ذلك دون تحرج؛ ويبعدونهن دائما عن مجالسهم، ويبحثون عن الملذات، وفي كل أفعالهم يغلبون المتعة الحسية على الروحية.

تلك هي عادات أهل الحضر التي تختلف اختلافا كبيرا عن عادات

---

(1) إن الكوفية ينطقها العرب بطرق مختلفة مثل *kuffieh, kufie, Kufiù* وهي عبارة عن منديل مربع الشكل يلف حول الرأس بواسطة حبل مصنوع من الوبر يلتف مرتين حول المنديل الذي يتدلى على الرقبة والكتفين وهو مخطط في العادة باللون الأخضر والأصفر، وقد يكون أيضا أبيض فقط. وفي قاموس البوفيسير دوزي *Dictionnair des noms des vetements* يرجع البروفيسير دوزي أن يكون أصل الكلمة إيطالي. ولكني أعتقد-على العكس من ذلك- أن العرب هم الذين أدخلوا هذه الكلمة إلى إيطاليا.

أهل البدو مع وجود تفاوت بين فرد وآخر. فنجد أن أهل الحضر من التجار دائمو التجوال يشاركون البدو في القيم وفي الأخلاق. وينطبق الشيء نفسه على العائلات النبيلة التي تحب تقليد محاربي الأمة، فاعتاد بعضهم أن يرسل أبناءه الصغار إلى القبائل البدوية ليتدربوا عندهم حتى يصبحوا فتيانا. ولكن هناك كثير من الشيم التي تميز السلالة العربية برمتها ونذكر منها: الكرم وحسن الضيافة والشجاعة والجسارة والاحترام والمثابرة. أما المثالب المشتركة فتتحصر في الإيمان بالخرافات والضراوة والأخذ بالثأر والقسوة وعدا ذلك يتمتع الجميع بذكاء حاضر، وبحكمة في الحديث وبالميل إلى البلاغة ونظم الشعر.

وإذ نقصر الآن الحديث على القرن السابق لمولد محمد(عليه السلام)، علينا أن نضع في الاعتبار أن السكان المستقرين كانوا أقل عددا في أواسط شبه الجزيرة العربية وربما كانوا أقل فسادا من سكان اليوم، وأن السكان الرحل كانوا يعيشون تقريبا في الظروف الراهنة نفسها، وأن هؤلاء وأولئك كانوا يتفاعلون معا ومع تلك المؤثرات التي كانت تظهر على السطح من عصر إلى عصر لتجدد الأمم. وهذا مايوضحه شعر الشعراء العظام، ويصوره التاريخ في ذلك النشاط وتلك الحيوية التي تميز بها جيل مفتون بكل أشكال الجمال، ومتطلع إلى طرق السمو سواء كانت حقيقية أم زائفة، حتى أراد أن يمزق عن نفسه قشرة البداوة الخشنة، التي مازال يعلق به أثر منها. إن التاريخ وهو يقوم بشرح مثل هذه الحركة لا يجد أسبابا شافية تماما ويلجأ إلى تعبيرات مختلفة: ويستخدم أحيانا ما يدور حديثا من كلام عن أحداث وشخصيات إعجازية، وأحيانا يلجأ إلى اتخاذ حياة الإنسان صورة مجازية يمكن أن تنطبق بصورة جيدة أو رديئة على تطور الشعوب.

ويبدو أن هناك العديد من العوامل مهدت لهذه الفترة في الجزيرة العربية حيث كان النشاط التجاري هو أول هذه العوامل، بمفعوله البطيء، فقد اعتاد التجار نقل البضائع من أفريقيا الجنوبية إلى الجهات الغنية التي يجري بها نهرا دجلة والفرات أو نقل بضائع الهند

إلى الشام بحيث تجوب قوافلهم الجزيرة العربية في خطين متقاطعين من الغرب إلى الشرق ومن ناحية البحر في الجنوب إلى حدود الصحراء في الشمال. وكانوا يسيرون في الطرق التي لا يشح فيها الماء بمحاذاة سلسلتين من الجبال، واحدة منها موازية للبحر الأحمر والأخرى عمودية عليه. وتخرج من الأولى في الحجاز وهي المنطقة التي قامت بها مكة والمدينة. وفي نحو القرن السادس - وسواء كان بسبب سقوط الإمبراطورية الرومانية ومن ثم توقف الملاحة في البحر الأحمر بعد أن شهدت ازديادا ملحوظا في عصر الرومان، أو بسبب المعارك الحربية التي أثرت على الحركة التجارية وجعلت من الصعب مرور القوافل حتى الفرات-فإن تجارة الهند وجدت أنه من الأيسر قطع طريق الجزيرة العربية الطويل المتعب بدلا من طريق الخليجين. ومن ثم ازدادت مكاسب تجار الحجاز وازداد الاتصال بشعوب أكثر تحضرا كما ازداد أيضا عدد السكان والنشاط في البلاد. ومن ناحية أخرى دخلت دولتا الحيرة وغسان العربيتان في اتحاد وثيق، أولاهما مع الفرس والأخرى مع القسطنطينية. وأخذتا كثيراً من ملامح حضارة الدولتين؛ وانتقلت بعض مظاهرها إلي قبائل أواسط الجزيرة العربية؛ التي كانت على اتصال بكل من الحيرة وغسان، كما كانت أيضا على اتصال بالإمبراطوريتين؛ حيث شاركت في بعض من حروبها المستمرة.

وفي منتصف القرن السادس ازداد نشاط هذه الحركة بسبب علاقات جوستنيان مع الحبشة؛ وبسبب فتوحات كسري أنوشروان؛ وبمجيء الأحباش إلى اليمن. هذا وقد أدى تقدم الإمبراطورية الفارسية المدهش واحتلال اليمن إلى الإعجاب بسلطة الساسانيين وحضاراتهم وشيوع اسمهم في الجزيرة العربية كلها. ولكن العديد من المستعمرات اليهودية كانت قد بدأت منذ زمن بعيد في الوفود إلى الجزيرة العربية هربا من الهيمنةالأجنبية تارة، وهذا هو قدر اليهود المحتوم، وتارة أخرى كانوا يأتون إليها، يجذبهم حسهم العالي بالمنافع التجارية. وقد حمل اليهود معهم فنون الصناعة وذكرى حضارة قديمة ونظريات عقيدة روحية؛

وعلى غير عاداتهم عملوا على نشر مبادئهم الدينية ليثبتوا أقدامهم في البلاد.

ومن الملاحظ أيضا وجود آثار تقدم المسيحية وإن لم يكن لها مستعمرات؛ ولكن كان هناك أثر أعمال بعض المتشبثين ممن دفعتهم الكنائس الأرثوذكسية للبحث عن ملجأ في البلاد الأجنبية. فكانت النفوس تهتز لجهد أولئك المبشرين الحار ولتعاليمهم شديدة التأثير على أي أرض عطشى لصدى الكلمة التي تميز بها الكثير من العرب المسيحيين خاصة الأسقف قس *KOS* الذي عاش في نهاية القرن السادس وأصبح يضرب به المثل، باعتباره أبلغ فصيح في الأمة. وقد انتشرت المسيحية في سلالة قحطان وفي طرفي شبه الجزيرة العربية بصورة أكبر من انتشارها في وسطها أو في سلالة عدنان.

وهكذا ظهر خلال أرستقراطية العرب الخشنة عصر بطولي، وليس مجازا أن أطلق عليه عهد فروسية-فقد بدأت تظهر فيه أعمال تدل علي كرم الأخلاق في وقت الحرب، وكانت بعض القبائل تعلم فيما بينها بمكان - ويوم - المعارك كما انتشرت ظاهرة خروج الفرسان من الصفوف للنزال الفردى، وكانوا وقت الهزيمة، أو في أشد العداوات يقدمون خيامهم ملجأً آمنا للمهزومين وكثيرا ما كانوا يقومون بقص شعر جبهة عدوهم المهزوم ويطلقون سراحه بدلا من قتله. وكانت تقبل الديات عن طيب خاطر بعد تقدير قيمتها. وكانت هناك هدنة لله - أشهر حرم - في بعض الأوقات من العام. عندئذ تجلس القبائل المتخاصمةمعاً في سوق عكاظ، أو في أسواق أخرى أقل شهرة؛ وقد كانت أسواقا تجارية ومجامع شعرية. وهناك كان المحاربون - في بعض الأحيان - ينزعون سلاحهم ويعهدون به لأحد الكبار حتى تضعف فرص العراك أمام عنفوان طبيعتهم، وعندما يرى الزعيم عدم إمكانية تجنب النزاع يسارع بإعادة السلاح إلى أعداء قبيلته. وفي مكان آخر يتعهد أربعة من الرجال البواسل بالدفاع عن المظلومين من بطش الغير، بغض النظر عن هويتهم. ومن أسمائهم سمي هذا التحالف بحلف الفضول وهو نموذج طيب سرعان ما احتذى به في مكة. وهكذا بدأت القوة في الانحياز

للحق، وفي مرحلة متطورة كانوا يعرضون أحيانا عن استعمال القوة، وبدلا من أن تلجأ العائلات المتنافسة على إمارة القبائل إلى حمل السلاح، فإنها كانت تتغنى بأصلها النبيل بالقول والشعر. وكانت تعهد بالتحكيم إلى محكمين من خارج القبيلة على غرار ما كان يحدث في مجالس الحب في العصور الوسطي.

وعلى هذا نرى أن هذه التقاليد الكريمة تحمل في طياتها بدايات الثقافة الفكرية. وأخذت تعود الكتابة إلى الظهور في وسط الجزيرة العربية بعد أن كانت فنا مجهولا بها، ولكن قليلين هم الذين تعلموا الكتابة وكانت تمارس بصعوبة على سعف النخيل وعلى رقائق الجلد، أو على ألواح الخراف، وكانت تستخدم في حفظ بعض المدونات العامة، وليس بغرض الحفاظ على النتاج الفكري، الذي كان يعتمد في حفظه على ذاكرة الرواة التي كانت تقوي بصورة إعجازية من خلال التدريب، وعلى مدى حقبة طويلة ظلت هذه الطريقة أكثر يسراً وضماناً من الأوراق المكتوبة. أما قبل هذه الحقبة فإن دراسات العرب - إن جاز إطلاق هذا التعبير على تلمس قبائل بدائية الطريق في ظلام الجاهلية - لم تكن دراساتهم تتعدى رصد الكواكب وتطبيق ذلك بخبرتهم على الأحوال الجوية، وحفظ الأنساب ومآثر الأبطال بالذاكرة. ولكن رويدا رويدا أخذت جميع جوانب الفكر تتجلي تحت ذات النور؛ وارتقت المعارف العملية لتصبح فلسفة أخلاقية، فوراء الخرافات كان يجري البحث عن أفكار مجردة، ربما كانت باطلة ولكنها عظيمة، وانطلق التأمل في أصول قوانين الكون الخفية، وكان الجدل يدور حول الجبرية وحول فكرة الاختيار الحر، ومن ثم فقد ظهر بعض المتشككين الذين يسخرون من آلهة قبائلهم ومن الحياة الأخرى فنرى الشاعر المقاتل امرأ القيس وهو يلقى في وجه صنم بالسهام التي طلبوا منه أن يرميها ليعرف طالعه. وكان الشعراء على وجه الخصوص يرفلون أكثر من غيرهم في متع العيش ومن ثم ظهر تناقض غريب بين الأدب العربي والأدب اليوناني واللاتيني المعاصرين له. فبينما كان أدباؤها

يعجزون عن استخراج درر جديدة من كنوزهم الأدبية فيقومون بإملاء خطب ومواعظ تافهة أو أناشيد مقدسة عديمة الأهمية، كان العرب، على بساطتهم، يرتجلون أشعاراً تفيض بمثل لامبالاة لوكريزو الفلسفية وبحس هوميروس وبندراوس الجمالي. فقد كان الشعر يزدهر بالضرورة لديهم قبل أي نوع آخر من أنشطة الفكر. فلا يضاهي شعراء الجزيرة العربية القدامى الذين ولدوا في ذلك الزمان أي شاعر آخر، سواء في العهود السابقة أم اللاحقة، كما وأن تميز اللامعين منهم لم يفرض الصمت على الكثيرين ممن كانوا أقل شأنا. ففي كل الديار كانت تصرح الأشعار بالتفاخر وهكذا أطلقوا هذا الاسم على الشعر الذي يسمى لدينا بشعر الحماسة، وكانوا يتفاخرون بنبل الأعراق وعلو الهمم، ويتغنون بالجمال والحب والحرب والصيد وسباق الخيل، أو كانوا يوجهون هجاءهم اللاذع ضد رجل أو عشيرة وكانت مئات المئات من الألسنة تردد الأبيات التي تغنى بها الشاعر، لذا كان الكبار يخشونه ويشترون سكوته أو مديحه بالثمن الباهظ. وكانت القبيلة تقيم الاحتفالات الكبيرة عندما يذيع صيت أحد شعرائها حتى إنه في سوق عكاظ كانت القصيدة «المعلقة» – المتوجة حسبما قد نسميها نحن– تنقل بحروف من ذهب وتعلق على جدران المعبد.

وقد انتقل البحث عن أناقة الكلمة من الشعر إلى النثر؛ ونشط هذا المجال بفضل المنازلات الشعرية التي أشرنا إليها؛ وبفضل مسيحيي العرب لأن الكلام الموجه لعامة الناس هو مدرسة للبلاغة، حقيقية وموحدة. وظهر كذلك الاتجاه إلى تجويد اللغة وأصبحت الكافة متذوقة لجمال اللفظ، وإن لم تصل في رقي ذوقها إلى القدر الذي كان في أثينا زمن ديمو شينيس *Demostene* ومع ذلك فلم يكن أقل منه حرارة وحيوية. وكان هذا الإحساس بالتعبير عند العرب، عاملا فعالا في التمهيد لتقبل رسالة محمد(عليه السلام)، ومن خلال ما بقي من نماذج –وباستثناء القرآن– يتضح لنا أن البلاغة العربية في ذلك الوقت كانت تتحصر في نقاوة اللفظ، ورجاحة الأفكار، وحيوية الصور والإيجاز. وكان العرب

دائمي التفاخر بتفوقهم على سائر الشعوب الأخرى في فن التعبير. إن بعث الجنس العربي في القرن السابق لمحمد(عليه السلام) كان يقوم على هذه المبادىء. ومثلما يجري في سائر العصور البطولية حينما لا تدثرمنها البدائية اندثاراً تاماً كانت هناك المغالاه في التفاخر والإهانات الفاشمة التي كانت كفيلة بأن تدفع إلى سفك دماء. وسفك الدماء يستدعي القصاص. وكان الأبطال لا يخجلون من لعب الميسر واحتساء الخمر. ثم هناك التناقض الغريب جداً في أحوال المرأة، فأحياناً كانت تتبارى لتبلغ أعلى المراتب في نظم الشعر وأحياناً أخرى تدير المنزل في حكمة وتارة نجدها حرة أو معبودة محبوبة تلهم الشعراء مشاعر وأحاسيس جديدة بأن تكتب فيها روايات وتارة أخرى نجدها ذليلة يتحكم فيها اتفاق تسر موقوت. وعندما تأتي الإناث إلى الحياة يقوم الآباء بوأدهن مخافة أن تجلبن العار للعائلة.

وإلى جوار كل هذه المظاهر الممقوتة، كان يعيش العرافون والعرافات، تستشيرهم القبيلة في أخطر أمورها وتحكّمهم العائلات في قضاياها وكان الجميع يؤمنون بالسحر وممارسته بعدة طرق، فمنهم من يلحظ طيران الطيور، ومنهم من يقرأ الطالع بضفر أغصان من الأشجار ومنهم من يستخدم سهاماً ليس لها سن، ومن ثم فمن يقرأ تاريخ شبهَ الجزيرة العربية في تلك الأيام يلحظ فيه خليطاً من ملامح الحقب التاريخية المشابهة، التي نعرفها بصورة أفضل: خليطاً من زمن هوميروس وزمن روما في عصورها الأولى، ومن العصور الوسطى. وفي النهاية فإن فوارس شبه الجزيرة العربية لم يكن تنقصهم جماعة من رعاة سماويين ولا مدينة مقدسة ولا مكان للحج.

إن معتقدات العرب الدينية ولو أنها كانت مزعزعة فقد كانت مختلفة الأصول وليس لها صلة ببعضها البعض مما مهد لعملية توحيدها. وكانت أول خطوة في سبيل هذا الهدف تتمثل في فكرة وجــود إلــه أســمى وهو تقليد ســامي قديم جــداً لم يندثر أبداً عند العــرب وإن بلبلته عبــادة آلهة متعددة. هذا وكــانوا يؤمنون بالكثير من الكائنات غير المرئية كالأرواح عند الإغريق القدامى وكانوا يسمونها جن، وهو اسم يقابل عندنا *genii* ويسود بينهم أيضا

ما يشبه التطلع إلى خلود الروح، وهي فكرة لم يتلقوها من خلال الميتافيزيقا أو علم اللاهوت ولكن من الخرافة التي تعد مدرستهم التي لا جدال فيها والتي كانت تؤكد على أن من يموت تخرج بومة «هامة» من دماغه، حيث إنه مات مجنياً عليه، فلا تكف البومة عن الظهور للأهل وهي تصيح: «إني ظمآنة»، «إني ظمآنة» حتى يتم الثأر. وفي خرافات أخرى عندهم يسهل أن نلحظ انتظارهم للبعث.

وكانت معبوداتهم كثيرة: فهناك أصنام من الحجارة أو من الخشب ذات ملامح بشرية تختلف باختلاف العشائر. وكانوا يعتقدون أن الشمس والقمر والنجوم والكواكب - سواء رمزوا لها بأصنام أو لم يرمزوا - هي ملائكة أو بنات الله كما يزعمون. ولما كانوا يفضلون التعامل مع هذه الآلهة الصغيرة المرئية والملموسة التي لديها استعداد للدخول في التفاصيل مع الإنسان والاستماع والاستجابة له ومساعدته في كل ظروف الحياة الصعبة، فقد ظلت كذلك وحدة العبادة ووحدة الإله باقية في العادات القديمة والتي كانت تدفع القبائل إلى الحج إلى الكعبة (الشريفة) أو بيت الله (الحرام) كما كان يسميه العرب حتى قبل ظهور الإسلام. وهناك روايات نسبت إلى إبراهيم وإلى إسماعيل إعادة بناء الكعبة، أما أول بناء لها فلا ينسب ليد بشرية إذ إن المعبد الأصلي قد نزل بالكامل من السماء. وقد قدم الدليل على ذلك، ومازال يقدمه ببقية منه: الحجر الأسود المعشق في الزاوية الشرقية للكعبة، ولا شيء البتة ينكر أن الرواية تورد الحقيقة، فإن هذا الحجر المقدس ماهو إلا حجر كوني أو نتاج ثورات بركانية حدثت في مكة - كما هو معروف - في أزمنة مختلفة: وقد روج التجار الذين بنوا هذه المدينة بالقرب من الكعبة الخرافات المربحة، وأقاموا كهنــــة وذبائح من الحيــوانات وطقــوس دينية للطواف حـــول الكعبة(الشريفة) وجعلوا منها مسكنا لسائر أصنام القبيلة حتى إنها أصبحت معبداً لسائر الآلهة. وعبثا استأجر مسيحيو الحبشة، فاتحو اليمن، عمالاً من القسطنطينية وشيدوا كنيسة رائعة من المرمر في صنعاء وبعثوا بالنداءات لدعوة القبائل إلى ذلك الحج الجديد، إلى

أن تحركوا بجيش من عندهم لهدم البيت العتيق المنافس في مكة فباءت حملتهم بفشل ذريع وأنقذته معجزة: فقد هلك الجيش إذ تفشى به الجدري أو لعلها الحمى القرمزية وهي أمراض ظهرت حينئذ لأول مرة في شبه الجزيرة العربية. وعلى هذا أصبح تقديس الكعبة بمثابة رباط قومي حقيقي جمع جنس العرب وجعل من مكة عاصمة لهم. ورتب كهنتها تقويما بتسميات الأشهر نفسها التي أبقى المسلمون على استخدامها. وقاموا أيضا بتحديد الهدنة السنوية كأول خطوة لتوحيد العرب.

وحول هذا المركز التجاري والديني أخذت تتضارب الأفكار التي كانت تتولد في شبه الجزيرة العربية وهي أفكار وردت مع العبادات الأجنبية: ونقصد بها العقيدة اليهودية والمسيحية اللتين تكلمنا عنهما سابقا بالإضافة إلى عقيدتين أخريين أقل شأناً ونعني بهما المجوسية التي تدين بها بعض قبائل الخليج الفارسي، الصابئة وهي خليط من الاعتقاد بوحي يؤمنون به، ومن عبادة الأجرام الفلكية، وهي عقيدة بالغة القدم وما تزال قائمة حتى الآن، ولكن يبدو أنها لم تستطع أبداً أن تلهب حمية أتباعها.

ونتيجة لذلك ففي الوقت الذي كان الجميع يتطلعون فيه إلى الكمال الأخلاقي والفكري الذي يميز عصر الأبطال، كان بعض من أهالي مكة يلتمس هذا الكمال في الدين. وحدث ذات يوم عيد، نحو أواخر القرن السادس، أنه بينما كان أهل مكة يلهون حول صنم من أصنامهم انسحب من بينهم أربعة من المختارين، شعروا بالأسى لأخطاء شعبهم وراودهم الشك في منطقهم وعقيدتهم فتفرقوا في البلدان يلتمسون دين إبراهيم الحق، وتضيف الروايات الإسلامية - غير المشكوك في صحتها - أن هؤلاء العقلاء كانوا في ترحالهم يتدارسون التوراة والإنجيل والتلمود بتعمق، ويتناقشون مع علماء الدين في التقاليد اليهودية والمسيحية وفي النهاية اعتنق ثلاثة منهم المسيحية أما الرابع فبعد عودته إلى وطنه اضطهدوه ونفوه باعتباره صاحب بدعة ثم توفي بعد ذلك بعدة سنوات وهو في طريقه إلى مكة يملؤه الشوق إلى الاستماع إلى أقوال محمد (عليه السلام).

وقد ساعد نظام الحكم في مكة على اتساع نطاق هذا الدين الجديد الذي مهدت إليه تلك الظروف، فقد كانت هذه المدينة مقراً لأفرع عديدة من سلالة عدنان ومن بينها تميزت قبيلة قريش، وهي قبيلة تجار بكل ما تعنيه الكلمة: وكانوا حقاً جديرين بما كان لهم من مكانة، فلم تكن من عشيرة تضارعهم في نشاطهم وبراعتهم في الحركة التجارية. وما أن اعتلى أحد رجال قريش وهو قصي الزعامة الدينية بالكعبة حتى قام باستدعاء أفرع أخرى من سلالته إلى مكة، كما قام بطرد العشائر التي كانت بها قديما وهي عشائر سوف نرى رجالها منذ ذلك التاريخ فصاعداً متعاهدين مع أهل قريش أو موالي في ديارهم. وانحسرت الولاية السياسية في يد مجلس من شيوخ قريش يطلق عليهم سادات*Sâdât*(1) أي أرستقراطية تزعمها هو وأصبح بمثابة أمير على المدينة. ويبدو لي أن التمييز بين السلطة التنفيذية والتشريعية في جماعة مكة الأولية واضح. وهو شكل خاص من أشكال الحكم، قد يبدو غريبا جدا في دولة ليس بها سلطة قضائية ولا قضاة مدنيون أو جنائيون ولكن الأعراف العامة بالقبيلة تفسر ذلك الوضع الغريب. وحدث أنه بعد موت قصي تنازع أبناء سلالته فيما بينهم، وفي النهاية تقاسموا السلطة التنفيذية حتى أصبحت وظائف عامة وراثية، محصورة في يد القليل من العائلات: مثل الدعوة لاجتماع المجلس، إعطاء إشارة القيادة إلى القادة في حالة الحرب، وتحصيل الرفادة لمساعدة فقراء الحجيج، والإشراف على السقاية، وتولى سدنة الكعبة، وإصدار التقويم وهو شيء خطير الأهمية لتحديد الهدنة. ولكن لا يمكن أن يقال عن

---

(1) سادات هو جمع الجموع كما يقول علماء النحو العرب، وهو جمع اللفظ المعروف سيد. بهذا اللقب ذي المغزى كان يسمى شيوخ مجالس مكة في ذلك الوقت كما جاء في الروايات القديمة التي جمعها ابن ظافر في كتاب بعنوان **نجباء الأبناء** ورد فيه ذكر موقف لمحمد (عليه السلام) وهو صبي في الثانية عشرة من عمره حين دخل بالصدفة إلى قاعة المجلس بينما كان المجلس ينظر في شأن عظيم من شئون الأمة (أنظر مخطوطة باريس، الملحقات العربية ٤٨٦، الورقة ٤٨ الوجه الثاني والملحقات العربية ٤٨٧). إن هذا الاستشهاد يتناول اللقب فقط ولا أعتقد أن مؤلفاً قد تعرض له من قبل أما عن نظام المجلس وسلطته فهي معروفة.

هذا الحكم إنه نظام أقلية، حيث إنه إذا كانت المهام قليلة ومجمعة في غالب الأمر؛ فإن السلطة العليا لم تكن تتمثل في هؤلاء الأشراف ولكن في المجلس. وقد استمر هذا النظام السياسي حتى جاء الإسلام فحوله إلى «مجالس بلدية»؟ وفي السنوات الأخيرة من القرن السادس حدث أنْ استغل أفراد من المواطنين ثغرات بالقوانين مثلما حدث في أوروبا بعد ذلك بقرون عديدة. ولما غافل أحد القرشيين تاجراً أجنبياً واستولى على قافلته عنوة، اجتمع أشراف قريش في وليمة ومن بينهم محمد(عليه السلام) وكان حينئذ في الخامسة والعشرين من العمر وتعاهدوا على حماية الضعفاء سواء كانوا من قومهم أم من الأجانب، أحراراً كانوا أم عبيداً تعرضوا لأي إساءة فرد أيا كانت عائلته في مكة. وقد سمي هذا الحلف بحلف الفضول وهو اسم مستمد من الاسم القديم الذي ذكرناه سابقاً حيث أقسموا بالله العلي على العهد وهم يشربون معا كأساً من ماء زمزم المقدس. تلك كانت شبه الجزيرة العربية قبل دعوة محمد(عليه السلام)، في عصر الجاهلية كما كان يسميها المسلمون عن حق.

ولد محمد(عليه السلام) سنة ٥٧٠ ميلاديا في قبيلة قريش، من ذرية قصي بن هاشم العريقة، وهاشم هو لقب يعني في لغتنا *Frangi-Pane* (أي كاسر الخبز) وكان اعترافاً من الفقراء بفضل جد النبي الأكبر. وكان محمد(عليه السلام) ابناً وحيداً لوالديه، جاء إلى الوجود بعد وفاة والده، ثم ماتت أمه وعمره ست سنوات وبعد ذلك بقليل لحق بها جده لأبيه، فكفله يتيما عمه أبو طالب، وكان رجلا ذا شأن عظيم في المدينة. وتربى محمد(عليه السلام) تبعا للتقاليد في قبيلة بدوية، حيث اعتاد خشونة عيش البادية، ثم رجع بعد ذلك إلى داره. وقد سافر محمد(عليه السلام) كثيرا مع قوافل التجارة إلى سوريا وإلى غيرها من البلاد وقام برحلة من هذه الرحلات لحساب أرملة تدعى خديجة. وكان محمد(عليه السلام) حلو الشمائل، مليح المظهر، وسيم الطلعة، محبوباً من الجميع لنزاهته وطهارته وحكمته وحسن حديثه حتى أطلقوا عليه الأمين. وقد أحبته خديجة

وتزوجته وقد عاش محمد وقد أغناه الله بزواج خديجة بعشرة هادئة وبرزق كاف حتى إنه لم يتزوج غيرها في حياتها. وعاش حتى بلغ الأربعين من العمر حياة الفضيلة، وكان يؤثر الاعتكاف والخلوة ويحرص على ألا يتحدث عنه الناس بخلاف ذلك. ولم يظهر جهده جليا في المعارك حتى الحرب الأهلية التي خاضها والتي تفوق عليه فيها الكثيرون في الجسارة والقتال. وما كان لمحمد من سحر البيان ما كان للشعراء، فما كان ينظم أشعاراً ولا يحسن حتى ترديدها. وكان يفتخر بعدم معرفته للقراءة والكتابة وإن لم يمنع هذا من تعرفه على التقاليد القومية والأجنبية والمباديء الفلسفية والكتب المقدسة للشعوب الأخرى التي كانت تشغل الأذهان وتصل إليه عبر مئات الرواة، ومن بينهم أحد أقارب زوجته وكان أحد هؤلاء الأربعة الذين كانوا يبحثون عن دين إبراهيم الحنيف.

ومن بين مختلف هذه العناصر أخذ محمد(عليه السلام) ماكان لديه علم به واستطاع أن يطوعه لاحتياجات العرب. وشَكَّل نظاماً دينياً وسياسياً بسيطاً، رحباً، رائعاً في تطبيقه لأنه كان أكثر سرعة في نهضة الأمة كما لم يحدث أبداً مع أي نظام آخر. كما أنه ساهم بصورة كبيرة في تحضر جزء كبير من الجنس البشري، وما زال هذا النظام قائما، ويبدو أنه لن يخبو يوما من الأيام. وربما كان يحمل في طياته ذلك الهدف. وفي توافق مع التعاليم الأساسية التي تقوم عليها اليهودية والمسيحية وصياغاتها العربية فالإيمان هو الإيمان بإله واحد لا شريك له، لم يلد ولم يولد، وهو الحي القيوم، الخالد، القادر، الخالق، والإيمان بدرجات الكائنات العاقلة، فهناك ملائكة وشياطين وجن وبشر، والإيمان بالحياة الأخرى وبيوم الحساب وأن جزاء المؤمنين الصالحين جنات النعيم تجري من تحتها الأنهار وفيها فواكه منزلة وبأن لهم فيها أزواجاً مطهرة من حور العين، وبأن عقاب الأشرار عذاب النار خالدين فيها أبدا. ومن هذه التعاليم أيضا ان كل شيء مقدر من عند الله حتى من يؤمن ومن لا يؤمن، كما أنه بعلم من الله تتنازع الإنسان وسوسة إبليس

وتعاليم الأنبياء: جميع الأنبياء أو الرسل، المذكورين بالعهد القديم وأيضا يسوع المسيح. وكما أوحي بالتوراة والإنجيل، فإن محمداً(عليه السلام) آخر الرسل وأعظمهم، وإن آخر كتاب لأوامر الخالق كتبه منذ الأزل، وقرأ أجزاءه الملاك جبريل، على النبي الأمي، الذي أخذ يردد ما أوحي به إليه، اسمه القرآن. وأول واجب على الإنسان نحو الله هو الإيمان به، بل أكثر من ذلك فيجب عليه تسليم أمره لله، وهذا ما يسمى بالإسلام ومن ثم أطلق على من اعتنقوا هذا الدين اسم المسلمين أي الذين يسلمون أمرهم إلى الله، وهي فكرة موجودة في المسيحية أتت تحت مسمى جديد. أما عن العبادات فهي متقاربة بين اليهود والعرب مثل: تكرار الصلوات، الحج إلى مكة، الصوم مع مراعاة الطهارة وتفادي النجاسة على أن تترك الشعائر الفردية لضمير الأفراد أما الجماعية منها فتوكل إلى رقابة المواطنين بعضهم بعضا. وحيث إنه لم يكن هناك نظام كهنوتي فكان الزعيم السياسي أو أي مسلم آخر يؤم صلاة الجماعة. وهكذا فالخطباء وعلماء الدين الذين ولدوا أيضا في أزمنة لاحقة ليسوا كهنة، فلم تكن الدراويش وشيوخ الطرق سوى متسولين ومحدثين. ويدعو هذا الدين المؤمنين لعبادة الله مالك كل شيء على الأرض، وإيتاء الزكاة ودفع الخراج، ومحاربة الكفار: وأول هذه القوانين يهودي الشكل، وثانيهما نتاج رؤية سياسية منشؤها روح العصبية التي سادت ذلك العصر. وواجبات الناس بعضهم تجاه بعض فرائض إلهية، ورد الأمر بها في حسم كما في اليهودية ولكنها تنبع من رحمة كما في المسيحية. ففي الحقيقة تأتي الزكاة في الترتيب على رأس سائر الفرائض التي أمر بها في وضوح، وتلي الإيمان مباشرة. كما ينادي الدين الإسلامي بالإخاء بين المسلمين وباحترام الأشخاص والممتلكات: أي الخطوط الرئيسة الأولى لدستور مدني وجنائي، أخضع الكثير من المساوىء التي كانت من تقاليد وأعراف العرب، وأهمها قتل النفس إلى قوة قانون فعال، شامل، يمكن أن تعمل به السلطة العامة. وبمثل هذه التعاليم كان النبي(عليه السلام) يقوم بتقويم أكبر الرذائل

شيوعاً في مجتمع الجزيرة العربية بالنهي الصريح أحيانا أو النصح والإرشاد أحياناً أخرى. فوأد البنات والبغاء ولعب الميسر والربا وشرب الخمر حسبها من المنكرات، ووضع الحدود لتعدد الزوجات، وأعطى للمرأة حقوقاً ليست بالهينة، ولم يلغ العبودية تماما ولكنه قلل وخفف منها فحث على عتق العبيد بالنصح وبالأمر. وإذا نظرنا إلى النظام الاجتماعي من مختلف الجوانب فسوف نرى كيف أن العادات قد قيدت يد المشرع الذي كان أرقى بكثير ليس من أمته فحسب، بل من عصره أيضا. ولكي يعرف محمد(عليه السلام) الناس بالله كان لا يكف عن قص ما حدث من آيات الله لليهود وللمسيحيين، ويروي عن قسوة التقاليد والحياة في شبه الجزيرة العربية، كما كان يستشهد بروعة الكون وجماله والمطر والمزروعات والحياة وكل النعم التي حباها الله الطبيعة وكل غيب يعجز الإنسان عن تفسيره، وجاء بدليل على رسالته بمعجزة واحدة ألا وهي الأسلوب الإلهي للقرآن الكريم كما جاء على لسانه والذي يعجز عنه عقل بشر وكان يتحدى الكفار أن يجيئوا بصفحة واحدة منه. والحقيقة أن مانسميه نحن *(Versi)* في القرآن إنما تسمى آيات، أي معجزات. أما المعجزات الأخرى التي اعتاد المسلمون وأكثر منهم المسيحيون أن ينسبوها إلى محمد(عليه السلام) والتي لم يفخر هو أبدا بها، ولا تدخل في حساب علماء المسلمين إنما هي من اختلاقات عصور متأخرة وشعوب أخرى وخاصة الفرس الذين أدخلوا في الإسلام روايات من وحي خيالاتهم الهندجيرمانية.

وقد فرضت التعاليم الدينية -كما نعرف- شيئا فشيئا. فقد آمن العرب بأن لديهم مشرعا عالما بكل أمورهم ومسايراً لها. وتنبع تعاليم الدين من مصدرين هما القرآن والسنة أي أفعال وأقوال محمد(عليه السلام) التي سجلها أصحابه ولدينا عنها روايات صحيحة ودقيقة أكثر مما يُرجى في تراث ديني، فهي لم تخرج من ظلمة تشيع أو من ماضٍ ضارب في القدم، وإنما من خلال واقع حدث منذ سنوات قليلة من الاضطهاد، تحول بعد ذلك إلى نصر، عاد بعده المضطهدون مع

المضطهَدين ليعيشوا أخوة مرة أخرى.

وتشهد هذه المجموعة الكبيرة من الأحاديث، بما لهذا المشرع من فكر ثاقب وتبصر وإنسانية وحلم وحكمة عملية، ولهذا كانت بمثابة مرشد المسلمين للفضائل العامة والخاصة، أما القرآن، وهو أعلى فى مستواه بكثير فهو يضم تعاليم وقوانين، وأوامر، ومواعظ وأمثالا وقصصاً دينيا قويماً، كما سبق وأشرت، كما يشتمل على تكرار، ونسخ وإشادة، وكل ذلك في أسلوب متنوع، منغم، مؤثر، رفيع المستوى، يسحر في مجمله السامعين بما له من إحكام وجمال للغة، والتي يمكن أن تنال إعجابنا نحن أيضا حتى وإن افتقرنا أحيانا إلى تلك النبرة، وتلك الطريقة في القراءة، التي تجعل هذا الكلام أبلغ أثراً. ولكن أكبر قيمته وأعظم تأثيره كان بالتأكيد يتمثل في تلك اليقظة التي مست ضمائر الناس جميعا في الجزيرة العربية وفي تلك النشوةالتي توحي بها فكرة الخلود والأبدية، وتذوقها لأول مرة، وفي ذلك الشعاع من نور العدالة الذي أخذ يتلألأ في عيون البشر، وفي إشباع ذلك الميل الطبيعي للمساواة وفي تحريم الربا والأمر بالتآزر بين الناس، وبامتنان الضعفاء الذين امتدت لهم يد المساعدة، ويتمثل كذلك في حياة المساواة التي نشأت تحت اسم الإمارة التيوقراطية(الإلهية النظام)، وفي المجال الواسع الذي يمكن أن ينفتح أمام طموحات كبار القوم. وإذا اقتفينا مسيرة هذه الجذوة التي انبثقت شيئا فشيئا حتى أصبحت شعلة هائلة فسوف نرى توالي الشعور الديني ثم الاجتماعي ثم القومي على إذكائها إلى أن قامت تلك العوامل الثلاثة مجتمعة بتدعيمها.

وقد بدأ النبي (عليه السلام) بالبحث عن تأييد أهله حينما تراءى له الملاك جبريل لأول مرة (يناير سنة ٦١١) فقصَّ ماراه على زوجته السيدة خديجة التي آمنت به ثم على ابن عمه علي، وكان مازال صبيا في الحادية عشرة من عمره، ثم زيد المولى وابنه بالتبني ثم أفضى بما رآه لصديقه أبي بكر الصديق الذي أصبح بعد وفاة النبي(عليه السلام) أكبر سند للإسلام، وكان رجلا ذا حكمة كبيرة، فاستجابوا

له جميعاً وآمنوا به وصدقوه. ولما ذاع خبر الدين الجديد وقد تحددت ملامحه بدأ الاستهزاء به ولكن محمداً(عليه السلام) لم يأبه بذلك ولم يتزحزح عن عقيدته وأخذ في دعوة عامة الشعب إلى الدين الجديد إذ إن علية القوم يزدرونه. ولما كانت الغيرة على عبادة الآلهة المتعددة مازالت متيقظة وارتابت كذلك طبقة الأشراف في أمره، عملوا على التشكيك فيه، ثم أخذوا يتناوبون على تهديده، وحاولوا استمالته بالوعود، وطفقوا يكيلون له الإهانات، ووضعوا أيديهم على الضعفاء من أتباعه لإجبارهم على هجر بلدهم ومع ذلك فقد ثابر محمد(عليه السلام) برباطة جأش عجيبة وبشجاعة وحلم، يدعمه في هذه الحياة المهددة، كرامة رجال عشيرته وشرفهم الذين لم يخذلوه علي الرغم من أن الجزء الأكبر منهم كان من عبدة الأصنام. وبمقتضى هذه الرابطة الوحيدة بمجتمع الجزيرة العربية في مكة تمكنت قلة أخرى من الدعاة ذوي الأسماء أن يبقوا في مكة. وبعد أحد عشر عاما من الدعوة ومع الازدياد المستمر للداخلين في الدين، وسط الاضطهادات، استمال محمد(عليه السلام) مواطنين من أهل يثرب، التي سميت بعد ذلك بالمدينة، ورأى الأشراف في ذلك ما يهدد سلطانهم، وبعد طرح مراعاة القرابة جانباً أرادوا قتل الزعيم، وعندما لم يكن ذلك ممكنا إلا من خلال ما يعرفونه من أعراف، أرسل كل بيت من بيوت الأشراف بقاتل أجير حتى تصبح الجريمة مشتركة فيحولوا بينها وبين انتقام الهاشميين، ولكن حالت العادات بينهم وبين ما يخططون حيث وضعت أمامهم عراقيل جديدة غير متوقعة: فلم يجرؤ القتلة على انتهاك حرمة الدار التي كان يحتمي بها محمد(عليه السلام) فتربصوا له بالخارج في المساء: وعندما فطن محمد(عليه السلام) لذلك لاذ بالفرار في غفلة منهم.

وكانت تلك الليلة بداية لزعامة دينية و«امبراطورية» وفاتحة عهد لعصر وزمن جديد، ذلك الزمن الذي بدأ تسجيله بعد سبع عشرة سنة؛ فمن بين النظم التي أرست قواعدها عند المسلمين ظهر نظام تأريخ المدونات العمومية بتاريخ متعارف عليه، شأنهم في ذلك شأن الأمم المتحضرة، بعد أن رأوا الغاء نظام الأخذ بالعصور المختلفة

الذي كان يعمل به في بعض مناطق الجزيرة العربية. وقد ورد ذلك التجديد في روايات مختلفة على ألسنة المؤرخين، فيرى البعض أن من قام بوضع النظام الجديد هو حاكم البصرة أبو موسى الأشعري عندما عاتب الخليفة عمر الذي أرسل له بخطابات غير مؤرخة. يحكي محمد بن شيرين الذي ذكره ابن الأثير أن عربياً مَثُل أمام عمر وقال له: إنه لمن الضروري كتابة التواريخ فسأله عمر: وما معنى ذلك؟ فرد الرجل: إنها عادة الأعاجم أن يكتبوا: شهر كذا وعام كذا فأجاب الخليفة: يعجبني ذلك، فلنكتب إذاً التواريخ . وفى اجتماع مجلس المسلمين تم تدارس الأمر وهل يأخذون بالتقويم السكندري أو بعادة الفرس الذين كانوا يحددونه بسنى تولي ملوكهم العرش، أو أن يبدأوا التأريخ برسالة محمد(عليه السلام) أو من تاريخ هجرته إلي المدينة، ذلك الفاصل العظيم الذي أجراه رجل حر، بين عهدين وجده المجتمع الذي عاش فيه. وقد تغلب الفريق الذي نادى بأن يبدأ التأريخ من الهجرة وصدق عليه عمر الذي يرى في هذا الحدث الفصل بين عهدين: الأول عهد الباطل والثاني عهد الحق. ومع ذلك لم يحسب التقويم من يوم الهجرة ولكن من بداية العام الذي تمت فيه وأبقوا على التقويم كما هو من حيث ترتيب الأشهر القديم والحساب القمري لمدار السنة(1).

وعندما هاجر النبي (عليه السلام) إلى المدينة سنة (٦٢٢) جمع أصـــحابه تحت لوائه وقـــاد القدامى منهم والجدد باعتباره زعيماً

---

(1) ابن الأثير، مخطوطة C، المجلد الأول، الورقة الثالثة، الوجه الأول والثاني .لم يتفق العلماء على تحديد يوم الهجرة، فمنهم من يضعه في شهر يونيو ومنهم من يعتقد أنه في شهر ســبتمبر ســنة ٦٢٢، انظر، *Caussin, Essai sur L'histoire des Arabes* المجلد الأول ص١٦ ومايليها.

على أية حال فقد بدأ أول عام من الهجرة يوم الخميس ١٥ يوليو سنة ٦٢٢ حسب رأي علماء الفلك العرب، وحسب العرف العام فقد بدأ في اليوم السادس عشر من يوليو حيث إن علماء الفلك يحتسبون بداية اليوم من منتصف النهار بينما رجال الحكم والشعب يحتســبونها من وقت غـــروب الشـــمس. انظـــــر: *Sedillot, Manual de chronologie universelle* باريس سنة ١٨٣٠، المجلد الأول ص ٣٤٠ وما يليها.

وألهب حماسهم مبشراً إياهم بالغنائم وبالجنة. وقد قاتل مع تباين حظه مرة بعد مرة، وعندما كان ينتصر غالبا ما كان يعامل أعداءه بكرم أخلاق، ونادراً ما كان يأخذهم بالشدة أو يوافق على قتلهم أو يأمر به. وكان عادلاً جداً مع أنصاره ولم يستأثر أبداً بالغنائم لنفسه، بل كان يقوم بتوزيعها عليهم. وفي النهاية وبعد أن استمال نصف الجزيرة العربية تحت لوائه غيّر من أسلوبه ومن نيته الصادقة فى التسامح الذي رآه جميلا فيما مضى، عندما كان يطارده المشركون ويتحالف معهم اليهود. عندئذ سعت جماعة الأشراف بمكة للصلح مع ابن القبيلة الثائر(٦٢٨م) ثم بعد ذلك بقليل تمت مبايعته أميراً وانتهى الأمر إلى الاعتراف بنبوته وإلى إخلاء الكعبة من ٣٦٠ صنماً حتى تكون خالصة لعبادة الله الواحد(٦٣٠م). وهكذا آمنت به كل القبائل البدوية، ومدن اليمن، فيما عدا مسيحيى الحيرة وغسان الذين كانوا تحت السيطرة الأجنبية - وآمن به جميع العرب وقبلوا الدخول في الدين لصالحهم أو تم إخضاعهم بالقوة - وعندما حُطمت أصنام العبادات القديمة في كل مكان وتفرق الشعراء الذين كانوا يعادونه بشدة بين التزام الصمت أو الإشادة به منتصراً: وعندما تم قبول أمرائه في الأقاليم، اتحدت الأمة يظلها لواء واحد وزعيم واحد.

ولكن محمداً(عليه السلام) كان يتطلع إلى شيء أكبر من ذلك فالدين الذي أنزله خالق الكون لا يمكن أن يقتصر على شعب واحد، ولذلك فإن النبي (عليه السلام) لم يستثن أبداً أي شعب من الشعوب أو أي مكان على وجه الأرض من قانون قتال الكفار حتى يدخلوا في دين الله أو أن يقوموا بدفع الجزية. وعندما تأكد له انتشار الإسلام في الجزيرة العربية وخضوعها له وقبل أن يفتح مكة (المكرمة)، بعث برسائل إلى سادة الأرض يدعوهم لاعتناق الإسلام ومن بينهم رسالة إلى عاهل الفرس وكان يعد نفسه سيداً للجزيرة العربية والذي استشاط غضبا وشق الكتاب، فلما بلغ النبي (عليه السلام) ما فعل بكتابه قال: «مزق الله ملكه» ولم تمض عشر سنوات حتى زالت دولته بفتح المسلمين لها. ولم يبد ملك الحبشة عداءً وكذلك

فعل أكبر أمراء المسيحية هرقل، الذي كان يجلس على عرش القسطنطينية الذى أكرم المبعوث وسعد لسماع أخبار الثورة التي قامت في الجزيرة العربية والتي أتت على دولة الفرس. ولكنه وجد نفسه معرضاً أكثر من غيره لغزو المسلمين حين قام مواليه في الحيرة بقتل رسول من رسل النبي (عليه السلام) إليه فبعث إليه محمد (عليه السلام) على الفور بجنوده ليقتص منهم وعلى الرغم من أن العرب كانوا يعانون من قلة عددهم في معركة مؤتة (٦٢٩) فإنهم أظهروا في هذا الصدام تلك الصفات، التي أخضعت فيما بعد بقاعاً كثيرة في أنحاء العالم. وعندما قتل قائد الجيش تناول الراية جعفر، أخو علي فقطعت يمينه فأخذها بشماله فقطعت فاحتضنها بعضديه حتى قتل وفاضت روحه من جراء ٥٠ جرحا كلها من الأمام، ورفع الراية مقاتل آخر وعاد إلى المدينة ومعه البقية الباقية من الجنود قبل أن يُفتك بهم.

وتوفى محمد (عليه السلام) في (يونيه ٦٣٢) بينما كان يعد جيشاً جديداً للثأر من هزيمة مؤتة تاركاً دولته في أشد الفترات تعرضاً للخطر. اندلعت حينئذ الحرب الخارجيةوظهر من يدعي النبوة في كل مكان وامتنعت القبائل المرتحلة عن دفع الزكاة وتزعزع إيمانهم. وراودت أشراف البلد الرغبة في تقسيم الجزيرة العربية إلى مئات من «الجمهوريات»؟ وطغت الطموحات على أتباع الرسول (عليه السلام) وازداد الارتياب وتنافس الشيع. وفي وسط كل هذه الأحداث، لم يكن أحد ليعلم من سيتولى مصير الأمة، فلعل أصحابه أخفوا نية النبي (عليه السلام) أو أن النبي تأخر كثيراً فى إبداء رغبته فيمن يخلفه، أو لسبب آخر يبدو لي أكثر احتمالاً وهو أن النبي (عليه السلام) أراد أن يدفن معه النبوة وأن يترك الإمارة من بعده بالانتخاب كما كانت عادة العرب. ولكنه ترك أيضا خلفه جيلاً من الرجال يستطيع أن ينتصر على هذه المشكلة وما قد يفوقها من عقبات. وكان محمد (عليه السلام) قد أحال هوى الأمة للفروسية إلى كفاءة حقيقية. فبينما كان يجذب جمهور الناس بنعم هذا العالم المتواضعة وما يمكن

أن يتصوره من نعيم العالم الآخر فقد بث في النفوس التقية حب الاجتهاد في الحق، كما رسخ الإيمان في النفوس اليائسة وحمل هذا وذاك إلى إنكار الذات، وبث حب الوطن في الجميع حيث يمثل الوطن والدين الإسلامي بالنسبة لعرب ذلك الزمان فكرة واحدة. ولن أتحدث عن كرم الأخلاق الذي اتصف به كثير من أصحاب النبي (عليه السلام) فهو أمر معروف للجميع وإن أسماء مثل أبي بكر وعمر وعلي وسعد بن أبي وقاص تساوي في قدرها أسماء أريستيد، وتشنشينات وشيبيون. ومن بين المشاعر التي كانت سائدة في الأمة كلها أريد أن أذكر نموذجاً واحداً فقط وهي كلمات واحد من البدو حفظها التقليد ونقلها الطبري وكان أول من كتب حوليات الإسلام. فبعد ثلاث سنوات من موت النبي (عليه السلام) قام ثلاثون ألف عربي بتعزيز موقعهم بتحركات حكيمة بين قنوات الفرات السفلي في مواجهة مائة ألف من الفرس بقيادة المحنك الأكبر قائد الفرس. وقبل قيام معركة القادسية الحاسمة كان العرب قد أرسلوا رسلاً إلى يزدجرد آخر ملوك الدولة الساسانية، الذي فوجئ بسماع أولئك العرب يتحدثون بوصفهم فاتحين بينما اعتاد أن ينظر إليهم على أنهم أتباع، حينئذ سألهم في سخط عن الذي يدفعهم إلى إثارة الفرس وحثهم على القتال، هؤلاء العرب-كما كان يقول- الفقراء المنقسمون على أنفسهم، الجهلاء البدائيون أكثر من أي شعب آخر، وأضاف الملك إنه إذا كان بهم عسر جعلهم يتركون الصحراء فسوف يتكفل بنجدتهم ويمدهم بالطعام والملبس وسوف يولي عليهم حاكما طيب القلب. وبينما العرب لا ينبسون بكلمة مراعاة للتبجيل الذي تعودوه قديما، قام أحد البدو واسمه المغيرة فتحدث قائلا: إنه بحق من شيم الكرام احترام أعراق الآخرين، ولتعلم أيها الملك، أنه لذلك فقط وليس خجلاً أو خوفاً لم يرد رفاقي إجابتك، وكلهم من أعرق بيوتات الجزيرة العربية. ولكني سوف أعرض الأمر الذي سكتوا عنه، لقد قلت الحق أيها الملك، فقد كنا فقراء إذا كان في العالم فقراء بالفعل، كنا نفترش الغبراء ونكتسى بوبر الإبل والصوف الذي نغزله بأنفسنا، وكثيراً

ما دفعنا الجوع لأكل الجراد وزواحف الصحراء، وحتى لاتمنع الإناث الطعام عن الذكور كان الآباء يقومون بوأدهن أحياء. كنا وثنيين، جهلاء، نتناحر فيما بيننا، وكانت تلك مبادئنا وعقيدتنا، وكانت رحمة الله بنا أن أرسل لنا نبياً، رجلاً معروفاً، سليل أسرة معروفة من أعرق القبائل، قادنا إلى دين الحق، ولم نؤمن به حتى هيأ لنا الله الأسباب وأنار عقولنا. والآن إذ نؤدي فرائض الله أصبحنا شعباً جديداً، وأصبحنا مختلفين عن عرب ذلك الزمان، وليعلم ذلك العالم كله، وقد أمرنا الله أن ندعو الناس إلى عبادته، فمن وافق فله مثل مالنا من حقوق، وعليه مثل ماعلينا من واجبات، ومن امتنع نفرض عليه الجزية، فإذا أعطاها لنا فعلينا حمايته، ومن امتنع فعلينا محاربته، فمن قتل منا في المعركة، فله الجنة، ومن كتبت له الحياة فله النصر. فلتختر إذاً أيها الملك فإما أن تدفع الجزية صاغراً أو لتستعد للقتال»..

وقبل أن تنهض الأمة شامخة كان عليها أن تتحمل المحنة القصيرة، شديدة القسوة التي أشرنا إليها والتي قضي عليها أصحاب النبي (عليه السلام) البواسل، لذا حق تبجيلهم أولياء للدين الإسلامي. فقد تعاملوا مع الحرب الأهلية بعقل وحكمة شديدة لا تقل عن الجسارة والإقدام، وبايعوا للخلافة أبا بكر الصديق الذي استطاع بقدرة جبارة أن يجمع في وحدة سياسية ودينية تلك القبائل التي حاولت الارتداد عن الدين، وبعد توحيدهم - سواء بالحب أم بالقوة - وقبل أن يفكروا في بدعة أخرى انطلق بهم نحو الامبراطورية البيزنطية والساسانية وانتصر عليهما (٦٣٢-٦٣٤). ولقد استخلف أبو بكر عمر بعده وهو الذي حافظ على وحدة الأمة واهتم أول ما اهتم بالنظام العام، وتوسع في فتوحاته (٦٣٤-٦٤٤) وحدد عند وفاته ستة ناخبين لاختيار الخليفة الجديد، فاختاروا عثمان، وفي خلافته لم يتوقف استخدام السلاح من قبل المسلمين حيث كان أمراً غير مستطاع: فقد تقوض السلام الداخلي، وقد كفّر عثمان عن نصيبه في هذه القلاقل التي حلت بالبلاد بدمائه. وخلفه عليّ بانتخاب كان

التنافس فيه شديداً حيث اشتعلت الحرب الأهلية التي كانت تنادي بتولي معاوية بن أبي سفيان الخلافة وهو قائد جيوش سوريا، الأمر الذي يجعل الإمارة متوارثة في البيت الأموي. وعادت رحى الحرب الأجنبية تدور من جديد بعد أن توقفت بعض الشيء بسبب الحرب الأهلية: إن حدود الامبراطورية التي امتدت خلال عشر سنوات من وفاة محمد (عليه السلام) حتى بلاد فارس وسوريا ومصر قد وصلت خلال قرن من الزمان إلى مضيق جبل طارق من ناحية الغرب وإلى بلاد التتار ووادي الهند من ناحية الشمال والشرق. ولكن قبل أن نخوض في الحديث عن الطريقة التي بدأ ذلك السلاح الرهيب في اجتياح صقلية فإنه لمن الضروري أن نذكر بالتفصيل التغييرات السياسية والاجتماعية التي أدخلها الإسلام في الأمة العربية(1).

إن النبي (عليه السلام) عندما أصبح أميراً لم يرغب أو لم يكن بمقدوره أن يسوي بين الناس في المجتمع كما كانوا بالفطرة -أو كما قال- كأسنان مشط دون تفرقة بين ملك وخادم(2). فقد كانت النساء أدنى منزلة فيما يتعلق بالحقوق المدنية وكان أمر العبيد مرهوناً

---

(1) لما رأيت أنه من غير المفيد أن أورد استشهادات عامة، فسوف أكتفي بأن أذكر للقراء المراجع الرئيسة التي يمكن الرجوع إليها والتي تتحدث عن تاريخ العرب قبل الإسلام وفي صدر الإسلام وهي: القرآن، وسنة محمد (عليه السلام) والمجموعة الكاملة عن هذه السنة وهي **مشكاة المصابيح**، الترجمة الإنجليزية قام بها القبطان متثيوس؛ وبوكوك في *Speciem histoiræ Arabum. Universal history, ancien part, tomXVIII, modern part, tom. I; Caussin, Essai sur L'histoire des Arabes.* ورد الحديث عن رسل العرب إلى يزدجرد في الطبري *Annales. regum, edizione del Kosegarten* الجزء الثاني، ص ٢٧٤ إلى ٢٨١ ويوجد ملخص له في المجلد الثالث لـ *M.Caussin* ص ٤٧٤ ومايليها، وترجمة فرنسية لـ*M.de Slane* في *Journal Asiatique* ١٨٣٩، المجلد السابع، ص ٣٧٦ وما يليها وربما يكون من غير الضروري التنبيه على أنني لم أنقل حديث المغيرة ولكني قمت باختصاره فقط وحرصت على الإبقاء على الألفاظ الأصلية.

(2) الحريري، المقامات، طبعة دي ساسي، ص٣٤، طبعة رينو ودرينبورج، ص٣٩. إن هذا التقليد قد ورد في **كتاب الوقائع**، انظر أيضا الحادثة التي رواها كوسان في *Essai*، المجلد الثالث ص٥٠٧.

بالرحمـة التي يحث عليها الدين وليس بقوانين صريحـة، وبالنسبة للكفار فليس من الضروري أن نذكر أنه كان يريدهم رعايا للمؤمنين. ولكنه فرض المساواة المطلقة بين المسلمين الأحرار: وهكذا فإن طبقة الأشراف التي حكمت العرب منذ عصور بعيدة والتي عارضت النبي (عليه السلام) بكل ما استطاعت لم يعد لها حقوق ولم يرد اسمها في القانون. أما المقربون من النبي (عليه السلام) ويبدو أنهم عوملوا معاملة خاصة، فقد شاركوا النبي (عليه السلام) واليتامى والفقراء وابن السبيل في الجزء الخامس من الغنيمة وكان ينظر إليهم على أنهم معوزون متميزون أكثر من كونهم من أشراف الأمة. وعندما توفى محمد (عليه السلام) وتوالى على الخلافة أبو بكر ثم عمر على مدى اثنتى عشرة سنة وهما من الصحابة القدامى وكانا يرتبطان بالرسول بصداقة حميمة ويعرفان مقاصده تماما، ويعملان على تطبيقها بكل تقوى، فقد وجدت فيهما طبقة الأشراف خصوما أشداء. وفي فترة حكمه القصيرة أراد أبوبكر، قدر استطاعته، تقسيم كل مكاسب الدولة إلى حصص متساوية توزع على المؤمنين. بينما نهج عمر نهجاً آخر. فقد أعطي له فتح بلاد الفرس وسوريا ومصر، الأهلية للقيام بعمل أكثر تنظيماً وأكثر شمولاً عن ذي قبل، وكان يعتمد في نظامه هذا على دواوين الإدارة الساسانية والرومانية لتوزيع الدخول الطائلة من نتاج الاتفاقات مع المدن، وكانت تدخل كلها في بيت المال حيث لا يحصل المحاربون إلا على أربعة أخماس الغنيمة التي تؤخذ بقوة السلاح. وهكذا ففي العام الخامس عشر من الهجرة أمر أن يسجل الدخل العام للأمة في جانب وتقيد أسماء جميع المسلمين في جانب آخر في السجلات أو الدواوين -كما يسميها العرب بلفظ فارسي- وحسب ترتيب القائمة فإن سلالة عدنان التي انحدر منها النبي (عليه السلام) كانت على رأس القائمة قبل سلالة قحطان وتأتي قبيلة قريش من سلالة عدنان قبل القبائل الأخرى ويأتي بيت آل هاشم قبل أي دار من ديار قريش دون أي استثناء لصالح أمير المؤمنين الذي عندما طالع الكتاب ووجد نفسه

على رأس القائمة رده إليهم قائلا: ليس هذا ما أمرت به، ضعوا عمر حيث وضعه الله وهكذا فقد أخذت عائلته والعائلات الأخرى من قريش مكانها حسب درجة القرابة التي تربطها بعائلة الرسول (عليه السلام) أما بقية القبائل وأقرباء عدنان فقد جاء ترتيبهم حسب أسبقية اعتناقهم الدين الإسلامي، كما حدث الترتيب نفسه لقبائل قحطان وشارك الجميع في الدخل العام الذي يعد ملكية عامة لكل المسلمين وذلك حسب تعاليم محمد (عليه السلام) والتي بقيت بعد ذلك في كتب القانون ولكنها كانت تراعى حينئذ بدقة في مجتمع ديمقراطي مشحون بالحمية الدينية. وفضلاً عن ذلك ينبغي علينا أن نذكر أنه أثناء الخلافة العباسية وربما أيضا قبل ذلك في عصر الخلافة الأموية وحين وصل تعداد المسلمين إلى الملايين وامتدت دولتهم لتشمل نصف العالم المعروف، أصبحت للدواوين بالضرورة مسئوليات عسكرية ووظيفية يجازي عنها ولي الأمر حسبما يراه. ولكن أثناء خلافة عمر حيث كان تعداد المسلمين بالآلاف وكلهم عرب وجند للإسلام أو عائلات الجنود فقد كان تنفيذ هذه التعاليم أيسر، وكان لكل فرد حصة بالخزانة العامة ولكن مع تباين قيمتها، حيث يختلف المبلغ حسب الجهد الذي يبذل من أجل الدين، وحسب حاجة وقدرة كل شخص.

وكان عمر يعطي اثنى عشر ألف أو عشرة آلاف درهم(1) في العام

---

(1) درهم هو النطق العربي للفظ اليوناني واللاتيني درخمة *drachma* ويعني عند العرب وزن من الأوزان وعملة من الفضة وكانت قيمة العملة المسماة بهذا الاسم -كما يحدث دائما- تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة وكانت أحيانا مقياسا للحساب والتقدير دون تداول. إن الدراهم التي لدينا من أيام الخلفاء وأيضا من أزمنة لاحقة لهم تعادل في وزن فضتها حوالي ستين سنتيم من الليرة الإيطالية ويبدو لي أن هذه القيمة كانت هي نفسها قيمة الدرهم في عصر عمر. ويمكن أن نتصور أن يكون أجر يوم عمل عند العرب المستقرين في الجزيرة العربية يساوي في ذلك الوقت حوالي درهمين لأن العبد الفارسي الذي قتل ذلك الأمير العظيم للقصاص منه إذ سأله أن ينصفه على سيده الذي يجبره على دفع درهمين في اليوم، ورد عمر عليه قائلا إنه لو عمل في طاحونة هواء فسوف يستطيع أن يعيش وأن يدفع تلك الجزية.

إلى أرامل النبي (عليه السلام) أو إلى أمهات المؤمنين كما يطلق عليهن. وكان نصيب عباس عم النبي (عليه السلام) سبعة آلاف درهم وخمسة آلاف لكل المهاجرين من مكة الذين حاربوا يوم بدر، أول نصر للمسلمين، وكان نصيب باقي الجنود المشاركين في بدر أربعة آلاف درهم ويتدرج المبلغ تنازليا حسب الأقدمية في الخدمة العسكرية مع استثناء واحد وهو تقدير حصة الفارس، بما يفوق دائما حصة جندي المشاة. هذا وقد كانت تعطي مكافأة لأكثرهم شجاعة في القتال. أما بالنسبة للرجال من سلالة قحطان الذين كانوا مازالوا يقاتلون في سوريا وحيث إنهم كانوا أكثر حداثة في اعتناق الإسلام فكان يعطي لهم ألفين أو ألف أو خمسمائة وحتى ثلاثمائة درهم. وكان يخصص للنساء نفقة تتناسب مع نفقة رب العائلة وكانت تبدأ من خمسمائة درهم، التي أعطيت لنساء المحاربين يوم بدر وتصل حتى مائتي درهم. وكان نصيب السيدات الأخريات والصبية من الرضع مائة درهم. ولم يستبعد العبيد من هذه الحصص، أما عمر فلم يرغب لنفسه إلا مايكفي فقط لعيشه هو وعائلته: وطلب ذلك من أهل بلده وقال لهم إنه قبل أن يتولى أمور المؤمنين كان تاجراً يكسب عيشه من التجارة، ولكنه أراد أن يتوقف عن التجارة ليتفرغ لمهمته الجديدة، وعندما صار يحصل على راتبه اشتد غضبه مرة عندما علم أن أصحابه يخططون لزيادة راتبه. ولكنه كان سخياً مع الآخرين حتى انه لم يكن يترك أبدا ولا حتى ١/٦ درهم في الخزانة وعندما أشاروا عليه بأن يدخر بعض المال للمستقبل رفض قائلا: «سوف يكون في ذلك إغراء لخلفائي». وكانت قيمة النفقة تعطى للفقراء على هيئة مواد غذائية باعتبار أنه في بعض المناطق المرتفعة بوسط الجزيرة العربية كانت توزع منذ البداية حصة من الغذاء لكل فرد، ثم بعد ذلك معياران من الدقيق شهرياً حسبما قدَّر عمر احتياج الفرد وتكفل بتغذية ستين فقيرا لفترة من الزمن. وعندما ازداد سخاء الحكومة وازدادت رقة حاشية شعب كان يقتات قبل ذلك بسنوات قليلة ثم عاد يقتات بالتمر والجراد وأصبح الخبز يعطى بدلا من الدقيق، ثم بعد

ذلك، الخبز المأدوم ثم أضيف إلى ذلك قطعة من الجبن ثم صار تزويدهم بوجبتين في اليوم: وجبة في الصباح والأخرى في المساء(1). ولذلك فإن مثل هذه التفاصيل لم تبد لي غير جديرة بذكرها، وأنها ليست كثيرة بالقدر الذي لايتسع له المكان في هذا العرض السريع، إذ إنها تفوق في قيمتها آراء الكتاب في الكشف عن التغيير السريع والمدهش الذي حدث في مجتمع الجزيرة العربية في ذلك الزمان وأول شكل اتخذه ذلك المجتمع كان الديمقراطية الاجتماعية كما قد نسميها اليوم وهو الشكل الذي يتوافق بحق مع التعاليم الأساسية للدين الإسلامي: المساواة والإخاء. ويتضح ذلك في نموذج نادر الوجود، نموذج شعب، صاحب سيادة، يتغذى في كل بقاع صحراء الجزيرة العربية على حساب المهزومين، مثله مثل الشعب الآخر ذي السيادة داخل أسوار روما.

وعلى الرغم من ذلك، فقد بدأ يظهر في المجتمع الجديد أسلوب الأخذ بدرجات الاستحقاق المدني والديني والمشاركة المتباينة في عائد «الجمهورية»، وهي ظروف أدت إلى ظهور نظام آخر من الأشراف بعيد كل البعد -بطبيعة الحال- عن «الارستقراطية» القديمة. وبدافع الضرورة والتخطيط وجه عمر ضربة أخرى للارستقراطية القديمة عندما بدل أيضا نظام الحصانة الذي يقوم

---

(1) الماوردى، **الأحكام السلطانية**، الكتاب الثامن عشر، المخطوطة، ص ٤٠٦ وماتليها، وابن الأثير، المخطوطة، المجلد الثاني، الورقة الثالثة والتسعون ومايليها عام ١٥، وابن خلدون، الجزء الثاني، مخطوطة باريس، ملحقات عربية ٧٤٢، *quin quies* المجلد الثاني، الورقة ١٧١ الوجه الأول. وقد فضلت أن أتبع الماوردي الكاتب القديم، اللامع في القانون العام وقد ورد بعض التباين في تحديد الأرقام التي ذكرها ابن الأثير وغيره من الكتاب المحدثين. ولكننا نستخلص منهم جميعا مايلي: أولا أن الصبية والنساء والعبيد كانوا مقيدين في الدواوين. ثانيا: أن هناك حداً أدنى، كما نقول نحن، يحق لكل إنسان أيا كان جنسه أو عمره أو ظروفه. ولهذا فإن النفقات الكبيرة يجب النظر إلى أن جزءا منها يتمثل في مكافآت عسكرية أو تقدير لخدمات معينة بينما ينظر للجزء الآخر على أنه حصة في المكاسب العامة لكل الأعضاء المشاركين في الأخوة الإسلامية.

على أساس روابط الدم بالمجتمعات التي كانت الأساس الأول لمجتمع الجزيرة العربية، وجعلها تقوم على ضامنين أو عاقلة كما يطلق عليها العرب، فلا تقتصر على رجال تجمعهم صلة القرابة والنسب فقط ولكن على من سجل اسمهم في الديوان. وقد أصبحوا مختلفين عن الأوائل عندما تبقى في الوطن جزء من قبائل كثيرة، بينما استقر الجزء الآخر مع الجيش في البلدان المهزومة، كان يتألف في الغالب من جمع من الرجال من عشائر مختلفة.

ومع ذلك فقد استفاد العنصر الأول لمجتمع الجزيرة العربية من تسامح محمد (عليه السلام) ومن دواوين عمر. فقد كان من المستحيل أن يتم تمزيق أواصر القرابة الضاربة في القدم بصورة مفاجئة، ومن المستحيل أيضا دفع العرب للحرب إلا من خلال قبائلهم، كما أنه من المستحيل أن يولي عليهم أي شخص ينتمي لعائلات أخرى، إلا القائد الأعلى للجيش. أما اللواءات والكتائب والفرق، كما نسميها نحن، فقد ظلت تنظم حسب القرابة اللهم إلا بعض الاستثناءات القليلة: وكان يتزعمها الأشراف القدامى: ومن خلال الغزوات السريعة زادت الغنيمة من ثروة العائلات، وزاد الداخلون في الدين من الأجانب من عدد العائلات فكانوا يضعون أنفسهم تحت حماية الرجال ذوي المعية الكبرى وهكذا يصبحون موالي، كما يطلق عليهم العرب. ولما كانت سطوة الأشراف قد ازدادت بسبب الحرب، في سرعة فاقت تحديد نظام رواتب عمر لها، فما لبثت أن قامت بانتهاك الرادع القانوني بعد وفاة عمر بفترة قصيرة. وقد ساعد تنافس العشائر هذه الحركة لأن أبناء قحطان عندما أصبحوا جنودا في الجيش السوري يتفوقون من حيث العدد، رفضوا أن يكونوا أقل من غيرهم في المستوى الاجتماعي وفي توزيع الرواتب. وقد قدم لهم معاوية زعيم آل امية الفرصة لذلك. فقد كان يرأس ذلك الجيش ومن أجـل صـلة الدم والمصـالح المشتركة وجد مشايعين له بين طبقة الأشراف القدامى ممن ينتمون إلى سلالة عدنان. بينما كان الطموح يرغمه إلى أن يحابي عشائر قحطان

المنافسة. من هذه العوامل ظهر فريق حاول انتزاع سلطة الدولة من عائلة النبي (عليه السلام) والصحابة، أو ما يمكن أن نسميه نظام الأشراف الجديد القائم على الدين. وهكذا بدأ الصراع في بلاط عثمان الذي قتلته طبقة الأشراف الجدد بسبب تحيزه لحزب معاوية. وبمبايعتهم لعلي، أسرع الأمويون إلى حمل السلاح وانتصروا على خصومهم الذين كانوا منقسمين على أنفسهم بسبب طموحات البيت العلوي، وهكذا أصبحت الإمارة متوارثة ومحصورة في بني أمية. وقد أدت هذه الثورة إلى تفكك نظام «الأرستقراطية» الدينية وسرعان ماحولتهم إلى مجرد علماء في الشريعة، وبعد قرنين حاول تلاميذهم أن ينهضوا من هذا المستوى المتواضع. ومن ناحية أخرى بينما كانت الأرستقراطيتان تتناحران فيما بينهما، نهضت الديمقراطية مندفعة ضد كليهما، ولكنها عانت ثلاثة قرون لتنتصر دون جدوى. ولكني سوف أتحدث في الموضع المناسب عن أولئك الذين كانوا ضد السلطة الدينية والسياسية. وبالمثل سوف أنتظر اللحظة التي يتطلب فيها مجرى الأحداث الحديث عن تأثير الفقهاء السياسي، لكي أذكر دوافعه وحدوده. ولكن يكفي الآن للموضوع الذي نحن بصدده أن نسجل الانقسامات الثلاثة التي ظهرت في المجتمع الإسلامي والتي كانت تصبو إلى الارستقراطية الدينية والارستقراطية العسكرية وإلى الديمقراطية فى الوقت الذى كانت الإمارة تسرع الخطى نحو الاستبداد.

إن سلطة أول خلفاء محمد (عليه السلام) التي كانت هي سلطة النبي (عليه السلام) نفسها - لكن دون نبوة - بقيت غير محددة. إلا أنه كان هناك شعور عام بأن المسلمين لا ينتمون لأي إنسان حتى وإن كان المفروض عليهم اتباع رئيس من أجل المشاركة في الخبرات الروحية والزمنية: أي أن يكَوّنوا «جمهورية» تحت قيادة واحد من ذوي الأمر تتوافر فيه شـخصية الإمـام وكبيرالقبيلـة في الوقت نفسـه. يبدو أن هذا كان تفكير أبي بكر وعمـر فقد تركا جانبا تسـميات ملوك العرب والأجانب القدامى، وتسميا بأسماء جديدة فأطلق الأول على

نفسه الخليفة أي الذي يأتي بعد رسول الله، وأما عمر فأطلق على نفسه أمير المؤمنين أي زعيم المؤمنين؛ وقائدهم. وكانت الخلافة ـ كما قلنا–بالانتخاب، وكان الخليفة يعيش على الضروري، كأشد فقراء المسلمين، سواء كان من ماله الخاص أم براتب ضئيل، ودون وجاهة مدنية أو أي مظهر من مظاهر البذخ ودون حرّاس، وكانت خطبه تقنع الشعب، وكان يتحمل في صبر شكاوي صغار الشعب مثلما يتحمل احتجاجات علية القوم. وكان يتشاور في كل الأمور مع صحابة النبي (عليه السلام) وعلى قبس الحكمة الخالدة بما لم يرد ذكره ـ مباشرة ـ في القرآن الكريم. وهكذا كانت تمارس الخلافة على مدى اثنى عشر عاما من تاريخ وفاة محمد (عليه السلام) وحتى وفاة عمر، وسط بواكير الحماس بالحركة الدينية والقومية: وقد سنت كثيراً من السنن الحكيمة عدا تحديد الحدود القانونية لسلطة كانت تمارس بقدر كبير من البساطة المتحضرة. ولكن عندما عملت الانقسامات ـ التي بدأت تثير الاضطرابات داخل الجمهورية ـ على إعلان هذه الحدود؛ وذلك عندما أتى الناخبون ممن أنابهم عمر وهو على فراش الموت شروطاً رئيسة وعرضوها على عليّ، رأوه رافضا لها، فقاموا بمبايعة عثمان للخلافة فقبلها، وحينئذ لم تعد اللحظة مواتية لوضع حدود للسلطة. ولما حملت الفصائل سلاحها، أخذت تدفع بالضرورة زعماءها إلى السلطة المطلقة: وهكذا هلكت حرية العرب الوليدة في الحروب الأهلية كما حدث لحرية روما ولكثير غيرها من الحريات التي قمعها جيش الحزب المنتصر، مثلما كان ليحدث للحزب المهزوم لو أن النصر حالفه. وعندما آلت الخلافة بالوراثة إلى البيت الأموي أصبح الزعيم قيصرا مع ضمان واحد وهو أن الخليفة ليس بإمكانه تغيير القوانين وهي منزلة من عند الله ولا يسمح بأية تفسيرات لها سوى الفقهية. ويعلم الجميع مدى العون الضعيف الذى يمكن أن تقدمه أصوات العلماء لأمير، يرون هم أنفسهم فيه، الرجل المؤتمن على الدين، والحَكَمْ بين قوى الدولة. ومن ناحية أخرى فإن الجمود في فهم قوانين الحكم الديني قد أضر

بالمسلمين أكثر من أن يساعدهم إذ إنها مرت بالتعديلات الأساسية التي أصبحت ضرورة ملحة يمليها تغير الأزمنة واتساع الأراضي. ولم تجلب الثورات والكثير من الدماء المسفوكة أية فائدة سوى الإطاحة بشخصيات الحكام دون أن تصحح الاستبداد الذي يجعلهم مكروهين إلى تلك الدرجة.

وإذ نأتي أخيراً للنظر في الملامح الحربية لدى الفاتحين، نجد أن القبائل مستعدة دائما للحرب، ومتمرسة عليها منذ أزمنة بعيدة: رجال معتادة منذ الصبا على استخدام السلاح والخيل وقيادة الجمال، وعلى حمل الأمتعة والتنقل في البراري، رجال متمرسون على مجابهة المخاطر وعلى طاعة الزعماء في التحركات والمعارك وعلى الزحف في مجموعات أو فرق أو ألوية حسب تقسيمات القبيلة. كما اعتاد الزعماء على حساب أبعاد الأماكن ومسافاتها بدقة، وعلى التعرف أو توقع نوع الأراضي، والتمكن من رسم خطط المباغتة، والتربص والتقهقر في مناطق شاسعة من البلاد. فهناك حنكة بالخطط الحربية عند القادة، ونظام عند الجنود، ومن ثم كانت للعرب الغلبة في معاركهم الأولى ضد الفرس والبيزنطيين، المتفوقين كثيرا من حيث العدد، ويعد عدم اكتراث العرب بالموت، وقوة اندفاعهم في الاشتباك عاملا يقل في أثره عن عوامل أخرى مثل سرعة الحركة ودقتها أو تماسك الصفوف حين كانت تنطلق لتتجمع أو تتفرق حسب خطط حربية معقدة يتم تنفيذها في يسر؛ أو مثل ذلك الفن الذي سرعان ما تعلموه وهو تعزيزمراكزهم في الأماكن الملائمة حتى يحين الوقت فيخوضون المعركة أو يحجمون عنها. وكان الخليفة يعلن الجهاد، ويعين قائد المهمة ويكلفه بالقيادة، وذلك بعقد راية صغيرة أعلى رمح المرشح للقيادة كما كان العرف السائد لديهم؛ وبتحديد مكان ملتقى الجيوش كانت تسارع إليه القبائل المحيطة بكاملها أو بأقسام منها مع قوادهم ومساعديهم وحتى قادة العشرة والخمسة رجال أيضا: فهم قوم تتلاقى وجوههم ويعرفون قدر بعضهم بعضاً كما يعرفون الحفاظ على سمعة العائلة أو القرابة أو القبيلة في أي حدث يقومون به من الأحداث. وكثيرا ما كانوا

يصطحبون معهم النساء وما كانت النساء ينصحنهم بالجبن والتخاذل، بل كثيراً ما كان العرب يعودون بعد الهزيمة إلى أرض المعركة يدفعهم حبهم لنسائهم والحفاظ على الشرف فيقاتلون حتى يتم لهم النصر، بل كانت النساء تدافعن بأيديهن عن مساكنهن إذا تعرضت لهجوم الأعداء. وكان للعرب فرسانهم ومشاتهم؛ وكان المشاة يمتطون ظهور الجمال أحياناً أثناء تنقلاتهم وأحياناً كان الفرسان أيضاً يمتطونها وهم يمسكون بزمام خيولهم؛ وكانوا يتسلحون برماح عربية قوية وبسيوف وهراوات وأقواس وسهام، وعلى الرغم من مهارتهم في رمي السهام فإنهم لم يعولوا عليها كثيرا: -إنها ضربات حظ- هكذا كان يقول أحد مجاهديهم المشهورين - قد تخطيء أو تصيب(1). وكانوا يغطون أبدانهم بسترات من شباك حديدية واقية وبالدروع. وفي المعركة العادلة كانوا ينتظرون في الغالب هجوم الأعداء فيقومون في تصميم نادر بالدفاع والتصدي لهم حسب تعاليم القرآن، والمفهوم الروماني الذي كان عند خالد بن الوليد حين اعتاد أن يطوف بالصفوف ويحثهم قائلا: «تذكروا أيها المسلمون إن في الثبات قوة وفي التعجل ضعف وإنه بالجلد يتم النصر»(2). وسواء كانوا يبدأون هم بالهجوم أم كانوا يصدون هجوم

---

(1) إن عمر بن ماضي قريب، عندما سأله عمر عن مزايا أنواع الأسلحة المختلفة. أجابه هكذا بالنسبة للسهام وكان يقول عن الرماح: أحياناً يكون الرمح أخاك وأحياناً أخرى يخذلك، إلخ. وكان يصر غالبا على استخدام السيف وعبر عن ذلك بلفظة نابية، رد عليها الخليفة بضربة سوط. ابن عبد ربه، **كتاب العقد**، مخطوط، المجلد الأول، الورقة٥٠، الوجه الثاني.

(2) ابن عبد ربه، المرجع المذكور، المجلد الأول، الورقة٢٦ الوجه الثاني. في الماضي كتب تاتشيتو *Velocitas juta formidinem, contatio propior costantiæ est... De mor germ.* (إن ما أذكره عن أسلحة المسلمين الحربية وخططهم في القرون الأولى للإسلام يمكن استخلاصه من الروايات المختلفة عن حروبهم وكذلك من كتابات ليوني الفيلسوف وليونيس امبراموريس، *Tactica*، الفصل الثامن عشر طبعة موريسوس ص ٨١٠ وماليليها وطبعة قسطنطين بورفيرو جينو، *Constantini Tactica*، المرجع السابق ص١٣٩٨ وماليليها.

الأعداء فكانوا في كلتا الحالتين ينقضون كالريح العاتية بخيولهم التي لا تكل، وهم يرفعون أصواتهم بالهتاف «الله أكبر» ويتفرقون عند الهجوم وسرعان ما يتجمعون في جماعات ليندفعوا مرة أخرى في مواجهة عدوهم وقد تشتت في مطاردة جماعات المسلمين المختلفة، فيمزقون صفوفه، ويحاصرونه ويقومون بإبادة الفارين منه. وهكذا فإن جيوش بيزنطة والفرس المدججة بالسلاح وبالنظم العسكرية التي أخذت تفتقر منذ أمد بعيد إلى الروح والعزيمة لم تصمد بصورة جيدة أمام هذا التكتيك الجديد: فكان الجيش البيزنطي يتكون من رجال بلا وطن، تم جمعهم من عدة أجناس وكان تجنيدهم بالقوة واختيار قادتهم صدفة أو مجاملة. أما جيش الفرس فيتألف من رجال هم أيضا من أمم وطبقات اجتماعية مختلفة يرتابون في بعضهم البعض بل أعداء فيما بينهم.

وإذا انتقلنا بالحديث من الجيش إلى شعوب هاتين الإمبراطوريتين، نجدها شعوبا مقهورة من جراء الاستبداد ومنهكة من ثقل الضرائب ومن طمع الموظفين العموميين، ومنقسمة؛ تفرقها تفاصيل دينية دقيقة، كما انقسم الفرس من جراء النزاعات الاجتماعية منذ زمن المزدكية وخوف الأثرياء وجشع الفقراء. وما العجب فيما لو أن وسط السخط العام يصبح منجل الفاتحين أقل ضرراً، أولئك الفاتحون الذين يساوون بين المتواضعين والأعزاء ويجردون دين الدولة من سلاحه ويسمحون بالعبادة المسيحيةعلى أن تدفع جزية صغيرة، أولئك الذين يفتحون أذرعهم لاستقبال المغلوبين في عائلتهم وفي دينهم وفي جمهوريتهم؟ وهكذا أفسحت المجتمعات القديمة المجال أمام مجتمع المنتصرين الفتى. وعندما أصبحت الشعوب العربية أمة من جديد يدفعها الحماس الديني، والمصالح الدنيوية، وتمتعها بالغنائم والرواتب، وخصوبة الأراضي وآلاف المكاسب التي كانت تقدمها الولايات الجديدة، أخذت تهاجر بشكل مطرد إلى هذه الولايات، وإن كانوا لم يستطيعوا أن يجلبوا في مستعمراتهم الحرية أو الهدوء والسكينة؛ وإذا كان فى أنظمتهم

صراع بين القانون والأعراف، بين الاستبداد والنبل والديمقراطية إلا أن هذه السلالة القوية المفعمة بالنشاط والآمال، هذه السلالة العاملة، الماهرة، الصبورة الجسورة، عندما وجدت نفسها في أفضل الظروف الجغرافية مواءمة، وعندما استطاعت أن تجذب سلالات أخرى إلى لغتها وإلى دينها، فتحت بذلك عهداً جديداً في تاريخ الإنسانية.

الفصل الرابع

رغم وصول أخبار هذه الأحداث صقلية، قبل أن تطأ أقدام العرب شواطئ البحر المتوسط، فمن المؤكد أن أحدا لم ينتبه إليها. لعلهم اعتبروها هجوماً تعودوا عليه من قبل جماعات سلب ونهب كانت تعيش فيما وراء سوريا، أى جماعات الساراتشين، حسبما كانوا يُسمون، فيما يبدو، عدداً من قبائل صحراء تلك البقاع، وقد لقب البيزنطيون العرب فيما بعد، بهذا الاسم، ثم أطلقوه فى نهاية الأمر على المسلمين(1). ولعل العرب كانوا معروفين فى صقلية إسماً وسلوكاً وذلك من خلال النشاط التجارى، ومن خلال ما

---

(1) لم يتخذ العرب أبداً اسم ساراتشين، أو اسماً آخر يشابهه ولم يرد فى تذكراتهم أى أناس بهذا الاسم. وهذا اللفظ حسبما كتبه اللاتين *Sarraceni* واليونانيون Σαραχηνοί كما ورد لدى بيلينيو الشيخ وبطليموس وستيفانو البيزنطى، وهو لفظ يشير إلى عدد من قبائل وتجمعات سكانية صغيرة؛ ويستخدم اميانو مارتشيللينو وبروكوبيو هذا الاسم بمدلول أوسع، ويعطيه كتاب الغرب امتداداً بعد الإسلام، كما سبق ونوهت. وعليه نرى كيف اتسع استخدام هذه التسمية فى فترات متعاقبة خلال القرن الأول والرابع ثم مرة أخرى من القرن السادس إلى السابع من التقويم الميلادى.

وأصل اشتقاق اللفظ غير مؤكد، رغم اجتهاد العلماء فى البحث فيه، بدءاً من سان چيرونيم الذى رأى رجوع الاسم إلى أبناء هاجر لدى سارة، ونزولاً نحو المحدثين الذين اعتقدوا بإعطاء شكل للفظ يوحى برجال بالصحراء، يقومون بأعمال خطف بسيطة أو ما شابه ذلك، وحسب رأى أراه قريباً من المعقول، فقد يكون لفظ ساراتشين، هو كتابة صوتيه للفظ العربى شرقيون، فى حالة جر(وهى الحالة التى تتخذ فى الغالب أساساً للنقل فى جميع اللغات)، وهذا اللفظ لم يكن بمقدور اليونانيين والرومان كتابته صوتياً ولا النطق به كذلك سوى أن يخرج على شكل ساركين أو ساراكين، ذلك أن أبجديتهم تفتقد إلى حرف الشين التى يقابلها التركيب *Ch* فى الفرنسية و*Sh* فى الإنجليزية. أنظر چيبون، *Decline and Fall*، الفصل الخمسين، هامش ٢٠ ويشتمل على ملاحظات ميلمان؛ وسان مارتان، تعليق على لى بو *Histoire du Bas-Empire*، الكتاب ٥٦،§٢٤؛ رينو، *Invasions des Sarrazins en France*، ص ٢٢٩، ٢٣١.

عرف به هذا الشعب من ملامح كان يمثلها أمير عربى تم استبعاده إلى هناك، وهو المنذر رابع ملوك الحيرة، حين تمرد على الساسانيين لدي أباطرة القسطنطينية، ثم خان السادة الجدد، فما أن وقع فى أيديهم، وكان ذلك نحو سنة ٥٨٢، حتى لم يجد ماوريتسيو، الإمبراطور المتسامح، ثأراً ينتقم به أفضل من أن يحبسه ومعه زوجه وأبناؤه فى جزيرة صغيرة، لصيقة بصقلية(1). ومع ذلك فإن حروب اللونجوبارد على إيطاليا كانت عاملاً يفوق فى ثقله ثورات ذلك الشعب البعيد، وغير المفهوم لدى أهل صقلية، وفوق هذه وتلك فقد كانت هناك معاناة بسبب الأفكار الجديدة، التى أخذ ينشرها أنصار المشيئة الواحدة.

كان الجدل يدور حول نقطة بحث لاهوتية دقيقة جداً ومستحيلة للغاية وما كانت أبداً خلاف ذلك: كان البحث يجرى فيما إذا كانت أعمال الإله المتأنس تنبع من مشيئتين إحداهما إلهية والأخرى انسانية، أم أنها تنشأ من مشيئة واحدة، وهى التى أسماها أنصار المشيئة الواحدة *teandrica*، أى لاهوتية متأنسة، ذلك بعد أن دققوا فى فهم لفظ معين. وحدث أن اقتنع الإمبراطور هيراكليو بعقيدة المشيئة الواحدة، حين كان يقضى فترة راحة بين حرب وأخرى؛ انتصر فى إحداهما نصــراً عظيماً على الفرس، وخسر الثانية خسارة كبيرة أمام العرب. وقبل أن يطردوه من ســوريا قام الإمبراطور الشيخ بحـركة متعصـبة، كـان يرجـو بهـا معونة السـماء، فأمر جميع رعاياه باعتناق مبدأ المشيئة الواحدة ليسوع المسيح، محاكياً فى ذلك سلوك أسلافه فى تعاليم أخرى وبذلك تأسست العقيدة

(1) إيفاجريوس *Historia Ecclesiastica*، الكتاب السادس، الفصل الثانى؛ نيكيفوروس كاليستيوس *Ecclesiasticæ Historiæ*، الكتاب الثامن عشر، الفصل العاشر؛ كوسان *Essai sur l'histoire des Arabes*، المجلد الثانى ص ١٣٣ . يورد الكاتبان اليونانيان اسم الأمير العربى معرفاً بأل، حيث كتباه المُنْذر.

الأرثوذكسية، واستخدم فى ذلك سلطة الكاهن الأكبر للدين الجديد، وهى سلطة كان يتمتع بها أباطرة الأمميين، ولم يتنازل عنها الأباطرة البيزنطيون بحال من الأحوال، حتى أنها انتقلت مع الكثير من نظمهم إلى إمبراطورية روسيا. وتأرجح كرسي روما بين العمل بالطاعة العتيدة والحقوق الأساسية للشعب المسيحى، التى كانت ترى أن الوحدة الجامعة للمؤمنين حَكَمٌ على عقيدتهم. وحاول البابا أونوريو الأول أن يتحاشى ذلك الجدل العقيم، ورد عليه رداً غامضاً أو لعله أقره، ولكن اللاحقين له لم يرغبوا أو ربما لم يستطيعوا السكوت عليه. وما أن صدر الأمر الإمبراطورى من قبل هيراكليو (سنة ٦٣٩) بهدف حسم الخلاف، حتي بدأت مقاومة أسقف أورشليم لذلك، ولم تتحرج روما من شرف قيادتها لهذه المقاومة.

وفى استعلاء رد الإمبراطور كوستانتى الثانى على ذلك بمرسوم (سنة ٦٤٨). فجاهر البابا مارتينو فى مجمع لاتيرانو (سنة ٦٤٩)، الذى حضره معظم أساقفة إيطاليا، بإدانته للأمر والمرسوم ولأى كتابات أخرى تشهد للمشيئة الواحدة. وحينئذ تحول الجدل إلى تشيع سياسى. إن كوستانتى وقد جلس على العرش وهو فى الحادية عشرة من عمره (سنة ٦٤١)، ومثله مثل كثير من الطغاة فى مراهقتهم، بدأ حياته ببعض مظاهر إخضاع الأهالى، فنشر مخالب الأسد لكى يرغم رعايا الإمبراطورية على اعتناق رأى لم يكن ليفهمه هو ذاته، أو غيره ممن حوله.

ولكن لأن جيوش الإمبراطورية فى إيطاليا كانت متناهية فى ضعفها، ولأن شعب روما البائس كان يزداد فى التفافه حول أُسقُفه الذى يستمد منه الكسب والحماية، لم يستطع كوستانتى أن يجبر البابا على الخضوع، ولما أراد على الأقل أن يعاقبه، لجأ إلي القيام بعملية إجرامية، وأوكل المهمة إلى أوليمبيو، حاكم رافينا، أو إذا أردنا، قائمقام الإمبراطورية بالأراضى المتبقية لها بإيطاليا؛ وقد ذهب إلى روما خصيصاً لذلك

الغرض، وغالى فى نشر فخاخه للقبض على البابا، وقتله أيضاً حسبما قيل، وخاب فى شرِّه الأول والثانى، وحسبما ذكر أحد الإخباريين الأتقياء: بينما كان القاتل الذى بعث به أوليمبيو، يرفع يده ليصيب البابا، فقد نور عينيه، وفى معجزة تفوق تلك، ندم الحاكم، حينما سمع بالخبر وكشف للبابا الأمر بكامله.

كما يضيف كاتب الخبر أنهما تصالحا على التو، وأن أوليمبيو ما أن جمع ما استطاع من رجال حتى هرع إلى صقلية ليحارب الساراتشين(1). أما بلاط القسطنطينية فقد اتهم أوليمبيو بالخيانة العظمى، كما اتهم البابا بالمشاركة معه فى التسامح مع الساراتشين لدرجة إعانتهم بالأموال(2).

وبين قصة المعجزة هذه التى وقعت فى روما والاتهامات الجائرة التى توجهها حكومة بيزنطة، فالحقيقة تبدو أن الحاكم، وقد وجد فرصته المواتية فى مشاعر الإيطاليين وفى ظروف الإمبراطورية عامة، أراد أن يقتدى بما فعله أحد الولاة بأفريقيا حديثاً وفكر هو أيضاً بشق عصا الطاعة. وهو الأمر الذى لم يرغب ولم يستطع البابا منعه(3). ومن ثم لم يأبه أوليمبيو بالمسائل اللاهوتية ولا بالبابا؛ ذلك الذى أخذ ينعم بحالة من الهدوء كان ينشدها، دون استحسان أو استياء لتمرد الحاكم، وما أن صعقهما نزول المسلمين صقلية حتى اتحدا معاً ليتدبرا أمر ذلك الخطر اللاحق بكليهما. وسواء كان أوليمبيو مغتصباً أم لا، كان لزاماً عليه أن يحارب المسلمين، كما سبق وفعل جريجوريو المغتصب فى أفريقيا، وكان لزاماً على مارتينو، أن يلقى أى اعتبارات أخرى جانباً،

---

(1) أناستازيوس بيبليوتيكاريوس ، لدى موراتورى *R. 1*، المجلد الثالث، ص ١٤٠.

(2) محاكمة البابا مارتينو بالقسطنطينية، لدى لاب، *Sacros.Concilia*، المجلد الرابع، ص ٦٣، ٦٨، ٦٩.

(3) حينما وجهوا الاتهام للبابا بأنه اتفق مع أوليمبيو، رد بأنه ما كان باستطاعته التصدى له؛ ورد الاتهام إلى واحد ممن كانوا يتهمونه، سبق أن مر بظروف مماثلة لظروفه.

ويساعده على إنقاذ إيطاليا من عبودية غير المسيحيين، والحفاظ على إرث القديس بطرس بعيداً عن أيديهم.

وخـــلال العشر سنوات التى قضاها البلاط البيزنطى بين تبعـــات الأمر والمرسوم الامبراطورى، استطاع العرب أن يسيطروا على نصف الإمبراطورية، علاوة على مكاسبهم الهائلة عبر نهر دجلة: فقد اندفعوا حتى القوقاز، واحتلوا جميع سواحل سوريا، وضموا مصر سنة ٦٣٩، واجتاحوا أفريقيا وفرضوا الجزية عليها سنة ٦٤٨، وما أن استقروا على ساحل المتوسط حتى انطلقوا فيه وملأوه رهبة.

لقد بقوا بالفعل على ساحل البحر المتوسط طاعة لأوامر عمر، وليس جزعاً من مجابهة مخاطر مجهولة. ومع هذا فما كان يفتقر العرب إلى بحارة جسورين بين سكان المناطق الساحلية بالجزيرة العربية وحتى محاربى الصحراء ذاتهم فقد أظهروا بأسهم منذ الفتوحات الأولى، وأبحروا فى الخليج الفارسى لاجتياح سواحل الهند، وعادوا منها منتصرين محملين بالغنائم (٦٣٦)، ولذلك فقد كان عدم تكرارهم لمثل تلك العمليات يعود إلى أن عمر قام بتوجيه التوبيخ الشديد للقائد، وكتب له أن يأخذ حذره من أن يعود ليعهد بجند الإسلام إلى قطعة خشب تطفو على الماء(1)، وكأنهم الدود. وقد أراد بهذا الأسلوب أن يدرأ خطر التوسع البالغ فى الحرب، أو أن يتحاشى خطر الحرب على وسيلة تمرس عليها المسيحيون أكثر من المسلمين، وذلك هو رأى ابن خلدون. ولمثل هذه الاعتبارات قام بمنع معاوية بن أبى سفيان الطَّموح من مهاجمة جزيرة قبرص، إلا أنه لكيما ينفى عن نفسه أى تصور بأنه يضع العراقيل فى طريق نصرة الإسلام، كتب أنه يعلم أن البحر المتوسط يمتد امتدادا كبيرا على

---

(1) البلاذرى، لـــدى رينـــو، *Fragments Arabes etc. relatifs à l'Inde* ص ١٨٢.
إن الموقعين اللذين ذكرهما ابن خلدون الواردين بالاستشهاد التالى يدفعانى لترجمة فقرة البلاذرى المماثلة على هذا النحو.

البر، وأن البحر يدعو الله بالليل والنهار أن يغمره بمائه، لذا، فهو لا يرغب فى أن يزج بجيوش المسلمين فى خضم ذلك البحر الخائن(1). ولكن لم يمض من الوقت الكثير، وكما يحدث دائماً فى خضم الكتابات الدينية، فإنه بدلاً من تلك الأقاويل التى كانت تهدف إلى الترهيب من ارتياد البحر، تم العثور فى أحاديث محمد - عليه السلام - المتناقلة، على حصيلة وافرة من نصوص أخرى تهدف إلى عكس ما سبق: وكانت تقول مامعناه إنه لمجرد تحمل الجندى غثيان البحر أثناء الجهاد ثواب يضارع ثواب الموت فى ساحة القتال مخضباً بدمائه، وإن ملاك الموت يحمل إلى السماء أرواح الشهداء الآخرين، ولكن الله ذاته هو الذى يجمع أرواح الذين يقتلون فى معركة بحرية، علاوة على أحاديث أخرى تتحدث عن خيرات الحياة الأخرى(2).

---

(1) ابن خلدون، **المقدمة**، المتحف البريطانى، المخطوطة ٩٥٤٧، ورقة ٤٣ الوجه الثانى؛ و*Storia*، القسم الثانى، مخطوطة باريس، الملحقات العربية، ٧٤٢ *quinquies*، الجزء الثانى، ورقة ١٨٠ الوجه الثانى. وفى هذين الموضعين نقرأ المقولة التى أوردها البلاذرى والتى ذكرناها بعاليه، فى صيغتين متباينتين إلى حدما؛ ولكن المقولة نسبت إلى عمرو بن العاص، حينما سأله عمر عن البحر المتوسط فأجابه «إنه سطح مترامى الأطراف، يركبه رجال ناقصو عقل، يلتصقون كالديدان بقطعة خشب». كما يضيف المؤرخ العربى آراءً عامة عن أساطيل المسلمين. وبالموضع الآخر المذكور الذى يشتمل على تاريخ الخلفاء الأوائل يذكر أن معاوية عرض على عمر عملية فتح قبرص، وأن عمر طلب مشورة عمرو ابن العاص، قائد مصر وأنه ما أن تلقى هذه الإجابة، منع العملية بالعبارة التى أوردتها. إن الفقرة المذكورة **بالمقدمة** قد نقلت إلى الإنجليزية، حسب تفسير يختلف تماماً عن تفسيرى لها. وقد ورد ذلك فى عمل جايانجوس
The History of the Mohammedan Dynasties in Spain by Al makkari
المجلد الأول ص ٣٤ .

(2) إن أنواع الثواب الذى يكسبه المسلمون المحاربون بالبحر يأتى حصرها فى **مشارق الأشواق** ص ٤٩ وما يليها. أما الآراء المخالفة لذلك فيمكن الإطلاع عليها لدى م. رينو، *Extraits etc. relatifs aux Croisades*، ص ٣٧٠ و٤٧٦؛
Invasions des Sarrzains en France، ص ٦٤ و٦٧ . ومما يذكر أن الفقهاء كانوا يضعون فى مقام السفهاء من أبحر مرتين أو أكثر للتجارة وعليه فهو غير أهل للشهادة فى محكمة.

وبعد مقتل عمر سنة (٦٤٤) وما أن تجمع حكم مختلف الولايات السورية(1) فى يد معاوية، خلال سنتين، وكان يحظى بتأييد كبير لدى الخليفة الجديد، رجحت فى سهولة كفة القتال البحرى، رغم معارضة ذوى الرأى ممن كانوا يرغبون فى الحفاظ على خطط عمر السياسية(2).

وبعد أن أمر معاوية بجلب عدد كبير من السفن من الإسكندرية وضمها إلى سفن الساحل السورى، أخذ يهاجم قبرص سنة ٦٤٨، وأخذ منها الجزية؛ ثم حاول غزو جزيرة أرادو الصغيرة المنيعة، ولما صُدت جيوشه عنها، عاد إليها فى العام التالى بمزيد من الاستعداد، وأخذ يرغم أهلها على الاستسلام ويضرم النار بالبلد، وبعد ذلك بسنتين استولى مسلمو سوريا على جزيرة رودس، ونزعوا منها تمثال أبوللو الضخم، وكان العالم القديم يعده إحدى عجائب الدنيا(3). وذلك بعد أن أحالوه إلى قطع مهشمة.

وخلال المرحلة الجديدة، فى عام ستمائة واثنين وخمسين، أى بعد أربع سنوات بالضبط على أول تجربة على متن السفن بالبحر المتوسط، أخذ المسلمون يعبرون البحر، بخطى واثقة فى اتجاه جزيرة صقلية.

وفيما ورد بحوليات العرب عن هذه العملية، مثلها مثل عمليات أخرى كثيرة قام بها أوائل القادة العرب بالولايات الرومانية، نجد أخباراً شديدة الغموض، ذلك لأسباب يجدر شرحها. فلدى

---

(1) ابن خلدون، **التاريخ**، القسم الثانى، مخطوط باريس، الملحقات العربية، ٧٤٢ *quinquies*، الجزء الثانى، ورقة ١٨٠ الوجه الثانى.

(2) المرجع السابق ورقة ١٨١ الوجه الأول.

(3) يتشكك كتاب الحوليات المسلمون فى هذه التواريخ. وأنا أوردها طبقاً لكتابات البيزنطيين المذكورين لدى لى بو، *Histoire du Bas-Empire*، الكتاب ٥٩،§ ٣٥، ٣٦.

الشعوب الأخرى التى عرفت بحضارتها فى العالم؛ نجد أن الرواية المتوارثة للأحداث قد اتخذت ثلاثة أشكال متتالية، بعد أن خرجت من ضباب الأزمنة الأسطورية، وهذه الأشكال التى تقابل ثلاث درجات من التحضر هى: الأناشيد البطولية المحفوظة عن ظهر قلب، ثم الأخبار المدونة، ثم كتابة التاريخ بما تعنيه الكلمة.

وما كانت الرواية الشفاهية النثرية سوى عامل مساعد، يقوم، كما يعلم الجميع، بتصحيح أو تشويه ما حفظته الذاكرة. أما بالنسبة للعرب فقد سيطرت الرواية الشفاهية على المجال بأكمله، طيلة أول قرنين للهجرة؛ ولما كان تحضر الأمة فى روحها يفوق تحضرها فى مظهرها، فما كانت لتقنع بالقصص الشعرى، على أنها لم تألف أيضاً الذكريات المكتوبة، وفن القراءة والكتابة، على بساطته، كان شحيحاً لدى هؤلاء المحاربين المرتجلين الذين كانوا لا يبرحون جيادهم وسلاحهم. لذلك لم يكن لديهم سوى الرواة وهم من أعطاهم التمرس إمكانية تذكر إعجازية، فكانوا يحفظون تراث شعبهم الأدبى بكامله: الأشعار والأنساب، وأحاديث النبى. ولما كانوا يعملون قدر استطاعتهم على جمع الأخبار من شفاه هذا وذاك، كان من عادتهم ذكرها فى رواياتها المختلفة مع ذكر أسماء من تتابعوا فى نقلها. إلا أن هذا النوع من الاهتمام قد أزاد من حجم الرواية والخلط فيها، بدلاً من أن يعمل على تصحيح عيوب التقليد الشفاهى: أى عدم الدقة فى التحديد الزمنى، والخلط بين الأحداث المختلفة المتعلقة بشخص بذاته. والخلط بين حكايات المشيدين والمزدرين، والشغف بالنوادر المبهرة، والسكوت على الأعمال التى لم تلق نجاحاً.

ويبدو أن هذا التكدس بالمادة الروائية قد أثقل كاهل أوائل من حاولوا الكتابة فى القرن الثالث الهجرى والتاسع الميلادى. فمنهم من أملى قصصاً خاصة، ومنهم من أتته الجرأة فدخل فى إطار الأخبار

الشاملة؛ ولكن ما من أحد استطاع أن يتخلص من طابع ذلك التقليد الشفاهى المتسلسل، وما من أحد استطاع أن يحسن تحديد أحداث القرن الأول كافة، وقد أصبح حينذاك بعيداً فى الزمان. ثم ظهرت أخيراً الأخبار مجمعة أو موجزة، فأبطلت استخدام أسلوب الإخباريات الأولى المطول، حتى بات نسخها قليلاً أو معدوماً بدءاً من القرن الثانى عشر حتى الآن. وعليه فلم يبق منها إلا بعض أجزاء. ولهذا أصبح من المحال العثور على رواية لبعض الأحداث؛ ولن تصل جهودنا إلا إلى إشارات طفيفة لها.

وعن الهجوم على صقلية، ذلك الذى تحدثنا عنه توا، فإن ثمة ما يؤكده بالتذكارات الأوربية، إى أنه مسجل بالوثائق المعاصرة له والتى تتضمنها محاكمة البابا مارتينو(1)، ثم ورد فى فقرة بإخباريات تيوفان(2)، وهو كاتب من كتاب القرن الثامن، ثم فى فقرة مستخلصة بشكل واضح من تذكارات كنيسة روما، ونقلت فى سير الباباوات الذين يندرجون بعد اسم انستازيو بيبليوتيكاريو(3). وبتصحيح

(1) ورد لدى لاب *Sacrosancta Concilia*، المجلد السادس ص ٦٣، ٦٨، ٦٩ . كان البابا ينفى عن نفسه تهمة إرسال رسائل وأموال للساراتشين، استناداً على أنه لم يقدم إلا شيئاً من إحسان لخدام لله ذهبوا إلى البلد الذى يحتله غير المسيحيين: وهو صقلية بلا شك. علاوة على أن القضاة البيزنطيين كانوا يواجهونه بتأييده للحاكم أوليمبيو الذى كان يعمل فيما يبدو، على مناهضة الإمبراطور، وذلك حينما تصالح مع البابا وعبر إلى صقلية.

(2) المجلد الأول، ص ٥٣٢، وتتدرج الفقرة تحت عام ٦١٥٥ ، طبقاً لحسابه هو، وبإحالته إلى ما يقابله بالتقويم الميلادى، يتوافق مع عام ٦٦٢ . والفقرة الواردة لدى تيوفان، حال تفسيرها بشكل صحيح (وأستطيع أن أذكر ذلك بعد أن عرضته على م. هاس)، ترد بالمضمون التالى: وتم فى هذا العام احتلال جزء من صقلية، وكان (الأسرى)، بحسب اختيارهم، يتم نقلهم ليستقروا بدمشق. إن الصياغة اللاتينية غير الصحيحة بالنص المطبوع قد حملت بعض المؤلفين المحدثين على تخيل ملجأ اختيارى للصقليين بدمشق.

(3) لدى موراتورى، *Rerum Italicarum Scriptores*، المجلد الثالث، ص ١٤٠، ولدى لاب *Sacrosancta Concilia*، المجلد السادس، ص ٣ وهو الأصح فى هذه النقطة بالنص، حيث يقول أنستازيو وهو يتحدث عن أوليمبو: *Qui, Facta pace cum sancta Dei Ecclesia, colligens exercitum, profectus est Siciliam adversus gentem Sarracenorum, qui ibidem habitabant. Et, peccato faciente,*

التحديد الزمنى يتطـابق الحدث بالفعل مـع الرواية الإسلامية التى قـام البلاذري، وهو كاتب من كتــاب القرن التاســع(1)، بتجميع أطرافها، كما أنه ورد فى مؤلِّفَيْن آخــرين أحــدث(2)

---

major interitus in exercitu romano pervenit, et post hoc idem exarchus morbo interiit وحسب التصحيح الذى أجراه باچى لما ورد فى بارونيو (٦٤٩ وما بعدها)، فإن عبور أوليمبيو إلى صقلية لابد وأن يرجع إلى عام ٦٥٢؛ وهو التاريخ الذى أمكن التأكد من تحديده من خلال وقائع البابا مارتينو الشهيرة، والتى جرت بعد موت أوليمبيو. أنظر أيضاً أناستازيو ببيليوتيكاريو ذاته، *Historia Ecclesiastica*، سنة ٢٢ من عهد كوستانتى-

(1) البلاذرى، مخطوطة ليدن، ص ٢٧٥: يقولون إن معاوية بن هديج، وهو من قبيلة كندة، قد قام بحملة على صقلية، أيام معاوية بن أبى سفيان. وكان أول من بدأ الحرب فى تلك الجزيرة؛ ولم تهدأ الهجمات من ذلك الحين فصاعداً حتى تمكن الأغالبة من احتلال أكثر من عشرين مدينة فيها ... يحكى الواقدى أن عبدالله بن قيس أخذ أسرى من صقلية، وأخذ منها تماثيل من الذهب والفضة متوجة باللآلئ، وأنه أرسلها إلى الخليفة معاوية، الذى بعث بها إلى البصرة، حتى يتم إبحارها إلى الهند، فيمكن بيعها هناك بسعر أفضل. وكما هو واضح، فإن البلاذرى لا يخلط بين هاتين الغارتين، وكانتا بالفعل مختلفتين، وإن لم يذكر ذلك صراحة. بالإضافة إلى أن البلاذرى يكتب أحداث صقلية قبل أحداث رودس مباشرة، وهى أحداث لا شك فى تاريخ وقوعها. إن الواقدى الذى ذكره إنما هو كاتب الأخبار الذى فقدت مؤلفاته، ثم قام المؤلف الحديث الذى نوهت عنه باستغلال اسمه فيما بعد. وقد ورد بالنص الذى كتبه البلاذرى اسم خديج بدلاً من هديج، كما صححته أنا، إتباعاً لابن الأثير، المخطوطة C، المجلد الثانى، ورقة ١٧١ وما يتبعها. وهكذا فعل أيضاً العلامة ناشر **البيان** بشأن مراجع أخرى، بالصفحة رقم ٩ .

(2) **البيان** هو أكثر المراجع ثقة وإن كان الأكثر حداثة، ص ٩، ١١ . وفيه يتميز أحد الهجومين اللذين ذكرتهما بالهامش السابق عن الآخر؛ ولكنه ينسب للهجوم الأول تفاصيل اختص بها الهجوم الثانى، أى الأصنام التى أرسلت لتباع فى الهند.

يحدد **البيان** الهجوم الأول فى سنة ٣٤ (٦٥٤ - ٥) والثانى سنة ٤٦ (٦٦٦ - ٧): وكلا التاريخين غير صحيحين، وذلك لمحاولة ربطهما بالحملة على أفريقيا، ولم تكن هناك أى صلة بينهما. ويبدو أن مؤلفين آخرين قاموا بخلط الحملتين فى واحدة وللسبب ذاته، لأنهم افترضوا أن تعبير البلاذرى الذى قال فيه أيام معاوية بن أبى سفيان، يعنى أنه حينما كان معاوية خليفة (٦٦١ - ٦٨٠)، بدلاً من أنه حينما كان حاكماً لسوريا (٦٤٠ - ٦٦١). وهؤلاء هم البكرى، الذى ذكره ابن شباط، المخطوطة، ص ٧، والنويرى، المذكور لدى دى جريجوريو، *Rerum Arabicarum*، ص ١؛ وابن أبى دينار، المخطوطة، ورقة ١٠ الوجه الثانى، والترجمة، ص ٤١ . ولا يذكر ابن الأثير لا الحملة الأولى ولا الثانية، مما يدفع بالظن إلى وجود أجزاء ناقصة بالمخطوطة.

من الأول، ويتميز أحدهمـــا بمغــالاته فى التفاصـيل ويوجد فى إحدى نسـخ الواقدى المنتحل؛ إلا أنه رغم ذلك الأصـل المشكوك فيه(1)، فباستبعاد اختلاقات المؤلف الواضحة فإن النص يحتوى على قرائن أصيلة ويتمم إشارات تيوفان وانستازيو ولذلك يرى جمهور النقاد أخذه فى الاعتبار. وفى النهاية فمن الشواهد على الحملة، وجود اسم ناحية ظل مستخدماً فى سوريا حتى القرن الثانى

---

(1) بعد الجهد الذى بذله همكر ومستشرقون آخرون، أصبح جليا زيف كتاب فتح سوريا المنسوب إلى الواقدى، وهو الكتاب الذى اعتمد عليه أوكلاى اعتماداً كبيراً فى تأليفه لتاريخ الساراتشين، وأوقع چيبون وكثيرين غيره فى الخطأ نفسه. إن هذا الكتاب وتلك الكتب التى تحمل الطابع ذاته وتتحدث عن فتح مصر.. وغيرها، تشتمل على روايات أصيلة وأخرى غير أصيلة، وهى من عمل مؤلف واحد أو عدة مؤلفين. ومن بين مخطوطات الواقدى الكثيرة غير الأصيلة، الموجودة بالمقتنيات الأوربية، يوجد مخطوط بالمتحف البريطانى، (*Bibl. Rich.*، ٧٣٦١ . رقم ٢٨٧ بالتصنيف المطبوع) وهو يحتوى على حواشى مطولة عن فتح قبرص ورودس وأفريقيا وصقلية وأرادو. أما عن الحواشى فيجدر الانتباه أولاً إلى أنها لا ترد، كما هو الحال فى باقى أجزاء المخطوط، على لسان الواقدى أحياناً أو الراوى أحياناً أخرى، وإنما ترد فقط عن الراوى. ثانياً، يتضح فى أى زمن كتب الراوى؛ ففى الحديث عن بركان إتنا (الورقة ١١٨ الوجه الأول) يذكر القصة التى رواها له شيخ صقلى إسمه أبو القاسم بن حكم، وكان يقيم فى بلاط خليفة بغداد. ثم يتصادف أن يذكر اسم ذات الشيخ، لدى أبو حامد محمد بن عبد الرحيم المقرى، وذلك فى مؤلّف جغرافى يحمل عنوان **تحفة الألباب**، ونعرف تاريخ كتابته، أى سنة ٥٥٧ هجرية (١١٦١ م)، ونعرف أن المؤلف كان موجوداً ببغداد سنة ١١٦٠ (رينو: *Géographie d'Abulfeda* المجلد الأول، المقدمة ص ١١٢). ويقول أبو حامد إنه سمع من شفتى أبى القاسم ببغداد الأخبار التى حكاها عن إتنا، وهى أخبار تتطابق تماماً مع ما ورد بالواقدى المنتحل (تحفة الألباب)؛ مخطوطة باريس، *586 Ancien Fonds*، ورقة ٦٦ الوجه الأول، (والملحقات العربية، ٨٦٣،٨٦٢،٨٦١). وعلى ذلك يبدو لى مؤكداً أن مؤلف الملحق قد عاش فى القرن الثانى عشر، وأنه لم يزعم بحال من الأحوال نسب الملحق للواقدى، لأنه فى هذه الحالة لم يكن ليذكر اســم أحد معاصريه، وكان ذائع الصيت. بالإضــافة إلى ذلك فإن الأفكار والأسلوب الذى كتب به سواء العمل الأساسى أو الملحق، تتسم بطابع الإشــادة الدينية، والمغالاة فى المشاعر القومية، وحتى بملامح ســير الأبطال والفرسان، مما أيقظته الحملات الصليبية فى الشرق. وفى النهــاية وجدت ما يذكر عن صقلية فى الملحق، إذ يقــول: إن ملك الـــروم قد اتخذ مقراً له، منذ قديم الزمان وحتى أيامنــا هذه فى ثلاثة أماكن فقط، أى صقلية وروما والقسطنطنية. (الورقة ١١٩ الوجه

عشر أو الثالث عشر، وكان يسمى **صقلية**، أو حسب رواية أخرى **الصقليات**، وهو مكان قائم بريف دمشق؛ هذا إن لم يكونا مكانين مختلفين. وترجع التسمية بالتأكيد إلى وجود بعض النساء الصقليات اللاتى تم نقلهن أسيرات إلى هناك، أو ربما تلك اللاتى أُحضرن إلى

الثانى)، وهذا الرأى يتواءم مع أحوال الإمبراطورية، حتى زمن إقامة كوستانتى بمدينة سيراكوزا، ويتوافق كذلك تماماً مع القرن الثانى عشر، عندما كان ذوو السلطان بالولايات الإيطالية واليونانية هم، بالضبط، هؤلاء الثلاثة: الإمبراطور البيزنطى، والملك النورماندى بصقلية، وملك الرومان.

وإذا انتقلنا إلى تحليل الأحداث، فإنه يكفى تصفح الملحق حتى نلحظ ذلك الخلط بين الحقيقى والزائف الموجود بجميع أعمال الواقدى المنتحل، مع أنه من الملاحظ أن الهزيمة البحرية، ومقتل كوستانتى، ثم غزو أفريقيا، قد تمت روايتها من خلال ظروف قريبة من الحقيقة، وعلى العموم فهى لا تحتوى على تلك الأقاصيص التى أقرها ابن الأثير وآخرون غيره من مشاهير الكتاب وعدوها أحداثاً تاريخية. وإن كان عدم ذكر اسم قائد حملة صقلية قد أثار الشك منذ الوهلة الأولى، فلعل ذلك يشهد، على العكس، على حنكة المؤلف، حيث أن المذكرات القديمة كانت منقسمة فى هذه النقطة إلى قسمين، فهناك من كان ينسب هذا الشرف إلى ابن حديج، ومن يوليه لعبد الله بن قيس. أما فيما عدا ذلك، فلعله من السهل، فى اعتقادى، فصل الزائف عن الوقائع الحقيقية التى أخذها المؤلف من مؤلفين قدامى، وربما من الواقدى الأصيل. لذا لم أتخوف من إقرار هؤلاء الكتاب فيما أرويه. ولكى يتمكن القارئ من مراجعة حكمى فى الأمر، سوف أضع أمام عينيه خلاصة الملحق المذكور وهى كما يلى:

وبعد أن حصل المسلمون على إتاوة فى أفريقيا وانسحبوا من تلك الولاية، توجه تفكيرهم إلى غزو صقلية، وهى إحدى مقار ملوك الرومان القديمة، وهى جزيرة فسيحة خصبة. وكتب عنها معاوية للخليفة عثمان، فوافقه الرأى. ولعلم الأفارقة بذلك، أخبروا به فى صقلية. فغضب أمير تلك الجزيرة من الخطة، مع عدم تصديقه لها تماماً.

وهاهوذا أسطول المسلمين يقلع من سواحل (سوريا)، وقوامه ثلاثمائة سفينة وينقض بغتة على الجزيرة، حيث ينظر الأمير من أعلى قصره فيراها آتية، تزينها الألوية والرايات، ويملؤها المحاربون المدججون بالسلاح. ويتقدم أمير قيصرية، اللاجئ إلى صقلية، بعد أن طرده العرب، بنصح أمير صقلية بالتفاهم معهم بالمال. فاستهان بكلامه قائلاً إن لديه من القوة ما يواجه به العرب فى مائة صدام وما يقاومهم به سنة كاملة.

ومع ذلك فما أن رسى أسطول المسلمين حتى أرسل لهم من يفاوضهم، فحضر أحد فصحاء المسلمين ليعرض عليه، عن طريق مترجمين، إما الإسلام، أو الجزية، أو القتال. وكان حديثاً طويلاً أعقبه رفض قاطع من أمير صقلية. وفى النهاية سأل أحد الأشراف المتحدث عما إذا أراد عربى أن ينازله. أجاب المتحدث: نعم وليكن أحقر نفر بجيش المسلمين. ثم يرد وصف النزال الذى قتل فيه الشريف. وكان أن فزع الأمير من هذه العبرة، واختبأ داخل قلعته، وأخذ المسلمون يتلفون أماكن شتى، ويقتحمون

هناك فى زمن معاوية(1).

تحرك أسطول المسلمين من أقصى الخليج الشرقى بالبحر المتوسط؛ ربما من طرابلس سوريا، ولم يأت بالتأكيد من سواحل أفريقيا، من حيث انسحب المسلمون قبل ثلاث سنوات. وإنما الضرورة كانت تقتضى إعداد السفن الكبيرة وتزويدها للحرب، وسوف يتضح أن عملية صقلية كانت تفوق فى مصاعبها ومخاطرها حملة الهند سنة ٦٣٦، التى أسعف العرب فيها وجود سفن وبحارة من أهلهم اعتادوا هذه الرحلات البحرية فى تجارتهم. وكان معاوية بن أبى سفيان قد اتخذ طريقه نحو الإمبراطورية، ولعله كان يهدف بحرب صقلية إلى زيادة الولايات وزيادة دخل الحكومة كذلك، ولعله أراد محاكاة عبدالله بن سعد، قائد مصر، الذى كان يتمتع مثله برضى الخليفة. كما أنه حقق أمجاداً عظيمة للدين وثراءً وفيراً للجند فى أفريقيا.

بآلاتهم قصوراً عدة. ثم يأتى نهار يوم جديد ويكسر الأمير جناح جيش المسلمين الأيسر، ولكن الجناح الأيمن يظل متماسكاً وتستمر المعركة حتى المساء. ومع تقدم ساعات الليل يترك المسلمون ساحة القتال ويعودون إلى سفنهم، يتجهون بالهجوم على نواحى أخرى بالجزيرة. ويكتب أمير صقلية لرومان (إيطاليا) طالباً تعزيزات، ولكنهم لا يجيبونه، وحينئذ يقترح عليه أمير قيصرية أن يحتاط للقائد المسلم وأن يتظاهر بعرض السلام عليه، إلى أن يرسل فى طلب العون من أمير القسطنطينية. وكان أن رد عليه الصقلى قائلاً: لن أفعل أبداً ذلك، حتى إن خسرت الجزيرة. وهكذا تمكن المسلمون من الاستمرار فى الإغارة على البلاد، إلى أن أرسل إليها أمير القسطنطينية ستمائة سفينة مزودة بالمحاربين. وما أن علم المسلمون بذلك حتى قرروا الرحيل فى الحال والتو. وتركوا الجزيرة أثناء الليل. وبعد أيام كثيرة قضوها فى الإبحار، وصلوا إلى ساحل سوريا، حيث أنزلوا الغنائم والأسرى ونقلوهم إلى دمشق، إلى معاوية بن أبى سفيان. وبعد أن جنب معاوية الخُمس منها أرسل به إلى عثمان وأخبره بأحداث صقلية، وكيف أن المسلمين خرجوا منها سالمين معافين. وبعد ذلك أخذ المسلمون يقاتلون جزيرة أرادو، وكانت آخر انتصاراتهم تحت خلافة عثمان، وتحققت فى سنة مقتله نفسها.

(1) ابن شباط، المخطوطة، ص ٥٠، يقول إن صقلية هو أيضاً اسم ضيعة (مزرعة أو حقل يستثمر لصالح الجنود) فى غوطة دمشق. يورد **مراصد الاطلاع**، مخطوطة ليدن، هذا الحديث الموجز: «إن صقليات (بصيغة الجمع المؤنث) وتنطق بثلاث كسرات ولام مشددة،

ولعل المعلومات التى دفعت معاوية لعملية صقلية، قد وردت له عن طريق الجيش المنافس له. وقد عهد بالعملية إلى رجل شجاع، أصبح فيما بعد، أحد أنصاره خلال الحروب الأهلية(1)، وكان يعرف، فوق ذلك، بتقواه حيث رأى وجه النبى وكان يحفظ أحاديثه(2)؛ كما أنه كان قد لمع لتوه فى حملة النوبة، تحت إمارة قائد مصر، حيث فقد إحدى عينيه إثر جرح(3). ذلك الرجل هو معاوية بن هديج وكان من قبيلة كِنده(4)، وقد استمر يقاتل طيلة عشرين سنة، فى الغرب فى سبيل دينه، حتى أن كثيراً من بطولاته قد اختلطت لدى الرواة(5). كما أن بطولاته فى صقلية، ظلت فى طى العتامة، كما لو كانت أقل أهمية من غيرها.

نزل المسلمون بالجزيرة بقوات غير ملائمة للفتح؛ وقاموا باحتلال مواقع على الساحل، وكما هى عادتهم، أرسلوا خيالتهم لضرب المدينة، فكانت لهم الغنائم والأسرى. ولكنهم كانوا غير كافين لاقتحام الأراضى الواقعة داخل الأسوار. إلا أن هذا الضعف فى جانب العدو، لم يدركه المسيحيون من هول ذلك الهجوم المفاجئ الذى لم

هو اسم يقولون إنه لمكان بسوريا» وهذا العمل هو موجز **معجم ياقوت**، الجغرافى الكبير، كما أنه ينسب إلى ذات المؤلف الذى عاش فى القرن الثالث عشر. أنظر رينو *Géographie D'Abulfeda*، المجلد الأول، ص ١٣٢ وما يليها.

(1) الذهبى، مخطوط باريس، ملحقات عربية، ٧٤٦، المجلد الأول سنة ٣٧ و٣٨.

(2) ابن عبد الحكم، مخطوط باريس، *Ancien Fonds* ٦٥٥، ص ٤٣٠.

(3) المرجع السابق، ص ٢٥٣؛ أجريت هذه العملية سنة ٣١ (٦٥١ ـ ٥٢)، ومثل آخرين تأثر اثنان من المحاربين المرموقين بالجرح نفسه الذى تأثر به ابن هديج، لذا أطلق العرب على أهل النوبة اسم «صاعقى الحدقات».

(4) البلاذرى، الموضع المذكور؛ **البيان**؛ ص ٩ وهو يرجع العملية إلى سنة ٣٤، حينما كان معاوية بن هديج فى أفريقيا؛ ولكنه اضطر لأن يقول إنه أرسل للهجوم على صقلية.

(5) ومن أهمها الحملات الثلاث التى قادها فى أفريقيا فى السنوات ٣٤ (٦٥٤ـ ٥٥) و٤٠ (٦٦٠ ـ ٦١) و٥٠ (٦٧٠)؛ وهى حملات خلطوا فيها بين الواحدة والأخرى، منذ أيام الكتّاب الأوائل، وذلك حسبما يؤكد ابن عبد الحكم، الذى عاش فى القرن التاسع الميلادى. أنظر عبد الحكم، مخطوط، باريس، *Ancien Fonds* ٦٥٥، ص ٢٦٢ و٢٦٣، و*Ancien Fonds* ٧٨٥، الورقة ١٠٩ الوجه الأول، و١٢٢، و**رياض النفوس**، ورقة ٩ الوجه الأول.

يكن حدوثه أو إمكانية حدوثه متوقعاً، وفى غمرة الفزع من اسم الساراتشين، ذلك الاسم المخيف، ومن تلك الأساليب الجديدة، وتلك الملامح واللغة، وتلك القوة فى القتال.

وما أن وصلت الأخبار إلى روما، حتى اتحد الوالى مع البابا، كما سبق وذكرنا. وبعد أن عبر أوليمبيو إلى صقلية بجيشه، استمرت الحرب زمناً طويلاً: ودارت المعركة، ضعيفة من كلا الجانبين، فقد كان عدد المسلمين قليلاً، وتجهيزاتهم قليلة، وكان قدر المسيحيين أقل منهم فى القتال، وهم يعانون وباءاً أصاب صفوفهم. وعليه كانت الإجراءات التى قام بها الوالى، والتى وردت الإشارة إليها، سواء فى رواية الواقدى المنحولة، أو فى محاكمة البابا مارتينو، والتى بنيت، بعد موت أوليمبيو على تهمة إهانة الذات الملكية بهدف توريط البابا. وكان البابا يرسل مساعدات مالية إلى صقلية: صدقة لنفر من عبيد الله، هكذا كتب فيما بعد ليلتمس لنفسه العذر، ولعله أراد أن يخفى وراء هذه التسمية ما دفعه من فدية لأجل أهل البلاد ممن سقطوا فى يد أعدائهم.

وعلى كل فقد انقضت شهور عدة بين المعارك والإجراءات، ومات أوليمبيو خلال هذه الفترة، بالطاعون. ولما لم يكن لدى المسلمين أمل فى تعزيزات تصلهم، حيث لم يكن لديهم أساطيل أخرى بالبحر، وحيث كانوا يتوقعون هجوم السفن البيزنطية عليهم، أو وصلتهم بالفعل أخبار هجوم، لم ينتظروا حتى تغلق الجزيرة عليهم. وسارع معاوية بن هديج فى العودة للسفن، ولكنه لم يترك الغنائم والأسرى، ولما نشر أشرعته ليلاً حالفة الحظ؛ وبعد أن قضى رحلة سعيدة بالبحر، وصل ورجاله سالمين إلى سواحل سورية. ونقل خبر ذلك إلى عثمان قائد الولاية، معاوية بن أبى سفيان، تملؤه الفرحة، بعد أن كان شديد الخوف على مصير الأسطول. كما أنه أرسل إلى الخليفة خُمس الغنائم، ووزع الباقى على أفراد الجيش. ويبدو أن الأسرى، وأغلبهم من النساء، قد ظلوا مقيمين بدمشق وسرعان ما نسوا سادتهم القدامى، وبلادهم، وعائلاتهم، وربما أيضاً دينهم. ولهذا

ورد عنهم بالأخبار البيزنطية فى غير اهتمام، أن إقامتهم فى دمشق كانت محض اختيارهم: وما من إساءة تفوق هذا التعبير فى قسوته يمكن أن توجه ضد أولئك الأسرى التعساء، بل أيضاً ضد ذلك النظام المدنى والدينى الذى كان يقهر صقلية(1) آنذاك.

وما أن ابتعد المسلمون عن الجزيرة حتى سارع كوستانتى فى اضطهاده للبابا، وكلف حاكماً جديداً بعملية الاغتيال التى كان يدبرها. ومن عند قوائم المذبح، امتدت يد القاتل المأجور (يونيو ٦٥٣) لتنتزع رجل البر، الشيخ البار الجليل، مارتينو، وكان مبجلاً من أجل وداعته وقوة عزيمته؛ أخذوه وزجوا به فى قارب، واقتادوه عبر نهر التيبر نحو الجنوب، وعبر الساحل، حتى مسينا، ثم هناك بدلوا القارب بآخر، واقتادوه هنا وهناك بمحاذاة ساحل كلابريا الشرقى، وعبر جزر الأرخبيل: وكانوا ينقلونه سراً بالبحر أو بالبر، وأساءوا معـاملته، وبعد مضى وقت طويل، اقتادوه أمـام القضـاة بالقسطنطينية. وهنا اشتد عذابه، تحت وطأة الاتهامات الجائرة، ووقاحة القضاة، ووحشية الخدم، وانتهاك قدسية العدالة فى اسمها وهيبتها، ثم النطق بالحكم عليه بالاعدام، ثم تعليق الحكم؛ وفوق كل ذلك مزقوا ثيابه الكهنوتية من على بدنه فى حضور الطاغية، ثم اقتادوه يطوفون به فى المدينة وحول عنقه طوق من حديد، والسياف أمامه يعلن المنكلة. وفى النهـاية اسـتبدل الطـاغية حـكم الإعدام بالنفى مدى الحياة بكرسون، على الساحل الشمالى بالبحر الأسود، حيث قضى مارتينو الشهور القلائل التى تبقت له فى الحياة. بين المعاناة من آلامه، ونسـيان رجـال كنيسـة رومـا لـه. كمـا أنه تم الحـكم على كثيرين

(1) لمقارنة الاستشهادات التى ذكرتها بالنص بعاليه، وللحكم عما إذا كانت تثبت الوقائع التى أكتبها، أنظر أيضاً لى بو، *Histoire du Bas-Empire*، الكتاب ٦٠، § ٦، ٣٦، بتصحيح سان مارتـان. ويبدو لى أن مارتورانا قد أخطأ فى، *Notizie storiche dei Saraceni Siciliani* المجلد الأول، ص ٢٨، كما تبعه فى الخطأ ونريش، حينما أهملا هذه العملية، وذكرا أول غارة للمسـلمين سنة ٦٦٩.

باعتبـارهم متمردين على المرســوم؛ وفى وحشية فاقت كل الحدود، اقتصوا من العالم القديس ماسيمو، ولشدة صلف حكام الإمبراطورية، لم يكتفوا بإدانتهم لآرائه فى علم اللاهوت؛ وإنما اتهموه أيضاً بتسليم مصر وبانتوبولى وأفريقية للساراتشين(1).

وكأنه استعاد قوته بانتصاره داخل دياره، أراد كوستانتى أن يسرع فى عقاب العرب، وكانوا قد اكتسبوا جسارة على البحر، ويعدون أسطولهم لمواجهة القسطنطينية ذاتها (٦٥٥). وأخذت تظهر سفنهم أو مراكبهم وعددها مئتان أو أكثر من ذلك قليلاً، على مقربة من سواحل ليتشا، قريباً من جبل فينيتشو، فى مكان يطلق عليه المؤرخون الإخباريون العرب اسم «الأعمدة أو ذات السوارى» وترجع التسمية، بلا شك، إلى وجود بقايا من آثار فنية إغريقية بالمكان. وهنا وجه كوستانتى سفنه، وكانت ستمائة أو سبعمائة، وهناك من يقول ألف مركب، وبالطبع كانت على مستوى فائق فى العدد والحجم والعتاد وكانت تلك أول معركة بحرية يتعرض لها المسلمون. ولذا سيطر التوجس حتى على أشدهم بأساً: وتوجه القائد الأعلى عبدالله بن سعد، وهو على البر مع رجاله، بالسؤال إلى مرؤسيه من القادة عما يمكن عمله؛ ولثلاث مرات نظر الرجل منهم إلى صاحبه دون أن يجيب عن السؤال: وحينئذ قام أحد الجنود، وبدلاً من أن يفسح المجال للجدل؛ قرأ كلمات القرآن عن معركة طالوت وجالوت: «وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة، بإذن الله والله مع الصابرين»(2). حينئذ صاح عبدالله، وقد آثر الموت

(1) إن التذكارات والوثائق الخاصة بالبابا مارتينو، منذ تنصيبه وحتى وفاته، يمكن الاطلاع عليها لدى لاب، *Sacrosancta Concilia*، المجلد السادس، من البداية حتى ص ٧٠؛ انظـر أيضـاً تيوفانس، *Chronographia*، المجـلد الأول ص ٥٢٦ إلى ٥٣١؛ وبارونيو *Annales*، السـنوات ٦٤٩ و٦٥١، ومعهـا تصحيحـات پاچى؛ ولـى بو *Histoire du Bas-Empire*، الكتاب ٦٠، § ٤ وما يليها. إن التهمة الغريبة التى وجهت إلى القديس ماسـيمو، وردت الإشـارة لها فى المدونات، لدى لاب، *Sacrosancta Concilia* المجلد السادس، ص ٤٣٣.

(2) القرآن، ٢، ٢٤٩.

على أن يترك الأسطول للعدو، ونادى رجاله: «إلى المراكب، باسم الله». وإلى المراكب انطلقوا يجرون، تتبعهم كثرة من نسائهم، أردن المشاركة فى المخاطر.

وما أن اشتعل العراك بالسهام والنبال، حتى أيقن العرب خطأ القتال من سفينة لسفينة، ودون انتظار لهزيمة أولى، يعتبرون بها، أرادوا أن يجربوا المواجهة رجلاً لرجل. فأخذوا يلقون بالخطاطيف إلى مراكب العدو، ويصعدون على أسطحها بالسيوف والخناجر بأيديهم، ويومئذ تغلبوا، بعد دماء غزيرة، أريقت منهم، ومجزرة هائلة فى رجال العدو.

أما عن كوستانتى، وكان قد تقهقر إلى الخلف حينما بدأت السهام تطلق صفيرها فى الهواء، فولى هارباً حينما بدأ العراك بالأسلحة القصيرة، وكانت نجاته بصعوبة.

وعلى النقيض من هذا عندما التقت السيدة الجميلة، بسيسة، بزوجها القائد المسلم، بعد أن رأت القتال عن قرب، سألها: «من هو أشجع الرجال فى نظرك؟» أجابته: «رجل السلاسل». فإنه فى زحمة القتال رأى وهو يقاتل مركب عبدالله وقد ربطها غليون عدو وأخذ يجرها معه، فكسر السلاسل وخلصها. ذلك الشجاع هو علقمة بن يزيد، وكان يحب بسيسة حباً جماً، وطلبها زوجة له، ثم تراجع عن طلبه حينما علم أن عبدالله يرغب فى ذلك؛ ثم واتت عبدالله المنية بعد معركة الأعمدة ذات السوارى بأعوام قليلة، وحصل علقمة، أخيراً على مكافأة حبه، ذلك الوفى الفياض(1).

---

(1) ابن عبد الحكم، مخطوط باريس *Ancien Fonds* ٦٥٥، ص ٢٥٥ وما يليها. ورد ذكر موضوع بسيسة لديه فقط؛ ابن الأثير مخطوط C. المجلد الثانى، ورقة ١٨٥ الوجه الثانى،وما يليها، وهو يورد المعركة بتاريخ سنة ٣١ ولكنه يذكر أن آخرين ذكروا أنها وقعت سنة ٣٤ (٦٥٤ ـ ٥٥) وهو التاريخ الصحيح طبقاً لما ورد لدى الكتاب البيزنطيين، أى تيوفانس فى *Chronographia*، المجلد الأول، ص ٥٢٨ وما يتبعها، وشيدرينوس، المجلد الأول، ص *756* . إن تقدير عدد السفن البيزنطية بألف سفينة قد ورد ذكره لدى ابن الحكم، وايزيدور دى بيخا وهو كاتب مسيحى بإسبانيا. من القرن الثامن، لدى فلوريس، *España Sacrada* ، المجلد الثامن، ص ٢٨٢ وما يتبعها، وهو يرجع المعركة إلى سنة ٦٥٢.

ولما عاد الإمبراطور الهارب إلى القسطنطينية، اشتدت قسوته حيث سيطرت عليه الشكوك؛فأمر بقتل شقيقه؛ واستمر فى اضطهاد أصحاب عقيدة المشيئتين؛ وحينما استبدل تكبره بالجبن، كما هو شأن الطغاة، أخذ يلاطف أتباع البابا مارتينو، وعمد إلى تحاشى الأماكن والشعب مما كان يذكره بذنبه كقاتل لأخيه.

ومن هنا بدأت الحكايات الخرافية تدور حول شبح كان يطارده ويقدم له كأساً مملوءة بالدم وهو يقول: «اشرب يا أخى».

وحينما ابتعد كوستانتى عن المدينة الكبرى التى لم يرجع إليها أبداً؛ كان يظهر ويعبر عن ازدرائه ومقته لها؛ ومع فرط خوفه ترك بها زوجه وأولاده، الذين عدهم الشعب الساخط رهينة. ولما كان يبحث عن المخاطر وهى بعيدة، ويهرب منها إذا قربت منه، جاء إلى إيطاليا (٦٦٣) ليحارب اللونجوبارد؛ تحرش بهم، ثم بعد ذلك، لم ينتظر الصدام معهم فى بنفنتو، وبمجرد أن رأى رجلاً من كبار رجاله ينهزم أمامهم، قام بزيارة عاجلة إلى روما، وجمع منها كل ما تبقى بالكنائس من غالٍ ونفيس، حتى البرونز الذى كان يغطى سطح البانتيون، وعبر إلى صقلية، يطارده اللونجوبارد؛ وفى سيراكوزا اختبأ هو وحاشيته داخل قصره ومعه النفائس. وفى الحقيقة، كان ينوى أن يجعل منها مقراً لسلطته؛ على غرار ما فعله جده الأكبر، هركليو، قبل أن يتخلص، بجهده البطولى، من الفرس والأڤارى، وكان على وشك أن يغير مقره إلى أفريقيا. ويبدو أن فكر كوستانتى قد أخذ الاتجاه نفسه، نظراً لقوة العرب الرهيبة، التى كانت تنبئ بإمكانيتهم فى احتلال آسيا الصغرى بأكملها، خلال أيام قلائل، فضلاً عن زحف شعوب الشمال المتواصل من جانب آخر: ولما لم يعد هناك أمل فى التمسك بالقسطنطينية فما كان يمكن اختيار مكان للقوى الحيوية بالإمبراطورية، آمن وأنسب من تلك الجزيرة الخصبة التى تحوطها موانىء مسينا وسيراكوزا وليليبيو وبالرمو، حيث إمكانية هيمنة الأساطيل على البحر المتوسط، وإمكانية الاستيلاء على إيطاليا فى سهولة ويسر.

وحـــالت الحـــروب الأهليـــة بين المســـلمين دون ذلك الخطـــر الكبير، كمـــا أحبطت الأحداث التى استجدت فى صقلية ذلك المخطط.

ولأن جشع كوستانتى عجيب فى استفزازه لرجال الكنيسة فى صقلية، حيث كراهيتهم له غاية فى العمق، والجزيرة من مريدى بابا روما، ومن أشد أعداء أصحاب مذهب المشيئة الواحدة، فقد عمل، خلال الست سنوات التى أقام خلالها بسيراكوزا، على أن يشعر الناس بحضرة شخصه الجليل! وذلك بفرضه ما لا يطاق من ضرائب على الجزيرة، وعلى الأراضى القريبة منها فى كلابريا وسردينيا وأفريقية؛ وكانت هناك ضرائب على الممتلكات، وضرائب على الصناعات، وضرائب لصالح إعداد الأسطول، ولم يكن لمثل هذا الكمّ من الضرائب مثيل عرفته الذاكرة؛ وحسبما ذكرت الأخبار فقد كان يتم الحجز حتى على الأوانى المقدسة، ويتم فصل الأزواج بعيداً عن زوجاتهم، والأهل بعيداً عن أبنائهم، فيما كان يقتضيه سجن المواطنين المدينين للضرائب، أو إبعاد للأجراء الذين يعملون بأراضٍ خاصة بالإمبراطورية تم التصرف فى أجزاء منها أو بيعها. فأرسلت شعوب أفريقية تدعو المسلمين من جديد لدرء هذه المظالم، أما أهل الجزر وكلابريا فقد أحسوا بأنهم مدفوعون نحو موت محقق وذلك حسبما نجده مكتوباً فى تذكارات الكنيسة؛ ومن المؤكد أن من كتبوا هذه الأخبار قد رددوها وأسهبوا فى التعليق عليها، على مسامع رعايا كوستانتى البؤساء.

وجاء يوم دخل فيه الطـاغية حمام دافنى، وكان أحد رجال حاشيته، ويدعى أندريا، وهو ابن ترويلو، يقوم على خدمته ودهن بدنه بالصابون، فصب عليه قدراً مملوءاً بالماء المغلى، ثم أجهز عليه حين رمى القدر على رأسه (١٥ يوليو ٦٦٨). ولما وجدوه ميتاً بالحمام، لم يبحث أحد عن السبب، وما كان لدى الجند من اهتمام سوى أن يهتفوا لشاب نبيل، أرمنى المولد، إمبراطورا لهم وكان يدعى ميزيز،

وصفقت(1) له الجزيرة كلها. وشارك رجال الكنيسة، أو كان ابتهاجهم عظيماً لمقتل الإمبراطور، حتى إنه بعدمضى نصف قرن من الزمان، وعندما قام ليونى إيزاوريكو بتهديد جريجوريو الثانى بأن يلقى مصير البابا مارتينو نفسه، أفحمه جريجريو بأن يتذكر هو كوستانتى ورجل حاشيته الذى أقنعه أساقفة صقلية بهرطقة الإمبراطور، فقام على التو بقتله(2).

إلى جانب هذه الرواية التاريخية الخاصة بأحد البابوات، يجدر عرض رواية العرب المعاصرين للأحداث، بغية إظهار مدى التباين بين روما والشرق فى ذكر ذلك الحدث الشهير: هذاإذا ما كان من الجائز قتل ملك طاغية. فعند ذكر وقائع معركة الأعمدة وترك الإسكندرية مرة أخرى فى أيدى المسلمين، يذكر التقليد أن الرومان أرغموا كوستانتى على الخروج بالأسطول لملاقاة العدو: «لكن الله أرسل عليهم عاصفة أغرقت سفنهم جميعاً، فيما عدا سفينة كوستانتى، التى نجت من الغرق، وجرفتها الرياح إلى صقلية. وعندما طلب منه قومه أخباراً وحكى لهم ما حدث، رد عليه أهل صقلية

---

(1) تيوفانس *Chronographia*، ص ٥٢٥ وما يليها، وهـــو يذكر بشـــكل إيجـابى فى ص ٥٣٢، أن كوستانتى كان قد قرر نقل مقر الإمبراطورية إلى سيراكوزا؛ أناستازيوس بيبليوتيكاريو، لدى موراتورى، *Rerum Italicarum Scriptores*، المجلد الثالث، ص ١٤١؛ يوهانس دياكونوس، *Chronicon*، لدى موراتورى، *Rerum Italicarum Scriptores* المجلد الأول، الباب الثانى ص ٣٠٥، وباولوس دياكونوس، الكتاب الخامس، الفصل الخامس.

(2) هذه هى الجملة ذات المغزى التى قالها البابا، ويقرأ فيها.. πληροφορηθείς، مؤكد، حدث موثوق تماماً فى صحته. لاب *Sacrosancta Concilia*، المجلد السادس، ص ١٩، ٢٠، ولدى چوڤانى *Codex Siciliæ Diplomaticus*، رقم ٢٧٢ . والرسالة وردت فى ٧٢٦، أو ٧٣٠ . لذا يحق تماماً لچيبون أن يقول إن كوستانتى راح ضحية «خيانة أهل داره، ربما كانت خيانة أسقفية». الفصل ٤٨ . إن حماس الأساقفة الصقليين ضد أصحاب عقيدة المشيئة الواحدة، يمكن ملاحظته فى ضخامة عدد الأساقفة الذين اشتركوا فى مجمع لاتيرانو سنة ٦٤٩، وأيضاً من خلال رسالة كتبها سان ماسيمو وردت لدى دى چوڤانى، *Codex Siciliæ Diplomaticus*، رقم ٢٥٨ .

بقولهم «لقد جلبت العار للمسيحية، وسقت شجعانها للموت. وإن هاجمنا العرب الآن، أين نجد من يدافع عنها؟». وأخذ كوستانتى يرد على سؤالهم: «حينما أبحرنا، كان الأسطول قوياً: ماذا تريدون وقد هاجمتنا العواصف؟». ولكن الصقليين ما أن جعلوا ماء الحمام يسخن حتى ألقوه فيه بالقوة، وهو يصرخ وما من مغيث: «أيها الملاعين، لقد ابتلع البحر شجعانكم وأنتم تقتلون الآن ملككم». فردوا قائلين: «نحسبه غرق مع الآخرين». وأهلكوه: «ولكنهم أفرجوا عمن كانوا معه على السفينة».

وعند قراءة هذه الرواية، يمكن التعرف على جانب من الحقيقة، مع كل ما يغلفها من ثياب عرف بها العرب فى ذلك الزمان، علاوة على ذلك يمكن أيضاً ملاحظة ورود إشارة طفيفة عن الهجوم على صقلية. وفى هذا الصدد نلاحظ الخطأ نفسه الذى وقع فيه عدد من المؤرخين الإخباريين المسلمين، حينما قدموا موت كوستانتى أربعة عشر سنة، وحددوها بسنة واحد وثلاثين هجرية، وهى تقابل بالتقريب سنة ستمائة واثنين وخمسين، وهو تاريخ أول عملية على صقلية(1). ولم يمض من الوقت الكثير حتى عاد المسلمون يهاجمون الجزيرة، ويبدو لى أنه تصور يفتقر إلى أساس، ما افترضه المحدثون من أن ميزيز هو الذى أرسل فى طلبهم، لأن ما من أحد كان ليتخيل، فى هذه الفترة، معونة فعلية من العرب، فى جزيرة تبعد تلك المسافة الكبيرة عن ولاياتهم؛ ولم يكن هناك ما يدعو لجلب عدو بالديار، فقد كان عصب الجيوش البيزنطية يتمركز فى الجزيرة، وكانت، بذلك، آمنة تماماً من هجمات القسطنطينية. أما وقد خشى رجال البلاط، وضباط الجيش والشرطة من ألا يبقى مقر الإمبراطورية بصقلية،

(1) ابن عبد الحكم، مخطوطات باريس، *Ancien Fonds* ٦٥٥، ص ٢٥٨، *Ancien Fonds* ٧٨٥، ورقة ١٢٠ الوجه الأول؛ ابن الأثير، مخطوط C، المجلد الثانى، ورقة ١٨٦ الوجه الثانى، ٢٢٨ الوجه الثانى، حينما تكلم عن الحدث مرتين تحت سنتين مختلفتين وهما ٣١ و٣٥، لاحظ عدم اتفاق المؤرخين على التاريخ؛ ويستشهد بالطبرى، بصفته من أرجع موت كوستانتى لعام ٣٥، أنظر أيضاً ابن خلدون، مخطوطات باريس، والملحقات العربية، ٧٤٢ *quinquies*، المجلد الثانى، ص ١٨٠ الوجه الثانى. وعلى غرار ابن الأثير، يطلق ابن الحكم اسم كوستانتين على كوستانتى، ويقول أنه ابن هيراكليو.

فقد تحمسوا لقسطنطين الشاب، ابن كوستانتى. وقاموا فى سرعة ودقة يجمعون بعض فرق من القوات البرية والبحرية من رافينا وكامبانيا وسردينيا وأفريقية، كما تبعهم كثيرون من جيش صقلية وما أن حضر قسطنطين بسيراكوزا فى ربيع عام ستمائة وتسع وستين، حتى انفضوا جميعاً من حول ميزيز، وتم الاعتراف بقسطنطين إمبراطوراً شرعياً، وباتت محـــاولة الانقلاب الفاشلة حركة تمرد. وبعد مرور أشهر قليلة عاد كوستانتين إلى العاصمة القديمة(1)؛ ولذلك فربما أخلى صقلية من الجنود؛ حتى يحول دون أى رغبة فى تنصيب إمبراطور آخر؛ ولعل المسلمين الذين كانوا يراقبون مقر إمبراطورية أعدائهم الجديد، بأعين يقظة، قد اغتنموا هذه الفرصة للاستيلاء على صقلية.

جاءوا من الإسكندرية على متن مئتى سفينة، بقيادة عبدالله بن قيس، وهو من قبيلة فزارة، وكان قائداً جسوراً، كبّد مسيحيي البحر المتوسط الخسائر، خلال خمسين غارة بحرية؛ ثم قتل فى النهاية، فى موقع يسمى ماركا، وربما كان بإيطاليا(2). أغار عبدالله على سيراكوزا، وجرت مذبحة كبيرة، إلا أن المواطنين أخذوا يلجأون إلى الجبال، وإلى القلاع الحصينة بالجزيرة. وبعد أن مر شهر، جمع خلاله المسلمون أكواماً من الغنائم، وسيطروا على أراض مختلفة، أو خاضوا بمعنى أصح البلاد، هنا وهناك بخيولهم؛ عادوا إلى

(1) تيوفانس، *Chronographia*، المجلد الأول، ٥٣٨ وما يليها. أنظر أيضاً لى بو، *Histoire du Bas Empire*، الكتاب ٦١ § ١، وبه ملحوظات سان مارتان، الذى يرى ضرورة نطق اسمه ميچيچى بدلاً من ميزيزى.

(2) ابن خلدون، مخطوطات باريس، الملحقات العربية، ٧٤٢ *quinquies*، المجلد الثانى، ورقة ١٨١ الوجه الأول، ورد ذكر هذه الغارات ووفاة عبدالله. «على سواحل ماركا، بأرض الروم»؛ أى بإيطاليا أو اليونان. كما وأن المنطقة التى يطلق عليها الآن اسم لى ماركى *Le Marche* لم تكن معروفة آنذاك بهذا الاسم، كما وأن لفظ ماركا ينتمى إلى إيطاليا أكثر منه لليونان.

سفنهم. وحسبما يذكر الكتاب المسيحيون، أخذ المسلمون نفائس الكنائس والمصنوعات البرونزية التى كان كوستانتى قد سرقها من روما. ويقول المسلمون، كما رأينا آنفا، بالنص الذى كتبه البلاذرى، إنه وُجد بالغنائم كم كبير من الأصنام المصنوعة من معادن ثمينة وأحجار كريمة: وإن الخليفة معاوية أرسلها إلى أسواق الأصنام فى الهند، أملاً فى أن يقدروا قيمتها ويدفعون ثمنها. ولكن جماعة المسلمين أبت ذلك واستاءت من عظيم لهم يعيد بيع صناعات الشيطان(1).

أما عن عملية عام ٦٦٩ هذه، فقد أتى أحد البندكتيين، وقد عاش حتى خمسين عاماً بعدها، وأخذ يطعم أحداثها بأقاصيص خيالية، تصور مذبحة دموية فى الدير الذى ينتمى إليه فى مدينة مسينا، وفوق ذلك كانت تصورخراباً، فى مدن عديدة، وفى أراض كان يمتلكها

(1) پاولوس دياكونوس، الكتـــاب الخامس، الفصـــل ١٣، لدى موراتورى، *Rerum Italicarum Scriptores* المجلد الأول، الجـزء الأول ص ٤٨١؛ أناســتازيوس بيبليوتيكـــاريوس، لـدى موراتـورى *Rerum Italicarum Scriptores*، المجلد الثـــالث، ص ١٤١؛ يوهــــانس دياكـــونوس، *...Chronicon, etc*، لدى موراتورى *Rerum Italicarum Scriptores.*، المجلد الأول، الجزء الثانى، ص ٣٠٥، يورد پاولو ذكر العملية الثانية التى قام بها المسلمون بأفريقية، بعد عملية صقلية هذه، بالكتاب السادس، الفصل العاشر. وبناء على هذه المراجع المسيحية، أو على الأصح، بناء على الرواية الوحيدة التى يرددها هؤلاء المؤرخون الإخباريون وغيرهم، يتضح أن أسطول المسلمين كان آتياً من الإسكندرية، بعد رحيل كوستانتينو لوجوناتو من سيراكوزا، الذى قد يتوافق مع صيف أو خريف ٦٦٩ .

أما عن المراجع الإسلامية فقد تم ذكرها آنفاً (ص ١٦٢ هامش ١ و ٢). **البيان** هو الذى انفرد، بين هذه المراجع بتحديد تاريخ هذه الغارة، ويرى افتراض تحركها من أفريقية، بقيادة معاوية بن هديج، الذى كان يحارب فى تلك الولاية، وحدد التاريخ بعام ٤٦ (٦٦٦ - ٧)، وما يجب التردد فى تصحيحه طبقاً للمراجع المسيحية، حيث أن ذكره لتلك التماثيل، عالية القيمة، تصدق على أنه ذكر العملية نفسها. أضيف أيضاً أن العالم الحصيف، ابن الأثير، سكت تماماً عن تلك الغارات الأولى على صقلية. ففى حولياته، بالمخطوط C، المجلد الثالث، ورقة رقم ٤٢ الوجه الثانى، تحت عام ٤٩ (٨ فبراير ٦٦٩ إلى ٢٧ يناير ٦٧٠). قرأت ما يلى فقط: «فى شتاء هذا العام قامت حملة بحرية، خرج بها عقبة بن نافع مع رجال مصر».

إنه يجدر بى أن أنبه هنا إلى أن رامبولدى فى *Annali musulmani*، المجلد الثالث،

الرهبان البندكتيون فى صقلية. وتوجد هذه القصص ضمن سلسلة من حكايات يشتبه فى صحتها ومن وثائق غير أصيلة، تم بموجبها خداع الأمراء فى القرن الثانى عشر والاستيلاء على مساحات مترامية الأطراف، من الأراضى، بعد الإيهام بأنه سبق وأن انتزعت من أولئك النساك الأتقياء. وما كان الحذق ينقص تلك الأقلام التى أوردت ذكر المزارع، فى سياق الحديث عن بطولات الشهداء، فى حين برعت كذلك فى كتابة الوثائق، المفترض وجودها؛ وبين هذه وتلك، تم نسب ملكية نصف صقلية للبندكتيين: أراض فى كل مكان كانوا يعرفون اسمها فى التاريخ القديم؛ ومدن بكاملها تحت سيطرتهم منذ القرن السادس، وربما ظلت كذلك حتى الثانى عشر. ولكن جهلهم كان يشى بهم، مؤلفو القصص هؤلاء؛ ويبدو لى أنهم كانوا كثرة، ومنهم رئيس دير مونت كاسينو آنذاك، وقد ذهبوا بعيداً بخيال أقاصيصهم: وأرجعوا بداية هجمات المسلمين إلى قرن من الزمان، سابق لمحمد - عليه السلام - ومقتل سان بلاتشيدو، ومعه ثلاثين راهبا وراهبة، كانوا يعيشون فى ديره فى مسينا، جعلوا منه حدثاً وقع سنة ٥٤١، على يد أمير هاجرى، طاب لهم أن يطلقوا عليه اسم ماموكا، الذى كان مرسلاً مع الأسطول الأسبانى من قبل عبدالله، رئيس جماعة من الساراتشين، فى تلك الأنحاء، وهو من العتاه وشديدى الاجتهـاد فى

تحت عام ٦٦٨، يذكر العملية التى قام بها عبدالله بن قيس، استناداً إلى النويرى، ثم أضاف من عنده أن المسلمين نزلوا عند رأس باكينو. ثم تحت عام ٦٧٣، وكيفما اتفق، ودون سند من مرجع، ذكر نهب ريف سيراكوزا «على يد إحدى فرق الأسطول الكبير الذى كان مع محمد بن عبدالله»، التى قال عنها فى السنة السابقة إنها خرجت «من سوريا ومصر» بحثاً عن غنائم فى بحر إيجة. أعتقد أن رامبولدى قد قرأ هذا الحدث فى مؤلف من مؤلفات المحدثين، ولعلها، فيما أرى، إيرانية، فهو لا يستقى معلوماته فى العادة إلا من هذه المؤلفات أو من كتب طبعت فى أوربا، وأغلب الظن أنه كان يعنى غارة سنة ٦٦٩نفسها، التى أخر تاريخ حدوثها، أربع سنوات بخطأ فى الترتيب الزمنى. ثم على نهج رامبو لدى، سار مارتورانا فى *...Notizie storiche*، المجلد الأول،§ ص ٢٩، حيث استشهد به، وونريش *Commentarii etc*، الكتاب الأول، الفصل الثانى، §٤٢، دون أن يذكر أياً منهما؛ أسوأ من هذا، أن جمع بين هذه العملية وأخرى نفذت بعدها بنصف قرن من الزمان، وألقى بكلتيهما على كاهل النويرى، الذى تحدث عن العملية الثانية فقط.

نشر عبادة مولوك. ذلك مما كان يمكن أن يُرَوِّج فى القرن الثانى عشر؛ ومع ذلك فالاقصوصة لم تثبت أقدامها، ولم تأت بثمر. أما نحو نهاية القرن السادس عشر وبالجهد الذى بذله اليسوعيون، فقد تم التنقيب فى هذه الذكريات، ودار البحث عنها فى مسينا، وكما هو منتظر، تم العثور على مقابر الشهداء وعظامهم، وحتى على الرصاص الذى صبه البرابرة غير المسيحيين، فى حلوقهم. وفى مرحلة علا فيها شأن الكتابات الأدبية فى بلادنا، قام العلامة النابه سيستو الخامس بالتوقيع على كتاب موجز، يوم الثالث عشر من نوفمبر عام ألف وخمسمائة وثمانية وثمانين، أوصى فيه بالاحتفال بيوم ذلك الاستشهاد، بجميع أنحاء العالم الكاثوليكى، وفى حركة غير موفقة، كرر اسمى ذلكما العاتيين، عبدالله وماموكا، الجبارين، اللذين اجتاحا صقلية زمن سان بندكتو وچوستينيانو. كما أنه خلال القرن السادس عشر ذاته وبعده، حينما شعر الكتاب العلماء من رجال الكنيسة بالحرج والضجر من تلك القفزة الكبيرة فى الزمن، آثروا قبول واقعة الاستشهاد، مع اعتبار مصدرها غير أصيل، وهى مدونات جورديانو: الراهب الوحيد الذى نجا، حسـبما قيل، من قسـوة ماموكا! ولكن الأقصـوصة الزائفة وإن راجت، فإن أحداً لم يرحم تلك الكتابات. قال عنها بارونيو إنها زائفـة، لا أكثر ولا أقـل؛ وتبعه پاچى، بقسـوة مماثلة فى الحكم؛ أما عن مابيون، وهـو بندكتى، فقد شـعر تجـاهها بالأسى وعدّل الحكم عليها؛ كمـا رفضها الصـقلى، دى چوڤانى، بما تستحق من إهمال. ومن بين هذه الكتابات هناك رسالة زعموا أن البابا ڤيتاليانو قد كتبها للتعويض، عن التلف الذى سببه المسلمون فى ممتلكات البندكتيين الزراعية فى صقلية، خلال هجوم سنة ٦٦٩ . ولما بدا من المناسب ذكر دم الشهداء فى الكتابات، كلما تعلق الأمر بممتلكات الدير، فقد أضيف لأقصوصة ماموكا ما يلحق حدث الاستشهاد بعملية النهب المزعومة سنة ٦٦٩ . ثم أثمر الاجتهاد ومعـه الجهل والغفلة عن إضافة أخرى، جعلت من البندكتيين أناساً أضيروا من مذابح وخسائر عملية

إبراهيم بن أحمد المعروفة سنة ٩٠٢ . فبعد أن ذكر الكاتب ممتلكات للدير شاسـعة، نُهبت، وما لا حصـر له من رهبـان قُتلوا فى صقلية، قال فى ختام كلامه. «ومن أراد أن يعرف عن عذابات كل هؤلاء الشهداء، فليسعى للبحث عنها فى مكتبات القسطنطينية»(1)!

(1) يوجد مؤلفان عن قصة سان بلا تشيدو، وينتمي كلاهما للقرن الثانى عشر، وتمت كتابتهما تحت رعاية رئيس دير مونت كاسينو. كتب القس ستيفانو أنيتشييزى أحدهما، وزعم أنه قام بترجمة نص يونانى، لا يمكن العثور عليه، كما هو مألوف، يقال إن شيخاً، يناهز المائة، أحضره معه من القسطنطينية، حينما نزل سالرنو سنة ١١١٥، واستبعده الرهبان بادئ الأمر، أو ربما أوحى موقفهم بذلك. أما المؤلف الثانى فهو لبيترو دياكونو، وهو راهب كاسينى، وكان يقوم، كما يعلم الجميع، بمواصلة تدوين الأخبار التى كان يكتبها ليونى دوسيتا، مؤلف سير الكاسينيين اللامعين، وكان عالماً، وكان المؤلف الرئيس، أو الأداة الأساسية للاختلاق الذى نتحدث عنه الآن. لقد قال إنه بناء على أمر كبير الرهبان، أخذ فى تهذيب وتنقيح الرواية، وقد أضاف، فى الواقع، عليها حدثى سنة ٦٦٩ وسنة ٩٠٢. والمؤلفان موجودان لدى جايتانى *Vitœ Sanctorum Siculorum*، المجلد الأول، ص ١٧٢ إلى ص ١٨٤، مع الـ *Animadversiones*، من ص ١٤٥ إلى ص ١٥٧، حيث يرد فى ص ١٥٧ مضـمون موجز سيستو الخـامس. وكاتب الموجـز يكاد يكشف السر حينمـا رأى العثـور على رفـات سـان بلاتشـيدو ورفاقـه، نعمـة من نعم الله، *quœ his Calamitosis et truculentis temporibus christiano populo in dies largitur.* وحاول جايتانى وآخرون، سد الثغرات الموجودة بالأحاديث عن سان بلاتشيدو وماموكا، فقالوا إن القراصنة الذين نزلوا فى مسينا، ربما كانوا من الڤندل أو القوط أو الأڤارو أو غيرهم. ولكن تبقى ضرورة إيجاد تفسير كيف أن أمير أولئك البرابرة، چرمان كانوا أم فينيين، يمكن أن يكون اسمه عبدالله، بلغة عربية سليمة. إن الوثائق المفترض وجودها، وردت لدى دى چوڤانى، *Codex Sicilœ Dplomaticus*، ص ٣٧٤، وما يتبعها، تحت أرقام ١١ إلى ٢٠ و٢٢ و٢٣ و٢٦ و٢٧ من الوثائق الواردة بالحاشية على أنها مشكوك فيها أو غير أصيلة. ويرد حكم دى چوڤانى على هذه الوثائق المذكورة فى الهوامش، وبصفحة ٣٧٨، بشكل واضح؛ أما عن أحكام بارونيو وأحكام باچى، فهى واردة فـى *Annales Ecclsiastici* فى السـنة الأولـى، ٤٥١، § ٢٧، ٢٨، ٢٩، و§ ٨ من *Critica*، سـنة ٦٦٩، § ٤، أما حـكم مابيون فهو وارد فى *Annales Ordinis Sancti Benedicti* الكتاب الخامس عشر، § ٧٣ .

الفصل الخامس

بعد هجمتى سنة ٦٥٢، وسنة ٦٦٩ اللتين سبق سرد أحداثهما، بدأت صقلية تشعر بثقل المسلمين، ليس مسلمو الشرق ولكن مسلمو أفريقيا، حيث ازدادت قوة الجنس العربى بجنس آخر أجنبى قوى. وباتحاده به، أصبحت جميع أنحاء أوربا تخشى بأسه. إلا أنه يجدر بنا أن نتحدث، بعض الشئ، عن هذه الولاية الإسلامية الجديدة. فإن المسافة التى تمتد فى تعرج من حدود مصر حتى مضيق جبل طارق، بين البحر وسلسلة الأطلنطى أو الصحارى، كانت تخضع للمسمى البيزنطى أو الرومانى، حسبما كانوا يريدون تسميته. وقد أخذ القدماء فى تحديد هذه المنطقة تحت أسماء مختلفة، بداية من الموريتانتين فى أقصى الغرب، ثم نوميديا، وأفريقية، التى كانت تشمل دولة تونس الحالية والجزء الغربى من دولة طرابلس، حتى خليج سيرت الكبرى، وهكذا تباعا، حتى تشيرينايكا، ومارموريكا، والإقليم الليبى، المتاخم لمصر. وهى بلاد متعددة الملامح؛ فمنها جانب يعانى القحط والجفاف فى شدة تماثل أقسى مناطق الجزيرة العربية، وجانب آخرتملؤه المزروعات بهجة، ويلطفه الجو، وتبعث يد الانسان فيه الانتعاش. وقد جلب إليها القرطاجينيون أولاً ثم الرومان من بعدهم، فنون الصناعة، فكانت إبداعاتها تفوق خسائر الحروب والهجمات البربرية، وحتى بعد غزو الوندال، تبقت مدن مهمة ومن أعظمها مدينة قرطاجنة، التى عادت ترتفع من بين أطلالها؛ وكانت تزدهر فى جنباتها ألوان الصناعة والتجارة المربحة.

وقد تعاقب على أفريقيا الشمالية أجناس من البشر، شديدة الاختلاف فى أصولها وأعدادها. وأحدثها كان يتمثل فى حفنة من قوم جرمان أطلق عليهم بعض الكتاب العرب اسم فرنجة، وأطلق عليهم

ليون الأفريقى اسم قوط: وهم بلا شك بقية من واندال ظلوا بالمكان بعد عملية بليزاريو(1). ومن قبلهم أتى من فاقهم فى العدد وفى طول الإقامة، وهى الشعوب البلاسجيكية، أى شعوب إيطاليا واليونان، وقد قادهم الحكم الرومانى إلى هناك: وهم من يطلق عليهم الكتاب العرب، بحسب طريقتهم، اسم الروم. وثالث هذه الشعوب، أجانب آخرون، رمى بهم البحر على برها: وربما كان منهم من انحدر من أصل فينيقى، وهم خليط من أجناس شبيهة بما يطلق عليها اليوم بالجزائر، اسم «مورى» *Mori* أو «موريسيك» *Moreschi*، حين تعذر تسميتهم باسم آخر سوى ذلك الاسم القديم، غير محدد المعنى؛ وربما كان ذلك هو السبب نفسه الذى دفع بالعرب لتسميتهم بالأفارق أو أفارقة، أى أفريقيون وقد تنبهوا إلى أنهم ليسوا چرمان ولا بلاسجيك ولا بربر(2).

أما عن البربر سكان البلاد الأصليين، حسبما يجب تسميتهم، فحيث أنه ليس هناك ذكر لسكان آخرين من قبلهم، فقد كانت لهم الأغلبية الكبيرة على جميع الأجناس الدخيلة، نظراً لعددهم وامتدادهم فى أراضى المنطقة. كانوا يمتدون من الأطلنطى حتى الصحارى غير المطروقة التى تنتهى ناحية الشرق بوادى النيل؛ كما كانوا ينتشرون من ساحل البحر المتوسط إلى الصحارى الأخرى التى تمتد حتى مدار السرطان والســودان، أو إذا أرادنا، إلى بلاد الزنج، بحيث أن قبائل

---

(1) أنظر هنا ص ١٩٦ هامش ١ .

(2) ابن خلدون، مخطوطات باريس، الملحقات العربية، ٧٤٢ *quinquies*، المجلد الثانى، ورقة ١٨٠ الوجه الأول، عند الحديث عن هجرة قبائل البربر، الحقيقية أو المفترضة، إلى افريقيا، حيث كان يحكم الرومان، وكيف أصبح الأفارقة دافعى جزية للبربر، أضاف الكاتب «كان الأفارقة بمثابة خدام وفريسة للرومان». ومن هنا يفهم بالضبط أى شعوب عرفها العرب باسم أفارق أو أفارقة. وأما أنهم حينما تغيرت سادتهم أصبحوا موالين للبربر، فقد كان حقيقة فى مواقـــع عدة، أثناء صراع البربر ضـد الرومـان والبيزنطيين. انظر أيضـاً ابن عبد الحكم لدى دى ســلان، *Histoire des Berbères par Ibn-Khaldun*، المجلد الأول ص ٣٠١، بالحاشية؛ والبكرى، *Notices et extraits des MSS. etc.*، المجلد ١٢، ص ٥١١؛ **البيان**، ص ٢٣ .

البـــربر التى تم اخضــــاعها بشـــكل أو بآخـــر، كانت تتمكن من التسلل من أى مكان إلى داخل الأراضى الرومانية بينما كانت القبائل، أو بالأصح، العشائر المستقلة تضغط عليها من ناحية الجنوب والغرب. إن عشائر البربر القوية الشامخة، المنيعة على الحضارة على مر الزمان، جاءت من الشرق، حسبما يكشف عنه وجهها من طابع قوقازى، وطبقاً لما تحمله تقاليدها، التى حفظها لنا الكتاب الرومان والعرب. واقع الأمر أن الكتب البونيقية التى رجع إليها سالوستيو، تقول عنهم، إنهم شعوب ميديا وأرمينيا، جاءوا إلى الغرب مع هرقل؛ واعتقد الكاتب الأرمنى مويزى دى كورينى ومعه بروكوبيو، أنهم كنعانيون، طردوا من أرضهم، على يد يشوع؛ أما عن الكتاب العرب، فهناك من عدهم حميريين(1)، أو إذا أردنا، من عشائر جنوب الجزيرة العربية، وهناك من ربط نسبهم أيضاً بكنعان: وكلها روايات تتخذ الطابع الميثولوچى، كما هو واضح، ويمكن للعلماء الفصل فيها، حينما تتاح إمكانية دراسة اللغة البربرية، بشكل أدق، وحين يمكن التعرف على اللغات القديمة بآسيا الدنيا، وما كانت عليه لغة الآريين والحميريين. ومع كل يبدو مؤكداً أن العديد من قبائل البربر، من أصل سامى، بما تنم عليه عاداتهم ولغتهم أيضاً؛ وعليه فإذا كان الأمر كذلك بالنسبة لجميع قبائل البربر، فلعلهم عبروا إلى الغرب فى زمن غير ضارب فى القدم، إذ احتفظت لهجاتهم بالكثير من الأصول والصيغ الصرفية السامية. ويبدو أن العرب كانوا أول من استخدم تسمية البربر هذه بشكل شامل لأنه حتى فتوحاتهم كان يطلق عليهم بشكل عام اسم، **ماورى باربارى** *Mauri Barbari*، حسبما نجده مكتوباً لدى بروكوبيو، ثم أضاف الكتاب الأوربيون فى

---

(1) هناك حكاية تثبت هذا الرأى، وردت فى **رياض النفوس**، المخطوط، ورقة ٢ الوجه الأول، تحكى عن أحدهم ويدعى عبدالله بن زياد بن أنعم، يقول إنه رأى فى قرطاجنة قبراً كتب عليه بحروف حميرية ما يلى: «أنا كنت عبدالله بن عراشى، بعثنى رسول الله صالح، لأدعو شعب هذه المدينة للدين الحقيقى: لكى أخرجهم إلى النور، فقتلونى ظلماً، وعلى الله ثارى».

الأزمنة القريبة، لهذا الاسم، أسماء أخرى مثل أفريقيين، وفى خطأ بَيّن، أطلقوا عليهم اسم بونيين ووصل بعضهم لتعريفهم بالقرطاچنيين، وعلاوة على ذلك، وزيادة فى الخلط يرد دائماً فى كتاباتهم اسم الساراتشين، غير المحدد فى معناه. ومن بين أسماء الأجناس هذه غير الصحيحة، التى أطلقوها على الشعوب الأولى بأفريقيا، نجد اسم مورى، *Mori* وهو أقدم تلك الأسماء، وأصبح مألوفاً أيضاً لدينا، فى مجال القصص والشعر، والطرز المعمارية، وحتى التاريخ ذاته، ولكنى من بين هذه التسميات، أرجح اسم البربر، لأنه أكثر الأســماء تحديداً، كما وأن العلماء قد أصابوا حينما تمسكوا به. ومن علماء أوربا من رأى أن العرب قد استخدموا تلك التسمية، نقلاً عن اللاتينية *Barbari*. وعلى عكس ذلك يشتق العرب هذا الاسم من لفظ فى لغتهم وهو بربر ويعنى *borbottare* أي غمغم، ويعنون به أيضاً من تكلم بلهجة غليظة وغريبة. وأرى أن كلا الجانبين على حق، لأنه كان من الأيسر على العرب، فاتحى أفريقيا الشمالية، أن يستخدموا الاســـم الذى وجدوه مســـتخدماً بين الشـــعوب المتحضرة بالبلاد، كمـــا وأنه كان ذا معنى فى لغتهم؛ فأتى المعنى مناســـباً للمسمى. وأكثر من ذلك، فإن المعنى الأصـــلى لهذا اللفظ فى اللغة اليونانية، وهى اللغة التى نشـــرته فى كل اللغـــات الأوربية الأخـــرى، مطابق تماماً لمفهوم العربية للفظ بربر. وكمـــا لاحظ چيبون، فإن *Barbaro* ؛ لم يقصد به فى الإليـــاذة، إلا التحدث بغلظة وفظاظة، كما وأن اللفظ لم يســـتخدم قبل أيام هيرودوت، تسميةً يقصد بها الشعوب غير النـــاطقة بالإغريقية؛ لذلك تغير المعنى، كمـــا هـــو معروف، حتى وصـــل إلى ما وصـــل إليه فى اللغـــات الحديثة. وذات الأصـــل *Borbottare*، الذى لجـــأت إليه الآن وأنا أترجـــم اللفظ العـــربى، يتمـــاثل، إلى حد كبير، فى وقعه الصـــوتى، مـــع اللفظ العـــربى، ويؤدى تمـــاماً إلى معنـــاه، حتى إنه يمكن أن يتصـــادف ويرجـــع إلى ذات

الأصل(1).

ولما كان التوزيع العرقى بأفريقيا الشمالية على هذا النحو، فما من ضرورة لإضافة أن الحكم البيزنطى كان يرتكز على الأجناس الجديدة، الموجودة بكثافة فى الأطراف الشرقية أكثر منها فى الغربية، وكانت تعرف العمل الدؤوب، وكانت مسالمة ومسيحية، بل شديدة التمسك بإيمانها، حتى أن الكنيسة الأفريقية استطاعت، فى زمانها، أن تطلق تلك الصيحة العالية، التى يعرفها الجميع. وعلى النقيض منهم، كان البربر، فهم من صدوا بقوتهم وشجاعتهم، سيطرة قرطاجنة، ثم الرومان بعد ذلك، وما كانوا ليتركوا السيطرة البيزنطية، تنعم بالهدوء. إلا أنهم ما كانوا بالكفاية حتى يهزموها؛ فقد كانوا منقسمين، يتناصبون العداء، دون مبرر، كما كانوا مختلفين أيضاً فى دياناتهم، فمنهم من يعبد النجوم، ومنهم من يعبد صنماً معيناً، ومن يعبد آخر؛ وكان فى وسطهم بعض قبائل يهودية، وأخرى مسيحية اسماً. وكانت

(1) أستند على شهادة الكتاب القدامى والعرب فى البحث عن أصل البربر واسمهم، كما أرجع كذلك إلى آراء المحدثين فى الكتب الآتية: إبن أبى دينار (الذى يسميه الفرنسيون القيروانى) *Histoire de l'Afrique* ، ص ٢٢ وص ٢٨، مع تعليقات بلليتييه القيمة؛ وليون الأفريقى، لدى راموزيو، *Navigatione et Viaggi*، ص ٢؛ ودى جينى، فى مجموعة *Notices et extraits des MSS.*، المجلد الثانى، ص ١٥٢، وبوكوك *Specimen historiæ Arabum*، ص 56، وچيبون *Decline and fall* الفصل ٥١، هامش ١٦٢؛ ورينو، *Invasions des Sarrazins en France*، ص٢، ص٣، ص٢٤٣؛ وكاستيليون *Mèmoire géographigue et numismatique sur l'Afrikia* ص ٨٣، ص ٩٤ وما يليها؛ ودى سلان، *Ibn-Khallikan's Biographical Dictionary*، المجلد الأول، ص ٣٥، وابن خلدون، خلاصات فى *Journal Asiatique*، السلسلة الثانية، المجلد الثانى (١٨٢٨)، ص ١١٧ وما يليها، والمؤلف نفسه فى رواية فتح أفريقيا الأول، مخطوطات باريس والملحقات العربية، ٧٤٢ *quinquies*، المجلد الثانى، ورقة ١٨٠ الوجه الأول؛ وكوسان، *Essais sur l'histoire des Arabes*، المجلد الأول ص ٢١، ٦٧، ٦٨؛ وسان مارتان، حواشى على لى بو، *Histoire du Bas Empire*، الكتاب الحادى عشر، § ٢٩ . ونذكر، بالإضافة إلى هؤلاء، بربارا تشينى سردينيا فى زمن سان جريجوريو، الذين ورد ذكرهم فى الفصل الأول ص١٠٢، هامش ١.

السلطة البيزنطية تقاوم مثل هؤلاء الأعداء، اعتماداً على نظام إدارتها لهذه الولاية الغنية، وجيشها المنظم، وحصونها الكثيرة، وأسطولها البحرى. وكانت هذه القوى بالقدر الذى مكن هيراكليو، حاكم أفريقيا، من شغل عرش القسطنطينية، فى أوائل القرن السابع. كما مكنت كذلك الحاكم جريجوريو، الذى أنابه عنه فى حكم الولاية، أن يتمرد عليه (سنة ٦٤٦) حينما رأى الإمبراطورية تنوء تحت عصف هجوم العرب.

وما أن وطأت أقدام العرب مصر حتى انطلقوا فى أفريقيا، حيث احتل عمرو بن العاص برقة وطرابلس وزواغا (٦٤١ ـ ٦٤٣)،التى فر أهلها إلى صقلية(1).

وبعد أن حصل عمرو على خراج كبير من هذه البلاد، شغف بأن يصل إلى ما هو أبعد منها؛ وحينئذ أمره الخليفة بالانسحاب؛ خشية الإفراط فى توسيع الإمبراطورية، وتوجسا مما يمكن أن يراق من دماء ثمناً لأفريقيا. وعلى غراره كان كثيرون من صحابة النبى، حينما لم يوافقوا بعد ذلك ببضع سنوات، على الاقتراح الذى قدمه قائد مصر الجديد للخليفة عثمان، وكان أخاه فى الرضاعة؛ ولكن لما كان الأمر يلح على تفكيره عاد يعرض الموضوع للشورى، وما أن وافق على طلبه، حتى عجل بالإعداد له بنفسه، ودعمه من ماله الخاص؛ وأرسل من **المدينة** نخبة من المقاتلين من قبائل المضريين واليمن، فوصل عددهم بعد التعزيزات التى أخذوها من مصر، عشرين ألفاً، بين فارس وراجل. وبقيادة عبدالله بن سعد، الذى كسب معركة الأعمدة، بعد ذلك ببضع سنوات، سار الجند، فى غير ابتعاد عن الساحل، حتى خليج الحمامات، فالتقوا بجيش جريجوريو، داخل

(1) يمكن استخلاص احتلال زواغا، ولعلها كانت سبراتا القديمة، من التيجانى، *Journal Asiatique*، فبراير ـ مارس ١٨٥٣، ص ١٢٥، وبه تعليق المترجم العلامة ألفونس روسو.

البر، فى المسافة بين سوفتولا وقرطاجنة (٦٤٧). من المؤكد أنه لم يكن هناك ١٢٠ ألف رجل، يحاربون بقيادة جريجوريو، كما كتب بعض المؤرخين الإخباريين العرب، ولا أنه وعد بيد ابنته، ومعها مائة ألف قطعة ذهب، لمن يقتل عبدالله بن سعد، ولا أن عبدالله بن الزبير ذهب بصحبة ثلاثين فارساً فقط، وسط صفوف البيزنطيين، ليقتله ويأخذ الابنة، التى كانت تحارب على ظهر جوادها، تحت مظلة من ريش الطاووس؛ كما لا يبدو محتملاً أن كانت الغنائم بذلك القدر الهائل، حتى إنه بعد أن استقطع خمسها، كان نصيب كل فارس ثلاثة آلاف دينار، وكل راجل ألفاً. إن مثل هذه القصص، التى لم تكن معروفة لدى الكتاب العرب القدامى، إنما هى نتاج طبيعى لتلك الأزمنة المتأخرة، وتقبلها المؤرخون الأوربيون من باب الحاجة، وما لبث أن استطاع أحد المستشرقين اللامعين تفنيدها(1).

ولكنى أحب أن أعرض هنا، بدلاً منها، تفاصيل، لم تنشر هى الأخرى فيما قبل، وهى أصيلة، حسبما أعتقد، وقد استخلصت من حديث كانت العرب تحفظه، ضمن نماذج الخطابة لديهم. فقد سارع عبدالله بن الزبير، وكان بمثابة **اوليسس** تلك العملية، فى رحلة عاجلة إلى المدينة وأخذ يحكى الانتصار، على جماعة المسلمين، حين أذن له الخليفة بذلك: قال إنه بعد أن خير الأفريقيين بين الإسلام، أو الجزية، وبعد أن رفضوا كلا الاختيارين، تمهل المسلمون أسبوعين، وهم فى مواجهة جيش العدو: ثم حثهم القائد على القتال، فى سبيل الله، وقادهم فى المعركة؛ وكانت معركة ضارية فى يومها الأول،

(1) البارون ماك ـ جوكان دى سلان *Journal Asiatique*. السلسلة رقم ٤، المجلد الرابع (١٨٤٤)، ص ٣٢٩ وما يليها. ويذكر المراجع التى استقى منها الروايات المختلفة التى أوردها.

أنظر أيضاً ابن الأثير، مخطوط C، المجلد الثانى، ورقة ١٧٠ الوجه الأول، ١٧٢ الوجه الثانى؛ **البيان**، ص ٣ وما يليها، وبناء على ما ساقه من حديث أرى أن م. دى سلان قد أخطأ فى اتهامه النويرى وحده، كما أنه غالى فى إجحافه لفضل عبدالله بن الزبير.

وأريقت فيها دماء كثيرة من كلا الطرفين، ودون مكاسب لأحد. ثم واصل عبدالله قائلاً: «وحل الليل، بينما المسلمون يقرأون القرآن، الذى كان يسمع بينهم همساً، وكأنه طنين النحل، والمشركون يشربون ويلهون. وفى الغد، وقد استؤنفت المعركة، ثبتنا الله ووفقنا بالنصر، نحو غروب الشمس، وكانت الغنيمة ضخمة، والجزية المتفق عليها كبيرة، حتى بلغ خمسها فقط، خمسمائة ألف عملة، وقد نحصل على مثلين لها آخرين؛ وقد تركت المسلمين سعداء تشبعهم الغنائم وجئت لأبشر أمير المؤمنين(1). إن العهد الذى نُوه عنه كان قد طلبه الطرف المغلوب حينما رأى الخيالة يجتازون البلاد، ويضربون ويحطمون، ويستولون على كل شئ. وما أن جمع جيش المسلمين ما استطاع من مال، انسحب بعد خمسة عشر شهراً مضت على عبوره حدود مصر(2). ويذكر كاتب مدقق أن سكان شبه جزيرة شريق،

(1) ابن عبد ربه، مخطوط باريس، المجلد الثانى، ورقة ١٦١ الوجه الأول، وما يليها، يورد مضمون هذه الخطبة، كما يسمونها العرب، ضمن مجموعة مؤلفات مماثلة، ولا أرى من الأسباب ما يضع أصالتها محل الشك. وقد أضفت لفظ عملة، غير المحدد، للرقم الذى كتبه المؤلف، دون أن يحدد إذا ما كان درهماً أم ديناراً. ففى الحالة الأولى، سوف تبلغ الجزية المفروضة من قبل المنتصرين مليون ونصف مليون فرنك، أو ليره إيطالية لا أكثر، باعتبار أن الدرهم يساوى 0.60، إذ أن إجمالى المبلغ المقسم هو 2.500.000 . أما إذا كانت العملة بالدينار، وهو يعادل ١٤،٥٠ ليره إيطالية أو فرنك، بحسب قيمة الدينار المحفوظة باستناده على الذهب الخالص، فسوف يرتفع المبلغ إلى 36 مليون تقريباً. كما وأننى إفترضت العبارة التى ترجمتها بـ«مثيلين»، حين لم توضحها حالة المخطوط غير الجيدة. ان مبلغ المال المذكور فى خطبة عبدالله بن الزبير، سواء كان مقدراً بالدرهم أم حتى بالدينار، إذا ما قورن بالأرقام المذكورة فى الرواية المتداولة، فسوف تخلق موضوعات جديدة، قد تهدم ما يقوله المؤرخون الإخباريون المحدثون. كما وأنه يرد جزء من الخطبة المذكورة فى **رياض النفوس**، مخطوط، الورقة ٣ الوجه الثانى؛ ولكنه لا يتعدى الجملة القائلة «حتى غروب الشمس».

(2) **النويرى**، لدى دى سلان *Histoire des Berbères par Ibn-Khaldun*، المجلد الأول ص ٣٢٣، الحاشية ويجب اعتبار أن الخمسة عشر شهراً تبدأ فى سنة ٢٦ وتنتهى فى سنة ٢٧ هـ، ولكنها تشمل سنة ٦٤٧ م بكاملها. ويحدد ابن الأثير بداية العملية فى سنة ٢٦ هـ.

المطلة على صقلية، قد لجأوا إلى مدينتهم إقليبية، ثم نزحوا، بعد ذلك بقليل إلى جزيرة بنتلاريا القريبة منهم، وهناك شيدوا حصوناً، ومكثوا هناك زمناً طويلاً، إلى أن ذهب أسطول المسلمين ليخرجهم من أعشاشهم(1). ولكنى أرى أن الهروب إلى بنتلاريا قد حدث فى الغالب، بعد ذلك بعشرين عاماً، حينما تحول الهجوم إلى استيلاء وفتح. ولما كان العرب جسورين فى حكمة، وحيث لم يتزايد عددهم بالقدر الذى يضارع عدد الشعوب التى غلبوها، فقد توخوا، خلال انتصاراتهم الأولى، أسلوباً من بين اثنين. ففى البلاد التى رأوا أن يستقروا بها، كانوا يقيمون معسكراً ضخماً، كما كان يفعل الرومان، ويحتلون عدداً من المدن: ومثال ذلك الخطة التى اتبعها عمرو بن العاص، الذى تحصن بالفسطاط، بالقرب من القاهرة الحالية وجعل الإسكندرية **رباطا**، أو ساحة حدود، كما نسميها نحن؛ حيث ترك حامية، قوامها ($\frac{1}{4}$) رجاله، يتناوبون بها، كل ستة أشهر، مع ربع آخر من الرجال يجوبون الساحل، بينما يظل الربعان الباقيان مع القائد(2). أما المناطق شديدة البعد فكانوا، على العكس، يشنون عليها الغارات التى ينطلقون إليها من ساحات الحدود، ثم يعودون بالغنائم والإتاوات كما سبق وذكرنا فى الحديث عن قبرص، وصقلية وأفريقية. ومع ذلك كان يحدث أحياناً أن يجد العرب ـ فى سهولة الانتصار، وما يترتب عليه من فرص، ثم فى زيادة قوة قبائلهم، وقد تضخمت بالموالى الأجانب ـ ظروفاً تغرى باحتلال هذه الولايات مثل غيرها مما تحدثنا عنها.

وهذا ما حدث بالضبط بأفريقية بعد أربع حروب أو غارات

---

(1) البكرى فى مجموعة .*Notices et extraits des MSS*، المجلد الثانى عشر ص ٥٠: والتيجانى، *Journal Asiatique*، اغسطس ـ سبتمبر ١٨٥٢، ص ٨٠.

(2) ابن عبد الحكم، مخطوط *A*، ص ٢٥٨، يورد الكاتب هذا النظام بالإسكندرية.

تعاقبت منذ سنة ٦٥٤ إلي سنة ٦٧٠(1)، وقد أمر الخليفة معاوية بإحدى هذه الحروب، تلبية لطلب السكان المسيحيين بأفريقية، التى دفعها طغيان كوستانتى إلى التمرد عليه. وتعود فكرة الفتح إلى عقبة ابن نافع، الذى قاد فى شبابه أول خيالة عرب، عبروا من مصر لضرب أراضى أفريقية، ثم أدرك بعد أن أنضجته السنون، أنه بالإمكان ضمها، باستخدام عشائر البربر. وكان أن وافقه معاوية على ذلك، وأعطاه القيادة المستقلة عن حاكم مصر، وكان ذلك سنة ٥٠ هـ (٦٧٠ م)، فاستقر فى برقة ومعه عشرة آلاف من الخيالة، وأخذ يعمل على اجتذاب البربر المحيطين بالمكان. ثم بعد ذلك قرر إنشاء معسكر أقامه وسط أفريقية، أطلق عليه اسم القيروان(2). حيث كان جيش المسلمين آمناً، مع عائلاته وماله. واختار له مكاناً، داخل البر، على مسيرة يوم من ميناء سوسة، وسط أراض وارفة الشجر، صحية الهواء، وحيث كانت ترتفع قلعة رومانية صغيرة،

---

(1) ابن عبد الحكم، المرجع السابق، ص ٢٦٣، ٢٦٤ يحدد المؤلف أربع عمليات فى السنوات ٣٤ (٦٥٤. ٦٥٥) و٤٠ (٦٦٠ ـ ٦٦١) و٤٦ (٦٦٦ ـ ٦٦٧) و٥٠ (٦٧٠)، وكان عقبة بن نافع يقود السابقة للأخيرة منها. أما الأخريات فكانت بقيادة معاوية بن هديج. الشئ الذى يخلص إليه **رياض النفوس**، المخطوط، ورقة ٣ الوجه الثانى، و٤ الوجه الأول، و٩ الوجه الأول. وهذه التواريخ والأسماء تختلف لدى المؤرخين الإخباريين الآخرين، مثل ابن الأثير، المخطوط، المجلد الثالث، ص ٤٣ الوجه الثانى وما يليها؛ وابن خلدون، *Histoire de l'Afrique et de la Sicile*، ترجمة م. دى فرچى، ص ٥ وص ١٢؛ **والبيان**، ص ٨ إلى ١١؛ والنويرى، لدى دى سلان، المرجع السابق، ص ٣٢٧ وما يليها.

(2) إنه لفظ كارڤان، المعروف، ويعده علماء المعاجم العرب من أصل فارسى وأنه يعنى الجماعة من الرحّل والجيوش. وحسبما يراه أحد مشاهير فقهاء اللغة العرب الصقليين، وهو ابن القطاع، وقد ذكره ابن خلكان، *Biografical Dictionary*، المجلد الأول، ص ٣٥، فإن لفظ قيرِوان يؤدى إلى المعنى الأول بينما تدل عبارة قيُروان على الثانى. ولكن البلاذرى، وابن عبد الحكم، اللذين تحدثت عنهما آنفاً، فمن الواضح أنهما يستخدمانه للدلالة على المعسكر الدائم، وذلك ما لاحظه البارون دى سلان (*Journal Asiatique*، السلسلة الرابعة، المجلد الرابع، ص ٣٥٤ وص ٣٦١). وعليه يتضح أنه منذ القرن التاسع، وقت أن كتب أولئك المؤرخون الإخباريون، وحتى القرن الحادى عشر، الذى عاش فيه ابن القطاع، توقف استخدام هذا اللفظ للدلالة على مكان الإقامة، مع احتفاظه بمعناه الأخير فقط. كما أن هناك من القبائل من يستخدمه بهذا المعنى وأخرى لا.

يطلق عليها العرب اسم قامونيه. وكان اختيار الموقع محل جدل طال بين القائد ورؤساء الجيش، ولأسباب لا يستهان بها. كانوا يريدون الزحف نحو الساحل، حتى يكونوا أكثر استعداداً أمام الهجمات؛ بينما كان عقبة يرد عليهم بأنه من الأفضل تأمين العاصمة من هجمات البيزنطيين. كانوا يخشون من مستنقع قريب، تنبعث منه روائح رديئة صيفاً، وينشر الرطوبة شتاءً، فكان يشرح لهم كيف أنه من القوة تحمّل هذه المصاعب، لأن المستنقع كان يحمى مساحة من الأراضى تفيد فى رعى الإبل المستخدمة فى نقل الجيش، ولأن أول ما يتبادر فى ذهن البربر أو البيزنطيين، فى حالة هجوم مفاجئ(1)، هو بالتحديد قتلها على أبواب المدينة.

ولما نجح عقبة فى إقناعهم اقتاد رجاله حيث رأى إقامة القيروان، وطرد بسلطانه ساكنيها القدامى، حين صرخ فيهم «أيها الوحوش والثعابين، إننا صحابة رسول الله، ارحلوا عن هذا المكان وإلا أبدتم». وبالفعل أخذت الحيوانات تخلى المكان فى هدوء، ومعها صغارها، وأخذ البربر يدخلون فى الإسلام، كما تقول الأخبار، وما من شك فى ذلك. وفى موقف آخر من مواقفه، قطع عقبة شك العرب، وقد شرعوا يشــيدون المســجد، وأخذوا يبحثون عن اتجـــاه مكة، أى **القبلة**، كما يســـمونها، التى يجب أن يتجـــه إليها المســـلم حين يصلى. وبينمـــا أخـذ الآخـــرون يرصـــدون النجـــوم بقدر استطاعتهم، واتته فكرة، فأمسك بالراية، وأنصت لصوت علوى، وحيث أمره بأن «يتوقف»، ثبت قائم الراية بالأرض وأمر ببناء المسجد الجامع. كما شــيدوا قصر الحكومة أيضاً، ودور كبـــار القوم، ومساكن صــغارهم. وكان بناء المســجد بالطوب اللبن، أما المســاكن فكانت من البوص، حســـبما ذكر أحـد الكتـــاب القدامى(2). ولم يســـتغرقوا وقتاً

(1) رياض النفوس، مخطوط، ورقة ٢ الوجه الأول.

(2) ابن قتيبـــة، لـــدى جايانجـــوس، *The history of the Mohammedan Dynasties in Spain, by Al-Makkary*، المجلد الأول، الحاشية ص ٥٦.

طويلاً فى التفكير، فى تغيير بقايا البنايات الرومانية المتاحة بالمكان، إلى ما يناسب استخداماتهم(1). وأقاموا، إلى جانب ذلك، الفنادق للمسافرين أو المنازل كما يسمونها، وعلى مسافات مناسبة على طول طرق الولاية.

وخلال خمس سنوات أخذت تنمو فيها كل هذه النظم، واصل عقبة حمل سلاحه نحو الغرب، بين قبائل البربر؛ وعندئذ عزله الخليفة وقام بضم أفريقية ومصر من جديد، وجاء قائد جديد، يدعى أبو مهاجر، وقام بأسر عقبة وأخلى القيروان: ولعله رأى عدم جدوى إراقة دماء المسلمين فى تلك البقعة المتمردة، وأنه من الأجدر التعامل مع البربر بالحسنى. وبالفعل قام باجتذاب أحد رؤسائهم الأقوياء وكان يدعى قسيلة، حتى اعتنق الإسلام، ولما اعتلى يزيد العرش، وعادت لعقبة ثقة البلاط وحكم أفريقية (٦٨١ـ ٦٨٢)، أعاد النشاط لمدينته، وعاد يزداد حماساً لتنفيذ خططه، وبدوره، كبّل أبا مهاجر بالأغلال. ومع ذلك قام بمعجزات جديدة، وعمليات جديدة: كتفجير نبع ماء، حينما كاد الجيش يموت عطشاً، وإحباط الجيوش البيزنطية وجماعات البربر؛ وإدخال جماعات أخرى فى الإسلام، حسبما يريد؛ ثم عبوره منتصراً حتى طنجة وسوسه على الأطلنطى، حيث اندفع بجواده فى المياه، وهو يرفع يده نحو السماء، وينطق بمقولته المشهورة، إنه البحر وحده الذى يحول دون نشره عبادة الله الحق، حتى آخر حدود الدنيا.

إلا أن الكلمـــــات الرنانة قلما تصـــاحبها الأعمال الحكيمة، لأن عقبة قبل أن يذهب، ليخوض البحر بفرسه، لم ينتبه للبيزنطيين المتمركزين فى قرطاجنة وفى مدن البحر المتوسط الأخرى؛ وكانت مدناً أقوى من أن تُهاجم، ولكنه لكيما يتحاشاها ذهب عبر منطقة

(1) **رياض النفوس**، المخطوطة، ورقة ٤ الوجه الأول، يذكر عمودين لونهما أحمر تبقيا فى كنيسة قامونيه حتى عهد زياده الله (٨١٧ ـ ٨٣٨)، الذى نقلهما إلى المسجد الجامع الجديد.

جنوب الأوريس، ومن هناك اجتاز إلى الشمال، ربما فى منطقة الجزائر أو أورانو. وقد أساء عملاً حينما أخذ يعاملهم معاملة المغلوبين أولئك البربر الذين أخذوا ينحازون لصفه، بعد أن انتصر عليهم فى المعركة، على أنهم ما كانوا يتحملون الإهانات التى كان يوجهها إليهم، أو لمجرد أن أبا مهاجر كان يعاملهم معاملة إنسانية. ويحكى، من بين ما قام به من أفعال، أن طلب من قسيلة أن يذبح خروفاً ويسلخه؛ ويعده للطهى، هكذا روى المؤرخون الإخباريون، ولعله كان ضحية، يؤكل ويوزع منها على الفقراء، كما هى عادة المسلمين؛ وهو ما رآه عقبة عملا من أعمال البر والإيمان، وكانت بالنسبة للأمير، الحديث فى إسلامه، عبودية جائرة. فرد على طلبه بأنه لا يفتقر إلى خدم يقومون بذلك. ولكن القائد العربى أصر على طلبه، وهدد، وأراد أن يطاع بالقوة. وأطاع قسيلة: ولما أتم عمله، ودون أن يفتح فاه، أخذ يمسح يديه الملطختين بالدم بلحيته، وحينما سألوه السبب، أجاب فى تمهل: «فيه فائدة للشعر». وكان هناك من فهم مغزى ما بتلك الحركة من غضب صامت، وأخبر به عقبة؛ ولكن الشيخ الشامخ، سخر منه. إلا أن قسيلة هب يحمل سلاحه بعد أن أعلم البيزنطيين بذلك. ولما سارع عقبة فى مواجهته، ومعه القوات القليلة التى كانت من حوله، تظاهر بالهرب حتى سحب العرب وراءه إلى تاهودا على سفح جبال أوريس الخطرة، وهناك حاصرهم ومعه جماعات ضخمة من البربر وتعزيزات بيزنطية. وبدأ العرب يشعرون بالفعل بدقات الساعة الأخيرة، وكان أبو مهاجر فى وسطهم، يجره عقبة خلفه، والأغلال تقيده، فقد كان يشك فى خيانته، أو لعله اتهمه بذلك زوراً، وحدث أن صاح أبو مهاجر يذكر بيتى شعر قالهما شاعر قديم، بكى والحديد بيديه بينما أهله يستعدون للمعركة. وما أن سمعه عقبة حتى نسى إساءته، وأمر بفك قيده، وقال له أن ينجو بالهرب، فهو غير مكلف بالقتال. فرد أبو مهاجر بأنه ما يتوق إلا للموت مع المسلمين، وتسلح، واتخذ مكانه بجوار القائد. وفضا غمدى سيفيهما،

والمحاربون فعلوا كذلك: واندفعا بين صفوف البربر، وسقطا ببسالة فى القتال، حيث لم ينج إلا القليل من تلك المذبحة (٦٨٣). وبعد وقت وجيز استطاع قسيلة أن يسيطر علي القيروان، وعادت البقية الباقية من العرب تنحسر فى برقة. وكانت هذه هى نهاية أول محاولة احتلال دائم فى أفريقية. فقد كان تصور عقبة لذلك الاحتلال يفوق إمكانية تحقيقه: وقد كان رجلاً قوى العزيمة، شديد البأس فى الحرب؛ ولكن غير مناسب لتحريك خيوط خطة كبيرة؛ وغير قادر على التحكم فى مشاعره، مفرط فى اعتماده على ما تكشف عنه تصرفاته من حمية وقدرة على إبهار من حوله، زادت من شهرته لدى اللاحقين(1)

وهكذا هب البربر فى حرب قومية ضد الغزاة، الذين ظنوهم فى البداية أعداء للرومان فقط، وصار الصدام ضارياً، ودماؤه غزيرة؛ ومر بمراحل مختلفة: توقف مرات من الإنهاك، ثم استؤنف لأسباب جديدة نتجت عن الفتح، ثم استمر إلى أن اتحد الجنسان معاً تحت لواء دين واحد، وراية واحدة للحرب، كما اشتعل الصدام أيضاً فى أسبانيا وصقلية، واستمر ستة قرون: ولم ينته إلا حينما تحول العرب من أصحاب سيطرة إلى خاضعين.

إن إمبراطورية الخلفاء، وهى فى أوج قوتها، لم تلق، فى أى من ولاياتها، بشعب يفوق هذه الشعوب فى مقاومتها المستميتة وقد

---

(1) ابن الأثير، المخطوطة C المجلد الثالث، ورقة ٤٣ الوجه الثانى وما يليها، و٧٦ الوجه الأول وما يليها، وتحت سنة ٥٠ وسنة ٦٢؛ **رياض النفوس**، المخطوطة، ورقة ٤ الوجه الأول إلى ٥ الوجه الثانى؛ **البيان**، ص ١٢ وما يليها؛ النويرى، لدى دى سلان *Histoire des Berbères*، لابن خلدون، المجلد الأول، ص ٣٢٧ وما يليها؛ ابن خلدون *Histoire de L'Afrique et de La Sicile*: ترجمة م. دى فرجى، ص ١٠ وما يليها. إن الأربعة كتاب الأول يذكرون الرواية نفسها تقريباً، بينما يلخصها الأخير منهم. ويلاحظ ابن الأثير أن الواقدى والطبرى والكتاب المغاربة أو لنسميهم عرب أفريقيا، كانوا غير متفقين حول تاريخ حكمى عقبة؛ وقد اعتمد هو على المغاربة، كما فعلت أنا أيضاً. إن موت عقبة البطولى الذى يؤرخه ابن الأثير ٦٢ (١ - ٦٨٢) حدث فى عام ٦٣، حسبما يفهم من **رياض النفوس**، المخطوطة، ورقة ٥ الوجه الأول، حيث يذكر أنه حين فر العرب من القيروان وقد احتلها قسيلة منتصراً، وصلوا إلى دمشق عام ٦٤، بعد موت الخليفة يزيد.

اضطرت، رغماً عنها لفتح أفريقية، وأرسلت خمس جيوش ليثأر الواحد منهم للآخر وليلقى المصير نفسه.

سوف أتحدث عن هذا الصراع، فى اختصار شديد، ودون تفاصيل، قدر الإمكان. لقد استطاع العرب أن يثأروا، خلال بضع سنوات من مذبحة تاهودا؛ وكسروا جيوش البربر والبيزنطيين، المشاركة معهم. وقتلوا قسيلة؛ ولكن أسطولاً، تم تجهيزه فى صقلية، تمكن فى هذه الأثناء من احتلال برقة، وقد خلت ممن يحميها (٦٨٨ ـ ٦٨٩)؛ ولما أسرع القائد العربى المغوار، الزبير بن قيس لمقاومتهم، ومعه جيش صغير، لم يغنم سوى شرف دخول المدينة وموته والسيف بيده(1).

وبعد مرور خمس سنوات، وما أن خرج بنو أمية من حرب عبدالله ابن الزبير الأهلية، حتى أمر الخليفة قائد مصر، حسان بن نعمان، بأن يأخذ كل دخل الولاية وكل رجالها وعتادها الحربى، ليذهب إلى أفريقية ويتصرف بها، كما يتراءى له. فجمع ٤٠ ألف رجل، واتجه نحو قرطاجنة (٣ ـ ٤٩٦)، فانتصر على رجال الحصون والحاميات الذين خرجوا لقتاله، وكان الجزع فى المدينة بالدرجة التى دفعت أهلها للفرار منها على متن السفن، فمنهم من فر إلى صقلية، ومن فر إلى أسبانيا، أما هو فقد تمكن من جمع الغنائم والأسرى، بعد أن تيسر له إخضاع الباقين بالمدينة، وعمل على قطع مجارى المياه، والإسراع فى هدم ما يمكن هدمه، ولم يتوان فى العودة إلى الداخل ليواجه بربر أوريس.

وكما يحدث أحياناً، خلال الحركات القومية، حينما ينجرف الخيال فى حماسه إلى التطير، ظهرت بينهم زنوبيا جديدة،

---

(1) أنظر **رياض النفوس**، المخطوطة، ورقة ٥ الوجه الأول والثانى، حيث يورد العملية فى سنة ٦٩؛ وابن الأثير المخطوطة C، المجلد الثالث: ورقة ٧٧ الوجه الأول، تحت سنة ٦٩ (٦٨٨ ـ ٦٨٩)، وابن خلدون، *Histoire de l'Afrique et de la Sicile*، ص ٢٣، وتحمل تاريخ سنة ٦٧ (٧٨٦ ـ ٧٨٧)؛ **البيان**، ص ١٨ والنويرى؛ لدى دى سلان، المرجع السابق، ص ٣٣٧ ـ ٣٣٨، ورامبولدى، *Annali Musulmani*، المجلد الثانى، ص ١٠٥، تحت عام ٦٨٥، يذكر هجوم أسطول صقلية على قرطاجنة وليس على برقة، ويخلط بذلك بين عمليتين مختلفتين تماماً.

ملكة قبيلة جراوة، وكان اسمها ديها واشتهرت أكثر باسم كاهنة وهو الاسم الذى أطلقه عليها العرب؛ ويعنى عَرّافة. وقد انضمت القبائل الأخرى إلى قبيلتها؛ وقد جذبهم إليها تنبؤاتها وحمأة غضبها، بما فى ذلك من تأثير على هذه الشعوب. واصطدمت الكاهنة مع جيش حسان على ضفاف نهر نينى، بالقرب من بجايه، بمنطقة قسطنطينة الحالية، وحينئذ هزمت العرب فى مذبحة لا تنسى. ثم بعد ذلك بقليل جاء أحد كبار القواد، واسمه چوڤانى، ومعه قوات بحرية، من القسطنطينية وصقلية، واستعاد قرطاجنة؛ وهرع حسان وبقية جيشه، مرة أخرى إلى برقة. ثم أهدرت العرافة النصر. فمن ناحية أطلقت سراح الأسرى العرب، ما عدا واحداً تبنته، فقام بخيانتها وأرسل يحذر حسان، ومن ناحية أخرى أطلقت رجالها يخربون مدن إفريقية ومزارعها، لتمحوها، وكانت تردد أن تلك ممتلكات تافهة، تجذب الأعداء. ولكن الأثر كان عكسياً، لأن الجماعات اليقظة بالقبائل الأخرى أخذ بعضها يهاجر إلى أسبانيا وإلى الجزر، وذهب بعضها الآخر يعرض تعاونه على العرب، وهم يستعدون لجهد حربى جديد.

وعلى ذلك عاد حسان بأسطول وجيش، وهزم البربر، وقتلت الكاهنة فى هزيمة كانت قد تنبأت بها، كما هى عادة المتنبئين، عندما لا يتمكنون من تحاشى ما تنبأوا به؛ وقبلت قبائل أوريس خضوعها، وقد تضاءلت فى عددها وأحبطت، وتعاهدت على الإمداد باثنى عشر ألفاً يساعدون ضد البربر الذين لم يخضعوا وضد اليونانيين. وبذلك تحرك حسان للمرة الثانية لحصار قرطاجنة؛ وأنهك البيزنطيين فى صدامات عدة، وبات يسيطر على الخليج ويحوط المدينة من البحر والبر، حتى تظاهر رجال الحامية بطلب الاتفاق مقابل المال، وخلال المفاوضات، وأثناء الليل حمّلوا السفن الراسية فى الميناء بكل أحمالهم، وتسللوا هاربين. ولما فشلت محاولات چوڤانى، للتصدى للعرب، فى مواقع أخرى بالساحل، ابتعد نهائياً عن أفريقية (٦٩٨)؛

وعندما دخل حسان قرطاجنة، وأتم عملية الهدم بالحديد والنار، وترك حامية صغيرة، على سبيل الثأر، وحسب رواية العرب، أقام بها مسجداً، وأبقى لذلك الغرض على بنايات قديمة، أجرى عليها التعديلات المناسبة لاستخدامها. وبعد أن عـاد أخيـراً إلى القيروان، اتجه إلى تنظيـم الولاية، فوضـع فيها دواوين الإدارة، وفرض الجـزية على السكان، من الأجناس الأوربية، والبربر الذين لم يعتنقوا الإسلام(1)؛ أما البربر الذين أسلموا،

(1) أنظر **رياض النفوس**، المخطوطة، ورقة ٥ الوجه الأول و٦ الوجه الثانى، وابن الأثير المخطوطة C، المجلد ٤، ص ٨ الوجه الأول، سنة ٧٤، والنويرى لدى دى سلان، المرجع المذكور ص ٣٣٨ وما يليهـا، **والبيان** ص ١٨ إلى ٢٥، تحت عـام ٧٨، وابن خلدون *Histoire de l'Afrique et de la Sicile*، ص ٢٤ ـ ٢٨، وهو لم يحدد تاريخاً لهذه العملية بينما أرخ الثانية بعام ٧٤، وابن خلدون ذاته فى *Histoire des Berbères*، المجلد الأول، ص ١٩٨، ٢٠٨، ٢١٣، ٢١٤؛ والتيجـانى *Journal Asiatique*، أغسطس ـ سـبتمبر ١٨٥٢، ص ١٢٠ ـ ١٢١، وليـونى أفريكـانو لدى ريمـوزيو *Navigatione et Viaggi* وقد آثرت اتباع **رياض النفوس**، على المراجع الأخرى، فى رواية عمليتى اقتحام قرطاجنة. كما أننى وجدت أن **رياض النفوس** ينفرد بذكر تقسيم الفئ والأراضى على البربر المسـلمين. أنظر أيضـاً ثيوفانس، *Chronographia*، المجـلد الأول، ص ٥٦٦، ٥٦٧، (سنة ٦٩٠)، ونيكيفورى *Breviarium Historicum*، ص ٤٤، ٤٥ (سنة ٦٩٦)، وباچى، فى تعليقاته على بارونيو، *Ann. Eccl.*، عـام ٦٩١، ٦٩٦، وهو يتبع النويرى؛ ولى بو، *Histoire du Bas Empire*، الكتـاب ٦٢ §١٩ ومـا يليهـا، چيبـون *Decline and Fall*، الفصل ٥١، هامش ١٥٧، ١٥٨، ١٥٩.
إن العرب غير متفقين فيما بينهم فى التحديد الزمنى، كما سبق واتضح، كما أنهم غير متفقين مع الكتاب المسيحيين فيما يتعلق بالأحداث الرئيسة، وأخذت أنا، عن ابن الأثير تاريخ أول حملة قام بها حسان، وأخذت عن البيزنطيين تاريخ الحملة الثانية وأرى أن تحديدها تؤكده ثورة جنود الأسطول العائدين من قرطاجنة، إذ ما أن وصلوا إلى قبرص حتى هتفوا بتيبريو الثانى إمبراطوراً. ومن ثم يفهم أن البيزنطيين قد ظلوا مسيطرين على قرطاجنة، ليس لعام واحد، كما يذكر كتابهم، وانما على مدى الفترة التى أقام فيها حسان ببرقة بعد هزيمة نهر نينى.
كما أعتقد أن چيبون قد حاد عن الصواب حينما تصور وصول تعزيزات من قبل الڤيزيجوت إلى قرطاجنة، حين أخذ بشهادة ليون الأفريقى وحده، وهو من كتب (فى ورقة ٧٢، الوجه الأول) أن خضع لها «النبلاء الرومان والقوط *Gotti* ». إن النص العربى الذى كتبه ابن خلدون يؤكد لنا فى وضوح أن ليون قد ترجم لفظ فرنجة بـ *Goti*، كما أن النص ذاته يذكر أن الفرنجة ومعهم الروم، كانوا خاضعين لنظام جزية المال، حينما أدار حسان الشئون

فأعطاهم نصيباً من الجزية ومن الأرض مثلهم مثل الجنود المسلمين. وهكذا ثبت العرب سلطانهم لأول مرة فى ذلك الجزء من أفريقيا الشمالية وهو الجزء الذى تضمه اليوم ممالك طرابلس، وتونس، ومنطقة قسطنطينة، دون مزيد من الامتداد نحو الغرب. واستناداً إلى اسم أفريقيا الذى كان يطلقه الرومان على أهم أجزاء هذه المنطقة، أطلق العرب على المنطقة كلها اسم أفريقية، وكانت تمتد، حسب جغرافيتهم، من العقبة الكبرى، التى تقع بين برقة والإسكندرية، وتصل حتى بجايه. والجزء الواقع بين هذه النقطة حتى الأطلنطى، أطلقوا عليه اسم المغرب، ويعنى عندنا الغرب، ثم قسموه إلى المغرب الأوسط ويقع بين بجايه وأورانو، والمغرب الأقصى ويمتد من أورانو إلى ما بعد ذلك. وسوف نستخدم تسمياتهم الجغرافية هذه فيما سيتقدم؛ إلا أننا سوف نكتب على طريقتنا أفريكا، بدلاً من أفريقية.

بعد فترة وجيزة، أعقب حسان رجل عظيم، ألف ما بين الجنسين لفترة من الزمن، وربطهما بوثاق كان من القوة حتي إنه لم ينفصم بعد ذلك رغم استئناف الصراع. ذلك كان شيخاً، ابن سبعين سنة، وهو موسى بن نصير، وكان من أصل أجنبى؛ ثم أعتقه بنو أمية(1)؛ وقد ذاع صيته بفتح أسبانيا، واستحق التقدير والتبجيل، لبراعته فى إدارة شئون الحـــكم والحرب بأفريقيا والمغرب من قبل. بدأ فى حكم الولاية، كأعظم الرؤساء فى هذا القرن الذى نعيش فيه، فخطب فى الجيوش، واتهم السـابقين بالعجز، وأكد انتصـارات يراها واضحة فى ذهنـه. ووفى بمـا وعد به وأزاد. أتى من القيـروان إلى

العامة بأفريقية، وهكذا يتضح أن الأمر ما كان يتعلق بجنود أجانب، وإنما بالعشائر الجرمانية التى كانت لاتزال موجودة بالبلاد، أى عشائر الڤندل.
(1) **فتح الأندلس**، مخطوطة باريس (فى التعليق على ابن قوطيه)، ورقة ٥١ الوجه الأول. فى هذا الكتاب الذى كتبه كاتب قديم مجهول الاسم، ورد أن موسى الذى أعتقه بنو أمية كان ينحدر من عشيرة من البربر، صارت عبيداً لخالد بن الوليد. لذا كان من النازحين من سوريا أو من بلاد ما بين النهرين.

المحيط، وأخضع عشائر البربر فى كل مكان، وعمل بعد النصر على ضمها مع بعضها فى وحدة، وأخذ منها الرهائن، ضماناً للعهد، وبدلاً من أن يندفع بجواده فى البحر مثل عقبة، قام بتشييد مدينة، أو بالأحرى معسكراً فى طنجة، وسكن بها سبعة عشر ألف عربى واثنى عشر ألف من البربر، وجعل البربر يتعلمون القرآن، حتى يقرأونه على مسامع أبعد العشائر التى تتحدث لغتهم الغريبة. وهكذا، كما يقول كاتب **البيان**: رأى الناس الكنائس تتحول إلى مساجد، فى كل أنحاء أفريقيا الغربية، فى وقت وجيز، فالدخول فى الدين كان ميسراً، والداخلون يدركون جيداً معنى الاشتراك فى الغنائم، وكان السلاح دائم الاستعداد، لعقاب المرتدين. كما عمل موسى على دعم هذا السلاح من خلال قوة كونها، سنطلق عليها اسم إنكشارية، كما أسماهم الأتراك بعد ذلك بعدة قرون، وهم فتية أقوياء، تجرى فى الغالب فى عروقهم دماء نبيلة. وكان يشتريهم من جنوده، إذا تصادف وكانوا فى نصيبهم من قسمة الغنائم، وكان يدربهم على السلاح، وعلى تعاليم الدين، وعلى الطاعة المطلقة، فجعل منهم أداة هائلة للسيطرة، وللاستيلاء أيضاً إن احتاج الأمر.

ومن بين خططه الواسعة لم يغفل موسى أهمية الإفادة من فنون وصناعات الشعوب المسيحية فى أفريقيا والتى يرجع إليها الفضل فى بناء القيروان بالحجارة والرخام، وكان قد وجدها مبنية بالبوص والطوب اللبن، وحسبما يذكر أحد المؤرخين الإخباريين، فحينما سمع موسى من شيوخ البلاد، عن العمليات البحرية الهامة التى جرت بقرطاجنة، أمر ببناء مئة سفينة بتونس، بعد أن أمر بحفر قناة للترسانة؛ وكان بالغ الحرص على تأمين سفن المسلمين، من هجمات الأسطول البيزنطى وخيانة السكان من المسيحيين، الذين عادوا بالطبع إلى قرطاجنة وإلى الموانىء الأخرى القديمة.

وحينما تم إعداد الأسطول، أضاف إليه بقية من أسطول مصر الذى غرق على سواحل أفريقيا؛ ونادى بالجهاد فى البحر، وأرسل فى دعوة أعظم المحاربين العرب، وعبر عن رغبته فى قيادة

المعارك بنفسه؛ ثم عهد بها فيما بعد لابنه عبدالله (٧٠٤). وبهذا بدأت الغارات على غرب البحر المتوسط: فعلاوة على جزر البليار، شملت الغارات صقلية وسردينيا، كما سوف نذكر فى موضعه. وبالرجوع إلى مراجع موثوق بها، نعرف أن هذه العمليات التى دارت فى البحر المتوسط وبقارة أفريقيا، أسفرت عن ثلاثمائة ألف أسير، وهو شئ لا يصدق بالنسبة لنا؛ وبدا كذلك أيضاً فى بلاط الخليفة؛ فلدى وصول رسالة من موسى تقول إن عدد الخُمس منهم يبلغ ٣٠ ألفاً، سُئل عما إذا كان هناك خطأ بالكتابة: و«الخطأ موجود». هكذا رد موسى. «لأن أمين السر كتب ثلاثين ألفاً، بدلاً من ستين ألف». وعليه سوف تتجلى الدهشة، إذا تنبهنا إلى أن البشر كانوا أكثر الغنائم كسباً للمال، فهم كالأغنام التى يسهل الحصول عليها فى أى وقت، ولكنهم ما كانوا يبقون عليها لترعى، بل يسارعون حتى تدر مالا يدفع ثمناً لها أو فدية عنها(1).

أطلق موسى العنان لرجاله من العرب والبربر نحو أسبانيا (٧١١)؛ ولحق بهم هو نفسه، رغم ثقل السنين عليه، فى مباراة مع عتيقه طارق: ولعله كان قد عبر جبال البرانس، وأخذ رجاله يقومون بتخريب لينجوادوكا؛ وبينما كان يتحدث عن خططه غير المحدودة ويسرع فى تنفيذها، وصله رسول من عند الخليفة، أمسك بلجام البغلة التى كان راكباً عليها، وأشار عليه بتغيير وجهته، ويذهب

---

(1) انظر ابن قتيبة، لدى جايانجوس، *The history of the Mohammedan Dynasties in Spain, by Al-Makkary*. المجلد الأول، ص ٥٤ إلى ٦٦ بالحاشية؛ وابن الأثير، المخطوطة C. المجلد الرابع، ورقة ٤٢ الوجه الثانى، سنة ٨٩؛ **البيان**، ص ٢٤ إلى ٢٨، وابن خلدون *Histoire de l'Afrique et de la Sicile*، ترجمة م. دى فرجى، ص ٢٩، ٣٠؛ والنويرى، لدى دى سلان، *Histoire des Berbères par Ibn-kaldun* المجلد الأول، ص ٣٤٣ وما يليها، بالحاشية؛ وابن شباط، المخطوطة، ص ٣٨، ٣٩؛ وابن أبى دينار، المخطوطة، ورقة ٦ الوجه الأول وورقة ٤ الوجه الثانى، ترجمة ص ١٤، ٥٧، وهو من ينقل الروايات المختلفة الخاصة ببناء ترسانه تونس، فى دقة شديدة، وحسب قول ابن الأثير والنويرى، فقد أخذ موسى حكم أفريقيا سنة ٨٩ (٧٠٧ ـ ٧٠٨)؛ ولكنه من المؤكد أن عام ٧٩ (٦٩٨ ـ ٦٩٩)، الذى ذكره، ابن قتيبة هو التاريخ الأصح.

ليبرئ ساحته بدمشق. وكانوا يتهمونه باستلاب المال العام، وفى دمشق، لم يعر سليمان، الذى وجده على العرش آنذاك، أى اهتمام لحديث موسى القائد المنتصر، الذى أخذ يفاخر بأنه لم يحتم أبداً بحصن أو خندق، على مدى قتاله الطويل، أو حينما أخذ يشيد بقوة الجنود العرب، وعلى الأخص اليمنيين منهم؛ أوعندما أخذ يشرح كيف أن البيزنطيين كالأسود داخل قصورهم، وكالنسور فوق جيادهم، وكالنساء فى سفنهم، فهم مهرة فى تصيد فرص الحرب، وشديدو الجبن بعد الهزيمة؛ أما البربر فهم كبيرو الشبه بالعرب، فى قوة الأبدان ونزعة الحماس، والنظام فى القتال، لكنهم يفوقون كل الشعوب فى خيانتهم. ولم يكن حظه أوفر من الرضا، حين أخذ يعرض على الخليفة غنائم النصر: أسرى من أشراف مايوركا ومينوركا، وصقلية وسردينيا، وهم يرتدون حللهم البهية، وآلاف من سليلات العائلات الأسبانيات، وجواهر غالية الثمن، اكتشفوا من بينها لا أعرف بالضبط، أى لوح لسليمان؟ لم يكن الخليفة واسع الصدر، وكان شكاكاً، مقتراً، تتحكم فيه أحقاد البلاط، فلم يغتفر لموسى أمجاده. وبعد أن سجنه وعامله معاملة سيئة، حكم عليه بأربعة ملايين دينار، لم يستطع سدادها. ثم عمل على قتل ابنه غيلةً، وكان موسى قد تركه على حكم أسبانيا؛ وعجل بموت الشيخ البائس، وهو يعانى من الربو (٧١٦)، وذلك بأن أطلعه على رأس ابنه وهى محنطة بملح الكافور، وهو يسأله إذا ما كان يتعرف عليها(1).

وبغياب رجل له مثل هذا القدر، عادت الأمور فى أفريقية، خلال سنوات، إلى ما كانت عليه حين بدأ هو، فقد كانت جميع قبائل البربر تقريباً قد قبلت الإسلام، حين عاد الصراع يشتعل بينهم وبين العرب.

---

(1) ابن قتيبـــة، لدى دى جايانجـــوس، *The history of the Mohammedan Dynasties in Spain, by Al-Makkary* المجلد الأول، ص ٧٠ إلى ص ٨٨؛ والنويرى لدى دى ســـلان، المرجـــع المذكور، ص ٣٥٣ وما يليهـــا؛ ورينو، *Invasions des Sarrazins en France* ص٤ إلى ص١٢؛ وكوندى، *Doninacion de los Arabes en España*، الباب الأول، الفصل ٦ إلى ١٩.

وقد كان الدافع إلى ذلك هو الجشع فى الضرائب، والمغالاة فيها، حتى إنه وصل الأمر لإخضاع البربر الذين أسلموا للجزية شأنهم شأن غير المؤمنين. فقاموا بقتل الحاكم الآتى من الشرق بمثل ذلك الاستخفاف (٧٢٠). ورأى الخليفة الحق فى جانبهم؛ ولكن بعد فترة، من الزمن، وبعد أن عاود آخرون المحاولة، وبات من غير الممكن التصدى لهم دون تمرد، سارع البربر إلى ذلك فى جسارة، وجاءت بعد ذلك الخطوة التالية، التى حملت على الثورة، ضد أمير المؤمنين وكبيرهم. وإن كان آباؤهم من أتباع قسيلة والكاهنة قد رفضوا القرآن وأعادوه إلى حكامهم الأجانب، فإن هذا الجيل الحاضر، وقد نما فى ظل تلك النظم التى تعد حضارية بالنسبة لما كانوا عليه من بربرية قديمة، لم يعد يستطيع العيش بدون مزايا الحياة الواقعة والمنتظرة بالإسلام. فقد تعود، يوما بعد يوم، أن يرجع إلى الله، كل خير يأتيه، أو كل بلية تصيبه: المطر، وثمار الأرض، وحيوانات الحقل، والنصر والغنيمة، أو القحط والوباء والهزيمة. إنه جيل تعود على القيام بعدة سجدات يومية، وعلى تلاوة القرآن، أو ذكر اسم محمد، على الأقل؛ هذا الجيل رأى أن يتمسك بعون السماء، وأن يخلص، فى ذات الوقت، نفسه ممن يستبد باسمها فى الأرض: لذا لجأ إلى الزندقة بدلاً من الرِّدة.

ووجد غايته، معدة جـــاهزة، لدى ذات من يحكمونه. فمنذ أيام الحروب الأهلية التى دارت بين على ومعاوية، ظهـــرت بالشرق أولى صدامات التفكير العقـــلانى مع السلطة؛ وكمـــا هى عادة التفكير، فقد كانت خطـــاه بطيئة، مهتزة، وتولدت عنه شيع سميت بالخارجة؛ وكانت تنكر الســـلطة المطلقة للخلفاء فى الحكم. كما كانوا يعترضون أيضاً على بعض التعاليم الدينية، حيث لا يمكن الفصل بين الشأنين. ومن بين هذه الجماعات، اشتهرت اثنتان، سميتا بحسب اسمى مؤسسيهما، وهما جماعتا العباديين والسفريين، وكانتا متفقتين فى اعتبار الإيمان والأعمال فضيلة ضرورية للمسلمين، وفى إسقاط من أخطأ بالكبائر من بين المسلمين، حتى وإن كان من الصحابة أو الخلفاء

ذاتهم. وإلى جانب ذلك كانوا قساة فى تشددهم، وإن كان العباديون يفوقون فيه السفريين، ذلك أنهم كانوا يعدون أى مسلم لا يشارك فى الجهاد كافراً، ومستحقا للموت، ويجوز استعباد أسرته وقطع كل صلات القرابة معه بسبب كفره. وما أن تكونت هذه الآراء، حتى عبرت إلى المغرب، وسرعان ما التصقت بأذهان أولئك البربر الغلاظ المتضررين. أما عن السفريين فقد انتهزوا فرصة ذهاب خيرة الجيوش العربية للهجوم على صقلية (٧٤٠) حتى قاموا فى المغرب، يقودهم رجل كان يدعى ميسر، وكان يعمل سقاء بالقيروان؛ فاستولوا على طنجة؛ وهتفوا بالسقاء خليفة، وبعد أن جمعوا فى حرص عدداً من قبائل غير مسلمة، تحت لوائهم، حاربوا معاً من أجل قضية قوميتهم ضد العرب؛ وكبدوهم هزيمتين قاسيتين. سمى العرب الأخيرة منهما بيوم النبلاء، نظراً للعدد الكبير الذى سقط منهم فيه فى ميدان المعركة. كما سادت الاضطرابات المنطقة كلها. وحمل البربر أسلحتهم فى كل اتجاه من الغرب إلى الشرق، وحتى قابس، وانحسر العرب فى مدينتين فقط هما القيروان وتلمسان. وكان للتدهور أصداؤه أيضاً فى أسبانيا، حيث انبثقت عنه ثورات أخرى.

ولما علم الخليفة هشام بذلك ثارت ثورته على البربر وعرب الغرب، لأن العرب بانقساماتهم أزادوا المصائب على الناس، وأخذ يهددهم بما سوف يلاقونه من جراء غضب عربى أصيل مثله؛ وبأنه سوف يضع تحت كل حصن من حصون البربر معسكراً من الجند من قبيلتى قيس وتميم المضريتين. كما أنذرهم بإرسال جيش تصل مقدمته إلى المغرب، فى حين لم تبرح مؤخرته سوريا. وكان إجمالى الرجال الذين جمعهم ثلاثين ألفاً: كانوا منقسمين إلى شيع ومتفرقين لدرجة أنهم انصرفوا للغنائم قبل أن يدخلوا فى مواجهة مع البربر، كما أنهم عندما انضموا إلى جيش أفريقية، كثرت فيه الفتن، حتى إنه حينما وصل العرب إلى المعركة بالقرب من طنجة (٧٤١)، هرب منهم من هرب، وهلك من لم يسلم من يد العدو، ولكن جاء قائد جديد، اسمه حنظلة

بن صفوان، وكان يتمتع بهيبة كبيرة، حتى إنه استطاع أن يوحد صفوف العرب، وعرف ببراعته الكبيرة فى القتال فى أفريقية. وحدث أنه بعد تفريق جانب من قوات العدو فى بداية المعركة وبعد أن وجد نفسه محاطاً بقوات أخرى فى القيروان، قام بتزويد الأهالى بالسلاح، وأخذ يشعل فى نفوسهم الحماس الدينى، ثم قضى ليلته فى الصلاة؛ وفى الصباح فض غمد سيفه، وكان حظه يفوق حظ عقبة بن نافع، فخرج لملاقاة آلاف البربر، وانتصر عليهم فى الأصنام، على بعد ثلاثة أميال من المدينة: وكانت معركة من أعنف المعارك التى عرفها المسلمون؛ ومات فيها، حسبما يذكر المؤرخون الإخباريون، مائة وثمانين ألفا من البربر، وهو رقم هائل ولا ريب، بين من سقطوا فى الميدان، ومن قتلوا لزندقتهم ووحشيتهم لأنهم عندما كانوا ينتصرون، لا يقبلون استسلام خصومهم (٧٤٢).

وبهذا الجهد الكبير استطاع الشعب العربى أن يستعيد السيطرة على الولاية. وكاد يفقدها خلال حركتى تمرد أخريين واسعتين (٧٥٧ - ٧٧١)، فضلاً عن حركات أخرى صغيرة، كما أنه أمكن الحفاظ على الحكم بفضل جيشين جديدين، قوام أحدهما ٤٠ ألفاً، والآخر ٦٠ ألفاً، أو حسب بعض الكتاب تسعين ألف رجل. وكان سابع جيش يفد إلى أفريقيا، على مدى ٩٠ سنة، بدءاً من ذلك الأول، الذى تحطم مع عقبة(1). وفى النهاية فإن الشعوب الإسلامية الشرقية التى عبرت إلى أفريقيا وسط كل هذه المصاعب، والمستعمرات القوية التى تمركزت فى المناطق المناسبة، علاوة على النظام الإدارى الذى وضعه الفاتحون، كانت كلها عناصر عملت على الحيلولة دون حركات البربر،

---

(1) البيان، ص ٣٥ إلى ٤٦؛ وابن خلدون، *Histoire de l'Afrique et de la Sicile*، ترجمة م. دى فرجى، ص ٣١ إلى ٤٣، والنويرى، لدى دى سلان، المرجع المذكور، ص ٣٥٦ وما يليها. استخلصت بعضاً من التفاصيل الخاصة بتمرد طنجة من ابن الأثير، المخطوطة C، المجلد الرابع، ورقة ٨٢ الوجه الأول والثانى، عام ١١٧، واستخلصت البعض الآخر من ابن قوطية، مخطوطة باريس، ورقة ٦ الوجه الأول و٧ الوجه الثانى.

وذلك حتى بدايات القرن العاشر؛ ومع ذلك قامت قبائل البربر بتأسيس ثلاث حكومات مستقلة وهى: فاس بأقصى الغرب تحت سيطرة آل أدريس العربية (٧٨٨)؛ وسجلماسة جنوب الأطلنطى، تحت سيادة آل مدرار، وهم من البربر (٧٨٣)؛ وتايورت (وكانت تكتب أيضاً تاهرت، وتوجورت وهى توجد اليوم فى صحراء الجزائر)، وكانت تحت سيادة آل رستم، وهم عائلة، كما يبدو، من أصل فارسى(1) (٧٥٤). أما عن القبائل الأخرى، فقد استنفدت طاقتها فى الانحياز للعرب فى حروبهم الأهلية، حتى أخذت صفوفهم تضعف، وعاد أهل البلاد الأصليين يرفعون رؤوسهم، ويقومون بتغيير الوضع السياسى بأفريقيا والمغرب، مرة أخرى، كما سوف نوضح فيما يلى من كتب.

(1) فيما يخص أصل آل رستم هؤلاء، انظر ابن خلدون، *Histoire des Berbères*، ترجمة دي سلان، المجلد الأول، ص ٢٤٢ بما في ذلك الهوامش التي كتبها المترجم القدير.

الفصل السادس

من خلال الصراع بين الفاتحين والأهالى، ومن خلال نظرتنا إلى الظروف التى عاش فيها الفاتحون وهم يحتلون البلاد بلدة بعد أخرى، تشد انتباهنا ملاحظة أولية.

إن الشعوب التى تسيطر على أراضٍ أجنبية إنما تنهج بالضرورة واحداً من المناهج الثلاثة الآتية:

نقل شعبى للفاتحين، مثل نقل الفرنجة ونقل اللونجبارديين وغيرهم من البربر الذين لم يتركوا خلفهم أى وطن من الأوطان؛ إقامة مستعمرات مثل مستعمرات الإغريق فى العهود القديمة، ومستعمرات الإنجليز فى أمريكا، وهى مبادرات خاصة تعتمد على وجود شعب متحضر ألف الحرية؛ أو فى النهاية احتلال عسكرى باسم الدولة، وهذه خاصية تختص بها الحكومة القوية فى تسليحها. وفى هذه المناهج الثلاثة نلاحظ أن المنهجين الأخيرين قد يتزامنان معاً فى بعض الأحيان أو يستخدمان بالتناوب من جانب بعض الأمم القائمة بها مؤسسات مشتركة، مثل الرومان الذين كانوا يرسلون مستعمراتهم إلى البلدان التى احتلوها عسكرياً والإنجليز الذين نراهم يحكمون الهند بقوة السلاح وأقاليم أخرى بالمستعمرات.

غير أن العرب، وكانوا يعيشون فى مجتمع تتعايش فيه الهمجية والحرية وحكم الفرد، استقروا فى البلدان المهزومة بطريقة مركبة. بدأت هذه الطريقة بالاحتلال العسكرى باسم الدولة؛ ثم أصبحت نقلاً لقبائل كاملة، مما أدى إلى دولة استيطانية مترامية الأطراف، ثم إلى التحرر بعد ذلك من الوطن الأم. وقد تمت الهجرة فى سهولة بقدر ما كانت تلك الشعوب التى لم تألف الحياة المستقرة، ولم تكبل نفسها بملكية الأراضى، تنتقل من مملكة إلى مملكة بذات السرعة البدوية

التى كانوا ينقلون بها فى صحرائهم خيام ترحالهم من مرعى إلى آخر. وتحولت معسكراتهم المقامة على الطريقة الرومانية، التى تناولناها فى الفصل السابق، تحولت فى غضون سنوات قليلة إلى مدن ضخمة استجلبوا فيها عائلات المحاربين، عائلات طبيعية وعائلات اصطناعية: عائلات من العبيد، والمعتوقين، والموثوق بهم؛ وبالإضافة إلى المحاربين كانت هناك فئات أخرى تنال حظها من الانتصار مثل: الموظفين العموميين، والفقهاء، والتجار والمهنيين: وهم أناس من الجزيرة العربية أو من الأقاليم التى تم فتحها من قبل وتعربت لتبعيتها ولاعتناقها الدين الإسلامى.

وهكذا تنامت طبقتهم بسرعة عجيبة فى أفريقيا بعد الانتصارات الأخيرة التى حققها حسان بن نعمان وتحت حكم موسى. وإلى جانب مستعمرة برقة، وطرابلس ومستعمرات أخرى على خليج قابس وبالإضافة إلى القيروان، وكانت أكبر المستعمرات، نشأت مستعمرة تونس حيث راحوا يحفرون فيها الميناء، وبعد ذلك امتد العرب تجاه الغرب حتى طنجة وتلمسان وربما أيضاً حتى سبته: وبعد السيطرة عليها ـ شأنهم فى ذلك شأن البربر ـ استأنفوا التقدم؛ وأحاطوا المركز الرئيس للإقليم، الذى كان مملكة تونس الحالية، بميادين أماميه فى بلنزما وطوفنة وغيرهما من المناطق التى كانت تطل على تجمعات أهالى البربر الرهيبة، ووطدت طبقة النازحين من الجزيرة العربية أقدامها فى أواخر القرن الثامن.

ومنذ المبادئ الأولى ظهر ذلك التمييز الواضح بين العسكريين والمدنيين. وكان يطلق على العسكريين فى كل ركن من أركان الإمبراطورية الاسم الجماعى الجند وأحياناً كان هذا الاسم يطلق على كل فرقة من فرق جيش الإمبراطورية أو على كل كتيبة أو لواء بلغة عصرنا حيث إنه مستخدم فى الجمع من قبل الكتاب العرب(1). والجند هم المحاربون المقيدون فى القوائم والذين، بالإضافة إلى

(1) جمع جند: جنود، ولكنا سوف نستخدم هنا المفرد جند.

نصيبهم من الغنائم العسكرية، كانوا يصرفون أيضاً رواتب يحصلون عليها من الجزية المفروضة على الشعوب المهزومة والضرائب التى كانت تفرض على فئة من أراضى المسلمين وكانت تصرف فى أكثر الأحوال بتخصيص دخل ذلك الإقليم أو تلك الدائرة لهؤلاء الجند، وكان العرب يسمون هذه الطريقة بالإقطاع. وكان أولئك الجند منظمين حسب درجة قرابتهم، كما سبق وقلنا(1) وكان يقودهم رئيس يطلق عليه قائد(2) وهم عبارة عن عسكر يمكن توطينهم وعسكر اقطاعيين: والعسكر الإقطاعيون لا يقلون بأساً عن الأوائل ويتميزون بولائهم لقائدهم أكثر من ولائهم للأمير. وقد تحدث أحد الحكماء عن طباع هؤلاء الجنود فى حديثه إلى الخليفة عبد الملك إذ قال فى مديحه لواحد من رؤساء القبائل فى الشرق: إذا ما غضب، غضبت معه مائة ألف من السيوف، دون أن يسألوه عن السبب(3). لقد ظلت باقية إذن فى الجند الأرستقراطية الأبوية التى كانت سائدة قبل الإسلام.

وعلى العكس من ذلك فقد ظهرت فى المدن بقية باقية من الديمقراطية الإسلامية الأولية، وكما يحدث فى الغالب تزدهر فى المستعمرات بعض المبادئ التى تم قمعها فى الوطن الأم. فظهرت فى القيروان وفى مدن رئيسة أخرى بأفريقيا، دون قوانين مكتوبة، وقضاة معترف بهم قانوناً، ظهرت قوة إدارية مركزية، تولدت عن تلك العبقرية الديمقراطية والأنشطة، لقد توفر لها أول عنصر من عناصر القوة ألا وهو عدد المواطنين، وقد بلغوا من القوة شوطاً بعيداً فى القيروان إبان ثورة البربر الثانية فتقدم من أولئك الجند فى اللحظات الأخيرة من الخطر، تقدم عشرة آلاف من المقاتلين

(1) الفصل الثالث ص ٦٨

(2) القائد بمعنى الزعيم، والذى أصبح يعنى فى أسبانيا القاضى المدنى، وفى صقلية يعنى موظف البلاط ولقب من القاب النبلاء.

(3) ابن عبد رابح ـ المخطوطة ـ المجلد الأول ص ٧٣.

المنتقين وحققوا مع بقية الجيش النصر فى أسنم(1). وكانوا يجيدون استخدام السلاح، وذلك لأن أهالى المدن الذين كتب عليهم القتال فى مبدأ دينى لم يعد مستخدماً فى الأجزاء الوسطى والهادئة من الإمبراطورية، كانوا يحترمون ذلك المبدأ من أجل الضرورة، ضرورة القتال فى الأقاليم الحدودية التى كان يتعين عليها دائماً صد العدو. وبالإضافة إلى أولئك الجند فى أقاليم هذا شأنها كان يوجد أيضاً الرباط الذى تحدثنا عنه، والذى غير طبيعته عندما أصبح معظم الأهالى مسلمين وأصبح وكراً للصوص والعاطلين الذين كانوا يتعيشون من الزكاة، ليظلوا مستعدين لمحاربة الكفار وكانوا متحفزين لإثارة القلاقل.

وكان هناك إلى جانب هذا نظام الطبقات وقوة الطبقات العليا لملكاتها وتربيتها، ودائماً ما دفعت تلك الطبقات إلى التحركات والقلاقل داخل المدن. من جانب نجد بالفعل الجماعات المهنية(2)، ومن جانب آخر نجد المواطنين ملاك الأراضى، ونلاحظ هنا تأثير الشيوخ الفعال، وهم رؤساء العائلات الأساسية. من هذه الجماعات كان يظهر علماء، خلفاء شرعيين لعمر، حملة القرآن والسنة النبوية، وكانوا يؤيدون الحصانات العريضة التى يتمتع بها المسلمون والتى وضعها طى النسيان الأمراء الجدد، وكان الشعب بطبيعة الحال يتبعهم ويضطرب عند سماعهم(3).

ونظراً لتنظيمات الجند بالحالة التى أوضحناها وأيضاً تنظيمات المواطنين، وكلها تنظيمات قائمة على الأعراف وليس على القانون،

---

(1) النويرى، فى دى سلان، المرجع المذكور - ص ٣٦٣ - ٣٦٤؛ وفى هامش بكتاب ابن خلدون - *Histoire de l'Afrique et de la Sicile*، ترجمة م. دية فيرجيه ص ٣٩ وما بعدها.

(2) **البيان** - ص ٦٨، يقول إن يزيد بن حاتم (٧٧١) قد نظم أسواق القيروان، مخصصاً مكاناً لكل مهنة، كما نعلم أن كل مهنة عند المسلمين كانت لها رابطة، وكان لها جامع خاص بها وشركة تأمين للعقوبات المالية.

(3) هذه الأحداث تتكرر فى كل لحظة فى أخبار أفريقيا منذ عام ٧٤٠ وما بعدها عند ابن خلدون والنويرى وفى **البيان**.

ونظراً لقوتها العظيمة، فإن الحكومة الإقليمية قلما كانت تحرص وتهاب الحكومة المركزية فى الإمبراطورية فهى لا تختلف ظاهرياً عن حكم بلد محتل عسكرياً، فخليفة دمشق كان يعين حاكم الجيش والشعب المسلم وكان الجيش والشعب يعترف بملك ورئيس دينى واحد وقانون واحد فى القيروان كما هو الحال فى دمشق أو المدينة. ولكن فى جوهر الأحوال فإن المستعمرة كانت تتمتع بحريتها فالسلطة معقودة فى أيدى هيئات مستقلة، وكان الخليفة، بدلاً من أن تدخل خزائنه أموال من الأقاليم، يورد هو الأموال إلى ذلك الإقليم، وإذا كان يريد الطاعة والولاء له، فكان عليه أن يعهد بالحكم إلى رؤساء قبائل أقوياء، بل وأن يخضع أيضاً لأهواء أولئك وأيضاً لمزاج الشعب، وهذا الوضع كان له بالطبع جانبه الحسن وجانبه السئ. فالجانب الحسن كان ينبع من قوة الحياة التى تتميز بها المستعمرات الحرة، تلك القوة التى لا تتدفق أبداً فى الهياكل التى تنشؤها الحكومات والتى تعتمد على الحسابات الرياضية فقط. أما الجانب السئ فإنما كان يكمن فى غضب الفرق، ذلك الغضب الذى كان يجرى فى دماء العرب، ويزيده الإسلام تدفقاً(*) بامتصاصه السريع لكل الشعوب الأجنبية. وكان الجانب السئ ينمو ويقوى بقدر ما كان العرب يمدون جذورهم فى بلاد الغرب، وكان ذلك يتضح بشكل جلى فى الجند أكثر منه فى الأهالى ساكنى المدن. ولما كانت تتعايش معاً فى الجيش نفسه طوائف قحطان وطوائف عدنان المتنازعة فيما بينها وبمجرد ما كانت تبدأ عملية توزيع الغنائم فى أعقاب الانتصار، كانت تبدأ الأخطاء وتتفجر الأحقاد، وكان الحاكم يحابى قبيلته والقبائل القريبة منها على حساب القبائل الأخرى، وإذا ما ساعدت الظروف أو ساعد الحظ على تولى واحد من تلك القبائل، فإنهم ساعتئذ كانوا يردون على الإساءة بمثلها، وإلا فإنهم كانوا يسعون للحصول على حقهم بالقوة. لقد وصلت الخصومة والنزاع بين تلك القبائل إلى الدرجة التى

(*) الإسلام يرفض التعصب القبلى أو المذهبى (المراجع)

عجز فيها سيف البربر عن حسمها. وبعد معركة النبلاء المشؤومة (٧٤٠) فإن الخليفة هشام، كما قلنا، أظهر ضد الأعداء البربر غضباً أقل من غضبه ضد الطبقة الحميرية، التى كانت لها الغلبة فى أفريقيا فى ذلك الوقت(1).

وقد رد الحميريون الصاع بمثله. فلما عين الخليفة قائداً للجيش من قبيلة مضر أو بمعنى آخر من طبقة عدنان يدعى كلثوما، ولما أرسل ضمن تعزيزاته. جيشاً قوامه عشرة آلاف رجل من آل بيته الأموى، أى ثمانية آلاف عربى وألفين من العبيد المعتوقين كانوا يتمركزون فى الشام، فإن العنصرين الاجتماعيين بالمستعمرة قد تحولا ضد الجيش الجديد، وأغلق الأهالى القيروان، لشعورهم بالعار أو بالخوف من تعزيزات بهذا الشكل، أغلقوا أمامهم الأبواب، وقاتل ضدهم أيضاً باقى العسكر، سواء العسكر القديم المتمركز فى أفريقيا، أو العشرين ألف من العسكر الجدد، الذين تم جمعهم من هنا وهناك، من مختلف العناصر النبيلة فى شبه الجزيرة العربية، كما كتب ذلك ابن قوطية. ولما اندفع كل الناس لملاقاة البربر، أخذ القادة يتشاجرون مع كلثوم، فكان العسكر على وشك الاشتباك مع العشرة آلاف أموى، وانتهى الأمر إلى أن فر هؤلاء العسكر من ميدان المعركة وحصد العدو باقى الجند حصداً فظيعاً.

وحيث إن الجند الفارين لم يتحملوا البقاء محاطين بالكراهية العامة، فقد انتقلوا إلى أسبانيا حيث أشعلوا الحروب الأهلية، وكانت أفريقيا على حافة الضياع لو لم يتنازل هشام عن بعض كبريائه

(1) بشير بن صفوان من قبيلة كلب وبالتالى من الفصيل الحميرى، الذى نال الولاية على أفريقيا وعلى أسبانيا عام ٧٢١. كانت تلك الحكومات تفيض برجاله الذين جرت ملاحقتهم واضطهادهم من خليفته أبو عبيدة من قبيلة سليم المضرية. وقد أرسل أحد المضطهدين حينئذ أبياتاً من الشعر إلى الخليفة يشكو فيها نكرانه الجميل نحو أناس ضحوا بأنفسهم من أجل أن يجلس كبراؤه على العرش، وقد أقال الخليفة فى الحال الحاكم - النويرى، فى دى سلان *De Slane*، المؤلف المذكور، ص ٣٥٨؛ كوندى، *Dominacion De Los Arabes En España* الجزء الأول، الفصل ٢٢.

الملكى ويعهد بالقيادة إلى حنظلة بن صفوان الذى تجرى فى عروقه دماء حميرية أصلية، والذى استطاع دون جنود جدد من الشرق أن يستأصل شأفة البربر (٧٤٢)، كما بينا ذلك قبلا(1). غير أن الوفاق كان عابرا والانقسامات مستمرة ومختلفة ومتشابكة لا يمكن حلها: وسرعان ما وقع تغيير آخر لابد من إرجاعه إلى المزاج السائد المعادي للحكومة في الإقليم كله، بل في قلب عاصمته أكثر من أي مكان آخر. حيث إن عبد الرحمن بن حبيب وهو من قبيلة قريشية، وهو رجل شهير بسبب عظمة جده الأكبر عقبة بن نافع ولكونه ينتسب أيضا إلى فرقة كانت قد حاربت قبل بضعة سنوات في صقلية، ذهب إلى أسبانيا بحثا عن النزاعات وبحثا عن دولة، ولما أدرك أن الطريق قد قطع عليه بسبب حكمة قائمقام حنظلة، اندفع في مغامرة يائسة، عبر البحر، وحل في تونس، ووجد مؤيدين له وتجرأ على مهاجمة القائد الذي حرر أفريقيا في القيروان نفسها. ولما لاحظ هذا القائد أن الأهالي مستعدون للانضمام إلى عبد الرحمن بن حبيب خانته شجاعته عن خوض الحرب الأهلية: واستدعى القاضي وأعيان العاصمة، وسلمهم الخزانة العامة، بعد أن أخذ منها ما يكفيه لمصاريف السفر للعودة إلى الشرق، ورحل في هدوء عن المستعمرة (٧٤٤-٧٤٥). عندئذ استسلمت أفريقيا كلها إلى المحتل، بالرغم أنه من طبقة عدنان، وقد شفع له عند الأهالي أنه يتمتع بنسبه إلى قريش وإلى عائلة عقبة مؤسس المستعمرة، ولأنه يتمتع أيضا برباطة الجأش والجرأة التي ظهرت في فعلته، فقد نال دائما إعجاب الجمهور. وإلى جانب فضله في أنه أهان البلاط في

(1) ابن قوطية؛ **مخطوطة باريس** الورقة ٦ ـ الوجه الثانى، والورقة ٧ الوجه الأول. وهذا الكتاب القديم هو الذى قال إن جيش الأمويين يتكون من عرب وعبيد معتوقين. انظر أيضاً ابن الأثير، **المخطوطة**، المجلد الرابع، الورقة ٨٢، الوجه الأول وما بعدها، سنة ١١٧. **البيان**، ص ٤١ وما بعدها؛ ابن خلدون، **تاريخ افريقيا وصقلية**، ترجمة م. دى فيرجيه ص ٣٤ وما بعدها؛ النويرى، فى دى سلان، المرجع المذكور، الجزء الأول ص ٣٥٩ وما بعدها.

دمشق أفاد عبد الرحمن ببراعة من الثورات التي تفجرت في الشرق آنذاك: فمزق في مؤتمر عام حلة التنصيب التي أرسلها إليه الخليفة، وألقى حذاءه بعيدا، وكأنه بهذا يلقي بعيدا عنه سلطة الخليفة، وحكم بشجاعة أمير مستقل وقوته. وبعد عشر سنوات قام أخوه، وهو يحتضنه، بطعنه بخنجر في ظهره فلقي مصرعه في الحال، وتمتع لفترة وجيزة بجائزة الاغتيال بيد الأخ وسرعان ما أفل نجم العائلة الصاعدة (٧٥٧). وبعد أن مزقت الصراعات الحزبية وغارات البربر أوصال المستعمرة، اعترفت مرة أخرى بسلطة الخلافة التي كانت في تلك الحقبة قد انتقلت من البيت الأموي إلى البيت العباسي(1).

ودل هذا التغيير في الخلافة على أن الجنس العربي سرعان ماترك الساحة للمهزومين الذين توحد معهم برباط الأخوة الإسلامية. وقد تم الامتزاج بين الشعوب بشكل واسع وسريع في الأقاليم التي كانت تخضع في الماضي للإمبراطورية الفارسية؛ أما في أفريقيا فقد تم بشكل قلق بسبب عدم صبر البربر، كما تأخر أيضا في مصر وسوريا بسبب خمول الشعوب، وبسبب وجود المسيحية وتسامح المسلمين تجاه هذه الديانة. وإذا ماتركنا الأقاليم الواقعة بين نهري الفرات ودجلة والتي كانت تسود فيها الدماء العربية، فإننا نجد فيما وراء نهر دجلة أبناء الفرس بمعنى الكلمة وأبناء البارثيين: وهي سلالات تتمتع بشجاعتها وتقدمها في الحضارة إذ خرج منها المصلحان الدينيان والسياسيان: ماني ومزدك. اعتنقت تلك السلالات بكل ترحاب وسرور الإسلام الذي قدم لها إيمانا أكثر عقلانية يتميز بشكل اجتماعي أكثر. فعلى حين كان الأمراء العرب يضطهدون في يسر أو يتسامحون بلا خوف من أي خطر، مع أشد المؤمنين بعقيدة زرادشت، فإن الغالبية العظمى من الأهالي انضموا بشكل سريع إلى الفاتحين.

(١) ابن خلدون، **تاريخ افريقيا وصقلية**، ترجمة م. دي فيرجيه ص ٤٢ وما بعدها، **البيان**، ص ٤٧ وما بعدها.

وكان الأحرار منهم يكتسبون في الحال الجنسية الإسلامية بنطقهم الشهادتين: أشهد ألا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا رسول الله. وكان العبيد، باعتناقهم الإسلام، يحصلون بكل يسر على حريتهم ثم يصبحون مواطنين مثل بقية المواطنين، وما كان ينقصهم مع ذلك بعد الجنسية القانونية، هو رعايتهم من جانب أسرة قوية، فالأحرار كانوا يحصلون على هذه الرعاية باعتبارهم رعية بإرادتهم، والمعتوقون كانوا يحصلون عليها من حيث إنهم رعية لازمة. وقد شد هؤلاء الجدد انتباه الحكام بممارستهم في الإدارة العامة، إذ ساعدوا بعملهم على تدوين الشريعة الإسلامية، واشعلوا في صدور الشعوب العربية شعلة العلوم المقدسة، وقبل ذلك كانوا قد أشعلوا في نفوسهم شعلة الحرية المدنية والحرية الدينية، بالشكل الذي كان يمكن إدراكه في تلك الأنحاء. إن شعوب الإمبراطورية الساسانية كانت حقا أساتذة العرب شأنهم في ذلك شأن اليونانيين الذين كانوا أساتذة للرومان. غير أن اختلاف الشعوب، وخاصة المؤسسات الدينية والمدنية، قد حملت الأساتذة الفارسيين إلى السيطرة على الحكم في الدولة، الأمر الذي لم يتمكن الأساتذة اليونانيون من التوصل إليه.

وقد مضى قرن من الزمان حتى أتى ذلك ثماره التي ظهرت أول ماظهرت في خراسان، وهو أقصى الإقاليم الشرقية، حيث كانت تقطن، مثلها مثل أي إقليم في الامبراطورية، حفنة من العرب أصحاب النفوذ والتأثير. /

وهنا كان بُعد دمشق عن الإقليم يجعل الحكومة الإقليمية أكثر غطرسة وفي ذات الوقت أكثر ضعفا، ويدفع مسلمي الأقاليم، وغالبيتهم من الأهالي الأصليين، يدفعهم إلى الرغبة في التجديد. فكانوا يرون البيت الأموي يصعد دائما من أخطاء اغتصاب الحقوق بإدارة تتناقض مع مباديء الإسلام الجمهورية، ويتعامل بقسوة لاهوادة فيها مع أهل البيت العلوي. أولئك الأمراء الملكيون، بجشعهم وسفههم والخلافات المحتدمة دائما فيما بينهم جعلوا المسلمين يقولون إنهم حقا أهل لأسلافهم عبدة الأوثان المتصلبين الذين

حاربوا النبي قدر استطاعتهم وأنهم الآن يهينون ويعتدون ويذبحون أهل بيته. حيث إنه علاوة على نسل علي، كانت هناك أيضا سلالة العباس عم النبي محمد ورب البيت بعد موته والأول بين جماعة عمر المؤثرة، كما قلنا من قبل. كان لأبناء العباس أتباع في الأمة، وبنوع خاص على مايبدو بين ديار النبلاء الذين أقاموا في خراسان وكان الأمويون قد عاملوهم بالاحترام، ولكن الحقد على الأسرة المالكة وكبرياء العباسيين أديا في النهاية إلى إهانات متبادلة. ويحكى، فيما يشبه الحقيقة، أنه قد تم بين أنصار العلويين والعباسيين اتفاق من الاتفاقات الواهية المختلفة، مثل اتفاق بين اثنين طموحين على حساب طرف ثالث، إلا الاقتتال فيما بينهما بعد الانتصار، وكانت الرابطة الأسرية، وهي الرابطة التي ظلت قائمة حسب التقاليد العربية الموغلة في القدم، كانت هي الطريقة الممتازة لإثارة المؤامرة التي دبرها العباسيون واخفاء أمرها. فراح كثير من الدعاة المدربين، الذين تم اختيارهم على أساس طائفي وترتيب طبقي، راحوا ينادون في خراسان ويجمعون من الأنصار مساهماتهم: وكان يدير هذه العملية إدارة محنكة أبو مسلم وكان قد قام على تربيته رجل طيب من البيت العباسي بعد أن وجده طفلا لقيطا على قارعة الطريق العام. وبعد أن اتسعت دائرة المؤامرة، تم اكتشافها فنزل غضب الخليفة على إبراهيم كبير البيت العباسي الذي توفى في السجن في حّران: لكن سرعان ماهب أبو مسلم بالسلاح في خراسان وحطم جيوش الأمويين وتحرك نحو مابين النهرين، فنادى شعب الكوفة، دون توقع ذلك، بأن يكون الخليفة، شقيق ابراهيم المتوفي، وهو عبدالله الذي عرف في التاريخ باللقب الفظيع ألا وهو لقب السفاح أو كما نقول عندنا الدموي. وحقيقة فقد جرى الدم أنهارا بأمره وأوامر أبي مسلم الذي أجلسه على العرش والذي قتله خليفة عبدالله من أجل تسـوية حسابات الأسرة. وقد نجا من القتل واحد فقط من البيت الأموي هرب إلى أسـبانيا حيث وجد له أنصارا هناك فأسس مملكة في ذلك الإقليم تركها لخلفائه الذين أطلقوا على أنفسهم لقب الخليفة.

أعلن ماتبقى من الامبراطورية طاعته للبيت العباسي الذي غير كل شيء، ماعدا نظام الاستبداد. أصبحت الأعلام وملابس الموظفين العموميين سوداء اللون فهو اللون المفضل للأسرة. ولم يعد الحراس من الطبقة الأرستقراطية العربية ولكن تم اختيارهم من أنصار بيت خراسان ثم من المرتزقة الأتراك الذين صاروا عار الخلافة ودمارها، انتقل مقر الحكم من دمشق إلى بغداد التي شيدت خصيصا ببهاء إمبراطوري، واتجهت عادات البلاط بدلا من البساطة العربية اتجهت إلى الفخامة الفارسية، ونزعت الإدارة العامة من العرب وأسندت إلى الخراسانيين فغلب عليها الطابع التفتيشي المزعج، الأمر الذي دفع مؤلف عربي(1) إلى القول بأن البيت العباسي دعم الإمارة على طريقة الملوك الساسانيين.

خلاصة القول إن السلالة الفارسية استولت على الحكم الذي لم يستطع العرب المحافظة عليه(2). من هنا نشأ المجد الأدبي الذي جعل العباسيين أشهر من نار على علم، وذلك لأن الفرس عندما أتوا للخدمة في بلاط العرب وفي كل أقاليم الإمبراطورية، نقلوا العلوم إلى تلك الأقاليم، أنهم هم وحدهم الذين تولوا أمور العلوم والمحافظة عليها ونشرها عند الخلفاء، وصاروا قدوة للمسلمين المنحدرين من السلالات الرفيعة، وجذبوا عددا قليلا جدا من مسلمي الجزيرة العربية، ولكن لأن الجميع قد كتبوا بلغة القرآن، فقد عاد الفضل إلىالعرب في أنهم تفوقوا في الحضارة الإنسانية عبر القرون

---

(1) ابن حزم، الذي ذكر **البيان** ص ٥٢ نصّ كلامه على النحو التالي: بعد أن نزعت الدواوين من أيدي العرب، تولى أجانب خراسان أمور الدولة، فتحول الحكم على أيديهم إلى حكم فظ على طريقة كسرى.

(2) بالإضافة إلى الفقرة التي ذكرت من **البيان** والحكايات العامة التي لاينبغي ذكرها هنا، انظر مقالات م. كاترمير، والأستاذ دوزي في *Le Journal Asiatique*، المجموعة الثانية، المجلد١٦ (١٨٣٥) ص٢٨٩ وما بعدها، والمجموعة الرابعة، المجلد ١٢ (١٨٤٨) ص٤٩٩ وما بعدها.

المظلمة التي سادت العصور الوسطى(1).

لم يتأخر محاربو خراسان في الانتقال إلى الجانب الآخر من الإمبراطورية لثقة أو شك في البيت العباسي، الذي على مايبدو قد حاول، عندما لم يستطع التخلص منهم جميعا كما فعل مع أبي مسلم، استخدامهم في السيطرة على أفريقيا، لذلك فإن الجيش الذي تحرك من الشرق (٧٦١) لمحاربة البربر، بعد إحدى عشرة سنة من خلافتهم، ذلك الجيش كان يتكون من ٣٠ (ثلاثين) ألف رجل من خراسان وعشرة آلاف عربي من الشام، يبدو أنهم مشتركون في الجريرة نفسها؛ وبعد عشر سنوات جرت تعزيزات جديدة من الجند تم تجميعها دون تنسيق من خراسان، ومن الشام ومن العراق، وقد أصبحت تلك الجيوش كما ذكرنا مستعمرات، واحتلوا البلاد احتلالا أقوي: الأمر الذي أدي إلى تعاظم المدن، وازدياد عددها، واستولوا على أراض جديدة اقتسموها فيما بينهم وازدادت الضرائب التي جمعوها من الشعوب، تلك الشعوب التي تعودت على حمل نيرهم.

في الوقت نفسه أصبح الجنس الفارسي عنصرا جديدا للخلاف في أفريقيا، فقد كان الفرس في البداية متغطرسين لكثرة عددهم وبسبب محاباة القصر لهم، ثم شقوا عصا الطاعة مثل بقية الأجناس. في الفترة الأولى تم اختيار حكام الإقليم من الفرس. واستمر الحال على هذا المنوال حتى تولت أسرة في الإقليم ذاته، وتناوبت الإدارة فيه لمدة ثلاثة وعشرين عاما، وهي الادارة التي تولاها الفرس مثل من سبقوهم، حتى أن بعض جنود الشام، بعد ثلاثين سنة من الاقامة، عزلوا من دور الجند وتحولوا إلى مجرد رعية أي من عامة الناس، وذلك لكي يحل محلهم رجال من خراسان وعندما

(1) سجل ابن خلدون هيمنة الفرس الكاملة على العلوم، وتؤكد عليها التراجم، كما يلاحظ ذلك في إطار التاريخ الأدبي للمسلمين الذي وصفه م. دي سلان، *Ibn Khalikan's Biographical Dictionary*، المقدمة، المجلد ١١ ص٥ ومابعدها.

تذمرت الأجناس الأخرى وأراد الخليفة إصلاح ذلك الخلل، فإن زعماء الفرس انقسموا على أنفسهم، وتمرد أكثرهم سخطا: وقد تلى ذلك اضطراب عام في صفوف الخراسانيين والعرب المضريين، وعرب اليمن والعرب الذين أتوا من الشام وهي تحت الخلافة الأموية ثم وهي تحت الخلافة العباسية والبربر المسلمين والبربر الزنادقة، وكانوا جميعا وهم حاملو السلاح يتنازعون على الحكم وعلى جني ثماره. لذلك تزعزعت سلطة الخلفاء على الإقليم، وقد كانت دائما سلطة ضعيفة، وظلت قائمة بفضل وسائل معينة منها الثقة في قائد معين، أو في مدير البريد والجاسوسية، وبنوع خاص بفضل المائة ألف دينار التي كانت الخلافة تبددها كل عام على أولئك الجنود المشاكسين بعد أن كانت تستقطعها من إيرادات مصر.

وفي تلك الظروف قبل هارون الرشيد العظيم أن يعطي أفريقيا ولاية إلى إبراهيم بن الأغلب(1). وكان الأغلب، وهو من قبيلة مضر التميمية، كان قد ساعد أبا مسلم والبيت العباسي في ثورتهم على

(1) **البيان**، ص٦١ إلى٨١، ابن خلدون، *Histoire de l'Afrique et de la Sicile*، ترجمة م. دي فيرجيه ص ٥٥ إلى ٨٣ النويري، فى دى سلان، *Histoire Des Berbéres*، تأليف ابن خلدون، المجلد١ – ص٣٦٧ وما بعدها. جاء ذكر تدني حالة الجنود القدامى في الشام في ابن قوطية الذي يقول إن جنود خراسان كانوا موجودين في أفريقيا حتى عصره، مخطوطة باريس، الورقة٧، الوجه الأول. ويجب أن أنبه هنا إلى أنه في مخطوطة لابن الأثير ، المخطوطة أ، المجلد١ ، الورقة٢٠، الوجه الأول ذكر لقب «الصقلي» في الحديث عن عبد الرحمن بن حبيب من قبيلة قريش، والذي طرد من أفريقيا لتمرده على العباسيين عام٧٧٢، وذهب إلى أسبانيا ليلقى حتفه تحت لوائهم نحو عام٧٧٧. وكان عبد الرحمن هذا هو حفيد قائد يحمل الاسم نفسه أشعل الحرب في صقلية سنة٧٤٠ ثم اقتنص بعد ذلك أفريقيا، كما ذكرنا. غير أن اللقب «صقلي» الذي لم يحمله الجد الأول وأيضا لم يحمله الحفيد، قد حمله عبد الرحمن ذلك خطأ بدلا من صقلبي *Saklabi* وذلك نسبة إلى طول قامته ولون وجهه الأسمر. انظر ابن قوطيه، مخطوطة باريس، الورقة ٩٤، الوجه الثاني؛ وكوندي *Dominacion De Los Arabes En España*، الجزء الثاني، الفصل الثامن عشر، والذي يخطيء في تاريخ محاولة عبد الرحمن في أسبانيا.

الأمويين، ثم ساعد البيت العباسي في قتل أبي مسلم(1)، ومن ثم فقد أتى (٧٦١) برتبة عالية في الجيش إلي أفريقيا. لقد أثبت جدارته في الحرب، وتم اختياره لحماية حدود الزاب ضد البربر، ثم أصبح في النهاية حاكما على كل الإقليم ومات فيه وهو يقاتل زعيما يمنيا متمردا (٧٦٧). إلا أن الابن، الذي كان قد نال قبول القصر وأصبح واحدا من أولئك الذين يتميز سلوكهم بالطاعة لأسرتهم، قد بقي في حامية الزاب، بعيدا عن الخلافات والنزاعات التي كانت تجري في القيروان، وقلما حسده على ذلك الطامعون في الحكم وأحبه الجنود لسخائه معهم، ولبسالته وقوة إرادته. وحدث أن اشتركت بقية الجنود في ثورة عامة، نشأت في تونس وتمت في القيروان بموافقة من الأهالي وقد أثارها الحاكم محمد بن مقاتل، أخو الخليفة في الرضاعة وهو من ذوى النفوذ والمقربين ومغرور لا شأن له، وكان قد خفض المرتبات وأساء معاملة العسكر والأهالي والمتزمتين في الدين على السواء. ولما تم القبض عليه وأعفى من القتل وطرد شر طردة وبكل مهانة من الإقليم، أسرع إبراهيم إلى القيروان مع جنوده المخلصين ودعى ابن مقاتل، وقاتل زعيم الثورة، وهو قريب له يدعى تمّاماً وتبادل معه الهجاء نثرا وشعرا قبل منازلته بالسلاح. لقد استمرت طويلا عادات الفروسية البدوية عند طبقة النبلاء كثيرة العدد التي حطت واستقرت في أفريقيا(2).

وقد ســاعد الحظ إبراهيم كما ساعدته خبرته ومهارته على الارتقاء بين الزملاء المشاغبين. وبعد أن هزم المتمردين، أرســل بعض زعمائهم مكبلين بالسلاسل إلى بغداد. وبعد ابتهــاجه بالنصر مع الآخرين، كتب إلى القصر يشكو من الحاكم الذي هو نفسه كان قد

---

(1) ابن الأبار، مخطوطة الجمعية الآسيوية، باريس، الورقة٩، الوجه الثاني.

(2) ابن الأبار، المخطوطة المذكورة، الورقة ٩، الوجه الثاني، يروي أن الأربعين ألف جندي الذين عبروا إلى أفريقيا عام ٧٦١ كان يقودهم ١٢٨ قائدا، بمعنى أن كـل واحد منهم كان يتولى مجموعة من أقاربه أو فصيل من قبيلة. انظر أيضا **البيان** ص ٦١.

عزّزه. وأوضح في شكواه أن الحاكم مكروه جدا وأن الإقليم في حاجة ماسة إلى التنظيم، وطلب من القصر حاكما آخر على الإقليم واعدا الخليفة بأنه لن يكلفه دينارا واحدا ينفقه على أفريقيا، بل سوف يعطيه أربعين ألف دينار في السنة. وقد قبل هارون الرشيد اقتراحه، ليس بخلا منه، لكن لأنه لم تكن توجد وسيلة أخرى، فقد كان عليه أن يفكر في الشرق الذي هو مركز الإمبراطورية، وذلك لأن أي جيش جديد كان سيرسله إلى أفريقيا، كان سيصبح مستعمرة جديدة من المتمردين. وقد نصحه بذلك أحد مستشاريه، وكان يعرف جيدا أفريقيــا، كما شــجعه على ذلك إخـلاص إبراهيم بن الأغلب وولاؤه وقوته.

وبعد أن حصل إبراهيم على وثيقة تعيين الخليفة له، أخذ ينشيء قوة جديدة يستطيع الاعتماد عليها. إشترى أرضا تبعد ثلاثة أميال عن القيروان بغرض أن يقيم فيها دارا ريفية، وبدلا من ذلك شيد عليها قصرا أحاطه بالخنادق، ونقل سرا إلى هذا القصر السلاح والمعدات التي كانت في قصور الأمراء بالقيروان. في الوقت نفسه أحسن معاملة الجند وشملهم برعاية خاصة، بل وتحمل سفاهتهم، واختار من بينهم مجموعة خاصة أنصارا له، ومن جانب آخر أخذ يشتري عبيدا سودا، مع إشاعة أنه يريد أن يكلفهم بالأعمال الوضيعة والشاقة، ويخفف بذلك المشقة عن النبلاء من الجند: وقام بتدريب العبيد على السلاح وعلّمهم جماعات جماعات. ولما أعد كل شيء، غادر ليلا قصر القيروان (٨٠١) بصحبة أفراد عائلته وأهل ثقته من الجند، والعبيد الذين قام بتسليحهم فأقام في القلعة التي أطلق عليها اسم العباسية تشريفا لاسم العائلة، ثم أطلق عليها اسم القصر القديم. واستؤنفت حركات التحريض والعصيان، وأولى هذه الحركات قامت في تونس وقادها أحد الأقطاب من فصيلة من الجزيرة العربية يدعى حمديساً والذي يبدو أنه الجد الأكبر للشاعر الصقلي المنحدر من العائلة نفسها: لكن إبراهيم استطاع دائما السيطرة على هذه الحركات، فكان يغلق على نفسه في القلعة

عند تفوق قوات المتمردين، ثم كان يؤجج الانقسامات بينها بفعل المال كما كان يلجأ في بعض الأحيان إلى البربر. وثبت أقدامه في السلطة وقلم أظافر العائلة الإدريسية في فاس تارة بقوة الأموال وتارة أخرى بأعمال الخيانة، ونال احترام المسيحيين الذين عزز معهم أواصر السلام، كما كان أيضا على وفاق مع حاكم صقلية وأبدى احترامه الكبير لشارلمان الذي كان مرتبطا بهارون الرشيد بسبب المصالح السياسية بينهما والود المتبادل بين العبقريتين العظيمتين. وكان شارلمان، بعد توليه عرش الامبراطورية، في العام الذي تولى فيه إبراهيم الحكم في أفريقيا، كان قد أرسل إليه برسل في العباسية، قلعة الخندق، كما أطلق عليها هذا الاسم زاينهاردوس في حولياته، ليطلبوا منه جثمان قديس مدفون في مدينة قرطاجنة، وهو كنز لا فائدة منه بالنسبة لإبراهيم الذي رحب بالطلب ترحيبا شديدا(1).

ولما توفى إبراهيم الأغلبي ترك لأولاده، بعد اثنى عشر عاما من الحكم وهو في سن السادسة والخمسين من عمره، ترك لهم مملكة تحت اسم ولاية: وهو اسم غامض استمر مع ذلك طويلا في بعض الدول الإسلامية، كما في مصر على سبيل المثال. وقد احتفظ الأغالبة، شأنهم في ذلك شأن الحكام السابقين باللقب العسكري «أمير» وأيضا اللقب الأعم «الوالي» والذي كان يطلق أيضا على من يتولى سلطات أقل. وكان الخليفة يبعث إلى كل أمير جديد في تلك

(1) قارن بين ابن الأبار، **مخطوطة الجمعية الآسيوية**، باريس، الورقة ٩، الوجه الثاني، وحتى الورقة ١٥ الوجه الأول. **والبيان**، ص ٨٠ إلى ٨٦، وابن خلدون، تاريخ أفريقيا وصقلية، ترجمة م. ديه فيرجيه، صفحات: ٥٩، ٦٠ و ٨٢ حتى ٩٤، النويري، فى دي سلان، تاريخ البربر، تأليف ابن خلدون، المجلد الأول، ص ٣٧٤ إلى ص ٤٠٣. بالنسبة للعباسية، القصر القديم، انظر بكري في مجموعة *Notices et Extraits des Mss.* المجلد ١٢ ص ٤٧٧؛ ارجع اينهاردو بعثة شارلمان إلى إبراهيم إلى سنة٨٠١ «الحوليات»، فى بيرتز، *Scriptores*، المجلد الأول ص ١٩٠.

العائلة وثيقة مكتوبة يمنحه سلطة الحكم مصحوبا بالعلم رمز القيادة والكسوة والقلائد، وكلها ترمز إلى السخاء العائلي: وهي أعمال صادرة من أعلى سلطة، غير أن الخليفة لم يكن في استطاعته ممارسة هذه الأعمال في صالح شخص آخر.

وسرعان ما تحولت ضريبة الأربعين ألف دينار إلى هبات لا فائدة منها ثم اختفت وخاض أمراء أفريقيا الحروب وعقدوا معاهدات سلام، وأثقلوا من فرض الضرائب تارة وتارة ألغوها، وعينوا قضاة وقادة في الجيش، وذلك كله حسب ضرورات الولاية، وليس كما يشاء ويرغب الخليفة، ونقشوا أسماءهم على النقود مع الصيغ الدينية التي يستخدمها العباسيون، بحيث لم يبق من كل الحقوق الخاصة بالخليفة، كما يراها المتخصصون من المسلمين، لم يتبق للخليفة سوى المجد الأجوف المتمثل في أن تدعو له شعوب أفريقيا في صلواتها يوم الجمعة. غير أن الأغالبة، إذ كانوا يغتصبون بشكل متصاعد حقوق الإمارة المتفق عليها، لم يكن في إمكانهم كتم المباديء الطبيعية لدى الناس، تلك المباديء التي تدعمها قوة السلاح من جانب المواطنين والجند(1)، وأيضا القواعد الأولية للإسلام.

ومهما عجزنا عن توضيح الحدود التي وضعها العرف والتقاليد على الأمراء الأغالبة، فإننا نرى حدا له أهميته الكبرى ألا وهو حق تقرير السلام والحرب الذي كان يمارسه الأمير مع الجماعة، أو كما نقول نحن، مع برلمان إقليم القيروان وقد ذكر ذلك لأول مرة بصدد اتفاق مع وجيه صقلية في عام ٨١٣، وقد عرفنا من كلام أحد الجالسين في الجماعة أنها قد اجتمعت بدعوة من الأمير وهي عبارة عن الشيوخ والوجهاء، وأن الاتفاق قد تم تحريره وقراءته في حضورهم، فإن وجودهم لم يكن مجرد شهود على الاتفاق وأن الأحزاب كانت تثور بحرية، ويدل على ذلك الاجتماع الذي انعقد بعد ذلك ببضع سنوات لمناقشة موضوع الحرب فى صقلية، وقد جلس

(1) بالنسبة إلى عهد الأغالبه كله انظر ابن خلدون، والنويري و**البيان**.

القضاة في ذلك الاجتماع كما يدخل رجال القانون في مجلس الشيوخ بانجلترا، واضطر الأمير إلى قبول الرأي السائد(1).

ولكي نفهم تماما كيف كانت تتوازن السلطات في الدولة الأغلبية، يجب أن نتتبع السلطة التي نالها الفقهاء في ذلك الوقت لدى عموم المسلمين. كان لتقدم دراسة الشريعة، مثلها مثل أي ممارسة عقلية، بعد قيام الدولة العباسية على وشك أن يخلق في الامبراطورية سلطة جديدة بديلة لسلطة صحابة الرسول: فبدلا من أرستقراطية الصحابة تحل أرستقراطية العلماء. فكان هؤلاء في الوقت نفسه علماء دين بلا كهنوت، معلمى أخلاق، ودعاة وفقهاء، كما كانت تؤدي إلى ذلك وحدة القوانين واختلاطها. ولتناقض التيوقراطية الحتمي، أراد علماء الدين أن يحكموا بدلا من السلطة الدينية العظمى وبدلا من الملك، وقد وصلوا، سواء بعد كثير أو بعد قليل، وصلوا إلى تلك السلطة، غير أنه من حين إلى آخر كان الأسد يسمعهم زئيره، وهكذا فإن أبا حنيفة (٦٩٩-٧٦٧) وهو الأول بين أئمة العلم، كان قد توفى في السجن شهيدا، مثل بابينيانو، بسبب تعاليمه وضميره. ويمضي وقت طويل حتى حظى مالك بن أنس (٧١٢-٧٩٥) باحترام هارون الرشيد وهو رجل عظيم ومتحضر، لدرجة أن الخليفة قد فكر في أن يضفي صفة القانون على الموطأ، كما يطلق على مدرسة ذلك الفقيه، وقد امتنع مالك نفسه عن ذلك، لا نعلم إن كان تواضعا منه أم لأنه يرى ذلك غير شرعي أو إهانة للعلم. ومرة أخرى، عندما طلب منه هارون الرشيد أن يعطي دروسا لولي العرش المنتظر، رد عليه مالك بأن العلم، وهو أنبل وأسمى من كل قوة بشرية، لا يجب أن يخدم الغير، بل الغير هو الذي يتحتم عليه أن يخدم العلم، الأمر الذي دفع الخليفة إلى أن يعتذر له وأرسل ابنه مع بقية شباب المدينة إلى الجامع الذي كان مالك يدرس فيه.

(1) رياض النفوس، المخطوطة، الورقة ٢٨، الوجه الأول. وعن هذا الاجتماع الخاص بالجماعة سوف نتحدث في الكتاب الثاني، الفصل الثاني. ويكفي أن نلاحظ هنا، حسب ما ذكره النويري، أن الوجهاء والفقهاء كانوا هم حضور الاجتماع.

وفي عهد خليفة آخر تم جلد ابن حنبل (٨٣٤)، لأنه كان ينادي ضد إعلان الخليفة، بأن القرآن لم يخلق، وهوت عقيدة الخليفة. ولما توفي ابن حنبل (٨٥٥) يقال إنه في بغداد قد ودعه إلى مثواه الأخير أكثر من ستمائة ألف شخص وعشـرين ألفاً مابين مسيحيين ويهود ومن ديانات أخـرى قد اعتنقوا الإسلام في الحـال، متأثرين بحماس الشعب الذي كان يحتفي في صـوت رجل واحد بعلم ذلك الفقيه العظيم وفضائله.

ولا يمكننا إحصاء الأمثلة العديدة للفقهاء الفضلاء الذين اعتلوا سلطة القضاء، واستطاعوا مواجهة غضب الأمراء بشجاعة نادرة تفوق شجاعة أي قاض آخر يذكره التاريخ الأوروبي. وقد احتفظوا في نظام الدولة، احتفظوا بالسلطة القضائية مستقلة عن سلطة الإمارة، تماما كما نفعل نحن تقريبا مع نظريات القانون العام، وذلك لأن الفقهاء اغتصبوا السلطة التشريعية بتفسيراتهم للعقيدة ومن جانب آخر لم يفصلوا فصلا واضحا وتاما سلطة القضاة التشريعية عن سلطة الأمير والحكام والوزراء.

وبالإضافة إلى ذلك فإن أخطاء الأرستقراطية العسكرية، بل فوضى مجتمع الجزيرة العربية التي لا يمكن التغلب عليها، جعلت من الضروري قيام قضاء استثنائي، كما نطلق عليه نحن، ومحكمة استغلال النفوذ كما سماها المسلمون، وهي محكمة يرأسها الأمير أو مفوض عنه، سريعة في إجراءاتها وحاسمة ونهائية في أحكامها. وهكذا رويدا رويدا احتلت طبيعة الاستبداد، ساحة العدالة، تلك العدالة التي طالها هي أيضا الفساد في الشرق مثل كل أمور الحكم، وسرعان ما هوت في الحالة التي هي عليها الآن. وقد اكتملت الشـريعة الإسلامية في القرن التاسـع. وأطلـق بالإجماع العام من جانب المعاصرين واللاحقين أطلق لقب الإمام على أربعة من علماء الدين، أي الثلاثة الذين سبق ذكرهم بالإضافة إلى الإمام الشافعي الذي أتى بعد أبى حنيفة ومالك.

واتفقت المذاهب الأربعة في العقائد الدينية وبالتالي فقد تم قبولها مذاهب قويمة، وكانت تختلف فيما بينها في بعض النقـــاط الخاصة بالقواعد الدينية والقانون العام والقانون المدني، كما هو الحال في وقتنا هذا بالنسبة لكتابة القانون الفرنسي في مختلف الدول التي تبنته قانونا لها. فنجد أحدها يسيطر في بلد على حين يسيطر الآخر في بلد آخر من البلدان الإسلامية، فنرى مذهب أبي حنيفة منتشرا في وقتنا هذا في تركيا وفي الهند، على حين نرى مذهب مالك في أفريقيا وكان أول من نشره فيها أسد بن الفرات وغيره من معاصريه، إلا أنه لم يصبح قانونا عاما في البلاد إلا في أوائل القرن الحادي عشر(1).

بدأت المعارضة السلمية في أفريقيا من جانب علماء الدين عندما أخذ أبو العباس عبدالله، ابن إبراهيم الأغلبي (٨١٢-٨١٧) وخليفته يفرض ضرائب باهظة على الملاك وذلك لصالحه وصالح الجنود الذين احتفظوا بهدوئهم طوال سنوات حكمه. وقد رأي أبو العباس عبدالله أن إيرادات الضرائب التي تعـود عليه من الأطيـــان غير وفيرة وغير أكيدة، وكانت عبارة عن ١٠٪ من المحــاصيل الزراعية وكان يحصـل عليهـا محاصيل أيضا، لذلك فكر فى أن يضرب باللوائح عرض الحـائط ويحصـل على قيمة الضرائب نقدا، غير واضع في

(1) يؤكد ابن الأثير أن المذهب المالكي قد طبق في أفريقيا بأمر من المعز بن باديس، ثاني الأمراء الزيريين، المخطوطة جـ -المجلد الخامس- الورقة ٤٦، الوجه الثاني في عام ٤٠٦. لقد أهملت الاستشهادات الزائدة الخاصة بالأحداث المتعلقة بالعلماء الأربعة الأساسيين وهي مشهورة جدا. وعن الشريعة الإسلامية انظر مقدمات دوبسون *Tableau General De L'Empire Ottoman*، هاميلتون، *The Hedaya*، والنص العربي للمـــاوردي **الأحكام السلطانية**. لقد قام البـــارون دي ســـلان بعرض واف للدراســات الشـــرعية الخاصـــة بالمســـلمين في مقدمـــة المجلد الأول للترجمـــة الانجليـزية لابن خـــلكان، ص٢٣ ومـــا بعدهـــا، انظـــر أيضـــا: م. ورمس *"Recherches Sur La Constitution De La Propriété Territoriale Dans Les Pays Musulmans Exploration Scientifique De L'Algerie, Sciences Historiques* ص١ ومابعدها، والسيد م. بيرون، المجلد العاشر.

إعتباره إذا كان المحصول وفيرا أو قليلا. وقد عم الضيم المواطنين وأصابهم السخط والإحباط من جراء ذلك وأيضا من أفعال استغلال نفوذ أخرى. وتوجه إليه الشيوخ وأعيان البلاد لمقابلته في قلعته وذكروه، على حد قول أحد المؤرخين، ذكروه بتعاليم الدين ومصلحة الدولة الإسلامية، ولما سخر المستبد من كلامهم، أداروا له ظهورهم الغيظ والغضب يعتصران قلوبهم، وأثناء انصرافهم توقف أحدهم، وكان يدعى حفص بن حميد وكان شيخا ورعاً، وطلب من رفاقه أن يتوقفوا ثم قال لهم: لا يجب أن نضع أملنا في البشر، ولكن يجب أن يكون كل أملنا في الله، ثم توجه إلي الله داعيا إياه أن يعاقب ذلك الأمير الغاشم الفاسد، ومع كل دعاء كان الجمع يرد عليه: آمين. إلا أن تواطؤ الجند مع الأمير منع رجال الدين من الانتقال من الدعاء عليه إلى أعمال أشد خطورة. وسرعان ما أخذوا يفرحون لحكمتهم واستجابة السماء لصلاتهم، حيث أصابت الأمير عبدالله قرحة في أذنه وانتقل إلى العالم الآخر(1).

(1) **البيان** ص٨٧؛ ابن خلدون المرجع المذكور، ص٩٤ إلى٩٦، والنويري الفصل الأول، المجلد١ ص٤٠٤. والنويري هو الوحيد الذي يعطي قياس المساحة التي قلت أنا عنها المحروثة، فهو يقول الزوج الحارث. والأمر يتعلق بالتأكيد بمقياس خاص بالأرض. والفعل *aratata* غير الموجود في القواميس، هذا الفعل كان منتشرا استخدامه في صقلية حتى أوائل قرننا هذا، وكان يعني مساحة شاسعة من الأرض دون تحديد. لقد تفاديت كلمة *iugero* والتي تقابل العربية زوج عند النويري، لكنها تعني مقياس أراضي مختلفا تماما وكلمة *jugerum* كانت تعني مساحة الأرض التي يمكن حرثها في يوم واحد بزوج من الثيران، وتقابل بالتقريب ٢٥ أري *ari* وهو مقياس فرنسي. والزوج، الذي يستعمل في وقتنا هذا في الجزائر ويستبدل بلفظ زويجة وتكتب بالفرنسية *djebda* وهو مقياس يختلف من مكان إلي مكان وتعني مســاحة الأرض التي يســتطيع زوج من الثيـران حرثها في موســم واحــد، وهــذه الكلمة زويجة طبقا للإشارات التي يذكرها م. ورمس في *Recherches Sur La Propriété Territoriale Dans Les Pays Musulmans* ص٤٢١-٤٢٢، أعتقد أنها تدل على مساحة تتراوح مابين ٧ إلى٨ هكتار وهذا يعني أنهم كانوا يستطيعون فرض٨ دينار أي١٠٠ ليرة إيطالية على كل قطعة أرض محروثة. وكلمة زوج بهذا المعنى تتردد في المذكرات الصقلية، القرن العاشر والقرن الثاني عشر، كما سنوضح ذلك في موضعه.

ويبدو أن الفزع الذي صاحب هذا الحدث قد ترك أثره في نفس الأمير الجديد زيادة الله (٨١٧)، وهو أيضا ابن إبراهيم، وهو رجل قوي الشكيمة، وبعد ان قطع شوطا في الطريق الذي رسمه أخوه (1)، أخذ يتراجع عنه، ويبتعد عن الجند ويصغي إلى نصائح الفقهاء له وتوغل في الهواجس الدينية حتى إنه كان يستشير القاضي في المباح له دينيا من الملذات(2)، والأدهى أنه كان يتحدث عن أمر حكم الاعدام ضد الزنادقة الفقراء أو كما نقول نحن ضد المتشككين، وهم خطرون في ظل حكومة تيوقراطية، يشرف عليها رجال الدين، وهؤلاء المتشككون، بالإضافة إلى الفصائل الفارسية مع عدم التحضر كانوا يثيرون السخط والغليان في كل أنحاء الإمبراطورية لدرجة أنهم كانوا يتفلسفون حتى في أفريقيا(3).

وهذا الأمير الجديد تم وصفه على أنه متحدث جيد، كريم مع الشعراء البدو ومع العلماء القادمين من المشرق إلى قصره، رجل مملوء بالحماس والمثابرة، عظيم ومحب للعدل(4). غير أنه سرعان ما كشف عما يقصد هو بالفضيلة، عندما أفصح وقال إنه يثق في رحمة الله يوم القيامة، حيث إنه أرسل أمامه، وكان هذا التشبيه البلاغي سائدا بين المسلمين، أرسل أمامه أربعة أعمال استحقاقية ألا وهي: إقامة المسجد الجامع وتشييد كوبري بوابة ربيع في القيروان، وبناء قلعة الرباط في مدينة سوسة واختيار أبي محرز

---

(1) نلاحظ ذلك من كلمات أسد بن الفرات، والتي ذكرناها في الكتاب الثاني، الفصل الثاني حول مرجعية كتاب **رياض النفوس**.

(2) انظر الكتاب الثاني –الفصل الثاني

(3) **رياض النفوس**، المخطوطة، الورقة ٢٩ – الوجه الأول.

(4) هكذا يقول الصفدي، مخطوطة باريس، سيرة زيادة الله. لقد عاش الصفدي في القرن الرابع عشر. والكتاب الذين نقل عنهم ذلك الحكم إنما يثبتون أن قول الشاعر أريوستو *Ariosto* في النشيد ٣٥. في المقطوعة ٢٦ يصلح لكل الشعوب إذ يقول «لم يكن أغسطس قيصر لا قديسا ولا صالحا بهذه الدرجة........».

قاضيا للعاصمة (1). وبعد أن اطمأن إلى كل هذه الاستحقاقات، بدا له أمر الدم الذي كان يسفكه هينا، تدفعه إلى ذلك طبيعته المتوحشة وضرورات الحكم الاستبدادي والخمر التي كان يتناولها، ولم ينس ذلك الطبع المتسلط الآمر سفاهة الجنود وأبى أن يستميلهم أو يشتريهم، كما فعل والده وأخوه. لقد أراد الطاعة والخضوع منهم له لأنه الحاكم والآمر فقط لا أكثر ولا أقل، ويبدو لي أنه أهان الجند في ممتلكاتهم إذ منع عنهم ضريبة عبدالله الجديدة. وكان من السهل عليه إخماد أول ثورة أشعلها ضده زياد بن سهل بن الصقلية، أي ابن المرأة التي من صقلية، أو ابن سلافة. ولكن لما ثار ضده بالسلاح عمرو بن معاوية، وهو من قبيلة قيس القوية والذي اضطر إلى الاستسلام، ولما قبض عليه زيادة الله، لم يستطع السيطرة على رغبة الانتقام منه. وكان شاعر البلاط أكثر حكمة منه إذ قال له، لما سأله في ذلك اليوم عن آخر أخبار البلاد: يقولون ألا تقتل عمرو، لأن قبيلة قيس سوف تجعلك تدفع غاليا ثمن ذلك الدم. إلا أنه، بلا مبالاة على الإطلاق لهذا الكلام، أسرع إلى السجن وقتل بيده ذلك المتمرد مع ولديه، وبعد أن وضع رؤوسهم على درع، وضع هذا الدرع وعليه الرؤوس على مائدة وجلس إليها يشرب الخمر مع حاشيته (٨٢٣). عندئذ، وأمام هذه الفعلة الشنيعة انفجر غضب الجنود وتفجرت ثورتهم في تونس ثم

---

(1) ابن وردان، مخطوطة تونس، فقرة١ . يضيف هذا المؤلف أنه قد تم صرف ٨٦٠٠٠ (ستة وثمانون ألف دينار) على جامع القيروان، وهي تساوي ١,٢٤٧,٠٠٠ ليرة إيطالي. ويروي ابن أبار، مخطوطة الجمعية الآسيوية -باريس- الورقة ٣٠، الوجه الثاني، دون أن يذكر ذلك، يروي تفاصيل ذلك العمل: أنه قد تم هدم الجامع القديم وأعيد بناؤه من الحجارة والرخام والأسمنت وأن المحراب وهو في اتجاه مكة، كان من الرخام المزدان بالكتابة والنقوش الزخرفية غاية في الجمال مشوبه باللونين الأبيض والأسود، وأمام ذلك المحراب يقوم عامودان باللون القرمزي لا مثيل لهما في العالم من حيث روعتهما، وكان إمبراطور القسطنطينية يريد شراءهما بوزنهما ذهبا. والكلمة التي ترجمتها اسمنت *cemento* هي «صحن» مكتوبة بالحروف ١٤، ٦، ٢٥ من الحروف الهجائية العربية الشرقية.

اشتعلت في كل أفريقيا، وكل واحد منهم اعتبر نفسه حاكما للدائرة التي يقيم فيها، ثم أعلنوا قائدا للجيش عربيا من فصيلة شهيرة يدعى منصور الملقب بالطنبدسي، نسبة إلى اسم قلعته (٨٢٤). وسدى أرسل الطاغية ضده الجنود المرتزقة والجنود الذين يثق فيهم مهددا بالموت من يحاول الفرار منهم في معركة القتال. غير أن القائد منصور هزمهم جميعا فانتقلوا تحت لوائه ليتجنبوا بطش ذلك الحاكم الذي لا يعرف الرحمة. وتحرك كل الجند وعسكر المدينة وبقية الجنود الأخرى التي أسرعت بالسلاح من كل صوب(1). كل هؤلاء تحركوا نحو القيروان وأقاموا معسكرهم خارج المدينة (أغسطس ٨٢٥)، مشجعين أهالي القلعة على الانضمام إليهم، على حين كان زيادة الله مع الجند المرتزقة ومع عائلته قد أغلق على نفسه القلعة. ولم يلق شعب العاصمة بالا بعلماء الدين الذين كانوا يحلمون بأنهم يستطيعون السير دائما في حدود المقاومة الشرعية، لم يهتم الشعب بذلك وفتح الأبواب أمام منصور وأعاد، بمساعدة هذا القائد، بناء الأسوار التي كان قد هدمها إبراهيم، رئيس العائلة، وكرس الشعب نفسه للثورة.

ثم كانت النتيجة المعتادة بين تلك الجماعات الإقطاعية والحكومية الصغيرة، فكل طرف فيها أخذ يدير أموره بنفسه.

ولما عجزوا عن فتح قلعة العباسية، تفككت أواصرهم وانقسموا على أنفسهم، فخرج إليهم زيادة الله مع جنده وكسر شوكتهم (أكتوبر ٨٢٥)، وجعل منصور يفر هاربا من أمامه، واستعاد القيروان وهدم الأسوار، وكأنه ينتقم منها، ذلك أن البعض يقول انه نذر ذلك إلى الله عندما كان محاصرا داخل قلعة العباسية، والبعض الآخر يقول ان الأسوار سقطت بفضل صلوات القاضيين، ولم يفكر أحد أنه، لكي

(1) هذا هو بالتأكيد معنى كلمات **البيان**، وتم نقلها بلا شك بقلم كاتب قديم: جند، جيوش، أناس وافدة (وفود).

يسيطر على الجند، كان عليه أن يظهر وده واحترامه للمواطنين ويأخذ في الاعتبار أن منصور، بالرغم من هزيمته، مازال مسلحا وأن الأقليم بعيد كل البعد عن الهدوء والسلام. وفعلا وبعد أن أدار الحظ وجهه للحرب، عاد منصور الى القيروان، وعاد زيادة الله ليغلق على نفسه أبواب القلعة ودار الحديث حول اتفاق ينص على أن يترك الحكم في أفريقيا ويسافر مع عائلته وممتلكاته إلى الشرق، عندما أنقذه أحد أعوانه على رأس مجموعة جسورة. وبالفعل ذهب ذلك الشخص، بعد أن اصطحب معه مجموعة من الرجال، ذهب إلى كاستيليا على الحدود الجنوبية لدولة تونس الحالية، حيث كانت قد زحفت ضد المتمردين قبيلة نفزاوا البربرية، وهناك جمع البربر مع ألف رجل من السود المسلحين بالفؤوس والبلط واستطاع أن يهزم جنود عامر بن نافع، وتكفلت الانشقاقات بالباقي. والتقى منصور في النزال بالسلاح مع عامر ومات غدرا، وسيطر عامر على زمام الأمور في تونس لمدة ثلاث أو أربع سنوات أخرى، وكان صغار الزعماء قد قدموا قبل ذلك ولاء الطاعة له والغالبية العظمى كانت قد ذهبت لتكفر عن تمردها بالجهاد في صقلية (1).

تلك كانت ظروف أفريقيا في ذلك العصر.

لم يكن الأهالي المهتمون بالصناعة، وهم من أصل أوروبي، أو مختلط، لم يكن لهم وزن في المجتمع، فقد قلت أهميتهم بسبب الهجرة، وخضوعهم للطغيان العملي والنفسي، واعتنقت غالبية الأهالي الإسلام أفواجا أفواجا لدرجة أن الكنيسة الأفريقية التي

(1) النويري، في دي سلان؛ **تاريخ البربر**، تأليف ابن خلدون ص٤٠٥ ومابعدها، **رياض النفوس**، المخطوطة، الورقة ٢٦، الوجه الأول و ٢٨ الوجه الأول والثاني، بكري في مجموعة *Notices et Extraits des Mss* المجلد١٢ ص ٤٧٨؛ وابن الأثير، المخطوطة أ، الورقة١٢، الوجه الأول والمخطوطة جـ، الورقة ١٩١ الوجه الأول، **والبيان** ص٨٨ إلى ٩٥؛ وابن خلدون، **تاريخ افريقيا وصقلية**، ترجمة م. دي فيرجيه ص٩٦ إلى١٠٣. ولقد صححت اسم تونبودسا وفقا لكتابة ابن الأثير.

حاولت كثيرا الحفاظ على كيانها كان يمكن القول إنها بعد نصف قرن من الفتح قد تلاشت كما تدلل على ذلك وبالإجماع أخبار المسلمين والوثائق الكنسية سواء وثائق روما أو وثائق الاسكندرية (1).

وكان البربر، وقد أصبح جميعهم مسلمين متمسكين ومتشككين، منهمكين ومقسمين، ولكن لم تتم السيطرة الكاملة عليهم، كانوا يخضعون ويثورون ولكنهم كانوا مستعدين للانضمام إلى العرب فى الحرب، ولكن غير مستعدين للخضوع تحت نير السيطرة والحكم، وكانوا أقل عداوة لبني أغلب، تلك العداوة التى كانت تشتد فيهم تجاه رؤساء الجند سواء كانوا رؤساءهم أو مجاورين. غير أن ذلك الخضوع الظاهر كان يضمحل بقدر ابتعاد قبائل البربر عن عاصمة الإقليم. ولقد تحدثنا بما فيه الكفاية عن المستوطنين العرب والفرس، كما أوضحنا أن حماس أولئك الجنود المشاكسين، وأولئك الأهالى المشاغبين وأولئك الفقهاء المتعصبين، كان ناراً تحت الرماد تحاول إيجاد منفذ للانطلاق منه.

وفى ظروف مشابهة وفى الوقت نفسه كان مسلمو أسبانيا يثيرون القلاقل والاضطرابات. لقد أوضحنا كيف أنهم فى حمية الفتح واندفاعه، وبعد ما عبروا جبال البرانس اندفعوا بشدة إلى إقليم لينجوادوك. وبعد عشرين عاماً وبعد أن صار ذلك الإقليم قاعدة لعملياتهم الحربية، كانوا يندفعون تارة بجنود وتارة فى غارات، كانوا يندفعون حتى نهر الرون ونهر السين من جانب، وحتى نهر اللوار والمحيط الأطلسى من جانب آخر، يقودهم فى ذلك أمراء يعينهم الخليفة وحاكم أفريقيا.

ومنذ ذلك الوقت تطورت مجمـــوعتان متميزتان من الأحداث أنقذتا فرنسا من الأضرار المحدقة بها كما أنقذت كل أوربا من

---

(1) قارن **البيان** ص٢٨، ابن أبي دينار (القيرواني) *Histoire de l'Afrique* المخطوطة، الورقة١٦، الوجه الأول والترجمة الفرنسية ص٦٣، *Pagi, ad Baronium* سنة ٦٩٦. والمراجع التي ذكرها جان جيبون *Decline and Fall,*. الفصل ٥١ الهوامش ٢٠٧، ٢٠٨ و ٢٠٩.

الخطر. من جانب كان هناك رد فعل الأهالى المسيحيين والصمود الرائع الذى أظهره الأسبان المتحصنون بين جبال غاليسيه وجبال أستوريه وجبال نافارا وقوة الفرنج وجيرمان آخرون الذين انتصروا بقيادة كارلو مارتيللو فى معركة بواتييه (أكتوبر ٧٣٢)، ومقاومة الكثير من نبلاء فرنسا الجنوبية، ونستطيع إضافة الإيطاليين أيضاً، وذلك لأن تحركات ليوتبراندو قد عجلت باقتحام افينيون (٧٣٧). أما الأحداث الأخرى التى قطعت الطريق أمام الفاتحين فقد نشأت عن خطايا المجتمع المسلم بوجه عام والمجتمع الأفريقى على وجه الخصـــوص، فأفريقيـــا تعد أساس المستعمرة الأسبانية وأصلها.

وعلى كل حال كان المنتصرون فى أسبانيا - كما هو الحال فى أفريقيا بل أسوأ - يشك بعضهم فى البعض الآخر وبالتالى كانوا مستعدين للاقتتال فى حرب أهلية فيما بينهم: العرب ضد البربر، والمضريون ضد اليمنيين، والمستوطنون القدامى ضد المستوطنين الجدد، والمدنيون ضد العسكريين، وكل ما كان يحدث بساحة سلطان الخلفاء فى أفريقيا، كان له رد فعل معاكس هناك فيما وراء المضيق.

وبرغم ذلك فإن النظام قد عم الإقليم عندما انفصل عن الإمبراطورية من أجل اظهار الطاعة والولاء لأميره وهو من البيت الأموى، الذى أزيح منذ وقت قريب عن عرش الخلافة. كان الأمويون الأوائل الذين حكموا فى أسبانيا قد أقاموا معسكراتهم بالقرب من حدود جبال البرانس، دون أن يتمكنوا من القضاء على المسيحيين الأقوياء المتحصنين فى جبالهم فى غرب وشمال شبه الجزيرة. وكان أولئك الأمويون يتقدمون تارة حتى كاركاسونيه (٧٩٢) وتارة يتقهقرون نحو برشلونة التى فقدوها إلى الأبد (٨٠١). لم يُعرف آل أمية الذين حكموا أسبانيا بالفتوحات(1) فقد ناصبوا

---

(1) بالنسبة للتفاصيل فإنى أشير هنا إلى الجزء الأول والثانى من العمل الدقيق الذى قام به م. رينو *Invasions des Sarrazins en France*

مسلمى أفريقيا العداء، وصدتهم فرنسا بكل صلابة، صدهم هناك ملوك شارلمان الأوائل، أولئك الملوك الذين كانوا على وفاق مع الخلفاء العباسيين؛ لم يبرزوا فاتحين، لكنهم اهتموا بالأسطول الحربى أكثر مما كان يهتم به ولاة الخلفاء(1). كما اهتموا بتنظيم أمور الدولة بالرغم من وجود عناصر الخلاف التى سبقت الإشارة إليها، ثم بدأوا تلك الحضارة الرائعة التى تركوها بعدهم خالدة وبدأوا الحروب الأهلية ومهدوا للاحتلال المسيحى. وحيث إنه فى طريق الانسانية الوعر اغتصب الاستبداد والطغيان دائماً مبادئ النظام ودنسها، ونكاد نرى فى أيامنا هذه بعض الشعوب هنا وهناك قد استطاعت ان تدعمها بالحرية، فلا عجب إذا كان ملوك أسبانيا المسلمون، فى أواخر القرن الثامن، ورغبة منهم فى تنظيم المجتمع قد سقطوا فى براثن الاستبداد والطغيان أو بالأحرى شرعوا فى عملية التنظيم والتمدن من أجل الغرض البعيد تماماً عن التحضر ألا وهو الاعتماد على السلطة المطلقة.

إن الأمير الحاكم بن هشام، ثالث الأمراء الأمويين على أسبانيا (٧٩٦ ـ ٨٢٢)، هو رجل مقدام، قوى الشكيمة، الا أنه سكير، ومنحل ولا يعرف الرحمة، هذا الأمير قد انقاد خلف غريزته، تلك الغريزة التى تدفع الطغاة إلى مص دماء محكوميهم من أجل تضخيم ثروات الجنود المستوطنين هناك، هذا الأمير قد أثار شعب العاصمة، بما يفوق الاحتمال. فقد ثار سكان قرطبة وسخطوا وغضبوا بعد أن اثقلت كاهلهم ضريبة العشر على المواد الغذائية، وبعد ان كدرت حياتهم رؤيتهم تسليح كتائب الجنود العبيد، الذين اشتراهم خصيصاً بالاضافة إلى اقامة الحصون ووضع الخيول مصطفة أمام القصر الملكى، كل هذا أثار سخطهم وغضبهم، وقد شجعهم على ذلك الفقهاء الذين كانوا يؤيدون الحرية فى أسبانيا، كما يؤيدونها فى أى

(1) انظر ابن خلدون فى جاايانجوس *The History of the Mohammedan Dynasties in Spain.* ص 35 وما بعدها.

إقليم آخر، تلك الحرية التى تميز بها المسلمون فى عهودهم الأولى، كل ذلك دفع الأمير حاكم إلى قتل رؤساء المقاومة الشرعية، مما دفع الأهالى إلى تدبير المؤامرات لخلعه من العرش؛ وقد تولدت عن المؤامرات الخيانات المعتادة وعمليات التعذيب، إلى أن تفجر بركان الغضب المكتوم ازاء عمليات العنف من جانب جندى من الرقيق ضد أحد المواطنين.

وقد ثار حىّ جنوب العاصمة وهو مأهول بالسكان ثار فى الحال وأحدث ضجة كبيرة (٢٥ مارس ٨١٨)، عندئذ دفع الحاكم بالجنود الزنوج المتمركزين بالمنطقة وبالجند وشراذم المخربين وقاموا فى اليوم التالى باقتحام الحىّ وجعلوه لمدة ثلاثة أيام عرضة للنهب والتدمير والحرق والقتل، وقاموا بتدمير المنازل والمساجد تدميراً كاملاً وقاموا بذبح ثلاثمائة من أعيان العاصمة وعلقوهم على أعمدة بطول جوادَلكوڤير، وفى اليوم الرابع، وبعد أن تجرأ واحد من رجال البلاط وذكّر الطاغية بأن أولئك المتمردين الذين كان يقوم بذبحهم هم أيضاً مخلوقات اللّه، عندئذ أمر حاكم بالعفو عن الباقين المختبئين فى المدينة؛ غير أنه أراد أن يرحلوا عن مدينة قرطبة وضواحيها مع نسائهم وأبنائهم حاملين معهم ما يستطيعون: إلا أن الجنود الذين كانوا ينتظرونهم عند نقاط العبور فى الريف، قد استولوا على أمتعتهم وجردوهم من كل شئ، لذلك فر كثير منهم إلى مدينة طليطلة ومدن أخرى بأسبانيا؛ وهرب آخرون كثيرون إلى سواحل أفريقيا، واتجه عدد أكبر إلى الشرق بحثاً عن الرزق وظل حى مدينة قرطبة خرباً ومهجوراً لمدة أربعة قرون من الزمان. وكأن الذى فعله لم يشبع رغبته بعد، عندئذ أطلق حاكم عقال غضبه بنظمه شعر هجاء ضد المتمردين، وهو مثال، فى اعتقادى، فريد فى التاريخ، فقديماً ألف الإمبراطور جوليانو المرتد كتاب الميزوبوجون *Il Mysopogon* ضد سكان مدينة أنطاكية، دون أن يمس شعرة من رؤوسهم، وهناك أكثر من أمير وثنى أو مسيحى قد انتقم بأعمال الحرق والذبح والنهب، دون أن يعرف نظم أى شعر هجـــاء. والرأى

العام، الذى يدين تلك الأعمال الشريرة قدر استطاعته، لم يغفر أبداً تلك الأعمال للملك الشاعر. وقد أطلق عليه الشعب «الرباضى» و«المتوحش» وقد تسابق كتاب الأخبار فى التشهير به ولعنه، فيما عدا واحداً لا وزن ولا قيمة له قال فى بجاحة إن الثورة فى تلك الضاحية إنما ترجع إلى رفاهية زائدة تمتع بها أهلها(1).

ظهر غالبية المبعدين عن مدينة قرطبة فجأة وكما ذكر المؤرخون كان عددهم خمسة عشر ألفاً بعد مضى ثمانى سنوات من المذبحة فى الإسكندرية بمصر حيث يفترض أنهم قد طردوا كذلك من أماكن كثيرة بأسبانيا وأفريقيا إذ كانوا يبحثون عن وطن لهم. فقد وفر الحاكم أو ابنه عبد الرحمن، الذى تولى الحكم بعده (٨٢٢)، وفر السفن لكى يبعد عن المملكة أناس من طبعهم العصيان وإثارة القلاقل والاضطرابات. عبروا، بلا سلاح ولا نقود، وعلى ما يبدو، فى صفوف متلاحقة، عبروا فى هدوء رغماً عنهم جزر البليار والأراضى الإيطالية حيث كان الأسطول الأسبانى قد حارب حرباً غير موفقة تماماً قبل موضوع قرطبة بقليل وتجمعوا شيئاً فشيئاً فى ضواحى الإسكندرية. ولم يمض وقت طويل حتى وقعت مشاجرة خاصة أشعلت معركة حامية الوطيس بين أولئك الأسبان الذين ما كانوا يملكون شيئاً

(1) قارن بين ابن قوطيه، **المخطوطة** الورقة ٢١، الوجهين الأول والثانى؛ **والبيان** المجلد الثانى، ص ٧٨، ٧٩، ٨٢؛ وابن الأثير، **المخطوطة** ١ . المجلد الأول الورقة ١٠٦ الوجه الثانى والورقة ١٠٧ الوجه الأول، تحت عام ١٩٨ والورقة ١٣٩ الوجه الثانى تحت عام ٢٠٦ ؛ وابن خلدون، **المخطوطة**، باريس، الملحقات العربية ٧٤٢ *quarter* المجلد ٤ الورقة ٩٦، الوجه الثانى؛ **وحلة السير** فى دوزى، المخطوطات ص ٣٨ وما بعدها؛ والمراكشى ص ١٣ ـ ١٤؛ والنويرى **مخطوطة باريس**، التراث القديم، ٧٠٢ الورقة ٧٢ الوجه الأول؛ والضبى، مخطوطة الجمعية **الآسيوية بباريس** الورقة ٥ الوجه الثانى؛ كونديه، *Dominacion De Los Arabes en España* ، الجزء الثانى، الفصل ٣٦ . إن الرواية التى تبرىء الحاكم من أخطائه قد سجلت فى **البيان**، نسخة القرن الـ13 . وكان المصدر الأول بلا شك بعض أخبار كتاب بنى أمية وقد لاحظ الأستاذ دوزى وهو ناشر **البيان** خضوعهم لذلك البيت، المقدمة، المجلد ١، ص ١٦ وما بعدها.

وأولئك السكان الذين كانوا يتربصون لهم، وكان النصيب الأسوأ فى هذا كله هو نصيب أهل الإسكندرية، فقد احتل هؤلاء الغرباء وقد أصابهم اليأس والاحباط، وبعد أن تحولوا مضطرين إلى جنود مرتزقة، احتلوا جانباً من المدينة، وبعد عمليات تخريب ونهب فظيعة، تحصنوا فيها وعينوا لهم قائداً، هو أبو حفص عمر بن شعيب، الملقب بالبلوطى نسبة إلى أرض بالقرب من قرطبة، كما لقب أيضاً بالكريتى نسبة إلى جزيرة كريت التى قام بفتحها أبو كابسو كما يلقبه أهل بيزنطة بكتابة اسمه على طريقتهم. غير أنه، بعد الاضطرابات الداخلية التى مزقت مصر وسهلت تحريض الأسبان، وبعد أن قام عبدالله بن طاهر، نائب الخليفة ومحتل الاقليم بعد ذلك بإعادة ترتيب أمور الدولة أفهم أبا حفص أن يخضع له وإلا فليستعد للدفاع عن نفسه: وما أن ذكر اسم طاهر حتى اضطر أبو حفص للخضوع وقبول الاتفاق (٨٢٣؟)، واتفقا على أن يدفع والى مصر معونة مالية، وأن يقوم الأسبان بمغادرة الإسكندرية بعد تكوين أسطول صغير لهم وأن يبحثوا عن مكان يرتزقون فيه فى أحد بلاد النصارى غير الخاضعة للمسلمين. واختاروا جزيرة كريت القريبة، شبه المهجورة(1) والتى بدت لهم سهلة الفتح، حيث كان أبو حفص ذاته أو أحد القادة المسلمين قد قام فى العام السابق على رأس قوات صغيرة بالإغارة على تلك الجزيرة. ومن المحتمل أن يكون أبو حفص، بعد أن نزل جزيرة كريت، قد اشعل النار فى جانب من السفن التى تم جمعها فى الإسكندرية بقليل من المال والتى لم تعد تصلح للابحار مرة أخرى؛ وقد وفر ذلك للبيزنطيين حجة لتكرار القصة التقليدية ومفادها أن أجاتوكليه *Agatocle* قد قام بحرق أسطوله فى جزيرة

(1) ابن الأثير **المخطوطة** ١، المجلد الأول، الورقة ١٤٦ الوجه الأول والورقة ١٤٧ الوجه الثانى عام ٢١٠؛ **حلة السيراء**؛ ابن خلدون؛ النويرى، كوندى المواضع المذكورة؛ انظر أيضاً رينو تاريخ بطاركة الإسكندرية *Historia Patriarcharum Alexandrinorum* من ص ٢٥١ إلى ص ٢٧٠، الذى يذكر الأحداث ولكنه يخطئ التواريخ.

كريت عندما هاجم قرطاجنه ليظهروا أن أبا حفص، الذى لقبوه بأمير المؤمنين فى أسبانيا، قد أراد أن يخفف الأعباء عن البلاد فاصطحب أولئك المستوطنين إلى جزيرة كريت وسعى لإثنائهم عن العودة إليها. وصوروا بشكل مأساوى سخط المسلمين وغضبهم عندما شاهدوا الحريق حباً منهم لزوجاتهم وأولادهم الذين تركوهم فى أسبانيا، وجعلوا أبا كابسو يهدئ من روعهم ويطمئنهم بكلمات وجيزة إذ قال لهم إنه سيمنحهم فى جزيرة كريت نساء أجمل، وإنهم سوف ينجبون منهن ما يشاؤون من أبناء. وكان المؤرخون اليونانيون يجهلون ـ وهم يحاولون فى التأريخ نسج قصص بلاغية على الطريقة اليونانية والرومانية ـ أن المنتصرين على جزيرة كريت هم أناس يائسون ولكن الشجاعة تظهر فى وقت المحن. ورووا أحداثاً عسكرية كثيرة أهملها المسلمون وهم يسجلون حولياتهم. إنهم يروون كيف أن أبا حفص كان يحصن ثكنات جنوده، تلك الثكنات التى صارت فيما بعد مدينة، ومن الكلمة العربية خندق جاءت كلمة كانديا التى أطلقت اسم كريت على الجزيرة. كما يقولون فى النهاية أن ميكيلى البالبو، ما أن تخلص من الحرب الأهلية بالقسطنطينية حتى أرسل جيشين ليفتحا الجزيرة وقد هزما كلاهما، عندئذ تم اقتياد جيش من المرتزقة بأربعين عملة من الذهب لكل جندى، وقد أطلق اليونانيون عليهم أصحاب الأربعينات، أولئك الجند المرتزقة قد أبلوا بلاء حسناً إذ تمكن ذلك الأسطول الصغير الذى ترأسه أوريفا، والذى يبدو من اسمه أنه أجنبى أيضاً، قد تمكن من تحرير الجزر الصغيرة المحيطة بتلك الجزيرة، عدا كريت حيث قويت المستعمرة وازداد عددها. وتلاحقت هذه الأحداث حوالى عام ٨٢٥ من التاريخ الميلادى(1). ويبدو أن المسلمين فى جزيرة كريت

---

(1) تيوفان كونتينواتوس من ص ٧٣ إلى ص ٧٧ ومن ص ٧٩ إلى ص ٨١ج من ٢٠ إلى ٢٣، من ٢٥ إلى ٢٦ من حكم ميكيلى البالبو؛ سيميون ماجيستير ص ٦٢١ إلى ص ٦٢٤ج ومن ٣ إلى ٤ من حكم ميكيلى البالبو نفسه. تتمة تيوفان وهو مرجع أساسى بين المراجع

الذين حكمتهم أسرة أبى حفص(1)، يبدو أنهم شاركوا سكان أفريقيا فى فتح صقلية، وكانوا بكل تأكيد عنصراً أساسياً فى اجتياح إقليم بوليا وإقليم كلابريا طوال القرن التاسع: وهذا هو السبب الذى دفعنى إلى التوسع فى تفاصيل هجرتهم من أسبانيا.

البيزنطية، يذكر أول خطة لعملية المسلمين على جزيرة كريت فى بداية حرب تومازو دى كابادوشيا التى ربما ترجع إلى ٨٢١. وفيما يتعلق بهذه الأخبار غير المحددة وغيرها فإن المؤلفين يرجعون تاريخ احتلال الجزيرة إلى عام ٨٢٤، وعملية أوريفا إلى عام ٨٢٥، وحسب ابن الأثير وهو مرجع تم ذكره، فإن المسلمين الأسبان لم يغادروا الإسكندرية إلا فى عام ٢١٠ (ابريل ٨٢٥ إلى أبريل ٨٢٦).

(1) ابن خلدون، **مخطوطة باريس**، الملحقات العربية، ٧٤٢ *quarter*، المجلد الرابع، الورقة ٢١ الوجه الأول.

الفصل السابع

يكفى أن نلقى نظـــرة على الخريطة الجغرافية لندرك كيف أن صـــقلية قد أصبحت، بعد أن احتل المســـلمون أفريقيـــا بالكامل، قد أصبحت فى حرب مستمرة. فى البداية استخدمها البيزنطيون موطئ قدم وقاعدة تنطلق منها الحملات التى كانت ترســـلها حكومتهم للدفاع عن أفريقيـــا: وبالفعل كانت تحتشد فى صـــقلية الأساطيل التى استردت برقة فى عام ٦٨٨ وأيضـــاً قرطـــاجنة فى عام ٦٩٧، وفقاً لروايتنا الســـابقة. ولكن لأن الإمبراطـــورية قد عانت كثيـــراً فى بذل مجهودات ضئيلة كهذه، وبعد أن هزم حسان بن نعمان ملكة البربر الرهيبة، سارع المســـلمون فى الحـــال بمهـــاجمة الجزر الإيطالية واجتياحها، وقد هاجموا أولاً جزيرة كوسيرة التى يطلق عليها الآن جـــزيرة بنتلاريا وهى جـــزيرة صـــغيرة، خصبة، فسيحة، مليئة بالموانى، وتحتل موقعاً ممتازاً حيث إنها حلقة الوصل بين صقلية وأفريقيا، فهى تبعد ســـتين ميـــلاً عن الأولى كمـــا تبعد أربعين ميلاً عن الثانية. لكن هذه الجزيرة اشتهرت فى كل العصور موقعاً تصارعت أفريقيا وصقلية حوله فى كل الحـــروب. ولجأ إليها كثير من مسيحيى أفريقيا، كما سبق وقلنا، طلباً للنجاة من سلاح المسلمين، وتمركزوا وتحصنوا فى هذه الجـــزيرة وعاشـــوا فى أمان فيها إلى أن أخذ العـــرب المقيمون فى أفريقيـــا يفكرون فى شـــئون البحر. إلا أنه فى حوالى ٧٠٠ من التاريخ الميـــلادى ذهب عبد الملك بن قطـــان، قادماً من مصر، ذهب لكى يؤدب المتمردين على الحـــكم، كمـــا كان يطلق عليهم المســـلمون، واســـتولى على الجـــزيرة وأقام فيها القلاع.

لقد أرســـله إليهـــا، حسب روايـــة بكرى، الخليفـــة عبد الملك بن مروان(1)، ومن الواضح أن هذه الحملة كانت البداية لمخطط كبير يرجعه بعض الكتاب إلى موسى بن نصير.

وكان قد حان الوقت ليرفع من القوة والسطوة التى كان الفصيل السامى قد أسسها فى تلك الأقاليم منذ خمسة عشر قرناً وهى القوة التى لم تضعف إلا أمام قوة روما. ويروى أحد رواة الأخبار العرب الأوائل أن موسى، عندما وصل إلى قرطاجنة وسمع من الأهالى البربر عن المعارك والعمليات البحرية التى خاضها ذلك الشعب، قرر أن يسلك ذلك الطريق(2)، وهكذا بعد أن احتل أسبانيا، طرأ على ذهنه أن يعود إلى الشرق ماراً بالأراضى الأوربية، مقلداً فى ذلك هانيبال ومتقدماً عليه.

ويرى البعض أن حسان بن نعمان، الحاكم الذى سبق موسى، هو الذى فكر أولاً فى الحرب البحرية، حتى إنه، سواء بأمر من الخليفة أو بموافقـــة منه، بدأ فى تطهير القنـــاة بين البحـــر ومســـتنقع تونس حتى تصبح ميناءً حربياً ينشئ به ترسانة(3) وقد شارك فى

---

(1) بكرى، فى مجموعة *Notices et extrait des MSS.*، المجلد ١٢ ـ ص ٥٠٠. هذا المؤلف لا يحدد أى تاريخ سوى خلافة عبد الملك بن مروان والتى استمرت عشرين عاماً من عام ٦٨٥ إلى عام ٧٠٥. إلا أننا نستطيع دون خوف من الوقوع فى خطأ، أن نحذف الثلاث عشرة أعوام الأولى منها، عندما كان العرب مشغولين بأشياء أخرى بدلاً من مطاردة الهاربين إلى جزيرة بنتلاريا. وحيث لم نجد فى هذا الفصيل أى ذكر لاسم موسى، فمن المحتمل أنه يعتمد، قبل وصوله إلى أفريقيا، ذلك التاريخ الذى لا يزال موضع شك. ويشير إلى هذه الحملة، ربما معتمداً على مرجعية بكرى، يشير إليها التيجانى، **رحلة** فى *Journal Asiatique*، عدد أغسطس ـ سبتمبر ١٨٥٢ ص ٨٠ ويضيف أنه قد تم فى ذلك الوقت احتلال الجزر الصغيرة القريبة من أفريقيا.

(2) ابن قتيبـــة، **كتـــاب الإمـــامة**، فى جـــايانجوس *Ths History of the Mohammedan in Spain* المجلد ١، الحاشية ص ٦٦.

(3) الآراء المختلفة لفقهاء المسلمين قام بعرضها مؤلفان مجتهدان جداً هما: التيجانى، **رحلة** فى *Le Journal Asiatique*، العدد أغسطس ـ ســبتمبر ١٨٥٢ من ص ٦٣ إلى ص ٧١، وابن أبى دينار (القيروانى)، *Histoire de l'Afrique* الترجمة الفرنسية، من

تلك الأعمال أو فى بناء تلك السفن فنيون أقباط تم استقدامهم خصيصاً من مصر(1)، وهم غير مبالين أو ربما سعداء لأنهم يعملون ضد حكامهم القدامى من البيزنطيين . وأياً كان واضع هذا التخطيط، فإن تاريخ بدء العمل فى ذلك الموقع، قد نستطيع أن نحدده فى أربع أو خمس سنوات ما بين ٦٩٨ و٧٠٣؛ ومن الواضح أن اختيار الموقع كان اختياراً موفقاً، إذ أن ذلك الموقع الذى يمكن الدفاع عنه بسهولة، كان يوفر ويضمن عنصر الأمان لجيش المسلمين ضد القوات البحرية اليونانية المتفوقة عليها. وبالإضافة إلى ذلك فإنه لم يكن هناك شك فى تونس، كما هو الحال فى مدينة قرطاجنة، فى أن يقوم الأهالى المسيحيون بمساعدة العدو أو على الأقل باخطاره. وإذا لم يكن موسى قد بدأ هو هذا العمل، فهو بكل تأكيد الذى عجل به، إذ أمر ببناء مائة سفينة(2)، ولم ينتظر استلامها(3) للقيام بهجوم ضد صقلية، وقد دفعه إلى ذلك الحقد والطمع وقد كان لهما تأثيرهما الفعال جداً على نفسه. ذلك أن أسطولا مصريا كان قد أتى لتوه تقريبا تحت ناظرى القائد الأفريقي وأمام عينيه ليغنم كل مايجده على أراضي المسيحيين. كان ذلك

ص ١ إلى ص ٢٠. لقد قلت «تطهير» وليس «حفر» كما يقول الكتاب المسلمون وذلك لأنا نعلم أن هذه القناة والمستقع البحرى كانا موجودين فى العصور القديمة. وفى هذا الصدد أنظر ملحوظة مترجم التيجانى م. روسو *M. Rousseau*، المرجع المذكور، ص ٦٩ وص ٧٠.

(1) التيجانى، المرجع المذكور، ص ٦٩، يقول إن الخليفة قد أمر بارسال ألفى قبطى إلى حسان، ألفين ما بين رجل وامرأة، لكى يستعين بهم وقد وزع حسان تلك العائلات على المدن ما بين رادس بالقرب من تونس والموانى الأفريقية الأخرى. الأمر الذى يوضح تماماً أنهم كانوا من الفنيين.

(2) التيجانى، **رحلة**؛ ابن أبى دينار (القيروانى)؛ وابن قتيبة، **كتاب الإمامة** المواضع المذكورة.

(3) يستدل من ذلك على أنه أرسل إلى صقلية ألف رجل فقط، بالرغم من بداية تجهيز هذا العدد الكبير من السفن، والتى بالرغم من صغر حجمها، كان يتعين أن تنقل كل سفينة منها خمسين رجلاً على الأقل وفى الإجمالى ٥٠٠٠ (خمسة الآف) رجل أو أكثر.

الأسطول تحت قيادة عطاء بن رافع، من قبيلة حظيل. قرر عطاء الهجوم على سردينيا فدخل ميناء سوسة للتزود بالمؤن وعندئذ جاءته رسائل من موسى تخطره بالانتظار حتى فصل الربيع وعدم التعرض لعواصف ذلك الفصل، وكان على ما أعتقد خريف سنة ٧٠٣. اشتم عطاء حسد موسى في رسائله فلم يعره اهتماما واستأنف الإبحار ووصل إلى جزيرة «سلسلة»، كما نقرأ في مخطوطة ابن قتيبة الوحيدة؛ إما لأن العرب أطلقوا هذا الاسم على لامبدوزا أو على جزيرة صغيرة مجاورة، أو كما يبدو لي أن المقصودة هي صقلية وأن النُساخ أخطأوا في كتابة الإسم. وقد غنم عرب مصر غنيمة كبيرة من الذهب والفضة والأحجار الكريمة، لكن أثناء العودة هبت ريح عاتية بالقرب من سواحل أفريقيا فغرقت سفن كثيرة ومن بينها سفينة عطاء، كما جنحت سفن أخرى هنا وهناك. وعندما علم موسى بهذا أرسل في الحال مجموعة من الفرسان تقطع الساحل وتجمع السفن والبحارة الذين نجوا من الغرق وتأتى بهذه وأولئك إلى ترسانة تونس(1). وما أن بدأت سنة

---

(1) ابن قتيبة، **كتاب الإمامة**، مخطوطة الأستاذ جايانجوس، الورقة ٦٩، الوجهان، والترجمة الانجليزية في حاشية المقري *The history of the Mohammedan dynasties in Spain*، المجلد الأول، ص ٦٦. وقد أرسل لي هذا المستشرق الأسباني العلامة نسخة من هذا الجزء في خطاب بتاريخ ١١ مايو ١٨٥٤ وصحح بعض أجزاء ترجمته المذكورة. أما فيما يتعلق بالجزيرة التي جرى اقتحامها والتي أبديت له شكوكي حول اسمها، فإنه يعتقد إنه يجب الأخذ بما جاء في المخطوطة، لأن اسم صقلية مكتوب بحروف مغايرة بعد أسطر قليلة. أما أنا فأرى عكس ذلك إذ إني أعتقد أن هذا الإختلاف يمكن أن يكون ناجما عن أحد المصدرين اللذين يبدو أن ابن قتيبة قد استقى منهما روايته هذه. ففي أحد المصدرين من الممكن أن يكون اسم صقلية قد كتب بالسين بدلا من الصاد وبالكاف (الحرف الثاني والعشرين) بدلا من القاف (الحرف الحادي والعشرين) ليصبح **سكليه**، ومن السهل أن يختلط الأمر فيصبح سلسلة. ولقد رأيت بوضوح لفظ سلسلة مكتوبا على صقلية في خريطة جغرافية رائعة من الرق رسمها سنة ١٦٠٠ محمد بن علي الشرفى، من صفاقس، وهى من مقتنيات مكتبة باريس الإمبراطورية.
وتوكد افتراضي هذا «أخبار» *Cronologia* حاجي خليفة، مخطوطة باريس، وفيها نقرأ تحت سنة ٨٢، أخبار إغارة عطاء بن رافع على صقلية؛ ولما لم يرد هذا الحدث عند ابن

٨٥ للهجرة (١٣ يناير- ٣١ ديسمبر ٧٠٤) حتى أعلن موسى الجهاد على ساحل البحر وأشاع أنه سوف يذهب بنفسه إلى هناك، وجمع حوله رجالاً من الجيش، أقوياء يحبون المخاطرة، ونخبة من الأشراف العرب ووضعهم في السفن بحيث لم يبق أحد منهم على الأرض حسب رواية المؤرخين. وعندما كان الأسطول على وشك الإبحار أحضر موسى لواء القيادة وقام فجأة ودون أن يتوقع ذلك أحد بعقد اللواء على الحربة التي كان يمسك بها ابنه عبد الله، وهكذا وضع مصير هذه العملية الأولى من نوعها، حيث إنها أول عملية بحرية يقوم بها مسلمو أفريقيا، ووضع حملة الرجال البارزين في يد ابنه لعله يكون فألاً حسناً له ولهم، وقد سميت هذه الحملة بحملة الرجال البارزين لشهرة المحاربين بها. نزل الرجال من السفن على الجزيرة في عام ٧٠٤ حيث استولوا على مدينة لا نعلم اسـمها، ولكننا نعلم فقط أنهم عندما قسموا الغنيمة فيما بينهم فان كل محارب أخذ ١٠٠(مائة) دينار من الذهب وكان عدد المحاربين يتراوح بين تسـعمائة وألف محارب(1). ومن هنـا فإن قيمة غنائمهم بعد إضافة نسـبة الخمس الخـاصة بالأمير، تعادل مليون وسـبعمائة ألف ليرة تقريبا(2). ولم يمض وقت طويل حتي أرسل موسى مرة أخرى الأسطول الأفريقي تحت قيادة عياش بن أخيال، الذي أغار على سيراكوزا (٧٠٥)، كما

الأثير، فمن الممكن أن يكون حاجي خليفة قد أخذه من إحدى مخطوطات ابن قتيبة الأصح من مخطوطة الأستاذ جيانجوس.

(1) قارن ابن قتيبة الورقة ٦٩ من مخطوطة الأستاذ جيانجوس الذي تفضل بأن أرسل لي نسخة من هذه الفقرة وصحح خطأ في ترجمته الانجليزية المذكورة في حاشية بكتاب المقرى *The history of the Mohammedan dynasties* ص٦٧ وما بعدها؛ وابن شباط، المخطوطة، ص ٣٨وص ٣٩ الذي يذكر نص ابن قتيبة مختصرا إياه في نهايته؛ وابن أبي دينار (القيرواني)، *Histoire de l'Afrique*، الترجمة الفرنسية ص١٤ وص٥٧ والمخطوطة، الورقة ٦ الوجه الأول، والورقة ١٤ الوجه الثاني.

(2) «الدينار» وفقا لقيمة المعدن وتبلغ قيمة وزنه في المتوسط ١٤ ليرة و٥٠ سنتا.

يقول المؤرخون العرب، في بَرِّ المدينة، أي في بعض ضواحيها، ورجع منها سالما وبغنيمة كبيرة(1).

وفي العام الذي بدأت فيه الحرب في أسبانيا (٧١٠)، أرسل موسى أسطوله إلى سردينيا، وعند وصول الأسطول إلى الجزيرة لم يجد أهالي العاصمة مخرجا إلا أن يلقوا فى قاع الميناء بالأواني الذهبية والفضية وأن يخفوا الأموال والمقتنيات الصغيرة الثمينة في الكاتدرائية بين القرميد والسقف. وبعد احتلال المدينة، كان أحد الجنود المسلمين يستحم في البحر فتعثرت قدمه في طبق من الفضة، وأصاب جندي آخر، وهو يصوب حربته تجاه حمامة كانت ترفرف فرق الكاتدرائية، أصاب جزءا من السقف فسقطت منه كمية من النقود الذهبية: وهكذا، حسب رواية المؤرخين المسلمين، فقد تم اكتشاف الكنوز المخبأة. ثم أخذ المؤرخون يروون مفاسد الجنود الذين كانوا يقومون أثناء عمليات النهب باختلاس نصيب الخليفة، والقائد وزملائهم، وخشية أن يكتشف أمرهم وتفتيش ملابسهم، كان بعضهم يكسر نصل سيفه ويملأ جرابه بالذهب ويعيد عليه مقبض السيف والبعض الآخر كان يقتل قطا ويسلخه ويملأ جلده بالنقود ويلقيه إلى الخارج من نافذة القصر ليأخذه عند خروجه. وقد اختلط بهذا الفساد العام الخوف من أحكام الدين ولكنها لم تكبحه. وبعد ركوبهم البحر فإن أولئك كما يروي ابن الأثير سمعوا صوتا مرعبا يقول:«أغرقهم يا الله!» وفي الحال ابتلعهم البحـر، وكان يلقي جثثهم على الشاطئ وحولها الأحزمة المملوءة بالنقود(2) وكأن البحر يدينهم على أفعالهم.

---

(1) ابن قتيبة، ابن شباط؛ وابن أبي دينار (القيرواني) المراجع المذكورة؛ والبيان، ص٢٧، مع ذكر ابن قطان. يذكر ابن قتيبة مؤيدا تاريخ ٨٦، أي تاريخ ٧٠٥م.

(2) ابن الأثير، المخطوطة C، المجلد الرابع، الورقة ٤٧ الوجه الثاني، عام ٩٢؛ والنويري، مخطوطة باريس *Ancien Fonds* ٧٠٢، الورقة ١٠ الوجه الثاني والترجمة الفرنسية للبارون دي سلان، *Journal Asiatique* (مايو ١٨٤١)، ص٥٧٥-٥٧٦.

انفجرت في أسبانيا شهوة الجشع المتقدة لدى الجنود وقادتهم لمدة عشر سنوات، ومن هنـــــاك انتقلت مرة أخرى إلى بلادنا، ذلك لأننا نعلم أن محمد بن أوس، وهو من المدينة(1) كان قد انقض على جـــزيرة صـــقلية وأســـر بعض رجـــالها عـــام ٧٢٠، وبعد عودته إلى أفريقيــــا، تولى قيادة الحكم بدلا من يزيد، الذي قتله البربر، كما أشرنا إلى ذلك قبلاً. ثم أن تحرك تلك الشعوب قد قلل من حماس العرب ضد صـــقلية. فقد تمت مهـــاجمة الجزيرة في عام ٧٢٧ من جانب بشير بن صفوان حاكم أفريقيا وهو من قبيلة كلب، والذي رجع بمجموعة كبيرة من الأسرى(2). ويبدو أنه قد تفاوض مع الحاكم البيزنطي على اتفاق لم يوقع ولم

وحسب الترجمة الإيطالية التي قام بها كارلي فإن حاجي خليفه في *Cronologia* يؤرخ فتح كلابريا الذي قام به فريح بن سعيد بعام ٩٢ تقريبا. ولما اطلعت على النص لاحظت أن الأمر يتعلق بحملة طارق الشهيرة في أســـبانيا. م. فمين *M.Famin*، ســـار في *Histoire des invasions des Sarrasins en Italie,* على هذا الخطأ وأضاف إليه من عنده اسم طارق وأن *"Ses soldats exerc èrent des cruautés inouies"* وراح يذكر صراحة تفاصيل تلك الأعمال.

(1) النويري، فصل صقلية، في دي جريجوريو، *Rerum Arabicarum* ص٢ ويدعوه محمد بن أبي ادريس. والبيان، ص٣٥، والذي يقوم بتصحيح الاسم والتاريخ؛ والنويري، الفصـــــل الخـــــاص بأفريقيا، في دي سلان، *Histoire des Berbères par Ibn Khaldoun* المجلـــد١ ص٣٥٧ في الحـــاشية، وابن خـــلدون، *Histoire de l'Afrique et de la Sicile* ترجمة م. ديه فيرجيه ص٣١، يخلط بينه وبين حاكم آخر لأفريقيا ويدعوه محمد بن يزيد. رامبولدي **حوليات المسلمين**، المجلد الثاني ص٢٢٥، عام٧٢٠– وعند ذكر النويري، يضيف من عنده أن محمدا قد حط بسفنه في مرسالا وأخذ معه إلى أفريقيا مئات من الأسرى.

(2) ابن الأثير، المخطوطة C، المجلد الرابع، الورقة٧٤، الوجه الثاني عام ١٠٩، **البيان** ص٣٥؛ ابن خلدون *Histoire de l'Afrique et de la Sicile*، ترجمة م. دي فرجيه ص٣٢؛ النويري، الفصل الخاص بصـــقلية في دي جريجوريو *Rerum Arabicarum* ص٢، والفصـــل الخـــاص بأفريقيـــا لدي ســـلان *Histoire des Berbères par Ibn Khaldoun* المجلد١ ص٣٥٧ في الحاشية؛ رامبولدي **حوليات المسلمين**، المجلد الثاني ص٢٢٩ عام٧٢١، وعند ذكره للنويري يضيف من عنده أن بشيرا كان يحمل أصناما كثيرة من الفضة.

يحترم(1). ولما توفي بشير، وتولى بعده عبيدة بن عبد الرحمن، وهو من قبيلة سليم، فقد حاول الاستيلاء على جزيرة صقلية بواسطة عدة حملات عليها. وفي العام نفسه الذي حل فيه في أفريقيا، وهو عام ١١٠ هجري (من١٥ أبريل ٧٢٨ إلى٣ أبريل ٧٢٩) أرسل بالبحر جيشاً بقيادة عثمان بن أبي عبيدة، الذي ما أن نزل صقلية حتى وضع أخاه حبيباً على رأس سبعمائة رجل تقابلوا مع الشريف البيزنطي وهزمه ودفعه إلى الهرب؛ الأمر الذي شجع عبيدة ووضع خطة أكبر جعلته يجهز في العام التالي (من ٤أبريل ٧٢٩ إلى ٢٤ مارس ٧٣٠)، جعلته يجهز مائة وثمانين مركبا ويرسلها مباشرة إلى صقلية تحت قيادة مستنير بن حبحاب، الذي خيب آمال حاكم أفريقيا لعدم كفاءته أو لسوء حظه، وبعد أن فرض الحصار على بعض المدن انتظر طويلا وحل الشتاء، وعندئذ رحل عنها والرياح مواتية معه، إلا أنه أثناء الرحلة عصفت به عاصفة شديدة فغرق أسطوله كله، ماعدا سبعة عشرة مركبا، وصل هو نفسه على إحداها إلى طرابلس. ولما علم عبيدة بذلك، أراد أن يعاقب مستنيراً، حسبما يقـــول مؤلف ســـيرة حيـــاته، ليكون عبرة أيضا لغيره. فأمر يزيد بن مســـلم، حـــاكم طرابلس، بأن يرسل إليه مكبلا بالسلاسل وفي حراســـة مشددة القائد الذي تسبب بإهماله في هلاك المســـلمين، ولمـــا مثل بين يديه في القيروان أمر بجلده على ظهر أتان وهي تطوف به في المدينة، ثم أمر بضـربه بالعصـا كل أسبوع ولوقت طـويل، وحبسه في السجن طـوال فتـرة حكـمه للإقليم(2).

---

(1) يستدل على ذلك من إجراءات اتفاق عام٨١٢ والتي ذكر فيها حاكم صقلية أول معاهدة تم ابرامها منذ خمسة وثمانين عاما مضت. انظر الفصل العاشر.

(2) المقـريزي، قاموس بيبليوجـــرافي عنـــوانه: «**المقفى**» مخطـــــوطة باريس، *Ancien Fonds Arabe*، ٦٧٥، الورقة ٢٢٧، الوجه الأول، ســـيرة حيـــاة عبيدة الله. لقد روى ابن أبي دينـــار (القيرواني) موضـــوع المســـتنير أيضـــا ولكن باختصار، *Histoire de l'Afrique* الترجمة الفرنسية ص٦٥، ونص المخطوطة الورقة١٦، الوجه الثاني. ويلقب هذا المؤلف «المستنير» بابن حارث بدلا من اسم أبيه «ابن حبحاب».

وقد وصل إلى صقلية، من أجل الغنائم والأسرى، كل من ثابت بن هيثم من الأردن في الشام عام ١١٢ (من ٢٥ مارس ٧٣٠ إلى ١٣ مارس ٧٣٤) وعبد الملك بن قطان في عام ١١٤ (من ٢مارس ٧٣٢ إلى ١٩ فبراير ٧٣٣)، وعادا منها سالمين إلى أفريقيا؛ وهكذا أيضا فقد اجتاح عبدالله بن زياد في العام مائة وأربعة عشرة اجتاح سردينيا غير أنه في العام التالي (من فبراير ٧٣٣ إلى ٨فبراير ٧٣٤) خسر أبو بكر بن سويد الذي أرسله عبيدة إلى صقلية، سفنا كثيرة دمرتها النيران التي قذفها البيزنطيون(1). وقد لاقت حملة عسكرية أخرى المصير نفسه، فقد قام بتنظيم هذه الحملة في عام ١١٦ (من ٩ فبراير ٧٣٤ إلى ٢٩ يناير ٧٣٥) عبيد الله بن حبحاب، الذي انتقل وقتئذ من حكم مصر في أفريقيا ليحل محل عبيدة الذي كان قد شهر بأخيه بقسوة شديدة. إن رجال عبيد الله الذين كانوا يأتون إلى صقلية قد خاضوا قتالا شرسا غير محسوم النتيجة مع الأسطول اليوناني الذي تقابلوا معه هناك، ذلك لأن اليونانيين بعد هزيمتهم قد أخذوا معهم أسرى مسلمين كثيرين، من بينهم عبدالرحمن بن زياد والذي لم يطلق سراحه قبل عام ١٢١ (٧٣٩). وفي عام ١١٧ (٧٣٥) أمر عبيد الله مرة أخرى بالإغارة على سردينيا بواسطة حفيد عقبة بن نافع الشهير واسمه حبيب بن عبيدة، وهو أيضا مشهور لانتصاراته على سواحل الأطلنطي البعيدة وأيضا في قلب أفريقيا بالسودان(2). في الوقت ذاته وبعد اتساع ترسانة تونس وتحسينها وبعد اعداد قوات أكبر بكثير من ذي قبل وإحضار قوات إضافية من أسبانيا، عيَّن عبدالله قائدا عليها حبيب ودفع بها مرة أخرى للإغارة على صقلية، وهو يقصد بكل وضوح أن يفتح هذه الجزيرة.

ولما كانت أفريقيا تعاني في ذلك الوقت من القلاقل، فإنه يبدو أن

---

(1) المقريزي، **المقفى**، مخطوطة باريس، *Ancien Fonds Arabe*. ٦٧٥، الورقة ٢٢٧ الوجه الأول: سيرة حياة عبيدة الله.

(2) ابن الأثير، **المخطوطة** C.، المجلد الرابع، الورقة ٨١ الوجه الأول، والورقة ٨٢ الوجه الأول عامي ١١٦و ١١٧.

الحاكم الإسلامي قد قرر أن يخوض تلك المعركة تغريه عليها الأحوال السائدة في صقلية حيث كان ليوني ازاوريكو يرهق نفوس الأهالى وخزائنهم بما لا يقدرون على تحمله.

ولما نزل حبيب على شواطئ صقلية عام ١٢٢ (٧٤٠) وتحصن على مايبدو بجنوده في أحد المعسكرات، كما كانت عادة المسلمين عندما يقومون بفتح أحد البلاد، دفع فيما حوله بجياده تحت قيادة ابنه عبدالرحمن الذي هزم كل الذين كانوا يشتبكون معه، ثم انطلق منتصرا في صقلية حسب رواية المؤرخين المسلمين، متوغلا في أراضيها أكثر من أي قائد آخر. وعندما وصل عبدالرحمن إلى أسوار مدينة سيراكوزا، هزم الأهالي الذين خرجوا يقاتلونه وفرض حصارا شديدا على المدينة وبث في قلوب أهلها الفزع والرعب حتى إنه استطاع في أحد الأيام أن يصل هو نفسه بجواده إلى إحدى بواباتها وطرقها بسيفه مهددا فترك السيف أثرا عليها. وأسرع أهل المدينة إلى دفع الجزية. وبعد أن فرض سيطرته على العاصمة توجه حبيب إلى بقية أنحاء الجزيرة من أجل اخضاعها، في ذلك الوقت دعى على عجل إلى أفريقيا حيث قام البربر بإثارة القلاقل فيها مرة أخرى، مستغلين انشغال الجنود

---

(1) قارن ابن الأثير، المخطوطة C.، المجلد الرابع، الورقة ٨٢، الوجه الأول، عام ١١٧: ابن شبّاط، ذكره ابن أبي دينار (القيرواني)، *Hisoire de l'Afrique*. ص٦٧ و٦٨ والمخطوطة، الورقة١٧ الوجه الأول؛ **البيان**، ص ٣٨-٤٠؛ ابن خلدون، *Hisoire de l'Afrique* ، ترجمة م. دي فرجيه ص٣٤.
الكاتب المسيحي المعاصر، إزيدورو دي بيا، في فلوريس *Españ a Sagrada*، المجلد الثامن، ص٣٠٥، يقول إن عقبة (ابن حجاج) حاكم أسبانيا، عندما سمع بتمرد السود في افريقيا، انتقل إلى هناك، وقتل كل المتمردين *"Sicque cuncta optime disponendo, et: Trinacrios (portus) pervigilando, propriæ sedi clementer se restituit"*. وبقبوله، على مايبدو، ما ذكره ترينـاكريوس (أو تريماكريوس، تيناكريوس، باتريوس). فإن كلمات ايزيدورو تعني أن بعض السفن الأسبانية قد وصلت بقيادة حبيب في الحملة على صقلية، وذلك لأن التمرد الذي يشير إليه ايزيدورو كان بكل تاكيد حركة سابقة، قمعها عرب أفريقيا وأسبانيا، وليس واقعة عام ١٢٢، وهو التمرد الذي جعل من الضروري انسحاب الجيش من صقلية

في حملتهم على صقلية(1) ونجت صقلية هذه المرة بفضل ذلك التمرد.

في وسط الأحداث العاصفة التي وقعت بعد ذلك في أفريقيا وبعد احتلاله لذلك الإقليم، كما أشرنا إلى ذلك في موضع آخر، فكر عبدالرحمن مرة أخرى في صقلية. وفي عام ١٣٥ (من ١٧ يوليه ٧٥٢ إلى٥ يوليه ٧٥٣) وبعد أن أعد جيشا وأدب بربر تلمسان، خاض بنفسه، أو كما يقول البعض، أرسل أخاه عبدالله في حملته على صقلية ثم على سردينيا وانتشر في هاتين الجزيرتين الخراب والدمار وارتكبت مذابح كثيرة ووقع كثير من الأهالي في الأسْر: غير أنه لم يحقق مكاسب دائمة، إذ لم تهيئ له ذلك دعائم حكم عبدالرحمن الضعيفة في أفريقيا. ونتيجة لذلك تمكنت الحكومة البيزنطية، بعد إدراكها لذلك التهديد الجديد، تمكنت من تعزيز الجزيرتين بشكل قوي وبنوع خاص جزيرة صقلية التي كانت تهتم بها بدرجة أكبر. فأقامت، كما يذكر الكتاب المسلمون، حصنا على كل صخرة مهيأة للدفاع ونظمت أسطولا يحرس تلك البحار، وكانت تغير، عندما كانت تستطيع ذلك، على التجار المسلمين(1). وبين إجراءات من هذا القبيل ووسط هذه القلاقل التي لم تتوقف أبدا في أفريقيا نالت صقلية احتراما من جانب المسلمين لأكثر من نصف قرن.

وكانت آثار الهجمات الأخيرة أشد دمارا وخرابا بسبب تفشي وباء الطاعون المدمر. كان ذلك الوباء منذ عام ٧١٨ قد تسبب في إبادة

والذي كانت نتيجته هزيمة العرب وليس المتمردين. بالإضافة إلى ذلك فإن ايزيدورو لا يحدد تاريخا لتلك المعارك، إلا أنها تأتي بعد تولي عقبة الحكم في أسبانيا الذي يؤرخ له في عام ٧٧٥ من العصر الأسباني والعام الـ ١٨ من حكم ليوني ازاوريكو، أي عام ٧٣٣م، ولكن ابن خلدون يحدد هذا التاريخ بعام ١١٧ (٧٣٥) والمؤرخ الذي تبعه كوند *Conde, Dominacion de los Arabes en España*، الجزء الأول، الفصل ٢٦ يرجعه إلى العام التالي.

(1) قارن ابن الأثير، المخطوطة C.، المجلد الرابع، الورقة ١١٨، الوجه الأول، عام١٣٣، والورقة٤٧، الوجه الثاني، في فصل تاريخ سردينيا، تحت عام ٩٢؛ **البيان**، ص٤٩و٥٣؛ ابن خلدون، *Histoire de l'Afrique et de la Sicile* ، ترجمة السيد م. دى هرچيه ص٤٤؛ النويري في دي جريجوريو *Rerum Arabicarum* ص٣٠٢.

رجال أسطول الخليفة الذي كان يحاصر مدينة القسطنطينية(1)، ثم انتقل الوباء بعد ذلك إلى أفريقيا من عام ٧٤٤ إلى عام ٧٥٠(2)، كما انتقل في الوقت ذاته تقريبا إلى صقلية وكلابريا ومن هناك انتقل حسبما يعتقد إلى اليونان، كما حصد في عام ٧٤٨ أهالي القسطنطينية وإقليم بيلوبونيزو(3) ولم يقل تفشي ذلك الوباء اشتعالا واضطراما فيما بين نهري دجلة والفرات(4). وفي البلاد المسيحية التي ألهب مشاعرها صراع الأيقونات لم يكن هناك مفر من أن يؤجج هذا الوباء آلامها ويزيد من نار الكارثة. ولما كان أعداء الأيقونات يدمرون كل الصور الدينية ويحتفظون فقط بالصليب، فإن الشعب الأرثوذكسي بدأ يتوجس منه، فلقد شاهد علامات الصليب السوداء تظهر بالآلاف ليس رمزا للفداء، وإنما علامة للطاعون ورمزا للغضب الإلهي(5).

هناك قصة أدبية ترتبط بغارات المسلمين في حوض البحر المتوسط، وقت أن كان القحط الشديد يطحن تلك البلاد. يروي، وفقا لأحداث الأسطورة، أن عددا كبيرا من الأسرى المسيحيين من بين سكان تلك الجزر قد أخذ للتعذيب، وعلى حين كان يباع بعضهم والبعض الآخر يساق إلى مكان التعذيب، لوحظ بينهم شاب

---

(1) أنظر المراجع التي ذكرها لي بو *Histoire du Bas Empire* الكتاب الثالث والستون الفقرة٢٢.

(2) **البيان**، ص٤٨ يقال هنا إنه قد حدث في أفريقيا نوعان من الأوبئة يطلق العرب عليهما: الوباء والطاعون والوباء يدل على الطاعون ويطلق كذلك على الأمراض الوبائية عامة وكلاهما أمراض معدية مدمرة للإنسان. انظر ملحوظة م. رينو في *Recueil des Historiens orientaux* المجلد الأول ص١٣٢.

(3) تيوفان، *Crongraphia* المجلد الأول ص٦٥١والمراجع الأخرى التي ذكرها لي بو، *Histoire du Bas Empire*، الكتاب الرابع والستون الفقرة ١٣.

(4) ابن الأثير، المخطوطة C.، المجلد الرابع، عام ١٣٠، يقول إن الطاعون قد تفشى بشراسة في البصرة؛ ابن الجوزي والذي ذكره دي سلان، *Ibn Khallikan's Biographical Dictionary* ، المجلد الثاني ص٥٥١، يكتب أن الوفيات بسبب الطاعون وصلت إلى ٧٠٠٠٠ (سبعين ألف) شخص في يوم واحد؛ وقد يعني بمدينة البصرة ذاتها.

(5) لي بو، *Histoire du Bas Empire*، الكتاب الرابع والستين الفقرة ١٥.

إيطالي على درجة كبيرة من الوسامة يدعى كوزيمو وكان زملاؤه البؤساء يرتمون عند قدميه طالبين منه أن يدعو الله من أجلهم ليشملهم برحمته. والبربر، الذين لم يفهموا سر ذلك الاحترام الكبير تجاه ذلك الإنسان صغير السن ومتواضع الحال، ولشدة تعجبهم من الأمر، سألوه: من أنت؟ فأجابهم: أنا راهب ومتعمق في الفلسفة المسيحية والفلسفة القديمة، وكانت الدموع تنهمر من عينيه وهو يقول ذلك. سأله عندئذ مواطن بعد أن تقدم إليه ولماذا تبكي وأنت قد نبذت كل شئ في هذه الدنيا؟ . فأجابه كوزيمو قائلا: «ما من شئ يؤلمني قدر دراستي التي أصبحت لا جدوى منها. لقد قضيت زهرة شبابي في تحصيل العلم، لقد تعلمت البلاغة والخطابة، والأخلاق والفيزياء والرياضيات وعلم الفلك واللاهوت اليوناني واللاهوت الخاص بنا ......لكن ما فائدة كل ذلك، إذا كان عليّ الآن أن أموت مجهولا، دون أن يكون لديّ من أترك له هذه التركة؟». رد عليه المواطن، الذي كان رجلا مسيحيا ثريا، محبوبا من الخليفة، ووالد الشاب منصور، الشهير جداً باسم القديس يوحنا الدمشقي: «إهدأ ياأخي، سوف أجد أنا لك الورثة الذين يرثون علمك». واشترى الرجل الصالح في الحال الراهب الأسير وحرره من قيد الأسر وعهد إليه بابنه وبفتى آخر كان قد تبناه. فراحا ينهلان بكل سعادة من علمه الغزير حتى بلغ أولهما المرتبة الرفيعة التي يعرفها كل إنسان. وكثيرا مانقرأ في سيرة الدمشقي التي تم تأليفها بعد قرنين من الزمان، نقرأ بعض الذكريات العربية(1)، وإذا ما حذفنا منها المحسنات الأدبية التي أضافها المؤلف، لن نجد أية عقبة في قبول الحدث الذي يرجع، حسب التسلسل الزمني للأحداث، إلى الأعوام

(1) بولانديستي، *Acta Sanctorum*، مايو، المجلد الثاني، ص١٠٩ ومابعدها، ٧٢٥ ومابعدها، وهو نص يوناني وترجمة حياة القديس يوحنا الدمشقي كتبها يوحنا، بطريرك أورشليم القدس: وفي الكتاب نفسه ص٧٣١ ومابعدها، ونص آخر من كتاب سير القديسين ينسب إلى مؤلف يدعى قسطنطين لوجوتيتا.

الأولى من القرن الثامن، إذ يبدو أن الراهب كوزيمو قد سقط أسيرا في أيدي المسلمين بصقلية ربما في حملة الرجال البارزين التي سبق ذكرها، والتي أقتيد بعدها إلى الخليفة ضمن الـ٦٠٠٠٠ (الستين ألف) أسير الذين أرسلهم إليه موسى فاتح الغرب. ويعزز هذا الرأي الاتصالات العديدة، وربما قلنا أيضا الاختلاط الذي كان يجري مابين أديرة صقلية، وأديرة البر الإيطالي المستقلة عن اللونجوبارديين في الـ٢٥ (خمس وعشرين) سنة الأخيرة من القرن السابع.

الفصل الثامن

ولما كانت قوى المسلمين التى نمت وازدهرت فى افريقيا ترغم أباطرة الشرق على التفكير فى الدفاع عن صقلية، كانت شبه الجزيرة الإيطالية تشهد تغيرات لها خطورتها فى الدولة. فاللونجبارد، نظرا لأنظمتهم السياسية غير المتماسكة وقلة عددهم، كانوا قد توقفوا عند الذى استولوا عليه من قبل، وكانوا يشكلون تهديدا للمقاطعات الأخرى دون أن يتمكنوا من قهرها. وكان الأباطرة البيزنطيون يساندون من جانبهم هذه المقاطعات دون إمكانية الدفاع عنها، حيث لم يكن لديهم جيش لإرساله إلى البر الإيطالى، وكل ما كان فى حوزتهم مراسيم امبراطورية وحكام وضباط وأجراء مسلحون وبعض من قوات بحرية تظهر من آن لآخر. لذا تقبلوا، أو لعلهم شجعوا تنظيم الفرق المدنية المسلحة، وتركوا البلديات تقوم بأعمالها، من هنا اكتسبت جميع السلطات التى فقدتها مع الإمارة؛ ورويدا رويدا استعادت السلالة الإيطالية فى هذه الأقاليم استخدام السلاح ومباشرة الحياة السياسية واستهلت عصر البلديات الأول فى بلادنا. واحتلت روما مكان الصدارة بين البلديات، ذلك لأنها روما، ولأنه منذ زمن القديس جريجوريو فلاحقا كان منصب رئاسة البلدية يشغله البابوات، الذين كان تقديرهم يتزايد بشكل مطرد لدى العامة الجرمانية، وكانوا يتبوءون المكانة الأولى بين كل كنائس الغرب.

وهكذا راح العنصر القومى الجديد الذى نشأ فى إيطاليا ينقلب على الحكم البيزنطى، الذى كان يجثم عليه دون سلاح، فضلا عن أنه مبعث إزعاج جم من جراء أفكـــاره اللاهوتية الغريبة التى قلمـــا كانت تتواءم مع الطبيعة الإيطالية. وأضرمت كنيسة روما النار، وهى الخصم العتيد لكنيسة القسطنطينية، وكانت بالفعل قد جرأت على

منازعة الأباطرة منصب البابا الأكبر. وعلى هذا النحو اشتد الصراع القومى بين الإيطاليين واليونانيين واتخذ شكل الخصومة الدينية، وهى أعنف الخصومات. ولم ينتفع من هذا الصراع إلا الإكليروس، بينما ألحق الضرر بإيطاليا التى كانت مع ذلك منقسمة بين الجنس اللاتينى واللونجباردى، وكان اللاتين، لسوء حظهم وحظنا، لايرون نجما قطبيا آخر سوى البابا.

وبدأت المقاومة من روما، حيث لم يكن شعبها قد فقد حيويته وكبرياءه، ولكن مع قلة عدده وكسله وفقره ما كان ليصدق أن أحد حكامه الذى انتخبه مازال يحظى بالوقار والتبجيل فى جزء كبير من العالم، وأن ذلك يعود عليه بالنفع، أى نتاج الثروات والأموال التى كان البابا يطعم بها فقراء المدينة وينفق منها على جماعة من رجاله من رجال الدين والعلمانيين، كما يزيد بها من روعة تلك المعابد وبهائها التى كانت تجذب الكثير من الأجانب. وردا لجميل الرومان ولمصلحتهم آلى كوستانتى على نفسه مشقة كبيرة لاغتيال البابا مارتينو. وبعد عدة سنوات كان مجرد الارتياب بأن أحد الولاة البيزنطيين قد قدم من صقلية إلى روما ليثير المضايقات للبابا، كافياً لإثارة ميلشيات المدينة، وإلى حمل السلاح من قبل ميلشيات بنتابولى ورافينا التى انصرفت بعد ذلك عن مناصرة البابا (٧٠٢). وما أن أشهرت السيوف فى المناطق التى طغت فيها ثورة الغضب حتى سالت الدماء وتدفقت. فقد قام الشريف تيودورو وهو يمر بأسطوله من صقلية فى طريقه إلى رافينا، قام غدرا بعملية ثأر قاســية من المواطنين، ومن هنا اتحدوا مع الرومان ومع مدن الولاية البيزنطية (٧١١)، وانتهازا لفرصــة أن الامبراطور فيليبيكو كان يسعى لاحياء بدعة الطبيعة الواحدة، قام مجلس الشيوخ والشعب الرومانى مدفوعا بما يذكر بعظمته قديما وقرر الخروج على طاعة الأمبراطور وإنزال صــورته ورفض تداول العملات المصكوك عليها اسمه (٧١٢). بيد أنه بعد خلع فيليبكو توقفت

الحركة الإيطـــالية لحذر الأباطرة الآخرين أو ضعفهم ولارتياب البابوات الذين كانوا ينفرون - وكأنه نفور غريزى - من الاعتماد على الشعب.

ولكن ما إن اعتلى ليون إيزا وريكو عرش الإمبراطورية حتى اتجه ليس لقناعات لاهوتية، أو نصائح من اليهود أو من المسلمين كما يتردد فى حماقة، ولكن بدافع فطنة رجل دولة، نحو إجراء إصلاحات عظيمة. ولما رأى نشاط الجماهير وجهدها يتبدد فى الهوس والظنون الدينية داخل الأديرة وخارجها، ولا يهتم بالأعمال والميلشيات بل يهجرها، فكر ليونى فى استعادة نفوس الشعب، بأن ينزع من أمام أعينه صور القديسين التى كانت تشجع على ذلك الهوس، وتزيد من شعبية الرهبان ومكاسبهم وعددهم أيضا. وهكذا أعطى إشارة البدء لبدعة الإيكونوكلاستيا (تحطيم الأيقونات) التى قد يكون من الأفضل أن يطلق عليها حرب الإمارة ضد الخرافات، وهو مثال نادر فى العالم. وظلت الإمارة متخلفة هذه المرة، لأنه فى الولايات الشرقية، حيث كان رجال الكنيسة يبدون طاعة أكثر له، استمرت الإصلاحات زهاء القرن أو أكثر بقليل حتى استطاع الرأى العام أن يجذب وراءه علماء اللاهوت والأمراء. ولكن فى إيطاليا انتصر الشعور الدينى فى الحال، حيث كانت تزكيه الظروف السياسية؛ ولأن مسألة الصور كان لها أبعاد يعرفها عامة الشعب جيدا، حيث كان يلمس قيمة أولئك الشفعاء التى كان مستبد يونانى يريد أن يلغيها. وعلى ذلك فما أن صدر الأمر الأول من ليونى (٧٢٦)، حتى قام جريجوريو الثانى، وكان يضارع فى قدره قدر الإمبراطور، وأشعل النار: ولم يتركها خلفاء جريجوريو تخمد، ويمكن القول بأن البابوات أخذوا يهيجون الجماهير؛ ويشجعون رابطة المدن الإيطالية المستقلة عن اللونجبارد ويطلبون العون من ملوك هذه الأمـــة، الذين انتهزوا الفرصة للتوســع، وكانت الفرصـــة مواتية لهم؛ وتفجــرت الحـــرب باســم الدفـــاع عن الدين، وتظــاهر البابوات بالرغبة فى الابقاء على هذا الوضع والاستمرار فى طاعة الأباطرة.

ولكن هذا التظاهر القانونى تبدد بعد أوائل انتصارات الاتحاد الإيطالى. حيث إن البابوات وقد اطمأنوا لتلك الانتصـــارات سرعان ما نســوا هدف الحـــرب، وأن الإنجيل لم يسمح للكهنة بأية أســلحة سوى عصا الراعى، ولم يسمح بأية مزايا سوى عطايا المؤمنين. وأرادوا كل أسلاب المهزومين، وأرادوا علاوة على الأموال والكنوز والدخول، الامارة أيضا: واتخذ توزيع الغنائم شرف اسم هبة مدن كثيرة تم انتزاعها من البيزنطيين، يقدمها الملك ليوتبراندو إلى القديسين بطرس وبولس. وبعد ذلك ندم الأمراء اللونجبارد على هذه المنح الواسعة، وحين حاول خلفاء الرسولين المحافظة عليها تسببوا فى زج ايطاليا فى هوة سحيقة: وحيث إنهم كانوا غير قادرين على حمل السلاح، بدأوا من الآن فصاعداً تلك الدوامة السياسية التى لم يضعوا لها حداً أبداً: استعانوا بالفرنجة الأرثوذكس ضد اللونجبارد الأرثوذكس؛ ومع ذلك كانوا يحرضونهم على نهب البيزنطيين الذين أخذوا يقلعون عن الهرطقة؛ ونشروا فى ظلام القرن الثامن قرار هبة قسطنطيين المزيفة لكى ينالوا فى حرية هبات بيبينو وشارلمان، وتفننوا فى خلط حق ملكية بعض الأراضى الزراعية مع السيادة السياسية؛ وتعيس ذلك البلد الذى كان القديس بطرس يعد فيه من أصحاب الممتلكات؛ لأن يد البابا كانت تمتد فيه باسم أمير الرسل. وهكذا صار القديس بطرس ملكا لأقاليم بأكملها فى إيطاليا، ولايات تقلصت من هنا وامتدت من هناك، ونازعته فيها القوى المهيمنة الثلاث التى تعاقبت بعد ذلك فى أوربا وهى قوة البارونات والملوك والشعب، ورغم ما حدث من تمزق وتمرد وإراقة دماء فى هذه الأقاليم فما زالت قائمة حتى الآن. ولم يمض كثير من الوقت حتى وقع باسم القديس بطرس أيضا ذلك الحدث الثالث والخطير بالنسبة لإيطاليا، بقدر خطورة غزو الفرنجة وســيطرة البابا الزمنية؛ وأقصد به إنشاء كرسى إمبراطور الغـــرب وخلقه: وهـو لقب كان وحده كافيا لخلق الانقسام بيننا لقرون عديدة ولجلب الجيوش الأجنبية من بلاد ما

وراء الألب، وتعضيد سلطة البابوية، حينما كان الأباطرة يؤيدونه أو يناهضونه.

وخرجت إيطاليا من ثورة القرن الثامن هذه مقسمة على النحو التالى. احتفظ الفرنجة بالشمال تحت اسم مملكة إيطاليا؛ واحتفظ البابا بدولة الكنيسة الحالية مضافا إليها جزء من توسكانا ومدن أخرى وانتزعت منها روما ومعها بعض الأراضى حتى ساحل البحر، التى احتفظت بشكل الجمهورية وهيمن عليها فى الواقع البابوات وأباطرة الغرب(1). وتبقت للأباطرة البيزنطيين صقلية وكلابريا وتيرا دى أوترانتو وسيادة اسمية على الجمهوريات التى نشأت أثناء الحركة القومية فى ذلك العصر، ولكنها لم تنخرط فى التمرد البابوى مثل البندقية وضواحيها ونابولى وبعض المدن الساحلية الأخرى(2). ولم تمتد سيطرة اللونجبارد إلى دولة بنڤينتو التى كانت تشمل بقية مملكة نابولى الحالية؛ وكانت تعرف بتبعيتها لشارلمان، ولكنها بعد ذلك تحللت من الطاعة والولاء له. أما سردينيا وكورسيكا فبعد أن هجرهما البيزنطيون وتعرضتا لاجتياح المسلمين، حداهما الأمل فى الخروج من محنتهما فخضعتا لملوك إيطاليا الجدد، الذين أمدوهما ببعض المساعدات وبعد ذلك تركوهما لمصيرهما لعدم القدرة على مواصلة المعونة: ونجا سكان تلك الجزر الفقراء والأقوياء من نير العرب وليس من هجماتهم لمدة قرنين، وظلوا محرومين من التحضر الإسلامى ومن ملامح

(1) لست فى حاجة بأن أذكر كم هى غير مؤكدة حدود الأراضى التى تضمنتها هبة بيبينو وشارلمان، وكيف أن البابوات لم يتملكوا أبدا الكثير من بين الأراضى التى وهبت لهم دون شك.

(2) قسطنطين بورفيروچنتو، *De administrando Imperio* ، الفصل٢٧، ص٩٩٥، يقول إن اللونجبارد كانوا قد احتلوا كل ايطاليا، فيما عدا أوترانتو وجاليبولى وروسانو ونابولى وجاييتا وسورنتو وأمالفى. ويجب أن يفهم أن هذا حدث فى الوقت الذى كانت فيه الامبراطورية البيزنطية قد فقدت الولايات التى كانت تحت حكمها، ولم تتمكن حتى من استعادة بوليا، أى فى الفترة ما بين النصف الأول من القرن الثامن والنصف الثانى من القرن التاسع.

الحضارة التى نمت أيضا فى إيطاليا(1).

وفى الأطار الذى حاولت أن أرسمه هنا يوجد جانب جدير بالاهتمام الخاص؛ وهو طموح بابوات القرن الثامن فى السيطرة على الأجزاء الجنوبية من إيطاليا وعلى الجزر. وخطة التوسع هذه كان أدريانو قد شرع فيها، وواصلها ليون الثالث فى الخفاء؛ ثم أهملت بعد موت شارلمان، وأعيد إحياؤها فى القرن الحادى عشر وكتب لها النجاح تقريبا فى القرن الثالث عشر. ولايزال فى أيامنا هذه آخر بقايا الهيمنة البابوية على بنڤينتو. وقدر استطاعتها اعترضت الحكومة البيزنطية فى صقلية على هذه الاعتداءات. وسأترك وراء ظهرى مشاحنات حكام الأقاليم مع البابوات، تلك التى جرت فى بدايات بدعة محاربة الأيقونات، عندما كان مبعوثو روما إلى الأباطرة يتم أحيانا سجنهم فى صقلية (٧٣١-٧٣٢) : وكانت عبارة عن عمليات بوليسية وليست سياسية. ولكن بعد قدوم الفرنجة إلى ايطاليا وتوجه الأباطرة البيزنطيين للاتحاد مع الأمراء اللونجبارد، أعدائهم القدامى، كان القرار الأول هو الاتفاق على جمع القوات ضد العدو الجديد المشترك. من هنا كان الاتفاق الذى تم عقده (٧٥٨) لحصار أوترانتو، والذى لزم أن يقوم به جنود الملك ديزيدريو والسفن الكبيرة التى بحوزة صقلية (2). وترتب على هذا الاتفاق أيضا مرور

(1) ابن الأثير، المخطوطة C، المجلد الرابع، ورقة ٤٧ الوجه الثانى، تحت عام ٩٢، عندما جمع فى باب واحد كل عمليات المسلمين على سردينيا، يؤكد أن هذه الجزيرة لم تتعرض للغارات من عام ١٣٥ إلى٣٢٣ هجرية (من٧٥٢ إلى٩٣٥)، وفى هذه الفترة هيمن عليها الروم ويقصد بهم هنا السلالة الايطالية الاصلية. وتتفق كتب الأخبار المسيحية القريبة من تلك الفترة مع تلك الرواية؛ إلا أنها تضيف الإشارة إلى بعض الهزائم التى تعرض لها المسلمون فى سردينيا وكورسيكا. وبخصوص هذه الجزيرة فمن الواضح عدم صحة سيطرة المسلمين عليها التى يفترضها بعض كتاب حوليات البلاد. انظر رينو *Invasions des sarrazins en France*، ص٦٩، وانظر ونرش *Commentarium*، الخ، الكتاب الأول، الفصل الثالث، ٤٩ فى الهامش.

(2) رسالة البابا بولس الأول إلى الملك بيبينو، *Codex Carolinus*، طبعة جرستر، رقم١٥؛ وطبعة تشينى رقم ١٨.

أسطول قوى من القسطنطينية بعد أن انضمت إليه الوحدات البحرية الصقلية(٧٦٤) على سواحل البر الإيطالى)١(، بهدف التعاون مع اللونجبارد، وكانت غاية لم يكتب لها النجاح. وبعد عملية شارلمان الأولى وسقوط المملكة اللونجباردية (٧٧٤)، وهروب أديلكى إلى القسطنطينية، قبض حاكم صقلية فى يده على خيوط الممارسات التى كانت تتسع فى البر الإيطالى ضد المسيطرين الجدد. إذ كان أديلكى بحسه القلق وآماله المتأججة يعمل على تحريض الإقطاعيين اللونجبارد الواقعين تحت السيطره؛ وكان يذكر أرجيزو دوق بنفنتو بعراقة الدم المشترك ومصالحه وهو الدوق الذى ظل محتفظا باستقلاله حتى تلك الآونة؛ وكان يحث البلاط البيزنطى الخامل على الحرب معرباً عن احترامه واستعداده لأن يصطبغ بالصبغة اليونانية هو وجميع اللونجبارد، وقدم المثال على ذلك بأن أطلق على نفسه الاسم اليونانى تيودوتو. ومن هنا فالأباطرة، بين الرغبة والتشكك، رأوا ضرورة أن يقوم وزيرهم فى صقلية بمساعدة أولئك الأمراء المتآمرين ورعايتهم. وزادت حرارة الممارسات عندما أجبر أرجيزو على إعلان تبعيته لشارلمان، وعندما ذاق البابا أدريانو حلاوة السلطة الزمنية ففكر فى توسيع الحدود الجنوبية للدولة الجديدة.

نرى أدريانو قد لجأ إلى ذرائع مقنعة جدا بينما كان يطالب شارلمان بهذه المدينة أوتلك من مدن وسط إيطاليا، مما ورد ذكرها بالهبة وبينما كانت لاتزال فى يد الفرنجـة؛ وبينمـا كان يذكر هنـا وهناك أسباب ودوافع، حتى إنه لجـأ إلى شـهادات من يبلغون المـائة عـام لكى يبرهن لموظفى الملك أن القديس بطرس كان يمتلك منذ القدم هذه وتلك من الممتلكات. واعتمادا على مهابة القديس بطرس وعلى سندات باسم أمير الحواريين وعلى السلاح الذى رفع باسمه المقدس، بالإضافة إلى قدر الملك شارلمان وبعض من تعزيزاته، كان أدريانو

(1) *Codex Carolinus*، طبعة جرستر، رقم ٢٤؛ طبعة تشينى رقم ٣٨.
(2) *Codex Carolinus*، طبعة جرستر، رسالة٥٦، وطبعة تشينى رسالة٧٢.

يحلم بتجريد ملاك نابولى وبنفنتو الأشرار، وكذا اليونانيين المبغضين من الله، وكان يطمح فى إسـكات أدالجيزو وشـريف صـقلية المتغطرسين: وبهذه الصفات التى لاتتواءم مع المحبة والوقار، تحدث عنهم البابا وهو يكتب لشارلمان(1). وقال له بصريح العبارة فى إحدى الرسائل أنه يريد أن يخضع تلك البلدان «فى خدمة بطرس الطوباوى أمير الحواريين، والملك شارل وذاته هو»(2). وهنا تتضح المقايضة ربما على تقسيم إيطاليا تقسيماً جديداً كان يقترحه العبقرى أدريانو على العبقرى شارلمان. كان أدريانو يريد من الملك المدن الأخرى التي يطالب بها فى وسط إيطاليا ومساعدته بالجنود، وفى المقابل سيقدم له السيادة العليا على أقاليم الجنوب، التى يلزم احتلالها باسم مقر روما ولسيطرته وفائدته.

ونظراً لأن شارل كان منهمكاً فى حروب أخرى كثيرة، لم يستطع أو لم يود ذلك، وراح أدريانو يتحرك بمفرده مستعيناً بتلك الأسلحة التى تمكن من جمعها وبألسنة أساقفة نابولى وجاييتا وآذانهم. وبرغم استرداد بعض مزارع القديس بطرس في أراضي نابولي التى صادرها الأباطرة منذ عدة سنوات مضت، احتل تيراشينا فى عام ٧٨٧؛ ولما كانت رغبته شديدة فى مواصلة الزحف لم يصغ لأى حديث عن هدنة، بمعنى أنه يمكن أن يحتفظ بتراشينا وأن يقبل خمس عشرة من الرهائن من نابولى حتى لا يتم طلب الأوامر من والى صقلية فيما يخص مسألة الممتلكات. وبرفض البابا اضطر أهل نابولى إلى درء القوة بالقوة. ولما هرع والى صقلية لنجدتهم اتحدت قواته مع أهل نابولى واستردوا تراشينا. ولما أشهر سيف الكهنوت لأول مرة باسم المسيحية، فقد كان يهدد عن كثب دوقية بنفنتو والمناطق التى يهيمن عليها البيزنطيون فى إيطاليا، لذا

(1) *Codex Carolinus*، طبعة جرستر، رسـالة ٦٤، ٧٣، ١٥؛ وفى طبعـة تشـينى ٦٥و ٩٠و ٨٩.
(2) الرسالة الأولى من الرسائل المستشهد بها فى الهامش السابق.

سرعان ما اتفق الواقعون تحت التهديد معاً. ولما اشتم أديلكى رياح الحرب هرول إلى تلك الأماكن. وكانت الرسائل ترسل وتصل كل يوم بين أرجيزو دوق بنفنتو ووالى صقلية وأهل نابولى؛ وعلم البابا، أو قال إنه علم بأنهم يعدون الجيوش على قدم وساق أرضاً وبحراً كى يأخذوه من داخل روما. وإذ فزع لذلك كتب إلى شارلمان يطلب منه نجدة وقوات تفى بمواصلة فتوحاته؛ واستحلفه فى الإسراع بأن يرسل له قوات توسكانا وسبوليتو وحتى قوات بنفنتو(1) الشريرة تلك وإن كانوا مذبذبين فى موقفهم. وهكذا أخطأ أدريانو فى ضربته؛ وإن كان تحرشه بالأعداء قد أجبر شارلمان على دخول الحرب التى كان يريد أن يشعلها.

وحينئذ أخذت تتلاحق العمليات التى بدأت من صقلية. فكشف أحد قساوسة كابوا للبابا أن أرجيزو ينوى أن يقسم بالولاء لإمبراطور القسطنطينية، وأن يرتدى الملابس ويحلق شعره حسب الطريقة اليونانية، شريطة حصوله على لقب والٍ وتنصيبه على دوقية نابولى. ومضى الأمر إلي ماهو أبعد بكثير من هذا فقد أتى اثنان من حملة السيف الإمبراطورى أتيا من صقلية لتلقى قسم أرجيزو عندما مات فجأة(2).

(1) *Codex Carolinus*، طبعة جريستر، رسالة ٥٩ و٦٤؛ طبعة تشينى ٥٧ و٦٥. إن تاريخ عام ٧٨٠ الذى يحدده تشينى للرسالة الثانية تاريخ خاطئ ويلزم أن يستبدل بعام ٧٨٧ كما أوضح ذلك من قبل موراتورى (*Annali*، عام ٧٨٧)، وغير مذكور على غير العادة عند أسيمانى فى *Italicæ Historiæ Scriptores*، المجلد الأول، ص ٤٨٨ - ٤٨٩. والأسباب التى يذكرها تشينى ليرد بها على كاتب حولياتنا العظيم تافهة جداً ويكفى لدحضها أن فى الرسالة كلام عن أهل بنفنتو الأشرار بصفتهم موالى لشارلمان وهو ما كان غير ممكن قوله قبل عيد فصح عام ٧٨٧. والرسالة ٥٩ عند جرستر رغم ذكر تشينى لها فى ٧٧٦، فيبدو أنها مكتوبة فى وقت قريب من الأخرى، وفى العام نفسه ٧٨٧. وعلى العكس يخطئ موراتورى عندما يكتب أن أديلكى كان فى تلك الفترة حاكماً لصقلية. وهذا لا يمكن التدليل عليه من رسالة البابا أدريانو نفسها المشار إليها، كما يوحى موراتورى، كما لم يشر إلى ذلك أى مسجل للوقائع وهو أمر غير حقيقى أبداً. لقد خدع موراتورى التقارب الصوتى باسمى تيودورو وتيودوتو، اللذين إتخذ أديلكى أولهما كما أشرنا، بينما كان الثانى اسم الطواشى حاكم صقلية الذى رسا فى إيطاليا مع أديلكى عام ٧٨٨. ولم يفت أسمانى فى الكتاب المذكور أن يلاحظ هذا الخطأ البسيط عند موراتورى.

(2) *Codex Carolinus*، طبعة جرستر، رسالة ٨٨، وطبعة تشينى رسالة ٩١.

وفشل الجزء الرئيس من الخطة فقد خلفه ابنه جريموالدو، الذى كان قد تعلم فى بلاط شارلمان التظاهر وتحين الفرص، حيث كانت الخطة تعتمد على قوات دولة بنفنتو. ولما كان قادة شارل ورجاله وجواسيس البابا يحيطون جريموالدو، فقد وجد نفسه مضطراً لتوجيه قوات بنفنتو ضد قريبه الذى أتى لتحريره.

ولما كان الحظ لا يزال حليفاً لأديلكى فما أن فشلت مساعى الزواج بين الإمبراطور قسطنطين وابنة شارل، وتصادف مع ذلك حدوث واقعة تراشينا حتى انتاب بلاط القسطنطينية غضب عارم لم يسبق له مثيل. وبعد أن أرسلوا فى الغرب مع الجنود شخصاً يدعى يوحنا وكان مسجلاً بالبلاط وأميناً للخزانة وهما منصبان رفيعا المستوى، وانضمت اليهم جنود صقلية والتى كان يقودها تيودور، حاكم الجزيرة وقائدها العسكري، رسا الجيش فى بر إيطاليا. وهنا وجد أديلكى ذاته وتحرك فهاجم دولة بنفنتو. ودار القتال مع رجال اللونجبارد فى بنفنتو وسبوليتو والتى كان يقودها الدوقان جريموالدو وألدبراندو، وكبدوا اليونانيين خسائر فادحة فى مذبحة كبيرة، كما تم أيضاً أسر كاتب السجلات وبعد ذلك قتلوه(1) وكان مصير أديلكى أسوأ من الموت فى ميدان الحرب كما ذكر البعض(2).

(1) ثيوفانس، *Chronographia*، المجلد الأول، ص ٧١٨ (سنة ٦٢٨١)، *Historia Miscella* عند موراتورى، *Rerum Italicarum Scriptores*، المجلد الأول، الجزء الأول، ص ١٦٧؛ إينباردوس، و *Annales Laurissennes*، عند بيرتز، *Scriptores*، إلخ، المجلد الأول ص ١٧٤ - ١٧٥. - وهناك رسالتان أخرتان لأدريانو تم تضمينهما بـ *Codice Carolino* برقم ٩٠ و٩٢ فى طبعة جرستر، وبرقم ٨٩ و٩٠ فى طبعة تشينى فى عام ٧٧٨، وأعتقد أنه يجب أن تنسبا إلى تلك الفترة. وكلاهما تتحدث عن ممارسات أديلكى فى كلابريا، وتروى الثانية أن شريف صقلية وحاملى السيف الإمبراطورى قد عبروا إلى أجروبولى فى شهر يناير، وكانوا فى طريقهم لزيارة أرملة أرجيزو فى سالرنو ومنها انتقلوا إلى نابولى.

(2) هذا الافتراض يقوم على أساس فى رواية سيچيبرتو، كاتب وقائع ينتمى للقرن الحادى عشر، والذى حين أساء تفسير *Historia Miscella* رأى فى موت أديلكى بما له من ملامح البطل التراجيدى ما هو أنسب للوضع من موت يوحنا المسالم. واليوم لا يجب علينا أن نواصل الخطأ وبين أيدينا ثيوفانى الذى كان نصه مصدر النص الموجز المعروف باسم *Historia Miscella*.

فبعد أن نجا من الهزيمة تبددت أمام عينيه آخر آمال سلالته التى كانت تعتمد لسوء حظها على الأجانب. وإذا كانت تلك المعركة لم تبعث القوة بالمملكة اللونجباردية فقد حافظت على الدوقيات رغماً عن البابا أدريانو، ذلك لامتنان شارل وثقته فى جريموالدو وألدبراندو. وبعد مرور بضع سنوات اقترح على البابا بأن يعود ليرسل الفرنجة إلى جنوب إيطاليا؛ ولكن الحظ لم يحالفهم: فقد مات أدريانو بعد ذلك بقليل ووجد شارلمان نفسه غير مستعد بحال من الأحوال لمواصلة توسيع نطاق النفوذ البابوى.

وأجرى حكام صقلية فى تلك الفترة مداولات دبلوماسية فى بلاط شارلمان، وحالفهم الحظ فى نتائجها أكثر مما حالفهم فى الحرب. فكان يتردد على شارل فى أكويسجرانا نفر يدعى تيوكتستو، مبعوث من نيتشيتا، حاكم صقلية (٧٩٧)؛ وبعد ذلك بقليل فى عام (٧٩٩) تردد عليه دانييل الذى أرسله ميكيلى الذى خلف نيتشيتا(1): ونجهل سبب إرسالهما ومهمتهما؛ ولكننا نقترب من الحقيقة إذا افترضنا أنه كان يقصد بذلك صرف نظر الملك عن أى هجوم على مناطق النفوذ اليونانية فى إيطاليا قد يكون بإيعاز من ليون الثالث. ومن المؤكد أنه عندما ذهب شارلمان إلى روما فى عام ٨٠٠ لكى يتوج بتاج الإمبراطورية، دار حديث عن عملية، ليس فقط على جنوب إيطاليا ولكن على صقلية ذاتها حيث إنها مقر القوات التى كانت تحافظ على ولاء تلك الأقاليم للبيزنطيين. وقد أهمل هذا المخطط فى الحال لأن شارلمان كان لا يسرع الخطى فى حروب مع الجنوب، كما كان يواجه مشاكل أخرى كثيرة في العالم ولم تكن لديه أية قوات فى البحر، إضافة إلى أنه أراد أن يقيم صلحاً مع إيرينى؛ ومن هنا انطلقت الإشاعة الكاذبة عن الاتفاق علي زواجهما(2). ربما كان شارلمان سيحاول الزحف على صقلية فى فرصة

(1) *Annales Laurissennes*، لدى بيرتز، *Scriptores*، المجلد الأول، ص ١٨٢ و١٨٦.
(2) ثيوفانس، *Chronographia*، المجلد الأول، ص ٧٣٦ (سنة ٦٢٩٣).

مواتية حيث نراه يستقبل فى روما (٨٠١) أحد الفارين من صقلية، وهو ليون حامل سيف الإمبراطورية، وهو رجل ذائع الصيت، ثم يعود ويرسله بعد ذلك بعشر سنوات إلى الإمبراطور نيتشفورو(1). ولكنها كانت أفكاراً غير ملحة وأهملت مع الأحداث الخطيرة فى تلك الفترة. وكان البابا لا ينسى صقلية. فأحياناً تحت زعم وساطته للسلام بين إمبراطور الشرق وإمبراطور الغرب، وأحياناً من أجل الحد من النزاع الدينى الذى سرعان ما انتشر بعد موت إيرينى، أو لاسترداد ثروات القديس بطرس وممتلكاته الهائلة، كان البابا يجد دائماً طريقة لإرسال أحد رجاله الموثوق بهم إلى والى صقلية حتى يتجسس على نبض البلاد وأوضاعها ونوايا حكومتها وعلى أخبار بلاط القسطنطينية. وكما كان ليفعل أى وزير للشرطة كان البابا يقوم بإبلاغها إلى شارلمان فى دقة وهدوء.

وتلقى بعض الضوء على هذه الاتصالات رسائل البابا ليون إلى الإمبراطور، والمؤرخة بعام (٨١٣)، عندما عم إيطاليا الخوف من اقتحام المسلمين. ونستخلص من الرسائل التى كان شارلمان قد كتبها إلى الشريف، والتى أرسلها عن طريق القاصد البابوى، أن الشريف بدلاً من أن يرد على امبراطور الغرب، توجه بها للبابا، الذى لم يفض خاتم الرد الذى وصل باسمه وأرسله إلى شارلمان؛ وأضاف على الرد من الأخبار ما لم يستخلصه من رسالة الشريف ولكن من حديث مبعوثه. وفضلاً عن ذلك كان القاصد البابوى قد تم احتجازه فى قصر الشريف تحت حراسة أحد الأمناء وضعه تحت بصره مثل مفاوض يدخل حصناً محاصراً. وكانت شكوك أو مخططات الشريف تذهب لأبعد من ذلك بكثير، فعندما كان يتحدث مع رجل البابا فى أكتوبر لم يقص له من أحداث يوليو فى القسطنطينية، سوى قوله إن ميكيلى رانجابه كان محبوساً فى أحد الأديرة دون

(1) *Annales Laurissennes*، لدى بيرتز، *Scriptores*، المجلد الأول، ص ١٩٨.

الإشارة إلى خليفته(1)، وإنه حتى منتصف نوفمبر يبدو أن جريجوريو كان لا يألو جهداً فى أن يحجب عن البابا تغير السيادة الذى توطد فعلاً فى العاصمة(2). ومن هذه الإشارة لا يمكننا أن نستخلص ما إذا كان الشريف كان يتحاشى الرد على شارلمان اتباعاً لشكليات دبلوماسية آنذاك، أو رغبة فى تحاشى أسئلة تسبب له حرجاً، أو لتأجيل الاعتراف بارتقاء ليون الأرمنى، على أمل أن يعاود رانجابه تولى العرش، أو على أمل أن ينجح فى القيام بشئ جديد هو ذاته بمساندة جيش صقلية له. ربما كان يأمل فى القيام بجديد. وما يتأكد ملاحظته هنا هو أهمية دور القائد العسكرى وحاكم صقلية فى هذه الفترة وقناع الدهاء الذى كان يحارب به بابا روما: البيزنطى ضد البابوى، خير أستاذين فى أعظم مدرسة!.

ولما مات بعد ذلك بقليل شارلمان (يناير ٨١٤)، وبعده بعامين ليون الثالث أيضاً، وعندما عاد ليونى الأرمنى يشعل مشكلة الأيقونات (٨١٥) كان متاحاً لصقلية أن تتقدم لاسترداد الأراضى التى فقدتها إمبراطورية القسطنطينية فى إيطاليا الجنوبية. وكانت علاقات الجزيرة مع تلك المنطقة من البر الإيطالى عاملاً مساعداً لهذه الخطة، حيث يبدو أنها كانت علاقات متواصلة وودية نظراً للمصالح المشتركة بين السكان. وهكذا نرى أهالى نابولى خلال حكم ليونى الأرمنى يبحثون فى صقلية عن تيوكتيستو لتنصيبه قائداً لجمهوريتهم(3). وزاول أيضاً الصقليون التجارة بشكل مكثف فى كلابريا على حدود الدولة اللونجباردية فى بنفنتو، وكانت الضرائب

(1) رسالة مؤرخة فى ١١ نوفمبر ٨١٣، لدى لاب، *Sacrosancta Concilia*، المجلد السابع، ص ١١١٤؛ ولدى تشينى *Codex Carolinus*، المجلد الثانى، رسالة ليون الرابعة.

(2) رسالة مؤرخة فى ٢٥ نوفمبر ٨١٣، لدى لاب، *Sacrosancta Concilia*، المجلد السابع ص ١١١٧، وعند تشينى *Codex Carolinus*، المجلد الثانى، رسالة ليونى العاشرة.

(3) چـوهان ديـاكونوس، *Chronicon*، لـدى موراتـورى، *Rerum Italicarum Scriptores*، المجلد الأول، الجزء الثانى، ص ٣١٢.

التي يدفعونها تقدر بمبلغ كبير من المال(1). وعلى ذلك فلو أن الإمبراطورية البيزنطية قامت بجهد جديد لوجدت ظروفاً جد مواتية. ولكن القائدين العسكريين اللذين حكما القسطنطينية على التوالى انصرفا إلى اهتمامات أخرى. وذاق ليون الأرمنى أمر العذاب فى الحرب مع البلغار (٨١٣ ـ ٨١٥)، وبعد ذلك مع الرهبان من المؤمنين بتقديس الأيقونات بالإمبراطورية. أما ميكيلى البالبو الذى قتل ليون الأرمنى وخلفه (٢٦ ديسمبر ٨٢٠) كان عليه أن يدافع عن نفسه من رفيق سلاح قديم آخر، وهو توماسو كابادوتشا: الذى عمل على أن يهتفوا به إمبراطوراً، وأتى يحاصر القسطنطينية، ولكن تم إسكاته بمجهود شاق وبعد حرب دامت ثلاث سنوات (٨٢٣). وكانت ثمرة كل هذه الصراعات نزول المسلمين فى كريت وهزيمة الجيوش البيزنطية التى توجهت لاستردادها (٨٢٣ ـ ٨٢٥). ومن ثم فعلاوة على ما حدث بالبر الإيطالى، لم يكن ميكيلى البالبو قادراً على قمع الحركات التى ظهرت فى صقلية لعدة سنوات والتى سنتناولها فى الكتاب اللاحق.

(1) *Anonymus Salernitanus*، لـدى موراتـورى، *Rerum Italicarum Scriptores*، المجلد الثانى، الجزء الثانى، ص ٢٠٩.

الفصل التاسع

أرجأت إلى هنا تناول الأحوال الداخلية لصقلية البيزنطية نظراً لأن بعضها ترتب على الأحداث التى تمت روايتها عن القارتين اللتين تقع بينهما الجزيرة. وعند استهلال البحث والتقصى نتناول قبل أى شئ السلالة بوصفها العنصر المؤثر فى مصائر الشعوب. كان السواد الأعظم من شعب صقلية وقت الهيمنة الرومانية عليها من الصقليين واليونانيين، حيث لم يبق هناك من آثار الشعوب الأخرى غير ذكراها، وربما كان هناك بعض من البونيين فى الأطراف الغربية من الجزيرة سرعان ما تلاشى وجودهم. وقد جلب الغزو الرومانى للجزيرة سكاناً جدداً إيطاليين فى جماعات وأفراد متفرقين يفدون إلى الجزيرة لقضاء بعض الشئون والمهام؛ وكانت هذه الجماعات قليلة وصغيرة؛ أما الأفراد فكثيراً ما كانوا يرحلون عن الجزيرة. ويبدو لى أن أعظم آثار السيادة الرومانية على سكان الجزيرة يتمثل فى جذب الصقليين إلى عادات إيطاليا ولغتها، وبعد أن أجبروا على نهج الحضارة اليونانية حتى كادوا يفقدون استخدام لهجتهم الخاصة، بل أنه يجوز لنا أن نقول إنهم هجروها تماماً، إذا ما تمسكنا بما ورد فى نص لدى ديودور تمسكاً حرفياً(1). أما حشود العبيد التى تجمعت من مقاطعات عدة وانتشرت فى ريف صقلية، فلو لم تفن دون أن تخلف نسلاً وراءها، فمن المؤكد أن دماءها العقيمة من جـراء البؤس وغيره لم تخلق سـلالة جديدة ذات شأن وثقل. كان اليهود المتمركزون فى المدن الرئيسة يعرفون بقلة عددهم وليس ممتلكاتهم وبالبغض المتبادل مع الأجناس الأخرى(2).

---

(1) ديودور الصقلى، الكتاب الخامس، الفصل السادس.
(2) كان منهم من يقيم فى بالرمو وكتانيا وچرچنتى ... إلخ، كما نستخلص من رسائل القديس جريجوريو، الكتاب الخامس ص ١٣٢ والكتاب السابع ص ٢٤ و٢٦.

أما الشعوب الشمالية فكان وجودها، كما ذكرنا، يشبه الزوابع العابرة. وما كان بوسع الإمبراطورية المتهالكة منذ حكم چوستنيان وحتى وصول المسلمين ارسال جماعات للإقامة بها؛ إلا أن الفارين من إيطاليا وإفريقيا وقد تحدثنا عنهم فى الأبواب السابقة قد لجأوا إلى صقلية. وفضلاً عن هذا من المحتمل أن الجزيرة أخذت تستقبل رويداً رويداً بعضاً ممن تبقوا من الضيوف الذين كانت ترسلهم الحكومة البيزنطية من موظفين عموميين وجنود من مقاطعات أوربا أو آسيا الصغرى(1)، ومنفيين لأسباب خاصة بالحكم(2). ومن بين هؤلاء كانت هناك أيضاً جماعة قوامها ألف رجل يمثلون بقية من العسكريين الأرمن الذين تمردوا فى القسطنطينية عام ٧٩٢، وتم طردهم إلى الجزر وخاصة إلى صقلية(3) التى يبدو أنهم استقروا فيها حيث نجد خلال معارك المسلمين(4) ذكر للاستيـلاء على إحدى قلاع الأرمن (سنـة ٨٦١). ونرى مما سـلف عرضـه أنه خـلال ألف عام لم يفد إلى صقلية كثير من الأجناس الأجنبية بحيث يمكنها من تغيير السلالات الموجودة سلفاً.

وتتفق المعلومات الإحصائية التى أعدها قسطنطين بورفيروچنتو *Porfirogenito* مع الروايات التاريخية فى هذا الشأن، حيث كتب قسطنطين فى كتـاباته عن فترة عهده (٩١١ ـ ٩٥٩) أو بالأحرى عن تلك السـابقة للفتح الإسـلامى، كتب أن أهـل الجزيرة كان جزء منهم من إقليم ليجوريا بإيطاليا، إلا أنه أطلق عليهم صقليون،

---

(1) يبدو أن بعض الشخصيات التى حفظت أسماؤها صدفة كانت تنتمى إلى عائلات رجال الجيش أو الموظفين هذه التى مرت واستقرت أحياناً فى صقلية؛ وعلى سبيل المثال كونون بابا المولود فى تراتشا والذى تعلم فى صقلية، وسرچو بابا الأنطاكى الأصل والمولود فى بالرمو.
(2) راجع نفس هذا الفصل ص ٢٧٧و٢٧٨.
(3) ثيوفانس، *Cronographia*، المجلد الأول، ص ٧٢٧.
(4) ابن الأثير، مخطوطة *A*، المجلد الثانى، الورقة ٣٣ وجه أول؛ مخطوطة C، المجلد الرابع، ورقة ٢٢١ وجه أول.

وجزء منهم يونانيون أو سيسليون *Sicelioti* (1). وبتسمية أكثر دقة يجدر أن يطلق على السلالتين، السلالة الإيطالية القديمة والسلالة الهيلينية، وكانت كل واحدة منهما تضم الأناس المتشابهة معها، الوافدة فى فترتى الهيمنة الرومانية والبيزنطية.

ولا نستخلص أيا من السلالتين كانت لها السيادة العددية، وربما احتفظتا بمساواة ما فى العدد أكثر مما قد يعتقد. وعندما نلجأ للاستقراء، حيث تنقص الدلائل المباشرة، نجد فى الحقيقة أنه منذ التقويم الميلادى وحتى القرن السادس، توافرت كثير من الكتابات اللاتينية العامة والخاصة حتى فى المدن اليونانية الرئيسة بالجزيرة، وفى أوقات لاحقة نجد ألقاباً لاتينية لرجال الإدارة والحكم بالمجالس البلدية، ولكننا نرى أن اللغة اليونانية لم تترك مكانها فى أى موضع(2) بالأعمال الأدبية والنقوش القديمة وأسماء الأعلام. وتحتوى إحدى برديات القرن الخامس المدون بها أسماء مستأجرى بعض المزارع على أسماء يونانية أكثر منها لاتينية(3): وفى أواخر القرن السادس يحدثنا القديس جريجوريو عن السكان اليونانيين واللاتين(4). وتوضح الحوليات الكنسية بالجزيرة من القرن السابع إلى التاسع الاختلاط نفسه بين الجنسين: حيث نجد أديرة باسيلية

(1) قسطنطين بورفيروجنتوس، *De Thematibus*، الكتاب الثانى، المجلد الثالث، ص ٥٨. ولمحة قسطنطين الإثنولوجية الخاصة بالصقليين قبل الغزو الإسلامى يجب دراستها دراسة أعمق. ولا أدرى لدى أى من الكتاب القدماء عثر على أن ليجورى كان الاسم العام الذى يطلق على الشعوب التى كان الصقليون جزءاً منها؛ وهو اسم فى رأى *Niebuhr* لايخرج عن كونه بديلاً لنطق كلمة إيطالى.

(2) انظر توريموتسا (ج. ل. كاستيللى) *Siciliæ... Veterum Inscriptionum*. وفضلاً عن هذا وجدير بالذكر مجئ بورفيريو الذى كتب وأعطى دروساً فى صقلية فى عام ٣٠٠ تقريباً.

(3) بردية ٤٤٤، عند مارينى، *I Papiri Diplomatici*، رقم ٧٣، ص ١٠٨ وما بعدها. والأسماء هى زوسيمو وكابريونى وسيزينيو والوتيريو واوبودو.

(4) *Divi Gregorii Papæ Epistolæ*، الكتاب السابع، رقم ٦٣، المرسوم الثانى.

كما نجد أديرة لاتينية، ونجد بعض الصقليين قد ارتقوا العرش البابوى بروما، وآخرين ارتقوا كرسى أنطاكية(1)؛ ويحظى ليون الثانى (٦٢٨ - ٦٨٣) أحد الباباوات الصقليين بالثناء لفصاحته باللاتينية(2) واليونانية؛ ثم نجد فى نهاية القرن السادس الرأى العام فى صقلية يتأرجح بين كنيستى روما والقسطنطينية(3). وأخيراً ونظراً لخضوع الجزيرة لبطريرك القسطنطينية فى منتصف القرن الثامن، اختفت اللاتينية وعادت اليونانية للظهور فى كتابات الرهبان الصقليين وفى النقوش الأثرية القليلة التى بقيت لنا من ذاك الزمان. ولا يجب أن تقودنا مثل هذه الأحداث إلى افتراض أن السلالة واللغة اليونانية فى صقلية قد انتعشتا فى الحال وانتشرتا بالجزيرة بفضل الهيمنة البيزنطية، بعد أن انحدرتا خلال الهيمنة الرومانية والبربرية. وجدير بنا أن نخلص إلى أن الشعبين تساويا مع تباين ضئيل فيما بينهما طوال الثمانية قرون الأولى من التقويم الميلادى، وأن كلتا اللغتين كانتا تستخدمان على وجه التقريب، كما كانتا تستخدمان فى أيام ديودور(4)، رغم أن الشعب كان قد أخذ فى التحدث بلغة أخرى مختلفة عن اللغتين وتدنو أكثر من الإيطالية؛ ورغم أن تأثير الحكومة والكنيسة جعل السيادة فى الكتابات أولاً للاتينية وبعد حكم جوستنيان(5) لليونانية.

(1) بيرّو، *Sicilia Sacra*، ص ٩٩٧؛ ودى چوڤانى، *Codex Siciliæ Diplomatius*، المبحث الثالث، ص ٤٢٣ وما بعدها.

(2) أناستازيوس بيبليوتكاريوس، لدى موراتورى، *Rerum Italicarum Scritpores*، المجلد الثانى، ص ١٤٥.

(3) *Divi Gregorii Papæ Epistolæ*، الكتاب السابع، رقم ٦٣، المرسوم الثانى؛ ولاحظ رأى بيرّو فى *Sicilia Sacra*، ص ٣٤ بخصوص زواج القساوسة.

(4) ديودورس الصقلى، الكتاب الأول، الفصل الثالث.

(5) عندما عالج اسيمانى هذه المسألة فى المجلد الرابع من *Italicœ Historiæ Scriptores*، الفصل الثانى § من١ إلى ٢٢ أكد أنه فى صقلية كانت اللغة اللاتينية دائما ما تغلب على اللغة اليونانية. إلا أن الأمثلة التى يستشهد بها تدعم رأيى. ومن بين هذه الأمثلة هناك كتابات موقعة باليونانية لأساقفة من صقلية وكلابريا شاركوا فى مجمع القسطنطينية عام ٨٦٩ - ٨٧٠.

ولم نلمس أبدا تبايناً فى الأوضاع القانونية بين السلالتين، حيث تضمنت كلتاهما النبلاء والعامة، حسب عراقة العائلات وحجم الثروات ورونق المناصب العامة. ولن أقول غير ذلك فى أوضاع النبلاء والعامة، لأن الجزيرة، وقد أصبحت تساس بقانون رومانى، فهناك عموميات معروفة للغاية، ولا يلزم أن نكرر كيف أنه منذ حكم قسطنطين فلاحقا حل محل أرستقراطية المولد أو الموروثة نظام مراتب خدم البلاط وموظفى الدولة، الذين كان يتم ترقيتهم وإعلاؤهم كما يحلو للمستبد، وكيف أنه تساوت تماما حقوق الأفراد لدرجة أنه لم يبق سوى تمييز واحد بسيط بين الرجال الأحرار. وأقصد بالحديث هنا رجال المجلس البلدى، فهم لم يتمتعوا بأى مزية سوى الحصانة من بعض العقوبات فى حالات الجرائم؛ وكانت الحكومة تحصى من بينهم ورغماً عنهم أبناء العسكريين عندما لا يكونون قادرين على حمل السلاح، وملاك مساحة خمس وعشرين يوجرى *Iugeri* أو أكثر من الأراضى، وكبار مستأجرى مزارع الامبراطورية(1). وهنا نلمس الدليل على أن هيئة المجلس البلدى لا يجب أن تدعى أرستقراطية، بل أن تدعى عن حق عامة شعب ميسورة أو بورجوازية.

وعندما نتجه من المدن إلى القرى، نلمس من جانب آخر تأرجح طبقات المجتمع القديم واستقرارها أخيرا فى وضع وسط بين الحرية والعبودية. ولنفهم جيدا المذكرات التى لدينا عن هذا التغيير فى صقلية، فمن الواجب دراسته فى عمومياته أولا. ومبعث ذلك سببان ذا طبيعتين مختلفتين: أى الوعى والمصلحة: وهما يتضافران فيما بينهما كما هو الحال فى أى خطوة جديدة من خطوات الحضارة. فالمبادىء الانسانية للفلسفة الوثنية والتى تنص عليها كتابات سينيكا وبيلينيو وبلوتارك والتى تم تطبيقها فى مراسيم وأوامر أدريانو

(1) *Codex Theodosianus*، الكتاب الثانى عشر، العنوانان ٣٢، ٣٥. ٢٥ يوجرى تساوى تقريبا ستة هكتارات فى فرنسا، وثلاث سلما ونصف فى صقلية (سلم : مقياس للمساحة يتراوح بين ١و٤ هكتار). ولما كان ما يخرج من الأرض قليل جدا فإنه يجب اعتبارهاملكية صغيرة.

والأنطونيين، قد بدأت تخفف من حدة مساوىء العبودية، وعندما حلت المسيحية محل الوثنية وأخذت تنتشر وتثبت أقدامها، شجعت هذا العمل المقدس ومضت فيه قدماً(1). ويوضح الواقع فى هذه الفترة أن زمرة العبيد العقيمة كانت تتناقص بشكل مستمر، وعلاوة على ذلك أظهرت أعمال السخرة عدم فاعليتها وكانت الأراضى الزراعية تتدهور تدهوراً سريعاً. وإذا كانت حالة السلام فى الإمبراطورية لم تعمل على تزويد العبيد بجماعات أخرى من المقهورين، فإن حالة التفسخ العام كانت تهيئ المجال ليحل محل هؤلاء جماعات غير قليلة من الفقراء سواء من صغار الملاك الذين جردتهم ضرائب الإمبراطورية من ممتلكاتهم أو من أهل الصنائع سواء كانوا أحراراً أم غير أحرار، كانوا يهربون من المدن بسبب الفقر. وقد دفع هؤلاء ثمن بحثهم عن المأوى ولقمة العيش فى اقطاعيات الأغنياء بالبقاء فى هذه الأراضى كفلاحين مستوطنين؛ ويبدو أن مالكى الأراضى لما لمسوا النفع الذى يجنونه من ورائهم تولدت لديهم الرغبة فى تحرير قدامى العبيد(2) ووضعهم فى هذه الظروف نفسها. ويبدو أن هذا التغيير فى الأوضاع قد أسرع من إيقاعه من القرن الثانى أو الثالث ولاحقا، حيث كان يتردد الكلام فى عصر قسطنطين الأكبر عن الفلاحين المستوطنين بصفتهم فئة معروفة جدا ونوعية من الناس لها انتشار،

(1) راجع المصادر التى استشهد بها جيبون والتى علق عليها جويزوت وميلمان، الفصل الثانى، الهوامش من ٤٦ إلى ٦١.

(2) *Codex Justinianeus*، الكتاب الحادى عشر، العنوان ٤٧، القانون رقم ١٨. هذا القانون مدون باليونانية بين قانونى أوتوريو وتيودوسيو، دون أن يكرر ذكر اسمى هذين الإمبراطورين؛ وهكذا يظل التاريخ غير مؤكد ومن الممكن الظن بأنه حديث. يقول إن بعض الفلاحين (γεωργοί) وآخرين (ἐναπόγραφοι), كانت أموالهم وممتلكاتهم تخضع للسادة؛ وبعضهم صاروا بعد ثلاثين عاماً مستوطنين وأحراراً (μισθωτοὶ ἐλεύθεροι) فى ممتلكاتهم، وكان عليهم أن يدفعوا ضريبة وأن يشتغلوا بالأرض. وينتهى القانون بهذا النص، إن هذا أكثر نفعا للسيد والفلاحين. وشهادة مباشرة على هذا النحو لا تحتاج إلى تعليق.

بينما كانت تستخدم القسوة لإلزام العبيد بالطاعة، ولكن فى قوانين العصور اللاحقة لذلك أخذ يتلاشى اسم العبيد شيئاً فشيئاً، ويتعاظم على العكس اسم الريفيين المستوطنين(1). ولن أتحدث بغير ذلك عن أوضاع العبيد، فهى معروفة جدا، ويعرف الجميع أنها تحسنت منذ عصر قسطنطين إلى جوستنيان. أما الفلاحون المستوطنون فظلوا أبدا مرتبطين بالأراضى وكذلك ظل أبناؤهم وأحفادهم، وكانوا يدفعون ضريبة سنوية نظير الأراضى المسلمة لهم؛ وكانوا يستطيعون شراء الممتلكات المنقولة والثابتة بعائد صنائعهم، ولكن لا يمكنهم نقل هذه الممتلكات إلى الغير دون إذن صاحب الأرض؛ وأنه فى حالة هروبهم من الأراضى كان القانون يخول للمالك تحويلهم إلى عبيد، ويخول له استعادة الرجال خلال مدة قصوى تبلغ ثلاثين عاما، ونسائهم حتى عشرين عاما؛ وهذا المدى الزمنى، الأكثر أمدا من ذلك المقرر للعبيد، كان لا يسقط حتى فى حالة الموت، ففى حالة وفاة الفلاح المستوطن كانت الأحكام تسرى على أبنائه(2). ولا يختلف هذا الوضع إذن عن وضع عبيد الأرض فى الأزمنة الإقطاعية، سوى فى أصل كل منهما: العبودية الرومانية كانت تقوم على العقد، إذا أمكن إطلاق تلك التسمية، على عقد مجحف ظالم مثل هذا؛ أما العبودية الإقطاعية فكانت أحياناً بعقد وأحياناً أخرى بزعم ظروف الحرب التى خلقت العبودية الشخصية فى العالم القديم وتجتهد فى تبرير عبودية الأمم فى العالم الحديث. وقاسى الفلاحون فى صقلية تقريباً من الأحداث نفسها التى لاحظناها فى أنحاء الإمبراطورية. وباستثناء قلة من المستأجرين كان يطلق

(1) دوكانجى، *Glossarium mediæ et infimæ latinitatis*، تحت مادة Colonus فى عهد تيودوزيو كان هناك تمييز بين الأصليين والمستأجرين منهم، أى المولودين فى المزارع والنازحين. وخلال حكم جوستنيان ربما أطلق على هذه الطبقة الأخيرة المدونون: وأحيانا كان يطلق عليهم دافعو الضرائب والمستأجرون، وأحيانا فلاحون ومستوطنون، *Codex Theodosianus*، الكتاب الخامس، العنوان العاشر؛ والكتاب العاشر، العنوان الثانى عشر؛ والكتاب الثالث عشر، العنوان الأول.

(2) *Codex Theodosianus*، الكتاب الخامس، العنوان التاسع والعاشر والحادى عشر؛ وفالينتيانى، *Novellæ*، القصة رقم ٩.

عليهم مرشدون(1)، ولا داعى لافتراض أنهم كانوا أحراراً فى كل الأحوال، قام الفلاحون المستوطنون(2) والعبيد(3) بزراعة الحقول، ويبدو أنه كان يتم الخلط بينهم فى الاستعمال العامى للغة، كما تم الخلط بينهم حقيقة فى المهانة والبؤس. ولم تبغض المسيحية، أو على الأقل مسيحيو ذاك الزمان وعدة قرون لاحقة، وضع عبيد الأرض الأقل بؤسا وقسوة؛ بل احتفظ الإكليروس وتمسك بهم فى ممتلكاته أكثر من تمسك العلمانيين بهم. إن أحد البابوات العظماء والقديسين، جريجوريو الأول والذى تمتع بكثير من التقريظ لإحسانه على عبيد الآخرين فى أرجاء البر الإيطالى، نجده وقد قيد بالأغلال مستوطنى الضياع البابوية فى صقلية. حقيقة إنه منع فرض الاتاوات التى كانت تحصل على زواجهم وكذا السرقات التى اعتادت عليها الإدارات البابوية التى كانت تغش أولئك البؤساء بالتلاعب فى سعر ومكاييل القمح، وكانت تجبرهم على تعويض المؤن الغذائية المرسلة إلى روما إذا فقدت بسبب العواصف فى البحر، وتطالبهم بالضريبة قبل بيع المحاصيل(4). وكان القديس جريجوريو يصلح من كل هذا: فى عدل

(1) هناك إشارة إلى مستأجرين فى صقلية فى البردية رقم ٤٤٤ المشار إليها، مارينى، *I papiri Diplomatici*، رقم ٧٣، وفى رسالة القديس جريجوريو، الكتاب الأول، رقم ٤٢، المرسوم التاسع، والتى توجد أيضاً عند دى جوفانى *Codex Siciliæ Diplomaticus*، رقم ٦٩، ص ١١٠.

(2) *Divi Gregorii Papæ Epistolæ*، الصفحة نفسها. وفضلاً عن المستأجرين المميزين عن المستوطنين، يدور الحديث عن فلاحين بطريقة تجعل من هذه اللفظة مرادفاً لمستوطن، حتى وإن لم تتضمن هؤلاء وأولئك معاً.

(3) وهناك إشارة إلى خدم الأرض الزراعية في سردينيا، وكما يعتقد جوتوفريدو وفى صقلية وكورسيكا فى أحد قوانين قسطنطين الأكبر، *Codex Theodosianus*، الكتاب الثانى، العنوان الخامس والعشرين، ربما فى عام ٣٢٥. راجع أيضاً دى جوفانى، *Codex Siciliæ Diplomaticus*، رقم ٤، ص ٥. ونقرأ فى إحدى برديات عام ٤٨٩ والخاصة ببعض المزارع فى أراضى سيراكوزا، *Inquilinos sive servos*، لدى مارينى، *I papiri Diplomatici*، رقم ٨٢ و ٨٣، ص ١٢٨ و١٢٩.

(4) *Divi Gregorii Papæ Epistolæ*، الكتاب الأول، رقم ٤٢، وعند دى جوفانى، *Codex Siciliæ Diplomaticus*، رقم ٦٩ ص ١١٠.

وحرص رب الدار المحنك. ولكن عندما كان يوعز إليه ضميره باتخاذ موقف نبيل، تدخل الجشع الذى كان يربض قريباً من العرش البابوى، مصحوباً بالوسواس الآخر على انتهاك المقدسات ألا وهو الطموح السياسى. وتذكر كبير الأساقفة أنه مالك فقط، واعتقد زيفاً أن حرية فلاحى أراضيه فى صقلية من شأنها أن تنتقص من الإيرادات ومن ثم يمكن أن تؤثر على مشروعاته فى روما؛ ولما تغلبت وسائل الراحة الحاضرة على المنطق الأخلاقى، لم يقتصر القديس جريجوريو على عدم إلغاء نظام عبيد الأرض فقط، بل حرّم على فلاحى أراضيه أن يزوجوا أبناءهم من أناس من إقطاعيات أخرى(1).

وأخيراً يلزم ألا أخفى أن القديس جريجوريو قد نقض أحياناً مبادئه النبيلة جداً فى موضوع العبودية فى صميم معناها المذكور. فقد قال فى موقف تحرير العبدين الرومانيين تومازو ومونتانو فى عام ٥٩٦: «إذا كان المخلص قد تجسد ليكسر أغلال الانسانية، فإنه لخير عظيم أن يعتق العبيد وأن ترد للناس حريتهم الأولى، وقد أخرجتهم الخليقة أحراراً وأخضعهم قانون البشر تحت نير العبودية»(2). وهكذا تمكن مرة أخرى، باستخفاف رفيع بالقوانين الموضوعة، أن يأمر بعتق رقاب عبيد اليهود(3). بينما لم يحرر كثيراً أو قليلاً من عبيد إقطاعيات صقلية، والأسوء من ذلك كان يهب منهم أحياناً للآخرين(4)؛ وأرسل يتعقب ويهدد بأقصى العقوبات من كانوا يهربون أو يختبئون فى إقطاعيات أخرى(5)؛ وهذا دليل على أنه لم يترك وراءه عبداً أو بعضاً

---

(1) *Divi Gregorii Papæ, Epistolæ*، الكتـــاب العاشـــــر، رقـــم ٢٨. و«*Sed in ea massa, cui lege et conditione ligati sunt, socientur*»

(2) *Divi Gregorii Papæ, Epistolæ*، الكتاب الخامس، رقم ١٢.

(3) المصدر نفسه، الكتاب الثالث، رقم ٩؛ الكتاب الخامس، رقم ٣١ و٣٢.

(4) أهدى فتى صقلى يدعى أكوزيمو فى عام ٥٩٣ إلى المستشار تيودورو، الذى كان قد حاز تقدير الكنيسة ولم يكن لديه عبيد. *Divi Gregorii Papæ, Epistolæ*، الكتاب الثانى رقم ١٨، المرسوم الحادى عشر.

(5) *Divi Gregorii Papæ, Epistolæ*، الكتاب السابع، رقم ١٨، المرسوم الثانى.

من العبيد فقط، بل قطعان بأكملهما، وقام تسع عشرة من خلفائه فى المقر البابوى بالإبقاء عليهم تحت وطأة هذا النير البغيض، حيث إن العبيد كانوا يمثلون قسماً كبيراً من ممتلكات المقر البابوى بعد موت القديس جريجوريو بثمانين عاماً أو يزيد. ونعلم أن چوستنيان الثانى، عندما أراد أن يقدم جميلاً للبابا كونون *Conone*، قام فى عام ٦٨٦ برد «عشيرة» ممتلكات صقلية وكلابريا إليه، والتي كان قد تم الحجز عليها رهنا لمديونيته للضرائب(1)؛ وليس هناك معني آخر للعشيرة إلا أنهم عبيد، حيث كانت تتم مصادرتهم كالقطعان، لأن قانون الضرائب كان يسمح بأخذ العبيد(2) من المدينين، بينما لم يكن يطالب مستوطنى أراضيهم بشئ (3).

إن التطور الإجتماعى البطئ الذى قلل فجوة عدم المساواة بين أوضاع الأفراد خلال عشرة قرون قد حمل أيضاً تغييراً طفيفاً فى نسبة امتلاك الأراضى. وعملت فى هذا الصدد حركتان متعارضان. كانت أحدهما تهدف إلى تكديس الممتلكات: ونشأت من حالة التفسخ الشامل، ومن مهانة السكان وانهيار صغار الملاّك بعد أن أنَّ كاهلهم من وطأة الضرائب الباهظة، ونشأت أيضاً من تصرفات الأثرياء المجحفة، حيث كانوا يستحوذون على كل ما تبقى بعد الاسراع باستنزاف الممتلكات الصغيرة بالربا؛ ومن الأوقاف الممنوحة للكنيسة، التى تتضاعفت فى صقلية فى عهد القديس جريجوريو، وأخيراً بفعل الاستبداد الجشع الذى ملأ بالمصادرات موارد خزينة الإمبراطورية إلى ما يفوق كل حد. وفى مقابل ذلك كانت هناك عوامل أدت إلى تفتيت الملكيات وهى قانون المواريث الرومانى، والممارسة المفيدة القائمة على تمليك

---

(1) اناســتازيوس بيبليوتكاريوس، لدى موراتورى، *Rerum Italic. Script.*، المجلد الثـــالث، ص ١٤٧: *"Itemque et aliam jussionem direxit ut restituatur familia suprascripti Patrimonii et Siciliæ, quæ in pignore a militia detinebatur.*

(2) *Codex Theodosianus*، الكتاب الحادى عشر، العنوان التاسع.

(3) *Codex Justinianeus*، الكتاب الحادى عشر، العنوان السابع والأربعون.

الفلاحين الأراضى التى يزرعونها، وتحويل الإتاوة الشخصية إلى رسم على الممتلكات(1). وكانت الإدارة الإمبراطورية قد حاولت انتهاج هذا المنهج فى ظروف مغايرة إلى حد ما منذ القرن الرابع، عندما تم إعطاء جزء من أراضى صقلية وسردينيا للكراء بمساحات صغيرة بما عليها من عبيد(2)، ثم بعد ذلك بقليل تمت الموافقة على إعفاء الممتلكات الانتفاعية من الضرائب الاستثنائية مثلما كانت تتمتع به سائر الممتلكات(3). ومن غير اليسير إقامة الدليل على سيادة أى من الحركتين على الآخرى. ومع ذلك ففى الذكريات القليلة المتوفرة لدينا والتى ترجع إلى زمن القديس جريجوريو، نستطيع أن نقرأ عن ممتلكات صغار الملاك الممنوحة لكنائس صقلية وأديرتها، ومن العبث الظن بأنه لم يحدث هذا مع الكثير من غيرها فى الجزيرة(4).

ويمكننا بصعوبة كبيرة جمع أخبار شحيحة وغير وافية عن صناعات البلاد وحرفها. والأمر الوحيد الذى يبدو لى مؤكدا هو أن الأراضى غير المخصصة للرعى كانت تزرع بمساحات صغيرة، وأن الزراعات الشاسعة قد انتهت مع الهيمنة الرومانية التى كانت قد جلبتهـــا إليها(5). وكان القمح(6) دائماً هو المحصول الرئيس للأراضى. ويبدو أن

(1) أنظر القانون فى *Codex Justinianeus*، الكتاب الحادى عشر، العنوان السابع والأربعون، رقم ١٨ والمشار إليه سابقاً ص ٢٧١.
(2) *Codex Theodosianus*. الكتاب الثانى، العنوان الخامس والعشرون، قانون قسطنطين الكبير، وعام صدوره غير مؤكد، ربما كان عام ٣٢٥.
(3) *Codex Theodosianus*، الكتاب الحادى عشر، العنوان السادس عشر، قانون كوستانسو وجوليـــانو شيزارى، لعام ٣٥٩. هذا القانون والســـابق نقرأهما أيضا لدي دى چوڤانى، *Codex Siciliæ Diplomaticus*، رقم ٤ و١٠، ص ٥ و٩.
(4) *Divi Gregorii Papæ, Epistolæ*، فى مواضع متفرقة.
(5) البردية ٤٤٤ استشهدت بها أكثر من مرة (ماريني، *I papiri Diplomatici*، رقم ٧٣)، وهي توضح أن المزارع السبع بكل ما عليها فى صقلية والتى يملكها لاوريتشو، والمؤجرة كل على حدها، كانت تدر كل عام دخلاً يقدر بسبعمائة وخمسة وثلاثين، وخمسمائة، وأربعمائة وخمس وأربعين، ومثتين، ومائة وأربع وأربعين وخمس وسبعين واثنين وخمسين من الصولدات.
(6) *Divi Gregorii Papæ, Epistolæ*، فى مواضع متفرقة.

الكروم كانت تأتى فى المقام الثانى(1). أما زراعة أشجار الزيتون التى جلبت الثراء لأهل أجريچنتو أيام اليونانيين فيبدو أنها أهملت، وعلى أرض الواقع عاد إلى سكان أفريقيا الامتياز فى توريد زيت الزيتون إلى إيطاليا وأمم أخرى غربية، حيث تبين أنه عندما دفع الأفارقة أولى الإتاوات للمسلمين المنتصرين ورأى قائدهم عبد الله بن سعد أنهم يحملون إليه كومة من النقود الذهبية، سأل أحد المواطنين كيف يكسبونها، فنظر هذا الأخير حوله ووجد زيتونه فقال لعبد الله : «هاك من أين نكتسبها، ليس لدى الرومان أشجار زيتون ويبتاعون زيتنا بهذا الذهب»(2). ومسمى الرومان المقصود به هنا سكان إيطاليا، ويمتد فى هذه الحالة ليشمل صقلية أيضاً؛ فمن المعلوم أنه كان يورد إليها الزيت من أفريقيا فى القرن التاسع والحادى عشر وحتى الثانى عشر(3). ومن المؤكد أيضاً أن صقلية منذ بداية القرن التاسع كانت لها علاقات تجارية مع دولة الأغالبة وأن كثرة من التجار المسلمين كانوا يقيمون فى الجزيرة(4).

وإذا كانت هذه التفاصيل تثبت أن الصناعة لم تتوقف كلية فى صقلية، فمن المؤكد أن هذا لا يرجع إلى الإدارة أو الحكومة البيزنطية.

(1) *Divi Gregorii Papæ, Epistolæ*، الكتاب الثامن، رقم ٦٣، المرسوم الثالث (لعام ٦٠٠ ـ ٦٠١). ومزرعة أديوداتا التى أوصى بها لبناء دير للنساء فى ليليبيو كانت تدر عشرة صولدات خالية من الضرائب فى العام؛ وكان بها ثلاث أولاد وثلاث محاريث للثيران وخمسة من العبيد وعشرة مهرات ومثلها من الأبقار وأربع *iastulas vinearum* وأربعون من النعاج وخلافه. انظر أيضاً الكتاب الحادى عشر، الرسالة ٤٩، المرسوم السادس (٦٠٣، ٦٠٤)، حيث يتناول الكلام بيع النبيذ المنتج فى كروم كنيسة بالرمو.
(2) بلاذورى فى *Journal Asiatique*، سلسلة رقم ٤، المجلد الرابع، ص ٣٦٥.
(3) فى عام ٨٨٠ كما سنحكى فى الكتاب الثانى، الفصل العاشر، أخذت القوات البحرية البيزنطية التى أتت إلى بالرمو مراكب كثيرة محملة بالزيت غير المصدر بكل تأكيد. وفى القرن الحادى عشر يشهد لنا بكرى على تصدير الزيت من صفاقس إلى صقلية وبلاد الروم، *Notices et Extraits des MSS.*، المجلد الثانى عشر، ص ٤٦٥. وفى القرن الثانى عشر كان يتم إرسال القمح من صقلية إلى أفريقيا ليأخذوا منها الزيت ومواد غذائية اخرى. وثيقة سنة ١١٣٤، عند بيرو، *Sicilia Sacra*، ص ٩٧٥.
(4) انظر الكتاب الثانى، الفصل الثانى

وكان ذلك الجشع الضريبى الذى أفقر الإمبراطورية قبل أن يقوم بذلك البربر قد امتد إلى الجزر الإيطالية الثلاث، والتى وضعت تحت مسئولية مدير واحد سمى محتسب الولايات الثلاث. وصارت هذه المقاطعات خاضعة لنظام الإدارة العام: فهناك الضريبة المباشرة على الممتلكات والأشخاص؛ والمكوس على البضائع والصناعات، والضرائب الاستثائية المضافة علي الضريبة الاولي أو كما كانوا يسمونها الضريبة الاضافية؛ والتجنيد الإجبارى ومكافأة المجندين بالمال، وتجنيد رجال البحرية، وأخيراً ابتزاز الجباة الذي كان يزيد من وطأة الضرائب ويضاعف ثقلها: ولدينا من كل مساوئها بعض الآثار فى ذكريات صقلية(1). وقد أجرى القوط خلال فترة حكمهم الوجيزة إحصاءاً جديداً للملكيات، وقاموا بالغاء الديون والضرائب غير العادية(2). وعادت كل المساوئ مع الحكم البيزنطي حتى إنه فى نهاية القرن السادس أجبر المدنيون فى كورسيكا على بيع أبنائهم لدفع الضرائب؛ وفى سردينيا فرض الحاكم رسوماً على العماد، وفى صقلية كان أحد صغار الجباة يصادر الممتلكات فى تعسف: ويلزمنا مجلد، كما كتب القديس جريجوريو، لنفرد ما عرف عنه من جور(3). وزاد من هذا الجور بين الفينة والأخرى عدد غير قليل من الأباطرة، كما سبق وتحدثنا عن كوستانسو وليون إيزاوريكو، الذى رفع الضرائب المباشرة فى صقلية وكلابريا بمقدار الثلث (٧٣٣) عقاباً لأولئك السكان المؤيدين لطقس الصور، وعقاباً على شماتتهم عندما رأوا فشل جهوده ضد وسط إيطاليا(4).

وعندما ننتقل فى الحديث من الشعب إلى الحكومة، وننحى جانباً النظم الدنيا الأخرى ذات الثقل القليل(5)،

(1) دى چوڤانى، *Codex Siciliæ Diplomaticus*، رقم ٣ و٤ و٩ و١٠ و٢١ و٢٢.

(2) دى چوڤانى، *Codex Siciliæ Diplomaticus*، رقم ٤١ و٤٢ و٤٣ و٤٤.

(3) *Divi Gregorii Papæ, Epistolæ*، الكتاب الرابع، رقم ٧٧، المرسوم ١٣، (لعام ٥٩٥)؛ وعند دى چوڤانى، *Codex Siciliae Diplomaticus*، رقم ١١٦.

(4) ثيوفانس، *Chronographia*، المجلد الأول، ص ٦٣١.

(5) أنظر دى چوڤانى، *Codex Siciliæ Diplomaticus*، المبحث السابع، الفصل الرابع وما يليه.

والتى لا تختلف عن مثيلاتها فى المقاطعات الأخرى، فإننا سنتناول فقط هيئات البلدية وهى عنصر حكم البلد، وقد ظل أداة مسالمة ومريحة للإدارة، وبقي واستمر إلي ما بعد الحكم الذي كان يحتقره احتقاراً فعلياً. إن نظام البلديات فى صقلية، وهى عبارة عن بقية من الجمهوريات اليونانية، كانت بعد الاستيلاء الرومانى عليها بقليل، فى أوضاع متباينة طبقاً لأهمية المدن وعلاقتها مع روما خلال ما سبق من حروب. ومن هنا نرى ثلاث نوعيات منها: إتحادية ومحصنة وخاضعة للضريبة، ثم يضاف إليها رابعة وهى المستوطنات الرومانية: ويكمن الاختلاف الأساسى بينها فى ثقل الضرائب التى توردها إلى روما واسمها. وعلاوة على ذلك كانت تعيش بشكل أكبر أو بشكل أقل بحسب قوانينها وتحت مسئولية رجال القضاء فيها، الذين احتفظوا بالمسميات القديمة، حيث نجد أسماء يونانية مثل *Decemprimi, Quinqueprimi* ولاتينية مثل *Gerapoli, Proagari, Anfipoli*، وأيضاً اسم مجلس الشيوخ *Senato* لما لهذا الاستخدام اللغوي من أثر قديم أو جديد. لقد استخدمت لفظ قضاتهم لأن المواطنين كانوا ينتخبونهم، ومن المفهوم أنهم المواطنون الذين ينتمون إلى عائلات تتميز بالثراء وتاريخ إقامتها البعيد؛ وغالباً ما أفسح حق التصويت المجال للمنازعات وبالتالى تدخل الحكومة الرومانية وإجرائها رويداً رويداً التعديلات على اللوائح القديمة لتتم مواءمتها والتنسيق بينها(1). ثم إنه يبدو أن تدهور المدن ومركزية السلطة السياسية قد أدي إلي المساواة مساواة كاملة بين الهيئات البلدية فى صقلية، وأنها عملت بالتأكيد على الانتقاص من سلطاتها وبترها. وبعد قسطنطين كانت هذه السلطات قد انحسرت فى القضاء المدنى الذى ربما لا يختلف عن ذلك الذى يقوم به وسطاء أو قضاة الصلح فى أيامنا

(1) انظر الأحداث فى كتاب كاروزو، *Memorie storiche di Sicilia* الجزء الأول، الكتاب الخامس؛ وبالميرى، *Somma della storia di Sicilia*، المجلد الأول، الفصل الرابع عشر؛ ودى جريجوريو، *Discorsi intorno la Sicilia*، الحديث الثانى عشر.

الحالية(1)، وفي الاهتمام بالمبانى وفي توزيع عبء الضرائب المباشرة على المواطنين، تلك الضرائب التى كانت تتطلبها الخزانة العامة، أو حسب التعبير الفنى المستخدم آنذاك *Indicea* أى تأمر بها وتعلن بمبالغها المجالس البلدية، وهذه تقسمها بدورها إلى حصص على الأشخاص طبقاً لإحصائيات التسجيل العقاري وللتقدير الجزافي الذى كان لا مناص منه، حيث إن الضريبة المباشرة لم تكن عقارية فحسب بل كانت أيضاً تتعلق بالأفراد. ونظراً لخطورة هذه المهمة فلم يعهد بها لقضاة البلديات ذاتهم ولكن لمقر البلدية، كما أطلقوا عليه، وهو دون شك هيئة منتخبي مناصب البلديات(2)، وكان هؤلاء التعساء من ذوى الامتيازات، حيث كانوا على استعداد لاستغلال حقوقهم على حساب مصلحة الطبقات الفقيرة، ولكن حُكم عليهم بدفع ثمن ذلك غالياً. حيث كان لزاماً عليهم أن يسددوا من ممتلكاتهم الحصص التى لم يتم سدادها وأن يتحملوا هذا العبء الثقيل فى ظل حكومة متعطشة للجباية وتدهور عام أدى إلى هجر الأراضي والنزوح منها. ومن هنا، كما يعلم الجميع، كان قواد العشرة يتحاشون ذلك الشرف التعس، ويلتحقون بالجندية، أو يصيرون قساوسة ورهباناً، وكانت الحكومة تتناسى حميتها الدينية المتأججة وغير المتسامحة وتعمل على انتزاعهم من الأديرة والمحاريب وتقودهم قسراً إلى كراسيهم ومناصبهم الإدارية(3). وهكذا حافظت

---

(1) جوستنياني، *Novellæ*، الخبر ٧٥، وكذلك الخبر ١٠٤، *De praet Siciliæ*؛ وسافينى، *Histoire du droit romain*، المجلد الأول، ص ٢٢٦، ٢٣٢، الفصل الخامس، § ١٠٥و١٠٧.

(2) ترتب على هذا القانون دون شك عادة أن تقوم الهيئة بالتصويت بمعزل عن رجال الدين وعن العامة عند انتخاب الأساقفة. وتدلل على هذه الطريقة فى التصويت فى صقلية رسالتان للقديس جريجوريو الأولى منهما موجهة إلى *Nobilibus Syracusanis* والأخرى إلى *Clero ordini et plebi panormitanæ civitatis* الكتاب الرابع، رقم٩١، والكتاب الحادي عشر رقم٢٢.

(3) *Codex Theodosianus*، الكتاب الثاني عشر، *Divi Gregorii papæ Epistolæ*، الكتاب السابع، رقم١١، المرسوم الأول، وأيضاً عند دى جوفانى، *Codex Siciliæ Diplomaticus* رقم١٤٢، ص ١٨٨؛ وجيبون، *Decline and fall*، الفصل السابع عشر، مع ملحوظات لجويزوت وميلمان على الهامش رقم١٧٢و١٨٠.

الحاجة إلى الضرائب على النظام الأساسى فى الإدارات البلدية. ودعَّم ذلك إجراء آخر استجد خلال ملك فالنتينو المشئوم نتيجة لاستغلال البيروقراطية. وأقصد به تأسيس هيئة مدافعين ينتخبهم عامة الشعب: مثل أمراء الشعب، أو فى تعبير أدق محاميي الشعب، وكان من حقهم أن يصفى القضاة والحكام والأمير لهم؛ وقد دخلت هذه المسئولية فى النظام الكنسى، وفى النهاية فعندما تولاها الأساقفة زادت سلطتهم المدنية فى الغرب. وهناك وثائق كثيرة تثبت أن نظام البلديات على هذا النحو كان متبعا بالكامل فى صقلية، كما تبين لنا ألقاب الملاك وهيئة المحامين فى مدن عديدة، وألقاب الآباء والأوائل والعشر الأوائل والمدافعين، أى الناخبين وقضاة البلديات القدامى والدور الجديد: وقد وجهت لهم جميعاً مراسيم الأمراء للمهام القضائية فى البلديات. وفضلاً عن ذلك فإن مرسوما إمبراطورياً صدر فى نهاية القرن الرابع نص على أن تحتفظ مدن صقلية، مثلها مثل مدن الولايات الأخرى، بممتلكاتها الخاصة بها. ولما لم يصدر بعد ذلك قانون يجدد تلك النظم، وإذ نراها تستمر أو تتعثر أحياناً فى كافة الأنحاء فليس هناك مايدع مجالاً للشك فى أن المؤسسات البلدية استمرت فى الجزيرة حتى استيلاء المسلمين عليها(1).

وعندما نترك الهيئات الوسطى لنتحدث عن الإمارة، فإنه بإمكاننا أن نقتصر على إعطاء لمحة عن النظام العام فى الإمبراطورية. وكما

---

(1) راجع الوثائق التالية:
لعام ٤٨٩ عند مارينى، *I papiri Diplom.*، رقم٣٢و٣٣.
وقرابة عام٥٠٤ عند دى چوڤانى، *Codex Sic. Diplom*، رقم٣٨، ص ٧٩.
ولعامى ٥٢٦-٥٢٧، المصدر السابق، من رقم ٤١ إلى ٤٣، ص٨٢-٨٤.
وقرابة عام٥٣٧، المصدر السابق رقم٥١، ص٩١.
انظر أيضاً جوستنياني، *Novellæ*، رقم ٦٨؛ ودى چوڤانى، المصدر المذكور، المبحث السادس، الفصل الثالث، ص ٤٥٨ ومابعدها؛ وساڤينى، *Histoire du droit romain* الفصل الخامس، § ١٠٦-١٠٨، ص ٢٢٧ ومابعدها، ومن الوثائق التي يستشهد بها رسائل القديس جريجوريو، التى أشرت إليها (ص ٢٨٠، الهامش ٣)؛ ورسالة أخرى (أعتقد أن النص المستشهد به خاطئ) كُتِبَت إلى أسقف تيندارو وتدور حول قبول بعض الهبات

يعلم الجميع كان هذا النظام متمسكاً برذائل حكم القياصرة العتيق وليس بقوته، وتجرد من أى أثر للحرية وتحلى بالفخامة الجوفاء؛ وركن إلى الأمان الناجم عن الفصل بين النظام العسكري والمدنى، وعن تشعب هذا الأخير واتساع نطاقه، وبعد ذلك عن الاتفاق الذى بدأه قسطنطين وأتمه خلفاؤه، وهو الاتفاق مع فئة رجال الدين المسيحى التى أقرضت الإمبراطورية بموجبه القيادة الرعوية ونالت فى المقابل المساعدة المالية والعسكرية. وحينما لم تستطع آلة الفساد هذه التى اتُّخذت بعد ذلك نموذجا لكل طغاة أوربا من عصر تيودوريكو وحتى اليوم، حينما لم تستطع مقاومة حالة الفوران التى كانت تعيشها شعوب الشمال الحرة، ثم العرب بعد ذلك، وحينما انكمشت الإمبراطورية وصارت عرضة من كل جانب للهجمات، كان لزاماً القيام بما يمكن عمله من إصلاح فى تقسيم الأراضى وتعزيز سلطات الحكام. ولذا توقف العمل بالتقسيمات الإدارية المعروفة بإدارة المقاطعات والأبروشيات والولايات؛ والتى كانت تتناسب مع العالم الروماني، وتجزأت الإمارة البيزنطية فى القرن الثامن إلى تسع وعشرين مقاطعة، كما أطلقوا عليها بلفظة جديدة، واختلط هذا التقسيم العسكري مع التقسيم المدنى حينما عهد الاثنان بالسلطة إلى قبضة يد واحدة. وصارت صقلية التى كانت تعد فى أيام قسطنطين واحدة من السبع

وفيها يذكر أن أعمال البلديات كانت فى حاجة لذلك.

وفيما يتعلق بثروات المدن انظر القانون٣٢ في *Codex Theodosianus*، الكتاب الخامس عشر، العنوان الأول حيث مرسوم أركاديو وأونوريو (لعام٣٩٥) والمرسل إلى اوسبيو قنصل صقلية، وفيه يقول عندما دبر للحفاظ على المدن و*oppida* الجزيرة: *De redditibus fundorum juris reipublicae tertiam partem publicorum moenium et thermarum deputamus.* (وصححها جوتوفريدو إلى *subustioni (substructioni* والأراضي الخاضعة للجمهورية طبقاً للغة القانونية السائدة فى ذلك القرن، لا تعنى أراضى ثروات الإمبراطورية، ولكن بالتحديد أراضى البلدية، كما فسرها دى جريجوريو فى خطابه رقم ١٢ سابق الذكر.

عشرة ولاية فى إحدى الأبروشيات الثلاث الخاضعة لأحد ولاة الحاكم الجزئى، صارت الآن تحمل اسم مقاطعة ضمت أيضاً كلابريا ومدينة نابولى والساحل(1). إن حاكم الجزيرة، الذى لقب بعد قسطنطين بالـ *Correttore*، بالمصحح وأحياناً بالقنصل، وخلال حكم القوط حمل لقب كونت سيراكوزا، قد استعاد بعد ذلك خلال حكم جوستينيان المسمى القديم، أى الحاكم، وأخيراً حمل لقب استراتيجى، وهو لقب عسكرى جديد، كما أطلقوا عليه الشريف

---

(1) قسطنطين بورفيروچنتوس، *De Thematibus*، الكتاب الثانى، الموضوع العاشر والحادى عشر، *De administrando imperio* ، المجلد الثالث، الفصل السابع والعشرون، ص٥٨و١١٨و١٢١. لا يلزم التنبيه إلى أن التقسيم الجديد إلى مقاطعات رغم أنه يمكن استخلاصه من كتابات قسطنطين بورفيرچنتو، يرجع مما لاشك فيه إلى القرن الثامن. فى عصر ذلك الإمبراطور المسكين (٩١١-٩٥٩) عندما قام السراشين كما يسميهم هو، باحتلال كل الجزيرة لم يبق من مقاطعة صقلية إلا كلابريا. وهو يعترف بهذا فى *De Thematibus* حيث لا يذكر فى حذر نابولى وأمالفى اللتين كانتا جمهوريتين مستقلتين. أما فى الكتاب الآخر *De administrando imperio* فهو يخلط بين مقاطعتى صقلية ولونجوبارديا ذاكراً فقط اسم الأخيرة. وقال إنه بعد قسطنطين الأكبر أرسل إليها حاكمان أحدهما لصقلية وكلابريا ونابولى وأمالفى، بينما جلس الآخر فى بنفنتو وحكم بافيا وكابوا وماتبقى من أراضى المنطقة. ويضيف فيما بعد أن نابولى كانت العاصمة القديمة للحكام؛ ومن حكم نابولي كان يحكم صقلية أيضاً؛ وعندما يتوجه الحاكم إلى نابولى كان دوق نابولي يذهب إلى صقلية. وهذا الكلام لا يدل إلا على جهل المؤلف الجليل أو من قام بالعمل له. وفضلاً عن الإختلاف في الأخبار التي يحتويها كتاب *De Thematibus*، فمن الواضح هنا أنه يتخذ من حدث بعينه قاعدة عامة وأنه يقوم بخلط غريب بين ثلاثة نظم مختلفة، أي نظام قسطنطين، ونظام المقاطعات وذلك النظام الوسط الذي انتهجه جوستنيان بعد غزو بليزاريو. وعلى العكس فاسم المقاطعة والأهمية الاستراتيجية لصقلية في حقبة التقسيم الجديد للأراضي، وبعض النماذج من الأوامر التي أعطاها حاكم صقلية لدوق نابولي تبين أن الجزء الرئيس في المقاطعة كان يتمثل في الجزيرة، وربما كانت عاصمتها سيراكوزا. هكذا يعتقد أيضاً أسيماني في *Italicœ Historiœ Scriptores*، المجلد الأول، ص ٣٥٦. وفي النهاية تبرهن على ذلك رسالة كتبها أدريانو الأول إلى شارلمان، ويقول فيها أن أهل نابولي قبل أن يبرموا اتفاقاً مع البابا أرادوا الذهاب لاستئذان قائدهم الاستراتيجى في صقلية، *Codex Carolinus*، طبعة جرستر، رقم ٦٤، وطبعة تشيني رقم ٦٥.

Patrizio عندما كان الشخص المختار جديراً بهذه المكانة(1).

وتعد نوعية القوى العسكرية التي اجتمعت بالجزيرة أحد المؤشرات الإحصائية التى تغلب على كل شئ آخر وتفسر لنا في حد ذاتها تاريخ صقلية البيزنطية الضحل. وفى جوالانحطاط الذي استشرى فى تلك الفترة صارت الجيوش أكثر من أى فترة مضت فرقاً من المرتزقة. ولم تكن الإمبراطورية - وهى تضم ضماً مصطنعاً بشراً متنوعين جمعتهم

---

(1) هناك أختام عديدة من الرصاص تحمل أسماء وألقاب بعض الحكام والموظفين العموميين فى صقلية خلال الحكم البيزنطى عليها؛ ومن خلالها نرى كيف يتنوع لقب الحاكم أحياناً أو كيف كانت تعطى هذه السلطة مؤقتاً لضباط من درجات أدنى.

O
τω Δου
K—O—H
λω σω
B

وعلى إحدى أوجه الخاتم نجد دائماً الطره:

Κύριε βοήθει τῷ δούλῳ σῷ

والتى تعنى « يارب ساعد عبدك »

وعلى الوجه الآخر نقرأ الأسماء التالية:

جريجوريو	حاكم صقلية وقائدها الاستراتيچى
سيرچو	حاكم صقلية وقائدها الاستراتيچى
چوفانى	حاكم صقلية وقائدها الاستراتيچى، حامل السيف ونائب قنصل
أندريا	قنصل وقائد استراتيچى
ستيفانو	قنصل وقائد استراتيچى وحامل السيف
أثاناسيو	قنصل وقائد استراتيچى وحامل السيف
چوفانى	حاكم ونائب
تيودورو	قنصل
جريجوريو	قنصل
تيودورو	حامل السيف الإمبراطوري
ليونزيو	حاكم
تيوفيلو	حاكم إمبراطوري
ليونى	حامل السيف ومسئول البريد
أناتوليو	كونت
سيرجو	قنصل وقائمقام.

انظر تورموتسا (جابريل ل. كاستيللي) *Siciliæ Veterum Inscriptionum*، ص ٢١٢ ومابعدها. يستخدم الرواة دائما الألقاب العادية لقائد وحاكم. ونقرأ في رسالة للبابا أدريانو الأول إلى شارلمان في عام ٧٨٨ *Codex Carolinus*، رقم ٩٢ طبعة جرستر؛ (وطبعة تشيني رقم٩٠) نقـــرأ: *"Cum dioecete, quod latine Dispositor. Siciliæ dicitur."*

العادة والدين والقوة، - قادرة على أن تزرع فى الجند حب وطن اندثر قبل ذلك بقرون عديدة. ويضاف إلى ذلك أن شعب اليونان، الذي كان قلب الإمبراطورية، وسلالة أولئك الأقوياء الذين اكتسحوا العالم تحت حكم الإسـكندر، وصـار في نعومة النسـاء لاهتمـامه بالأنشطة والخزعبلات، كان يهرب من حمل السلاح الذى أمسك بزمامه البرابرة وسكان الحدود وكان يدفع الفدية المالية للإعفاء من الخدمة العسكرية. وكانت حالة الفوضى في الإمبراطورية تساعد على إرخاء الروابط التي من شأنها توثيق صلة الجند بالبلاد، حيث نجد أن الدخل العام وقد تناقص مع تقلص ومع زيادة الشعوب، ومع تبديد الوزراء وانفاقه واستهلاكه في إرضاء كبرياء الأمير والصرف على نزواته، ولما كانت لا تكفى لمد الجيش بحاجاته والحفاظ عليه، فقد دعت الضرورة لإيجاد حل مريح وخطير في نتائجه. فمنذ القرن الرابع قد رأينا الأراضي المعتاد توزيعها على المحاربين القدامى يتم إعطاؤها إلى الأبناء(1) مع تكليفهم بالجندية. وبعد ذلك عندما اطرد النقص في الخزانة العامة وازداد التراخي في حياة الشعوب وقلت قيمة الممتلكات العقارية، كثر اللجوء إلى تلك الهبات العسكرية وتبدلت نوعيتها. فبدلاً من تمليك الأراضي لقدامى العسكريين اتفق على إعطاء الجنود القائمين بالخدمة حق استغلالها، بينما عهد بإدارتها إلى قادتهم. وانتزعت الأراضي بلا شك من ممتلكات الإمبراطورية التي تضخمت من جراء مصـادرة الأملاك؛ حيث كان يعهد إلى الجنود التمتع بالأملاك المنقولة والثابتة المصادرة من المدينين للضرائب دون انتظار لضمها رسمياً أحياناً. وهكذا حدث أن قام البابا بدفع الضرائب عن ممتلكاته فى كلابريا وصقلية دون رضاه ونزع منه كذلك عبيد هذه الضياع وسلموا رهناً للجنود، كما يقول كاتب الأخبـــار(2)، أي منح لهم استغلال العبيد

---

(1) *Codex Theodosianus*، الكتاب الســابع، العناوين *De veteranis e De Filis Veteranorum*.

(2) اناستازيوس بيبليوتكاروس، لدى موراتوري، *Rerum Italicarum Scriptores* المجلد الثالث، صـ١٤٧.

الذين سلمهم القاسي جوستنيان الثاني (٦٨٦-٦٨٧) للبابا مجاناً.

وأخذت تتزايد الهبات العسكرية تزايداً كبيراً حتى إنه في أوائل القرن العاشر كان يتم إعاشة القاسم الأكبر من الجيش على هذا النحو. وفي الوقت ذاته كان القواد يقومون بنقل ملكيات الأراضي؛ وبخداع الدولة، بإدخالهم في صفوف الجيش أفراداً معدمين يتقاضون أجراً زهيداً بدلاً من أصحاب الدربة العسكرية: ولم الدهشة إذن، يتعجب الإمبراطور قسطنطين بورفيروجنتو وهو يحاول أن يدفع بكل قواه مثل هذه الرذائل، ولم الدهشة إن تدهورت الجمهورية في مثل هذه السرعة؟(1). ولكن يبدو أن خسة الجنود لم تكن السلبية الوحيدة الناجمة عن الهبات البيزنطية للعسكريين: فقد كانت شكلاً من أشكال الإدارة العسكرية تنفصل انفصالا عن نظام اجتماعي قادر على أن يقدم لها إحدى فضائله ومناقبه، كما حدث في الإقطاعات الجرمانية وفي جند العرب. فقد حولت الهبات العسكرية طبقاً للنظام البيزنطى جنود الإمبراطورية إلى عبيد مؤقتين للقواد؛ أى أسوأ حالاً من موالى الإقطاعيين أو شركاء القبائل؛ ولم يعد الجند أداة لمواجهة الطغيان، بل أسوأ أداة لإقامة الطغاة وإقالتهم؛ ولم تعد الجيوش قادرة على الشعور بأي التزام تجاه المقاطعات التي يعسكرون بها، ولكن غرباء دائمي التغيير ومستعدين دائماً للإجحاف بها في جشع شديد. وأخيراً أرغم ضعف هذه الجماعة الأباطرة على استقدام فرق من الجنود غير النظاميين والمرتزقة بأجور باهظة ولكنهم كانوا على الأقل يجيدون حمل السلاح واستخدامه.

ويعد الأسطول البحري الاستثناء الوحيد بين القوات العسكرية الفاسدة،حيث عهد بإدارته إلى فئة من الشعب اليوناني والإيطالي القديم لم تسمح لها حياة البحر القاسية بما يدعو للفساد. واحتفاظ الأسطول البيزنطي بنظامه حتى القرن الثاني عشر يرجع الفضل فيه إلى هذه

(1) قســـــطنطين بورفيـــــروجنتي، *Novellæ Constitutiones*، ص ١٥٠٩ *De militaribus fundis..*.

الفئة، التي تميزت على الفئات الأخرى بخبرة الملاحة والمهارة في إدارة آلة الحرب، وطالما جددت أمجادها لفضائلها القديمة، وتركت منها ميراثاً في الجمهوريات الإيطالية بالبحر التيراني والأدرياتيكي ومملكة صقلية. ولما كان الأسطول البيزنطي يتكون من قسمين، أحدهما إمبراطوري والآخر إقليمي فإن إمكانات ذلك القسم الأخير كانت تجد دعم البلديات واهتمامها، التي كانت تعد آنذاك الوطن الوحيد. ومن هنـــا وبداية من القرن الثـــامن تمتـــع بقدر عظيم من المكـــانة والقوة أســـطولا البندقيـــة ونابولي، وكانتـــا مدينتين شـــبه مســـتقلتين؛ ويبدو أن أسطول صقلية أيضاً كان له دور بارز في العمليات الحربية التي يذكرها التاريخ، على الرغم من أن الكتاب قد خلطوا بينه وبين أسطول الإمبراطورية(1).

والآن وقد صارت صقلية في أواخر القرن السابع حصناً منيعاً غربي الإمبراطورية وقلعةً متقدمة إلى مابعد الحدود بين عدوين قويين، وضع الأمراء البيزنطيون بالضرورة فيها حامية ضخمة من العسكريين سبق ووصفناها، ولزم عليهم أيضاً منح سلطات عسكرية ومدنية وسياسية واسعة لقائد الحامية الأعلى، الذى يجدر بنا أن نطلق عليه القائد الاستراتيچى للجزيرة. وحيث إن هذه القوى الأجنبية كانت تتخطى القوة الوحيدة الخاصة بالبلاد والمتمثلة في الأسطول الإقليمي، فلم يشارك الشعب الصقلي في الأحداث التي كانت تدور في أراضيه إلا مشاهداً أو ضحية لها: وهكذا صفق حيناً وبكى ولعن حيناً آخر، ولكنه لم يبادر بأي تحرك. ومن هنا نرى جيش صقلية، بعد التمرد العسكري الذى وقع في عام ٦٦٨ والذي تكلمنا عنه، يحاول ثلاث مرات خلال قرن واحد تنصيب طاغية في الإمبراطورية. الأولى عندما تم حصار القسطنطينية بجيوش الخليفة، ودعي سيرجو القائد الأعلى لصقلية

(1) ورد ذكر أسطول صقلية ذِكراً خاصــاً في رســــــالة باولو الأول إلى الملك بيبينو، *Codex Carolinus*، طبعة جرَستر، رقم١٥؛ وطبعة تشيني رقم ١٨؛ وفي الرسالة٢٤ من الطبعة الأولى، و٣٨ في الطبعة الثانية.

بالهتاف لتيبريو إمبراطوراً ولكنه سرعان ما فشل بفعل قوة ليون إيزاوريكو وتدخله، الذي أرسل إلى سيراكوزا باولو، أحد وزرائه الموثوق بهم: وقاد هذا الوزير ضباط الجيش وأسطول صقلية، وأجبر سيرجو على اللجوء لدى اللونجبارد، وقطع رأس تيبريو وكسر أنف آخرين ليلصق بهم الخزي والعار، أو قص شعرهم، وضرب آخرين بالعصا أو شردهم؛ وعفى عن الباقين؛ وهكذا وضع نهاية (٧١٨) لتلك الحركة الخطيرة(1). أما الحركة الثانية فلم تكن يسيرة القمع حيث اندلعت بينما كان البلاط يموج بالتوتر والثورة على طموح إيريني الأرثوذكسية التى تخلت عن خصائصها الطبيعية. كان البيديو رجلاً من الشخصيات البارزة فتم إرساله إلى حكومة صقلية (٧٨١) لإقصائه عن البلاط الملكي، ثم وجهت إليه تهمة التعريض بالذات الملكية، أي مقاومته لأعمال اغتصاب وسلب من جانب إيريني، لذلك قام بالبحث عن نجاته من خلال تمرد معلن. وإذ ساعدته حالة السخط التي كان يعيشها الصقليون والحامية العسكرية هناك، اتخذ لقب إمبراطور وشاراته، وحارب القوات الوافدة من القسطنطينية للقضاء عليه: إلا إنه هزم في عدة معارك ولاذ بالفرار إلى أفريقيا ومعه الخزانة العامة (٨٧٢)؛ وهناك استقبل وعومل أميراً(2)، وتقدمه لنا الكتابات الإسلامية بعد إثنتى عشر عاماً محارباً تحت لواء الخليفة(3) ضد اليونانيين في آسيا الصغرى. أما حركة التمرد العسكرية الثالثة فقد أدت إلى حكم المسلمين لصقلية على يد قائد آخر احتذى حذو البيديو.

---

(1) تيوفاينس، *Cronographia*، ص٦١١ ومايليها.

(2) تيوفاينس، *Chronographia* ص٧٠٢و٧٠٥.

(3) ابن الأثير، مخطوط C، المجلد الرابع، الورقة ١٦٤ وجه أول. عام ١٧٨. يسجل سانت مارتين في الهوامش على لى بو، *Histoire du Bas Empire*، الكتاب٦٦، § ٢٧و٣٦، يسجل عمليتين قام بهما البيديو في أسيا الصغرى، في عام ٧٩١و٧٩٤، مستشهداً في الأولى بأبى الفرج. وفي الثانية بابن الأثير. ولكن من المحتمل أن يكون الحدث واحداً ولكن ذكره الكاتبان تحت تاريخين مختلفين.

وكذلك كانت الطبقة العسكرية المتسلطة سبباً في عدم وصول أخبار الحركة التي اندلعت ضد الحكام المناهضين لتبجيل أيقونات القديسين في إيطاليا الوسطى إلى صقلية، مع أن شعبها لم يكن أقل حماساً في الانضمام لتعاليم روما ولطقس الأيقونات. بل على العكس، في أوائل القرن الثامن، قبل أن يدور الحديث عن أتباع تحريم تبجيل الصور، كانت صقلية تعيش حالة غليان وحماس ديني جديد انطلقت من الأديرة المتصلة باكليروس إيطاليا الوسطى، وانفجرت هذه الحالة أيضاً في كتانيا إثر قلاقل واستفزازات محلية، ربما بسبب الحقد تجاه اليهود الذين كانوا يتمتعون هناك بالثراء والقوة(1). وفي هذا اللقاء ارتفع صوت أسقف المدينة، القديس ليون دا رافينا الذي أطلق عليه صانع المعجزات لما نسب له من صنع كثير من المعجزات ومن بينها أنه أحرق أحد الملحدين حياً وهو يمسكه بذراعيه فوق أتون النار دون أن تحترق ثيابه. ومن سوء الحظ أنه لايمكن الشك بأحكام محاكم التفتيش، حيث نجد أن القديس چوزيبى إنوجرافو (كاتب المدائح)، والذي عاش خلال ذاك القرن، كان يثني بطريقته على صانع المعجزات لهذا السبب. وفضلاً عن رواية كاتب المدائح، فهناك روايات أخرى أخذت تتزايد بمرور الزمن، ومع هذا نكتشف فيها أصل الأسطورة، أي آخر تدمير للآثار الوثنية القديمة واضطهاد بعض الشخصيات ذات الاعتبار والشأن التي نأت بنفسها عن الخرافات التي كانت شائعة: ومنهم اليدورو، كما كان يدعي ذلك الضحية، وهو رجل نبيل تم ترشيحه ذات مرة لكرسي الأسقفية، وبعد ذلك صار عدواً مزعجاً بالنسبة للقديس ليوني، وقالوا عنه إن طموحه جعله من أتباع اليهود وأنه عراف

---

(1) نرى أهمية الشعب اليهودي في صقلية في أواخر القرن الرابع في رسالتين للقديس جريجوريو، عند دى جوفاني، *Codex Siciliae Diplomaticus*، رقم١٢٧و١٤٦.

وصانع أصنام(1). واهتم رهبان كتانيا كثيراً بتلك الخرافات بعد الغزو النورماني، حتى إنهم عثروا في النهاية على عمل من أعمال الساحر وهو فيل من الحمم البركانية يزين اليوم ميدان الكاتدرائية: وأطلق عليه الشعب اسم ديوترو بالتحديد، وهو صورة مشوهة إلى حد ما للاسم(2). ويحمل فيل اليودورو منذ بدايات القرن الثامن عشر علىً ظهره أثراً أثمن منه عثر عليه بين أطلال الزلزال، وهو عبارة عن مسلة صغيرة من الجرانيت ثمانية الأضلاع وعليها نقوش هيروغليفية، جلبت مؤكداً من مصر خلال الحكم الرومانى عليها، ولا أعلم كيف نجت من يدي القديس ليوني مع ما تحمله من علامات تثير الريبة والشك.

ويصعب علينا في ذلك الوقت الذي عُرفت فيه المحارق والمعجزات أن نتخيل حجم الزوبعة التي ثارت في صقلية إثر

---

(1) جايتاني، *Vitæ Sanctorum Siculorum*، المجلد الثاني، صـ٥و٢٨، ويعطي ترجمات لاتينية لأبيات سان چوزيبى إنوجرافو، ولثلاث مؤلفات مختلفة عن حياة القديس ليوني، ويبدو لي أنها من القرن الحادي عشر والثاني عشر ويقال إنها مستخرجة من مخطوطات مكتبة الفاتيكان ودير كريبتا فراتا والسلفاتوري بمسينا. ولا يذكر كاتب المدائح اسم اليودورو، ولكن يقول فقط إنه تم حرق نفر كان يزعج مستمعي كلمة الله ويشير إلى معجزات أخرى عديدة قام بها (صانع المعجزات). ولم يتفق العلماء حول الزمن الذي عاش فيه القديس ليوني: بعضهم تأخر به حتى عام٧٧٩. ونظراً لعدم العثور على أي إشارة في تلك المعجزات إلى بدعة محاربة الصور، فيجب ألا نتردد في وضع حياة القديس ليوني واليودورو قبل عام ٧٢٦، كما فعل جايتاني. وانظر داميكو *Catania Illustrata,*، الجزء الأول، من ص ٣٦٣ إلى صـ٣٨٦. راجع أيضاً تلك القصص عن القديس ليوني في مجموعة بولانديستي، فبراير، المجلد الثالث، ص٢٢٢ ومابعدها. إن الرسالتين المكتوبتين باسم لوتشو حاكم صقلية، والمستخرجتين من هذه المصادر واللتين نشرهما دي جوفاني، *Codex Siciliae Diplomaticus*، رقم ٢٧٤و٢٧٥، هما رسالتان مشكوك في صحتهما.

(2) (داميكو) *Catania Illustrata* ، الجزء الأول من صـ٣٦٢إلى٣٨٦، والجزء الثالث من صـ٧٢ إلى٧٥، يقول أطلق عليه بشكل مبتذل اسم أثر ليودورو. أما اليوم فهذا الاسم ينطق ديودورو وأيضاً ديودرو وديوترو. وفاتزيلّو، العشرية الأولى، الكتاب الثالث: الفصل الأول ويعطي للمنجم المفترض كلا الاسمين: ديودورو وليودورو. أما عملية وضع المسلة المصرية فوق الفيل فقد تمت في عام ١٧٣٦، وتشهد بذلك كتابتان منسوبتان لداميكو، الجزء الثالث، ص٣٨٦. وهنا يرى رسم المسلة الذي سجله أيضاً توريموتسا في *Sicilae Veterum Inscriptionum* ص ٣٠٧.

مرسوم ليوني إزاوريكو المناهض للصور (٧٢٦). ولم يسكت الصقليون. فواجهوا فى البداية ثورة غضب ليوني الذي أراد أن يشفي غليله كما أسلفنا (٧٣٣) بزيادة الضرائب عليهم وعلى سكان كلابريا الذين كانوا يرزحون تقريباً تحت الظروف نفسها. وواجه الصقليون بعد ذلك التعذيب الجسدي من قبل قسطنطين كوبرونيمو؛ ولاتزال أسماء أبرز الضحايا باقية في الذاكرة: مثل أنطيوكو حاكم صقلية الذي نجده وسط أرثوذكسيين كانوا يوجهون لهم الاهانات ويسبونهم ويعذبونهم (٧٦٦) في مضمار القسطنطينية(1)، وأيضاً القديس جاكومو أسقف كتانيا الذي تركوه يموت من الجوع والعطش أثناء ذلك الاضطهاد(2). وفي عصر ميكيلي البالبو وتيوفيلو تمزق جسد العالم ميلوديو من سيراكوزا من شدة ضربهم له، وكسروا فكه ودفنوه سبع سنوات في سجن تحت الأرض مع زمرة من المجرمين وعندما مات أحدهم تركوا جثته تتعفن بجوار الأحياء (٨٢١-٨٣٦)(3). أما چوزيبى كاتب المدائح (٨٢٠) فأُبعد إلى جزيرة كريت وبعد عشرين عاماً انتهى به المطاف إلى منطقة مستنقعات بالودي ميوتيدى(4). وبعد ذلك لم تظهر أي مظاهر شغب في الجزيرة حيث زاد عدد الجنود في هذه

---

(1) تيوفاني، *Cronographia*، المجلد الأول، ٦٣١.

(2) جايتاني، *Vitæ sanctorum siculorum*، المجلد الثاني، ص٣٢. وأفضل تاريخ عام ٧٧٢ الذي اتبعه هذا الكاتب على التاريخ الذي أراد آخرون أن ينسبوه إلى القديس چاكومو في كتانيا، وجعلوا مماته في عصر ليوني ازاوريكو. أنظر داميكو *Catana illustrata*، الجزء الأول، ص٣٦١.

(3) تيوفانس *Continuatus*، ص٤٨؛ وسيمون ماجستر ص٦٤٢ ومابعدها؛ والراهب چورچيوس، ص٨١١ ومابعدها. وانظر أيضاً مجموعة بولانديستي، يونيو، المجلد الثاني، من ص٩٦٠ إلى٩٦٣؛ ومونچيتوري، *Bibliotheca Sicula*، المجلد الثاني صـ٦٦ ومابعدها.

(4) جايتاني، *Vitæ Sanctorum Siculorum*، المجلد الثاني، ص٤٩؛ مجموعة بولانديستي، أبريل، المجلد الأول، صـ٢٦٦و٢٦٧.

الفترة(1)، وتعددت الحصون ليس خوفاً من المسلمين، حسبما أعتقد، بقدر ما كان خوفاً من الأرثوذكس، لأن الممتلكات المصادرة من هؤلاء كانت دافعاً يجعل الحامية أكثر صدقاً ومعاداة لتبجيل الصور عن أي وقت مضى. وتأججت أحاسيس الشعب وتحمل واستمر على هذا الحـال أكثر من قرن من الزمان، حتى راق للأباطرة إعادة الصور: ويبين الاندفاع والحماس الذي واكب الاحتفال بهذا الحدث(2) أن الرأي الكاثوليكي لم يفتر في صقلية. وإنما كان الحماس كله لكنيسة روما. وانقشع كل شئ في هدوء دون أن يترك أي أثر، مثلما صادر الأباطرة(3) من قبل الممتلكات البابوية في صقلية (٧٣٣) وقادوا أساقفة الجزيرة دون عنف إلى الانسـلاخ عن رئيس الأسـاقفة المتمرد، وإلى قبــول تعيين رئيس أساقفة، أو مطران في الجزيرة، والخضوع لبطريرك القسطنطينية(4). وهذه الإجراءات اتخذت للثأر وأبقى عليها للضرورة عندما نشب النزاع الأول (٧٨٠) والثاني (٨٤٢) على الصور. وفي الحقيقة كان البابا في إيطاليا يحتل كثيراً من الأراضي التي انتزعت بطريقة مباشـــرة أو غير مباشرة من الأمبراطورية البيزنطية، وكانت هذه المزارع المصادرة منها في صـقلية وكلابريا يتم تعويضها بمئات أضـعافها. وفضلاً عن هذا فإن هذه المزارع التي أعطيت دون شك للجنود، كان من غير الممكن استرجاعها حسب الرغبة. وماكان باستطاعة بلاط القسطنطينية أن يرد إلى البابوات الاختصاصات التأديبية في صقلية، تلك الأغلال القوية التي كان بإمكانها جر البلاد إلى هيمنة الفرنجة. إلا أن البابوات أخذوا يرددون

(1) انظر الفصل السابع، صـ ٢٤٨.

(2) انظر العظتين الحادية عشرة والعشرين عند تيوفاني تشيراميو، في طبعة سكورسو، ص٦٤و١٢٥و١٢٩ إلخ، ومانقوله نحن عن هذا الواعظ الدينى في الكتاب الثاني، الفصل الثاني عشر.

(3) تيوفانس، *Chronographia*، المجلد الأول، ص ٦٣١.

(4) بيــرو، *Sicilia sacra*، ص٦١١؛ ودي جـوفاني، *Codex Siciliæ Diplomaticus* مبحث رقم٢، ص٤٢١.

دون جدوى أن تلك الإيرادات لازمة لإضاءة شموع القديس بطرس، وعبثاً طالبوا من جديد باختصاصاتهم، حتى جاء الفتح العربى فقضى على كل نزاع(1).

ويتضح مما قيل حتى الآن إنه لم تقع في صقلية خلال قرنين أحداث أخرى غير تلك الخاصة بميدان الحرب، حيث لم يكن للشعب وزن يذكر مقارنة بالحامية. ولذا كانت صقلية تعد أيضاً منفي لحالات العيب في الذات الملكية، حيث نجد فيها من أمثلة ذلك أميراً عربياً منفياً في القرن السادس(2)، وأميرة لونجباردية رهينة في القرن التالي(3)، ونعلم أن الإمبراطور قسطنطين الخامس عندما دبر لاستعادة الدولة (٧٩٠)، كان قد خطط ليقصى إليها إيريني. وهذه بدورها، وقد اشتد عضدها في اغتصاب حقوق الغير لم ترسل ابنها إلى الجزيرة لأنها ارتأت الأمان في إصابته بالعمى وسجنه بالقصر، وإنما أرسلت رجال البلاط الذين تلطخوا بذلك الفعــل(4). ولم يمض من الوقت الكثير (٧٩٣) حتى ظهـر كثيرون في صقلية أبعدوا، كما أسلفنا، من ألف ولاية من الإمبراطورية الرومانية: مكتوب على جبهة الفرد منهم بحروف لا تمحى «أرمني متمرد»(5). ومن الواضح أن الراوي ثيوفاني عندما يحكي تلك الحالات يذكر صقلية باعتبارها مقاطعة نائية، أو كما نقول نحن الآن سيبريا الإمبراطورية. وكان هذا حالها الذى آلت إليه في الحقيقة؛ غير أنه كان

(1) دي جوفاني، *Codex Siciliæ Diplomaticus*، رسالة البابا نيكولو الأول لعام٨٦٠، رقم٢٨١، ص٣١٨، المبحث الخامس، ص٤٥٢؛ ورسالة البابا أدريانو الأول في عام٧٨٥، *Acta Conciliorum*، المجلد الرابع، ص٩٣، ٩٤.

(2) انظر الفصل الرابع، ص ١٥٤.

(3) باولو دياكونو، الكتاب الخامس، الفصل الرابع عشر. كانت الأميرة تدعى چيزا، وهي اخت روموالدو سيد بنڤنتو.

(4) تيوفاني، *Chronographia*، ص٧١٩و٧٢٠. حتى يكون الترتيب الزمني للأحداث دقيقاً يجدر بنا ملاحظة أن نفي رجال البلاط كان بعد عام ٧٩٠، وأن أصابه قسطنطين بالعمى كان في عام ٧٩٧.

(5) المصدر نفسه، ص٧٢٧، ويشرح تيوفاني الطريقة: أي تحديد الحروف بوخزات وسكب المداد فوقها. وماكان ينقص أولئك السفاحين إلا القليل ليتوصلوا إلى اختراع الطباعة.

من المستحيل على الطغاة مصادرة شمسها وخصوبة أراضيها وموقعها وسط البحر المتوسط. ومع هذا ظل بعض من آثارللحضارة باقٍ بين السكان اليونانيين واللاتينيين بالجزيرة: بينها صناعات بقيت مع التجارة، كما قلنا آنفا ودراسات كنسية كما أشرنا أيضاً وفن تصوير زيتي كان يمارسه الكهنة فقط كما سنرى في أواخر القرن التاسع، وهندسة معمارية(2) وأخيراً بعض من وسائط عيش ناعمة، ممالا تفتقر إليه فترات التدهور. ولكن الدراسات الخاصة بالإكليروس داخل الأديرة وخارجها لم تكن إلا عاملاً مساعداً للخزعبلات، وكانت القيم الأخلاقية التي كانت طبقة الإكليروس تقوم بتعليمها تبعد عن تعاليم الإنجيل البسيطة، حيث انصرفوا نحو مصالحهم الخاصة وانغمسوا فى الجدل اللاهوتى العقيم الذي كان يثير اضطراب النفوس دون أن يقوموا بإصلاح السلوكيات العامة والخاصة، أما الإحساس بكرامة الإنسان، والذي يمكنه وحده الحفاظ على العادات الحميدة، فقد اختنق بالضرورة في شعب كان عقله يتأوه ويعانى بين أغلال الرهبان والإمبراطور، ويتألم جسده تحت مقرعة الإمبراطور والجنود. وجملة القول أن صارت صقلية في الداخل والخارج بيزنطية، أمرضتها عدوى سل إمبراطورية تتدهور، وهكذا فإذا ما تأملنا في أوضاعها البائسة فإنه لن يكدرنا الفتح الإسلامى الذى هز أركانها وجددها.

(2) في أكبر كنيسة في مولا فوق تاورمينا يحتفظ بهذه الكتابة التي نقلت كما هو واضح من بعض الحصون القديمة:

ΕΚΤΙΣΘΗ ΤΟΥΤΟ ΤΟ ΚΑΣΤΡΟΝ ΕΠΙ ΚΟΝΣΤΑΝΤΙΝΟΥ ΠΑΤΡΙΚΙΟΥ ΚΑΙ ΣΤΡΑΤΗΓΟΥ ΣΙΚΕΛΙΑΣ.

توريموتسا (جابريل ل. كاستيللي)، *Siciliae Veterum Inscriptionum* ، ص٦٥.

الفصل العاشر

فى القرن الأخير من الحكم البيزنطى فى صقلية كانت العلاقات الدبلوماسية بين حكام الجزيرة وأمراء الأغالبة علاقات وطيدة حيث كان قد جرى كلام عن هدنة بين صقلية وأفريقيا منذ بدء هرطقة مناهضة الصور؛ عندما أراد ليون إيزاوريكو أن تطلق يداه لقمع جميع شعوب الجزيرة ومنها إلى قمع أرجاء البر الإيطالى. وكما يبدو فقد تم إبرام اتفاق فى عام ٧٢٨، لم يلبث أن خرقه (1) المسلمون بغية استغلال الصعوبات التى كانت تئن تحت وطأتها الحكومة البيزنطية؛ حتى إنهم فكروا فى إخضاع صقلية تحت نيرهم كما قلنا. وكان لتسليح الجزيرة تسليحاً قوياً وللانقسامات بين المسلمين فى أفريقيا أثر أكبر من المعاهدات فى الحفاظ على السلام، حتى ظهر إبراهيم بن الأغلب بمقاصده تلك عن النظام العام وعاد إلى موضوع الاتفاقيات المكتوبة، التى كانت تسهل حركة التجارة ومعها نشاط الدولة تسهيلاً أكبر، إذ كانت تضمن لتجار أفريقيا الذهاب للإقامة فى صقلية أو العكس. على أية حال فى عام ٨٠٥ وقّع إبراهيم بن الأغلب هدنة

(1) من بين معلومات البعثة الأفريقية فى صقلية عام ٨١٣ نجد أن النبيل كان يلوم السفراء لأن حكومة صقلية كانت قد وقعت اتفاقاً مع حكومة أفريقيا منذ خمس وثمانين عاماً، ولم يتم الالتزام بالاتفاق. وعلى هذا تعود أول معاهدة إلى عام ٧٢٨. ونقرأ هذه المعلومات فى الرسالة الثانية من الرسائل الثلاث التى بعث بها البابا ليون الثالث إلى شارلمان والمؤرخة فى السابع من سبتمبر والحادى عشر والخامس والعشرين من نوفمبر عام ٨١٣، والتى نشرها لاب فى *Sacrosancta Concilia*، المجلد السابع، من ص ١١١٤ إلى ص ١١١٧؛ وفى *Codex Carolinus*، لتشينى، المجلد الثانى، الرسالة الثامنة والتاسعة والعاشرة لليون؛ والرسالتين الأولتين أيضاً عند دى چوڤانى فى *Codex Siciliæ Diplomaticus* رقم ٢٧٧ و٢٧٨. والمرسوم البابوى الذى يستشهد به فيهما يوضح أن لاب أخطأ فى تأريخ رسالة ١١ نوفمبر بعام ٨١٢. راجع أيضاً فقرات هذه الوثائق عند باچى *ad Baronium*، عام ٨١٣، §٢١ و٢٢ و٢٣.

مدتها عشر سنوات مع قسطنطين نبيل صقلية. ولم تدم طويلاً هذه الهدنة، حيث قامت بعض حـــركات التمـــرد المناهضة لإبراهيم وبخاصة فى تونس وطرابلس ونظراً لأن غرب أفريقيا كان خاضعاً للإدريسيين ومستقلاً عن الخلفاء وعن حكام بنى الأغلب، وغير ملتزم باتفاقيـــاتهم الدولية(1) فقد أبحرت من الســـاحل سفن للمسلمين تهاجم المسيحيين فى الجزر. كما أرسلت أسبانيا التى كانت تأتمر بأوامر أسرة أخرى سفناً لها. وهكذا تعرضت سردينيا وكورسيكا لهجوم الأفارقة تارة ولهجوم الأسبان تارة أخرى (٨٠٦ - ٨٢١)، بيد أن المســـلمين لم يبلوا - غالباً - بلاء حسناً إذ لم يستطيعوا توحيد جيوشهم نظراً للعداوة بين الأمويين والإدريسيين والأغالبة، ونظراً لأنه كان عليهم أن يحاربوا أناساً فقراء يعتزون

(1) يبدو لى أن هذه أفضل صيغة لتفسير الكلمات المنسوبة لسفراء المسلمين فى رسالة ليون الثالث المذكورة والمؤرخة فى ١١ نوفمبر عام ٨١٣. وفيها اعتذار عن عمليات نقض المعاهدات التى أشار إليها نبيل صقلية، ومرفق بها أنه عندما توفى والد (أمير المؤمنين) وهو لايزال طفلاً انقلب كل شئ رأساً على عقب: تحرر الرقيق، وتاق الرجال الأحرار إلى السلطة العليا؛ وانطلق الجميع إلى أعمال السوء، وكأنه ليس لديهم أمير يحكمهم. أما اليوم وقد نضج أمير المؤمنين، هكذا يضيف السفراء، فقد استحوذ على السلطة وسيعمل على الالتزام بالاتفاقات. والآن نظراً لعدم انطباق هذه التفاصيل لا على الخلفاء العباسيين فى تلك الفترة والذين كانوا سادة الأغالبة، ولا على الأغالبة أنفسهم، فمن اللازم أن نظن أن تقرير البابا، كان مبتوراً وغير صحيح، وهو كان هكذا؛ ومن المناسب تخمين ما ينقصه. فى اعتقادى ينقصه أن السفراء كانوا يأتون من دولتى الأغالبة والإدريسيين، وهذه الأخيرة كانت قد اقترفت الأعمال العدوانية. ويبدو لى فى الواقع أنه فى كلمات السفراء المشار إليها ليس هناك تلميح للحروب الأهلية التى وقعت بين المأمون وأخيه، كما اعتقد رينو فى (*Invasions des Sarrazines en France*، ص ١٢٣ و١٢٤)، ولكن التلميح بالأحرى لوقائع أسرة الإدريسيين؛ فعندما مات مؤسسها لم يترك أبناء، إلا أن إحدى نسائه ولدت بعد شهرين (٧٩٣) طفلاً وسمى إدريس، واتفق البربر على طاعته، وولى إماماً، أى أميراً فى الحادية عشرة من عمره. وفى وقت السفارة كان فى العشرين من عمره وكان قد أسس مدينة فاس وبدأ فى ترسيخ دولته وتوسيعها. وتتناسب إذن التفاصيل الواردة سلفاً مع إدريس هذا. ويضاف إلى هذا أن إبراهيم بن الأغلب بعد أن كان قد حاول، ربما ليس بصفته رجلاً رشيداً، القضاء على هذه الأسرة المنافسة للعباسيين، قد أبرم معها اتفاقاً ضمنياً كان لايزال سارى المفعول فى عام ٨١٣.

بكيانهم، وأن يواجهوا القوات البحرية الإيطالية التى كان يرسلها شارلمان(1) من حين لآخر. ويبدو كذلك أن الأراضى التى كانت تخضع لنبيل صقلية تم اجتياحها من رعايا الإدريسيين.

ولكن ما أن خلف أبو العباس أباه إبراهيم، حتى استهل اعتلاءه السلطة بتسليح الأسطول البحرى تسليحاً كبيراً، ولم تخف هذه التجهيزات والاستعدادات على التجار المسيحيين بأفريقيا الذين كانوا يخطرون صقلية بها فى العادة. مما دعا الإمبراطور ميكيلى الأول، حرصاً على الجزيرة، إلى جلب عدد كبير من الجنود ونبيل من القسطنطينية، وطلب هذا بدوره دون جدوى دعماً بالسفن من أنتيمو دوق نابولى، ولكنه حصل عليها من أمالفى وجايتا، لدرجة أنه - بضمها إلى سفن صقلية - كدس أسطولاً بحرياً يجبر المسلمين(2) على احترامه. وفى الوقت ذاته أرسل شارلمان برناردو وهو حفيده وابن بيبينو، كما أرسل ابن عم له يدعى والاَّ ليقود الجيش فى مملكة إيطاليـــا، حيث ســـاد الاعتقاد أنها عرضة لتهديد الجيوش الإفريقيـــة من جهـــة والإســـبانية من جهـــة أخرى. وأعـــادت هذه الجيوش بالفعل هجومهـــا على جـــزيرة كورســـيكا (٨١٢ - ٨١٣)؛ ومنيت بالهزيمـــة عند عودتهـــا قـــرب مايوركا على يـــد الكونت دامبورياس، فأعـــادوا بناء الســـفن ونزلوا كمـــا تقـــول الحوليـــات المسيحية(3) فى نيس ومنها إلى تشيفيتافكيا. فى هذه الأثناء كان

(1) راجع الرواة الذين يستشهد بهم رينو *Invasions des Sarrazines en France* ص ١٢١ و١٢٢، وونريش فى *Commentarinm*، الكتـــاب الأول، الفصـــل الثـــالث، § ٤٦ و٤٧. والمرجـــع الرئيـــس ومصـــدر المراجـــع الأخـــرى هـــو مرجـــع إينهاردو و*Annales Laurissenses*، والتى يمكن الرجوع إليها بشكل أفضل عند بيرتز فى *Scriptores*، المجلد الأول من عام ٨٠٦ إلى ٨١٢.
ابن الأثير، المخطوطة *A*، المجلد الأول، ورقة ١٤٠ تحت عام ٢٠٦ (٥ يونيو ٨٢١ إلى ٢٥ مايو ٨٢٢)، يلاحظ إغارة مسلمى أفريقيا على سردينيا حيث حصلوا منها على غنائم وتارة انتصروا وتارة أخرى هزموا ولكنهم فى النهاية خرجوا منها.

(2) رسالة ليون الثالث بتاريخ ٧ سبتمبر المستشهد بها فى ص ٢٩٥ فى الهامش.

(3) إينهاردوس، لدى بيرتز، *Scriptores*، إلخ، المجلد الأول، ص ١٩٩. وينسب هذا الراوى

أسطول الأغالبة بسفنه التى يبلغ عددها مائة قطعة أو سفينة يبحر فى طريقه إلى سردينيا وهلكت كل سفنه تقريباً فى يونيو ٨١٣ لسوء الأحوال البحرية إذ لم تتمكن الزوارق الصغيرة رديئة الصنع والقيادة والمكتظة بالجياد من مواجهتها.

ونظراً لأن الناس اعتادت تبرير قلة حيلتها بتدخل قوى أعلى من قدراتها، كان الناجون من الغرق يرددون رواية رددها المبعوثون المسلمون فى صقلية بعد ذلك لشهور قليلة. تقول الرواية إن دوامة كبيرة انفتحت فى البحر وابتلعت الأسطول البحرى. وكانت تؤكد هذا الخبر رسائل أحد المسيحيين الأفارقة إلى نبيل صقلية، حيث أضاف أنه حدث فعلاً هذا الإعصار، عندما برق فى السماء أحد الشهب، ويبدو من كلامهم أن هذا النيزك تم رصده فى نقاط عديدة فى البحر المتوسط(1).

وبالرغم من الكارثة التى رويت هاجم المسلمون طوال الصيف جزرنا الصغرى. رسوا فى لامبيدوزا بثلاث عشرة سفينة وقهروا سبعة مراكب صغيرة كان نبيل صقلية قد أرسلها هناك للاستطلاع، وقتلوا طاقمها، إلا أنه ما أن وصل الأسطول البيزنطى بقوته الرئيسة حتى هزم المسلمين وقتلهم بنصل السيف. وفى منتصف أغسطس نزلوا جزيرة بونزا بأربعين مركباً واستولوا منها على غنائم جمة؛ وبعدها جزيرة إسكيا لمدة ثلاثة أيام وعادوا بغنائم كثيرة من المنتجات الزراعية وأسرى من الرهبان وغيرهم، وقتلوا

الذى نقل عنه الرواة اللاحقون إلى عام ٨١٢ الأحداث التى تمت روايتها بما فيها تحطمُ الأسطول الذى اقتحم سردينيا «تحطيماً شبه كامل». ولكن رسالة ليون الثالث والمؤرخة فى ١١ نوفمبر والمستشهد بها فى ص ٢٩٥ فى الهامش تسوق خبر الغرق صواباً فى يونيو من الخمسعشرية السادسة الموافق لعام ٨١٣. ومن ناحية أخرى هناك شكوك حول ما إذا كان الذين هاجموا نيس هم أنفسهم الذين هاجموا شيفيتافيكيا، وهل هؤلاء وأولئك من الأسبان أو من غرب أفريقيا.

(1) فى رسالة البابا ليون المؤرخة فى ١١ نوفمبر والمستشهد بها، بعد الإشارة إلى رسالة أحد مسيحى أفريقيا، يضاف: *Et hoc factum est mense junio, quando illud signum igneum, tamquam lampadam in coelo multi viderunt.* ولا يستخلص أين كانت هذه الجمهرة (*multi*) وما إذا كانوا جميعاً فى منطقة واحدة.

جيادهم(1) ليفسحوا لغنائم الحرب وأسلابها موضعاً على المراكب. وربما كان هذا هو الأسطول الصغير الذى اندفع إلى تشفيتافكيا. وربما كانوا من الأسبان أو أناس من تلمسان، رعايا الإدريسيين؛ إلا أن أبا العباس بن الأغلب أرسل فى الحال رسلاً إلى جريجوريو حاكم صقلية ليؤكد على الهدنة؛ ولا يبدو من تفاصيل تلك المهمة أن الأغالبة قد برأوا أنفسهم من الإغارات الأخيرة.

ونعلم على العكس من هذا أن المبعوثين عندما اعتذروا عن الأعمال العدوانية التى ارتُكبت فى صقلية خلال عشر سنوات، كانوا يعزون ذلك إلى أحداث داخلية تتلاءم مع بنى إدريس(2) فقط. وأضافوا أنهم لا يودون أن ينصبوا أنفسهم أوصياء على الأسبان الذين لا يطيعونهم؛ ومن هنا كانوا يتركون الحرية لمن يريد أن يقاتلهم، وأنهم كانوا سيقدمون أيضاً بكل الرضا العون لطردهم من الأراضى المسيحية. وكان الرسل أنفسهم عند قدومهم إلى صقلية فى سفن من البندقية وتصادف لقاؤهم مع بعض السفن الأسبانية قد قاموا بتحريض بحارة البندقية على إحراقها، كما كانوا يتفاخرون باشتراكهم وأن لهم يداً فى ذلك(3). من المؤكد إذن أن الأمويين بأسبانيا لم يدخلوا فى هذا الاتفاق مع نبيل صقلية: ويبدو على العكس أن الاتفاق ضم الإدريسيين وأن رسلهم كانوا قد أتوا مع سفراء الأغالبة.

وتضمن الاتفاق هدنة مدتها عشر سنوات وتبادل للأسرى وتأمين التجار المسلمين حتى يتمكنوا من الوصول من أفريقيا إلى صقلية ويقيمون فيها لترويج بضاعتهم، وإذا أرادوا العودة فلا يجوز احتجازهم. وكان هذا التأمين دون شك متبادل مع تجار صقلية الذين يتاجرون فى

---

(1) رسالة ليون الثالث المؤرخة فى ٧ سبتمبر والمستشهد بها آنفاً. وفيها يطلق على المهاجمين دائماً اسم *Mauri*. وفى الرسالة التالية يطلق دائماً اسم *Saraceni* على المسلمين من دولة الأغالبة.

(2) راجع الهامش ١ ص ٢٩٦.

(3) طبقاً لرسالة ليون الثالث كان السفراء قد حضروا *in navigio Veneticorum, et sic veniendo combusserunt igne navigia quæ de Spania veniebant.*

أفريقيا. ورد النبيل فوراً أسرى المسلمين وأرسل الموظف تيوبيستو ليسترد أسرى المسيحيين وليحصل على مصادقة على سريان الاتفاق. وفى الحقيقة تمت المصادقة عليه فى احتفال فخم لجمعية الأعيان فى القيروان، كما يؤكد أحد الكتاب العرب شاهد عيان لذلك الاجتماع، وعرفنا عن هذا الكاتب الجانب التجارى المذكور تواً(1). ونستخلص التفاصيل الأخرى للاتصالات وأيضاً للغارات من إحدى رسائل البابا ليون الثالث إلى شارلمان والمؤرخة فى ١١ نوفمبر ٨١٣؛ وهى وثيقة مهمة جداً من نواحٍ عديدة. ومع ذلك تبين هذه الأخبار والمعلومات أن القاصد الرسولى البابوى إلى صقلية كان عليه أن يتخطى ليس فقط حاجز عدم الثقة الذى كان يشعر به النبيل تجاه أى رجل من رجال البابا، وإنما أن يتخطى أيضاً عقبة الترجمة إلى لغتين مختلفتين، أى من اللغة العربية التى يتحدث بها السفراء المسلمون إلى اليونانية التى يتحدثون بها فى صقلية، ومن اليونانية إلى اللاتينية الركيكة التى يكتب بها البابا إلى شارلمان.

وحينما سافر القاصد الرسولى، من سيراكوزا إلى روما، علم فى أوائل نوفمبر أن سبع سفن من سفن المورى، أعتقد قراصنة أو أناس من أسبانيا، كانوا قد فروّا من أراض قريبة من ريجو(2) منذ فترة وجيزة. ويبدو أن الهجوم على كلابريا كان قد بدأ منذ صيف ذلك العام أو تجدد فى الأعوام التالية، حيث يروى أن القديس فانتينو دا سيراكوزا، صانع المعجزات فى القرن الرابع والذى عاش متوحداً منعزلاً فى كلابريا، ظهر

(1) راجع هذا الكتاب، الفصل السادس، ص ٢٢١ ـ ٢٢٢. الراوى هو سليمان بن عمران، ونقرأ فقرة الرواية فى **رياض النفوس**، المخطوطة، الورقة ٢٨ الوجه الأول. ويفترض التأمين المتبادل للتجار الصقليين فى أفريقيا حيث كان أحد التجار قد كتب إلى النبيل (راجع ص ٢٩٨). ولا يثير الدهشة أن سليمان لم يشر إلى أن الاتفاق ينص على التعامل بالمثل، حيث كان من المعتاد دائماً فى أى هدنة بين المسلمين والمسيحيين أن يعلن كل طرف منفرداً عن الاتفاقات المناسبة لرعاياه وأن يخفى الالتزامات المتعاقد عليها مع الأعداء.

(2) رسالة ١١ نوفمبر ٨١٣ والمستشهد بها فى ص ٢٩٥ فى الهامش.

ذات يوم وكان الرابع والعشرون من يوليو بين الزوابع والبرق على شاطئ سيمينارا ليغرق سفينة للمسلمين قدمت لتقوم بالقرصنة فى تلك النواحى. وهذه المعجزة التى يتردد أن المسلمين الذين نجوا من الغرق كانوا شهود عيان لها؛ ترجع إلى عصر ليون الأرمنى (٨١٣ ـ ٨٢٠)، حيث يضيف أحد أساقفة كلابريا الصالحين ومؤلف الحكاية أن حاكم صقلية أرسله إلى القسطنطينية لإجراء مفاوضات خاصة بالإقليم فى العام الثالث من حكم ليون، وأن القديس فانتينو انقذه من عاصفة فى البحر الأدرياتيكى أولاً، ومن غضب الإمبراطور المهرطق بعد ذلك(1).

وفى النهاية عانت صقلية إحدى الغارات، ونقول عنها فقط إنها وقعت فى عام ٢٠٤ هجرية (من ٢٧ يونيو ٨١٩ إلى ١٥ يونيو ٨٢٠)؛ وقادها محمد بن عبدالله بن الأغلب، ابن عم الأمير زيادة الله الأغلبى، وأسر المسلمون فيها كثيرين من أهل الجزيرة وعادوا بهم إلى أفريقيا(2). وهنا يبدو أنها كانت عملاً انتقامياً أو تعبيراً عن غضب دينى أخذ شكلاً من أشكال الثأر، حيث لوحظ أن زيادة الله فى استهلال ولايته أولى الفضل والأولوية لطائفة الفقهاء، أى للمغالاة فى الدين. ويتبقى أننا نجهل من خرق الهدنة أولاً، وحتى هم أنفسهم لا يعرفون بالضبط، حيث قلما روعى الاحترام التام للاتفاقات بين حكومتى أفريقيا وصقلية، فكلاهما كانتا مستبدتان، تحبان المال

(1) جايتانى، *Vitæ Sanctorum Siculorum*، المجلد الأول، ص ١٦٠ وما بعدها، من مخطوطة يونانية فى دير السلفاتورى فى مسينا وتنسب إلى بطرس أسقف تاوريانو الذى عاش تحت حكم ليون المهطرق وتوجه إليه وهو يرتعد من الخوف فى السنة الثالثة من حكمه. ويفضل جايتانى من بين الثلاث أباطرة البيزنطيين الذين ينطبق عليهم هذا الاسم وهذا العيب ليون إزاوريكو باعتباره أقدمهم، دون أن يراعى أن هذا الإمبراطور فى العام الثالث لحكمه لم يكن قد صرح بمناهضته للأيقونات. ولذا يبدو لى أنه بالأحرى الأرمنى. ويحكى الأسقف الطيب أنه كان قد رأى غرق سفينة المسلمين ويروى بعد ذلك مهمته فى القسطنطينية. وتتحدث أيضاً بعض أبيات القديس چوزيبى إنوجرافو والتى يستشهد بها جايتانى عن معجزة القديس فانتينو ضد المسلمين.

(2) ابن أبّار، مخطوطة الجمعية الأسيوية فى باريس، ورقة ٣٥ الوجه الأول. ويضيف المؤلف لعدم اكتفائه بتدوين العام الهجرى أن هذه الإغارة تمت قبل ثمانى سنوات تقريباً من فتح أسد بن الفرات.

ويعوزهما النظام؛ أمتان متباغضتان فى الله، ولكن التجارة كانت تجرهما للتعامل معاً. ومن المؤكد أيضاً أن أحداث العداء لم تصل إلى حد محاولة الاستيلاء على صقلية قبل عام ٨٢٧، كما كتب آخرون بناءً على روايات متوارثة غير دقيقة.

وأتكلم عن المحاولتين اللتين تكررتا حتى الآن فى حوليات صقلية، واللتين يجب محوهما بالرغم من التطابق العارض لتاريخهما مع غزوة محمد بن عبدالله، لأنــه يعوزهما المصدر الموثوق، وعلاوة على ذلك فإن الحرب الأهلية الفظيعة التى اندلعت فى أفريقيا من عـــام ٨٢٢ إلى ٨٢٦ تجعل منهما أمراً مستحيلاً. وتأتى الرواية الأولى على لسان إركمبرتو اللومباردى الذى عاش فى أواخر القرن التاسع وقال بإيجاز: بعد أن خرج أبناء هاجر من بابل وأفريقيا وأقاموا فى مدينة بالرمو العظيمة وخضعت لهم تقريباً كل الجزيرة، ويضيف أنه فى ذاك الوقت مات الإمبراطور لودوڤيكو وخلفه لوتاريو(1). ومن يقرأ هذه الكلمات فى أيامنا هذه سيرى بوضوح أحداث فتح صقلية الذى بدأ عام ٨٢٧، وسيدرك أن اشارة راوى الوقائع تتواصل حتى عام ٨٤٠، عندما انتقل لودوڤيكو إلى العالم الآخر. ولكن فى القرن الثانى عشر، عصر الحروب الصليبية والأساطير، وحيث تم تناول أحداث التاريخ بفظاظة وجهـل، اقتلع ليون دوستيا ذلك الجزء بالكامل من إركمبرتو، وأضاف من اختلاقه تاريخ عام ٨٢٠، أو أضافه له الناسخون(2). وبعد أن طوى النسيان إركمبرتو وحل محله

(1) إركمبرتوس، الفصـــل الحـادى عشر، لدى موراتورى، *Rerum Italicarum Scriptores*، المجلد الثانى، الجزء الأول، ص ٢٤٠.

(2) ليومارسيكانوس، الكتاب الأول، الفصل ٢١، لدى موراتورى، *Rerum Italicarum Scriptores*، المجلد الرابع، ص ٢٩٦، وعند بيرتز، *Scriptores*، المجلد السابع، ص ٥٩٦. وفى طبعة بيرتز نلاحظ خطأ الترتيب الزمنى، الذى يرجع إلى ليون وليس إلى إركمبرتو. وأود أن أضيف أن ليون فى الفصل العشرين يذكر بعض أحداث عام ٨٢٧، ولكن من المحتمل أن الناسخين عندما نقلوا التاريخ بالأرقام الرومانية قد اهملوا رقم الوحدات.

ليون، تم نقل الخطأ من نسخة إلى أخرى حتى عصرنا هذا(1)، وفيما بعد أضيف إليها إن المسلمين كانوا قد غادروها وعادوا إليها بعد سبع سنوات؛ حيث أن المصادر البيزنطية والإسلامية كانت تشير إلى نزولهم فى صقلية عام ٨٢٧.

والرواية الأخرى يحكيها فازيللو، بعدما جمع تلك النصوص التى تمكن من العثور عليها، سواء كانت صالحة أو غير صالحة، فى روايات العصر الإسلامى، فكتب أن إبراهيم حلبى (وهكذا كان يجرى الخلط فى الأسماء وفى ترتيب الأحداث فجعل من إبراهيم بن الأغلب حاكماً فى ٨٢٧) أرسل إلى صقلية ٤٠,٠٠٠ محارب يقودهم قائد يدعى علقمة بناءً على استنجاد إوفيمو وتوسلاته. ويستطرد فازيللو أن علقمة بعد نزوله مازارا أشعل النار فى سفنه، واحتل سيلوننته التى أطلق عليها السراسنة فى لهجتهم بلاد البرغوث، وألقى ببعض المواطنين فى غلايات من النحاس ليكونوا عبرة تساعده على ردع الأهالى ردعاً فورياً والهيمنة على صقلية. واستسلمت له المدن الأخرى فى الحال، وشيد لنفسه حصن علقمة (ألكامو) باسمه تحسـباً لأى هجوم. وبالفعل ما أن استرد الصـقليون قواهم أسرعوا إلى حصاره: ولكنه قاومهم ببسالة، وفى النهاية أتى أسد بن الفرات على رأس قوات جديدة ليفك حصاره ويحرره ويتمم فتح صقلية. ويستشهد فازيللو فى رواية هذه الأحداث بالحوليات الإسلامية وليونى الأفريقى، ولكنه لا يذكر خلافاً لذلك من كتب وترجم ونشر تلك الحوليات(2).

(1) يبدو أن مارتورانا قد ساوره الشك فى الواقعة حيث لا يذكر أى شئ عنها فى النص، الفصل الثانى، المجلد الأول، ص ٣٠؛ ولكنه يشير إليها فى الهامش ٢٨، وفيه يستشهد بكل من ليون دى أوستيا وكوروبالاتا (چوڤانى سكيلتيزس) وقارن ونريش هذه الاستشهادات وصححها. فى الواقع قام بالغاء استشهاد سكيلتيزيس الذى ليس له محل هنا وأضاف فى المقام الأول شهادة إركمبرتو. ولكن لما وقف العلامة الألمانى فى منتصف الطريق وفق بين الترتيب الزمنى الخاطئ لليون ورواية إركمبرتو، وهكذا وقع هو الآخر فى خطأ مضاعفة الواقعة. الكتاب الأول، الفصل الرابع، §٥١.

(2) فازيللو، *Deca II*، الكتاب السادس، الفصل الأول.

وفى الحقيقة اقتبس فازيللو من ليونى غزوة علقمة(1) المزعومة. وليونى، كما هو معروف، نشأ وترعرع فى أوائل القرن السادس عشر. وُلد مسلماً فى غرناطة، ولما لجأ إلى فاس بعد فتح فرديناندو الكاثوليكى، درس وتجول كثيراً فى بلاد المسلمين، حتى أخذه القراصنة إلى جزيرة جربة (١٥١٧) وقدموه هبة، وكأنه زرافة، إلى البابا ليونى العاشر المشهود له بالثقافة والرفعة فأكرمه وأجزل له العطاء وعمده وأطلق عليه اسماه وهما يوحنا وليونى، ووجّهه ليتعلم لغتنا واللغة اللاتينية. وقام عالم غرناطة إذن بنقل ما كتبه من العربية إلى الإيطالية قدر استطاعته عن رحلاته فى أفريقيا ومصر وكتب باللاتينية تراجم لكثير من أطباء المسلمين وفلاسفتهم، وهى أعمال عظيمة، خاصة فى ذلك الزمان: إلا أن المؤلف، حينما لم تكن فى حوزته المخطوطات التى تلزمه، كان يلجأ إلى الذاكرة أو إلى ملاحظات مدونة فى مفكراته، وكان تذكر الأشياء التى رآها رؤى العين، لديه كما لدى أى انسان، أكثر ثباتاً من الأمور التى قرأها بالكتب. ومن هنا نجد أن ليونى صادق ودقيق فى وصفه الجغرافى، ولكن تعيبه الأخبار التاريخية(2) كما يعيبه الترتيب التاريخى: فضلاً عن أن نصوصه جُمعت ونُشرت عندما أصابته المدينة الخالدة روما والمسيحية بالملل، ولذا فقد عاد بين المسلمين، ولم يعد يسمع عنه أحد فى أوربا. ومن المحتمل أن ليونى عندما مزج بين الذكريات الواضحة والمزاعم والأفكار المشكوك فى صحتها، كما فعل فى روما وأيضاً فى باربارِيا عندما سمع اسم علقمة،

(1) هذه هى الكتابة الصحيحة بطريقتنا فى نسخ حروف الهجاء العربية.

(2) لاحظ م. رينو هذا فى النسخة الفرنسية من **جغرافية** أبى الفدا، المجلد الثانى، ص ١٧٩. وأضيف أنه بين أخطاء ليون الفادحة هنا خطأ يبرهن على أنه لم يكن يكتب فقط من الذاكرة ولكن ذاكرته كانت غير جيدة؛ فيذكر أن أحد الخلفاء الفاطميين فى مصر قد أرسل جوهر ليغزو *Barbaria*؛ وأنه لما تمرد حاكم هذا الإقليم فجر الخليفة القائم ثورة غرب مصر على هذا الإقليم، ولعلنا إذن نقول الشئ نفسه بأن جوستنيان أرسل من روما بليزاريو ليحتل القسطنطينية وأنه قد تم سلب روما ونهبها من أناس باستاردو باربون بأمر فيليب البيللو.

وهى مدينة مسـلمة فى صقلية، تعرف بسهولة على أصلها فى اسم علم استخدمه العرب القدماء، ولما افترض أن مؤسسها رجل ذائع الشهرة عاش فى السنوات الأولى للفتح الإسلامى، قرنه صواباً أو خطأ باسم أسد وهو الاسم الوحيد الذى كان يتذكره جيداً بكل تأكيد عندما فكر فى السطور القليلة التى قرأها مصادفة عن فتح صقلية. ويكفى لتأكيد أنه كان يعرف النذر القليل عن وقائع صقلية أن نراجع الفقرة التى يعالج فيها هذه الوقائع بطريقة عرضية ويتحدث عن القيروان والأغالبة(1)، حيث يذكرهم بوصفهم معاصرين لفتح صقلية ولتأسيس رقاده فى أفريقيا الذى جاء بعد ذلك بنصف قرن (٨٧٧). وبمثل هذا الخطأ التاريخى خلط بين الكونت روجيرو والملك الذى يدعى بالاسم نفسه، وبين استعادة الجزيرة من المسلمين وفترة الازدهار التى كتب فيها الإدريسى الجغرافيا فى بالرمو(2).

وعبثاً بحثت عن المصدر الذى قرأ فيه فازيللو رسو السفن فى سيلوننت وحرق المراكب والتعذيب الجسدى الغريب لأهلها، ولا أعرف كيف اعتبرها أحداثاً حقيقية حيث لم نقرأ تلك الخرافات الساذجة عند ليونى، وتبدو لى الحوليات الإسلامية التى يستشهد بها فازيللو باعتبارها مصدراً ثانوياً نصوصاً غير منشورة، أو ربما لم يرها هو

(1) ها هى فقرة من كتاب ليون فى الجغرافيا، روما فى العاشر من مارس ١٢٥٦ والتى أنسخها من طبعة راموسيو، المجلد الأول، ص ٦٩ الوجه الثانى. تقول إن القيروان خلال حكم أسرة الأغالبة نما شعبها واتسعت مساحتها ويضيف ليون أن سيد البلاد «أمر ببناء مدينة أخرى قريبة وأطلق عليها اسم رقاده، وكان يقيم فيها هو وكبار رجال البلاط. فى تلك الفترة استولت جيوشه التى أرسلها عن طريق البحر بقيادة قائد يدعى علقمة على صقلية، وفيها أنشأ مدينة صغيرة لتكون حصناً وتأميناً لشخصه وأطلق عليها اسمه ولاتزال حتى اليوم يطلق عليها الصقليون علقمة. وفيما بعد قامت الجيوش التى وفدت لمؤازة صقلية بمحاصرة مدينة علقمة هذه، وحينئذ أرسل سيد القيروان جيشاً آخر أكبر وعلى راسه قائد جسور يدعى أسد عمل على إنعاش علقمة، وتعاضد الجميع معاً واحتلوا باقى الأراضى». ولا يقول ليون عن ذلك شيئاً آخر.

(2) راجع خبر الترجمة الذى يقوله ليون الأفريقى عن الشريف الصقلى *Essachali* كما يسميه الإدريسى، لدى فابريشو، *Biblioteca Græca*، المجلد الثالث عشر، ص ٢٧٨.

نفسه أبداً ولم يقرنها إلا بأقوال الآخرين. وإضافة إلى ذلك أشتم رائحـة انتحال اسـم بلاد البرغوث هذا من جـانب أحد اليهود المستشرقين، أى واحد من أولئك الذين لعبوا فى القرن الخامس عشر بعقول علماء آثار بالرمو عندما روجوا أن آيات القرآن وأسماء الأعلام التى كانت تقرأ على بعض القلاع فى عاصمة صقلية هى كتابات كلدانية حفرت على الحجر بعد الطوفان بقليل. لأن بلاد البرغوث تعنى بالعربية حقاً «أرض البراغيث»؛ ولكن هذا الاسم القبيح كان حديثاً، وكان تشويهاً لبوللوتشى، وهو الاسم الذى يطلقه الآن المثقفون على إحدى القلاع القريبة من أطلال سيلينونت، أو بالأحرى بلجه، وهى كلمة عربية، أو بليش، وهو اسم رافد صغير من روافد الفرات(1): ومن أحدهما أطلق العرب اسم بلچه على إحدى القلاع المتهدمة الآن، وعلى جـدول يجرى بالقرب من هناك ظل محتفظاً باسم بليتشى. على أية حال فإن القرية التى ظلت حتى أواخر القرن الثانى عشر على الأقل فى موقع سيلينونت كانت تسمى، كما نقرأ فى الإدريسى، رحل الأصنام، أى قرية الأصنام التى ليس لها أثر بين حطام تلك المعابد الهائلة المسماة بيلييرى دى چيجانتى أو «أعمدة العمالقة». ومن هنا يبدو لى واضحاً أن مزيف القرن الخامس عشر أو السادس عشر قد ترجم إلى العربية الاسم العامى الذى يعرفه عن هذا المكان، وأضاف عليه حرق سفن أسطول المسلمين والغلايات من النحاس ليغلى فيها أهل سيلينونت، وجرّع الخرافة لفازيللو الذى تجرعها، كما تجرع خرافات العمالقة سكان صقلية الأوائل، والكتابات الكلدانية فى بالرمو، وأشياء كثيرة أخرى مقدسة ومدنسة. ولم يكن الخطأ هو خطأ كاتب نبيل وبارع عندما لم تكن هناك معرفة وهو على قيد الحياة بعلم الإحاثه (البلنتولوچى) ولا بالتشريح المقارن، حتى إن عظام الأفيال والخراتيت المتحجرة كانت تبدو بقايا رفات بوليفيمو ونيمبروتى؛ إذ

(1) *Belgia* فى اللغة العربية تعنى الفسق سواء الصباحى أو المسائى. وحول الأسماء الجغرافية التى أشير إليها راجع الباب الأول من الكتاب الثالث.

كان قليلون أو لا أحد فى أوربا يستطيع فى ذلك الوقت التعرف على الحروف الكوفية، وإذ كانت تلك المواد التاريخية المكتوبة باليونانية والعربية كانت دفينة، فهى الآن فى متناول الجميع، وإذ لم يتسن أن ينشأ نقد التاريخ فى صقلية، تحت النير الأسبانى وبين محارق البابوية.

الكتاب الثانى

الفصل الأول

فتحت صقلية للمسلمين إثر تمرد أو انقلاب عسكرى تنوعت الروايات فى أصل وقوعه(1).

وعندما نستعرض الرواة المؤرخين، ونبدأ بالإيطاليين، نجد أقدمهم يوحنا شماس نابولى الذى عاش فى النصف الثانى من القرن التاسع، عندما كانت تسود المودة والألفة بين جماعة المسلمين فى صقلية وجمهورية نابولى. وحرر يوحنا تاريخ أساقفة نابولى بعد خمسين عاماً على الحدث العظيم الذى كان قد فصل صقلية عن الإمبراطورية: ومن هنا إذا اتفق النقاد عن طيب خاطر على صدق روايته أحداث الفترة التى عاشها، فنحن أيضاً ندين له بذلك(2). وبعد رواية مؤامرة القصر التى أنقذت ميكيلى الألثغ من التعذيب الجسدى ورفعته إلى العرش (٢٦ ديسمبر ٨٢٠) يكتب شماس نابولى كيف أنه فور تحرير ميكيلى، قام أهل سيراكوزا إثر تحريض إوثيميو لهم على التمرد والعصيان بقتل أميرهم جريجورا. وهنا أرسل الإمبراطور جيشاً قوياً ألحق الهزيمة بأهل سيراكوزا وكسرهم وعاد إوثيميو الذى كان قد فر إلى

---

(1) هذان السطران ومعرض الشهادات التاريخية كانت قد كتبت عندما نشر فى عام ١٨٤٥، عمل ونرش، حيث توجد (الكتاب الأول، الفصل الرابع § ٥٢) جملة تبدو للوهلة الأولى مختلفة قليلاً، وطريقة دراسة وتمحيص مماثلة لطريقتى، ولو بوقائع ونتائج أخرى. ولأنه لم تجر العادة على السطو على أعمال الآخرين، فيكفينى إخطار القارئ وأترك صيغة ما كتبت كما كانت.

(2) انظر مقدمة موراتورى، *Rerum Italicarum Scriptores*، المجلد الأول، الجزء الثانى، من ص ٢٨٧ إلى ٢٨٩. ويبدو أن الرواية التاريخية تمت كتابتها حوالى عام ٨٧٢، ويشير المؤلف إليها باعتبارها عملا شبابيا فى كتيبات أخرى أقل أهمية إلى حد بعيد املاها فى حوالى عام ٩٠٢.

افريقيا مع زوجته وأولاده إلى صقلية مع أسطول من السراسنة يقوده أركاريو(1) زعيمهم (٨٢٧)؛ وجابت الفرقة الجزيرة وحاصرت سيراكوزا وأجبرتها على دفع إتاوة، وأخيراً فى عام (٨٣١) كانت لها السيادة على إقليم بالرمو. وبعد رواية بعض التفاصيل عن هذه الطائفة الأخيرة، يشير يوحنا، عند استئنافه خيط الأحداث التى كانت تقع فى القسطنطينية وفى البر الإيطالى، إلى حرب توماسو دى كبدوكية الأهلية (٨٢١ ـ ٨٢٤)؛ ولا يعاود الحديث عن مسلمى صقلية إلا عندما بدأوا التدخل فى خلافات شبه الجزيرة الإيطالية. ومن مجمل ما رويته والتواريخ المؤكدة التى أضفتها بين الأقواس، يدرك أى شخص أن يوحنا شماس نابولى قد ذكر تلك القضايا الخاصة بصقلية على أنها أحداث وقعت فى السنة التى بدأت فيها، وهذا من وجهة نظره يعود إلى عام ثمانمائة وواحد وعشرين(2).

وعاش كاتبنا الثانى الذى أشار إلى الحدث بعد ذلك بخمسين عاماً، قرابة نهاية القرن العاشر، وهو غير معروف، ولكن يسود الظن أنه كان من سالرنو، وربما كان راهباً من أصل لونجباردى. وكان هذا الكاتب معتاداً أن يمزج أموراً مختلفة، كما لاحظ موراتورى؛ ويورد فى الحوليات القصص التى كانت تروى فى ذلك العصر وينسب إلى شخصيات التاريخ أقوال وأحكام من صنع يده. ومع هذا كنا سنتجاهله، لو لم نعثر فى روايته على آثار بعض التفاصيل التى لدينا من مؤلفين آخرين جديرين بالثقة ومن المؤكد أنه لم يقرأهم. ودون أن يخفى كراهيته للبيزنطيين فى لغة كتاباته، يروى لنا مجهول سالرنو كيف أن يونانياً قليل الشأن، كما يقول هو، وكان يحكم صقلية، وجه إهانة قاتلة لإوفيمو الصقلى البالغ الثراء، وانتزع الحاكم الذى أفسده المال من إوفيمو انتزاعاً خطيبته أومونزيا ، وهى فتـــاة ذات جمـــال نادر، وسلمها لغريم له. فأبحر

(1) القاضى: هو القاضى أسد بن الفرات.

(2) الشماس يوهانس *Chronicon* إلخ، لدى موراتورى، *Rerum Italicarum Scriptores*، المجلد الأول، الجزء الثانى، ص ٣١٣.

إوفميو فى محاولة للثأر إلى أفريقيا مع عبيده، وراح يعرض السيادة على صقلية على ذلك الملك البربرى؛ ورده الملك إلى الجزيرة بصحبة أحد الجيوش بعد أن غمره بالعطايا والهبات. وهكذا دخل الحبيب المهان كتانيا بقوة السلاح وأجري فيها مذبحة كبيرة وقتل الحاكم من بين من قتل. ويروى مؤرخ سالرنو المجهول الكثير دون الاسناد بتاريخ؛ ولكنه يعمد إلى تصوير آلام إوفميو وتهديداته تصويرا بلاغيا(1).

وحادثة الحب هذه، التى تروى بشكل عكسى، فتصور إوفميو جانياً بدلاً من أن يكون مجنياً عليه، تعد تقريباً الرواية الوحيدة التى خلفها لنا البيزنطيون عن حرب صقلية. ويتمثل المصدر الأول لهم فى الرواية الخاصة والمعاصرة فى *Teognosto*: وهو عمل مفقود اليوم(2). وتحيل فى الواقع إلى تيونيوستو *Teognosto* للحصول على تقرير أوفى عن موضوع صقلية الرواية الرئيسة بين الروايات البيزنطية، والتى يمكن أن تكون مرجعاً لتلك الفترة، ألا وهى الكرونوجرافيا المعروفة بكرونوجرافية الامبراطـور قسطنطين بروفيروچنيتو، التى أمر بكتابتها وقام هو نفسه بترتيبها والتعقيب عليها، وتم وضعها فى بداية «تتمة تيوفانى»(3). ومن هذه الرواية التى لها تاريخ مؤكد فى منتصف القرن

(1) *Anonymi Salernitani, Paralipomena*، لدى موراتورى *Rerum Italicarum Scriptores*. المجلد الثانى، الجزء الثانى، الفصل ٤٥، ص ١٦٣ وما بعدها؛ ولدى براتيللو، المجلد الثانى، الفصل ٥١، ص ١١٩ (لأنه يغير أرقام الفصول)، والأفضل لدى برتز، *Scriptores*. المجلد الثالث، الفصل ٦٠، ص ٤٩٨. وعن المؤلف انظر مقدمات موراتورى وبيرتز. ويعتقد موراتورى أن اسمه أردريكو *Arderico*.

(2) نفس الروايات البيزنطية تشير إلى *Teognosto* باعتباره مؤلفا للقواعد اللغوية: والمؤلَّف الوحيد الذى تبقى لنا عنه، Θεογνοστου κανονες ، لدى كرامر، *Anecdota Græca*، المجلد الثانى، أوكسفورد ١٨٣٥.

(3) *Theophanes Continuatus* ص ٣ فى نهاية العنوان. فى ص ٨١§٢٦ نقرأ عن ميكيلى البالبو فى نهاية مغامرة أوريفا فى كريت: «وترك لنا معضلة تحرير الجزيرة من سلالة هاجر. ونسلم الأمر لله: ولكن كان علينا أيضاً أن نتدبر الأمر؛ وليلاً ونهاراً كانت أرواحنا مهمومة بهذا الشأن». هذه الكلمات لا يمكن أن تملى إلا من الامبراطور.

العاشـــر، انتزعوا واقعة شدرينو مؤلف القرن الثـــانى عشر الذى حـــور فيهـــا بعض الجمل تحويراً طفيفاً، وكذلك زونارا الذى لخصها فى القرن الثـــانى عشر، ناهيك عن كوربالاتا چوڤـــانى سكليتز *Curopalata Giovanni Scylitzes* الذى نقل، كما يعلم الجميع، حرفياً عن شدرينو دون أن يذكر اسمه. ولهذا فلن نقول خلافاً لذلك عن شهادة مثل هؤلاء الناسخين، ولكن نود الإشـــارة إلى أحد محررى الموجز فى القرن العاشر، أى المعلم سيمونى (وكان هذا أحد مناصب البلاط)(1)، والذى يبدو أنه قد وقـــع بين يديه تاريخ تيونيوستو *Teognosto* أو ذكريات أخـــرى، حيث إنه ينأى بعيداً عن الصياغة الإمبراطورية. ويقول الراوى إنه بينمـــا كان ميكيلى البالبو يعانى العذاب فى الحرب المدنية التى خاضـــها توماســـو دى كبدوكية، احتل الأفارقة والعرب كريت وصقلية وشيكلادى، وهى مناطق خرجت «منذ قليل» من تحت الحكم البيزنطي بسبب أخطاء الشعوب وظلم الأمراء(2). وعندئذ حدث أن قال ميكيلى بجدية لإرنيو معلم القصر «أهنئك؛ لقد تمردت صقلية»!، ورد عليه المعلم «تهنئة غريبة هذه ياسيدى»، ولمـــا توجه إلى أحد رجال البلاط همس فى أذنه ثلاث أبيات من الشعر: «ها هى الكارثة الأولى التى كان يجب أن تقـــع، اســـتولى على الدولة وحش بابل المتلعثم والمتيم بالذهب»(3). ويروى سيمونى بعد هذا أول نزول للمسلمين فى كريت (٨٢٢م؟).

وتذكر الكتـابات الإمبراطوريـة، دون الإشـــارة إلى تاريخ محدد،

(1) راجع دوكانجى، *Glossarium mediœ et infimœ latinitatis*، فى مادة *Magister*، و*Glossarium mediœ et infimœ grœcitatis* مادة **Μαγίστερ.**

(2) **λαβόντος ἀρχὴν ἄρτι πρῶτον διὰ τὰς τοῦ λαοῦ ἁμαρτίας. κ. τ. λ.** .....

(3) سيمون ماچستير فى كتاب *Theophanes Continuatus*، ص ٦٢١ و٦٢٢§ الثالثة، من حكم ميكيلى البالبو. وحول المؤلف أنظر فابريشوس *Bibliotheca Græca*، المجلد السابع، الكتاب الخامس، الفصل الأول، § العاشرة.

تزامناً مختلفاً لحادث صقلية، حيث تسوقه مع مغامرة أوريفا فى الأرخبيل (٨٢٥م؟). «بين هذه الأحداث، يقول النص، إن إوفميو حاشد الميليشيات(1) فى صقلية، إذ عشق فتاة كانت تعيش فى الدير وترتدى منذ وقت بعيد مسوح الراهبات، كان يحاول منذ وقت طويل إقناعها بحبه والزواج منه: لأن المثال على ذلك لم يكن بعيداً، وما كان ليبدو غير مباح أو قبيح، فالإمبراطور ميكيلى نفسه كان قد فعل الشئ نفسه منذ فترة وجيزة. إلا أن إوفميو ما إن اختطف عذراء الدير حتى حملها رغماً عنها إلى بيته»(2)، ولجأ إخوتها إلى الإمبراطور؛ الذى أمر قائد صقلية العسكرى بأن يكسر أنف المختطف طبقاً لنص القوانين الحاسمة متى تحقق من الجرم(3). ولكن إوفميو ما إن علم بالخطر المحدق

(1) **Τουρμάρχης τελῶν. Τέλος** والتى ترجمتها ميليشيات، هى كلمة عامة ومبهمة. وليست هكذا رتبة حاشد التى تطـــابق فى النظم العســـكرية اليـــوم لواء. كان يقود لواءً أو **μέρος**، مؤلفاً من ثلاث *drungœ* أو **μοῖραι**، كل واحدة منها تقريباً مثل كتائبنا كانت تتراوح بين ألف وألفى فرد. ويعلو الحاشد القائد الأعلى أو القائد الإستراتيچى: وتحته كان *i drungari* أو قادة الألف رجـــل. انظـــر الإمبراطور ليـــون، الشهير بالعلامة *Tattica*، الفصـــل الرابـــع من النص اليونانى، وفى نســـخة ميزروا الفرنســـية ص ٣٣. وأنظر أيضاً دوكانجى *Ducange* فى *Glossarium mediœ et infimœ grœcitatis*، الكلمات **τουρμάρχης, τοῦρμα, μοῖραι.** فى عصر ليونى كان قائد الألف والحاشد لقبي قواد الفرق العسكرية الصغيرة الإقليمية، وليس فى أسطول الإمبراطورية البحرية؛ المرجع السابق، ترجمة ميزروا، ص ١٤٦. وينسب شدرينو *Cedreno* إلى إوفميو اللقب المبهم **Ἐξηγούμενος.**

(2) النسخة أو النص اللاتينى للأب كومبفيس *Combefis*، والمعاد طبعها فى طبعة نيبور لا تتسم بالدقة فى هذا الموضوع ولا فى أماكن أخرى كثيرة. وتواتينى الجرأة فى تصويبها مستعيناً برأى م. هاس السديد والذى تفضل، بما هو معروف عنه من قدر ومعرفة وعلم بمراجعة الترجمة التى كتبتها والتعقيب عليها.

(3) فى الواقع يوجد تهديد بهذا التعذيب الجسدى فى *Basiliche* **Βασιλικῶν**، الكتاب الستون، العنوان الســـابع والثلاثون، الفصـــول الواحد والســـبعون والرابع والسبعون والخامس والسبعون، وفى *Liber Leonis et Constatini AA*، العنوان الثامن والعشرون، الفصول العاشر والحادى عشر والثانى عشر، ليس فقط لغواة الراهبات، ولكن لمن يقترف الرذيلة مع خطيبة آخر أو يتزوج من شبينته. ومن هنا نرى التشويش الذى كان يسوقه الهوس الدينى فى الأخلاق وكيف أنه بين ذلك الهوس وحكم الطغاه كان يفسد القانون الرومانى.

به حتى راح يحيك مؤامرة بمعاونة جنوده وقادة فرق أخرى رفقاء له(1). ولما فر من القائد العسكرى الذى كان يتوجه لعقابه، لجأ إلى أمير المؤمنين(2) فى أفريقيا ووعده بإعطائه صقلية وبأن يدفع له جزية كبيرة إذا خول له أن يطلق عليه لقب إمبراطور وأن يحمل شارته وساعده بالرجال. وقبل الأمير البربرى الصفقة وكانت له السيادة على الجزيرة ليس فقط بفضل إوفميو ولكن أيضاً بفضل الآخرين الذين تعاونوا معه فى التمرد.

وعندما قفز فى روايته، كما يستطيع أن يدرك كل واحد ذلك، إلى اقتحام المسلمين لصقلية، يخرج راوى البلاط من المشكلة مشيراً إلى تيونيوستو ولا يتوقف إلا ليحكى حادثا مأساويا آخر: ألا وهو مقتل إوفميو(3)، وعند حديثه عن قائد صقلية العسكرى فى تلك الفترة لم يشر إلى اسمه؛ ولكنه فيما قبل وفى روايته حرب كريت كان قد قال أن ميكيلى البالبو عهد بحكم صقلية إلى فوتينو حامل سيف الإمبراطور وقائد الشرق لكى يخفف عنه الكارثة التى صادفها فى تلك الجزيرة الأخرى(٨٢٥) حيث كان قد أرسل مع جيش ضخم لقتال المسلمين ومُنى رجاله بهزيمة ثقيلة وتمكن هو من الفرار(4)، كما يبدو، دون قتال. وفوتينو هذا كان الجد الأكبر للإمبراطورة زويه، أم بروفيروچنيتو. وهذا يفسر لماذا تحمل المذكرات الإمبراطورية كثيراً على إوفميو، ولا تشير بكلمة إلى حالات التمرد التى بدى فيها فوتينو تعيساً ونذلاً وجباناً كما كان فى كريت.

(1) Συντουρμαρχῶν. هذه الكلمة التى نقلت خطأ أو فهمت خطأ فى نموذج كوروبالاتا، Curopalata (Giovanni Scylitzes) الذى كان بين يديه كتاب فازيللو Fazzello، هذه الكلمة جعلته يكتب أن أوفيمو كان قد أسدى له النصح من Scythamarchi.

(2) لما افترض المؤلف وجود خليفة فى أفريقيا وأخطأ لقب أمير المؤمنين فقد أطلق عليه αμεραμνουνῆς. كتبت هذا اللقب طبقاً للخطأ المهذب الذى اقترفه قدماؤنا.

(3) Theophanes Continuatus. الكتاب الثانى، الفصل ٢٧، ص ٨١ و٨٢.

(4) المرجع السابق، الكتاب الثانى، الفصل ٢٢، ص ٧٦ و٧٧.

وعندما نأتى إلى روايات المسلمين وآثارهم، والتى لها ملامح أكثر أصالة، علينا أن نذكر أننا حصلنا عليها من ثلاثة كتاب: ابن الأثير الذى عاش بين القرنين الثانى عشر والثالث عشر؛ والنويرى فى القرن الثالث عشر والرابع عشر؛ وابن خلدون فى نهاية القرن الرابع عشر نفسه: والذين تكلمت عنهم بما فيه الكفاية فى المقدمة. واستقوا أحداث فتح صقلية من مصدر واحد، مجهول لنا؛ إلا أنه بمقدورنا أن نفترض أنها كانت مدونة كتبت فى صقلية أو فى شمال أفريقيا فى القرن الحادى عشر، بناءً على مذكرات مكتوبة وقت وقوع الأحداث، كما كانت عادة الشعوب المسلمة فى ذلك الوقت. ومن الواضح أن ابن الأثير والنويرى قد اختصرا كلاهما تلك الرواية التاريخية، حيث يصنفان الوقائع الأساسية بالترتيب نفسه، وأحياناً بالكلمات نفسها، وأما عن التفصيلات فأحدهما ينتقى تفصيلات والآخر ينتقى غيرها، طبقاً لمنطقه ورؤيته: ويفسح ابن الأثير المجال كثيراً للأمور العسكرية والسياسية بينما نجد النوادر عند النويرى. أما ابن خلدون فيختصر فى هذا الفصل ابن الأثير دون أن يضيف عليه أى جديد.

واصطبغت رواية المسلمين بالصبغة التالية. فى عام مائتين وواحد من الهجرة(٨١٦ ـ ٨١٧) طبقاً للنويرى، ومائتين وأحد عشر (٨٢٦ـ٨٢٧) طبقاً لابن الأثير، عيّن ملك الروم لحكم صقلية الشريف قسطنطين(1)

(1) على هذا النحو بوضوح فى مخطوطات ابن الأثير وابن خلدون دون حركات. وفى مخطوطتى النويرى نجد الأحدث منهما (مكتبة باريس، Ancien Fonds، ٧٠٢ A) يلغى كالعادة الحركات ويكتب أيضاً K s n Tin؛ أما المخطوطة الأخرى (Ancien Fonds، ٧٠٢) وهى مخطوطة أصلية بخط المؤلف، أو منقولة من مخطوطة أصلية أخرى كتبت ذات مرة F s n Tin وثلاث مرات تترك الحرف الأول دون نقاط، وهكذا يمكن قراءته F أو K، ويتبعه بأربعة حروف أخرى ـ s Tin، أو بخمسة حروف ـ s n Tin. ومن طريقة كتابة F s Tin يفترض تماماً أنها نقلت من اسم F oTino؛ إلا أن حرف S، وهو هنا زائد، غالباً ما يحدث بشأنه تصحيف فى المخطوطات بجرة قلم أفقية للربط بين حرفين آخرين. وهناك أمثلة لا حصر لها فى المخطوطات وأخرى كثيرة فى نقوش شواهد القبور، وفى الكتابات المطرزة على الرايات أو البارزة على المعادن.

الملقب بالسودا Suda(1) وهى كلمة من أصل لاتينى، انتقلت إلى الإغريقية فى العصور المتأخرة، والتى تعنى خندقاً، وهى فى كريت اسم جغرافى كان معروفاً، كما يبدو، فى حروب المسلمين. فبعد أن قام ترينشيا بتنصيب إوفميو قائداً على جنود الأسطول، وهو رجل من الروم، جسور ومقدام، وقائد جماعة مسلحة، ومن أشراف الصقليين(2) راح إوفميو يهاجم الساحل الأفريقى؛ وأخذ منه تجاراً وحصل على غنائم وقطع مسافات وأوقات طويلة فى اجتياح تلك البحـار. وبعد ذلك علم أن الأمير أرسل لشريف الجزيرة بأن يرفع منه القيادة ويعاقبه على ذنب ألصق به: وعندما أذاع هذا على رفاقه فى السلاح حثهم على إعلان التمرد معه. ومن هنا عندما رسا الأسطول العسكرى فى سيراكوزا اشتبك مع رجال قسطنطين فهزمه؛ وطاردته إحدى الجماعات حتى كتانيا وأسرته وقتلته؛ وتم الهتاف لإوفميو إمبراطوراً. واستدعى لحكم أحد الأقاليم أحد رجاله من المحاربين، بربرياً، يقـال إنـه من الأمـة الألمـانية، وربما أرمنى(3)، واسمه

---

(1) دوكانجى، *Glossarium mediœ et infimœ grœcitatis*، يشرح كلمة *fossa sudibus munita* Σοῦδα ، أى خندق بمتاريس. وفى كريت يطلق اسم *Suda* على المكان الذى أقام فيه المسلمون أول معسكر لهم. ومن ,χάραξ التى تعنى الشئ نفسه فى اليونانية القديمة، سُمِّى نتوء جبلى داخل البحر قريب من هناك. وأطلق المسلمون على معسكرهم الذى صار عاصمة لهم خندقا والذى يعنى الشئ نفسه.

(2) هذه الجملة الأخيرة قالها النويرى فقط. م. كوسين دى برسيڤال الأب الذى ترجمها إلى الفرنسية، ودى جريجوريو الذى أعاد ترجمتها إلى اللاتينية، وقد جعلا هذه الكلمات *un des principaux patrices ed ex prœcipuis inter patricios.* ولكن كلمة النص *Mokaddem* تعنى بالضبط «موضوع أمام كل الآخرين» وبناءً عليه «قائد، رئيس فرقة». وتقول الكلمة التالية «لأشرافه» ويشير اسم الموصول إلى قسطنطين. عموماً يبدو لى أنه يقصد هنا بالتأكيد الأشراف الصقليين. ويلزم أن أنبه إلى أن البناء النحوى للنص يفسح المجال لبعض الشك إذا ما كان المقصود هو إوفميو قائد الجماعة المسلحة، أو أنه واحد من قواد الجماعات المسلحة.

(3) هذا مأخوذ عن النويرى. وقال كوسين فى الهامش إنه أحياناً كان الكتاب العرب يقصدون باسم الألمان الإيطاليين؛ وأرفق مثالاً على ذلك فقرة من أبى الفرج، وهو مؤلف من القرن الثالث عشر. ولم يكن دى جريجوريو فى حاجة لشئ آخر حتي يترجم دون تردد *quemdam ad Italia oriundum*. ولكن لا يمكن قبول هذا التفسير أو الترجمة. فعادة

بلاتا(1). ابن عم شخص اسمه ميكيلى كان يحكم مدينة بالرمو؛ ولكن القريبين ما إن جمعا قواتهما معاً حتى تخلّيا عن اســـم إوفميو وثارا عليـه وانتصرا عليه فى إحدى المعارك، وقتلا له ألف رجل ودخلا سيراكوزا، ووجد إوفميو نفســـه مضطراً للفرار إلى أفريقيـــا مع من تبقى لديه من رجـــال. هكذا يكتب الرواة المشـــار إليهم نقـــلا عن مصـــدر منقـــول عن مصدر آخر(2). ويقدم **رياض النفوس**، وهى مجموعة من تراجم لأفريقيين، مكتوبة كما قلنا فى المقدمة قرابة

ما يطلق الكتاب العرب على الإيطاليين الروم والذى يعنى أيضاً البيزنطيين، وأحياناً يطلقون علينا اسم *Ankabard*، وأحياناً الفرنجة *Franchi*؛ وهكذا يخلطون بيننا وبين مختلف أجناس المهيمنين. ولا يتكلم عن إيطاليا كجزء من ألمانيا إلا كتاب عصر الإمبراطور فردريكو الثانى مثل أبى الفرج، أو الأحدث منه مثل أبى الفدا. هذان الإثنان، إن لم يجانبنى الصواب، هما المؤلفان العربيان الوحيدان اللذان سقطا فى هذا اللبس، الذى لا يمكن افتراضه مطلقاً عند أحد كتاب القرن العاشر أو الحادى عشر، مثل ذلك المنقول عن النويرى. ومن جانب آخر من المحتمل جداً أن يكون بالمخطوطة خطأ؛ لدرجة أننى قد أقرأ فيها أرمنى وليس ألمانى. كما أن مرتزقة السلالة الجرمانية لم يكونوا قد بدءوا بعد القدوم إلى القسطنطينية. وعلى عكس ذلك كان الكثير من الأرمن فى الجيش البيزنطى. وفى النهاية فإن الحروف المكتوبة عند النويرى لن تكون صحيحة إذا قصد بها الألمان؛ ولكن عند إضافة حرف ر *r*، وهو حرف لا يتصل بحرف آخر وراءه فى الكتابة العربية ولذا من السهل أن يختفى، سنحصل على اسم أرمن.

والخطأ نفسه موجود فى مخطوطات النويرى، حيث يقول أتى إلى صقلية عام ٨٢٨ مع النبيل تيودوتو جيش، السواد الأعظم منه من الألمان. وهنا من الواضح أنه يجب قراءتها الأرمن. انظر الفصل الثالث من هذا الكتاب.

(1) إذ تنقص الحركات من هذا الاسم فى كل المخطوطات التى اطلعت عليها، نجد به فقط هـــذه الحـــروف *Blāth*. وأعتقد أنه يجب ألا يقـرأ *Platâh* كمـــا فعل م. كوسين ودى جريجوريو؛ ولأن العرب لا يبدأون المقاطع بحرفين ساكنين، فمن المؤكد أنهم عندما أرادوا نقل *Plata*، قد وضعوا أمامه ألف وأعطوا للكلمة الشكل *Iblatah*. وعلاوة على ذلك قد نخمن الاسم الحقيقى تخميناً خاطئا. وربما هو نقل غير دقيق للقب *Curopalata* أو *Palatino,* أو ما شابه ذلك. إن تغيير حرف *b* إلى *P* مقبول حيث لا تتضمن الأبجدية العربية الحرف الثانى.

(2) قارن ابن الأثير، المخطوطة *A* المجلد الأول، ورقة ١٢٢ الوجـــه الثانى؛ والمخطوطة *C* المجلد الرابع، الورقة ١٩١، الوجـــه الأول؛ النويرى، في كتـــــاب دى جريجوريو *Rerum Arabicarum* ص ٣ و٤، وترجمـــــة كوســـين، ص ١٠ و١١، وابن خـــلدون *Histoire de l'Afrique et de la Sicile*، ترجمة م. دى ڤرچيه، من ص ١٠٣ إلى ١٠٥.

نهاية القرن العاشر أو فى القرن الحادى عشر على أقصى تقدير، وتقوم على مذكرات مدونة فى القرن التاسع، يقدم الترابط مع الروايات المشار إليها، ويتضمن أسماء إوفميو وبلاتا، إلا أنه يستبعد ما يفترض من غارات إوفميو على الساحل الأفريقى، أو على الأقل يحمل على الاعتقاد أنها كانت موجهة ضد المسلمين فى أسبانيا(1).

والحكايات التى عرضناها الآن بالتفصيل، عندما يتم تحقيقها نقدياً، وبغض النظر عن التناقض فيما بينها، تتفق الواحدة مع الأخرى، بصورة أفضل مما يمكن توقعه فى مذكرات ذات أصل متباين وفى عصر ندرت فيه الكتابات التاريخية. ويتفق فى البداية كل المؤلفين على اسم بطل الثورة الصقلية: وإذا كان يوحنا الشماس يدعوه إوثيميو، فمن اليسير أن تختلط هذه الكلمة فى الكتابة مع إوفميو وخاصة فى النطق(2). وفضلاً عن هذا تتفق كل المذكرات حول تمرد إوفميو وهزيمته وفراره إلى أفريقيا: وراوى سالرنو المجهول الذى قد يبدو أقل جدارة بالصدق، يبرهن أيضاً على أنه قد وصلته معلومات دقيقة عندما يروى عن مقتل القائد العسكرى فى كتانيا، والذى عرفناه فقط من ابن الأثير وابن خلدون. وعن الزواج بالراهبة أو طالبة الرهبنة لا يبدو هناك شك، إلا أن هذا ينبغى أن يعد أمراً ثانوياً، بل حجة لاضطهاد إوفميو ومطاردته، نظراً لأن البلاط البيزنطى مثل أى حكومة طاغية ومتزمتة كان له مسلكان أخلاقيان: الأول، متسامح ورحب مع الأمراء والمتحمسين لهم، والثانى، صارم وغير متسامح يطبق عندما يتعلق الأمر بالحماس

(1) **رياض النفوس**، المخطوطة C، فى حياة أسد بن الفرات، المخطوطة ، الورقة ٢٨ الوجه الأول والثانى.

(2)(ἐλεύθεροι و μισθωτοί) اللذان ينطقان *Eufimios* و*Euthimios*، حيث إنه طوال العصور الوسطى والقديمة واليوم أيضاً كان اليونانيون ينطقون حرف *n* مثل حرف *V* و*l* مثل *i*؛ وهما الحرفان اللذان يتم الخلط بينهما فى معظم المخطوطات. والناسخون اليونانيون أيضاً اعتادوا كتابة هذين الإسمين الواحد بدل الآخر، كما نرى فى شدرينو، طبعة بون، المجلد الثانى، ص ٧٩٥.

الدينى والحسد والعداء السياسى. وكانت حركة إوفميو سياسية محضة كما يقول أقدم كاتبين إيطالى وبيزنطى، يوحنا الشماس وسيمون المعلم. ومن الصعب أن نحدد تماماً التاريخ. وهذان الكاتبان يشيران إلى عام ثمانمائة وواحد وعشرين، ويتطابق معه العام الهجرى الذى أشار إليه النويرى، والاحتمال الكبير أن قواد جيش صقلية قد ثاروا عندما أعلن توماسو دى كابادوتشا العصيان والتمرد فى الشرق وتحرك ضد القسطنطينية؛ كما أشاع القائد سيرچو من قبل الفوضى فى الجزيرة حين علم أن ليونى إزاوريكو محاصر من العرب فى العاصمة. وأن يكون التمرد فى صقلية قد دام خمس أو ست سنوات، قد يبدو هذا حقيقياً جداً حيث لم يكن لدى ميكيلى البالبو أبداً قوات لقمعه والقضاء عليه. إلا أننى اعتقد أنه يجب أن نفترض أنه تخلل تلك الحركة فترة هدنة اعترفت فيها صقلية بحكومة القسطنطينية، نظراً لأن العرب فى معلوماتهم المفصلة إلى حد بعيد والحقيقية يطلقون على القائد الذى قتله إوفميو اسماً ولقباً يتطابق تماماً مع فوتينو *Fotino*، الذى رقى إلى هذا المنصب حوالى عام ثمانمائة وست وعشرين، كما يستخلص من رواية برفيروچنيتو. ولا يختلف فى الحقيقة اسم قسطنطين فى الكتابة العربية كثيراً عن ذلك الاسم الآخر، وكما هو طبيعى جداً، كان يبدو بالأحرى أفضل تفسير للناسخين، وفى نفس الوقت يبدو أن لقب *Suda* قد ابتدع خصيصاً لفوتينو. وفى النهاية يبدو أن سلسلة الأحداث التى يتخطاها كاملة راوى البلاط تختص، كما لاحظت من قبل، بجد الإمبراطورة زويه *Zoe* الأكبر.

ويمكن أن نستخلص من كل هذا أن الحركة الصقلية شهدت فترتين: الأولى، من ارتقاء ميكيلى البالبو إلى انتخاب فوتينو، والثانية من مطاردة إوفميو إلى هروبه فى أفريقيا. وهاتان الفترتان القريبتان فيما بينهما قرباً شديداً اختلطتا، كما يحدث دوماً، فى فترة واحدة فى التراث الشفهى ولدى كتّاب موجز الأحداث: وفى تلك الفترة الواحدة ساد الاسم الذى ظل شائناً وهو اسم إوفميو، ويحدد بعضهم

زمنها بالبداية، أى فى عام ثمانمائة وواحد وعشرين، وبعضهم الآخر بالنهاية أى فى عام ثمانمائة وست وعشرين. ومن عام ثمانمائة وواحد وعشرين إلى عام ثمانمائة وخمس وعشرين ربما قتل القادة الذين كانوا حكاماً لصقلية أحد أوائل النبلاء جريجورا أو جريجوريو؛ وربما استغل إوفميو، مثل القادة الآخرين، حالات الهياج والاضطراب تلك، ولكنه لم يكن محركها الرئيس، وربما لم تتحول حالات الهياج ولم تصل إلى إعلان التمرد، أو أن ميكيلى البالبو عندما لم يتمكن من إخمادها بالجيش لجأ إلى إخمادها متظاهرا بالعفو. ولكن فوتينو عندما أرسل لإعادة الحياة الطبيعية إلى صقلية حيث كان مفضلاً لدى الإمبراطور ومحتقراً من الجنود لتعجرفه ونذالته، وعندما ود أن يكفر عن هروب كريت بمغامرة بوليسية كبيرة فى صقلية راح يعمل على قتل القادة الأكثر جرأة، وكان يأتى بينهم فى المقام الأول إوفميو. وبدلاً من البحث عن المجرم، حيث لم يكن من المستطاع القيام بهذا العمل بأمانة دون مخاطرة، وجد تدنيساً صريحاً أو غير أكيد؛ فوجد أخوة العروس، وطغاة محليين يائسين، أو مواطنين مسالمين يستبد به رجل عسكرى يستحل كل شئ، وعلى هذا النحو وتحت رداء الأخلاق والدين راح فوتينو يكسر أول عصا فى الحزمة. بيد أن المتهم كان على أهبة الاستعداد بالسلاح؛ وأدرك القادة الآخرون الطريقة الفجة للقائد العسكرى ورأوا أن الخطر المحدق بهم هو إوفميو: ومن هنا أشعلوا فى الحال الثورة. وأتصور سير الأحداث على هذا النحو. وأضع الثورة العسكرية ضد فوتينو فى عام ثمانمائة وست وعشرين. إن هزيمة وموت فوتينو وإرتقاء إوفميو العابر وثورة قائدين آخرين عليه، والقتال الجديد فى سيراكوزا الذى اضطر أثناءه إلى الهرب، هى أحداث يجب أن نصدقها بكل تفصيلاتها كما يحكيها العرب، ونضعها فى العام نفسه ثمانمائة وست وعشرين. أود فقط أن أضيف أن إوفميو الذى قال عنه ابن الأثير أنه قائد جنود فرقة عسكرية بحرية وقال كل العرب إنه محارب على سواحل أفريقيا،

كانت تسانده الميليشيات الصقلية التى كانت تؤلف جنود أسطول الجزيرة؛ نظراً لأنه بسبب أحداث القسطنطينية وكريت لا يفترض أن يكون أسطول الإمبراطورية قد أبحر إلى صقلية. وثار جنود آخرون من الحامية من الأجانب والمرتزقة مع إوفميو بكل تأكيد، ولم تستمر ثورتهم كثيراً لأن قادتهم وعلى رأسهم ابنا العمين الألمانيان أو الأرمنيان عندما لم يبد لهما أنهم قد كسبا الكثير، وربما لفسادهما بذهب الإمبراطورية، انقلبا ضد السيد الجديد، وهتفا باسم ميكيلى البالبو. وحالف الخائنين النصر، ومع ذلك ظل لإوفميو كثير من الاتباع بين الصقليين، كما تقول ذلك صراحة رواية بروفيروچنيتو، وكما سنرى أيضاً من رواية العرب. ومن هنا يتضح أن العنصرين اللذين نشأت عنهما الحركة العسكرية فى عام ثمانمائة وست وعشرين قد انفصلا بسرعة. وسلاح المرتزقة مثل حجر يقذف لأعلى سقط فوق مركز الجاذبية أو الهيبة المتمثل فى الحكم الطاغى فى القسطنطينية. وحاولت ميليشيات صقلية الانفصال عن الإمبراطورية اليونانية، مثلما فعلت ذلك ميليشيات إيطاليا الوسطى قبل قرن من الزمان، ولكن حين تم قمعها من قوات أكثر تنظيماً ولم تجد دعماً لها نظراً للانهيار والتفكك فى المجتمع المدنى، دفعهم اليأس إلى أسوأ صفقه: استدعوا أحد ألغرباء الأقوياء، وهكذا أسرعوا بالقضاء على الأمة اليونانية ـ الصقلية، التى كانت تتدهور وتتآكل منذ ألف سنة بعد دخول مارشيللو إلى سيراكوزا.

الفصل الثانى

فى هذا الوقت كانت الحرب الأهلية فى دولة الأغالبة تكاد تهدأ، ولم تكن قد خمدت تماماً فى تونس الميناء الرئيس لتلك الدولة، ولكن حالة الإثارة هذه، بدلاً من أن تنتهى بالوهن والاستسلام كما حدث فى صقلية، كانت قد ضاعفت من نشاط المستعمرة الشابة. ومن بين الرجال العظماء الذين أفرزتهم الدولة الإسلامية فى أوجها كان يشار حينئذ إلى أبى عبدالله أسد بن الفرات بن سنان، قاضى العاصمة، وكان شيخاً فى السبعين من عمره. وهو وافد من نيسابور فى خراسان، ولكنه من أصل أجنبى، وكانت له معاملات مع قبيلة بنى سليم العربية؛ كان قد ولد فى عام مائة واثنين وأربعين (٧٥٩ ـ ٦٠) فى حران فى بلاد ما بين النهرين؛ وحينما حضر أبوه مع جيش الخراسانيين لغزو أفريقيا، اصطحبه معه وهو طفل يبلغ من العمر عامين إلى القيروان. ولما أقام فى تلك المدينة، ثم انتقل منها إلى تونس وصار مستوطناً وربما مالكاً، تمكن فرات من أن يوفر لابنه التربية المكلفة التى تؤهله لأن يكون فقيهاً فى الشريعة. فبعد أن درس أسد القرآن فى أفريقيا، عاود الرحيل فى الثامنة عشرة من عمره إلى شبه الجزيرة العربية، واستمع فى المدينة لدروس مالك ابن أنس، المشهور بين أئمة الإسلام؛ ولما مات الإمام، انتقل إلى العراق لدى تلاميذ أبى حنيفة، وأتم بعد ذلك دراساته على يد ابن قاسم، ألمع تلاميذ مدرسة مالك فى مصر(1).

ولما تشبع عقله بفكر فقهاء الشرق الراقى عاد أسد إلى القيروان فى عام سبعمائة وسبعة وتسعين، وفتح مدرسة للشريعة كان يقرأ

(1) **رياض النفوس**، المخطوطة، ورقة ٢٦ الوجه الأول؛ ابن أبار، المخطوطة؛ ورقة ١٤٨ الوجه الثانى.

فيها الموطأ لمعلمه الأول وتعليقاً يبدو أنه قد أعده مع جماعة ابن قاسم: وهو عمل أسند إلى اسم مؤلفه وأطلق عليه أسديه. ونما وذاع صيته فى أفريقيا حتى عدوه من الفقهاء(1). وأثناء حركات الأشراف ضد إبراهيم بن الأغلب (٨١٠ ـ ٨١١)، حاول أحد القادة وهو عمران بن مجاهد استقطابه بالإغراءات مرة وبالتهديد فيما بعد؛ ولكن أسد قضى على هذه المحاولات بأن أجاب على رسل عمران بأنه لو توجه إلى معسكر الثائرين لصاح: «القاتل والمقتول سيهويان كلاهما إلى النار الخالدة»(2). ويتضح من هذا أنه على قدم المساواه مع فقهاء الشريعة الآخرين فى أفريقيا كان يبغض كثيراً الحرب الأهلية؛ ولكنه لم يكن ينحاز مطلقاً لإبراهيم. ولكن عندما استحسن زيادة الله أن يتجرع من الأمرَّين معارضة الفقهاء الشرعية بدلاً من عنف الميليشيات، عيَّنه أسد بن الفرات فى عام مائتين وثلاثة (٨١٨ ـ ٨١٩)، قاضياً للقيروان: فقد اقتنع، كما تقول التراجم، بإلحاح على بن هميله فى هذا الصدد: ولم تر التراجم أن دافع الناصح والأمير كان بمثابة بداية مصالحة للطرف المعتدل الذى كان أسد يتبوأ المرتبة الأولى فيه بلا شك. ولما أراد زيادة الله ألا ينحى القاضى أبا محرز محمد، وهو فقيه صالح يبجله هو بصفة خاصة، فقد وجد نفسه مضطراً لإعطاء القضاء الأعلى لأسد، وألحقه به فى تلك المهمة، وهكذا نرى مثالاً فريداً ونادراً جداً. قاضيان من المذهب نفسه فى المدينة نفسها(3).

(1) **رياض النفوس**، وابن أبار، المواضع المذكورة.

(2) هذه الواقعة مستقاه من ابن خلدون الذى يطلق فى مفارقة تاريخية خفيفة على أسد قاضى فى ذلك الوقت، *Histoire de l'Afrique et de la Sicile*، طبعة م. دى فرچيه، النص ص ٣٥٠، والترجمة ص ٩٢، حيث يبدو لى أنه يجب استبدال كلمة تهديدات بعبارة تقديم عطايا. وبدلاً من مجلد ربما يلزم قراءتها مخلد، طبقاً للنويرى *Conquéte de l'Afrique* فى ملحق *Histoire des Berbères par Ibn-Khaldoun*، ترجمة م. دى سلان، المجلد الأول، ص ٤٠٠ و٤٠٥.

(3) واقعة الاختيار ومن كان ينصح بها نقرؤها فى **رياض النفوس**، المخطوطة، ورقة ٢٨ وجه. ويلاحظ فيها علاوة على ذلك أنه قبل أسد وأبو محرز لم يظهر قاضيان

وكانت سلطة القضاء هذه تعيش لحظة عظيمة فى القرن التاسع، عندما ارتقت وازدهرت بإصلاحات هارون الرشيد(1) وبالحضارة المتنامية، عندما لم يكن لدى أمراء المسلمين وزراء دولة عاديين ودائمين وكان مفسرو الشريعة الإلهية يستحوذون على تنظيم كل أمور البشر. وهكذا نرى قاضيى القيروان يؤديان عمل القضاء المدنى والقضاء الجنائى تارة وعمل الأب الروحى لزيادة الله تارة أخرى إلي جانب كونهم مشرفين على المهام الدينية التى ذاعت لدى المسلمين(2)، ومستشارين للدولة. وحدث فعلاً عندما استشارهما زيادة الله فى حالة زنديق، أو كما نقول نحن كافر، كان على الأمير أن يصدر حكمه عليه أن اصطدم أسد وأبو محرز معاً برأى فقيه ثالث كان يود دون شك موت المتهم: وانتصر القاضيان لدى زيادة الله بالحكم بالعفو عنه عند توبته؛ مما أثار رفض ذلك المتشكك.

ولكن علاوة على ذلك كان رجلا الشريعة، المتقاربان فى العمر والمنهج وكلاهما من أتباع مالك، يختلفان دائماً، ربما بدافع الغيرة، ومن المؤكد لاختلاف طباعهما الطفيف، ولعزيمة أولهما القوية وتخوف الآخر؛ ولجلاء وبعد بصيرة الأول وتشكك الثانى. وعندما سألهما ذات

فى وقت واحد فى إحدى العواصم. ويبدو لى أننا لا نقابل أمثلة أخرى شبيهة فى مكان آخر.

حقاً فيما بعد كان هناك أربعة قضاة فى المدينة نفسها، ولكن للأربعة مذاهب التى كانت تتعايش معاً فى سلام. **البيان**، المجلد الأول، ص ٨٩، يذكر أيضاً تعيين أسد قاضياً فى عام ٢٠٣ وحداثة المثال.

(1) أعاد هارون الرشيد تنظيم القضاء وأسس قاضى القضا أو قاضى القضاة، أعلى رجل قضاء فى الدولة ومقره فى العاصمة. وفى تلك الفترة كان لرجال القضاء والقانون زى رسمى خاص بهم. انظر هاملتون *Hedaya*، المجلد الأول، ص ٣٤٠.

(2) على حد قول ابن الأثير، المخطوطة أ، المجلد الأول، ورقة ٢٩ الوجه الثانى قام الخليفة المهدى فى ملاحقته القوية للزنادقة فى الشرق بتعيين محقق خصيصا لهذا الغرض عام ١٩٨ (٧٩٤ - ٥)، أطلق عليه صاحب الزنادقة. وأرسل كثيرا منهم إلى المشانق وتم حرق نسخ كثيرة من الكتب. وزنديق تعنى عامة كافر، متشكك وملحد؛ ولكن يبدو أن هذا الوصف فى البداية قد أطلق على أتباع المانوية، وربما أيضاً على الجبريين، ونشأ من اسم لغة زند ومن الكتاب المقدس لقدماء الفرس، الزندوست.

مرة زيادة الله الفاجر القاسى عن مقدار اللذة أو الشهوة المسموح بها فى الحمام؛ ولما فكر أسد بأن القرآن يسمح بما هو أكثر من ذلك لم يود أن يسمح له بما هو أدنى؛ ولكن أبا محرز(1)، فى تمييز جديد بالأب Sanchez، تمكن بسرعة من تشخيص الرذيلة وتنمية شهرته هو باعتباره رجلاً صالحاً (2).

وتجلت فى حالة أخرى قوة أسد وتأثيره. كانت كل ميليشيات أفريقيا قد أشهرت السلاح ضد زيادة الله، كما روينا سابقاً (٨٢٥)، وتحت قيادة منصور الطنبدسى كانت قد أقامت معسكرها جنوب القيروان، ودعت المواطنين للانضمام إليها فى التمرد. حينئذ خرج القاضيان للتفاوض وحضرا أمام منصور الذى كان يجلس بين قواد الميليشيات وقال للقاضيين: «هيا كونا معنا، وقولا إذا كان هذا الطاغية يبدو لكما حقيقة سوط عذاب للمسلمين»(3)، ورد أبو محرز وهو يرتعد «هذا حقيقى، وأيضاً سوط عذاب لليهود والمسيحيين». أما أسد فقال: «ألم تكونوا أنتم أنفسكم» واحتد قائلاً «ألم تكونوا منذ وهلة أنصاره وأخوته؟ لم تطالبونا الآن بالتحالف ضده، فى حين لم يغير هو ولم تغيروا أنتم من عاداتكم شيئاً؟ لا: إذا كنا قد آزرناه عندما كنتم حوله فمن الأجدر بنا الآن أن نفعل الشئ نفسه وهو وحيد». عندئذ انفجرت عاصفة فى المعسكر. وهرول الأكثر شراسة فيه

---

(1) **رياض النفوس**، المخطوطة، الورقة ٢٩ الوجه الأول. وهنا نلاحظ أن القاضيين اتبعا رأى فقهاء العراق واتبع المستشار الآخر رأى فقهاء المدينة. وعول تلاميذ مالك إذن على القرار الأكثر اعتدالاً لأبى حنيفة أكثر من اعتمادهم على قرار معلمهم. وحول الأول انظر **الهداية**، المجلد الأول، الكتاب التاسع، الفصل التاسع، ص ٢٢٥. أما الثانى فيؤيده مؤلف **رياض النفوس**، وهو مالكى متشدد ومدقق.

(2) **رياض النفوس**، المخطوطة، الورقة ٢٨ الوجه الثاني. وكانت القضية الأخلاقية هى: *an fas esset balneum intrare cum cuncutis pellicibus suis nudis.* وكان ابو محرز يؤكد انه مبـــاح للسيد مشـاهـدتها من الرأس للقدم *quod Vicissim pudenda conspicerent.*

(3) **رياض النفوس**، المخطوطة، الورقة ٢٨ الوجه الأول.

للهجوم على أسد وزميله لدرجة أنهما فرا بالكاد إلى المدينة. ولم يستمع المواطنون لذلك العظيم: وبين غضب الثورة واستياء الأمير الذى أخمدها يبدو أن أسد قد ضجر لبعض الوقت من الغاضبين فى الفضائل المتطرفة. وربما حدث فى ذلك الوقت أنه كان يتحدث على سبيل الدعابة مع أحد الحمقى الذى كان يظن أنه أعلى قدراً منه حيث كان يصيح، لأن صوته أعلى من صوته، فتفاخر أسد بعراقة نسبه وقال «أنا أسد». (وتعنى قوة الأسد) «وأى حيوان لا يستسلم للأسد؟ ابن فرات أنا» (هكذا كانوا ينطقون كلمة الفرات) «ليست هناك مياه نهر أفضل من مياهه. جدى يدعى سنان» (وهو من أسماء السهام) «وهذا فى الحقيقة من أقوى الأسلحة»(1). ومن ناحية أخرى كان هذا التفاخر منتشراً بين العرب، وكان يحفظه تراثهم الشعرى. وكان أسد، مع أنه من أصل أجنبى، قد تشبع به، أديبـــا وعالما كما كان، أكثر من كونه من فقهاء الشريعة كما يزعم أحد كتـــاب التراجم(2). وعلى التاريخ أن يبرز فيه ثقافته وفقهه وبالأحرى فكره النابه فى أن ينشر الهدوء فى إفريقيا بنقل الحرب إلى صقلية، ورجاحة العقل وقوة العزيمة اللتين انتصر بهما فى هذا القصد الذى عمل على تنفيذه بنفسه على حساب حياته هو(3)..

وعندما وصل إوفميو إلى سواحل أفريقيا أرسل على الفور إلى زيادة الله فى القيروان يطلب المعونة ويعرض عليه السيادة على

---

(1) ابن أبّار، المخطوطة، ورقة ١٤٨ الوجه الثاني.

(2) ابن أبّار، الموضع نفسه.

(3) تستقى ترجمة أسد كلها من **رياض النفوس** ومن ابن أبّار اللذين استشهدت بهما. وم. دى فرجيه، فى هامش لابن خلدون ص ١٠٥، أعطى عنها إشارة استقاها من المصادر نفسها؛ وأختلف عنه فى بعض النقاط حيث بدا لى أنه يفسر بطريقة أخرى النصوص والوقائع. وكوندى *Dominacion de los Arabes en España* الجزء الأول، الفصل ٧٥، ترجم كعادته مع بعض الأخطاء فقرة ابن أبّار. ومن بين هذه الأخطاء يجعل أسد قريب النسب *(deudo)* من إبراهيم بن الأغلب.

صقلية(1)، طبقاً لما يلى: أن يحتفظ هو بالجزيرة وبلقب الإمبراطور وشاراته على أن يدفع عنها الجزية لأمير الأغالبة(2). وكان المبعد عن الجزيرة يعول على بقايا أسطول صقلية التى كانت تتبعه وعلى كثير من المحاربين من أنصاره الذين تركهم فى الجزيرة؛ وكان يثق فى القضاء على جيوش بلاتا بجيوش افريقيا، وأن يتخلص من جيوش افريقيا بالمكائد التى قد تسنح والتى قد يدبرها بذكائه.

وعلى هذا النحو يفكر دائماً الضعفاء عندما يمزحون مع الأقوياء والمغامرين؛ كما كان إوفميو حتى وفاته يفلح فى ضبط بعض الشئون وإصلاحها؛ ولكن إن آجلاً أو عاجلاً يقع بالضرورة حدث عارض يدمر كل شئ، وعندئذ تكون الغلبة للأقوى. وكما يبدو كان خطباء بلاتا من ناحية أخرى يحطون فى افريقيا لاجهاض مخطط العدو(3): وكان زيادة الله يتأرجح حائراً.

بيد أنه جمع وجهاء البلاد للشورى ودار بينهم جدال طويل حول عدالة الحرب وجدواها. وكانت تبدو حرباً غير عادلة للكثيرين، فمازالت هدنة عام ثمانمائة وثلاثة عشر سارية المفعول، ولكن كان الجواب أنه تم خرقها من جانب حكام صقلية، وأنهم أسروا كثيراً من المسلمين كما أكد ذلك إوفميو لزيادة الله. وعند استفتاء القاضيين حول هذه القضية، أعلن أبو محرز عن حاجته لبعض الوقت لاستيضاح الواقعة بشكل أفضل؛ أما أسد فعلى العكس من هذا أراد أن يستفسر فى الحال عن هذا من رُسل صقلية أنفسهم. ورد أبو محرز «وكيف نصدق ما سيقوله هؤلاء إدانة لهم أو دفاعاً عن أنفسهم؟». ورد أسد عليه: «بناءً على كلام السفراء ثبت الهدنة من قبل، وبكلامهم ستنتهى». وواصل فى

---

(1) ابن الأثير، المخطوطة A، المجلد الأول، ورقة ١٢٣ الوجه الأول؛ والمخطوطة C، المجلد الرابع، الورقة ١٩١ الوجه الأول.

(2) *Theophanes Continuatus*، الكتاب الثانى، الفصل ٢٧، ص ٨٢.

(3) يستقى هذا من المناقشة القانونية المذكورة فى **رياض النفوس**، حيث إن السفراء الذين يشار إليهم، لم يكن من المتصور أن يكونوا لإوفميو، مع التأكيد على أن الهدنة لم تخرق من حكومة صقلية.

حمية «إن الله يأمركم أيها المسلمون ألا تَخْشَوا شيئاً وأن تدعوا الناس إلى الإسلام، وستكون لكم الغلبة على أولئك الناس، فلنطع إذن التعاليم الإلهية بدلاً من أن نتشبث بالهدنة مع غير المؤمنين، وستكون لنا اليد العليا!»◆. ولما غير أسد محور المسألة على هذا النحو وأبرز موضوعاً لا يمكن أن يعارضه أى مسلم استجوب زيادة الله الرُسل الذين كان معهم رجل مسلم لعله كان مترجماً فأجابوا: «حقاً لقد تم سجن رجالكم فى صقلية، ولكن عن حق؛ لأنهم لم ينصرفوا فى الوقت المحدد»(1). وعلى هذا النحو لم يتأكد علماء المسلمين تماماً من خرق الهدنة، ولم يكفوا عن معارضتهم لحرب صقلية(2). ولكن الدافع كان موجوداً؛ فالتعصب الدينى والمطامع الدنيوية أكسبته رجاحة العقل، ووجد الأمير والمحاربون والشعب أن أسداً هو الوحيد الذى يحسن التفسير.

وتداولوا معاً حول جدوى العملية. وعندما وضع آخرون القرار باجتياح صقلية دون الإقامة بها ودون إنشاء مستوطنات فيها، هب لمعارضته سحنون بن قادم. وراح يسأل «كم المسافة بين صقلية وإيطاليا؟» أجابوه «يذهب المرء ويعود بينهما مرتين أو ثلاث مرات من بزوغ الشمس حتى غروبها» وعاد يسأل «وبين صقلية وأفريقيا؟»؛ فردوا عليه «نهار وليلة من السفر». «آه، وحتى لو كان لى جناحان لا

(1) سليمان بن عمران، فى **رياض النفوس**، الورقة ٢٨ الوجه الأول. وحضر سليمان سواء هذا الإجتماع أو ذلك الإجتماع الذى عقد فى عام ٨١٣، وتم اعلان الهدنة فيه. والآية القرآنية التى استشهد بها أسد هى رقم ١٣٣ من السورة ٣؛ ولكن النص مختلف عما قاله أسد «ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين». وشرط الهدنة، كما يشير إليه سليمان نفسه (انظر الكتاب الأول، الفصل العاشر، ص ٢٩٩ - ٣٠٠) كان يتضمن لزوم إطلاق سراح كل المسلمين فى صقلية ليغادروها متى أرادوا هذا. ومع ذلك فمن المحتمل أن يكون قد تم الاتفاق المتبادل على بعض الفقرات التى تتشابه مع الشرع الإسلامى. وطبقاً لهذا الشرع عندما يأتى غريب غير مسلم للتجارة كمستأمن، أو مؤمن بتصريح صالح، فيمكنه أن يقيم عاماً دون ضرر. وبإنقضاء هذه المدة عليه أن يدفع الجزية مثل الذميين أو الرعايا غير المسلمين، وبعد بعض الوقت يمكن أن يصير مثلهم فى البلاد. انظر هاميلتون *Hedaya*، الكتاب التاسع، الفصل السادس.

(2) أحمد بن سليمان، فى **رياض النفوس**، الورقة ٢٨ الوجه الأول.

◆ ليس هذا نصاً قرآنياً ولكنه حديث أسد بن الفرات فى هذه المناسبة (المترجم).

أود أن أطير إلى هذه الجزيرة» اختتم هكذا سحنون كلامه وهو يمزح على اسمه الذى يطلق فى أفريقيا على أحد الطيور الماهرة. ولم يُجد هذا الرد الفطن البليغ شيئاً. فقد قرر الكثيرون فى صوت واحد الحرب؛ حرب الإغارة وليست حرب الفتح(1).

وحينئذ فكر أسد، الذى لم يكن قد تعب كل هذا التعب من أجل إغارة، فى أن يقودها بنفسه للهدف الذى كان قد وضعه نصب عينيه، ولم يمانع كل العلماء؛ ومن هنا راح، دون اعتبار أو حذر، يطلب قيادة الجيش التى كان يطمع فيها عديد من رجال آخرين ذوى أتباع أكبر لنبالة سلالتهم ودربتهم الحربية. ولما لم يكترث زيادة الله بمطمح الفقيه الجديد وأخذ يتندر عليه، توجه أسد إلى الشعب وراح يبدى تذمره واستياءه: «إنهم لا يريدوننى، لأنهم يعتقدون أننى رجل عديم القيمة! عرفوا جيداً كيف يعثرون على ربابنة يقودون السفن، وأى حاجة لهم الآن بمن يسيرها طبقاً للقرآن والسُنة؟»(2) ولكن أسداً حاز احتراماً كبيراً بين جموع المواطنين الذين حثهم وألهب مشاعرهم للجهاد لدرجة أن زيادة الله بكل ماله من طباع الغطرسة، اعترف وتاب عن رفضه السابق ورضخ لإرادتهم. وحضر أمامه أسد وطلب منه طبقاً للتعاليم الدينية، وقد عينه قائداً الآن، أن ينحيه عن القضاء. وأجاب الأمير: «لن يكون لك هذا» «لن أبعدك أنا عن القضاء. حسناً أضيف لك مهمة قائد التى هى درجة أسمى، ولكنى أود أن تحتفظ أيضاً بالأولى، وأن تسمى قاضى أمير». وسار الأمر على هذا النحو كما يذكر الراوى المعاصر أحمد بن سليمان، ولم نر أبداً من قبل أو من بعد فى دولة أفريقيا شخصاً واحداً يجمع بين هذين المنصبين(3).

(1) النويرى، فى دى جريجوريو، *Rerum Arabicarum*، ص ٤. الشخص الذى يدور عنه الحديث هنا مختلف عن رجل القضاء المعاصر المشهور سحنون بن سعيد.

(2) سليمان بن عمران، فى **رياض النفوس**، المخطوطة، الورقة ٢٨ الوجه الأول. البيان، المجلد الأول، ص ٩٥ يقول فى إيجاز شديد أن أسد تقدم لزيادة الله بوصفه مرشحاً وتم قبوله.

(3) فى **رياض النفوس**، المخطوطة، الورقة ٢٨ الوجه الثانى.

في هذا الوقت كان يتم تجهيز الأسطول فى ميناء سوسه، حيث كان قد أرسل إوفميو لينتظر هناك مع رجاله(1). وعندما تم تجهيز كل شئ وتحدد مكان حشد الجيش فى القيروان، تحرك به أسد تجاه سوسه، وعند خروجه من المدينة كان يصطحبه للإحتفاء بشرف قيادته كبار العلماء مع الجماعة وكل بلاط الأمير؛ لأن زيادة الله لم يود أن يتخلف أحد من ذويه. وفى سوسة تم استعراض الجيش. ويروى شاهد عيان أن أسداً عندما أثاره هذا المشهد النبيل من السرايا فى المقدمة والمؤخرة وعلى الجانبين، ورفرفة الأعلام فى الهواء وصهيل الخيول ودوى الطبول، وبعد أن خيم الصمت، خطب بهذه الكلمات: «لا إله إلا الله، الله لا شريك له. تالله أيها المحاربون البواسل، لم يكن لى جد أو أب يترك لى ولاية(2). ومع هذا لم يتشرف رجل فى العالم بأتباع مختارين مثل هؤلاء، ولم أر أبداً مشهداً مثل هذا الماثل أمام أعيننا إلا فى الكتب. هيا، إذن، اشحذوا الهمم، افنوا الأجساد فى البحث عن العلم، وتمسكوا به، ولا تشبعوا منه البتة، ولا تنهزموا أمام العناء الذى يسببه لكم، واعلموا أنكم ستجنون منه المكافأة فى هذه الحياة وفى تلك الحياة الآخرة»(3). ولا يزودنا بشئ آخر عن خطبة أسد كتاب التراجم وهم علماء أخذوا عنه ما كان يبدو لهم شرفاً للمهنة، مثلما كان الرهبان رواة الأخبار فى العصور الوسطى يذكرون فقط أعمال الخير أو الشر التى يقوم بها الأمراء للدير. مع كل هذا يؤلمنى عدم العثور على ذكريات أكثر، واضطرارى إلى مواجهة الموضوع بمحاولات التعميم، التى إن كانت كافية لرسم صورة لتلك الفترات، فإنها لا تساعدنا

(1) النويرى، فى كتاب دى جريجوريو، *Rerum Arabicarum*، ص ٤.
(2) الكلمة التى أسوقها «سيادة» هى ولاية التى تعنى سلطة رئيس العائلة أو القبيلة، وهى كما يعلم الجميع ذات طبيعة مختلفة عن سيادة البارونات فى العصور الوسطى. كنت أود أن أترجمها «الأتباع» لو كانت هذه الكلمة، حال وضعها مطلقة بمفردها، لن تحملنا إلى روما القديمة وتعطينا على هذا النحو معنى بعيداً جداً.
(3) شيخ مجهول، استشهد به أبو العرب، كاتب فى النصف الأول من القرن العاشر، فى **رياض النفوس**، المخطوطة، ورقة ٢٨ الوجه الثاني.

بما فيه الكفاية علي رسم ملامح الرجـــال التى كانت ذات طبيعة متنوعة وغريبـــة. وفى الحقيقة يتضح من كلمــات أسد تلك زهو الرجل الجديد وكبرياء الفقيه، ويبدو أننا نرى شيشيرون يتباهى وهو يرتدى درعه؛ ولكن من المؤكد أن حذفت، وكأنها لا شأن لها، المعانى العليا التى وفرت لأسد هذه القوة فى استثارة حماس الجماعة، وأقصد الحماس الدينى والعسكرى، وقوة القرن الأول للإسلام الذى كان دائماً ما يعود إليه بالفكر فقهاء ذلك الزمان، وربما كان أسد أولهم. ومن الملاحظ أن فتح صقلية والاستيلاء عليها الذى قام به هذا الرجل العظيم كان آخر فتح قام به العرب ودولة الإسلام فى الغرب. وفى المشرق كانت رايات الإسلام وشاراته مازالت قائمة من مائة عام، ولم يستأنفوا طريق الفتوحات الا بعد فترة طويلة من الزمن على يد الأتراك: إلى الهند فى القرن الحادى عشر على يد الغزنويين وأوربا فى القرن الخامس عشر على يد العثمانيين.

الفصل الثالث

اجتمع لإعلان الجهاد خيرة المحاربين المسلمين فى أفريقيا: من عرب وبربر، خاصة من قبيلة هوارة(1)، ولاجئين من الأسبان والجند، وكان الجيش يضم عدداً كبيراً من فرس خراسان(2)، وكان ملحوظاً بين الجميع عديد من رجال العلم والمشورة(3). وبلغ إجمالى تعداد الجيش سبعمائة فارس وعشرة آلاف جندى مشاة، وبلغ الأسطول سبعين سفينة أو مائة طبقاً لآخرين، دون إحصاء أسطول إوفميو(4). أقلعوا من ميناء سوسه(5) فى الخامس عشر من ربيع الأول لعام مئتين واثنى عشر من الهجرة(6) الموافق الثالث عشر من يونيو عام ثمانمائة

(1) ابن خلدون *Histoire des Berbères*، ترجمة م. دى سلان، المجلد الأول ص ٢٧٧؛ والنص العربى المجلد الأول ص ١٧٩. ويشار فيه إلى محارب من هذه القبيلة قاتل فى صقلية وهو زواوة بن نعم الحلف.

(2) يستخلص هذا مما رويته فى الكتاب الأول، الفصل السادس ص ٢١٥ - ٢١٦

(3) **البيان**، المجلد الأول ص ٩٥.

(4) النويرى، فى دى جريجوريو *Rerum Arabicarum*، ص ٤. **البيان**، المرجع المذكور، يذكر ٧٠٠ جواد وعدداً ضخماً للغاية من المشاة؛ ابن أبّار، المخطوطة، الورقة ١٤٨ الوجه الثانى، يذكر ١٠،٠٠٠ رجل منهم ٧٠٠ فارس، أبو العرب المذكور فى **رياض النفوس**، المخطوطة الورقة ٢٨ الوجه الثانى يذكر لأسد ١٠،٠٠٠ فارس؛ ابن ودران، المخطوطة § ١ والترجمة الفرنسية لـ م. شيربونو، *Revue de L'Orient*، ديسمبر ١٨٥٣، ص ٤٢٤، فى معرض ذكره لابن رشيق، مؤلف من القرن الحادى عشر، يذكر أن الجيش بلغ حوالى عشرين ألف رجل؛ ابن أبى دينار (القيروانى) الترجمة الفرنسية، ص ٨٣، يقدر الجيش بحوالى عشرة آلاف تقريباً.

(5) أبو الفدا، *Geographie*، النص الفرنسى، المجلد الثانى، ص ١٩٩؛ التيجانى فى *Journal Asiatique*، أغسطس ١٨٥٢، ص ١٠٤، وابن أبى دينار، موضع سبق ذكره.

(6) النويرى، فى كتاب دى جريجوريو *Rerum Arabicarum*، ص ٤؛ ابن الأثير وابن خلدون ذكرا فقط تاريخ الشهر. ويذكر النويرى أن ١٥ ربيع الأول (١٦ تاريخ خطأ جاء فى نص م. كوسين ودى جريجوريو: *Rerum Arabicarum*) كان يوم سبت. لقد كان فى الحقيقة يوم خميس. ويذكر رامبولدى معركتين بحريتين فى هذا الوقت؛ راجع أصل هذا الخطأ فى الفصل التالى ص٣٥٣، هامش ٣.

وسبعة وعشرين، متجهين إلى أقرب نقطة فى صقلية؛ ورست السفن الأولى فى السادس عشر من يونيو فى مازارا، حيث كان لإوفميو أنصار بها، أو لأنه كان يود تجنب ليليبيو المدينة المحصنة تحصيناً جيداً. ومكث أسد بعد أن أنزل الجياد فوراً من على متن السفن ثلاثة أيام منتظراً باقى السفن، ولم تصادفه أية مضايقة، اللهم إلا من ملاقاة جماعة من فرسان إوفميو الذين أمر القاضى بأسرهم ثم أطلق سراحهم لما تعرَّف عليهم(1). وبرغم عدم ثقته فى إوفميو، فإن أسداً عندما حان وقت القتال دعاه إليه وقال له فى إيجاز: أن ليست له حاجة إلى قوات معاونة، وأن يتنحى جانباً مع رجاله؛ وليتخذوا شارة تميزهم عن العدو حتى لا يهاجمهم المسلمون عن طريق الخطأ. وفعلوا هذا إضطراراً، فوضعوا غصناً صغيراً من نبات برى حلية على الخوذة(2). ميز هؤلاء المنكوبين الذين لم يعد لهم أصدقاء أو وطن ولا أى هدف آخر سوى الانتقام الشخصى: وهكذا تعرضوا لأول عقاب بمشاهدتهم نجاح المعركة دون أى مشاركة منهم.

(1) النويرى، الموضع المذكور.

(2) **رياض النفوس**، المخطوطة، الورقة ٢٨ الوجه الثانى؛ وابن خلدون *Histoire de l'Afrique et de la Sicilie*، ص ١٠٦. وترجم م. دى ڤرچيه طبقاً لمخطوط باريس هذه الفقرة: *"Les arabes se tenaient d'abord (par defiance) à l'écart du chef de l'ile et des Grecs de son parti, mais s'étant ensuite réunis, ils mirent en fuite Palata et son armée, dont ils pillèrent tous les bagages"*. ولكن معلومة مخطوطة باريس تبدو خاطئة بجلاء ويلزم تصويبها بمخطوطة تونس التى بحوزتى منها بعض المستلات. ومن هنا من المناسب أن نترجم: «اشتبك بلاتا مع العرب الذين عزلوا جانباً القائد (إوفميو) وكل اليونانيين الآخرين (الذين كانوا معه) والذين كانوا قد استعانوا بهم ضد بلاتاوقواته. وبعد هزيمة بلاتا ورجاله سلب العرب كل ما معه وفر بلاتا هارباً». ويذكر ابن الأثير والنويرى فقط أمر الإبعاد ويضيف الأخير أن أسداً «لم يرغب فى مساعدة منه». هذه هى العبارة التى ترجمها دى جريجوريو إلى اللاتينية مشوهاً النص والترجمة الفرنسية: *eorum etenim fidem expertus non fuerat* وطبقاً **لرياض النفوس** كانت العلامة المميزة قليلاً من الحشيش، الذى يعنى بصفة عامة «عشب جاف» وأيضاً نبات.

وحاسمة كانت المعركة التى تلوح، حيث أن وجود المسلمين على الساحل وطول انتظار بلاتا لهم، وحشده كل قوات الجزيرة، كان لابد أن يقع أحد أمرين، إما أن يلقى بهم إلى البحر أو أن يترك الجزيرة بلا دفاع إذا انهزم منهم. كان يقود مائة وخمسين ألف رجل، كما يقول بعض الرواة المسلمين، حتى لا يكونوا أدنى من الكتاب المسيحيين الذين صوروا كارلو مارتلُّو يقتل منهم ثلاثمائة ألف فى تورز: ورغم هذا كانت حشود جيش صقلية بلاشك تفوق بكثير جيش أسد(1). وعندما ذاع أن بلاتا قد حضر ليحط بالسهول التى تحمل اسمه(2)، خرج القاضى فى صفوف محتشدة من مازارا(3) فى الخامس عشر

---

(1) سليمان بن سالم، فى **رياض النفوس**، الموضع المذكور، مع الاحتفاظ بـ «يقال». كرر هذه المبالغة ابن رشيق، المذكور عند ابن وردان وابن أبى دينار الذى نقل عنه.

(2) النويرى، الموضع المذكور. عديد من الأماكن فى صقلية يطلق عليها بلاتا *Balata*، وهى الكلمة اللاتينية *Platea*، والتى حورها العرب فى الصوت والمعنى، وتعنى فى لهجة الجزيرة اليوم «حجر الرصف» وأيضاً «حجر أملس جميل لم يقتطع من الجبل». عموماً سيكون من الصعب، بسبب عدم معرفة من أين أتى بلاتا وما المسافة التى قطعها أسد لملاقاته، سيكون من الصعب تحديد مكان المعركة حتى لو افترضنا أنه يحمل ذلك الاسم. ومع ذلك يوجد على مسافة ستة أميال من مازارا نتوء جبلى أطلق عليه الإدريسى رأس البلاط ويسمى اليوم رأس جرانيتولا أو رأس سوريلو، الذى يمتد فى سهل شاسع تقع فى جزء منه بعض المستنقعات، سهل طينى كما نطلق عليه فى لهجتنا. ويتلاءم تماماً خروج أسد من مازارا فى حشد وانسحاب جيش صقلية نحو كاستروچوڤانى مع معركة فى ذلك السهل. ويعد م. فامين فى *Histoire des invasions des sarrazins en Italie*، المجلد الأول، ص ١٥٠ فى الهامش، بأن يدلل بعد ذلك على أن المعركة قد وقعت فى بلاتانى، وهى قلعة محطمة. ومن الممكن أن تكون براهينه التى لا نعلمها بعد اثنين: قرب المكان وتشابه الاسم. ولكن المكان يبعد عن مازارا خمسين ميلاً وطبقاً للإدريسى يجب أن يكون سبعين؛ مما لا يتوافق مع السير فى صفوف. كما أن الاسم مختلف حيث إن العرب، والنويرى معهم، عندما ذكروا قلعة بلاتانى تلك التى استسلمت للمسلمين عام ٨٤٠، يكتبون إبلاتانو وليس بيلات.

(3) يذكر نص النويرى أن أسداً خرج من مازارا «على تعبئة» ليلاقى بلاتا فى سهل بالاتا. ولقد أخذ م. كوسين الأب كلمة تعبئة على أنها اسم مكان وجر فى ذلك خلفه دى جريجوريو، الذى أخلى من النص حرف الجر على الذى يعنى «فوق» ومن ثم ترجم الأول *marcha vers Taabia* والآخر: *Progressus exinde fuit ex Mazara ad Taabiam*

من يوليو(1)، وجمع جيش المسلمين فى مواجهة الجيش اليونانى. وانتظر. كما هى عادة العرب(2) هجوم الأعداء. وحده تماماً أمام الصفوف رافعاً راية القيادة وهو يردد بصوت خفيض سورة يس قلب القرآن كما أطلق عليها الرسول عليه السلام، وهى ابتهال حزين تتم تلاوتها أمام المحتضرين. وهكذا فعل صلاح الدين العظيم بعد ذلك بثلاثة قرون فى ميادين القتال فى سوريا قبل إشعال فتيل المعركة. ولكن رؤية رجل أفنى عمره على الكتب وفى مجلس القضاء يواجه الرماح البيزنطية وكله ثقة كانت تبدو معجزة أمام المحاربين الأفارقة. بينما كانت قلوبنا ترتعد فى الصدور، هكذا كتب أحدهم ويدعى ابن أبى الفضل، بينما كانت ترتعد القلوب فى الصدور من أجل أسد، أدى هو صلاته كلها. وقال ملتفتاً بغتة إلينا «إنهم هؤلاء، بربر ساحل أفريقيا أنفسهم: عبيدكم! لا تخافوهم أيها المسلمون!». وتبدد الفاصل بين الجيشين ووجد أسد نفسه أول من أحاطت به سرايا العدو. وخرج من بينها ملطخاً بالدماء التى كانت تسيل من رمحه وبطول ذراعه حتى إبطه، كما يؤكد الراوى متعجباً من شجاعة القاضى العجوز(3). وعن شجاعة الآخرين، التى كانت فضيلة

ولكن تعبئة تعنى «حشد، جمع، أمر المعركة»، ويكرر النويرى بعد هذا بسطر الفعل عبأ، الذى تأتى منه هذه الكلمة؛ بالإضافة إلى أنه لو كان الأمر يتعلق باسم مكان لوضع أى عربى قبله حرف الجر إلى «نحو، ناحية» وليس على. ويستخدم ابن الأثير هو الآخر فى موقف آخر للحرب فى صقلية كلمة تعبئة بمعنى حشد أو جمع. ولكن لا يوجد أدنى شك فى التصويب الذى أقوم به: «ومن هنا امتطى أسد جوداه فى حشد من مازارا لملاقاة بلاتا الذى كان يقيم فى سهل يحمل اسمه نفسه».

(1) هكذا يبدو لأننا نعلم من المسلمين أن النزول إلى الشاطئ كان فى يوم ١٣ يونيو، وتذكر حوليات كمبردج *Cronica di Cambridge*، فى دى جريجوريو *Rerum Arabicarum*، ص ٤١ احتلال الجزيرة فى منتصف يوليو ٦٣٣٥، موضحة، وهذا من المحتمل، أكثر الأحداث أهمية ألا وهو هذه المعركة.

(2) علاوة على النماذج العديدة فى المعارك فإن هذه العادة ذكرت فى *Tattica* الإمبراطور ليون، النص الفرنسى، ص ١٢٢.

(3) فى **رياض النفوس**، الموضع المذكور. يضيف المؤلف معلقاً أن «بربر الساحل» كان إشارة إلى أولئك الذين كانوا قد فروا فى المعركة الأولى التى قام بها المسلمون فى افريقيا.

شائعة بين العرب، لم يتحدث أى من المؤرخين بكلمة واحدة ويصفون ذلك النهار، مثل مئات ومئات غيره، كلهم بمقولة واحدة: إن القتال كان مريراً، وإن الله شتت الأعداء، وأن غنيمة المسلمين كانت كبيرة للغاية من الخيل والثروات والأمتعة، وأنهم أقاموا مذبحة للكافرين. ولجأ بلاتا إلى كاستروچوڤانى، ولما لم يشعر فيها بالأمان انتقل إلى كالابريا ومات(1). وهنا نجد أن الهزيمة، كما يحدث دائماً عندما يفقد الشعب الثقة فى الحكام؛ قد أدت فوراً إلى فوضى جديدة بين الجند وفى المدن: ولكن جانب إوفميو لم يستفد شيئاً حيث كانت قد ساءت سمعته لاستعانته بالمسلمين.

كان المنتصر يتجــه دون تردد تجاه العاصمة. وبعد أن ترك حامية عســكرية فى مازارا تحت قيادة أبى ذكى من قبيلة كنانة واستولى على قلاع أخرى عديدة لتؤمن خط عمليــات الجيش، ســلك أسد ســريعاً الطــريق الرومـــانى للساحل الجنـــوبى، كما يبدو، حتى مصب نهر ســـالسو أو بعدهُ بقليل، ومنه سلك طريق الجبال الذى ينتهى إلى ســيراكوزا عبر بيسكارى وكياramونتى وبالاتزولو وأكرى القديمة(2).

وربما كانت هذه الذكرى هى التى جعلتهم يقولون أن رجال بلاتا كانوا ١٥٠،٠٠٠، كما كانوا قد افترضوا من قبل أن جيش جريجوريو كان قوامه ١٢٠،٠٠٠ رجل.

(1) انسحاب المهزوم إلى كاستروچوڤانى يشير إليه النويرى، فى دى جريجوريو، *Rerum Arabicarum*، ص ٥. أما الباقى فيذكره النويرى نفسه. ابن الأثير، المخطوطة *A*، المجلد الأول، ورقة ١٢٣ الوجه الأول، والمخطوطة C، المجلد الرابع، الورقة ١٩١، وابن خلدون *Hisoire de l'Afrique et la Sicilie*، ص ١٠٦.

(2) النويرى وحده، الموضع المذكور، يشير إلى المسار الذى سلكه جيش المسلمين قبل أن يصل إلى أكرى. ويذكر اسم موقعين فقط: أولهما يكفى لغرضنا حيث يقال بصريح العبارة أنه موقع على البحر. وهو فى الحقيقة الطريق الأقصر والأيسر من مازارا إلى سيراكوزا بطول شاطئ البحر حتى تيرانوڤا، ومن هناك يمتد بين الجبال فى خط مستقيم تقريباً. وطبقاً لمسار أنطونينو فإن هذا الطريق قد يتبع فى جزء منه الدرب الأول وفى جزء آخر الدرب الثانى من درب سير الرومان بين جريچنتى وسيراكوزا: أحدهما يحازى دائماً ساحل البحر والآخر لا يلامسه أبداً. ونقطة التقارب بين هذين الدربين كانت فى محطات بلاجا كالفسيانس للأول وهيبلا هايريا للثانى، وكانت الأولى تقع بالقرب من تيرانوڤا والأخرى بالقرب من كيارامونتى، وبين هاتين المحطتين لا يشير الدليل إلى

وجمــع كل الصــقليين الذين لم تفت الكــارثة الأولى فى أكــرى عضدهم، جمعوا كما أعتقد(1)، القوات القليلة التى تبقت فى الجزيرة. كانوا يأملون بحصانة موقعهم ودهائهم أن يوقفوا جيش المسلمين حتى تتحصن

الطريق، ولكنه يوجد اليوم ومن المؤكد أنه كان موجوداً فى عصر الرومان وبعد أن تحددت بكل تأكيد على هذا النحو مسيرة أسد، يتبقى لنا أن نجد نقطتى هذا الخط اللتين سبق وحددهما المؤرخ بالاسم. قال عن النقطة الأولى إنها كانت «كنيسة إوفميا، تلك التى كانت تقع على البحر». وهنا بدلاً من إوفيميا أقرأ فينتسيا *Finzia*: لأن هذا الاسم فى الكتابة العربية قد يختلف قليلاً عن الأول، وخاصة لأن المحطة الأكثر شهرة فى المسار المذكور كانت ليكاتا، وهى فينتسيا القديمة المشيدة فوق صخرة تبرز فى شكل شبه جزيرة عند مصب نهر سالسو.
ويُقرأ الاسم الجغرافى الثانى بطرق متنوعة فى مخطوطتى النويرى، فنقرأ فى أصحهما «كنيسة المسلكين» (دون حركات صوتية قصيرة) وفى الآخر «الشلكين». وعبثا بحث فى الجغرافيا العربية القديمة أو الحديثة عن اسم يشبه هذا. ورغم هذا فإنى من رواية النويرى أطرح أن الموقع كان نتوءاً جبلياً يطلق عليه الآن قلعة سان نيقولا، بين ليكاتا وثيرانوڤا، والذى أطلق عليه فى دليل أنطونينو *Refugium Gelæ*، ويقع على بعد خمسة أميال رومانية شرق ليكاتا، ويطلق عليه الإدريسى اسم مرسى الشيلوك على بعد ثمانية أميال عربية من مصب نهر سالسو. ويوجد بعض التوافق الضعيف فى نطق هذه الأسماء. والافتراض الذى كان يتعلق بشاكا لا يبدو لى قوياً. علاوة على أن هذا الاسم هو بالتأكيد عربى، ولكنه لاحق للحدث، وفضلاً عن أنه مختلف اختلافاً كبيراً عن الأسماء الواردة فى المخطوطات، فإن شاكا تقع على مقربة كبيرة من المكان الذى رحل منه أسد وتبعد كثيراً عن سيراكوزا. ومن ناحية أخرى فإن م. كوسين الأب هو المؤلف الوحيد لهذا الافتراض تراجع عنه فى ترجمته الفرنسية للنويرى التى طبعها هو نفسه. انظر ص ١٤ من ذلك الكتيب.

(1) فى جل المخطوطات التى تحكى عن هذه القلعة ذكر الاسم بطرق متنوعة. وفى نموذجى ابن الأثير تبين المخطوطة *A* (كالعادة دون الحركات القصيرة) الحروف *elkrà*، وفى النهاية حرف دون نقط يمكن أن يقرأ ب وت أو ث. ويظهر فى المخطوط C بوضوح شديد الكراث. ولكن الوضوح قد يرجع إلى جهل من كتب هذا الاسم الجغرافى، مثل الكلمة المشهورة كرات (نبات) وهى أيضاً اسم مكان، وفضلاً عن هذا اسم جزيرة صغيرة عند كابوا باسارو، والتى يطلق عليها اليوم جزيرة البورّى (جزيرة الكرّات): وهى صخرة جرداء فى البحر لا شأن لها بموضوعنا بكل تأكيد. وعندما ننتقل إلى ابن خلدون، يوجد فى النص الذى نشره م. دى ڤرچيه طبقاً لمخطوطة باريس الكراد، أما إحدى مخطوطات تونس (وتبدو لى الأفضل) فيظهر فيها الكرات. ونجد هذه الصــيغة الأخيرة أيضاً فى مخطوطتى النويرى، حيث يبدو خطأ طبعـــة دى جريجوريو فى حرف الهــاء (الحـــرف السادس والعشرون من حـــروف الهجـــاء العربية فى الشرق) واســـتخدامه بدلاً من التاء (الحرف الثالث).

سيراكوزا وتقوى دفاعاتها. ولكن عندما اقترب أسد توجه للقائه خطباء يحتلون مرتبة رفيعة فى البلدة بإدعاء الاتفاق على أن يذعنوا له ويدفعوا الجزية شريطة ألا يتقدم أسد أكثر من هذا. ولم يتقدم أسد فى زحفه، لأنه خدع على حد قول الرواة العرب، لم يتقدم لبضعة أيام(1) وحصل الدفعة الأولى ومقدارها خمسون ألف قطعة نقد من الذهب، وهو ما يعادل من القيمة المعدنية حوالى سبعمائة ألف ليرة إيطالية(2). وربما أراد القاضى أيضاً أن يعد نفسه لحصار سيراكوزا والذى بدا له عن قرب أكثر صعوبة عما كان قد ارتآه من بعيد. أراد أن ينتظر الأسطول ويعيد تنظيم الجيش الذى أعاقته الغنائم والأسرى،

ويبدو لى أن مخطوطة النويرى ومخطوطة تونس لابن خلدون تذكر بدقة كبيرة اسم أكرى: مدينة شهيرة فى صقلية القديمة؛ ظلت قائمة حتى القرن الخامس كما يوضح ذلك دليل أنطونينو، وألواح بوتنجر والرموز المسيحية المكتشفة بين أطلالها فى هذا القرن؛ وأكثر من ذلك فهى هامة لموقعها على الطريق الذى كان على أسد أن يسلكه. إن إنهاء الكلمات فى اللغة العربية بالصوت كرات لن يكون أكثر سوءاً من كلمات أخرى، نعرف منها أسماء جغرافية يونانية ولاتينية حورها العرب، والعكس صحيح. ويكفى لتصويبها أن نحذف حرف اللام الخاص بأداة التعريف العربية أو نضيف بعده أ، بطريقة تجعل الكلمة أكرات أو الأكرات. والمقطع الأخير «ات» والذى يتسم به جمع المؤنث فى اللغة العربية يجعل شكل الكلمة مشابه تماماً لـ"Ακραι" و*Acrae* التى كان يستخدمها اليونانيون واللاتينيون فى اسم هذه المدينة، بالإضافة إلى صيغ أخرى أقل دقة مثل «*Agris* و Ακραιαι» وذكر دى جريجوريو فى هامش بالنويرى، الموضع المذكور، فى معرض الحديث عن هذا الحصن اسم الكارت الذى يقرأ فى وثيقة لعام ١٠٨٢، ولكنه لا يفيدنا هنا كثيراً لأن موقع الكارت مجهول وربما يجب البحث عنه فى الكاراديلى فوزى، فوق الجبال التى تشرف على الساحل الشمالى. وعلى مقربة من سيراكوزا، ولكن للأسف فى حالتنا هذه، قد تكون فالجوارنيرا كارو بيبى (وتقرأ كاروبيبى)، وهى أرض تقع بالقرب من كاستروچوڤانى والتى فكر فيها م. دى ڤرچيه، ص ١٠٦ من ترجمة ابن خلدون مؤمناً بأفضلية الاسم المذكور، مخطوط ابن الأثير *A*، على الأسماء الأخرى ويقرأه الكراب.

(1) ابن الأثير: وابن خلدون والنويرى، المواضع المذكورة.

(2) جوهانس دياكونس، *Chronicon Episc. Sanctæ Neapolitanæ Ecclesæ* فى موراتورى، *Rerum Italicarum Scriptores*، المجلد الأول، الجزء الثانى، ص ٣١٢، يقول إن أهل سيراكوزا دفعوا جزية مقدارها ٥٠,٠٠٠ قطعة نقدية قبل احتلال بالرمو. وسنرى من تسلسل الأحداث أن دفع الجزية لا يمكن أن يكون بعد الوقت الذى حددته. ويروى ابن الأثير الإجراءات المذكورة بطريقة تفترض أنه تم أداء جزء من الجزية.

وقللت من عدده الحاميات العسكرية التى كان قد تركها هنا وهناك على طول الطريق، واللصوص الذين أخذوا يتسكعون دون قيادة. ولكنه عندما رأى أن توقفه كان يخدم العدو أكثر مما يفيده هو، وعلم أنهم يعملون بعناية لتحصين سيراكوزا والقلاع الأخرى وينقلون إليها كنوز الكنائس والمؤن وكل شئ ذى قيمة كبيرة، وعندما علم بممارسات إوفميو الذى كان يشجع المواطنين فى الخفاء على المقاومة والقتال ببسالة من أجل الوطن؛ وحينما شرع أهالى سيراكوزا فى الكشف عن عدم دفع المبلغ المتبقى والمتفق عليه، لم يتوان القائد المسلم فى العدول عن الهدنة. وانتشرت إغارات الفرسان فى كل مكان، وأجهد حصن أكرى أو أجبره على الاستسلام، وانقض على سيراكوزا يشيع الرعب من المذابح ومن عمليات السلب وافساد كل ما يحيط بها واتلافه.

وكان يحتل فى البداية، كما يقول ابن الأثير، بعض الكهوف الكبيرة حول المدينة(1): وهى من المؤكد محاجر براديزو وسانتا ڤينيرا ونڤانترى وكابوتشينى التى كانت تقع على مسافات غير متساوية فى خط متقطع لمسافة أكثر من ميل على الحد الجنوبى لأحياء نابولى وأكردينا التى تم تدميرها من قرون كثيرة. وبين المحاجر والبرزخ فى القرن التاسع كان هناك أحد الأحياء(2) تم بناء أسوار حوله من جهة اليابسة بين الميناء الأول والثانى بحيث يضع أمام المسلمين خطاً شاسعاً من التحصينات. إلا أن أسداً، لما لم يتمكن من الهجوم على المدينة دون عتاد وأساطيل ضخمة. فلم يكن معه إلا حوالى ثمانية أو تسعة آلاف رجل. عسكر فى المحاجر ساكناً يبث التهديد، وأمر الأسطول أن يقترب من الميناءين حتى يغلقهما على أفضل وجه، وقام ببعض عمليات الاقتحام الدموية وأحرق بعض سفن الأعداء؛ وحاول تضييق الخناق

---

(1) يقول النص بالضبط «حول».

(2) انظر الفصل العاشر من الكتاب الحالى. ومن المحتمل أن كان قد تم تجديد هذا الحى فى عهد أغسطس.

على المدينة براً وبحراً، وتعجل فى طلب الدعم من أفريقيا(1). ولأن الجوع بدأ فى إجهاد الجيش فى المعسكر أكثر من تأثيره على المدينة حيث انخفضت إمدادات الريف إليها ولم يتمكن المسلمون من التوسع فى عمليات السلب، فآل سوء الحال بهم إلى أن يطعموا بالخيول وذات يوم سلب الجنود بعضهم بعضا. واختاروا ابن قادم(2) ليكون متحدثاً عنهم، فتقدم إلى أسد وطلب منه أن يرفع الحصار وأن يعود إلى افريقيا حيث قال إن حياة مسلم واحد أعز على الجيش من كل كنوز المسيحية: ورد عليه القائد فى حدة: «لست أنا من يجعل المسلمين الذين خرجوا للجهاد يتقهقرون بينما لازالت لديهم آمال النصر». وعندما رأى، بالرغم من ذلك، تزايد تطاول الجنود، هب متوعداً بحرق السفن الخاصة بهم. ومن هنا يبدو أنهم كانوا سينتقلون من الأقوال إلى الأفعال، وراح ابن قادم يقول: «لأجل شئ أقل من هذا قتل الخليفة عثمان». وعندها أخذ أسد ثورة الساخطين كالأطفال: إلى هذا الحد كان رجلاً قديراً وكان الجيش منظماً. لقد التقط أسد من بينهم ابن قادم وقام بجلده عدة جلدات دون أن يجرده من ملابسه كما جرت العادة: كان عبرة وليس عذاباً ولا انتقاماً، وعاراً يلحق بكل من أراد أن يدير ظهره للعدو. وهكذا انتهت الفتنة. ويختتم كاتب الترجمة هذه الرواية بنهاية جميلة بقوله إن الجلدات لم تكن أكثر من ثلاث أو أربع، ولكن أسداً خرج منتصراً حتى إنه قام بخوض معركة كبيرة مع اليونانيين وأعمل فيهم القتل وهزمهم وأخرجهم من صقلية(3).

---

(1) ابن الأثير،الموضع المذكور، يروى احتلال الكهوف وحصار سيراكوزا الذى بدأ براً وبحراً: **البيان**، المجلد الأول، ص ٩٥، والحصار براً وبحراً وحرق سفن المحاصرين وقتل أفرادها. هاتان الواقعتان وأخريات تقول أنه وصلت بعد ذلك المساعدات من افريقيا ويبدو لى واضحاً أن أسداً كان قد طلبها.

(2) يبدو أنه سحنون بن قادم الذى كان ينصح بعدم القيام بهذه العملية، انظر ص ٣٢٨.

(3) **رياض النفوس**، المخطوطة، ورقة ٢٨ الوجه الثانى، رواية سليمان بن سالم. ولم يذكر هنا أى تاريخ؛ ولكن حالة الجيش الذى يعانى الجوع وخاتمة الرواية لا يدعا مجالاً للشك فى أن الحدث يجب أن يشير إلى الحصار الطويل لسيراكوزا.

هذا لأنه من ناحية كان يفد أناس جدد من أفريقيا علاوة على المغامرين الأسبان من كريت(1)، ومن ناحية أخرى جمع ميكيلى البالبو حشود الجنود وأقنع الدوج جوستنيانو بارتيشباتسيو بأن يرسل إلى صقلية أسطول فينسيا(2). ولما اتسعت الحرب بهذه الطريقة، كان هناك يوم آخر، على حد قول ابن الأثير، عندما خرج حاكم بالرمو بمجرد وصول المساعدات والإمدادات من افريقيا إلى المعركة بجيش قوى؛ ولكننا لا نعلم ما إذا كان المسلمون قد نزلوا فى مازارا أم فى سيراكوزا، وما إذا كان جيش بالرمو قد قطع عليهم الطريق أو أنه حاربهم وحارب أسدا عندما اجتمعوا جنوب سيراكوزا(3). ولما شعر المسلمون بتكتل قوى أعظم عليهم، طوقوا أنفسهم بخندق كبير وملأوا الأرض من قبله بحفر صغيرة كدفاع رائع

---

(1) ابن الأثير وابن خلدون يشيران فقط إلى إمدادات من أفريقيا؛ ولكن النويرى فى دى جريجوريو، *Rerum Arabicarum*، ص ٥، و**البيان**، المجلد الأول، ص ٩٥ يتحدثان بصراحة عن أفارقة وأسبان. وأعتقد أن هؤلاء الأسبان حضروا من كريت؛ لأنه من غير المحتمل أن يكون الأمويون فى أسبانيا قد أرسلوا أسطولهم مع الأسطول الأفريقى، ولأن المراكشى النص العربى، طبعة دوزى، ص ١٤ يذكر أن بعض الأسبان من كريت مروا إلى صقلية.

(2) جوهانس دياكونوس، *Chronicon Venetum*، فى بيرتز، *Scriptores* المجلد السابع، ص ١٦، تحت عام ٨٢٧.

(3) ابن خلدون، *Histoire de l'Afrique et de la Sicilie*، ص ٤٣ من النص و١٠٦ و١٠٧ من الترجمة، يروى أنه بينما كان أسد فى المعسكر فى سيراكوزا، حاصرت قوات الإمدادات الوافدة من أفريقيا بالرمو؛ وأن اليونانين هاجموا أسداً وهُزموا، وأن أسداً الذى مات فى عام ٢١٣ دُفن فى بالرمو. ويذكر ابن خلدون فى الصفحة التالية انه تم الإستيلاء على بالرمو فى عام ٢١٧. وهناك إذن لبس واضح فى التاريخ. ومن المؤكد أنه تم وضع اسم بالرمو على سبيل الخطأ فى حرب عامى ٢١٢ و٢١٣، ونشأ الخطأ من ذكر ابن الأثير أو راوياً آخر أكثر قدماً، حاكم بالرمو قاصداً الحاكم البيزنطى وليس المسلم. وحصار بالرمو فى عام ٢١٣ غير حقيقى أو بالأحرى مستحيل. ومن ناحية أخرى يقول النويرى دون اشارة إلى المعركة أنه وصلت سفن افريقيا وأسبانيا ودعمت حصار سيراكوزا. **رياض النفوس**، فى مقابل هذا ودون الحديث عن مساعدات ينسب لأسد نصراً عزيزاً آخر. ويبدو من كل ذلك أن المعركة قد وقعت عند سيراكوزا.

ضد الجياد. وكانت وسيلة هذه غالباً ما يستخدمها البيزنطيون، وكانت مدونة فى كتبهم عن إستراتيجيات الحرب. وبالرغم من نسيانهم فنونهم فى الحرب، هاجم المسيحيون باندفاع لا طائل منه؛ حيث وقعوا على أرض غير مناسبة، ولما تعثرت وتعرقلت الجياد وعمت الفوضى بين الرجال أعمل فيهم المسلمون القتل. ومن هنا شددوا الحصار أكثر على سيراكوزا براً وبحراً :(1) وكان الحصار مفروضاً منذ عشرة أشهر أو عام(2)، وآل ذلك إلى أن عرض المواطنون اتفاقاً ورفضه المسلمون(3). كانت قد خضعت أراضٍ غير قليلة، وكانت هناك خشية أن تحذو حذوها كل أراضى الجزيرة(4).

وعندما هاجم الوباء الجيش، مات بسببه، أو بسبب جراحه فى قول آخر، أسد بن الفرات العظيم فى صيف ٨٢٨، وتم دفنه فى المعسكر(5).

---

(1) ابن الأثير، المخطوطة *A*، المجلد الأول، ورقة ١٢٣ الوجه الأول والثانى؛ والمخطوطة C، ورقة ١٩١ الوجه الثانى. انظر أيضاً ابن خلدون الموضع المذكور، الذى يذكر فى النص أن المحاصرين ردوا اليونانيين الذين جاءوا لمهاجمتهم عند سيراكوزا.

(2) يبدو أن الحصار بدأ تقريباً فى نهاية يوليو ٨٢٧.

(3) النويرى، الموضع المذكور، يكتب أن أهل سيراكوزا كانوا يطلبون «الأمان» الذى أراد أن يعقده أسد ولكن المسلمين أصروا على مواصلة أعمال القتال. وأعتقد على الأغلب أن هذا خطأ المؤلف حيث غير فجأة من طباع أسد.

(4) أنظر هنا قريباً هروب الأسرى الذين كانوا فى معسكر المسلمين. **رياض النفوس**، المخطوطة، ورقة ٢٦ الوجه الأول، فى روايته موت أسد يذكر الانتصارات الكثيرة والمدن التى تم اخضاعها.

(5) طبقاً **لرياض النفوس**، المخطوطة، ورقة ٢٦ الوجه الأول، مات متأثراً بجراحه فى ربيع الثانى عام ٢١٣ (بين يونيو ويوليو ٨٢٨) ودفن فى المعسكر؛ والشىء نفسه يذكره ابن رشيق الذى استشهد به ابن ودران § ١، دون أن يفصل سبب الموت، وعلى هذا النحو أيضاً ابن أبى دينار (القيروانى) *Histoire de l'Afrique*، ص ٨٣، وفى النص العربى، المخطوطة، الورقة ٢٠ الوجه الثانى. **البيان**، المجلد الأول، ص ٩٥ يحدد تاريخ موته فى شهر رجب (بين سبتمبر وأكتوبر)؛ والنويرى، فى دى جريجوريو، *Rerum Arabicarum*، ص ٥ يذكر شعبان (بين أكتوبر ونوفمبر): ابن أبّار، المخطوطة، الورقة ١٤٨ الوجه الثانى؛ ابن الأثير، الموضع المذكور؛ وابن خلدون، الموضع المذكور لا يذكرون أى تاريخ آخر سوى عام ٢١٣. ويقول ابن الأثير إنه مات بالطاعون؛ بينما النويرى يذكر إنه مات بسبب المرض بشكل عام.

لقد ترك مكاناً شاغراً ووحشة فى جموع الجيش؛ وبالتأكيد تبارى فى الإشادة به ومدحه كتّاب التراجم: كتبوا عن علمه وأدبه وحيطته وفضائله العظمى وما قام به من أفعال مجيدة، وعن خطبه الشهيرة فى حرب صقلية(1). وبموته أدار الحظ ظهره للمسلمين. فسرعان ما هرب الرهائن من أهالى المدن العديدة الخاضعة للمسلمين من المعسكر(2)، إما تمرداً وإما لجرأة انتابتهم خلال بعض اضطرابات الهجوم، أو رغبة منهم للتحريض على الفتنة بالاعلان فى صقلية كلها أنه حان الوقت للتخلص من البربر. ولم يتوقف الشقاق بين هؤلاء: عندما نقرأ أن محمد بن الجوارى، خليفة أسد لم يتم اختياره للقيادة العليا من قبل أمير الأغالبة ولكن انتخبه الجيش نفسه(3). وكان من بينهم أولئك الذين أصابوا زيادة الله بالفزع فى افريقيا قبل ذلك بعدة أعوام وواجهوا طاغية قرطبة.

ومن جهة أخرى لم يأمل المحاصِرون فى مساعدات جديدة من افريقيا، حيث كانت قد واتت الإيطاليين فى الوقت نفسه الجرأة على خوض الحرب. فعندما علم بونيفاتسيو الثانى، كونت لوكّا، بأحوال صقلية، أو للثورة التى تأججت فى ضراوة بسبب هجوم قام به منذ فترة قصيرة قراصنة عرب على كورسيكا، أخذ يجمع الرجال مع أخيه بيرنجاريو وآخرين فى توسكانا؛ وأخذوا يجهزون أسطولاً وأبحروا إلى كورسيكا ولما لم يجدوا العدو توجهوا للبحث عنه فى افريقيا. نزلوا فى مكان بين أوتيكا *Utica* وقرطاج، كما تذكر حوليات إينهاردو، عند قصر تور كما نقرأ فى رواية اللبيدى فى **رياض النفوس**، وهزموا

---

(1) **رياض النفوس**، المخطوطة، ورقة ٢٦ الوجه الأول.

(2) **البيان**، المجلد الأول، ص ٩٦.

(3) هكذا يقول صراحه النويرى، لدى دى جريجوريو، *Rerum Arabicarum*، ص ٥، **والبيان** الموضع المذكور. ابن الأثير وابن خلدون يذكران دون شك أن محمداً بن أبى الجوارى خلفه فى القياده. ولقد ورد هذا الاسم المتوارث فى أفضل المخطوطات، وورد خطأ فى مخطوطات أخرى. ولقد كتب على إحدى العملات التى يلزم الإشارة إليها هنا ابن الجوارى؛ ولكن رغم الإعتداد بالرواة رأيت أن أتبع هذه الصيغة.

المسلمين فى خمس مواجهات وأعملوا فيهم القتل، ولكن بعد ذلك فقدوا بعضاً من رجالهم بسبب الاندفاع الزائد وعادوا إلى إيطاليا. ويذكر هذا إينهاردو أيضاً(1). ويشير اللبيدى إلىالنجاح نفسه بتفصيلات أخرى. يروى أن محمداً بن سحنون بن سعيد، كان قاضياً ذا شهرة عريضة فى افريقيا وعندما توجه من القيروان إلى قصر تور ليتفقد مواقع الحراسة وسمع استغاثة رجال القوات البحرية والقرى التى هاجمها الإيطاليون هرع إلى هناك، ممتطياً أحد بغال السفر دون أن يضيع الوقت فى أن يبعث إلى سوسة فى طلب جواد؛ وارتدى الدرع وتسلح بالسيف والرمح وجمع رجال القلعة وحراس السواحل وبعضاً من البدو، وبعد مهاجمة العدو الذى كان قد بدأ فى أعمال السلب والأسر، هزمه فى موقعة دامية وأجبره على اللجوء إلى السفن(2). وكانت تلك الطائفة فى قلب دولة الأغالبة كافية لابعاد زيادة الله عن أمور صقلية حتى إن تملكته الرغبة فى مساعدة الجيش العنيد وإن توفرت له القوة لهذا والهدوء والسكينة فى دياره(3).

ولقد أنهك الوباء المحاصرين بصفة خاصة حيث هاجمهم فى قسوة؛ كما فت فى عضدهم وصول سفن بيزنطية وسفن فينيسيا المدججة بالجند. وأخذ المسلمون وهم مصممون على العدول عن

(1) إينهاردوس، *Annales*، فى كتاب بيرتز، *Scriptores*، المجلد الأول، ص ٢١٧ عام ٨٢٨؛ وفى موراتورى، *Rerum Italicarum Scriptores*، المجلد الثانى الجزء الأول، ص ١٥٩. أنظر حوليات موراتورى، فى العام نفسه.

(2) **رياض النفوس**، المخطوطة، الورقة ٥٢ الوجه الثانى، بدون تاريخ. القاضى سحنون أبو محمد ليس هو سحنون بن قادم الذى تحدثنا عنه. كان يدعى أبو سعيد عبد السلام بن سعيد ويقال له سحنون مدحاً له أو قدحاً. ويلزم أن أشير إلى أنه طبقاً لسيرة حياة محمد بن سحنون فإنه ولد عام ٢٠٢ من الهجرة (٨١٧) ومن ثم فمن المفترض إن قتاله مع الإيطاليين مختلف عن ذلك الذى تم فى عام ٨٢٨؛ وبدلاً من أن نجعل الحدث مزدوجاً، يبدو لى أنه من الطبيعى أن نظن فى وجود خطأ فى تاريخ مولد محمد. يبدو أن محمداً ابن سحنون كان ضابطاً فى الميليشيات، حيث نقرأ فى النهاية أنه منذ ذلك اليوم امتطى دائماً جياداً عندما كان يذهب للتفتيش.

(3) الثائر عمر بن نافع تحصن فى تونس حتى مات فى يونيو ٨٢٩.

حملتهم فى اصلاح سفنهم بأى شكل فى الميناء الكبير فى سيراكوزا: وصعدوا على متنها واستعدوا للإبحار: وعندها أغلقت قوات الأعداء البحرية القوية مدخل الميناء. عندئذ، وبدلاً من القيام بمحاولة غير مجدية لكسر دائرة حصار السفن المسيحية، تقهقر المسلمون إلى البر وأحرقوا سفنهم حتى لا يتركوها للعدو. توغل المسلمون فى الجبال، مستمدين عزمهم من اليأس، وبحثاً عن أماكن أكثر تحصناً وتتوفر فيها الظروف الصحية. ولم يترك لنا أى من الرواه تسجيلاً للخسائر الفادحة التى أصابت بالضرورة الجيش المنكوب بالوباء، والذى انتقل من الميدان إلى السفن ثم منها إلى البر، والذى اضطر فى عجالة إلى الاندفاع نحو طرق متصدعة وجبلية وعرة، بلا أمتعة وبلا بغال لحمل المصابين. ويشير ابن خلدون فقط إلى كثرة الكروب بقوله إن من تبقى على قيد الحياة لم يكن ليرغب فى شئ عندئذ سوى الموت(1).

بعد يوم من المسير من سيراكوزا بين مجموعة من البراكين الخاملة، ظهرت على قمة جبل مرتفع مدينة مينيو *Mineo* التى أعاد تجديدها دوتشيزيو *Ducezio*، ملك الصقليين القدامى قبل الميلاد بخمسة قرون، عندما بدأ صراعه العنيف ضد المستعمرات اليونانية. وعلى مسافة ميلين جنوب الحصن كانت تخرج من إحدى الفوهات البركانية مياه عكرة رائحتها كريهة كان يطلق عليها فى العصر القديم بحيرة باليتشى *Palici*: وهى مقر آلهة الانتقام. وبين هذه المواقع استراحت جماعة المسلمين التى التهمها الطاعون، وكان يقودها إوفميو الذى كان باسم الإمبراطور وردائه يحمل لعنات صقلية كلها: ويبدو أن الآلهة القدماء كانوا يجذبونه إلى الهاوية. وكان حصن دوتشيزيو يستمد من الدين الجديد حماية سانتا أجريبينا، الشهيدة الرومانية

(1) قارن: ابن الأثير المخطوطة *A*، المجلد الأول، ورقة ١٢٣ الوجه الثانى، والمخطوطة *C*، المجلد الرابع، ورقة ١٩١ الوجه الثانى؛ وابن خلدون *Histoire de l'Afrique et de la Sicilie* ص ١٠٧؛ النويرى، لدى دى جريجوريو، *Rerum Arabicarum*، ص ٥ و٦.

التى سرقت رفاتها نساء صـالحات نقلنها إلى مينيو *Mineo*، وتم تكريمها فى معبد وتقديسها بطقوس وشعائر، وساد الاعتقاد بأنها حامية المدينة. إلا أن أسـطورة يونانية خاصـة بالقرن العاشر أو الحـادى عشر روت أن سـانتا أجريبينا ظهرت للبربر الذين تسلقوا ليـلاً أسـوار مينيو وهى ترفـع لأعلى صليباً وكانت تطيح أرضـاً بالمعتدين فلم ينج منهم أحد(1). تقلصت بهذه الأسـطورة أحداث الحـرب التى وقعت فى أحـد الأعوام طبقاً للروايات العربية. ونعرف من هذه الأخبار كيف تسيد المسلمون اليائسون بعد ثلاثة أيام على مينيو (2)، حيث يبدو أنه قد تبدد عنهم الوباء كما يحدث عادة عند تغيير المكان. ولما استعادوا قواهم أرسلوا فرقة إلى الساحل الجنوبى؛ فقامت بالاستيلاء على چرچنتى، وهى مدينة تدهورت أحوالها كثيرا تحت السيطرة الرومانية والبيزنطية. ومن هنا شرعوا فى هجوم أكثرً أهمية.

(1) أسطورة انتقال جسد سانتا أجريبينا، فى تلخيص لقصص الاستشهاد وأسماء القديسين ذكرها جايتانى فى *Vitæ Sanctorum Siculorum* ، المجلد الأول، ص ١٨ وما يليها، الترجمة اللاتينية، وبولانديستى فى *Acta Sanctorum*، شهر يونيو، المجلد الرابع، ص ٤٥٨ وما يليها، أدخلوا الترجمات مع النص اليونانى للتلخيص وأسماء القديسين. وترى جماعة *Bollandisti* أن قائمة القديسين تم تسجيلها فى صقلية فى القرن العاشر أو الحادى عشر. لقد استبعد نقد الناشرين العارفين بعض شكوك جايتانى حيث صححوا زمن استشهاد أجريبينا ووضحوا أن المعجزة المفترضة قد وقعت ضد المسلمين وليس ضد محـاربى طقس الصور. والموجز الذى تم إملاؤه، كما يبدو لى، قبـل القـائمة أكثر صحة:

Agareni vero, cum præsumpsissent depredari propugnaculum templi ejus, omnigena morte interierunt (ἀπωλείᾳ παντελεῖ παρεδόθησαν) والتى ستصير «لقد قضى عليهم تماماً». أما القائمة وهى مدونة فى أبيات شعرية ففيها شئ من المبالغة فتقول: سانتا أجريبينا فى هيئة حمامة مسلحة بالصليب كانت تدمر المسلمين الذين يقتحمون قلعتها ليلاً، إلخ.

(2) يكتب ابن الأثير فى نهاية الفصل حول حرب صقلية الأولى أسماء المدن البارزة حرفاً بحرف طبقاً لعادة العرب. والاملاء الذى ينسبه لاسم هذه المدينة هو م، ى، ن، ا، و أى ميناو: المخطوطة *A*، المجلد الأول، الورقة ١٢٥ الوجه الثانى.

وبعد أن تركوا حامية فى مينيو، اندفعوا إلى قلب الجزيرة، جنوب صخور كاستروچوڤانى الهائلة. هذه هى إنّا *Enna* القديمة، التى يبدو أن اسمها تعرض للتشويه والتغيير فى لغة العـامة. وفى الواقـع كتبه البلاذرى، وهو مؤرخ عربى فى القرن التاسـع ذاتـه، قصر يانّه(1) *Kasr Iânna* الذى هو نقل لكلمة *Castrum Ennæ*، والذى ينطق *Ienna*؛ تماماً كما قد تنطق الآن فى صقلية، وخاصة فى ميسينا، حيث خلفت السلالة اليونانية الصقلية جذوراً عميقة لها. ولما أطـال العرب بعد ذلك المقطع الأول شاعت فى الجزيرة صـيغة يانّا *Ianna* وبمرور الزمن، وخاصة فى القرن الثانى عشر، عندما وصلت موجة جديدة من الشعب الإيطالى، تحولت إلى يوانّى *Ioanni* أو چوڤانى التى كانت كلمة أكثر ألفة للآذان، وتحول الاسـم بأكمله إلى الصورة التى يكتب عليهـا الآن. وقد لاحظت وحررت هذه التفاصيل الدقيقة، وهكذا سـأفعل فيما بعد عندما يلزم ذلك، متى تمكنت من مساعدة الدراسات اللغوية التى تبث الآن كثيراً من الأضواء الكاشفة للتاريخ.

وجـد إوفميو فى كاستروچوڤانى الموت الذى كان ربما يتوق إليه. بعد أن بدأ أحد الاتصالات مع أهـل البلاد أو الجنود، كان هناك من جاء للتفاوض معه؛ تظاهر بالرغبة فى استشارة مَنْ فى المدينة؛ جال بها ثم عاد إلى إوفميو مرة أخرى فى اليوم نفسه: وكانت الخلاصة أن المواطنين على استعداد لعمل ما يرغب فيه هو والمسلمون؛ واتفق على عدم الاعتراف باسم ميكيلى البالبو والقسم له بالولاء فى اليوم التالى فى ساعة ومكان محددين وعلى مسافة آمنة بين الأسوار وميدان القتال. واخفوا أسلحتهم فى الليل. وفى اليوم التالى، ظهروا فى ثياب الاحتفال وهم سعداء بولائهم، وجاء من الجانب الآخر إوفميو مع فرقة حراسة

(1) فى مخطوطة البلاذرى بمكتبة ليدن، رقم ٧٧٢، من الكتالوج الذى طبعه دوزى، ص ٢٧٥ من المخطوطة لا نرى حرف النون مضاعفاً؛ ولكن ابن الأثير يضاعفه، المرجع المذكور، ويكتب ق ص ر ى ا ن ن هـ.

قليلة العدد وتركها بعيداً خلفه. كان المواطنون يركعون أمام الإمبراطور المزعوم، علامة على التقديس والولاء، كما كانت العادة آنذاك، ولم يتم الكف عن هذا السلوك المخجل. ولكن انفصل عن قطيع الراكعين شقيقان ربما كانا صديقين لإوفميو فى فترة ما قبل الحرب، هرولا إليه شوقاً لعناقه: ولأن المسكين كان غير معتاد منذ زمن طويل على حرارة إبداء المشاعر، انفعل معهما وانحنى ليقبل أحد الشقيقين، الذى احتضن رأسه بحب بين يديه وتشبث بشعره وأمسكه بجهد شديد بينما عاجله الشقيق الآخر بضربه على عنقه أردته قتيلاً(1). عندئذ أشهرت الفرقة الأسلحة المخبأة: ثم حمل الخائنان إلى المدينة رأس إوفميو مهللين دون عقاب: وربما تم مقارنتهما بحادثة يهوديت، وأطلق عليهما محررا الوطن، أو كما أطلقت عليهم بعد ذلك رواية قسطنطين بروفيرو چينتو المنتقمين للشرف الإمبراطورى من المغتصب. هكذا كانت نهاية القائد الصقلى الشجاع الذى جرته مفاسد الحكم والبلاد إلى أن يتمرد على الحكم وأن يجعل من البلاد فريسة للأجانب.

ومع كل ذلك كان إصرار المسلمين على الحصار؛ وراح النبيل تيودوتو

(1) جمعت تفاصيل هذا الحدث الإجرامى والتى نقلها بطريقة متباينة النويرى، فى دى جريجوريو، *Rerum Arabicarum*، ص ٦، وفى الأخبار الإمبراطورية فى *Theophanes Continuatus*. الكتاب الأول، الفصل ٢٧، ص ٨٢ و٨٣. ويروى هذا الاغتيال بشكل أكثر إيجازاً ابن الأثير، المخطوطة *A*، المجلد الأول؛ الورقة ١٢٣ الوجه الثانى، المخطوطة *C*، المجلد الرابع، الورقة ١٩١ الوجه الثانى، ويمر عليها مرور الكرام ابن خلدون فى *Histoire de l'Afrique et de la Sicilie*، ص ١٠٧. هنا بدلاً من مازارا نقرأ مينيو كما يوجد بوضوح فى مخطوطات ابن الأثير والنويرى.
أما فيما يتعلق بمكان مقتل إوفميو فقد اتبعت المؤرخين العرب وليس المؤرخ البيزنطى الذى يحدده فى سيراكوزا. وفى ترجمة النويرى لابد من تصحيح عبارة دى جريجوريو *in terram procubuere manus ipsius comprehensuri*، بعبارة كوسين *comme pour se prosterner devant lui*؛ ومن الأفضل إستبدالها: فى وضع تقبيل الأرض أمام قدميه. أما رامبولدى، *Annali musulmani*، عند الإستشهاد بالنويرى الذى لا يقول شيئاً، يجعل إوفميو يتوجه إلى إنّا «مع مجموعة من أتباعه يدعمهم ١٠٠٠ أفريقى»

يدعم المدينة حيث كان قد وصل من فترة وجيزة من القسطنطينية مع جنود من أجناس مختلفة: الغالبية العظمى منهم ألمان، كما تذكر مخطوطة النويرى، ولكن ربما يجب أن نقرأها الأرمن(1). تقع كاستروچوڤانى فوق سطح وعر مائل يقطع قمة جبل مرتفع ذى جوانب منحدرة وعرة من كل ناحية: وجوانبه وعرة وعالية فى الشمال أكثر بكثير مما هى عليه فى الجنوب: وتتناثر البيوت فى مجموعات فى أعلاه وأسفله، كما تتماوج أرض السطح المنبسط حيث تظهر بأعلى صخرة هائلة وعرة من كل جانب، ومحاطة بأسوار عالية كبيرة: قلعة من الممكن أن يقال عنها حصينة منيعة، لأنه لم يتم الاستيلاء عليها إلا فى مرات نادرة جداً(2). وعلى الصخرة كان موجوداً فى القدم معبد شيريرى *Cerere*، وكأن الإلهة تحرس جزيرتها من تلك القمة: وهنا فى هذا المكان وضع البيزنطيون كل آمالهم فى الدفاع، ودعموا الموقع الحصين بما تفتقت به عبقريتهم فى المعمار العسكرى؛ وكانت البلدة التى تمتد فوق الجزء الممهد، حيث توجد المدينة اليوم، يمكنها أن تتحدى هى الأخرى هجمات العدو. كان العدو مرابطا عند حواف الجبل، أعتقد من ناحية الجنوب حيث يوجد السهل: وهذا ما يحملنا على أن نفترضه ابن الأثير عندما كتب كيف كان الجيشان ينتظمان فى صفوف الواحد فى مواجهة الآخر. إذ أن تيودوتو، القائد الجديد وحده بالاسم الذى كان للبيزنطيين فى هذه المعركة، لما كان واثقاً فى قدرته وفى عدد جنده، نزل إلى أسفل الجبل ليخوض المعركة. ومنى بهزيمة دامية حتى أنه اضطر إلى اللجوء مرة أخرى إلى كاستروچوڤانى، وترك خلفه للعدو عدداً كبيراً من الأسرى، أحصى بينهم تسعون نبيلاً، كما تذكر الروايات الإسلامية(3)، ربما كانوا شباباً من عائلات نبيلة، أو ربما هم نبلاء

(1) انظر الفصل الأول من هذا الكتاب ص٣١٦، هامش ٣.
(2) نظراً لأننى لم أذهب إلى كاستروچوڤانى، فقد استعنت بوصف الآخرين وبالأخبار التى حررها العالم المدقق داميكو فى *Lexicon Topographicum Siciliæ*.
(3) قارن ابن الأثير، وابن خلدون والنويرى، المواضع المذكورة.

أقل فى الدرجة: ولكن ذلك يكفى لتوضيح أهميـة الجيش البيزنطى.
ومن ثم استمر الحصار: وفى ذلك الوقت انتظم حكم المسلمين حتى
أنهم سكوا من الفضة التى استولوا عليها نقوداً. ومن هذه النقود يوجد
نموذجان أو نموذج واحد لا أدرى، أحدهما نشر صورته تكسن *Tychsen*،
والآخر يملكه متحف العملات فى باريس وقد يكون هو النموذج الأول
نفسه. إنها عملة رقيقة، غير مستهلكة، مسكوكة بحروف كوفية لها
طراز الدراهم العباسية المعاصرة نفسه؛ وهى تزن جرامين وتسعين
بالمائة، وتعادل لذلك حوالى ستين سنتيماً من الليرة الإيطالية. وبالإضافة
إلى الصيغ المستخدمة، يحمل الوجه الأول للعملة كلمة من ثلاثة حروف،
ورمزاً خاصاً بالأغالبة ثم اسم زيادة الله بن إبراهيم، وفى النهاية الكلمة
المركبة نفسها زيادة الله بمعنى «زيادة (ممنوحة من) الله». وفى الجانب
الآخر نقرأ، إضافة للصيغة المألوفة، كما فى أمثلة عديدة، اسم محمد
بن الجوارى ومن حوله: «باسم الله سك هذا الدرهم فى صقلية عام
مائتين وأربعة عشر»(1). لابد أن المقصود هنا هو بدايات ذلك العام

(1) لا يقرأ الرمز «على» أو بأى طريقة من الطرق السيئة التى وجدها دارسو العملات فى القرن الماضى، ولكنه بالتأكيد «غلب» وهو فعل ثلاثى يعنى «يغزو - يستولى - ينتصر» وهو مأخوذ من صيغة التمنى «ليغزو، ليغلب» إلخ. ومن هذا الفعل تشتق صفة أغلب التى كانت أيضاً الاسم المتوارث للأسرة. عندئذ ندرك الأصل اللغوى لذلك الرمز، والمعنى الخاص الذى يفيده عند إضافته لكلمة زيادة الله، أو «لتنتصر المشيئة التى قدرها الله»، والمعنى المزدوج للكلمات الذى تحويه الصيغة المكتوبة.

أنظر تيكسن *Additamentum I introductionis in rem nummariam Muhammedanorum* § ١، ص ٤٠ و٤١. فى نموذج باريس يوجد اسم الجوارى مسبوقا بكلمة (بن) وليس بأبى كما قرأها *Tychsen*. والصيغة التى توجد حول الوجه الأول مأخوذة من السورة التاسعة، الآية ٣٣ من القرآن.

السيد مورتيلارو، الأعمال الكاملة، المجلد الثالث، ص ٣٤٣ عندما لم يتوفر لديه إلا التصميم الذى نشره *Tychsen*، اعتقد أن هذا الدرهم مزيف «وأنه أثر من تزييف ڤيلا». ولكن يكفى مشاهدة سك نموذج باريس سكاً جيداً حتى يتبدد أى ريب فى التزوير: ويكفى ملاحظة دقة الصنع وصحة الكتابة وقواعد النحو حتى نتأكد أن ڤيلا الجاهل ليس له بها أى علاقة.

ولا توجد فى متحف باريس أى مذكرات مكتوبة أو آثار تؤكد أو تنفى أن هذا النموذج هو نفسه نموذج *Tychsen*.

او بداية ربيع عام ثمانمائة وتسعة وعشرين؛ وهو الوقت الذى كان فيه العرب
يحاصرون كاستروچوڤانى وتوفى فيه محمد بن الجوارى.
وبعد موته، كانت إعادة تنصيب زهير بن غوث(1) قائداً بناءً على
اختيار الجيش، وعادت غلبة الحرب إلى البيزنطيين، لأنه ما أن خرج
بعض العرب للإغارة والسلب كالعادة للحصول على الغنائم، حتى أرسل
تيودوتو أناساً لمهاجمتهم فقاتلوهم وهزموهم؛ وفى اليوم التالى، كذلك
عند لقاء الجيشين فى يوم حاسم، حاز تيودوتو النصر، وقتل زهاء ألف
رجل من المسلمين وطاردهم حتى المعسكرات حيث تحصنوا فى
خنادق، ولكنهم بدورهم حوصروا وأغلق عليهم أى طريق للخروج. وفى
غضون ذلك تهيأوا للرد رداً حاسماً بمحاولة الهجوم ليلاً على المعسكر
البيزنطى، وعندما علم تيودوتو بالأمر ترك الموقع خالياً وعسكر فى
الجوار؛ وعندما احتـل المسـلمون المعسكر فى دهشة لعدم وجود أحياء
فيه، انقض عليهم العدو بغتة من جميع الاتجاهات وأعمل فيهم القتل،
وانسحب المنهزمون بصعوبة إلى مينيو. وبعد أن واصل تيودوتو مطاردتهم
حاصرهم فى القلعة وأدى بهم ذلك إلى نقص المؤن مما دفعهم لأكل
البغال والكلاب. وعندما ذاعت هذه الأخبار قامت حامية چرچنتى
الصغيرة بتدمير المدينة؛ كما نقرأ فى الروايات، وربما دمرت فقط
الحصون؛ وعندما لم تتمكن من انقاذ حامية مينيو، تقهقرت إلى مازارا.
تضخم الجيش البيزنطى واشتدت عزيمته بقائد قدير؛ وأصبح سكان
الجزيرة أكثر اعتياداً على صوت الأسلحة وسخطاً على انتهاك المقدسات
وأعمال التخريب التى يقوم بها العدو. وأضير هؤلاء بين الانتصارات
والهزائم، ولم يكن لديهم ثقة فى القائد الجديد، وغاب عنهم أيضاً
إوفميو الذى تبدد أنصاره من قبل: كانت تلك أحوال الرجال الذين كانوا

(1) اكتب هذا الاسم طبقاً للمخطوطة *A* لابن الأثير. وفى المخطوطة C يقرأ بوضوح اقل. ويوجد فى النص المطبوع لابن خلدون «ابن عون» وفى إحدى مخطوطات تونس للكاتب نفسه ابن «عوم»: النويرى طبقاً لكلا المخطوطين «زهير ابن برغوث». غوث هو اسم قبيلة عربية من سلالة قحطان.

يتحاربون على أرض صقلية البائسة. لم يعد يبقى للفاتحين سوى مازارا ومينيو المنعزلتين على طول الجزيرة بدروب وعرة وشعب مناهض: وكانت الأولى لاتزال قائمة، لأنه لم يتم الهجوم عليها إطلاقاً والأخرى وهى قلعة حصينة كانت توشك على الخضوع بسبب الجوع. عندئذ كانت تبدو نهاية الحرب وشيكة للغاية فى صيف ثمانمائة وتسعة وعشرين، بعد عامين من نزول أسد إلى مازارا(1).

(1) قارن ابن الأثير، المخطوطة *A*، المجلد الأول، ورقة ١٢٤ الوجه الثانى، والمخطوطة *C*، المجلد الرابع، ورقة ١٩١ الوجه الثانى؛ ابن خلدون *Histoire de l'Afrique et de la Sicilie*، ص ١٠٨، والنويرى لدى دى جريجوريو، *Rerum Arabicarum*، ص ٦ و٧. أكدت التاريخ معتقداً موت ابن الجوارى فى أوائل عام ٢١٤، كما يتضح بمقارنة كتابه الدرهم وشهادة النويرى، ونقلت عن **البيان** وهو دقيق جداً وقت وصول الأسطول الأسبانى إلى صقلية، الذى حرر المسلمين من الإبادة الوشيكة. وتقع وقائع الحرب التى يرويها ابن الأثير بتباين ضئيل فى الترتيب الزمنى، بشكل ملائم للغاية بين هذين التاريخين.

الفصل الرابع

وفى ذلك الوقت حلت ببحار صقلية قوة بحرية أسبانية بقيادة أصبغ بن وكيل وهو من قبيلة هوارة من البربر ويطلق عليه فرغلوش(1). كان رجال القوة من أسوأ الرجال الذين كان يفرزهم المجتمع الإسلامى فى أسبانيا أثناء غليانه، وكانت الأحداث تجعل منهم لصوصاً وأبطالاً وشهداء وغزاة فاتحين: مثل الخارجين من قرطبة فى كريت، ومثل مئات الجماعات الأخرى التى عانت منها السواحل الجنوبية لفرنسا وسواحل إيطاليا الشمالية حتى أقصى أطراف جبال الألب. وما أن نزل أصبغ إلى صقلية وما أن طلب منه المسلمون الغوث حتى زودهم بمؤن غذائية وفيرة تكفى مينيو (كتانيا) ووعدهم بما هو أكثر إذ وجد المجال أمامه مفتوحاً للمكاسب. ولعل مساعدات أخرى قد وصلت من أفريقيا بعد أن أخمد زيادة الله تمرد تونس(2).

أما الجانب المسيحى فقد أضعفته الحرب. فقد نزل جيش البندقية من جديد سنة ثمانمائة وتسع وعشرين أو فى السنة التالية إلى صقلية دون أن تحدوه أية رغبة فى التعرض للخطر من أجل إمبراطور القسطنطينية وهكذا عاد أدراجه، كما يقول أحد المؤرخين الوطنيين، دون أن يحرز نصراً(3).

(1) ينطق حسب القراءة الفرنسية *Ferghaloûch*، أو الإنجليزية *Ferghalûch*. أما الإيطاليون القدماء فكانوا يكتبونه *Fergaluscio* (فرغلوشو).

(2) يذكر **البيان**، وهو أدق المراجع التاريخية وأكثرها التزاماً فى هذا الإطار، أن تاريخ وصول أصبغ ووعوده هو سنة ٢١٤، وأن مساعداته المؤثرة ترجع إلى سنة ٢١٥. وهكذا نجد حلاً للتضارب بين روايتى ابن الأثير والنويرى حيث يذكر أولهما أن جيشاً كبير العدد وصل من افريقيا سنة ٢١٤؛ بينما يذكر الثانى أنه أتى من أسبانيا سنة ٢١٥.

(3) يوهانس دياكونى، *Chronicon Venetum*، فى برتز، الجزء السابع، ص ١٦. تاريخ الحملة الثانية ليس مؤكداً لأن المؤرخ يذكر فقط تاريخ الحملة الأولى وهو سنة ٨٢٧ ويقول إن الحملة الثانية أرسلها الدوج الذى خلف چوستنيانو بارتشيبا تسيو والمعروف أنه توفى

ولم يفعل غير ذلك النبيل ثيودوتو الذى كان يحاصر مينيو (كتانيا) منذ أكثر من سنة، ربما لأنه لم يكن يعانى من أعدائه قدر معاناته من حكومته، ومن الشئون المضطربة والتبديد ومن المد والجزر فى بلاطه؛ وخاصـــة أنه بعد وفاة ميكيلى البالبو فى أكتوبر عام ثمانمائة وتسعة وعشرين خلفه تيوفيلو، وهو شاب مستقيم وشجاع ولكنه قليل العقل، غريب الأطوار فى حكمه، سئ الحظ فى الحرب، قاسياً فى بيته، وكثيراً ما اقترف مثل غيره الغدر والمكر، لأن الاستبداد أشبه ما يكون بمنزلق لا تثبت عليه الأقدام.

وفى صيف ســنة ثمانمائة وثلاثين وصل الدعم الضخم الذى كان ينتظره مسـلمو صــقلية : ثلاثون ســفينة، هذا ما يذكره أحد المؤرخين(1)، كانت تحمل رغم صغرها ما بين عشرين وثلاثين ألف رجــل، وهو عدد ضخم إذا ما اتخذنا حملة أسـد مقياساً. كانوا رجالاً من مختلف الأصـــول والميول والمقـــاصد : عرب وبربر من أفريقيا أرسلهم زيادة الله لمواصلة الفتح(2) : وعدد غفير من العرب والبربر ومن الجائز أيضاً من سكان أسـبانيا الأقدمين الذين لم يكن لهم من غاية إلا الإغارة؛ وكان يقودهم أصبغ وقادة آخرون تذكرهم صراحة

سنة ٨٢٩. راجع داندولو، الكتاب الثامن،الباب الثانى، الفقرتين ١ و٩ من كتاب *Muratori, Rerum Italicarum Scriptores* الجـــزء الثـــانى عشـــر وكذلك *Cronica Altinate* فى *Archivio Storico Italiano*، الجزء الثامن ص ٢٠. أما رامبولدى *Rampoldi, Annali musulmani,* فيحول فى الجزء الرابع ص ٢٣٧ عمليتى سنة ٨٢٧ و٨٢٩ أو ٨٣٠ إلى «معارك شرسة خاضها أسد وهو يمر من سوسة إلى مازارا ضد أسطول البندقية الذى تحالف مع الإمبراطور». والأسوأ من هذا أنه يستشهد بالنويرى الذى لم يشر بكلمة إلى هذه الأحداث.

أما مارتورانا *Notizie Storiche ec.* فيذكر فى الجزء الأول ص ٣٩ أن السفن اليونانية وصلت سنة ٨٣٠ بقيادة تيوفيلو الذى أرسله والده ميكيلى البالبو (المتوفى سنة ٨٢٩) ويذكر أن قوات البندقية قد هاجمت تيوفيلو. وفى هذا الصدد فإن أحد الخبرين غير صحيح أما الثانى فلا قيمة له.

(1) ابن الأثير.

(2) يذكر أن ابن الأثير يتحدث هنا عن معونات أفريقيا فقط؛ ولكن مع تطور الحرب يشير إلى المعونات الأسبانية بشكل يجعلنا نعتقد أنها كانت مساعدات كثيرة للغاية.

إحـدى الروايات التـــاريخية(1)؛ وتذكر رواية أخــرى سليمان بن عافية *da Tortosa* (2). أخذ الأسبان، وكانوا قليلى العدة، فى السلب والنهب، وخطف الأسرى وبيعهم مثل كل غنيمة، ولم يتحركوا لنجدة إخوتهم فى مينيو (كتانيا) إلا بعد أن تعهدت الحامية بأن يتولى أصبغ القيادة العليا(3) وأن يتم تزويدهم بالجياد(4)، ربما من جانب الأفارقة الذين كانوا يمسكون بزمام مازارا. وهكذا أخذ أصبغ فى احتلال القلاع التى يمر بها لتؤمن انسحابه، وهاجم تيودوتو قرب مينيو (كتانيا)، وكسره وقتله، وجرت فلول الجيش البيزنطى لتحتمى فى كاستروچوڤانى : التى وقعت معركتها فيما بين يوليو وأغسطس سنة ثمانمائة وثلاثين(5). وبعد أن دمر وحـرق مينيو المشـئومة وســار بكل جيشه نحو مدينة يذكر **البيان** أنها غلوليا أو غللوليا، ولتشابه اسمها وموقعها يبدو أنها كللانيانا المذكورة فى مســيرة أنطونيو والتى كانت موجودة فى موقع

---

(1) **البيان.**

(2) النويرى.

(3) **البيان.**

(4) النويرى.

(5) قارن بين ابن الأثير، المخطوطة *A* ، المجلد الأول، الورقة ١٢٤الوجه الأول، والمخطوطة C، الجزء الرابع، الورقة ١٩١ الوجه الثانى؛ **البيان** المجلد الأول، ص ٩٦، والنويرى لدى دى جريجوريو *Rerum Arabicarum* ص ٧، وابن خلدون، **تاريخ افريقيا وصقلية**، ص ١٠٨؛ *Chronicon Cantabrigiense* لدى دى جريجوريو، المرجع المذكور ص ٤١. تؤرخ هذه الرواية لوفاة تيودوتو عام ٦٣٣٩ من تقويم القسطنطينية عندما استولى المسلمون على مدينة نقرأ اسمها فى النص العربى ميساو. ويروى النويرى هـزيمة تيودوتو عند مينيو، وانه لجأ إلى كاستروچوڤانى فى شهر جمادى الثانى سنة ٢١٥، أى من ٢٥ يوليو إلى ٢٢ اغسطس ٨٣٠، ولكن قبل أيام قليلة من بداية سنة ٦٣٣٩ التى بدأت يوم ١ سبتمبر ٨٣٠ وحتى ٣١ اغسطس ٨٣١. ويقول ابن الأثير **والبيان** أن الحصار رُفع عن مينيو. هذا الاسم إذن المكتوب بالعـــربية ميناو (*minãw*) يمكن خلطه بسهولة بالاسم الوارد فى رواية كمبردج، بخلط الحرفين *i*، *n* بحيث يشبهان حرف *s*. ولكنى اعتقدت أن أصحح ما جاء فى نصوص الرواية غير الدقيقة وذكر أنها مسينا. إقرأ إلى جانب هذه الملاحظة الفقرات المذكورة عند مارتورانا المجلد الأول، ص ٤١ وونريش، الكتاب الأول الفصل الرابع§، ٣٧. وفى سنة ٨٣١ وهى السنة التى سجلوا فيها الاستيلاء على مسينا كان العرب يحاربون بعيداً جداً عن تلك المنطقة.

كلتانيسيتا الحالى أو غير بعيدة عنه(1)، على شاطئ نهر سالسو الذى يشطر جنوب صقلية إلى قسمين. ثم سيطر المسلمون على ما أطلق عليه فيما بعد وادى مازارا الذى يمتد غرب النهر وهى أكثر المناطق المنبسطة فى الجزيرة؛ وواجهوا كاستروجوڤانى التى تعلو كلتانيسيتا بمسيرة نصف نهار؛ وكان النهر يفصلهم عن المنطقة الكائنة فى الزاوية بين الشرق والجنوب، وهى منطقة جبلية تؤمنها الأسلحة البيزنطية فى سيراكوزا. كان الموقع مختاراً بعناية. ولكن بعد أن استولى المسلمون على غللوليا، أصابت الأمراض الجيش، فقد انتشر سريعاً وباء الطاعون، ومات أصبغ نفسه وكثير من القادة متأثرين به. وبعد أن منحت الحرية للآخرين لترك المدينة، وشعر البيزنطيون بهذا الأمر، هاجموهم أثناء انسـحابهم. وبعد معـارك دموية طويلة وصـلت فـلول الجيش إلى ساحل البحر، ربما عند مازارا، حيث استعادوا السفن وعادوا مقهورين إلى أسبانيا(2).

ولكن بينما كان أصبغ يتجه إلى مينيو، كانت هناك زمرة من المسلمين أغلبها من الأفارقة قد تحركت، على ما يبدو، من مازارا متجهة إلى بالرمو، وبدأت الحصار فى شهر جمادى الثانى ذاته سنة مائتين وخمس عشرة (٢٥ يوليو إلى ٢٢ أغسطس ٨٣٠) وانكسر تيودوتو(3). أمَّن احتلال غللوليا قوات الحصـار من مجئ القـوات البيزنطية من كاسـتروچوڤانى، أى من سـيراكوزا، لمهـاجمتها؛ ولم تمثـل هزيمة جيش أصـبغ خطرا كبيرا؛ لأنـه يبدو أن عدداً غيـر قليـل من القـادة، بدلاً من أن ينسـحبوا فى اتجـاه السـاحل غرباً أو جنوباً،

---

(1) كللويانيس هى إحدى نقاط استبدال الجياد فى الخط الجديد الذى تم فتحه بين كتانيا وچرچنتى (حسب المسار).
أنظـر طبعـة م. فورتيا دوربين. *Itinéraris des anciens* ص ٢٧.

(2) **البيان**، المجلد الأول، ص ٩٧.

(3) يذكر النويري لدي دي جريجوريو، المرجع المذكور، ص ٧، يذكر هذا التاريخ مؤرخا به بداية حصار بالرمو، وأسير أنا علي منواله في هذا، إذ أنه يتطابق مع رواية ابن الأثير، الذي أخذنا عنه تفاصيل الحصار.

اتجهوا إلى المعسكر تحت بالرمو(1). وبالرمو مدينة أسسها الفينيقيون قبل مجئ المستعمرات اليونانية إلى صقلية؛ وهى ذائعة الصيت فى حروب قرطاچنة؛ وكانت مزدهرة أو أقل انهياراً من غيرها تحت حكم الرومان، قوية فى القرن السادس عندما اقتحمها بليزاريو، مأهولة وغنية فى القرن السابع، كما تذكر رسائل القديس غريغوريوس؛ واستمرت أهميتها أثناء ثورة إوفميو. وقد صمدت المدينة، وكانت آنذاك تتمثل فى وسط المدينة الحالية، أمام المسلمين عاماً كاملاً فالبحر والبحيرات تحميها، وقدم لها الإمبراطور تيوفيلو مساعدات قليلة، أو لم يقدم لها شيئاً على الإطلاق. ولكن مواطنيها استبسلوا فى الدفاع عنها دفاعاً لاينسى: فقد كان عدد سكانها فى بداية الحصار سبعين ألفاً بقى منهم عند نهايته ثلاثة آلاف، ولقى الآخرون حتفهم، حسب شهادة ابن الأثير. وأيا كان رأينا فى الأرقام، فإن هذه الشهادة تدل على وفيات كثيرة، زادها بلاشك وباء الطاعون الذى استشرى فى صقلية لمدة أربع سنوات. وأخيراً، وأثناء شهر رجب سنة مائتين وستة عشر (١٣ أغسطس إلى ١١ سبتمبر ٨٣١) استسلم حاكم المدينة وانقذ حياة الأفراد والأملاك(2): كان الحاكم هو الأسقف لوقا الذى رحل عن

---

(1) يشير ابن الأثير، كما سنذكر فى موضعه، إلى الخلافات المريرة التى كانت تثور بين
الأفارقة والأسبان بعد استعادة بالرمو. ولهذا كان الأسبان كثيرين؛ ويفترض بالضرورة
انهم جميعاً أو أغلبهم قد حضروا مع أصبغ ولم يكونوا من المساعدات الأسبانية التى
جاءت مع أسد أو التى وصلت أثناء حصار سيراكوزا سنة ٨٢٧؛ وأن جانباً يسيراً منهم
استطاع أن يبقى على قيد الحياة بعد وباء الطاعون وبعد هزائم كاستروچوڤانى وبعد
مجاعة مينيو.

(2) ابن الأثير، المخطوطة *A*، المجلد ١، الوجه الأول للورقة١٢٤؛ المخطوطة C، المجلد
٤، الوجه الثانى من الورقة ١٩١. **أخبار كامبردچ** دى غريغوريوس، المرجع المذكور ص
٤١، يشير إلى احتلال بالرمو سنة ٦٣٤٠، أى من الأول من سبتمبر ٨٣١ إلى ٣١ أغسطس
٨٣٢. ابن خلدون، *Histoire de l'Afrique et de la Sicile* ص ١٠٨ يؤرخ لاستسلام
بالرمو بسنة ٢١٧، ويخلط بين هذا الأمر وبين قيام الحكومة بها الذى جاء بعد ذلك سنة
٢١٧. ويذكر النويرى أن الاستسلام وقـــع فى شهر رجب سنة ٢٢٠ (٨٣٥)، وقد جانبه

البلاد(1) بحراً مع القلة القليلة التى كانت تستطيع الرحيل دون أن تموت جوعاً. وتم استعباد سكان البلاد. كما يذكر چوڤانى دياكون نابولى. باعتبارهم ذميين أو موالي دون أن يتملّك أى منهم عقارات ثابتة(2).

ولا يمكن الجزم بأن زمرة المسلمين المختلطة قد اقترفت خلال الحصار وبعده أعمال تخريب وعنف ومذابح فى البلاد كلها؛ ولكن التاريخ قد يقبل من القصص الدينى استشهاد الراهب سان فيلاريتو دا بالرمو والعديدين غيره، الذين أرادوا الهرب إلى كلابريا عندما احتل العدو الأراضى أو المدينة فتم القبض عليهم وخيروا بين إنكار إيمانهم

الصواب كما هو واضح من افتراضه أن المدينة قد استسلمت لمحمد بن عبدالله بن أغلب، ويفترض، وهذا هو الخطأ الثانى، أنه كان رئيس مسلمى صقلية فى تلك السنة. ويذكر فى طبعة براتيللى (*La cronoca della cava (Pratilli* *Historia Principum Longobardorum,* الجزء الرابع ص ٣٩١ أن الاستيلاء على بالرمو كان سنة ٨٣٢، ولكن هذا الخبر مأخوذ بوضوح من *Cronica di Cambridge* ولكن أدخله براتيللى ناقلاً إياه بشكل تفضحه كلماته (المجلد نفسه ، ص ٣٨١) واتضح تزييفه من خلال أبحاث برتز وكوبكى، *Archiv fiu altëre Teutsche Geschichts Kunde.*

(1) يوهانس دياكونوس، *Chronica episcoparum Sanctæ Neapol. Eccl.,* في كتاب موراتورى *Rerum Italicarum Scriptores,* المجلد الأول، الجزء ٢، ص ٣١٣ يقول إنه بعد أخذ المدينة تم إطلاق سراح سيمون مع الأسقف لوقا وقليلين غيره. ويبدو أن سيمون هذا كان هو الحاكم.

(2) ابن الأثير، المرجع المذكور، يكتب أن حاكم (صاحب) بالرمو طلب ونال الأمان لنفسه وأهله وماله (ماله أى أملاكه المنقولة). ولا يسمح لنا المعنى المبهم لكلمة أهل، التى تعنى تارة أسرة أو أهل البيت وتارة شعب، أن نحدد هذا الشرط الأول من شروط العهد. ولكن بإضافة أن الحاكم وأهله قد انصرفوا بحراً يجعلنا نعتقد أنهم كانوا من الشخصيات البارزه وليسوا كل السكان. أما بالنسبة للبند الثانى فإن ابن الأثير يقول بتأمين «ماله»، أى مال الحاكم، وليس «مالهم» كما كان ينبغى لوأنه اتفق على ذلك بالنسبة لكل المواطنين. وتتفق هذه التعبيرات مع تلك التى استخدمها چوڤانى دياكونو، الذى ذكرناه سالفاً: *Ad postremum vero capientes Panormitanam provinciam, cunctos ejus habitatores in captivitatem dederunt.Tantummodo Lucas ejusdem oppidi electus et Symeon spatharius cum paucis sunt exinde liberati.*

أو الموت، فاختاروا لفضيلتهم الموت(1). وفى هذا الصدد تخيل البعض قصصاً، والأسوأ من هذا أنهم زيفوا خطابات للرهبان البندكتيين ببالرمو الذين شتتهم المسلمون(2). وعندما بنى فى القرن الرابع عشر دير سان مارتينو البندكتى فى موقع أخاذ بين الجبال المشرفة على المدينة، روج الرئيس الجديد وكتب أن مؤسس هذا الدير هو القديس غريغوريوس وأن الرهبان والراهبات قد رسموا بمحبتهم لوحاته وقام السراسنة بهدمه سنة ثمانمائة وسبع وعشرين، وهو التاريخ الذى اعتقد أنهم دخلوا فيه إلى بالرمو(3).

وسوف نتحدث عن المقصود بهذا السبى عندما سنعالج بشكل عام حال المسيحيين فى صقلية تحت حكم المسلمين، واختلافه من مكان إلى آخر. وعلى كل حال ينبغى أن نأخذ فى الحسبان أنه لم يترك لمسيحيى صقلية أن يمتلكوا عقارات ثابتة، ويبدو لى أن هذا واضح من كلمات ابن الأثير وچوڤانى دياكون.

أما النويرى فلم يعر اهتماماً للنص المماثل فى الأخبار الذى وقع تحت بصره مثلما أعاره ابن الأثير اهتماماً فإنه يقول بشكل عام أن بالرمو أُخِذَت بالأمان، أى بالعهود. ومن هنا فإن دى جريجوريو افترض تطبيق كل الشروط المَعتادة للأمان الذى كان يمنح للمدن؛ وشرح بعضاً منها فى الهامش ٢. لكتاب النويرى المذكور، ص ٧. ولكن الشروط، وخاصة بالنسبة للأملاك، لم تكن ولم يكن من المستطاع أن تكون واحدة فى كل الأنحاء.

(1) جايتانى *Vitæ Sanctorum, tomo II, p. 42*: السيرة نفسها فى مجموعة يوم ٨ أبريل *Bollandisti, Acta Sanctorum, dì 8 Aprile*

(2) انظر فرانشيسكو أبريلى *Della Cronologia Universale della Sicilia,* ص ٤٨٧.

(3) مونچيتورى *Palerm. santif.,*، ص ١٦٤ والنص مأخوذ من أبريلى. وقد أخذ مونچيتورى هذه الأخبار من مخطوطة للأب أنچلو سينزيو وهو الرئيس الأعلى للدير فى سنة ١٣٥٢. وعن تاريخ دير سان مارتينو فى بالرمو توجد مخطوطة فى المكتبة الإمبراطورية بباريس عنوانها *Chronica Monasterii S.Martini de Scalis* (*SaintGermain - des - Prés n.° 590*) وقد تمت كتابة المخطوطة فى صقلية فى بدايات القرن الثالث عشر وهى موجهة إلى الأب ماسويت من رهبنة *St Maur.*

الفصل الخامس

كان احتلال بالرمو بداية حقيقية لاحتلال تلك الجزيرة، لأن المسلمين حتى ذلك الوقت لم يستقروا إلا فى أرض المعركة أو داخل قلاع صغيرة، وكان هذا هو حال مازارا أيضا. وكان أن احتشدت قواتهم لمدة أربع سنوات على الجانب الآخر من البحر فى غليان بسبب الحماس الدينى أو بسبب الجشع. ثم جرى تزويدهم بالمؤن بصعوبة، ثم بصعوبة أكثر تم نقل المعونات إلي الجزيرة بحراً، وكانوا جميعاً قد عاشوا على تبديد ما سلبوه، وحاربوا تحت قيادة قادة مختلفين، دون ضبط أو ربط. ولكن المدينة الحصينة مترامية الأطراف شبه الخالية من السكان، والأراضى الخصبة والمزارعين الذين كانوا يقومون بزراعتها، والذين كانوا فريسة طليعةالفاتحين، كل هذا استهوى جماعة المنتصرين للإقامة فى بالرمو بالاضافة إلى الحذر من المصائب السابقة، وكان أن أدرك أكثرهم وعياً مزايا أن يكونوا جماعة تحكمها حكومة نظامية؛ جماعة لها كثافة سكانية بحيث توفر الرجال والعدة للحرب، وأن تتمركز فى قلب الجزيرة وأن يكون لها ميناء ملائم يمكن الدفاع عنه ولا تنقصه إمكانات بناء السفن أو إصلاحها بسهولة ويسر.

ولكن من ناحية ينقض على جثمان بالرمو أفراد الجيش من الأفارقة والأسبان؛ الذين عانوا من وجودهم معاً - كما يقول ابن الأثير(1) وتقاتلوا: عند اقتسام الغنائم ولا شك. ومن ناحية أخرى أخذ زيادة الله فى تنظيم أمور الجماعة. ورغم أن الأسبان كان يمكنهم التعلل بسيادة الأمير الأموى، فإن الغلبة فى صقلية كانت واضحة للأغالبة لفضلهم فى خوض الحرب، ولأن مقرهم كان الأقرب، وقواتهم

(1) المخطوطة *A*، المجلد الأول، الورقة ١٢٤؛ المخطوطة *C*، الجزء الرابع، الورقة ١٩٢ الوجه الأول.

فى الجيش هى الأغلب. غير أنه فى عام مائتين وستة عشر، وكانت تبقى منه حينئذ خمسة شهور منذ الاستيلاء على بالرمو، قام زيادة الله باختيار ابن عمه أبى فخر محمد بن عبدالله بن أغلب(1) نائباً عنه فى صقلية وكان قد ذاع صيته ذات مرة وهو يحارب فى صقلية، وبعد ذلك لإخلاصه هو وأخوته فى الحرب الأهلية لمنصور الطنبدسى(2). ووصل أبو فخر إلى صقلية وقد ذاع صيته أميرا للدماء ومعه أناس موثوق بهم وذلك فى سنة مائتين وسبع عشرة (٦ فبراير ٨٣٢ إلى ٢٥ يناير ٨٣٣). وتذكر الروايات أنه أخرج من صقلية عثمان بن كُهرب(3) ولا نعلم أصله ولكنه بلا شك رئيس إحدى الجماعات التى طفت على السطح أثناء تلك القلاقل: ونقرأ فى مكان آخر أن الخلافات بين الأفارقة والأسبان قد نشأت فى ذلك الوقت(4).

ويبدو أن الجماعة نظمت أمورها على أنها مركز دولة جديدة غير تابعة بالكامل لأفريقيا؛ فقد حملوا إليها تلك العناصر مختلفة الأجناس المثيرة للقلاقل، غير المستعدة للخضوع لدولة الأغالبة دون الحصول على استقلالية كبيرة للغاية. وسيظهر هذا من تطور الأحداث. ويدل على هذا أيضاً لقب صاحب الذى أطلقه كتاب «مجتهدون» على أول

(1) **البيان**، المجلد الأول، ص ٩٧، سنة ٢١٦؛ ابن أبّار، المخطوطة، ورقة رقم ٣٥ الوجه الأول، تذكر أن التاريخ هو سنة ٢١٧.

(2) النويـــرى، *Conquête de l'Afrique* وهو ملحـــق لكتـــاب ابن خلدون *Histoire des Barbères* ترجمـــة م. دي سلان الجزء الأول، ص ٤٠٩. أنظر أيضاً ابن خلدون ترجمة دي ڤرچيه *Histoire de l'Afrique*, ص ١٠١.

(3) **البيان**، المجلد الأول، ص ٩٧، فى سنة ٢١٧. قد نقرأ فى إحدى الروايات القديمة أن أول نائب مسلم على صقلية قد تم اختياره بعد الاستيلاءعلى بالرمو مباشرة، ويذكر ابن خلدون، ترجمة دي ڤرچيه، المرجع المذكور، أن الاستيلاء عليها كان فى سنة ٢١٧ عندما وصل محمد بن عبدالله (أبو فخر) وليس عندما أختير فى سنة ٢١٦. والخطأ المزدوج، وهو الخلط بين تاريخى الاختيار وأسماء أوائل الولاة جعل النويرى فى *Di Gregorio, Rerum Arabicarum* ص ٧ يؤخر تاريخ الاستيلاء على بالرمو إلى سنة ٢٢٠، ويجعل من السنة نفسها تاريخ بداية حكم محمد بن عبدالله وهى السنة التى قتل فيها.

(4) ابن الأثير، المرجع المذكور.

حكام الجزيرة، وهو اللقب الذى إذا لم يقترن به أى لفظ يحدد معناه، فإنه يطلق على رؤساء الدول(1)؛ وهو يختلف عن لقب أمير، وكذلك عن والٍ(2). ونعلم كذلك أنه فى عام مائتين وواحد وعشرين (٨٣٦) توفى فى القيروان قاضى صقلية(3)؛ وهذا يدل على أن هذا القاضى الأعلى قد تم تعيينه منذ بداية مؤسسات هذه الجماعة. ويرجع إلى هذا الوقت الدرهم الذى قام بنشره تيكسن *Tychsen* ولكنى لم أره. فإذا لم يكن هذا الدرهم مزيفاً فإنه سوف يساعد على التأكيد بأنه فى سنة مائتين وعشرين هجرية (من ٤ يناير وحتى ٢٤ ديسمبر ٨٣٥) كان محمد بن عبدالله يحكم صقلية وأنه كان يضرب نقوداً من الفضة باسمه واسم أمير أفريقيا، مثلما فعل من قبله بست سنوات محمد بن الجوارى(4).

---

(1) فى حوليات العرب يختلط استخدام لقب صاحب بلقب ملك؛ ويطلقونه على أباطرة القسطنطينية وعلى ملوك صقلية من النورمان إلخ. أما إذا خصصه لفظ آخر فإنه يكتسب معنى آخر: فعلى سبيل المثال صاحب الشرطة، وصاحب الأسطول إلخ. والأصل أن معنى لفظ صاحب هو «رفيق» ومن يدرى ربما أرادوا ترجمة لقب *comes*؟

(2) انظر الكتاب الأول، الفصل السادس، ص ٢٢٠.

(3) **البيان**، الجزء الأول، ص ٩٨ ـ ٩٩. لم يذكر اسمه؛ ولكن يبدو أنه قاضى القيروان أبو محرز الذى سبق ذكره؛ ومن المؤكد أنه شخصية يقدرها الأمير وأنه كان ورعاً أو عظيماً لدرجة أن ذاك منع تكريمه فى وفاته. وربما يكون هناك خطأ ما حيث أن **رياض النفوس** لم يشر إلى هذا فى سيرة أبى محرز.

(4) *Tychsen, Additamentum I introductionis in rem nummariam Muhammedanorum,* ص ٤٣ كان الوجه الآخر هو وجه درهم سنة ٢١٤ الذى تحدثنا عنه فى ص ٢٨٣، ٢٨٤. أما الوجه الأول فإنه يحمل العبارة الدينية نفسها واسم محمد بن عبدالله أما الوجه الآخر فنجد: «بسم الله ضرب هذا الدرهم فى صقلية سنة ٢٢٠»، ثم يأتى اسم الجزيرة مكتوباً هكذا إسكيليا مع وضع حرف ألف وهو ما يذكرنا بطريقة النطق فى اللغة المالطية. ودون أن أرى الدرهم فإننى لن أستطيع أن أصرح بأنه مجرد إدعاء، خاصة وأن فيللا قام ـ كما أعتقد ـ بتزييف عملات قليلة وادعى وجود عملات أخرى لم يكن لها وجود.
إن كتابة هذا الدرهم قام بطباعتها السيد مورتلارو، **الأعمال الكاملة**، المجلد الثالث، ص٣٤٤.

ولم تظهر لمدة سنتين عصبة لها أهميتها بسبب انشغال المسلمين بترتيب أمور الأملاك وكل المسائل المدنية الأخرى؛ وكذلك بسبب شهرة ألسيو موشيج، شريف صقلية الجديد. هذا الشاب الأرمنى الشجاع، جميل الطلعة كان قد حظى برضا تيوفيلو حتى أن من بين شطحاته، أنه خطبه لابنته المدللة ماريا وهى لا تزال طفلة؛ وجعله شريفاً وحاكماً إدارياً ومعلماً لمكاتب البلاط؛ ومنحه لقب قيصر وربما كان يعده لخلافته على عرش الامبراطورية، وعندما شكَّ فى أمره إثر مكيدة من مكائد القصر وضعه فى مقدمة جيش صقلية (٨٣٢). ويكتفى الرواة البيزنطيون الذين يرسمون بكل التفاصيل تُرهات البلاط وخياناته ويتركون ما بقى من وقائع فى الظل، يكتفى هؤلاء الرواة هنا بإضافة أن ألسيو قد أنجز بشكل رائع إرادة الامبراطور؛ وكان ما يصيبه بجراح هو بالأحرى بعض الكلام الذى كان الناس يرددونه فى كلابريا والذى أخذ يشعل الحرب فى الجزيرة. ولكنه بسبب أعدائه الذين تركهم فى القسطنطينية وأعدائه الذين عصف بهم الحسد فى صقلية اتُّهم بالتعامل مع المسلمين، وبالإعداد للتمرد: وما هى إلا تناقضات الإفك والوقيعة التى وقع تيوفيلو فى شباكها دون أن يتفحصها. واستُدعى ألسيو من هناك ليقف أمامه (٨٣٣) ولما تردد فى طاعته وجد الأمير أن الخيانة هى أكثر التهم ملاءمة. فأرسل رئيس الأساقفة تيودورو كرثينو لإقناعه وأقسم له بمحبته لألسيو وأعطاه كتاب أمان وقعه بيده وشاهداً مقدساً عبارة عن صليب كان يحمله عادة فوق صدره؛ وهكذا انخدع الكاهن الأمين وانخدع ألسيو واصطحبه معه إلى القسطنطينية. وهناك سُجن القيصر وجُلد وصودرت أملاكه. أما رئيس الأساقفة فقد واتته الجرأة فى احتفال مهيب بالكنيسة باتهام الامبراطور بأنه حنث بالقسم وهكذا استُبعد من خدمة الكنيسة وضُرب ونُفى. ثم ندم تيوفيلو إثر احتجاج بطريرك القسطنطينية، فأفرج عن هذا وذاك: لكن ألسيو كان قد زهد فى العالم فشيد بالأموال التى أعيدت إليه ديراً وأغلق على نفسه

أبوابه(1). هكذا كان حال الامبراطور وهكذا كان القائد والجنود ضعفاء، والشعب مسلوب الإرادة وأعيان صقلية الخبراء بالدسائس، لم يكونوا على استعداد للقتال، ولم يكونوا - بكل تأكيد - الرجال القادرين على انقاذ الجزيرة من المسلمين. وكان العمل الاستراتيجى الوحيد الذى قاموا به بعد احتلال بالرمو هو تجميع الجانب الأكبر من الجيش فى كاستروچوڤانى؛ حتى إن الكتّاب المسلمين يقولون إن مقرالحكومة قد انتقل من سيراكوزا إلى تلك المدينة(2). وهو ما قد نطلق عليه اليوم مقراً للمراقبة. وهناك كان مقر القائد العام للجزيرة يشاهد فى خمول كل تخريب يقوم به المسلمون.

ومضى أبو فخر ليغير عليه فى بدايات سنة مائتين وتسع عشرة للهجرة (١٥ يناير ٨٣٤ إلى ٣ يناير ٨٣٥): وما أن خرج المسيحيون لملاقاته حتى كسرهم بعد معـركة ضـارية وأجبـرهم على التقهقر إلى ثكنـاتهم، وعـاد إليهم فى الربيـع وألحـق بهم هزيمة ثانيــة. وفى العام التالى شن عليهم حرباً أكثر ضراوة. فقد بدأ بمركز المراقبة وحاربه حرباً ثالثة (٨٣٥)؛ واقتحم الثكنات ونهبها وحبس به زوجة

---

(1) راجـع: الكتـاب الثـالث، الفصـل ١٨ ص ١٠٧ إلى ١٠٩ من *Theophanes Continuatus* وفى المجلد نفسه ص ٦٣٠ إلى ٦٥٢ *Symeon Magister*؛ وفى نفس المجلد ص ٧٩٤ إلى ٧٩٦ *Georgius Monachus*، وفي ص ٢١٦ و٢١٧ *Leo Grammaticus*، وينطق، اسم أب السيو موزيلي **Μουσελέ** ، ولكنى أصححه طبقاً لما يذكره سان مارتين، وهو خبير فى هذا المضمار، ويكتبه *Mouschegh* فى هوامش *Le Beau, Histoire du Bas Empire, Lib LXIX§ 21* ولكنى أختلف مع المؤلفين العالمين الفرنسيين حول تاريخ مهمة ألسيو فى صقلية فهما يؤرخان لها سنة ٨٣٥، ولكن سيمون ماچيستر، وهو دقيق للغاية فى هذه الرواية، يذكر أن الاختيار وقع فى السنة الثالثة من حكم تيوفيلو ودعوته فى السنة الرابعة أى فى سنوات ٨٣١ - ٣٢ و٨٣٢ - ٣٣، حسب التقويم البيزنطى ابتداءً من أول سبتمبر وارتقاء تيوفيلو العرش، والذى جاء بعد أول أكتوبر ٨٢٩.

(2) راجع النويرى فى دى جريجوريو، *Rerum Arabicarum* ص ٨، وابن الأثير، وابن خلدون والرواة الآخرين الذين ذكرناهم فى الفصل السادس من هذا الكتاب بصدد الحديث عن الاستيلاء على كاستروچوڤانى.

النبيل الذى كان يقود الجيش وأحد أبنائه؛ ولما عاد إلى بالرمو أرسل جماعة كبيرة على رأسها محمد بن سالم حتى تاورمينا على الساحل الشرقى واستولوا علي غنائم كثيرة. وقاموا في عمليات هجومية أخري بسلب أماكن أخرى. وفيما بين هذه الانتصارات وقع تمرد عسكرى ضد أبى فخر سقط فيه قتيلاً ولجأ القتلة إلى الجيش المسيحى(1). وأرسل زيادة الله إلى صقلية فضل بن يعقوب الذى ما لبث أن لفت الأنظار بهجومين: أحدهما، على سيراكوزا، والآخر قد يكون على مشارف كاستروچوڤانى؛ لأننا نقرأ أن النبيل قد مضى ومعه جماعة كبيرة لإيقاف مسيرة المسلمين، إلا أنهم مالبثوا أن تحصنوا فى أراضٍ وعرة، وغابات كثيفة لم يجرؤ العدو على مهاجمتهم فيها. وبعد أن انتظرتهم قوات النبيل بلا جدوى حتى حلول المساء لينزلوا إليهم ويحاربوهم، فإن قوات النبيل - وكان طابع القوات البيزنطية هو الخمول وليس الجبن - أخذت فى الرحيل، وتحللوا من التزامهم أثناء الانسحاب. وأثناء رحيلهم، خرج المسلمون من جحورهم ودكوهم دكا - كما تقول الروايات التاريخية - وشتتوهم: وسقط النبيل مصاباً بالعديد من السهام، وسقط من فوق صهوة جواده، ولكن رجاله دافعوا عنه بشجاعة حتى حملوه معهم هاربين وهو مثخن بالجراح وتركوا سلاحهم ومتاعهم وجيادهم. وهكذا انتهت الحملة بمعركة ضارية.(2)

---

(1) ابن الأثير، المخطوطة *A*، المجلد الأول، الورقة ١٢٤ الوجه الثانى، حيث يذكر أنه تم اختيار محمد وسالم ليكونا على رأس الجماعة التى أرسلت إلى تاورمينا. ولأنى أعتقد أن هذا خطأ فى المخطوطة، فقد صححت الاسم ليصبح محمد بن سالم. وجزء من هذه الأحداث غير موجود فى المخطوطة (C)، المجلد الرابع، الوجه الأول للورقة رقم ١٩٢. ويشير ابن خلدون، *Histoire de l'Afrique et de La Sicile* ، ص ١٠٨، ١٠٩ إلى طائفة كاستروچوڤانى الثالثة وطائفة تاورمينا. وهذا الاسم المكتوب تارمين مذكور فقط عند ابن خلدون، وفى مخطوطة ابن الأثير تُركت مسافة بيضاء. ويتحدث **البيان**، المجلد الأول، ص ٩٨، عن معركة واحدة خاضها أبو فخر سنة ٢٢٠، ويشير بشكل عام إلى أن «طوائف كثيرة أخرى من المسلمين فى صقلية وفى أسبانيا حاربوا فى السنة نفسها بحراً وارضا».

(2) ابن الأثير، المخطوطة *A*، المرجع المذكور، يطلق على القائد اليونانى لقب شريف وملك صقلية. وهناك إشارة مختصرة فى ابن خلدون، الموضع المذكور.

وقعت هاتان الهجمتان فى صيف سنة ثمانمائة وخمس وثلاثين؛ وانتهت بهما مهمة فضل، فقد وصل أمير آخر من الأغالبة مع بدايات سبتمبر ليحكم صقلية.

كان هذا هو أبو الأغلب إبراهيم بن عبدالله بن الأغلب(1)، ابن عم زيادة الله وأخو محمد الذى قتل. وكان رجلاً يتميز بالحكمة وبالرؤية السياسية، كما ظهر ذلك عندما حرك الفرق البحرية. فقد جاء بأسطول صغير إلى بالرمو، عاصمة صقلية، كما يذكر أحد المؤرخين، فى منتصف رمضان سنة مائتين وعشرين (١١ سبتمبر

(1) الاسم طبقاً لما جاء فى **البيان**، المجلد ١، ص ١٠٤، حيث يطلق على إبراهيم لقب صاحب صقلية. وفى ص ٩٨ و٩٩ يشير هذا الكتاب إليه بلقبه فقط أبو الأغلب، وفى ص ٩٨ نجده مذكوراً بشكل خاطئ فيقول عنه، ابن الأغلب ويحل **البيان** الخيوط المتشابكة التى خلط فيها المحللون الآخرون بين هذه الشخصية وآخرين من حكام صقلية؛ وها هو بيان ذلك.

يقول ابن الأثير، الذى ذكرناه آنفاً، أن محمد بن عبدالله بن الأغلب قد تولى حكم صقلية سنة ٢٢٠. ثم يروى أنه قُتل فى السنة نفسها وتم اختيار فضل بن يعقوب وأبي الأغلب إبراهيم بن عبدالله بعده على التوالى. (المخطوطة *A*، المجلد ١، الورقة ١٢٤ الوجه الثانى). وفى النهاية وكأنه قد نسى هذه الأسماء والتواريخ، فإنه يسجل فى ٢٣٦ وفاة محمد بن عبدالله، حاكم صقلية، بعد ١٩ سنة من الحكم الفاضل؛ ولكنه يشك فى هذه الرواية السائدة، فيضيف العبارة المعتادة «والله أعلم». (المخطوط *A*، المجلد ٢، الورقة ٢ الوجه الأول؛ المخطوطة C، المجلد الرابع، الورقة ٢١٢ الوجه الأول). أما ابن خلدون، *Histoire de l'Afrique et de la Sicile* ص ١٢٠؛ وأبو الفدا، *Annales Muslemici Rerum Arabicarum*، سنة ٢٣٧؛ والنويرى فى دى جريجوريو ص ٨ وابن أبى دينار، مخطوط باريس ورقة ٢٠ الوجه الثانى و٢١ الوجه الأول، فإنهم يكررون اسم محمد بن عبدالله بن الأغلب ورواية الـ١٩ سنة من الحكم القوى العاقل والتى انتهت بوفاته سنة ٢٣٦ أو ٢٣٧ وبدأت، كما يقول النويرى بخطأ واضح فى الحساب، سنة ٢٢٥. وفى النهاية يذكر ابن أبّار (مخطوطة الجمعية الآسيوية فى باريس، ورقة ١٤٨ الوجه الثانى) اسم أبى الأغلب إبراهيم بن عبدالله بن الأغلب الذى، كما يقول، «نظم أمور صقلية وحكمها حكماً فاضلاً من سنة ٢٢١ وهى سنة قدومه إليها وطوال حياته». ومن الواضح أنه بمقارنة هذه الروايات وبملاحظة الصدق فى كل منها يظهر لنا بوضوح خطؤها جميعاً فيما عدا **البيان** وابن أبّار؛ وأن ابن الأثير وسار على نسقه ابن خلدون قد جاء بالاسم الصحيح فى البداية ثم تسرّع فكرر الخطأ الذى وقع فيه الآخرون. والخطأ يكمن فى الخلط بين السنوات الثلاث التى حكم فيها محمد بن عبدالله (٢١٧ إلى ٢٢٠)، والست عشرة سنة التى حكم فيها إبراهيم (٢٢٠ـ٢٣٦) وانهم جعلوا من الأخوين شخصاً واحداً حكم صقلية لمدة ١٩ عاماً.

٨٣٥) ونجا من حادث خطير فقد خلاله عدة سفن غرقت وعدة سفن أخرى استولى عليها المسيحيون(1). ومن بين هذه السفن حرّاقة. وأن أسطولاً من السفن يحمل الاسم نفسه تحت قيادة محمد بن سندى خرج على الفور وطارد العدو حتى اختفى عن الأنظار تحت جنح الظلام(2)؛ وفى المعارك التى وقعت بعد قليل من هذه المعركة تتحدث الأخبار عن حراقة أخرى استولى عليها المسلمون من اليونانيين(3). وهذه الكلمة العربية يقصد بها «قاذفة اللهب»؛ وهى بوارج قاذفة للهب أخذ المسلمون فى تقليدها عن اليونانيين فيما بين القرنين الثامن والتاسع: وإن كانت هذه الفئة من البوارج تستخدم كذلك فى الشرق استخدامات أخرى، وتستخدم بإيطاليا فى التجارة وكانت تطلق عليها «كرّاكه» و«كراكّه» فى چنوه والبندقية(4). ومن الواضح طبقاً لهذا أن

وبعد هذا التوضيح يبقى شك واحد، ألا وهو إذا كان والد إبراهيم واسمه عبدالله، هو ابن الأغلب الذى اطلق اسمه على تلك الدولة، أو أنه كان ابن إبراهيم أول حاكم لأفريقيا؛ وعلى هذا فإذا كان الحاكم الذى أرسل إلى صقلية سنة ٢٢٠ هو ابن عم زيادة الله، أو ابن أخيه الذى كان حاكماً من قبله. يبقى الشك، هذا ما أقوله، فى اسم ابن إبراهيم الذى نجده مكتوباً فى ابن أبّار، والذى كتبته أنا بخط مائل داخل الاستشهاد؛ ولكن لأن مخطوطة ابن أبّار التى تحت ناظرى الآن عبارة عن نسخة جديدة وغير صحيحة فإنى اعتقد أنه ينبغى حذف هذه الدرجة من درجات السلالة وأن نأخذ بالاسم الذى أورده **البيان**.

(1) **البيان**، المجلد الأول، ص ٩٨. أما سنة الوصول إلى صقلية واسم الحاكم الجديد أبو الأغلب بن إبراهيم بن عبدالله فيردان فى ابن الأثير، المخطوطة *A*، المجلد الأول، الورقة ١٢٤ الوجه الثانى؛ وفى ابن خلدون *Histoire de l'Afrique et de la Sicile*، ص ١٠٩.

(2) **البيان**، المرجع المذكور.

(3) ابن الأثير، المخطوطة *A*، المجلد الأول، الورقة ١٢٤ الوجه الثانى.

(4) لم يكن البيزنطيون، الذين كان أسطولهم عظيماً بسبب هذه البوارج الحارقة، يطلقون عليها أسماء خاصة. كانت «درموني» وهى سفن ذات ثلاثة قلوع تصطف وتحمل ماسورة معدنية او اكثر وتقذف النيران اليونانية مثل قاذفات اللهب المستخدمة حالياً؛ وكان الجنود يوجهون ألسنة اللهب حيثما يريدون لحرق سفن العدو. وكانت لديهم بالإضافة إلى ذلك مواسير صغيرة ومراجل وأدوات أخرى يطلقون بها النيران يدوياً أو عن طريق آلات انظر فى هذا الصدد النص الفرنسى لمايزروا *Institutions militaires de L'empereur L éon*، ص ١٣٦ وما بعدها؛ وكذلك رينو وفافيه، *Du feu gregeois*

مستعمرة بالرمو كانت تجرب التكتيك البحرى العصرى، أى أن تبنى السفن الحارقة، وتستخدم فى هذا الإطار الفنون المعروفة فى أفريقيا وأسبانيا، ناهيك عن تلك المعروفة فى صقلية، لأن المصادر العربية والأسبانية والأفريقية لا تشير إلى الحراقات. ولم يترك أبو الأغلب هذه القوة الجديدة خاملة. فأرسل بعض السفن إلى مدينة لم تذكر المخطوطات اسمها، سواء كانت فى جزر إوليى أو على ساحل بالرمو ومسينا وحارب المسلمون أسطولاً مسيحياً صغيراً وهزموه ونهبوا المدينة وعادوا أدراجهم بالأسرى فأمر أبو الأغلب بفصل رؤوسهم. واستولت فرقة أخرى - رست عند

ص ١٠٣ ـ ١١٢.

أما لدى المسلمين فإن أول مرة يظهر فيها اسم (سفينة) حارقة كان فى سنة ٨١٣ على ما يبدو لى، وقد أشار ابن الأثير إلى «حراقة» اعتاد الخليفة الأمين أن يقلع بها فى نهر التيجري. ثم ظهر هذا الاسم فى عصر الحروب الصليبية بمعنى سفينة نهرية وجندول وغليون؛ ولكن بعض الكتاب العرب يصفونها : «غليون به آلة قاذفة للنار» وفى هذا التناقض بين الاسم والواقع، ظهر خلاف حول نوعية السفينة المقصودة باسم حراقة؛ وأصر الكتاب على عدم تصديق أنها دائماً نوع واحد من السفن. ويمكن أن نقرأ الآراء المختلفة حول الموضوع فى هوامش السادة رينو *Extraits etc relatifs aux Croisades*، ص ٤١٥؛ وا. كاترمير *Histoire des Sultans Mamlouks par Makrisi*، المجلد الأول، ص ١٤٣، المجلد الثانى، الجزء الأول، ص ٢٤ و٢٥.

إن الإشارة إلى الحراقات الإسلامية، وإلى حراقة البيزنطيين على وجه الخصوص، فى معارك صقلية، توقف - على ما يبدو لى - الخلاف لإنها أوضحت أنها كانت فى مختلف الأزمان والأماكن تسمى تارة سفينة حربية وأحياناً سفينة للنزهة أو سفينة تجارية. وعلى هذا النسق أيضاً فإن بوارج جنوب إيطاليا مازال يطلق عليها الاسم نفسه «بومبارديه» وإن كانت تستخدم فى النقل بالملاحة الساحلية ولم تعد تستخدم فى الحرب. واستمراراً فى الحدس فإنى أظن أن العرب قد بنوا سفناً خاصة أو على الأقل آلات للحرق عندما بدأوا فى امتلاك ما استطاعوا من علوم وفنون اليونان. وفى هذا الخصوص كما فى العديد من غيره فإن العرب قد أخفقوا؛ ولعلهم توقفوا عن استخدام السفن الحارقة لأنهم لم يعرفوا اطلاقاً مثلما كان يعرف البيزنطيون بناء السفن الحربية ذات القلوع الثلاثة تلك السفن السريعة والقوية ولأنهم لم يكتشفوا اطلاقاً وحتى الحروب الصليبية التركيب الحقيقى لنار اليونان. إن الاسم الموجود فى بغداد، كما قلت، فى سنة ٨١٣ وفى صقلية سنة ٨٣٥ يدل على أن البحث قد بدأ أو استمر فى بدايات القرن التاسع. إن المحاولة التى جرت يمكن مناقشتها من خلال ذكريات المسيحيين عن نار

بنتلاريا - على سفينة(1) كان عليها رجل أفريقى اعتنق المسيحية بالإضافة إلى الجنود اليونانيين فقاموا بقتلهم جميعاً حسب أمر حاكم بالرمو(2)؛ وهذا العنف لا تنص عليه الشريعة، فهى تنص على هذا فى شأن المرتدين، وهو عنف غير معتاد فى حروب العرب، ولهذا يُلاحظ فى هذا التصرف ثورة وحسد من المنتصرين ضد الأسطول البيزنطى الذى كان من النادر أن يهزموه. وفى الوقت نفسه، قام فريق من الفرسان بالكر على أطراف إتنا وقلاع المنطقة الشرقية. وبعد أن حرق الحقول قام بالسلب والنهب وهرق الدماء، ولكن فى القتال

اليونان: وبمقتضاها فإن المهندس الشامى كالينيكو، قد ذهب بها إلى القسطنطينية نحو منتصف القرن السابع وأنها استخدمت ضد المسلمين فى حصارى القسطنطينية ثم صارت سراً من أسرار الدولة: وقد نشر البلاط أن ملاكاً قد علمَّ سرها لقسطنطين الكبير، وأن الله ينتقم ممن يكشف سرها بعذاب عظيم؛ وأن خائناً أراد أن يكشف سرها للأعداء فنزلت من السماء ألسنة من النار والتهمته. وكيف أن الأباطرة لم يهملوا الوسائل البشرية لحماية هذا السر، وكيف أن الكيميائيين المسلمين لم يكشفوا تركيبها قبل زمن الحروب الصليبية وهكذا فإن بعض البحوث التى قام بها بعض صغار الضباط الذين انتقلوا من صفوف البيزنطيين إلى العرب لم تأت بنتيجة. وربما تم بناء حراقات صقلية بهذا الأسلوب ولكنها لم تكن دقيقة فتوقف استخدامها؛ ولجأ المسلمون إلى السيوف والرماح وإلى حماسهم وعددهم لمهاجمة السفن.

أما لفظ كرّاكه والذى تحول فيما بعد إلى كراكَّه وكريكه وكرَّاك إلخ فإن نطقه مماثل للحراقة العربية وهو ينطق بنطق الحاء كذلك فى لغة چنوه مثل *camâlo* المستقاه من العربية «حمَّال» وغيرها كثير. أما عن أصل حراقة فيبدو لى طبيعياً وليس مثل الألفاظ الأخرى التى نظرنا فيها حتى الآن والتى ينبغى الرجوع بشأنها إلى دوكانج، *Glossarium mediæ et infimæ Latinitatis*، وإلى چال، *Archeologie navale*، المجلد الثانى، ص ٢١١ وما بعدها.

(1) يكتب ابن الأثير حراقة. وقد استخدمت أنا الاسم الذى كان اليونانيون يستخدمونه دون شك.

(2) ابن الأثير، المخطوطة A، المجلد الأول، الورقة ١٢٤ الوجه الثانى؛ ابن خلدون *Histoire de l'Afrique et de La Sicile* ص١٠٩. لم يتحدث الأخير عن مكان الموقعة البحرية الأولى للمسلمين، ولكنه يقول فقط إنهم وجدوا الأسطول البيزنطى فنهبوه؛ وهذه العبارة ليست محددة فى العربية مثل لغاتنا إذ أن الأمر يتعلق بالسفن. أما فى مخطوطة ابن الأثير فإنه ترك مكان اسم البلدة التى تم نهبها من جانب الجنود المسلمين دون كتابة.

وليس قتلاً للأسرى(1).

وفى العام التالى (٢٢١، ٢٥ ديسمبر ٨٣٥ إلى ١٢ ديسمبر ٨٣٦)
وبعد هجوم ثان على بلدة إتنا، عاد المسلمون إلى بالرمو بكثير من
الأسلاب وبكثير من الرجال فقد انخفض سعر العبيد انخفاضاً كبيراً،
وهذا ما يكتبه ابن الأثير باقتضاب. وتحركت مجموعة أخرى. على ما
أعتقد - بطول الساحل الشمالى الذى لم يسبق اجتياحه ووصلت إلى
كاستللوتشو، وهى قلعة فوق الجبال وسط الطريق بين بالرمو ومسينا
واستولت على غنائم وأسرى، ولكن العدو انقض عليها وبعد معركة
مريرة أوقع بها الهزيمة. وكان الأسطول فى الوقت نفسه بقيادة فضل
ابن يعقوب يهاجم الجزر المجاورة وهى بلا شك جزر إوليى؛ ثم اقتحم
حصناً هو تيندارو حسب قراءتى وقلاع عديدة أخرى، ثم عاد منتصراً
إلى بالرمو(2). والواضح من هذا أنه بعد جزر إوليى انطلق إلى الساحل

(1) ابن الأثير، المرجع المذكور، والمخطوطة C، المجلد الرابع، الورقة ١٩٢، الوجه الأول؛ ابن خلدون، المرجع المذكور، ص ١١٠.

(2) قارن بين ابن الأثير، المخطوطة *A*، المجلد الأول، الورقة ١٢٥ الوجه الأول؛ وابن خلدون، المرجع المذكور، ص ١١٠؛ **والبيان**، المجلد الأول، ص ٩٩. أكتب اسم كاستللوتشو لأن نص ابن الأثير يكتبها كستلياس، ومن بين العديد من كاستللوتشو وكاستللاتشى وأسماء شبيهه فى صقلية، فإن المدينة التى يطلق عليها اليوم كاستللوتشو هى التى تقع على الطريق الذى لابد أن هذه الفرقة الإسلامية قد سلكته؛ لأن المحلل يتحدث عن فرقة غير تلك التى اندفعت حتى إتنا، أى أنها قطعت الجزيرة من منتصفها؛ ويبدو لى أنه من الجائز جداً أن الهدف من العملية الثانية فى هذه السنة كان هو استطلاع الساحل الشمالى، وبعد ذلك بسنتين تمت محاصرة تشيفالو. لقد قرأ م. دى ڤرچيه الاسم التالى «كتانيا»؛ ولكن بالإضافة إلى ابن الأثير الذى ذكر بوضوح المدينة نفسها فإن ابن خلدون، فى مخطوطاته، يذكر بوضوح كتليانا.
إن الاسم الذى قرأته تيندارو نجده مكتوباً مدنار فى **البيان**. ولأن الأمر يتعلق بحامية مهمة تقع على الساحل الشمالى ولأن الأسطول العائد من جزر إوليى كان يهاجمها فإن تيندارو هى التى بدت لى من بين كل الأسماء القديمة والحديثة أقربها إلى نص **البيان**. إن تغيير الحرف الأول قد لا يكون شيئاً غريباً فالإدريسى يكتب تيندارو دندارى. لقد كانت تيندارو مدينة مهمة حتى زمن المسلمين وهى تعد بين المقار الأسقفية فى القرنين التاسع والعاشر واستمرت على هذا الحال حتى القرن الرابع عشر، حيث نقرا عن

الشمالى. وفى السنة نفسها أو بالأحرى فى السنة التالية (٢٢٢، ١٣
ديسمبر ٨٣٦ إلى ١ ديسمبر ٨٣٨) دفع أبو الأغلب بجماعة ضخمة تحت
قيادة عبد السلام بن عبد الوهاب نحو أراضى كاستروچوڤانى، وفر
المسلمون تاركين وراءهم رجالاً كثيرين فوق أرض المعركة وعددا كبيرا
من الأسرى ومن بينهم عبد السلام الذى أطلق سراحه فيما بعد وقد
يكون ذلك من خلال تبادل الأسرى(1). ولكن الأسطول الذى كان قد خرج
أيضاً فى هذا الموسم قاتل الأسطول البيزنطى وكسره وغنم تسع سفن
كبيرة وقارب(2) والطاقم كله؛ ولكى ينتقم الجيش أو ليستعيد الأسرى
عاد أكثر قوة وتمركز أسفل كاستروچوڤانى.
واستمرت هذه الأحوال حتى الشتاء وحدث ذات ليلة أن مسلماً اكتشف
أن رجلاً من كاستروچوڤانى كان عائداً إلى المدينة عبر دروب مجهولة؛
فسار فى إثره، وفى هدوء صعد حتى الضاحية التى كانت بها ثكنات
الجيش. وعاد المسلم مسرعاً ليخبر المسلمين، فتسلحوا وصعدوا عبر
ذلك الدرب؛ وما أن انتهوا منه حتى أطلقوا صيحة «الله أكبر» وانقضوا
على الأعداء. وهرب هؤلاء داخل الحصن بعد أن تركوا الدسكرة؛ وقاوموا
بشجاعة وهم آمنين فى حصن الموقع. وفى النهاية - يقول
المؤرخ - طلبوا الأمان ومنح لهم: وهكذا عاد المسلمون إلى بالرمو(3)
محملين بالأسلاب. ويجب أن ندرك أن المسيحيين تفوهوا بكلمة الإتاوة

ڤينشيجويرا أراجونا سيد تينداريس.
وفى النهاية ينبغى أن ننبه إلى أن **البيان** لا يقول إن كانت هذه العملية قد قام بها الأسطول أو الجيش وأنه يؤرخها فى سنة ٢٢٢، بينما يقول ابن الأثير إنها وقعت سنة ٢٢١ وينسبها للقوات البحرية. ونقرأ لهذا المؤلف أن «مدنا وحصونا» قد تم الاستيلاء عليها ولكن الكلمة الأولى بالعربية «مدنا» قد تكون تحريفاً للاسم الجغرافى المذكور.

(1) قارن بين ابن الأثير وابن خلدون **والبيان**، المجلد الثانى، ويذكر أولها كل هذه الفرق فى سنة ٢٢١ ويذكرها المرجع الأخير فى سنة ٢٢٢.

(2) قارب (صندل) دقيق يستخدم للتحذير والاستكشاف ومهام شبيهة. ولقد أعطيت لهذا الاسم الشكل الإيطالى فى العصر الوسيط. كان اليونان يكتبونه Χελώνη، أما اللاتين فى العصور الأدنى، *Chelandium*، والعرب سلندس.

(3) ابن الأثير، المخطوطة *A*، ورقة ١٢٥ الوجه الأول، يقول صراحة إن المسلمين احتلوا

وأن المسلمين الذين كانوا أثناء الحصار يعسكرون بين الجروف من ناحية وحامية كبيرة من ناحية أخرى سعدوا أيما سعادة بأن يخرجوا بشرف ومكسب من الموقف الخطر. لكنهم لم يستولوا على الحصن، ولم يبقوا فى الدسكرة؛ ولكن من المؤكد أن المعارك دارت للاستيلاء على كاستروچوڤانى لمدة عشرين سنة بعد هذا الاتفاق. ويرى الجميع أنه لو أن المسلمين دخلوها مرة، لما تركوا بسهولة هذا الحصن المهم.

وفى الوقت ذاته كانوا يضيقون الخناق حول تشيفالو على الساحل الشمالى على بُعد ثمانية وأربعين ميلاً شرق بالرمو؛ وقد كتب العرب اسمها چيفلودى وشيفلودى: وهذا يدل على أنهم وجدوا منذ عدة قرون أن نطق كيفاليديون ليس نطقاً صحيحاً(1). هكذا سمى اليونان تلك الأرض وهى على شكل صخرة دائرية، صعبة الدخول وبارزة فى البحر، وهى المشرفة على المدينة الحالية وكانت تستند إليها المدينة القديمة لمدة عشرين قرناً بدءاً من أزمنة ما قبل التاريخ؛ لأن فيها آثار جدران عملاقة. إن موقعها الحصين جعل منها مدينة فى بعض الأوقات فى العصور القديمة وفى العصر الوسيط؛ ولهذا قد يتعجب البعض للوهلة الأولى من أن المسلمين قاموا بعمليتى تشيفالو وكاستروچوڤانى في آن واحد، وقد يظن أن جماعة بالرمو كانت أقوى

الدسكرة فقط وإن المسيحيين احتموا بالحصن ويروى ابن خلدون، المرجع المذكور ص ١٠٠ الواقعة بإيجاز أكبر بدون تحديد. ويدل الانسحاب إلى الحصن أن مركز مراقبة البيزنطيين كان فى هذه المرة بالدسكرة.

(1) يكتبها استرابونى Κεφαλούδιος ، وتولوميو Κεφαλοιδίς ; Κεφαλοίδιον المذكرات البيزنطية للقرن التاسع؛ بلينيو *Cephaloedis*، ولاتينيين آخرين *Cephaludium* إلخ. وكان لدى العرب أربعة حروف على الأقل للدلالة على صوت حرف x اليونانى وحرف C اللاتينى والذى يبدو أن نطقه صار لديهم هو نطق الـ K، فعلى سبيل المثال كلمة *Cicero* نطقت كيكيرو. ولو أن العرب جعلوا من الحرف الأول چيم أو شين لدل هذا على أنهم كانوا يسمعون نطقها من أهالى صقلية الصوت المعطش نفسه الذى ينطق به اليوم فى صقلية حرف C أمام الحرفين e وi. كانت تشيفالو مقراً للأسقفية فى القرن التاسع وكانت مدينة مهمة.

بكثير مما كانت عليه فى بداياتها. ولكن ما كان يعوض المسلمين عن عددهم هو إقدامهم والخوف الذى كان ينتاب أعداءهم. وكانت هناك جماعة معتادة على التخريب فى المناطق الريفية المحيطة، وعلى التحصن بالأسوار؛ وعلى تهديد كل من يخرج منها؛ وعلي قتال وقهر كل من يجرؤ على هذا؛ وانتهاز الفرصة للسلب: ويطلق على هذا حصار. وكان هكذا فعلاً لأنه كثيراًما كان يؤدى إلى أن يستكين سكان القلعة، حفاظاً على ضياعهم، لضيقهم بالمتاعب، وخوفاً على أنفسهم وعلى عائلاتهم وأملاكهم ولكل تلك الخصائص التى يتسم بها المواطن المسالم، كما كان يطلق عليه استهزاء ممن يضربونه بالعصا. كما أن حصن الموقع أو الحامية كان من شأنه أن يطيل حصار تشيفالو، فقد وصلت سنة مائتين وثلاث وعشرين (٢ ديسمبر ٨٣٧ وحتى ٢١ نوفمبر ٨٣٨)، وقد يكون هذا فى الربيع، تعزيزات عسكرية كبيرة عن طريق البحر. واضطر المسلمون بسبب هذه التعزيزات إلى رفع الحصار وإلى محاربة العديد من الطوائف(1) كما يبدو، والانسحاب فى اتجاه بالرمو. وهناك وبين هذه العذابات عرفوا بوفاة زيادة الله فى أفريقيا فى الخامس عشر من رجب (١٠ يونيه ٨٣٨)، وحزنت الجماعة حزناً شديداً، كما نقرأ ذلك فى الحوليات؛ ولكن ما أن انقشعت الصدمة الأولى، حتى سارعت لتواجه الموقف(2). ومن الواضح أنه كان هناك خوف من حدوث انقلابات جديدة فى أفريقيا وأن يضيع الأمل بالتالى فى المساعدات التى كان يعتقد أنها ضرورية لمواجهة العدو الذى نزل فى تشيفالو..

ثم زالت هذه المخاوف بسبب ما اتسم به حكم أبى عقال أغلب بن إبراهيم من فطنة وقوة وقد خلف بهدوء أخاه زيادة الله، واستطاع إرضاء المحاربين، وإيقاف أعمال العنف بين الناس والسيطرة على البربر

---

(1) ابن الأثير، المخطوطة A، المجلد الأول، الورقة ١٢٤، الوجه الثاني، المخطوطة C، المجلد الرابع، الورقة ١٩٢ الوجه الأول.

(2) ابن الأثير، المرجع المذكور؛ ابن خلدون، المرجع المذكور، ص ١١٠.

ودعم العادات الطيبة حسب الشريعة الدينية للمسلمين فى عاصمة أفريقيا. وسرعان ما أرسل قوماً آخرين إلى صقلية، فاستمرت الجماعة فى هجماتها فى سنة مائتين أربع وعشرين (٢٢ نوفمبر ٨٣٨ وحتى عشرة نوفمبر ٨٣٩) ونتج عنها أن عاد المسلمون إلى بالرمو محملين بالأسلاب(1)؛ ولكن يظهر أن حملة البيزنطيين على تشيفالو قد انتهت مثل سابقاتها دون أية نتيجة. وخرج المسلمون إلى الريف بتجهيزات هائلة فى العام التالى (١١ نوفمبر ٨٣٩ وحتى ٢٩ أكتوبر ٨٤٠) فاستسلمت لهم طبقاً لشروطهم بلاتانى وكالتابللوتا وكورليونى وكذلك مارينيو وچيراتشى وحصون كثيرة أخرى لم تذكر الحوليات أسماءها(2). وهكذا أيضاً فى سنة مائتين وست وعشرين (٣٠ أكتوبر ٨٤٠ وحتى ١٩ أكتوبر ٨٤١) عاثت طغمة من الفرسان بأراضى كاستروچوڤانى فساداً فأشعلت بها الحرائق ونهبتها واختطفت الأسرى دون أن تجرؤ الحامية على الخروج لملاقاتها. وانطلقت هذه الطغمة إلى ما وراء هذه الحامية وحتى قلعة (الكهوف) جروتّى، والتى كان يطلق عليها هذا الاسم، كما يقول ابن الأثير، لوجود أربعين كهفاً، فاستولى عليها المسلمون

(1) ابن الأثير، المرجع المذكور، (تحت سنة ٢٠١)، والمخطوطة *A*، المجلد الأول، الورقة ٢٨٥ الوجه الثانى (تحت سنة ٢٢٥)؛ ابن خلدون، المرجع المذكور ص ١١١، ١١٢.

(2) ابن الأثير وابن خلدون، المرجعان المذكوران؛ النويرى، لدى دى جريجوريو ***Rerum Arabicarum*** ص ٧، ٨. وإذا ما تركنا المرجع الثانى الذى لا يذكر الأسماء، فإننا نلاحظ أن اسمى بلاتانى وكالتابللوتا مذكوران عند ابن الأثير وعند النويرى. ونقرأ اسم كورليونى بوضوح فى كلا مخطوطى الأول؛ وفى مخطوطات الثانى نجد مكتوباً كاروب. ونجد الاسم التالى عند ابن الأثير مرو (وهى مدينة مشهورة فى خراسان)، وعند النويرى م ر ا مع وجود حرف غير مُشَكَّل بين الراء والألف ويمكن أن يكون ب ت ث ن ى؛ وأرى أن أقرأه مارينيو، وذلك بمقارنة هذا الاسم باسم هذه الأرض عند الأدريسى. أما الأخيرة فمذكورة عند النويرى فقط، وهى **خرسه** فى أحد المخطوطين **وحرحه** فى الآخر؛ وربما تكون المقصودة هى چيراسا أو چيراچا. راجع هوامش دى جريجوريو فى هذا المقال. وانا استبعد تصحيحه ميرنا لأن ميرتو بعيدة بعداً كبيراً عن المنطقة التى اجتيحت سنة ٨٤٠، ولا اوافق للسبب نفسه ولاختلاف الحروف على اطلاق النويرى اسم كواريب على ما يسميه ابن الأثير كورليونى.

ونهبوها(1). والاسم والموقع يجعلانا نعتقد أنها المدينة التى يطلق عليها الآن جروتّى، بالقرب من چرچنتى وإن كانت هناك أماكن كثيرة أخرى فى صقلية يطلق عليها هذا الاسم نفسه فى حوليات الإسلام، ويحدث هذا فى صقلية كما فى سردينيا وبوليا وأفريقيا ومصر وفى غيرها، كما يعلم الجميع، فنشهد انتشار هذه الغرف المنحوتة منذ أزمان سحيقة فى الصخر لتكون مقراً للأحياء ومقابرللموتى. ويكفى أن نذكر أسماء المدن التى استسلمت للمسلمين فيما بين سنة ثمانمائة وتسع وثلاثين وسنة واحد وأربعين للدلالة على أنهم سيطروا على وادى مازارا كله وأنهم تركوا بقية الجزيرة فى سلام. ومع كل هذا فلم يأتوا بالجيوش فقط إلى أراضى إيطاليا ولكن أكثر من هذا أنهم عقدوا حلفاً مع جمهورية نابولى.

(1) ابن الأثير، المرجع المذكور حيث يوجد اسم **غيران** ومعناه الكهف وكذلك مفرده **غار**، ولهذا ليس هناك شك فى هذا الاسم؛ ابن خلدون، المرجع المذكور، ص ١١٢. ويذكر المخطوط الفرنسى لابن خلدون اسم غيرون؛ ويذكر مخطوط تونس غيروان؛ وفى طبعة م. دى ڤيرچيه نقرأ كيرون، وفى النص كوركنيا.

وإذ يفترض فاتزللو أن اسم Ερβησσός و *Herbesus* مأخوذ من ἔρεβος، وأنه يعنى «كهوف»، فإنه اعتقد أنه تعرف على واحدة من الـ *Erbesso* الخاصة بصقلية القديمة فى أرض الكهوف وأما الأخرى فليست بعيدة عن سيراكوزا فى وادى الصخرة السحيق فى بنتاليكا والذى تنتشر فيه فى الواقع مثل هذه الكهوف وكأنه خلية نحل (العشرية الأولى، المجلد الأول، الكتاب العاشر، الباب الثالث، والكتاب الرابع، الباب الأول). وبصدد أحكام فاتزللو هذه أنظر كوڤريو، *Sicilia Antiqua*، الكتاب الثانى، الباب ١٠ و١١. وبشأن الكهوف المستخدمة للسكن وللدفن فى أجزاء متفرقة من صقلية تستحق القراءة ملاحظات م. فليكس بوركيلوت، *Voyage en Sicile*(باريس ١٨٤٨)، ص ١٦٤ وما بعدها. ويذكر بوركيلوت بعض الكهوف فى كاستروچوڤانى والبعض الآخر بالقرب من بحيرة بيرجوزا وأخرى بين بياتسا وكلتاچيرونى، وفى ڤيتزينى وسبكاڤورنو، ومونتى أبرتو، وأڤولا، وليكوديا، وڤيرلا، وڤاللى ديسبيكا وكذلك كهوف بنتاليكا التى يصفها بكل تفاصيلها. وقد لاحظ صديقى العزيز ساڤريو كڤللارى، وهو مهندس وعالم آثار، كهوفاً أخرى فى لنتينى وسورتينو وبلاجونيا ويعتقد أن الكهوف المسماة «كهوف سان كونو» هامة على وجه الخصوص وهى موجودة بالقرب من كالتابللوتا، وكذلك «الكهوف العملاقة» بين برونتى ومالتّو. وقد استقيت هذا من خطاب كتبه مؤخراً لدوق ليونز، وقد تفضل وأعطانى عالم الآثار الفرنسى نسخة منه.

الفصل السادس

الأقوياء لا ينقصهم أبداً من هو فى حاجة إليهم، ولكى يتخلص من خطر قريب فإنه يجرى ليسقط فى حبائلهم. هكذا سرعان ما وجد المسلمون أصدقاء لهم فى اليابسة. لقد وجدت إيطاليا نفسها بعد موت شارلمان فى أوقات عصيبة فقد صارت منقسمة غير آمنة. فلم يفكر أمراء الأفرنج وهم حكام الجزء الشمالى فى توسيع حدودهم فى شبه الجزيرة بسبب الخلافات العائلية وبسبب ترامى أطراف الإمبراطورية. وكان الباباوات، وهم أنصاف أمراء وأنصاف كهنة في الامبراطورية الجديدة يمسكون بزمام إيطاليا الوسطى بلا سلاح متلطخين بكل فضيحة من فضائح بلاط فرنسا. وفى مقابل هذا كان الأمراء من اللونجوبارد فى بنفنتو، وكانوا لا يخشون الباباوات واتباع شارلمان وكانوا أصحاب المنطقة الجنوبية بأسرها تقريباً، يتطلعون إلى احتلال الشريط الساحلى الذى كانت تقاومهم فيه بقوات قليلة وشجاعة وبسالة نابولى وأمالفى وسورنتو وجاييتا. وأثناء أحداث هذا الصراع غير المتكافئ فإن نابولى، التى كانت بمثابة رئيس تلك المدن بدءاً من جاييتا وغيرها، كانت قد تعهدت بدفع خراج لأمراء بنفنتو. ولكن الحرب اشتعلت من جديد فى سنة ثمانمائة وست وثلاثين إما لأن الجمهورية الجسورة أرادت أن تتحلل من هذا التعهد أو لأن عجرفة الأمير سيكاردو قد زادت. وهكذا وبعد أن يأس أندريا قنصل نابولى من الحصول على معونات من أباطرة الشرق أو الغرب لجأ إلى مسلمى صقلية. وأرسل لهم أحد أمناء السر لهذا الغرض فانتهز المسلمون الفرصة: وذهبوا إلى نابولى بأسطول صغير أجبر سيكاردو على فك الحصار وعلى التوصل إلى

معاهدة مع حكام نابولى وإعادة أسراهم(1). كانت هذه بداية تحالف جمهورية نابولى مع أمراء صقلية. ذلك التحالف الذى استمر نصف قرن وحتى سنة تسعمائة مع كل حرمانات الباباوات وتهديدات الأباطرة وضراوة المسلمين وتجبرهم. لقد مضت عشرة قرون ولم يحدثنا التاريخ عن اتفاق حميم آخر غير هذا بين البلدين المسيحيين الإيطاليين المغتصبين كليهما، وكان الأجدر بهما أن يتقاربا وأن يسود الوئام بينهما وأن يتعاون كل منهما مع الآخر.

فى فصل آخر سيتم تناول الحرب التى قام بها المسلمون فى البر الإيطالى وسوف نرى بالكامل نتائج هذا التحالف ونكتشف يد أبناء نابولى التى كانت تقود هؤلاء الأصدقاء الخطرين إلى بحر الأدرياتيك حتى يهاجموا اللونجوبارديين وتبعدهم عن الساحل الغربى، وتوفر لهم، إذا ما اقتضى تحقيق هذا الهدف ذلك، ميناء فى الجانب الشرقى من صقلية الذى يحتله البيزنطيون، وهذا ما يفسر ببساطة كيف ساعدت جمهورية نابولى المسلمين على حصار مسينا، إذا لم تكن هى التى نصحت بهذا الحصار.

وفى سنة مائتين وثمان وعشرين هجرية (٩ أكتوبر ٨٤٢ وحتى ٢٨ سبتمبر ٨٤٣) خاض غمار هذه المغامرة فضل بن جعفر من قبيلة

---

(1) يوهانس دياكونوس *Chronicon Episcop. Sanctæ Napolit. Ecclesiæ*، لدى موراتورى، *Rerum Italicarum Scriptores*، المجلد الأول، الجزء الأول، ص ٣١٤. ولا أستشهد بالنسبة لهذا الحَدَث أو لغيره بـ *Chronici Napolitani Fragmenta*، التى نشرها براتيللى في *Historia Principum Longob.*، المجلد الثالث، لأنها تبدو لى محل شك كبير.

وإذا ما استبعدت تتابع الأحداث طبقاً لموراتورى *Annali d'Italia* ، ٨٣٧ فإنى أعتقد ان هذا الحصار هو بالتحديد ذلك الحصار الذى يتحدث عنه المؤلف المجهول من سالرنو *Anonimo Salernitano*؛ وأنه بدأ فى مايو ٨٦٣؛ وأن سيكاردو قد وقع الاتفاق وفكك معسكره فى ٤ يوليو، الخمسعشرية الرابعة عشرة، الذى نشره بللجرينو، ثم نشره موراتورى في *Rerum Italicarum Scriptores*، المجلد الثانى، الجزء الأول، ص ٢٥٦. إن الهجمات التى كان يبادر بها سيكاردو - حسب مقولة دياكونو، بعد رحيل السراسنة سرعان ما انتهت: ولم يقم سيكاردو - حسب ظنى - بأى حرب كبيرة أخرى ضد جمهورية نابولى.

همدان؛ وكما يقول ابن الأثير فإنه بعد أن نزل فى الميناء، بدأ فى
تضييق الخناق على المدينة هو وأبناء نابولى الذين كانوا قد طلبوا منه
الاتفاق. وشن فضل غاراته على الريف، ولكن التلف وإغارات المسلمين
المتتالية الجسورة لم تفت عضد أهالى مسينا، فهم قوم أبطال فى كل
العصور. وفى النهاية أرسل القائد المسلم جانباً من قواته للإلتفاف
خلف الجبال ولتسلق الجبل المشرف على المدينة، وبدأ المعركة، كما
كان معتاداً أن يفعل، من ناحية البحر، فجذب إلى تلك الناحية كل قوات
الحامية: وفى تلك الأثناء كان الجانب الآخر من قواته يغير من فوق
الجبل على المدينة، فيصيب ظهور المدافعين عنها، ويثير الإضطراب
فى صفوفهم؛ وهكذا استولى على مسينا(1). وبالرغم من هذا لم نقرأ
أن فضل سفك دماء كثيرة. وفى السنة نفسها سقطت فى يد المسلمين
مدينة أخرى يذكر ابن الأثير أن اسمها هو مِسكان أو ميسكان(2).
وهى مدينة هامة بلا شك، إذ أنه أشار إليها؛ ولكنى لا أجد هذا الاسم
لدى علماء الجغرافيا القدامى، أو لدى غيرهم. فإذا قرأنا الاسم ميهكان،
كما جاء فى الإدريسى، فقد ينطبق على أليمينا؛ وهى أرض فى موقع

---

(1) قارن بين ابن الأثير، المخطوطة *A*، المجلد الثانى، ورقة ٢؛ ومخطوطة C، المجلد الرابع، الورقة ٢١٢ الوجه الأول؛ ابن خلدون *Histoire de l'Afrique et de la Sicile*، ص ١١٨، أبو الفرج، *Historia Dynastiarum*، ص ٢٥٧، وهى الإشارة الوحيدة لغزو صقلية؛ وفى النهاية حاجى خليفة، *Cronologia*، مخطوط تركى فى باريس، سنة ٢٢٨، ورواية الكونت رينالدو كارلى، بعنوان *Chronologia Historica di Hazi Halifé* الخ حيث يتم تصحيح هذه العبارة على النحو التالى: «فى سنة ٢٢٨ يحتل الأغالبة جزيرة صقلية، ويعنى القول مسينا».
ويتحدث ابن الأثير وحده عن الاتفاق مع نابولى وعن المساعدات التى حصل عليها المسلمون. نقرأ اسم المدينة بسهولة فى كلا المخطوطين إذ نرى الحروف مكتوبة بشكل صحيح بينما نجد الحركات مكتوبة بشكل خاطئ. ولكن لا مجال للشك فى الاسم إذ أن نابولى - كما نعلم - هى المدينة المسيحية الوحيدة التى كانت ترتبط فى ذلك الوقت بمسلمى صقلية والتى استطاعت أن تقدم لهم أسطولاً معاوناً. وأود أن أنبه فى النهاية إلى أن فقرة أخرى من فقرات المخطوطة *A* تشير - وهو أمر غير مؤكد - إلى أن الحصار قد استمر لمدة شهرين.
(2) ابن الأثير، المرجع السابق.

حصين للغاية فوق ساحل سالسو وعلى الطريق المؤدى من بالرمو إلى
فال دى نوتو عند اجتياز ملدونى فى كالتافوتورو: دروب جبلية تلطخت
بدماء كثيرة فى تلك الحروب(1).
وفى الحقيقة لم يتوان جيش بالرمو عن الهجوم على فال دى نوتو.
واستولى على موديكا - وهى مدينة قديمة - بقلاعها الثمانمائة وخمس
وأربعين وهي مذكورة بصيغة الجمع في **أخبار كمبردج**؛ وهذا يدل على
أن قلاعاً عديدة كانت تحمى التلال التى كان يقسمها واديان سحيقان،
هما موقع المدينة الحالية. ولعل المسلمين قد قاموا فى السنة نفسها
وتحت قيادة «أبي الأغلب عباس بن فضل بن يعقوب بن فزارة» بمحاربة
أحد الجيوش فى تلك المنطقة. وبعد وفاة تيوفيلو (٢٠ يناير ٨٤٢) يبدو
أن العودة إلى طقس الأيقونات، وهو إجراء حكيم إذ أن الشعوب كانت
تتلهف على اتخاذه، قد ساعد على ذيوع صيت حكم الإمبراطورة تيودورا
لدى الصقليين. ونلاحظ فى الواقع فى إحدي الكتابات المعاصرة(2)
المشاعر المتأججة التى أثارها فى صقلية أحد الأعياد الأرثوذكسية
والتى ظهرت فى ذلك اللقاء وكأنها تريد أن تنسى أن المسلمين يحتلون
نصف الجزيرة ويعيشون فى نصفها الآخر. ولما كانت المملكة تنقصها
القوة وليس النزعة إلى الحرب فإنها رغبة منها فى استغلال الحماس
الشعبى أعدت جيشاً لصقلية. أرسلت إليها قوات خرسيانو، والتى أطلق
عليها اسم مدينة فى آسيا الصغرى، وكانت تفخر بأنها أشجع قوات

---

(1) إن طبوغرافية ميهكان فى جغرافيا الإدريسى لا تدع مجالاً للشك أن هذا المكان هو اليمينا الحالية. إن وثيقة لاتينية قام بنشرها دى جريجوريو فى *De supputandis apud Arabes Siculos temporibus* ص ٥٢ وما بعدها يحتوى على نصوص يونانية وعربية لوثيقتين من سنة ١١٧٥، نقرأ فيهما اسم بلدة ميشيكن ونجد أنها كانت تقع فى تلك البقعة. وحسبما يقول داميكو *Diction. Siciliæ Topogr.* فإنه توجد بالقرب من اليمينا آثار مجرى مياه قديم ومقابر. وهذا الدليل واسم مهكان أو ميهكان. يبدو لى. قد يجعلنا نفترض أنه كان موقع Ἡμιχάρα تولوميو و *Imachara* بلينيو.
(2) انظر الفصل الثانى عشر من هذا الكتاب الثانى.

الإمبراطورية(1)، ولكنها لم تدلل على ذلك خلال هذا اللقاء. إذ إنها وصلت إلى متناول يد عباس فى ريف بوتيرا على ما أعتقد فانكسرت فى مذبحة شنيعة: فقد قتل تسعة أو عشرة آلاف رجل لا أثناء القتال وإنما أثناء هربهم؛ ولهذا أراد المسلمون أن يبالغوا فى التعبير عن أنتصارهم السهل فقالوا إن ثلاثة فقط من المؤمنين استشهدوا فى هذه المعركة(2).

ومنذ ذاك لم يتركوا المنطقة فى سلام، فلما ذهبوا فى سنة مائتين واثنين وثلاثين هجرية (٢٧ أغسطس ٨٤٦ ـ ١٥ أغسطس ٨٤٧) لمحاصرة لنتينى وهى مدينة قديمة شهيرة، فإن فضل بن جعفر ـ وهو المنتصر فى معركة مسينا ـ وكان يقودهم، وجد الوسيلة للانتهاء من المهمة سريعاً. علم أن المواطنين قد طلبوا النجدة من الشريف الذى كان يتحصن مع رجاله فى سيراكوزا أو كاستروچوڤانى وأنه قد استعد مع رجاله للقيام بهجوم فقلب فضل الخطة ضد العدو. أرسل

(1) يمكن التعرف بسهولة على اسم Χαρσιανιτῶν وهو فى الكتابة العربية خرزنيتا فى أخبار كمبردج فى جريجوريو .*Rerum Arabic* ص٤٢ . وبالرغم من أن هذا ليس من بين **القواعد**، أى الفرق العسكرية، الخاصة بقسطنطين بورفيرو چنيتو، فمما لاشك فيه أن قوات عسكرية بيزنطية كان يطلق عليها هذا الاسم وأنه كان هناك موضوع لهذه التسمية، مرتبط بأمور أخرى فى زمن بورفيروچنيتو. انظر *Theophanes Continuatus*، ص ١٨١، ١٨٣، ٢٧٣ و٢٧٤.

ولا أعتقد أن الأمر متعلق بقوات قاعدة الشرق الثانية عشر، وهو الجزيرة، أى جزيرة توريكا وجزيرة كريميا الحاليتين. ولكن اسم Χερσωνῖται الذى يطلق على تلك الشعوب، قد يتطابق مع الكتابة العربية.

(2) *Chronicon Cantabrigiense*، المرجع المذكور؛ ابن الأثير، المخطوطة *A*، المجلد الثانى، الورقة ٢؛ والمخطوطة C، المجلد الرابع، الورقة ٢١٢ الوجه الأول. طبقاً للمرجع الأول وقعت المعركة سنة ٦٣٥٤ (أول سبتمبر ٨٤٥ ـ ٣١ أغسطس ٨٤٦)، وطبقاً للمرجع الثانى وقعت سنة ٢٢٩ (٢٩ سبتمبر ٨٤٣ ـ ١٦ سبتمبر ٨٤٤)؛ ولكن عدد القتلى البيزنطيين الذى يصل إلى ٩٠٠٠ **فى أخبار كمبردج** وإلى أكثر من ١٠٠٠٠ عند ابن الأثير لايترك مجالاً للشك فى صحة الحدث. ومن الجائز أن هذا قد وقع سنة ٨٤٥. ويقول ابن الأثير إن المعركة حدثت فى مكان يسمى شارًا حسب المخطوطة *A*، وهناك اسم شبيه ولكنه غير مقروء بوضوح فى المخطوطة C. إن عناصر الخط والكتابة تجعلنى أعتقد بإمكان صحة مقولة بوتيرا.

من يشعل ناراً لمدة ثلاثة أيام فوق أحد التلال المطلة على المدينة لأن تلك هى العلامة المتفق عليها لوصول الشريف فى اليوم الرابع، وترك القائد المسلم رجالاً قلائل تحت لنتينى؛ وأمر الآخرين بعمل كمين، وطلب من الأولين أن يتظاهروا بالهرب نحو الكمين. وفى اليوم الرابع تسلح أهالى لنتينى استعداداً للنصر الأكيد واعتقدوا أنهم سينالونه فى لمح البصر ولكنهم رأوا المسلمين يولون لهم ظهورهم: فأخذ الجميع يطاردونهم ولم يبق بالمدينة رجل قادر على القتال بشكل جيد أو سئ. وما أن تخطى الهاربون موقع الكمائن حتى استداروا والتفت الفرق الأخرى حول المسيحيين وأخذوا يضربونهم بالسيوف: وأفلت منهم القليلون ولجأوا للمدينة. واستسلمت المدينة بعد وقت قليل حفاظاً على الأفراد والأملاك(1).

وفى السنة التالية (١٦ أغسطس ٨٤٧ ـ ٣ أغسطس ٨٤٨) عادت فرقة أخرى مخذولة بالطريقة نفسها وكانت مكونة من عشرة قوارب بيزنطية نقلت الرجال إلى الأرض فى ميناء مونديللو على بعد ثمانية أميال من بالرمو لكى تنشر الفساد فى الريف، كما يكتب ابن الأثير؛ ويضيف قائلاً إنهم بعد أن ضلوا الطريق عادوا خائبى الأمل إلى قواربهم. إن كل من يعرف تلك الأماكن يمكنه أن يلاحظ من خلال هذه الإشارة إنه كان هناك مشروع كبير وليس مجرد إغارات متباعدة. فبين خليجى مونديللو وبالرمو يرتفع فى واد فسيح جبل بللجرينو الذى يطل على البحر وحده: وهو جبل ذو شكل غريب يبلغ محيطه خمسة عشرة أو عشرين ميلاً، وتسلقه صعب وإن كان ممكناً فى الجانب المطل على بالرمو، وهناك درب أصعب فى اتجاه الجنوب ثم دربان أو ثلاثة شديدى الخطورة؛ والباقى منحدر بل مقطوع رأسياً. وأعلى الجبل تمتد وديان؛ وهناك مراع وفيرة فى كل مكان، ولا ينقصه ماء الآبار والخزانات. ويبدو أن أميلكارى باركا قد عسكر هنالك لمدة ثلاث سنوات أثناء حرب

(1) ابن الأثير، الموضع المذكور؛ ابن خلدون *Histoire de l'Afrique et de La Sicile*، ص ١١٩.

قرطاجنة الأولى وهو يواجه قوات روما. وهنا كان بإمكان البيزنطيين أن يؤمنوا بالتالى وحسب رغبتهم مجموعة صغيرة من الجنود أو جيشاً كبيراً، يهددون به بالرمو وهى على بعد ميلين يساراً من الجهة الجنوبية الشرقية. ومن ناحية الغرب كان يمكنهم أن يسيطروا على منخفض مونديللو وهو اليوم منطقة مستنقعات ولكنها مزروعة؛ وكان فى القرن الثامن وسطاً بين المستنقع والبحيرة؛ ومن القرن التاسع وحتى الثانى عشر كان ترعة عميقة حتى إنه أمكن تسميته مرسى الطين أى ميناء الطين ونجده مذكوراً فى كتاب الإدريسى؛ وقبل ثلاثة قرون من الميلاد كان ميناء واسعاً حتى إنه استقبل أسطول أميلكارى: إلى هذه الدرجة انسحبت مياه البحر إما لفيضان غرينى أو لارتفاع منسوب الأرض فى هذه النقطة أو تلك من الساحل. كان من الممكن لبللجرينو أن يهتم فقط بأن يضرب ضربته من الجنوب الغربى؛ لأنه إذا حاول الاتجاه الآخر فإن هذا كان يعنى أن يواجه فى المعركة جيش بالرمو المسلم كله. لكن الفرقة كانت جريئة؛ لا مندفعة؛ ولكنها لم تجد الطريق، وهكذا فقد البيزنطيون الأمل واندفعوا منسحبين نحو سفنهم. وأبحروا بسرعة؛ وفقدوا فى عاصفة هبت عليهم سبعة من السفن العشرة(1).

إذن عاث المسلمون فى مزارع صقلية فى كل صيف، وفى سنة ثمانمائة واثنين وأربعين هاجمها الجراد أيضاً(2). وفى سنة ثمانمائة وثمانية وأربعين عانى الناس من مجاعة شديدة حتى إنها صارت تذكر بين الكوارث الكثيرة الأخرى(3). ولعل هذه المجاعة هى التى أخضعت راجوزا وهى قلعة قوية فى ڤال دى نوتو شيدت أو سميت أثناء الحكم

(1) ابن الأثير، الموضع المذكور يذكر اسم مرسى الطين الذى نجده مكتوباً بالحروف نفسها فى كتاب الإدريسى. وفى المنتصف بين مونديللو وبالرمو يضع الإدريسى نقطة يسميها بركة، وهو اسم من الممكن أن يكون العرب قد أطلقوه على هذه البقعة أو أنه بقى منذ مغامرة أميلكارى. وعلى كل حال فإنه اختفى منذ القرن الثانى عشر وحتى الآن وتسمى تلك البقعة الصغيرة اليوم «العذراء مريم». (ڤرچيني ماريا)

(2) *Chronicon Cantabrigiense*، عند دى جريجوريو، *Rerum Arabic.*، ص ٤١.

(3) المرجع نفسه، ص ٤٢.

البيزنطى باسم مدينة دلماتسيا نفسها. وكثيراً ما هَزَّ سكان راجوزا الشجعان فى صقلية نير المسلمين، ولكنهم فى سنة ثمانية وأربعين استسلموا دون أى معركة وتعهدوا بأن يتركوا كل ممتلكاتهم للمنتصرين، الذين حملوا ما استطاعوا حمله وقبل رحيلهم قاموا بهدم الأسوار. ثم فى سنة مائتين وخمسة وثلاثين هجرية (٢٥ يوليو ٨٤٩ - ١٣ يوليو ٨٥٠)، حلوا بالمناطق المحيطة بكاستروچوفانى حيث فرضوا الإتاوات، وسلبوا وحرقوا وملأوا الأرياف بالكوارث؛ ثم رجعوا إلى بالرمو دون أن يصيبهم أذى(1).

وهنا فى العاشر من رجب من السنة التالية (١٧ يناير ٨٥١) فارق الحياة أبو الأغلب إبراهيم بعد ست عشرة سنة من الحكم. وكان إبراهيم، دون أن يترك العاصمة مطلقاً، قد قاد الحرب ببسالة من خلال نوابه؛ وخطط لعملياته بحكمة، وأعطى شهرة للقوات البحرية، واجتاح جنوب إيطاليا؛ وقطع الجزيرة من ناحية إلى أخرى، حتى إن المسيحيين كانوا يدافعون عن أنفسهم بالكاد فى الحصون الرئيسة؛ ولم يكن أحد يأمن على نفسه أو ماله خارج هذه الحصون بخطوة واحدة إلا إذا دفع الإتاوة للمسلمين. ونال مديحاً مماثلاً فى شئون السلام؛ فيتحدث عنه المؤلفون العرب قائلين إنه نظم أمور الإمارة بقوة وحكمة: وتشهد على هذا أعماله؛ حيث توقفت فى عصر إبراهيم تلك الحركات العنيدة التى لقى أثناءها أخوه محمد حتفه: فالسلام فى الداخل والانتصار فى الخارج واقتسام الغنائم الكبيرة بالتساوى كل هذا جذب قوماً جدداً، وهكذا صار الجيش أو تعداد شعب بالرمو المسلم. صار أكثر عدداً. وهما الشئ نفسه فى ذلك الوقت. ويستحق اسم إبراهيم أن يرتبط فى تاريخ صقلية المسلمة باسم أسد بن الفرات: فقد كانا شيخين بطلين؛ فقد بدأ الحاكم الفتح بحماس وحمية، وأما المحارب فقد أكده

(1) قارن بين ابن الأثير وابن خلدون و *Cronica di Cambridge* المراجع المذكورة. ويعتقد أن راجوزا مقامه على موقع *Hybla Major* الخاص بالقدماء.

بحكمته(1). وقد خلف هذا رجل قاس، اختارته الجماعة وهو أبو الأغلب
عباس بن فضـــل بن يعقوب بن فزارة، وهو معروف بانتصـــاره على
أهل خراسان سنة ثمانمائة وستة وأربعين. وسرعان ما أرسل حملات
جالت فى بلاد المســـيحيين، وكســـروهم فى أكثر من صدام دموى؛
ويقول مؤلف **البيان**(2) إنهم أذلوهم وحملوا الغنيمـــة إلى عباس كما
يقول مؤرخون آخرون(3). وهذا يدل على أن المختـــار كان يمارس كل
حقوق القائد الأعلى دون أن ينتظر موافقة أمير أفريقيا. وقد أرسل

(1) قارن بين ابن الأثير، المخطوطة *A*، المجلد الثانى، الورقة ٢؛ والمخطوطة *C*، المجلد الرابع، الورقة ٢١٢ الوجـــه الأول؛ **البيـــان** ص ١٠٤؛ ابن أبّار، المخطوطة، الورقة ١٤٨، الوجه الثـــانى؛ ابن خلدون *Histoire de l'Afrique et de la Sicile*، ص ١٢٠؛ النويرى فى دى جريجوريو، *Rerum Arabic.*، ص ٨؛ أبو الفـــدا، *Annales Moslemici* سنة ٢٢٨ و٢٣٧.

صححت الاسم والتاريخ بالشكل المذكور سابقاً، ص ٣٦٦ هامش ١.

توجد عملة ضربت فى صقلية فى حكم إبراهيم ولكنها لاتحمل اسمه ولا اسم الأمير الأغلبى: وهى من الفضة وتزن ١,١٠ جم ولهذا فإن قيمتها تعادل خمسة وعشرين جزءاً من الليرة: وهى عملة رقيقة جداً؛ وحيثما تكون الكتابة غير مطموسة فإن الحروف تكون صغيرة واضحة. على وجه العملة نجد آثار حروف مطموسة وفى وسطه رمز الأغالبة وكتابة دينية ونجماً صغيراً ذا ستة أشعة. وفى وسط الوجه الثانى توجد كتابة دينية أخرى وحولها: «باسم الله ضرب هذا الدرهم فى مدينة بانرم سنة ٢٣٩». هذه العملة موجودة فى *Cabinet des Medailles* بباريس ودرستها هناك. وقد نشر تيشسن عملة شبيهه أو ربما نفس العملة فى *Additamentum 1 Introductionis ad rem nummariam* إلخ، ص ٤٤. وقد نسخ مورتيللارو ما قرأه تشيسن فى الكتالوج، الأعمال الكاملة، المجلد الثالث، ص ٣٤٦.

(2) قارن بين ابن الأثير، المخطوطة *A*، المجلد الثانى، الورقة ١٩ الوجه الثانى، والمخطوطة *C*، المجلد الرابع، الورقة ٢١٥ الوجه الثانى، **البيان**، المجلد الأول، ص ١٠٤؛ ابن خلدون، المرجع المذكور، ص ١٢٠؛ ابن وردان، § ٣؛ ابن أبى دينار (القيروانى)، المخطوطة، الورقة ٢١ الوجـــه الأول، والنص الفرنسى، ص ٨٤؛ النـــويرى، فى دى جريجـــوريو، *Rerum Arabicarum* ص ٨. ونظراً لوفاة إبراهيم فى يناير ٨٥١، فإن قوات عباس الأولى لابد أن تكون قد تكونت فى ربيع السنة نفسها؛ أما قوات كالتافوتورا فى الصيف التالى.

(3) ابن الأثير وابن خلدون، الموضعان المذكوران. فى هذه المرحلة - طبقاً لما جاء فى الجانب الأغلب من مخطوطات ابن الأثير وما نقله عنه ابن خلدون - نجد الفعل بلا علامات حـــركة تفيد الفـــاعل. وهكذا يبقى القـــارئ متردداً للوهلـــة الأولى إن كان الجنـــود قد

قدموا الغنيمة لعباس أم أنهم قدموها لأمير أفريقيا. وكذا يوحى المعنى العام للجملة
أمير أفريقيا إلى عباس صك الاختيار تعبيراً عن اعترافه بحق الجماعة
أو لعدم قدرته على رفض الواقع. ولم يتدخل بعد ذلك فى أمور صقلية،
اللهم إلا عندما تم الاستيلاء على كاستروچوڤانى فاهتم بأن يكتب
خطابات مهيبة للخليفة وقدم له جزءاً من رفات القائد المهزوم أهداها
إليه أمير صقلية. كانت هذه المراسم مستمرة وبقوة فى التقليد الإسلامى
التيوقراطى، ولكن صقلية لم تكن خاضعة لأفريقيا أكثر من خضوع
أفريقيا لمقر الخلافة فى بغداد!

استمر عباس في الحرب بضراوة. وقاد الجيش بنفسه سنة مائتين
وسبع وثلاثين (٤ يوليو ٨٥١ - ٢١ يونيو ٨٥٢) وأسند مهمة الاستطلاع
إلى أحد المقربين إليه وهو ربّاح بن يعقوب الذى برز دائما لشجاعته
الكبيرة وتولى أمور صقلية فيما بعد. هاجم عباس فى البداية
كالتافوتورو(1)، وهى معقل قوى فى سلسلة جبال مادونيى، كما قلنا
سابقاً؛ حيث تجرأ المسيحيون على الوقوف فى مواجهة المسلمين لأن
عباساً كان يعيث فى الحقول، ويقتل الأسرى الذين كان يأسرهم فى هذه
الحملة ويعود إلى العاصمة. وفى ربيع سنة (٨٥٢) هاجم كاستروچوڤانى
ونهبها وحرقها دون أن يستطيع استدراج الشريف البيزنطى الذى كان
يقود الحامية؛ فقطع على صهوة جواده جزءاً كبيراً من البلدة دون مقاومة
وعاد بأسرى كثيرين لم يقتلهم هذه المرة بل باعهم(2). ثم مع قدوم الصيف
وبداية عام مائتين وثمانية وثلاثين هجرية (٢٢ يونيه ٨٥٢ - ١٠ يونيه
٨٥٣) ركب الأسطول ليذهب للثأر، وسنتحدث عن هذا فى موضعه(3).
وعاد فى الخريف(4). وفى الفصل الجديد، ودون أن يخرج من صقلية

واتجاه الأحداث الأخرى المرتبطة بالجملة الأولى بالتفسيرات؛ ويختلف فقط مخطوط ابن خلدون الذى يظهر فيه الفعل وعليه النقاط والحركات.

(1) هذا هو الاسم الحالى، أما الكتابة العربية الصحيحة التى كتبها المؤرخون والإدريسى فهى قلعة أبى ثور، وهو اسم يتكرر مرات عديدة فى المذكرات العربية.

(2) ابن الأثير، الموضع المذكور؛ أنظر أيضاً ابن خلدون، الموضع المذكور.

(3) أنظر الفصل الثامن من هذا الكتاب.

(4) **البيان**، المجلد الأول، ص ٤٠٤ ودون أن يذكر بالاسم كاستروچوڤانى أو أى مكان

بحكمته(1). وقد خلف هذا رجل قاس، اختارته الجماعة وهو أبو الأغلب عباس بن فضـــل بن يعقوب بن فزارة، وهو معروف بانتصـــاره على أهل خراسان سنة ثمانمائة وستة وأربعين. وسرعان ما أرسل حملات جالت فى بلاد المســـيحيين، وكســـروهم فى أكثر من صدام دموى؛ ويقول مؤلف **البيان**(2) إنهم أذلوهم وحملوا الغنيمـــة إلى عباس كما يقول مؤرخون آخرون(3). وهذا يدل على أن المختـــار كان يمارس كل حقوق القائد الأعلى دون أن ينتظر موافقة أمير أفريقيا. وقد أرسل

---

(1) قارن بين ابن الأثير، المخطوطة *A*، المجلد الثانى، الورقة ٢؛ والمخطوطة *C*، المجلد الرابع، الورقة ٢١٢ الوجـــه الأول؛ **البيـــان** ص ١٠٤؛ ابن أبّار، المخطوطة، الورقة ١٤٨، الوجه الثـــانى؛ ابن خلدون *Histoire de l'Afrique et de la Sicile*، ص ١٢٠؛ النويرى فى دى جريجوريو، *Rerum Arabic.*، ص ٨؛ أبو الفـــدا، *Annales Moslemici* سنة ٢٢٨ و٢٣٧.

صححت الاسم والتاريخ بالشكل المذكور سابقاً، ص ٣٦٦ هامش ١.

توجد عملة ضربت فى صقلية فى حكم إبراهيم ولكنها لاتحمل اسمه ولا اسم الأمير الأغلبى: وهى من الفضة وتزن ١,١٠ جم ولهذا فإن قيمتها تعادل خمسة وعشرين جزءاً من الليرة: وهى عملة رقيقة جداً؛ وحيثما تكون الكتابة غير مطموسة فإن الحروف تكون صغيرة واضحة. على وجه العملة نجد آثار حروف مطموسة وفى وسطه رمز الأغالبة وكتابة دينية ونجماً صغيراً ذا ستة أشعة. وفى وسط الوجه الثانى توجد كتابة دينية أخرى وحولها: «باسم الله ضرب هذا الدرهم فى مدينة بانرم سنة ٢٣٩». هذه العملة موجودة فى *Cabinet des Medailles* بباريس ودرستها هناك. وقد نشر تيشسن عملة شبيهه أو ربما نفس العملة فى *Additamentum 1 Introductionis ad rem nummariam* إلخ، ص ٤٤. وقد نسخ مورتيللارو ما قرأه تشيسن فى الكتالوج، الأعمال الكاملة، المجلد الثالث، ص ٣٤٦.

(2) قارن بين ابن الأثير، المخطوطة *A*، المجلد الثانى، الورقة ١٩ الوجه الثانى، والمخطوطة *C*، المجلد الرابع، الورقة ٢١٥ الوجه الثانى، **البيان**، المجلد الأول، ص ١٠٤؛ ابن خلدون، المرجع المذكور، ص ١٢٠؛ ابن وردان، § ٣؛ ابن أبى دينار (القيروانى)، المخطوطة، الورقة ٢١ الوجـــه الأول، والنص الفرنسى، ص ٨٤؛ النـــويرى، فى دى جريجـــوريو، *Rerum Arabicarum* ص ٨. ونظراً لوفاة إبراهيم فى يناير ٨٥١، فإن قوات عباس الأولى لابد أن تكون قد تكونت فى ربيع السنة نفسها؛ أما قوات كالتاڤوتورا فى الصيف التالى.

(3) ابن الأثير وابن خلدون، الموضعان المذكوران. فى هذه المرحلة - طبقاً لما جاء فى الجانب الأغلب من مخطوطات ابن الأثير وما نقله عنه ابن خلدون - نجد الفعل بلا علامات حـــركة تفيد الفـــاعل. وهكذا يبقى القـــارئ متردداً للوهلـــة الأولى إن كان الجنـــود قـــد

أمير أفريقيا إلى عباس صك الاختيار تعبيراً عن اعترافه بحق الجماعة أو لعدم قدرته على رفض الواقع. ولم يتدخل بعد ذلك فى أمور صقلية، اللهم إلا عندما تم الاستيلاء على كاستروجوڤانى فاهتم بأن يكتب خطابات مهيبة للخليفة وقدم له جزءاً من رفات القائد المهزوم أهداها إليه أمير صقلية. كانت هذه المراسم مستمرة وبقوة فى التقليد الإسلامى التيوقراطى، ولكن صقلية لم تكن خاضعة لأفريقيا أكثر من خضوع أفريقيا لمقر الخلافة فى بغداد!

استمر عباس في الحرب بضراوة. وقاد الجيش بنفسه سنة مائتين وسبع وثلاثين (٤ يوليو ٨٥١ - ٢١ يونيو ٨٥٢) وأسند مهمة الاستطلاع إلى أحد المقربين إليه وهو ربّاح بن يعقوب الذى برز دائما لشجاعته الكبيرة وتولى أمور صقلية فيما بعد. هاجم عباس فى البداية كالتاڤوتورو(1)، وهى معقل قوى فى سلسلة جبال مادونيى، كما قلنا سابقاً؛ حيث تجرأ المسيحيون على الوقوف فى مواجهة المسلمين لأن عباساً كان يعيث فى الحقول، ويقتل الأسرى الذين كان يأسرهم فى هذه الحملة ويعود إلى العاصمة. وفى ربيع سنة (٨٥٢) هاجم كاستروجوڤانى ونهبها وحرقها دون أن يستطيع استدراج الشريف البيزنطى الذى كان يقود الحامية؛ فقطع على صهوة جواده جزءاً كبيراً من البلدة دون مقاومة وعاد بأسرى كثيرين لم يقتلهم هذه المرة بل باعهم(2). ثم مع قدوم الصيف وبداية عام مائتين وثمانية وثلاثين هجرية (٢٢ يونيه ٨٥٢ - ١٠ يونيه ٨٥٣) ركب الأسطول ليذهب للثأر، وسنتحدث عن هذا فى موضعه(3). وعاد فى الخريف(4). وفى الفصل الجديد، ودون أن يخرج من صقلية

قدموا الغنيمة لعباس أم أنهم قدموها لأمير أفريقيا. وكذا يوحى المعنى العام للجملة واتجاه الأحداث الأخرى المرتبطة بالجملة الأولى بالتفسيرات؛ ويختلف فقط مخطوط ابن خلدون الذى يظهر فيه الفعل وعليه النقاط والحركات.

(1) هذا هو الاسم الحالى، أما الكتابة العربية الصحيحة التى كتبها المؤرخون والإدريسى فهى قلعة أبى ثور، وهو اسم يتكرر مرات عديدة فى المذكرات العربية.

(2) ابن الأثير، الموضع المذكور؛ أنظر أيضاً ابن خلدون، الموضع المذكور.

(3) أنظر الفصل الثامن من هذا الكتاب.

(4) **البيان**، المجلد الأول، ص ٤٠٤ ودون أن يذكر بالاسم كاستروجوڤانى أو أى مكان

هزم قرى كاستروچوڤانى وكتانيا وسيراكوزا ونوتو وراجوزا؛ فقطع الأشجار، وحرق المحاصيل وأخذ الأسرى ونشر الفظائع فى كل الأنحاء؛ وبعد أن استولى على كامرينا، أو على الأكواخ التى كان يطلق عليها هذا الاسم القديم، توقف عند بوتيرا فى شهر يونيه أو يوليو؛ لأن أحد المؤرخين الحصيفين يؤرخ لوجود هذه القوات فى سنة ثمانى وثلاثين، أى مع بداية حملتهم؛ وأما الآخر فيؤرخ لها سنة تسع وثلاثين أى سنة انتهائها (١١ يونيه ٨٥٣ - ٣١ مايو ٨٥٤).

كانت بوتيرا مدينة قوية فى أيام المسلمين؛ وكانت مزدهرة وشهيرة فى أيام الإقطاعيين، حتى إنها هي التي أطلقت لقب النظير الأول للمملكة الذى استمر حتى الإصلاح الذى جرى سنة ألف وثمانمائة وثمانى وأربعين وفيه ألغى البرلمان الصقلى توارث هذا اللقب؛ ولم يظهر هذا الاسم الجغرافى قبل القرن التاسع؛ ولا توجد منشآت أو آثار تدل على أن المكان كان مأهولاً فى العصر القديم وأن اسمه قد تغير فقط تحت حكم البيزنطيين. تقع المدينة فوق قمة هضبةعلى بعد أميال قليلة من البحر ومن نهر سالسو؛ وتطل على البلدة الخصبة التى كان القدماء يطلقون عليها اسم كامبى چيلوى: وأثناء الحرب كانت المدينة ملجأً طبيعياً لذلك الشعب الزراعى؛ وفى أزمنة العبودية كانت محل إقامة الطغاة. ويبدو أن القرويين قد لجأوا إلى هذا الحصن أكثر من مرة أثناء غارات فرسان المسلمين الأولى على ڤال دى نوتو. ولكن فى سنة ثمانمائة وثلاث وخمسين عندما رأى عباس أنهم تجمهروا فى الملجأ المعتاد، فكر فى أن يحصدهم جميعاً فى شبكة واحدة: وهكذا حاصر بوتيرا حصاراً شديداً لأكثر من خمسة شهور؛ وفى النهاية تعاهد مع سكانها أن يسـلموه خمسة أو ستة آلاف رأس - هكذا يكتب المؤرخون - كما لوكانت رؤوس أغنام - وأن ينسحب الجيش حاملاً معه

آخر فإنه يذكر أن خراب صقلية وقع سنة ٢٣٧ ويروى أن العملية الأخرى التى وقعت على البر كانت فى سنة ٢٣٨؛ لأن المؤرخ يذكر أن عباساً قد أرسل فى البداية رؤوس القتلى إلى بالرمو، ثم عاد هو نفسه إلى صقلية.

هذا الحشد من العبيد إلى بالرمو(1).

إننا نجهل الآن إذا ما كانت الضرورة المفزعة هى التى أكرهت المحاصرين على هذا الاتفاق، أم أن البرجوازيين، حتى يحافظوا على أملاكهم، قد خدعوا بخيانتهم السوداء سكان الريف؛ إخوتهم فى المسيح، من الضيوف أو من المعروفين لديهم بحكم العادة، وسلموهم عبيداً للعدو معتبرين إياهم حيوانات من جنس آخر: لأن المسيحية لم تكن قبل القرن الثامن عشر تدقق فى موضوع المساواة. أما بالنسبة للمنتصرين، فإنهم كانوا يعتبرون أنفسهم سادة بشكل أوضح علي كل البشر الذين يختلفون عنهم فى الدين، وليس فقط هؤلاء الستة آلاف من الأجلاف. ولذا سعد مستعمرو بالرمو باقتسامهم مع بقية الغنائم. ويبدو لى واضحاً أنه كانت هناك حاجة شديدة للعبيد لزراعة أراضى ڤال دى مازارا حتى أن عباس بن فضل قد فرض طوال حكمه للجزيرة إتاوات، من النقود ومن البشر على السواء، على الأراضى التى كانت لا

---

(1) ارجع إلى ابن الأثير، **البيان**، وابن خلدون، الموضعين المذكورين، مع ملاحظة نزع اسم بوتيرا وأن اسم نوتو يحل محله. فى رواية م. دى ڤرچيه، ص ١٢١، وأن يحل اسم بوتيرا محل ثيرا عند وجوده فى مستخلص ابن الأثير الذى يضعه فى هامش ص ١٢٢. يوجد الاسم الذى كتبه كامرينا فى **البيان**، والاسم غير واضح للأضرار التى لحقت بالمخطوطة بسبب الرطوبة مما جعل تمييز كلماتها صعباً؛ كما يذكر صديقى العالم الأستاذ دوزى دى ليدن.

وعلى كل حال تظهر حروف *sh rina, sm rina, sci m rina,* أو ما شـــابه ذلك. ولقد فضلت الخيار الأخير، أولاً لأن التاريخ يصف هذا المكان بالمدينة؛ وثانياً لأنه لا توجد فى صقلية مدينة أخرى، قديمة كانت أم حديثة، يمكن أن يحتمل اسمها هذه الحروف؛ وثالثاً لأن كامرينا كانت تقع على مقربة من راجوزا، ورابعاً لأنه بالرغم من التدمير المعروف الذى لحق بها فى العصور القديمة، فإننا نعلم أن الرومان حاولوا إعادة تعميرها، وأن آثار المدينة لم تندثر وكذلك اسمها، ومازال اسم كامرانا يطلق حتى اليوم على مستنقع ونهر صغير وبرج. وكانت هناك بقايا ضخمة لمنشآت حتى القرن السادس عشر، وكما يقول فاتزللو - وهو شاهد عيان - فإنها أزيلت لبناء تيرًّانوڤا. ومع ذلك يبدو لى أنه من المحتمل أن يكون قد أقام فيها قليل من السكان فى سنة ٨٥٣، أو أن يكونوا قد لجأوا للاحتماء ببقاياها التى يحميها المستنقع. ومن الممكن أن نضيف كذلك وجود أسقفين فى كامرينا فى بدايات القرن السادس؛ ولكن هناك شك فى أنهما كانا فى كامرينا بماركا دانكونا، كما يذكر أوجللى، أم كامرينا بصقلية. انظر فى هذا الصدد بيرّو: **صقلية المقدسة**، نشريات مونچيتورى، الجزء الأول، ص ٥١٠.

تفى بالعهود(1) ورفض النقود أحياناً وفضل عليها الرجال(2). ولم يتوقف عن إنزال البلاء بصقلية كل عام بالسلب والكرب وحرق الحصاد وهدم المبانى، وهو ما يكرره الرواة بكثرة، دون أن يذكروا فى الغالب أسماء الأماكن. وهكذا فإنه فى سنة مائتين وأربعين للهجرة (١ يونيو ٨٥٤ ـ ٢٠ مايو ٨٥٥)، وفى العام التالى (٢١ مايو ٨٥٥ ـ ٨ مايو ٨٥٦) نقرأ أن عباساً بقى لمدة ثلاثة شهور فوق أحد الجبال العالية ومنها كان يرسل المغيرين كل يوم لضرب ريف كاستروچوڤانى وكذلك فرقا من الفرسان فى كل جانب من جوانب الجزيرة. ويتضح من هذا أن المقصود هو جبل أرتزينو الذى من قمته يمكن رؤية جانب كبير من صقلية مثل خارطة جغرافية بارزة: ومن هنالك كان القائد الجبار يستطيع أن يشاهد بناظريه هيئة البلاد: وأن يلاحظ سلاسل الجبال الرئيسة، وأن يمعن النظر فى القلاع الواقعة على هذه القمة أو تلك التى لم يتم الاستيلاء عليها، والسهول الخصبة التى قد يهاجمها. ولعله هو أو غيره من القواد قد تخيل من هذا الموقع إمكان تقسيم صقلية إلى ثلاثة وديان، كما أطلق عليها فيما بعد، تتقاطع حدودها بالقرب من جبل أرتزينو. وفى السنة نفسها أرسل عباس مع الأسطول عليا أخاه، الذى قام بأعمال قرصنة وجمع هو أيضاً وساق إلى بالرمو عدداً وفيراً من العبيد. وبعد ذلك فى صيف سنة مائتين واثنين وأربعين (٩ مايو ٨٥٦ ـ ٢٨ أبريل ٨٥٧) قاد عباس بنفسه جيشاً أقوى من المعتاد، واستولى على خمسة حصون لا نعلم أسماءها. وفى سنة مائتين ثلاثة وأربعين (٢٩ أبريل ٨٥٧ ـ ١٧ أبريل ٨٥٨) حدث فى الصيفة، كما كانوا يسمون الحرب صيفاً، أن استدرج حامية كاستروچوڤانى للقتال وكسرها، وانتقل منها ليخرب ريف سيراكوزا وتاورمينا ومدناً أخرى. ثم عسكر فى إحدى القلاع ـ يسميها أحدهم القصر الجديد ـ والمقصودة هى كاستيل نوڤو، بينما يسميها آخر بتحريف بسيط قصر الحديد؛ وأعتقد أن المقصود بها نظراً لأهميتها جاليانو والتى ذكرها البلاذرى الذى كان يعيش آنذاك فى بغداد. كانت جاليانو حصناً من حصون حروب صقلية فى العصر الوسيط، ولازالت تحتفظ حتى اليوم باسمها وآثار تحصينها الرائعة الطبيعية منها والمصنوعة. حاصرها عباس لمدة شهرين ثم عرض سكانها دفع فدية مقدارها خمسة عشر ألف دينار، أو ما يعادل مائتى وسبعة عشر ألف ليرة فرفضها؛ وضيق الحصار على القلعة واستولى عليها فى النهاية استيلاء عهد بشرط هدم المنشآت وأن يخرج فقط مائتا مواطن أحرار، أما الباقون فيصبحون عبيداً: وقد حملهم فى الواقع إلى بالرمو وباعهم(1). وفى السنة نفسها استسلمت تشيفالو

أما فيما يخص بوتيرا فإن تاريخ كامبردج فى دى جريجوريو، *Rerum Arabicarum* ص ٤٢، لا يقول بأنها توصلت إلى معاهدة، بل إنه قد استولى عليها؛ ولا يوجد اختلاف كبير بين الأمرين. ويذكر التاريخ المشار إليه أن هذا قد وقع سنة ٦٣٦٢، أى فيما بين الأول من سبتمبر ٨٥٣ و٣١ أغسطس ٨٥٤، أى ما يوافق سنة ٢٣٩ هجرية، وهو التاريخ المذكور فى **البيان**. وقد ظن البعض أن بوتيرا هى *Hybla Hærea*، أى ماتّوريوم القدماء، ولكن ليس هناك تعليل مقنع لهذا، كما ذكرت فى النص، بالنظر إلى عصر منشآت بوتيرا طبقاً للتفاصيل التى وجدتها فى الكتب وما فهمته منها. وهى على كل حال أمور تحتاج إلى دراسة عميقة من جانب من يريد أن يعرف بنية عصور المسلمين.

(1) يشهد النويرى على هذا، أو بالأحرى المؤرخ الذى ينقل عنه، فى فقرة لم يقرأها برســـيڤال قراءة جيدة ومترجمة ترجمـــة سيئة للغـــاية فى دى جريجوريو *Rerum Arabicarum*، ص ٨: *Tum ipsemet profectus fuit* إلخ. ولكن يبدو لى أنه من المناسب أن أنقل ترجمة صحيحة لهذه الكلمات. يقول النويري: «وسواء خرج هو (عباس)، أو أرسل خيله، فإنه كان يعذب وينشر الكرب والخراب بين الشعوب وأراضى الأعداء؛ إلا أنهم كانوا يشترون منه أحياناً السلام بالنقود والعبيد».

(2) انظر فيما بعد اتفاق قصر ـ جديد.

---

(1) ارجع إلى ابن الأثير، المخطوطة *A* الجزء الثانى، الورقة ١٩ الوجه الثانى، والمخطوطة *C*، الجزء الرابع، الورقة ٢١٥ الوجه الثانى؛ **البيان**، الجزء الأول، ص ١٠٤، ١٠٥، ١٠٦؛ وابن خلدون، *Histoire de l'Afrique et de la Sicile*، ص ١٢١ حيث لا يبدو لى النص التالى صحيحاً:

"et s'empera même du chateau neuf de cette ville (Castrogiovanni)"

بلاذورى، مخطوطة ليدن، ص ٢٧٥ يذكر أنه فى خلافة المتوكل (من سنة ٨٤٧ إلى سنة ٨٦١) تم احتلال كاستروچوڤانى وجاليانو ويكتب مثل الإدريسى: وهاتان هما المدينتان الوحيدتان اللتان تم الاستيلاء عليهما فى صقلية ويرى ضرورة ذكر اسميهما. وأنا أعتقد أن قصر الحديد، أو القصر الجديد ليسا إلا اسماً ثانياً لقلعة جاليانو، لأنى لا

وهدمت مبانيها هى أيضاً ولكن أطلق سراح كل سكانها: وكان هذا
عهدا أوفر حظاً بالنسـبة لتلك الأزمان: فقد عقده عباس كما هو
واضح، لأن تشيفالو لم يكن من اليسير تجويعها(1) نظراً لوقوعها على
ساحل البحر.

ووقعت أحداث أشد نكبة سنة مائتين وأربع وأربعين للهجرة (٨أبريل ٨٥٨ ـ ٦ أبريل ٨٥٩). ففى الصيف خرج من بالرمو الجيش بقيادة عباس وفى الوقت نفسه الأسطول بقيادة أخيه علي: فقام الأول بنهب القرى التابعة لكاستروچوڤانى وسيراكوزا دون أى عائق ثم عاد إلى بالرمو. أما علي فقد ذهب إلى بحار كريت، لا ليهاجم المستعمرة الإسلامية كما ظن البعض، وإنما أثناء إبحاره أمام سواحل بوليا، حيث كان يتحارب المسلمون والمسيحيون، أخذ يطارد السفن البيزنطية فى البحر الأدرياتيكى، أو أن الريح قد حملته بعيداً إلى هذا الحد. والتقى بأربعين سفينة بيزنطية يطلق على قائدها الكريتى: وقد يكون هو نفسه چوڤانى الذى حكم بلوبونيزو فى سنة ثمانمائة وأربع وثمانين(2). وأطلق

أستطيع أن أفترض أن الرواة الآخرين قد أهملوا هذا النصر البارز الذى ذكره البلاذرى، ولأن القصر المذكور هو الميدان المهم والوحيد الذى قاموا بالاستيلاء عليه أثناء خلافة المتوكل دون أن نجد اسمه فى جغرافية صقلية. ويجب أن أنبه كذلك إلى أن الإدريسى يذكر فيما بين ترمينى وتشيفالو على الساحل صخرة الحرير أو حسب مخطوطة أكسفورد، الحديد؛ وهى حصن قوى فى أيامه وهى *Castrum Roccellæ* فى وثائق صقلية بالعصر الوسيط؛ ويبقى منها اليوم آثار روتشيللا واسمها، وهو الاسم الذى يطلق كذلك على قرية صغيرة داخل البلاد وتسمى أيضاً كامبوفليتشى. وبالرغم من قربها من تشيفالو التى تم الاستيلاء عليها فى السنة نفسها، وبالرغم من الاتفاق على اسمها فى المخطوطات فإنى لا أعتقد أن هذا الحصن كان يستوعب هذا العدد الضخم من الناس الذى تقدم فدية له ١٥٠٠٠ دينار، إلخ. وفى النهاية يبدو أن المقصودة هنا ليست كاسترونوڤو، وهى القصر الجديد فى إحدى الروايات، لأن الإدريسى كتبه قصر نوبو.

(1) **البيان**، الجزء الأول، ص ١٠٦ . الاسـم المكتوب *Sl'ùda* وبه خطأ إملائى وهو ما يحدث كذلك فى بعض مخطوطات الإدريسى.

(2) يشار إلى چوڤانى المعروف بالكريتى وهو حاكم بيلوبونّيزو فى تيوفان، الفصل الثانى والستين، ص ٣٠٢؛ ولكنه لا يظهر فى أى مناسبة اطلق عليه اسم الشهرة هذا، ولا يتحدث عنه فى مكان آخر.

عليه لقب الكريتى ربما بعد هذه المعركة، حباً فى اطلاق أسماء رومانية
ولعدم وجود انتصارات أكثر مجداً. أثناء المعركة التى دارت بين الكريتى
وعلي فى صيف سنة ثمانمائة وثمانى وخمسين، فقد الكريتى فى
البداية عشرة سفن بكل بحارتها؛ ثم عند استئناف القتال انقلب الحظ
وهُزم المسلمون هزيمة دموية واستُولى على عشر سفن من سفنهم:
وعاد علي مع ما بقى من أسطوله إلى ميناء بالرمو(1). وحل الشتاء،
وانطلقت كما هى العادة، حملة ثانية على ريف كاستروچوڤانى لجمع
الغنيمة والأسرى، وحملت إلى بالرمو فيمن حملت رجلاً ذائع الصيت
فى بلاده(2). أمر عباس بقتله وهو فى غيظ شديد لما حدث للأسطول،
أو متظاهراً بهذا كى يحصل على أكبر فدية، أو لأن هذا الرجل لم يساو
شيئاً فى سوق الرقيق إذ كان بائساً تعيساً فى شخصه وروحه. ووقف

---

(1) أنظر ابن الأثير، المخطوطة *A*، المجلد الثانى، الورقة ١٩ الوجه الثانى، والورقة ٢٠ الوجه الأول؛ والمخطوط C، المجلد الرابـع، الورقة ٢١٥ الوجه الثـانى؛ *Chronicon Cantabrigiense* فى دى جـوريجوريو *Rerum Arabic.*، ص ٤٢؛ **البيان**، المجلد الأول، ص ١٠٦؛ النـويرى، فـى دى جـوريجوريو، المرجـع المذكـور، ص ٩؛ ابن خـلدون *Histoire de l'Afrique et de la Sicile*، ص ١٢١ وقعت المعـركة البحـرية قبـل ٣١ أغسـطس ٨٥٨، لأن أخبـار كمبـردج تؤرخ لهـا بسنة ٦٣٦٦ .

ونستقى من ابن الأثير أن الأسطول الذى حاربه علي هو أسطول الروم، أى البيزنطيين وهكذا يسـقط رأى م. كوسين دى برسـيڤال، *Histoire de la Sicile* فى النويرى، ص ١٩ بأن الكريتى هـو أبو حفص عمـر. ولهذا ينبغى تصحيح ما كتبه رامبولدى، *Annali Musulenani*، الجـزء الرابـع، ص ٣١٥؛ ومارتورانا، *Notizie Storiche dei Saraceni Siciliani*، الجـزء الأول، ص ٤٣ . ويتحـاشى وينريش فى *Commentarii*، الكتـاب الأول، الفصـل الثامن، § ٧٩، هذا الخطأ، ولكنـه يقـع فى خطأ آخـر إذ يقول إن المعركة البحرية اسـتمرت أمام سيراكوزا؛ وهـو مـا لا نجـد عنـه أى إشـارة فى نص ابن الأثير الذى يربطـه باستشهاد من م. دى ڤرچيه.

(2) النويرى يقـول عنـه «بربرى» وتعنى «غير عربى» ولكن هـذا اللفظ غيـر معتـاد فى الإشـارة إلى الروم، سـواء البيزنطيين أو الإيطـاليين؛ ويطلـق عليـه ابن الأثير، روميا.

أمام عباس فى لباقة النبلاء وقال له «دعنى أحيا فأعلمك بأمر يناسبك». فسأله الأمير على انفراد «ماهو؟»؛ فقال له الخائن: «سأسلمك كاستروچوڤانى». واستطرد قائلاً: «فى هذا الشتاء ومع هذا الجليد لا تتوقع الحامية هجوماً فتقل الحراسة؛ لهذا فإذا أردت أن ترسل معى جانباً من الجيش فسوف أجعله يدخل كاستروچوڤانى». ووافق عباس واختار ألفاً من الخيل وسبعمائة من أشجع الرجال وقسَّمهم إلى مجموعات كل منها عشرة رجال، وعين رئيساً لكل مجموعة؛ وجهز سراً كل شئ وقاد بنفسه الرجال، وخرج ليلاً من العاصمة. وتحاشى كما تراءى له طريق كالتاڤوتورو المعتاد، إذ إنه طريق موحش وصعب فى الشتاء، وهو طريق مستقيم تقريباً من بالرمو إلى كاستروچوڤانى فى اتجاه جنوب الشرق؛ وانطلق فى الطريق الآخر وهو طريق أطول وأسهل يؤدى إلى كلتانيسّيتا، وهى مدينة تبعد ستة عشر ميلاً جنوب غرب الحصن المتآمر عليه. ونقرأ أن الفرقة قد توقفت عند مرحلة من جبل البحيرة(1)، بحيرة برجوزا بكل تأكيد، وهى تبعد خمسة أميال إلى الجنوب من كاستروچوڤانى، وقد نستنتج من هذا أنها توقفت عند كلتانيسيتا أو عند بيترابرتسيا، وهى أرض قريبة. وبقى عباس متربصاً ومعه أكثرية الرجال، وأرسل ربَّاح ومعه أقوى الرجال المنتقين من بين الأقوياء ليقوم بأصعب مهمة: فتحركوا بلا ضجيج عند حلول الليل واصطحبوا معهم الخائن المسيحى مربوطاً بهم، وجعله ربَّاح يمشى أمامهم، ولم يرفع ناظريه عنه. ومن الواضح أنه أراد أن يسلك درباً صاعداً من أكثر الأماكن صعوبة وأقلها حراسة فاضطرت مجموعة

(1) جبل الغدير، هذا ما يكتبه النويرى. والاسم الذى استخدمه للمحطة هو مرحلة وتتفق مع ما نطلق عليه «وقفة». ويختلف طول الطريق باختلاف الأماكن. فيقول الإدريسى أنه ١٨ ميلاً بين كلتانيسيتا وكاستروچوڤانى، و١٢ ميلاً بين هذه وبيترابرتسيا. والمسافة بين كلتانيسيتا وبحيرة برجوزا هى المسافة نفسها بينها وبين كاستروچوڤانى؛ ولكن بيترابرتسيا بموقعها إلى الجنوب الغربى هى أقرب إلى البحيرة وأبعد عن المدينة.

رباح إلى الاتجاه نحو الساحل الشمالى لجبل كاستروچوڤانى الذى يعلوه الحصن من هذه الناحية: وأن عباساً كان لابد أن يمتطى جواده بعد سويعات فى اتجاه بحيرة برجوزا ليصعد إلى كاستروچوڤانى من الناحية الجنوبية حيث توجد الضاحية السكنية؛ وأن يظهر عندما يسيطر ربَّاح على الحصن. وهكذا فعل المهاجمون على ما يبدو. أخذ ربَّاح يتسلق كما كان يشير إليه الأسير فوجد صخرة مستوية، فوضع السلالم المعدة لهذا الغرض؛ ووصل فى النهاية إلى أسفل القلعة عند بزوغ الفجر. وهى الساعة المصيرية بالنسبة لكثير من القلاع المحاصرة، ففيها يبدو أن خطر الليل قد زال: وهكذا استسلم حراس الحصن للنوم. عندئذ قاد الخائن المسلمين إلى فتحة مجرى مياه تقع تحت الأسوار(1)؛ فنفذوا منها الواحد تلو الآخر وما أن صاروا داخل القلعة حتى رأوا السماء من جديد. وانقضوا مندفعين على البيزنطيين؛ يقتلون كل من يعترض طريقهم؛ ويفتحون البوابة. فانطلق عباس عندئذ يقطع الضاحية السكنية، ودخل الحصن مع طلوع الشمس عند ساعة صلاة الصبح عند المسلمين فى الخامس عشر من شوال سنة مائتين وأربع وأربعين للهجرة الموافق أربع وعشرين يناير سنة ثمانمائة وتسع وخمسين من التقويم الميلادى ولم يترك أحدا من الجنود المسيحيين حياً. وتضيف الأخبار أن أبناء أمراء تم أسرهم، وكذلك نساء من الأشراف بمجوهراتهن؛ ومن ذا الذى كان يستطيع حصر بقية الغنائم؟ وسرعان ما افتتح عباس مسجداً؛ وأمر بإقامة «درابزين» وصعد يوم الجمعة التالى، فى يوم الجمعة، كما يسميه المسلمون وكما يقول فقهاؤهم أن عناصر العالم قد اجتمعت فيه، طفق القائد القاسي فيما بين المذابح الأخيرة وبكاء الضحايا وشطط الغالبين يخطب فى رجاله: وفى اتضاع وقسوة كان

(1) يتحدث النويرى عن نافذة كانت تدخل منها المياه؛ وابن خلدون عن بوابة صغيرة كانت تدخل منها المياه وتلقى منها القمامة.

يرفع إلى الله انتصـــاره على كاســـــتروچوڤانى(1). واعتبر من أبرز انتصارات ذلك العصر(2). وكانت سعادة المسلمين بالغة حتى أنهم نسوا الأحقـــاد بين رجـال الدولة فأرســـل أمير صقلية أسلاباً كثيرة إلى أمير أفريقيا الأغلبى؛ وأخذ هذا يختـار النســـاء والفتيان من بين الأســـرى ليقدمهم هدية إلى كبير طائفته فى بغداد(3).

وما أن ذاع الخبر بين سكان الجزيرة المسيحيين، سواء كانوا خاضعين للمســـلمين أو لا، وكانوا ينظـرون على مدى ثلاثين سنة إلى حصن كاســـتروچوڤانى كعهد وميثـــاق للتحرر، حتى انتابهم الفزع الشديد فى البداية حتى إن العرب أســـرعوا بالكتـــابة بأن الشـــرك فى صقلية فى ذلك الوقت قد أصابه الذل والانكسار. ولكن بعد ذهول اللحظة الأولى ظهـــرت بوادر المشاعر الجياشة فدعا الإمبراطور ميكيلى الثـــالث أهـــالى صقلية أن يشـــاركوا فى المجهـود الحـربى. كان ميكيلي معروفا بالشـــراهة والشهوات والمجـــون ومؤمرات البلاط وتنافس الكبار. ولم يذكر المؤرخون البيزنطيون هذه المبـــادرة؛ لأن جُلَّ اهتمامهم كان ينصب على هذه المساوئ؛ وإذا ما وجدنا إشارة إليها فإننا نجدها لدى المؤرخين

(1) انظر ابن الأثير، المخطوطة *A*، المجلد الثانى، الورقة ٢٠ الوجه الأول؛ والمخطوطة *C*، المجلد الرابع، الورقة ٢١٥ الوجه الثانى؛ *Chronicon Cantabrigiense*، فى دى جريجوريو، *Rerum Arabic.*، ص ٤٢؛ النويرى، المرجع المذكور، ص ٩، ١٠؛ ابن خلدون *Histoire de l'Afrique et de la Sicile*، ص ١٢١، ١٢٢؛ أبو الفدا، **حوليات المسلمين**، سنة ٢٣٧ هجرية وهذا التاريخ خطأ؛ ابن أبى دينار، المخطوطة، ورقة ٢١، الوجه الأول، والنص الفرنسى، ص ٨٥، وفيه نقرأ بدلاً من كاستروچوڤانى «قلعة بونا»؛ ابن وردان، §٣، بنفس الخطأ الوارد فى أبي الفدا.
ويقول ابن الأثير والنويرى خطأً إن الاحتلال وقع يوم الخميس بينما يوم ١٥ شوال ٢٤٤، الموافق ٢٤ يناير ٨٥٩، هو يوم الثلاثاء.

(2) هى إحدى المدينتين اللتين تم الاستيلاء عليهما فى صقلية، وذكر اسميهما البلاذرى، وهو معاصر للأحداث، فى المخطوطة، ص ٢٧٥.

(3) ابن خلدون *Histoire de l'Afrique et de la Sicile*، ص ١١٦.

العرب ولكنها مجرد إشارة غير واضحة ويبدو أن الإستعدادات كانت على مستوى ميكيلى المخمور. فقد تم إحضار الجنود من (كبدوكيه) كاپّادوتشا، حسب قراءتى، وألقى بهم علي متن ثلاثمائة سفينة تحت قيادة أحد الأشراف: وماذا كان ينقصهم لاستعادة صقلية؟ ورسوا فى سيراكوزا فى خريف سنة ثمانمائة وتسع وخمسين ذاتها أو فى صيف سنة ستين: ويبدو أنهم مالبثوا أن تحركوا مع الجيش فى اتجاه الساحل الشمالى. فقد خرج عباس، حسبما يقول ابن الأثير، من بالرمو ليلاقى العدو، وحاربه وكسره وطارده حتى موضع السفن واستولى على مائة منها وقام بمذبحة فظيعة للرجال وفقد من رجاله ثلاثة فقط أصابتهم الحراب، كما يقول المؤرخ(1)، وتغنى بقصة النصر على النصارى. ولكن من الواضح أن زهو المنتصرين هذا، وهو بالتأكيد ناتج عن جبن الآخرين، ناجم عن الهزيمتين اللتين وقعتا للجيوش القادمة من وراء البحار، ولم يحدث الشئ نفسه فى المعارك التى جرت ضد مسيحيي صقلية.

(1) ابن الأثير، المخطوطة *A*، المجلد الثانى، الورقة ٢٠؛ والمخطوطة *C*، المجلد الرابع، ورقة ٢١٥، الوجه الثانى. ابن خلدون *Histoire de l'Afrique et de la Sicile*، ص ١٢٣ يتحدث عن الموقعة ويخطئ التاريخ. وتاريخ كمبردج فى دى جوريجوريو *Rerum Arabic.*، ص ٤٢ يقول فقط: سنة ٦٣٦٨ *Descenderunt Fendanitæ*؛ والتاريخ والاسم يحتاجان إلى تعليق. وإذا ابتدأنا بالاسم فإنى أقول إنه فى المخطوطة مكون من ستة حروف دون أداة التعريف ومن بينها لا يوجد سوى حرف حركة واحد. ولهذا فيمكن قراءتها بمائة طريقة مختلفة، وقد التزم المحققون بأغربها، بمعنى أن *Fendanitæ* اعتبروها *Effenditæ*. ولما كان واضحاً لى أن اسم هذا الجنس يجب البحث فيه بين الشعوب التى كانت تحارب تحت الأعلام البيزنطية فإنى لا أتردد فى قراءته *K b d kia* وهو ما لا يغير شيئاً فى عناصر أى حرف مذكور فى المخطوط، ولكن يتم تصحيح الحركات فقط، ويوجد اسم كاپّادوتشا الشهير، وعساكر هذه المنطقة مذكورين فى حروب المشرق فى ذلك الوقت. أما بالنسبة للتاريخ الذى يبدأ بالأول من سبتمبر ٨٥٩ وحتى ٣١ أغسطس ٨٦٠ فإنه يوضع فى بداية الأحداث التى يوردها ابن الأثير، ومن المذكور أنه لا يلتزم التزاماً دقيقاً تتابع الأحداث، عندما يروى نزول الشريف وهزيمته فى سنة ٢٤٤ نفسها، والتى لم يكن باقياً على انتهائها سوى شهرين بعد الاستيلاء على كاستروچوڤانى.

ولم يحدث أن قلَّت شجاعتهم فى هذه الحركة، لأننا نرى أنه مع أول ظهور للدعم البيزنطى تنهض قلاع كثيرة من قلاع الجزيرة ولا تخضع خضوعاً سهلاً بعد انهزامها: قلاع بلاتانى، وكالتابللوتا، وكالتاڤوتورو التى سبق أن ذكرناها وكذلك سوتيرا(1)، وهى أرض لا أعلم كيفية قراءة اسمها إبلا، أڤولا أم إنتللا(2)، قلعة عبد المؤمن(3)، وغيرها لم تذكر أسماؤها، وكانت كلها قد تعهدت بطاعة المسلمين ودفع الجزية لهم. وأخذ عباس ينقض عليها انقضاضاً سريعاً لعقابها فى عام مائتين وستة وأربعين (٢٧ مارس ٨٦٠ - ١٥ مارس ٨٦١). وقابله الجيش المسيحى، الذى ربما قامت تلك البلديات بتجميعه على وجه السرعة، وانتصر عليه عباس فى مذبحة رهيبة؛ وبعد أن تجاوزه، وحاصر قلعة عبد المؤمن وبلاتانى. وعبثا كان يجهد ذاته فى ذلك المكان فقد علم - كما يقول ابن الأثير - بوصول جيش بيزنطى آخر: ربما من البقية الباقية من كابّادوتشا وقد أضيفت إليه ميليشيات الجزيرة؛ ويبدو

---

(1) هى أرض طينية فى ڤال دى مازارا؛ وهى اليوم فى منطقة چرچنتى. وبها آثار قلعة قوية تبعد قليلاً عن موقع المدينة الحالى. واسمها يرد فى الإدريسى مع تغيرات طفيفة. وهو اسم يونانى قد يرجع إلى العصور المسيحية.

(2) يذكر أحد مخطوطات ابن الأثير أ ب ل ا، والآخر أيلا؛ ومن الممكن أن يتغير حرف الألف الأول بأى حركة. وللبحث عن الأسماء الجغرافية التى قد تتفق مع هذه الأصوات، فإنه للوهلة الأولى يجب أن نذكر الاسم القديم إبلا، وهو اسم اطلق على مدن مختلفة فى صقلية القديمة، فى المنطقة الواقعة بين الشرق والجنوب وإن لم يكن معروفاً موقع أى منها. ثم يأتى اسم أڤولا، وهى أرض بالقرب من سيراكوزا، وهى بلا شك أبولا المذكورة فى إحدى وثائق ١١٤٩، وقد تكون Ἄβολλα ستيفانو البيزنطى. ولكنى لا أفهم انتفاضة هذه الأرض وحدها فى ڤال دى نوتو بينما كل الأراضى الأخرى التى زعزعت النير كانت متجمعة فى ڤال دى مازارا، ولم تكن كالتاڤوتورو بعيدة جداً. ولكنى أود أن أضيف حرفاً وأن أعدل فى الحركات، وأقرأها إنتلا، وهى قلعة قديمة نشاهد آثارها؛ وقد تحصن بها مسلمو صقلية فى بداية القرن الثانى عشر ولمدة طويلة ضد الإمبراطور فريدريك الثانى.

(3) لا أجد هذا الاسم عند الإدريسى، ولا أجد ما يشابهه سواء فى الوثائق أو فى جغرافية اليوم. ومن الرواية يتضح أنها كانت فى ڤال دى مازارا «وقلعة عبد المؤمن» اطلق عليها اسم شخص.

أن هذه القوات كانت تتقدم نحو بالرمو بطول الساحل الشمالى. فاستعد عباس لملاقاتهم تاركاً الحصار، وعبر الجبال ووجد العدو بالقرب من تشيفالو؛ وبعد صدام عنيد استطاع اجتيازه بشجاعته المعهودة وأجبره على العودة إلى سيراكوزا فى حالة سيئة. وما أن عاد هو إلى بالرمو حتى أخذ فى تقوية حصون كاستروچوڤانى، وفى إصلاح دورها ووضع بها حامية مسلمة كبيرة. وهذ يدل على أن مجهود الصقليين كان عاماً ولحظياً. ولكن يبدو أن الهزيمة الثانية التى لحقت بالجيش الإمبراطورى قد أقنعتهم بأن يلقوا السلاح؛ وفى السنة الهجرية التالية (١٦ مارس ٨٦١ - ٥ مارس ٨٦٢) ظهر عباس ماضياً هادئ البال يسلب قرى سيراكوزا، كما كان معتاداً قبل استيلائه على كاستروچوڤانى وعند عودته من هذه الحملة وصل إلى جروتى دى كركانا(1) ومرض وتوفى فى اليوم الثالث، فى الثالث من جمادى الثانى (١٣ أغسطس ٨٦١)، بعد إحدى عشر سنة من الحروب المستمرة، فلم تمض سنة - كما يؤكد الرواة - فى الصيف أو الشتاء، أو فى كلا الفصلين، إلا وقطع البلاد المسيحية فى صقلية وأحياناً فى كلابريا وبوليا أيضاً حيث أقام

---

(1) ابن الأثير هو الوحيد الذى يذكر اسم غيران هذه، أو «جروتّى» وهو اسم مكتوب فى كلا المرجعين بلا حركات، وفى احدهما منقوطاً وفى الآخر غير منقوط، حيث نقرؤه فى الأول هكذا كركنَ *krkna*، وفى الثانى توضع ف *F* بدلاً من ك واحدة أو من كلتيهما *K*. وكان من الممكن أن أقرأها كَوكَنَ على اعتبار أن الواو قلبت راء، وهو خطأ يحدث كثيراً فى المخطوطات العربية، لو أن موقع كَوكَنَ القديمة، حيث بقى بليزاريو مع الأسطول قبل أن ينتقل إلى غزو أفريقيا، كان موقعاً مؤكداً ولم يكن على ساحل البحر، إذ إن هذا لم يكن طريق عباس وهو عائد إلى بالرمو. إن الكهوف، إى مجموعة الكهوف التى حفرها الانسان جزئياً بيديه، كثيرة جداً فى صقلية وهذه الإشارة تكفى لتحديد المكان دون الاستعانة باسمه. لهذا لن نصل إلى معرفة الاسم الحقيقى الذى يفترضه الباحث إلا بعد دراسة هذه الآثار القديمة. وعموماً فإن الافتراضات يمكن أن تتناول الكهوف القريبة من بلاتسولو، وبين بياتسا وكلتاچيرونى، أو الكهوف الأخرى بين بروتيه وماليتّو، أو كهوف ماكارا بالقرب من ميناء ڤينديكارى الذى يمكن أن يكون كَوكَنَ بروكوبيو على بعد ٢٠٠ مرحلة من سيراكوزا. انظر فيما يتعلق بالكهوف التى ذكرتها، فاتزللو، الجزء الأول، الكتاب الرابع، الباب الثانى، والكتاب العاشر، الباب الثانى؛ بوركيلوت، *Voyage en Sicile* ص ١٨٥، والهامش الذى كتبته بالفصل السابق ص٣٧٥.

مستعمرات لرجاله. ودفنه المسلمون حيث مات، ولكن ما أن انصرفوا حتى انتقم المسيحيون انتقاماً لا طائل منه، فنبشوا قبره وأحرقوا جثة القائد القاسى، الذى كانوا لا يزالون يرتعدون من اسمه(1).

(1) قارن: ابن الأثير، المخطوطة *A*، المجلد الثانى، الورقة ٢٠، والمخطوط C، المجلد الرابع، الورقة ٢١٥ الوجه الثانى؛ ابن خلدون *Histoire de l'Afrique et de la Sicile* ص١٢٣. ويبدو لى أن مخطوط ابن خلدون أخطأ فى أن عباساً كان يحاصر قلعة الروم أى قلعة البيزنطيين. بينما يجب أن نقرأ قلعة للروم أى قلعة للبيزنطيين. ويشير بكل تأكيد إلى موت عباس، مع بعض الاختلافات فى التاريخ، النويرى فى دى جريجوريو، *Rerum Arabic.*، ص١٠؛ **البيـــان**، المجلد الأول، ص١٠٦؛ أبو الفـــدا، *Annales Moslemici* سنة ٢٤٧، § ٣؛ ابن ودران، § 3 فى النص، والنص الفرنسى م. شربونو فى *Revue de L'Orient*، ديسمبر ١٨٥٣، ص٤٢٧؛ ابن أبى دينار، المخطوطة، الورقة ٢١ الوجه الأول.

الفصل السابع

حتى هنا أظهرت لنا الحوليات العربية حقيقةً هيكلاً من التاريخ ولكنه لم يكن مبتوراً. وقد رأينا جماعة بالرمو تحتل بعض الأماكن المهمة فى الوسط وعلى الساحل الشمالى حتى مسينا، وتجبر بلاد الجنوب والشرق على دفع الجزية، باستثناء المدن الكبيرة المحاطة بالأسوار وبعض الأقاليم الجبلية؛ وبصرف النظر عن أوجه التلف التى أصابت معظم مناطق بالرمو وترابانى الحالية، فإنه من المعتقد أن المنتصرين كانوا يمسكون بزمام تلك الأراضى. ولا شك فى أنهم كانوا يقيمون فى مدن وقلاع: أقل قليلاً من ثلاثين، كما يستخلص من كتابات البلاذرى الذى كان يعيش فى تلك الحقبة فى بلاط بغداد(1).

وإذا تحدثنا عن أحوال المجتمعين اللذين كانا يتنازعان صقلية، فإننا سنلمح فى أحدهما، علاوة على الكفاءة فى الحرب والاجتهاد فى العمل، وفاق النفوس، الذى كان يسود عند توزيع الغنائم والجزية بمساواة أبوية تقضى على الأطماع. وعلى الجانب الآخر فإن الصقليين، مع تعرضهم لتعسف الرهبان والاستبداد، لم يستاءوا كثيراً من النير الجديد، بعد أن ضمن لهم ممارسة العبادة وامتلاك الممتلكات كما كانوا يظنون

(1) البلاذرى، المخطوطة، ص ٢٧٥، يقول صراحة أن الأغالبة كانوا قد استولوا فى صقلية على ما يزيد على عشرين مدينة، كانت مع ذلك فى أيدى المسلمين، عندما احتلوا كاستروچوڤانى وجاليانو. وهذا الرقم يوازى تقريباً عدد الأسماء التى نستخلصها من كتاب الحوليات الآخرين. ولكنه من المؤكد أن بعض الأماكن التى ذكرها هؤلاء مثل مينيو ولنتينى كانت قد هجرت؛ وهناك أماكن أخرى على العكس من ذلك مثل بلاتانى وراجوزا وسوتيرا خضعت فقط للجزية. ولكن يبدو لى أنه على الرغم من تصادف التوافق فى العدد، فإن الأراضى التى يتحدث عنها البلاذرى هى المدن أو القلاع التى كان يقيم فيها المسلمون. وتسميته للمدينة (مدينة) لا يجب أن تؤخذ هنا بمعناها الدقيق.

ولم يرغبوا فى تعريض أنفسهم للخطر بدفع الجزية لامبراطور القسطنطينية بدلاً من مسلمى بالرمو. ومن بين الإمارات التى كان يُحارب باسمها ساعدت إمارة أفريقيا الجماعة بأن تركتها تفعل ما تشاء: حيث إن أوائل الخلفاء الذين جاءوا بعد زيادة الله كانوا يَتَّسمون بنفس وديعة، وكانوا ينظرون بعين الرضا لانتقال مثيرى القلاقل من الرجال إلى صقلية وإيطاليا. أما الإمبراطورية الرومانية المتأخرة فإنها على العكس من ذلك كانت تفعل القليل؛ بل القليل جداً فى صقلية: وفى الوقت نفسه كانت تظهر للعالم إلى أى مدى من السخف والفوضى والعار يمكن أن يصل الاستبداد. وقد وجهت الإمبراطورة التقية تيودورا (٨٤٢ ـ ٨٥٤) للإمبراطورية ثلاث ضربات جديدة: إدانة الهراطقة الباوليتشان، وقد جرَّت وراءها حروباً بالغة الوحشية؛ وطموح الشقيق «باردا» وتربية ميكيلى الثالث، ابنها، الملقب بالسكير تربية سيئة، الذى طرد والدته من البلاط (٨٥٤)، وحطم كل قيود الحياء، وانهمك فى حياة دنيئة؛ وقرَّب المهرجين والأوغاد؛ وبددّ الأموال العامة وقاد الحرب على الأعداء الذين كانوا يحاصرون الإمبراطورية بغباء وجبن أو إهمال؛ وأخذ يتأرجح بين إهانة العبادة المسيحية وتشييد الكنائس الرائعة؛ وأخيراً أشعل بسفهه الخلاف الكبير فى بطريركية القسطنطينية؛ التى كانت محل نزاع بين إنياتسيو وفوتسيو، أو بين مؤيدى البابا ومؤيدى البلاط (٨٥٧). ومن هنا فإذا كان هناك ما يتعجب له المرء فى أحداث صقلية فإنه عناد الجيوش البيزنطية وليس عجزها. وفى الوقت نفسه تبدو أسباب تقدم الجماعة المسلمة تقدماً مستمراً، فى الثلاثين عاماً التى مضت منذ الاستيلاء على بالرمو وحتى موت عباس بن فضل، تبدو بسيطة واضحة.

وفى تلك الفترة تقريباً بدأ الحظ يتغير، كما تؤكد الحوليات العربية، فتارة تعترف بذلك وغالباً ما تلزم الصمت. ولكن بما أنها تتحدث قليلاً عن ذلك، والبيزنطيون لا يقولون شيئاً، فإن الأحداث ترد بالفعل تحت

أعيننا متقطعة ومختلطة، حتى أنها تبعث على الشك فى كل خطوة، إن لم نعرف أحوال المنتصرين والمهزومين الجديدة. لذا يجب علينا أن نقلب الترتيب الطبيعى للرواية، ونفصل الأحداث العامة التى نستطيع أن نستنتجها؛ ثم نأتى بهذه الحصيلة إلى الأحداث الخارجية، إلى قشرة التاريخ، التى يرسمها رواة الأخبار.

وإذا بدأنا بالجماعة الإسلامية فإننا نرى أن الوفاق قد استمر فيها أكثر ما يمكن لأن الحظ الوافر جذب جماعات جديدة؛ وخضوع المسيحيين للجزية قلّل من الغنيمة؛ وتضخمت العصابات التى حرمت من مكاسب الحرب، وانهمكت فى السرقة على الرغم من العهود؛ ولجأ المسيحيون الذين استفزتهم هذه الأساليب إلى أعمال يائسة؛ ومن هنا جاءت هزائمهم الجديدة وقتلهم وعبوديتهم؛ واحتل المسلمون فى النهاية العديد من الضياع نتيجة لهذه الظروف. وحول أساليب الاحتلال، سنتحدث فى الكتاب الثالث، ويكفى هنا أن نلاحظ أنه كانت هناك أساساً طريقتان: تجريد الملاك القدامى من أملاكهم بطردهم أو تحويلهم إلى عبيد، أو تحويلهم ليصبحوا موالى تابعين، ليأخذوا منهم جانباً مما كانت تدره الأرض. ولكن الدخول التى كانت تعود على المسلمين كانت توزع بطرق عديدة، ودائماً بلا مساواة يصعب تحاشيها؛ حيث إن الأراضى المأخوذة كانت تارة تقسم، وتارة أخرى تبقى ملكاً للدولة؛ وكان ريع الضياع الحكومية وعائد الرسوم على الأراضى المتروكة للمسيحيين يخصص للجند، بصورة تتراوح بين مجرد دفع الرواتب والمزايا الحربية. وقد أصبحت هيئات الجند، وهى جمعيات مستقلة من المدنيين والعسكريين، بعد أن انفصلت عن العاصمة للذهاب للسكنى فى المدن والقلاع القريبة من الضياع، أصبحت دولاً داخل الدولة، وكانت تحمل معها كل رذائل الإقطاع، فكانت تقمع الريفيين، وتضايق الجيران المسلمين أو المسيحيين، وكانت مصدراً للشغب من جميع النواحى. ومن ناحية أخرى، كان تسليم الرواتب أو المزايا وتقسيم الأراضى، طبقاً لما يقوم به عمال الخراج تؤدى إلى التعسف والظلم:

ومن ثم كانت تحتدم الخلافات القديمة للسلالات والقبائل والعائلات: فكان البربر يشعرون بأنهم متضررون من العرب، والعرب اليمنيون من المضريين، وهذه القرابة من تلك، وكانت تسيل الدماء، ويستمر العداء؛ وأصبح حكم الجماعة يزداد صعوبة يوماً بعد يوم•. وجرت أحداث كثيرة فى أفريقيا وأسبانيا وفى كل إقليم من الأقاليم الإسلامية. وأنا أكتب هذا بصراحة أيضاً عن صقلية، لأن تلك العناصر الاجتماعية كانت تؤدى إلى تلك النتائج، ونرى علاماتها تظهر هنا وهناك فى الحوليات الصقلية فى الأزمنة المتعاقبة.

وقد أرادت إمارة الأغالبة علاج ذلك الخلاف، أو الاستفادة منه للسيطرة على الجماعة بدلاً من السيطرة الإسمية. وبدأت تلك السيطرة أو استعادة الحقوق، أيا كان اسمها، على يدى أحد هؤلاء الملوك يتسم بلين الطبع، وهو محمد بن أغلب، الذى ملك دون أن يحكم أبداً (٨٤١ ـ ٨٥٦). وعندما أراد هذا الملك التحرر من صفاقة شقيق له كان قد سجنه ، تآمر مع أحمد وخفاجة، ابنى سفيان بن سواده، قريبيه البعيدين(1)؛ وكانا من الرجال ذوى القدر، وبعد أن ساعداه على تحقيق هدفه، ظلا فى غاية القوة بجانبه. ويبدو أنهما لم يفقدا منزلتهما عندما مات محمد، وخلفه ابنه أحمد (٨٥٦ ـ ٨٦٣). وقد أُختير خفاجة بن سفيان، المذكور عاليه، لحكم صقلية رغم أنف الجماعة، أو على الأقل رغم أنف طائفة كبيرة؛ وكان رجلاً شجاعاً فى الحرب وقتله رجاله أنفسهم غدراً، وكان أبا لرجل شجاع آخر حكم بعده صقلية، ولقى فيها المصير نفسه.

---

(1) ينحدر الفرعان من سالم: أحدهما إلى الأغلب، إبراهيم (مؤسس العائلة) وأغلب والد الأمير الحاكم محمد؛ والآخر إلى سفيان، سواده، وسفيان والد أحمد وخفاجة. وهذا التسلسل الثانى ورد لدى ابن أبّار، المخطوطة، الورقة ٣٥، الوجه الثانى. بشأن أحداث مملكة محمد، انظر النويرى، *Conquête de l'Afrique* ، بالحواشى على ابن خلدون *Histoire des Berbères*، ترجمة م. دى سلان، المجلد الأول، ص ٤١٧ والصفحات التالية؛ ابن أبّار، الموضع المذكور؛ ابن الأثير، تحت عام ٢٣٣، فصل الأحداث المختلفة.

• لم يذكر المؤرخ اعتماده على أخبار معينة أو وثائق محددة فى ذلك (المترجم).

وقد أعقب ذلك أيضاً ظهور نجم باسيليوس المقدونى (٨٦٧) مصلح الإمبراطورية الجديدة. وبعد أن صعد باسيليوس بلا أمانة من الفقر والجهالة ليحظى بتأييد البلاط، وكسب حب ميكيلى الثالث بعمل مشين، بأن تزوج محظية كان الإمبراطور قد سئمها وأعطاه أخته فى مقابل ذلك؛ ومن هنا ارتبط بالإمبراطورية بفضل عملية اغتيال؛ وبقى بمفرده على العرش بفضل الله لأنه أمر بذبح ميكيلى الذى كان ينام سكراناً تحت عينيه. أقول إن باسيليوس، بعد العديد من البشائع والأخطاء أدار الحكم فى مجد حقيقى. وكان يمد الخزانة العامة بالمال دون أن يثقل كاهل الرعية؛ وأوقف فضائح رجال الكنيسة وسوء استخدام السلطة فى إدارة الشئون العامة؛ وعمل على إعداد سجل يجمع القوانين يحمل اسمه؛ واهتم بالعسكرية بصفة خاصة، وأصلح نظامها؛ بداية بالأجور، وتجنيد الجنود، والتدريب على الحركة والتسليح، والتأهيل على النظام والعلم الإستراتيجى(1). حينئذ عاد النصر تحت رعايته إلى الرايات البيزنطية؛ وحكمت العائلة المقدونية لفترة طويلة وبهدوء يفوق فترات عائلات أخرى، وبدا أن الحياة بعثت من جديد فى الإمبراطورية. واستعاد أيضاً جزءاً من إيطاليا الجنوبية، ونازع المسلمين بقوة على صقلية.

ولهذا الهدف ساعد ثورة السكان المسيحيين التى بدأت، كما هو مذكور، بعد الاستيلاء على كاستروچوڤانى، ولكن قبل ارتقاء باسيليوس الحكم بسنوات عديدة. وكانت الثورة قد تولدت فى الجزيرة نفسها من المعاناة المستمرة والخطر الذى كانت تعيش فيه مدن كثيرة تدفع الجزية للمسلمين. وعجلت واقعة كاستروچوڤانى من ذلك؛ ربما لأن المسلمين، بعد أن زادت جرأتهم سمحوا لأنفسهم بمزيد من التجاوزات•. واتفق

---

(1) هذه التفاصيل الهامة فى إصلاح الجيش نقرؤها فى تتمة تيوفانى، ص ٢٦٥. وبالنسبة للتفاصيل الأخرى لحياة باسيليوس فهى لا تحتاج إلى استشهادات.

• لم يعتمد المؤرخ على وثائق تاريخية فى ذلك (المترجم).

السكان الصقليون فيما بينهم كما يتضح من الوقائع التى نعرفها عن تلك الحرب. ويبدو أنهم ترددوا بعد أن انهزموا على أرض الواقع؛ ولكن عند موت عباس استأنفوا استخدام السلاح بجرأة جديدة، وشجعهم على ذلك انقسام المسلمين. ويبدو لى أننا نلمس هذا بأيدينا فى فقرات الحوليات العربية، التى سوف تقودنا عندما نعود للرواية.

وبينما كان المسيحيون يثيرون الاستفزاز، بإهانتهم جثة عباس، عينت الجماعة عمه أحمد بن يعقوب قائداً جديداً؛ وصَدّق على هذا أمير الأغالبة(1). إلا أنه وبعد مرور بضعة أشهر، وفى شهر فبراير تقريباً من عام ثمانمائة واثنين وستين، نرى تنحية أحمد شعبياً، واستبداله بعبد الله، ابن عباس الذى توفى؛ وعدم الموافقة على هذا التغيير فى بلاط القيروان(2). وكان عبد الله قد اهتم بخوض الحرب؛ وفى مثال نادر فى زمن الأب، فبدلاً من أن يقودها شخصياً، أرسل إليها رباح، قائد الطليعة القديم، وهو أول من دخل قلعة كاستروچوڤانى. وقد وجد نفسه آنذاك بالتأكيد فى مواجهة قوات ضخمة لأنه هزم بعد بعض الانتصارات البسيطة؛ بعد أن أخذت منه الأعلام والألواح التى جرت العادة أن تكون وسط الجيوش، وأسر من جنوده عدد كبير. وبعد أن نجا بعد مشقة، لم يرد العودة إلى داره دون انتقام: واقتحم مدينة جبل أبى مالك، التى لا نعرف موقعها؛ واقتاد كل المدنيين إلى الأسر؛ وحرق الأرض، ونشر فى المناطق المجاورة الخيالة التى كانت تقوم بالأضرار المعتادة. وسقطت قلعة الأرمن وقلعة المشارعة فى قبضة المسلمين.

---

(1) **البيان**، المجلد الأول، ص ١٠٦، النويرى، لدى دى جريجوريو، .*Rerum Arabic*، ص ١٠. ابن الأثير لا يتعرض لذكر هذا الحكم الوجيز فى مدته.

(2) النويرى، الموضع المذكور؛ ابن الأثير، المخطوطة *A*، المجلد الثانى، الورقة ٣٣ الوجه الأول، المخطوطة C، المجلد الرابع، الورقة ٢٢١ الوجه الأول؛ ابن خلدون، *Histoire de l'Afrique et de la Sicile*، ص ١٢٤؛ ابن أبى دينار، المخطوطة، الورقة ٢١ الوجه الأول والترجمة الفرنسية، ص ٨٥؛ ابن وردان، المخطوطة، § ٣، ترجمة م. شيربونو، *Revue de l'Orient* ، ديسمبر ١٨٥٣، ص ٤٢٧. ترك عبد الله الحكم بعد ٥ أشهر، فى جمادى الأولى من عام ٢٤٨ (٤ يونيو إلى ٣ يوليو ٨٦٢).

واستمرت هذه الإغارات فى ربيع عام ثمانمائة واثنين وستين(1). ولكن أمير أفريقيا، الذى لم يتزحزح عن موقفه ومقصده،، أرسل خفاجة بن سفيان بن سواده لحكم صقلية، وهو من سلالة الأغالبة، وله أتباع كثيرون فى البلاط، كما قلنا، وهو معروف أيضاً لانتصاراته فى أفريقيا: فوصل إلى بالرمو فى شهر يونيو(2).

ومع كل الحماس الذى كان يشحذ به همة قواته، والحمية التى كان يتأجج بها باعتباره قائداً جديداً، كما يقول المثل الصقلى، أرسل خفاجة نيابة عنه إلى الجهاد ابنه محمود: حيث وجد جماعة بالرمو مضطربة جداً! وقام محمود، فى اجتياحه لريف سيراكوزا، بالاختطاف والإفساد والحرق؛ ولكن عندما خرج المسيحيون للقتال، هُزم وأجبر على العودة إلى بالرمو(3). ولم يستطع والده الانتقام له؛

---

(1) راجع **البيان**، المجلد الأول، ص ١٠٦ وابن الأثير، الموضع المذكور. إن اسم وواقعة رباح مذكوران فقط فى **البيان**، الذى لا يذكر فى أى منطقة كان يدور القتال. ومن المؤكد أنه فى صقلية؛ لأن **البيان** يقول إنه تم الاستيلاء على جبل أبى مالك، وهو الاسم المذكور بالتحديد فى ابن الأثير مع أسماء قلعة الأرمن وقلعة المشعرية. ولا أستطيع تخمين موقع أى من الثلاثة.

(2) راجع ابن الأثير، الموضع المذكور، ابن خلدون، *Histoire de l'Afrique et de la Sicile*، ص ١٢٤؛ النويرى، لدى دى جريجوريو، *Rerum Arabic* ص ١٠؛ أبا الفدا، *Annales Moslemici*، عام ٢٤٧؛ ابن أبى دينار (القيروانى)، المخطوطة، ورقة ٢١ الوجه الأول؛ الترجمة الفرنسية، ص ٨٥. ابن وردان يسمى المتوفى عباس بن فضل، صاحب (أمير) صقلية، ويقول خفاجة أمير جاء إلى صقلية من طرف الأمير الأغلبى فى القيروان بدلاً من عبد الله بن عباس، الذى كانت الجماعة قد اختارته. **البيان**، المجلد الأول، ص ١٠٣ يروى انتصاراً لخفاجة فى عام ٢٣٦ (٨٥٠ ـ ٨٥١) على بعض المتمردين فى تونس.

(3) راجع ابن الأثير وابن خلدون، الموضعان المذكوران. يقول الثانى منهما إن محمداً انتصر فى معركة سيراكوزا؛ ولكن هذا يبدو لى خطأ فى الملخص الذى كان يقوم به دون عناية كبيرة لحوليات الآخر؛ لأننا نقرأ عند هذا الأخير دون لبس عن انتصار المسيحيين. ويذكر ابن الأثير، فى الموضع نفسه أن راجوزا كما يرى ذلك بعض مؤرخى الأخبار قد استسلمت فى هذا العام ٢٤٨ ومن المؤكد أنها قد احتلت بعد ذلك فى عام ٢٥٢؛ ومن هنا فإنه يشك فيما إذا كان حدث عام ٢٤٨ قد ذكر لخطأ فى التاريخ. وربما أكون أنا مخطئاً، عندما أقرأ فى وقائع كامبردج أن راجوزا قد احتُلت للمرة الأولى فى عام ٦٣٥٦، وهو يقابل تقريباً عام ٢٣٣ من الهجرة و٨٤٧ ـ ٨٤٨ من تقويمنا نحن؛ وللمرة الثانية فى عام ٦٣٧٥ الذى يقابل إلى حد ما عام ٢٥٢ من الهجرة و٨٦٦ ـ ٨٦٧ من التقويم الميلادى. وكان ابن الأثير نفسه قد تحدث عن الاستسلام الأول لراجوزا، وهو ما ذكرناه فى موضعه.

ففى العام التالى، عام مائتين وتسعة وأربعين من الهجرة (٢٣ فبراير ٨٦٣ ـ ١١ فبراير ٨٦٤) نعلم أنه أرسل جماعات الخيالة، وجاءت هذه ببعض الغنائم؛ ولكن دون أن تكون هناك موقعات جديرة بالذكر، كما كتب ابن الأثير(1). وبدلاً من ذلك نجد احتفالات رسمية: إن زيادة الله، الذى خلف شقيقه أحمد بن محمد، ثبت حكم خفاجة فى صقلية، وكان يرسل له الملابس المعهودة للتنصيب(2)، كما لو كان يريد الإبقاء على سيادة القانون الذى كان يجعل الحكام مطيعين لإرادة الأمير.

وكانت الحرب قد بدأت بصورة جادة، بعد احتواء الصراعات الداخلية، مع بداية عام مائتين وخمسين (١٢ فبراير ٨٦٤ إلى ٣١ يناير ٨٦٥)، عندما أخذ المسلمون يحتلون مدينة نوتو القديمة والمهمة، بسبب خيانة مواطن أظهر لهم الطريق لاختراق القلعة. وبعد نهبها والحصول منها علي مبلغ عظيم من المال، كما تقول كتب الحوليات، انتقلوا إلى شيكلى، على الساحل الجنوبى، وهى أرض يذكر اسمها الآن للمرة الأولى، وتم اقتحامها بعد حصار طويل(3). وفى الوقت نفسه، إذا تعين علينا التحقق من اسم آخر كتب فقط فى «البيان»، فإن المسلمين كانوا قد هجروا كاستروچوڤانى، وعاد المسيحيون لسكنها، لأننا نقرأ أنه فى عام مائتين واحد وخمسين (١ فبراير ٨٦٥ إلى ٢٠ يناير ٨٦٦) كان خفاجة يذهب لإتلاف المحاصيل فى الضواحى، وكان يمضى حتى

(1) المخطوطة *A*، المجلد الثانى، الورقة ٣٨ الوجه الأول، بين الأحداث المختلفة لعام ٢٤٨. ولكن يبدو لى من الواضح أنه يجب نسبها إلى عام ٢٤٩.

(2) **البيان**، المجلد الأول، ص ١٠٧، تحت عام ٢٤٩. طبقاً لهذه الوقائع ووقائع النويرى، فإن زيادة الله كان شقيقاً؛ ويرى ابن خلدون أنه ابن سلفه أحمد. انظر النويرى، لدى دى سلان. *Histoire des Berbères par Ibn-Khaldoun*. المجلد الأول، ص ٤٢٢، الحاشية.

(3) ابن الأثير، المخطوطة *A*، المجلد الثانى، الورقة ٣٣ الوجه الأول، والمخطوطة C، المجلد الرابع، الورقة ٢٢١ الوجه الأول. أنظر ابن خلدون، *Histoire de l'Afrique et de la Sicile*، ص ١٢٤، حيث نقرأ نوتو بدلاً من بوتيرا.

سيراكوزا، وقاتل فيها المسيحيين في موقعة، لعلها لم تنجح، لأنه لم يضف سوى أنه عاد إلى بالرمو، حيث عمل على خروج خيالة بقيادة ابنه الآخر محمد، وقد اتخذت اسماً شامخاً وهو غارة الألف فارس؛ لأنها قتلت منهم الكثيرين، حين نصبت كميناً، على مايبدو، فى أرياف سيراكوزا، وجذبت العدو إليه(1). وهذا يبين قدر القوات الكبيرة التى كانت تجرى الحرب بها. وقد شُوِّهت هذه الواقعة بصورة غريبة، كما أعتقد أنا، فى بعض المؤلفات الفارسية، مما حمل كاتبنا رامبولدى على أن يكتب فى الحوليات الإسلامية، *Annali Musulmani*، أنه فى عام ثمانمائة وسبعة وستين عندما أراد خفاجة استعادة إناً من المسيحيين، تم أسره بعد أن قتل بيده أكثر من ألف رجل، ولكن رجاله استعادوه فى اليوم التالى بعد أن دفعوا فدية قدرها ستة وثلاثين ألف عملة بيزنطية ذهبية(2). ولما لم يوجد لذلك الأسر الذى تعرض له خفاجة، أثر فى أخبار الوقائع العربية الجادة، وجب وضعه فى حزمة واحدة مع تجربته تلك الهرقلية التى قتل فيها ألف شخص بيده. وترجع أيضا إلى صيف عام ثمانمائة وخمسة وستين معركة بحرية استولى فيها المسلمون

(1) **البيان**، المجلد الأول، ص ١٠٧. ونقرأ فيه، كما فى مواضع أخرى من هذا المؤلف، قصربانه *Kasrbâna*، ويجب أن تصحح دون شك لتصبح قصريانه *Kasriânna*. وهذه ليست كاستل بونو، ولا كاستل نووڤو، ولا كاسترونوڤو؛ لأن الحرف الذى تقع عليه النبرة هو *w* وليس *a*؛ ولا يمكن الخلط بينهما فى المخطوطات. ويلاحظ أن **البيان**، فى ثغرة واضحة، لا يذكر الاستيلاء على كاستروچوڤانى.

(2) رامبولدى، *Annali Musulmani*، المجلد الرابع، ص ٣٥٣، دون استشهادات. إن العمل الكبير الذى قام به رامبولدى لا فائدة منه تقريباً، ذلك لعادته هذه فى عدم ذكره المراجع وإضافته من عنده للظروف التى كانت تبدو له مناسبة لتدعيم الأحداث. وهكذا نقرأ فى الجزء الرابع نفسه، ص ٣٤٠، تحت عام ٨٦٤: «أن أغالبة صقلية، الذين كانوا قد استولوا منذ عدة سنوات على راجوزا وبعض القلاع الأخرى الأقل أهمية، جاءوا من هناك بعد أن طردهم باسيليوس، نسيب إمبراطور القسطنطينية»؛ وهذا العمل الذى قام به باسيليوس، ليس فقط لم يذكره أحد، ولكن النقد يجب أن يرفضه تماماً؛ حيث إنه ما كان ليصمت فى هذه الحالة كتاب بلاط البيت المقدونى. ثم يتحدث رامبولدى فى عام ٨٦٥ عن احتلال نوتو، الذى نقله من وقائع كمبردچ، على الرغم من عدم استشهاده بها. وأخيراً فى عام ٨٦٧، يبدأ قائلاً: «قام اليونانيون بالنزول نزولا موفقاً فى صقلية، وبعد خوض

على أربعة قوارب بيزنطية فى بحر سيراكوزا، حيث يبدو أن الأسطول قد ذهب للتعاون مع الجيش، سواء فى عملية خفاجة أو ابنه(1).

وفى إصراره على إضعاف العاصمة المعادية، فى عام مائتين واثنين وخمسين (٢١ يناير ٨٦٦ إلى ٩ يناير ٨٦٧)، أخذ خفاجة يهاجم قرى سيراكوزا ولكن دون نتائج تُذكر؛ ولذا فإنه عند عودته عبر سفوح إتنا أخذ يدمر القرى فى كل مكان، فجاءه رُسل يطلبون الاتفاق معه، كما نجد فى الأخبار، من تاورمينا، ولعلَّنا يجب أن نقرأها تُرونيا(2). لأنه أرسل إلى هناك إحدى زوجاته لإتمام الأمر، وربما كانت أمة مسيحية، مع ابنه، وعُقد العهد: ولكن المواطنين حنثوا به بعد ذلك، فأتى محمد بن خفاجة مسرعاً مع الجيش ودخل الأرض وساق السكان عبيداً: وهذا الانتصار السهل لا يتفق مع الظروف المعروفة لتاورمينا التى كانت فى ذلك الوقت كبيرة وذات موقع بالغ القوة، ومعتادة

بعض المعارك، التى كان فيها المسلمون الجانب الأضعف، استعادوا الميدان القوى فى نوتو إلخ». وهنا يستطرد بواقعة خفاجة. ولكن من أين أخذ قصة هذا النزول إلى البر؛ ومن أين احتلال نوتو؛ وذلك العدد المحدد بألف فارس، واسم كاستروچوڤانى ذلك؟ وكما أنه من المؤكد أنه لم يطلع على **البيان** فإننى أظن أنه وجد بعض الإشارات المحرّفة للحدث فى المؤلفات الفارسية، وهى مصادره المفضلة.

وهذه الحكاية كررها مارتورانا، الذى يستشهد برامبولدى، *Notizie ec*، الكتاب الأول، الفصل الثانى، المجلد الأول، ص ٤٧. وونريش، فى الكتاب الأول، الفصل الثامن، § ٨٠، ولخجله من أن يذكر أحدهما أو الآخر، يلقى بعملية باسيليوس وأسر خفاجة على كاهل النويرى وابن خلدون وأبى الفدا، الذين لاذنب لهم بهذه الحكاية الخيالية.

(1) *Chronicon Cantabrigiense*، لدى دى جريجوريو، . *Rerum Arabic*، ص ٤٢. فى النص المطبوع تنقص كلمة *Lir - Rûm* الموجودة فى المخطوطة. ولكن بدلاً من اختصار كلمات *Cœperunt Romœi* كما فعل دى جريجوريو، فى الترجمة التى نشرها كاروزو، فإن صحيحها هو:

Captœ sunt quatuor scelandicœ Romanorum in Syracusis

(2) فى الكتابة بالحروف العربية، يُكتب هذان الاسمان بحروف مشتركة وأخرى متشابهة جداً، حتى إنه يمكن أن تختلط ببعضها؛ وكان كتاب الحوليات يميلون إلى تفضيل اسم تاورمينا، على أنه الأكثر شهرة.

على الهجمات واشتهرت عقب ذلك بدفاعها المستميت(1). وقد تحرك خفاجة فى صيف العام نفسه يهاجم نوتو، التى تحللت من الطاعة؛ واقتحمها من جديد(2)؛ وعند الخريف حاصر راجوزا وأجبرها على الاستسلام؛ بشرط أن يذهب جانبٌ من المواطنين أحرارا بأملاكهم وحيواناتهم: وصار كل شئ آخر كان فى القلعة غنيمة، حتى الحيوانات والعبيد(3). وبالسير بمحاذاة ساحل الجنوب وصل المسلمون فيما يبدو إلى قرب چيرچنتى، بعد أن أجبروا شعب *Ghiran* غيران، التى اعتقد أنها أرض جروتى، على الاستسلام: واحتلوا العديد من القلاع الأخرى؛ حتى مرض القائد مرضاً خطيراً، وكان من الضرورى نقله إلى بالرمو على نقالة(4). ولم يمض وقت طويل حتى رآه المسيحيون مرة أخرى فى عام مائتين وثلاثة وخمسين (١٠ يناير إلى ٣٠ ديسمبر ٨٦٧) رأوه وهو يجتاح بالخيل قرى سيراكوزا وكتانيا يتلف المحاصيل ويدمر القري؛ بينما كانت فرق الخيالة التى كان يفصلها عن مجموع الجيش تقوم بنهب كل جزء من أجزاء الجزيرة(5).

وقام باسيليوس، الذى كان قد اعتلى العرش فى سبتمبر من هذا العام، بكل ما يلزم فى التو للقيام بجهد حربى كبير فى صقلية. ومن هنا فإن خفاجة الذى خرج من بالرمو فى يوم عشرين من ربيع الأول،

---

(1) ابن الأثير، المخطوطة *A*، المجلد الثانى، الورقة ٣٣ الوجه الأول، المخطوطة C، المجلد الرابع، الورقة ٢٢١ الوجه الأول. انظر الملخص فى ابن خلدون، الموضع المذكور، والعام يصحح فيه إلى ٢٥٢، طبقاً لمخطوط من تونس، يقابل هنا الترتيب الزمنى بكتاب الحوليات الآخرين.

(2) ابن الأثير، الكتاب المذكور؛ *Chronicon Cantabrigiense*، الموضع المذكور، الذى يتحدث عن الاستيلاء على نوتو للمرة الثانية فى عام ٦٣٧٤ وهو يوافق عام ٢٥٢ من الهجرة (٢١ يناير إلى ٣١ أغسطس ٨٦٦).

(3) راجع ابن الأثير وابن خلدون، *Chronicon Cantabrigiense*، المواضع المذكورة. وهذا الأخير يتحدث عن احتلال راجوزا فى عام ٦٣٧٥، الذى يتوافق مع عام ٢٥٢ من الهجرة من (١ سبتمبر إلى ٣١ ديسمبر ٨٦٦).

(4) راجع ابن الأثير وابن خلدون، الموضعان المذكوران، **البيان**، المجلد الأول، ص ١٠٨.

(5) ابن الأثير وابن خلدون، الموضعان المذكوران.

عام مائتين وأربعة وخمسين (١٩ مارس ٨٦٨) وأرسل ابنه محمد بالبحر مع الحَرَّاقات، وشرع فى نهب ريف سيراكوزا، علم بوصول قائد أعلى من القسطنطينية مع أسطول وجيش. وكان باسيليوس قد دفع بهم إلى تدريب عنيف، ضد ذلك القائد وأولئك الجنود، الذين أعادت إليهم انتصارات العام السابق الحماس والاندفاع والأخوه العسكرية التى لا تدوم كثيراً. وقد التحم الجيشان فى معركة حامية الوطيس وطويلة ودموية. ولكن المسلمين انتصروا وقتلوا من الأعداء عدة آلاف من الرجال؛ وأخذوا متاعاً وأسلحة وخيولاً؛ وانطلقوا بعنف لتدمير ضواحى سيراكوزا، وعادوا إلى بالرمو فى أول شهر رجب (٢٦ يونيو). وفى اليوم نفسه دفع خفاجة ابنه للإبحار بالأسطول الذى كان قد انسحب إلى بالرمو، متجنباً القوات البحرية الأكبر لليونانيين. وقد ذهب للقتال على سواحل البر الإيطالى، وعندما اكتظ الأسطول بالغنائم عاد فى الخريف، كما سنروى فى موضع آخر(1).

وقبل منتصف الشتاء بقليل كاد محمد بن خفاجة أن يكّرر فى تاورمينا العمل الجرئ الذى قام به عباس بن فضل فى كاستروچوڤانى. فبعد أن عرض أحد الجواسيس نفسه لمساعدة المسلمين على دخول القلعة من خلال طريق جبلى معروف له هو فقط، أرسل خفاجة ابنه إلى هناك؛ وفى شهر صفر من عام مائتين وخمسة وخمسين (١٩ يناير إلى ١٧ فبراير ٨٦٩) أخذ يقترب بحذر من المكان؛ ثم بقى هو ومعظم رجاله فى الخلف وأرسل جنوداً مشاة مع المرشد، صعدوا مسرعين إلى تاورمينا، يساعدهم الحظ بقدر ما واتتهم الشجاعة والحذر. وسيطروا على أحد الأبواب مع التحصينات المتاخمة، وهم ينتظرون محمداً الذى كان يجب أن يأتى فى ساعة معينة، وكان قد أمرهم بأن يبقوا متجمعين دون أن يطلقوا أيديهم للسلب والنهب. ولكن هؤلاء لم يريدوا أن يتركوا

(1) راجع ابن الأثير، **البيان**، الكتابان المذكوران، وابن خلدون، المرجع المذكور، ص ١٢٥.

للآخرين ثمار مدينة بمثل هذا الثراء، ولذا انتشروا لجمع الغنائم والأسرى، واكتشفوا أنهم كانوا حفنة من الرجال؛ ولذا فإن المواطنين بدأوا فى تعقبهم بعد أن أفاقوا من الدهشة الأولى: وكانت الساعة قد مضت فى تلك الأثناء، ولم تظهر رايات محمد. ولكن خوفاً من أن يكون العدو قد اعترض مسيرته فإن الذين دخلوا تاورمينا اعتبروا أنفسهم هالكين لا محالة فلاذوا بالفرار؛ وتقابلوا مع زملائهم عندما كانت المدينة قد أغلقت وفشلت الضربة: ولم يبق أمام محمد من سبيل سوى العودة إلى بالرمو(1).

وجاء النصر بعد الانضباط، وانتقل من المعسكر المسلم إلى المعسكر اليونانى. فبعد واقعة تاورمينا بقليل، فى شهر ربيع الأول من العام نفسه (١٨ فبراير إلى ١٩ مارس ٨٦٩)، تحرك خفاجة لمهاجمة تيراتشا، كما يمكن أن أقرأ فى ابن الأثير، وهى تقابل ما سمى بعد ذلك بقليل راندانسو(2). ولا يعرف ما إذا كان قد اقتحمها. وعندما أرسل فى الوقت نفسه فرقة كبيرة، مع ابنه، إلى سيراكوزا، خرج الجيش

(1) ابن الأثير، الكتاب المذكور. ابن خلدون فى تعبير قليل الواقعية يقول إنه عندما دخل محمد من جانب آخر من المدينة، اعتقد الفريق الأول أنه مساعدة آتية للأعداء؛ ولذا فقد لاذ بالفرار.

(2) فى مخطوطتى ابن الأثير نجد اسماً بدون علامات تشكيل، حرفه الأول يمكن أن يكون ب، ت، ث، يـ والثانى ر، والثالث س أو ش وتعقبه النهاية المؤنثة. ولكن نظراً لعدم وجود اسم قديم يتوافق مع تلك الحروف فإننى أقرأ اسم تيراتشا *Tiracia* التى يراد لها أن تقابل راندانسو *Randazzo*. وهذه الأخيرة كلمة بيزنطية، ربما جاءت من Ρεντάκιος، أو Ρενδάκης، وهى لقب لنبيل يدعى *Sisinnio* فى عهد ليونى إيزاوريكو ورجل ثرى من أثينا وقريب للنبيل نيتشيتا *Niceta* فى عهد الإمبراطور الرومانى ليكابينو، اللذين ذكر تيوفانى أحدهما، المجلد الأول، ص ٦١٦؛ والآخر فى تتمة تيوفانى، الكتاب الرابع (رومانو ليكابينو)، § ٤، ص ٣٩٩، وفى الفقرات المقابلة لسيمونى وچورچو موناكو. ويبدو أن أحد أفراد العائلة قد انتقل إلى صقلية لأن وقائع كامبردج فى عام ٩٣٤ تذكر شخصاً يدعى رنداشى *Rendâ sci* حاكم تاورمينا. ورنتاشوس كان أيضاً اسم جبل مقدونى، مذكوراً فى حروب باتسيناتشى *Patzinaci*، فى منتصف القرن الحادى عشر تقريباً. انظر ميكيلى أتاليستا، الذى نشره مؤخراً م. برونت دى بريسلى، فى طبعة بتزانتينا *Bizantina* الجديدة، بون ١٨٥٣، ص ٣٦.

المسيحى للقائها؛ ودار قتال شرس من الطرفين؛ وعندما سقط فى الحرب واحد من أشجع المحاربين المسلمين عاد الآخرون أدراجهم: وعندما تعقبهم اليونانيون سقط منهم كثير من الرجال، فلجأوا إلى معسكر خفاجة الذى سار بكل الجيش إلى سيراكوزا لكى ينتقم من هذا العار؛ وأتلف الحقول، وفرض الحصار على المدينة؛ ولكنه عندما تنبه إلى أنهم يدافعون عنها دفاعا مستميتاً؛ فض المعسكر، واستأنف سيره عائداً إلى بالرمو. وتوقف عند شاطئ ديتاينو، ليلة أول رجب؛ وقبل الفجر (١٥ يونيو ٨٦٩)، وبينما كان كل رجل منهم يمتطى صهوة جواده لمواصلة المسيرة، ضربه برمح غدراً بربرى من الجند، يدعى خلفون بن زياد من قبيلة هوارة، وهرب إلى سيراكوزا وهو يسابق الريح. وحملوا جثمان خفاجة بن سفيان إلى بالرمو، حيث كُرِّم ودفن بصورة مشرفة(1)؛ وقد بقيت شهرته ذائعة الصيت بين مسلمى أفريقيا للانتصارات التى حققها على البيزنطيين(2).

ووسط نحيب الجماعة هدأت الغيرة قليلاً، حتى إنهم عينوا مكان القتيل ابنه محمد، وصدق على ذلك أمير أفريقيا، كما جرت العادة، بالوثيقة وهدية الملابس الرسمية(3). ولكن لم تكن من مؤشرات الهدوء أن محمداً، الذى كان لا يكل فى حروب أبيه، والذى رقى إلى أعلى درجة فى الجماعة، قد بقى فى بالرمو، وأرسل مع الخيالة عبد الله بن سفيان، ليذهب لتدمير محاصيل سيراكوزا، ولم يفعل شيئاً غير

---

(1) راجع ابن الأثير، المخطوطة *A*، المجلد الثانى، الورقة ٣٣ الوجه الأول، والمخطوطة *C*، المجلد الرابع، الورقة ٢٢١ الوجه الأول؛ **البيان**، المجلد الأول، ص ١٠٨؛ ابن خلدون، *Histoire de l'Afrique et de la Sicile* ، ص ١٢٥؛ النويرى، لدى دى جريجوريو، *Rerum Arabicarum*، ص ١٠؛ ابن أبى دينار، المخطوطة، الورقة ٢١ الوجه الثانى؛ ابن ودران، المخطوطة، § ٣، وترجمة م. تشيربونو، *Revue de l'Orient*، ديسمبر ١٨٥٣، ص ٤٢٧؛ أبو الفدا، *Annales Moslemici*، المجلد الثانى، ص ٢٠٦، تحت عام ٢٤٨.

(2) المصادر المذكورة بعاليه، وابن آبّار، المخطوطة، الورقة ٣٥ الوجه الثانى.

(3) ابن الأثير والمصادر الأخرى، الهامش رقم ١، فى هذه الصفحة.

ذلك(1). واستمر الحال على هذا النحو فى عام مائتين وستة وخمسين الذى أعقب ذلك (من ٨ ديسمبر ٨٦٩ إلى ٢٧ نوفمبر ٨٧٠) فلم يتميز سوى بعملية بحرية واحدة لأن عدداً من السفن الأفريقية، يقودها أحمد بن عمر بن عبد الله بن الأغلب، كانت قد احتلت مالطة فى عام ثمانمائة وتسعة وستين؛ ولكن عندما ذهب البيزنطيون لمواجهتهم حاصروا الحامية المسلمة. وعندئذ أرسل محمد إلى هناك جيش صقلية؛ الذى لم يكن يتوقع الأعداء وصوله: وهكذا صارت تلك الجزيرة تحت سلطة الجماعة الصقلية فى التاسع والعشرين من أغسطس عام ثمانمائة وسبعين(2). وبعد ذلك ببضعة أشهر، فى الثالث من رجب عام مائتين وسبعة وخمسين من الهجرة (٢٧ مايو ٨٧١)، تم اغتيال محمد بن خفاجة فى القصر فى وضح النهار، على أيدى خدمه الخصيين، الذين أخفوا الجريمة حتى اليوم التالى، لكى يتمكنوا من النجاة. وقد كشفهم هروبهم، ومن هنا تم تعقبهم واعتقل بعضهم وأعدموا(3). وعندئذ اختارت الجماعة محمد بن أبى حسين قائداً؛ وكتبت عن ذلك إلى

---

(1) ابن الأثير، المخطوطة *A*، المجلد الثانى، الورقة ٦٩ الوجه الأول.

(2) راجع ابن الأثير، المخطوطة *A*، المجلد الثانى؛ الورقة ٣٤؛ المخطوطة C، المجلد الرابع، الورقة ٢٢١ الوجه الأول؛ النويرى، المخطوطة ٧٠٢، الورقة ٢١ الوجه الأول، و٧٠٢ *A*، الورقة ٥٢ الوجه الأول، والترجمة الفرنسية لـ م. دى سلان، فى حواشى ابن خلدون، *Histoire des Berbè res*، المجلد الأول، ص ٤٢٣، حيث إن هناك خطأ فى اسم القائد الأفريقى. أنظر أيضاً ابن خلدون، *Histoire de l'Afrique et de la Sicile* ، ص ١١٧. ابن خلدون، دون أن يتحدث عن البيزنطيين، ينسب الواقعة لعام ٢٥٥ (١٩ ديسمبر ٨٦٨ إلى ٧ ديسمبر ٨٦٩)، ولكنه يتناول النزول الأول إلى البر. النويرى لا يحدد تاريخاً محدداً. وبالمقارنة نجد أن تاريخ ابن الأثير، الذى يعود لعام ٨٧٠، يتوافق بالضبط مع تاريخ ٢٩ أغسطس ٦٣٧٨ الذى نجده فى وقائع كامبردج، لدى دى جريجوريو، *Rerum Arabicarum*، ص ٤٢.

(3) راجع ابن الأثير، الموضع المذكور، وأيضاً المخطوطة *A*، المجلد الثانى، الورقة ٨١ الوجه الأول؛ البيان، المجلد الأول، ص ١٠٩؛ النويرى، لدى دى جريجوريو، *Rerum Arabic.*، ص ١٠؛ ابن أبى دينار، المخطوطة، الورقة ٢١ الوجه الثانى، مع تاريخ خطأ هو ٢٥٧؛ ابن ودران مع الخطأ نفسه؛ أبو الفدا، *Annales Moslemici*؛ عام ٢٤٨، ٢٥٥، ٢٥٧.

أفريقيا، ورفض هذا الاختيار الأمير الأغلبى؛ الذى عهد بالحكم إلى رباح بن يعقوب بن فزارة، الذى سبق الحديث عن أعماله فى الحرب، وكذلك عن اختيار شقيقه أحمد وتنحيته فى عام ثمانمائة واثنين وستين. ولكن القدر كان بالمرصاد للإبقاء على الاضطرابات فى الجماعة عندما هدأت أعمال الخداع والخيانة. فقد توفى رباح بعد ذلك بقليل، فى شهر محرم، عام مائتين وثمانية وخمسين (١٧ نوفمبر إلى ١٦ ديسمبر ٨٧١)(1). وأعقبه إلى القبر، فى شهر صفر (من ١٧ ديسمبر ٨٧١ إلى ١٥ يناير ٨٧٢)، شقيقه عبد الله، الذى اختير والياً على الأرض الكبرى، أى شبه جزيرة إيطاليا، التى كان المسلمون يعيثون فيها فساداً منذ ثلاثين عاماً(2).

(1) النويرى، الموضع المذكور، وص ١١. فى هذا الاسم أضفت ابن فزارة، مستخلصاً هذه الدرجة الأخرى من القرابة من اسم عباس بن فضل، المذكور عاليه، ص ٣١٥ و٣٢١.

(2) النويرى، الموضع المذكور؛ **البيان**، المجلد الأول، ص ١٠٩.

الفصل الثامن

قبل عملية أسد بن الفرات كان المسلمون قد هاجموا للقرصنة السواحل الغربية لشبه الجزيرة، كما روينا فى الكتاب الأول. وكانت الأحداث المختلفة العديدة للجيوش فى صقلية مرة بعد مرة تلقى إلى البر الإيطالى ببعض المغامرين أو الجسورين فى غاراتهم أو اليائسين بعد بعض الهزائم أو المضطرين للهروب من حدة الخلاف بين الأطراف؛ وهؤلاء، بعد أن تَعَمّدوا، بحكم الضرورة، من المحتمل أن يكونوا قد تمركزوا بالقرب من أمالفى وسالرنو. وبقوا هناك، غير مسيحيين وغير مسلمين، حتى عام ثمانمائة وخمسين(1). وربما عاشوا فى خدمة تلك الولايات التى كانت تنهب بعضها بعضاً؛ وربما كانوا وسطاء فى جمهورية نابولى، عندما توجهت لطلب العون فى صقلية فى عام ثمانمائة وستة وثلاثين.

وفى هذا الوقت بدأت جماعة بالرمو التى أصلح شأنها الرجل الحكيم القوى إبراهيم بن عبد الله والتى كانت قد اعتادت على المعارك البحرية وأصبحت صديقة لأهل نابولى، بدأت بصورة مختلفة تماماً فى اجتياح البر الإيطالى. وبنصح من أهل نابولى، أو لا، هاجمت ساحل الأدرياتيكى، فى عام ثمانمائة وثمانية وثلاثين، كما أعتقد

(1) فى بنود اتفاق السلام المبرم فى عام ٨٥١ بين راديلكى وسيكونوفلو (لدى موارتورى *Rerum Italicarum Scriptores*، المجلد الثانى، الجزء الأول، ص ٢٦٠ والصفحات التالية § ٢٤). نقرأ اتفاقاً متبادلاً لطرد السراسنة
prœter illos qui temporibus DD. Siconis et Sicardi fuerunt non sunt. (أى مرتدّون) *Christiani si magarizati*، وقد بدأ سيكونى فى الحكم عام ٨١٧ وانتهى حكم سيكاردو فى عام ٨٣٩. وبذكر هذين الأميرين يتضح أن المسلمين كانوا قد جاءوا على الأقل مرتين مختلفتين. والمكان لا نستطيع معرفته، وقد ذكرته على سبيل التخمين.

أنا، ولكن لا يوجد تاريخ فى الوقائع المسجلة. وما نعرفه هو أن المسلمين احتلوا بريينديزى فجأة، وأن سيكاردو أمير بنفنتو كان يغير عليها بفرق كبيرة من الخيالة؛ وأنه قاتل خارج المدينة. وقد اعتمد المسلمون على حيلة استخدمت من قبل فى حروب صقلية. فبعد أن اختاروا المكان الذى بدا لهم مناسباً، حفروا فيه حفراً، وغطوه بفروع الأشجار والتراب، ومع اقتراب جيش العدو، اختبأوا وراء الأسوار. وفى يوم من الأيام، بعد الغداء، اندفعوا إلى الخارج فى جلبة شديدة وصخب بالأدوات؛ وجذبوا العدو إلى الشراك؛ وهناك عند هجوم خيالة سيكاردو وسقوطهم فى الحفر، مات فى الميدان عدد كبير من أهل بنفنتو وسالرنو، وغيرهم من الجنود. وبعد ذلك، وبينما كان اللونجابرد يتسلحون بقوة فى كل مكان استعداداً للانتقام من هذه المذبحة، عاد المسلمون بالأسطول إلى صقلية، بعد أن أطلقوا نيراناً كثيفة على بريينديزى.

هذا ما يرويه أنونيمو سالرنيتانو الذى عاش فى نهاية القرن التالى، ويجدر بنا تصديقه فى هذه الحالة، حيث إنه وصل إليه كثير من الذكريات الخاصة بالمدينة والمجهولة لرواة الوقائع الأقدم منه. والحدث لا يبدو لى مطابقاً لما يقوله چوڤانى دياكونو، الذى يروى مساعدة المسلمين لمدينة نابولى التى كان سيكاردو يحاصرها. ولا يمكن لظروف هاتين الواقعتين أن تتفقا معاً؛ وتتباين أيضاً الأزمنة، حيث إنه يجب وضع مساعدة نابولى فى عام ثمانمائة وستة وثلاثين وقتال بريينديزى قبل موت سيكاردو بقليل(1).

(1) أنونيمو سالرنيتانو، *Chronicon*، الفصل ٥٧ من طبعة موراتورى، والفصل ٦٣ من طبعة براتيللى والفصل ٧٢ من طبعة بيرتز. والمؤلف، إذ لا يضع تاريخاً، يكتب الحدث بعد اغتيال رئيس الدير ألفانو، وقبل احتلال أمالفى.
ويبدو أن موراتورى قد افترض أن العمليتين متطابقتان، حيث إنه يسجل فى الحوليات مساعدة نابولى فى عام ٨٣٧، ولا يتحدث إطلاقاً عن برنديزى. وونريش، فى الكتاب الأول، الفصل الخامس، § ٥٨، يروى هذا الحدث بتاريخ من المؤكد أنه خاطئ، فى عام ٨٣٦، ويهمل الحدث الآخر.

وبين هذه الهزيمة والموت حصل طاغية بنفنتو على نعمة فريدة من السماء، كما يقول رواة الأخبار وهم يروون لنا مع ذلك بشائعه: اغتيالات وحالات اغتصاب وخيانة ونهب ومذابح. وبعد أن أدرك أن الإيمان بالغيبيات يمكن أن يكون تفكيراً عن الجرائم، أخذ سيكاردو يرسل للبحث فى كل مكان عن رفات القديسين، وسرقتها فى معظم الأحيان: وجمع منها كنزاً، عندما وجد فى يديه رفات بالغة الإعجاز، لم يسبق لها مثيل: إن سفن اللونجوبارد التى كانت تجوب الجزر لتطارد المسلمين فى عام ثمانمائة وثمانية وثلاثين، عندما رست فى جزيرة ليبارى، وجدت جثمان سان بارتولوميو سليماً وجميلاً، فبعد أن دفن فى مقبرة من الرخام طفا وطفا على سطح الماء من مصب نهر الجانج إلى جزر إيوليه، حيث تم التعــرف عليـــه، وكيف لا؟ وصـــار لـــه محبـــوه الذين يتشـــفعون به وبنيت لهالمذابح حتى جاء المسلمون ليفسدوا كل شئ. وفى مركب أصغر سافرت الرفات من ليبارى إلى سالرنو، حيث نقلت بعد ذلك إلى بنفنتو(1). ولم تكن المركب، كمـا أعتقد أنا، من ســـــفن ســيكاردو، الذى إما أنه لم يمتلكها قط، أو ربمـــا لم يجرؤ على إرسالها بالقرب من صـــقلية؛ ولكنهـا كانت ولا شك من ســفن تجـــار الساحل الذين كانوا يجيئون للتجـــارة مع المسلمين، ولمقايضة الغنائم المسلوبة من الكنائس

(1) انظر المصادر التى ذكرها باچى فى نقد بارونيو، *Annales Ecclesiastici*، عام ٨٤٠، § ١٣؛ وعـــلاوة على ذلك، أنونيمـــو ســـالرنيتانو *Paralipomena*، الفصل ٥٨ من طبعـــة موراتورى، والفصـــل ٧٢ من طبعـــة بيـــرتز؛ *Chronicon Monasterii Sanctæ Sophiæ Beneventi,* لدى موراتورى، *Antiquitates Italicæ*، المجلد الأول، وبيـــرتز، *Scriptores*، المجـــلد الثـــــالث، ص ١٧٣؛ *Chronici Amalphitani Fragmenta* الفصـــل الخـــامس، لدى موراتورى، *Antiquitates Italicæ* المجلد الأول، ص ٢٠٩؛ *Benedicti Sanctæ Andreæ Monachi Chronicon,* لـدى بيـــرتز، *Scriptores*، المجـلد الثـــالث، ص ٧٠١؛ *Leonis Ostiensis*، الكتـاب الأول، الفصل الســـادس والعشـــرين؛ وبيـــرو: *Sicilia Sacra, Notitia Ecclesiæ Lipariensis.*، ص ٩٥١.

وبيع العبيد الإيطاليين(1). ولهذا فإن الحدث يبدو لى مهماً، ولذا فإننى أذكره.

وبعد أن تعب مواطنو بنڤنتو فى النهاية من ذلك الطغيان الصفيق، قتلوا سيكاردو (٨٣٩)، وبعد أن تركوا سيكونوفلو شقيقه فى السجن حيث كان قد زج به فيه، قاموا بتنصيب رادلكى الذى كان من أوائل رجالات الدولة. وفى المقابل هتفت سالرنو وكابوا ومدن أخرى تلبية - كما يبدو لى - لمصالح كبار الإقطاعيين اللونجوبارد الذين كانوا يضيقون بسيطرة بنڤنتو، هتفوا بسيكونوفلو أميراً، وكان أنصاره قد حرروه قبل ذلك بقليل. وقد أدت هذه الخلافة المتنازع عليها إلى حرب أهلية، زادت قسوتها بتدخل المسلمين فيها. فمنذ معرفتهم بتلك الخلافات قاموا بحركة عامة، كما يقول أنونيمو سالرنيتانو، واجتاحوا كلابريا(2). وقبل ذلك لم ينتظر المسلمون فى صقلية فصل الربيع واحتلوا تارانتو؛ ووجدوا أنفسهم فجأة سادة الأدرياتيكى. لأن ڤنيسيا، كانت فى العام السابق وبعد إلحاح من تيوفيلو الذى كان قد اضطر لتسول مثل هذه المساعدات. قد تحركت بجهد قوى، بين إغراءات الإمبراطور والأموال التى جاء بها النبيل تيودوزيو، والإحساس بأن ملاحتها فى خطر: فقامت بتسليح ستين سفينة حربية. وبالإبحار، على ما يبدو، فى اتجاه صقلية، اصطدمت فى تارانتو بالأسطول الإسلامى؛ الذى خرج للقتال، وهزمهم فى مذبحة رهيبة: وتقول حوليات ڤنيسيا إن كل رجالهم قد ماتوا أو أسروا فى المعركة. وأثناء تعقب الهاربين، اندفع المسلمون حتى إستريا؛ فى يوم ثلاثين مارس عام ثمانمائة وأربعين ونهبوا وأحرقوا أوزيرو فى جزيرة

(1) أحد بنود الاتفاقية المبرمة فى ٤ يوليو ٨٣٦ بين سيكاردو وولاية نابولى وأمالفى وسورنتو، تحظر على تجار هذه الولاية شراء الرجال اللونجوبارد وبيعهم مرة ثانية فى البحر.

(2) أنونيمو سالرنيتانو *Chronicon*، طبعة موراتورى، الفصل ٦٦، وطبعة براتيللى، الفصل ٧٤؛ وطبعة بيرتز، الفصل ٨١.

كيرسو؛ وقفزوا على الشاطئ المقابل، ونزلوا عند مصب نهر البو بالقرب من أدريا، ولكن دون جدوى؛ وفى أنكونا جمعوا الأسرى وأضرموا النار فى البيوت؛ وبعد ذلك، وعند مداخل البحر الأدرياتيكى، استولوا على العديد من السفن التجارية التابعة لڤينسيا والناحية من صقلية وغيرها من أقاليم أخرى(1). وفى الوقت نفسه وعند طرف شبه الجزيرة كانوا قد اقتحموا العديد من الأماكن وتركوا فيها حامية، كما يمكن أن نفسر عبارة الحوليات العربية، بأن المسلمين فى هذا العام، مائتين وخمسة وعشرين من الهجرة (١١ نوفمبر ٨٣٩ إلى ٢٩ اكتوبر ٨٤٠،) قاموا بفتح كلابريا(2). وفى الوقت

(1) المصدران الرئيسان لهذه الحرب فى البحر الأدرياتيكى هما: يوهانس دياكونى، *Chronicom Venetum*، لدى بيرتز، *Scriptores*، المجلد السابع، ص ١٧؛ وابن الأثير، المخطوطة *A*، المجلد الأول، الورقة ١٨٥ الوجه الثانى، والمخطوطة *C*.، المجلد الرابع، الورقة ١٩٢ الوجه الثانى، فى عام ٢٢٣. ويروى الڤنيسى أحداثها. بينما يشير إليها العربى بالكاد؛ ولكن الاثنين يتفقان على التاريخ، فيذكر أحدهما عام الكسوف الشمسى فى شهر مايو (الذى حدث فى ٥ مايو عام ٨٤٠)، والآخر عام ٢٢٥ من الهجرة، وهو ما يقابل ٨٤٠، ولابد أن هذا يعنى الربيع والصيف. وها هى كلمات ابن الأثير: "تحرك أسطول المسلمين صوب كلابريا وفتحوها. وبعد ذلك، عند الاصطدام بأسطول أمير القسطنطينية حاربه المسلمون وهزموه، وانسحبت فلول ذلك الأسطول إلى القسطنطينية. وكان هذا نصراً يشار له بالبنان". والنص فى وقائع ڤينيسيا على أن أوزيرو أحرقت فى اليوم التالى لعيد الفصح، يحملنا على الاعتقاد بأن معركة تارانتو وقعت قبل ذلك ببضعة أسابيع، ولكن فتوحات كلابريا فى أثناء الربيع والصيف، لم تكن قبل شهر مارس والمعركة البحرية، كما كتب ابن الأثير.

استخدمت الفعل العربى ينتصر *vincere* فى مقابل الفعل العربى فتح، الذى لا يمكن أن يختلط معناه مع معنى يغير *fare incursione*، الذى يعبر عنه العرب بفعل غزا ومن هنا جاءت الكلمة الشهيرة *razzia*، كما ينطقونها فى أفريقيا، والتى دخلت بالفعل فى اللغة الفرنسية.

انظر أيضاً ابن خلدون، *Histoire de l'Afrique et de la Sicile*، ترجمة م. دى ڤرجيه، ص ١١١؛ وداندولو، *Chronicom Venetum*، الكتاب الثامن، الفصل الرابع؛ § ٦، ٧، ٨، لدى موراتورى، *Rerum Italicarum Scriptores*، المجلد الثالث عشر. وتتفق مع تاريخ عام ٨٤٠ شهادة لوبو بروتوسباتريو، حيث يذكر أن عام ٩١٩ كان العام الثمانين لدخول الهاجريين إيطاليا. ويقول أنونيمو سالرنتانو، فى الموضع المذكور أن الأثر الأول للحركة العامة للسراسنة كان الاستيلاء على تارانتو، وبعد ذلك قاموا بأعمال إتلاف فى بوليا.

(2) ابن الأثير وابن خلدون، الموضعان المذكوران.

نفسه هاجموا بوليا، بعد أن عرفوا أن «حيا» الذى أعتقه أغلب، أمير أفريقيا كان يهاجم باري، ولكنه صد عنها(1). وفى العام التالى، ظهر الأسطول الإسلامى من جديد فى خليج كوارنيرو، ومن جديد أوقع هزيمة دموية بأهل ڤينسيا، بالقرب من جزيرة سانسيجو الصغيرة(2). وفى هذه المعارك لم تحارب جماعة بالرمو بمفردها. ومن المؤكد أنه كان يعززها أناس جاءوا من أفريقيا إلى صقلية فى عام ثمانمائة وتسعة وثلاثين(3). وكان هنـــاك أيضا قراصنة جماعة كريت الذين كانوا فى غاية الجرأة، ونراهم بعد ذلك بعـــامين يتمركزون فى تارانتو. وكان معظم الأفريقيين والصـــقليين والكريتيين من فرق المرتزقة، مثل تلك التى هرعت فى عام ثمانمـــائة وثلاثين إلى صـــقلية؛ وكانوا على اســـتعداد للعمل معا فى أى مهمة تقتضيها اللحظة، والقيام بالمهام الصـــغرى، كل لحسابه ومنفعته. ومع ذلك فقد أسسوا على البر الإيطالى المســـتوطنات المســـتقلة الصغيرة، التى سنتحدث عنها فيما بعد. وقد اغتصب القـــادة ألقـــاب الأمراء، وهى الألقـــاب التى يوردها الكتاب المسيحيون أحيـــانا على أنهـــا أســـماء أعلام: وهكذا كان بلا شك اسم سلطان وكذلك اسم سابا، الذى كان كما يبدو لى تحريفا لكلمة «صـــاحب». وهـــو الاســـم الذى نســـب إلى الأدميـــرال الذى انتصـــر فى تـــارانتو(4).

---

(1) ابن الأثير، المخطوطة A، المجلد الثانى، الورقة ١٩٨ الوجه الأول والثانى والمخطوطة C، المجلد الرابع، الورقة ٢١١ الوجه الأول، ولا يحمل تاريخاً؛ ولكن يفيد فى ذلك ذكر اسم الأمير الذى حكم من يونيو ٨٣٨ إلى فبراير ٨٤١، راجع هذا مع أنونيمو سالرنتانو، فى الموضع المذكور.

(2) يوهانس دياكونى، *Chronicon Venetum*، لدى بيرتز، *Scriptores*، المجلد السابع، ص ١٨.

(3) ابن الأثير، المخطوطة A، المجلد الأول، الورقة ١٨٥، الوجه الثانى، والمخطوطة C، المجلد الرابع، الورقة ١٩٢، الوجه الأول، فى عام ٢٣٣.

(4) دياكونو چوڤانى من ڤينيسيا، الكتاب المذكور، يعطى اسم *Saba* سابا هذا؛ وتكرره فى أعمـــال متعـــاقبة وقائـــع إيطـــالية أخرى وكتـــابات بيزنطيـــة، مع اســـم σολδάνος, σαλδανός، ساوتان، ساوجدان، سُودان، إلخ. وكلمة *Sâheb*، وتنطق باللغة العربية صاحب، يبدو أنها قد كتبت سابا نتيجة لما يذكره المسيحيون من الكتاب المقدس ولأن حرف *h* الذى لا يتبعه حرف متحرك كانت لا تلتقطه الآذان الأجنبية. وقد أشرت بالفعل إلى وظيفة كلمة صاحب. وغالباً ما نقابل عبارة صاحب الأسطول بمعنى 'أدميرال'، لأن العرب استخدموا كلمة στόλος، **ستوليوم** للتعبير عن الفكرة الجديدة للأسطول البحرى.

أما راديلكى الذى ضاق به الأمر أمام سيكونولفو الذى انتزع منه كلابريا وجزءا غير صغير من بوليا(1) فقد ارتمى فى أحضان المسلمين طالباً مساعدتهم. ولمصلحة باندونى وكيل أراضى باري، أرسل فى دعوة أحد هـؤلاء القـــادة باســـم خلفون، وهو بربري، معتوق من قبيلة ربيعـــة العربية؛(2) وعمل باندونى على أن يعسكر رجاله بطول الساحل وتحت الأسوار. وفى ذات ليلة فوجئ أهـــل باري بتلك الجمـــاعات الحـــافية شـــبه العـــارية والمســـلحة تسليحا رديئـــا، ومعظمهم يمســـكون برمـــاح فقـــط، كمـــا كتب المسيحيون(3) وهم متعجبون من رماحهم تلك المصنوعة من الغاب الهندى الرفيع والقوى كالصلب. وقد نهبوا وقتلوا من قاومهم: وقد ألقى باندونى فى البحر بين من ألقى فيه، لأنه كان يريد التحدث بشأن حق الأهالي. وقد تركهم راديلكى سادة على باري، حيث إنه لم يكن بوسعه أن يفعل غير ذلك، وقد جذبهم خلفه، ونهب كنوز

---

(1) إركمبرتى، *Historia*، الفصل ١٥؛ *Historiola ign. Cossin*، الفصل الثامن.

(2) رواة الأخبـــار الإيطـــاليون يكتبون كالفـــون وأيضـــاً ألفونس فى بعض المخطوطات غيـــر الصحيحة. ونحن نســـتخلص الاســـم الحقيقى من ابن الأثيـــر، الـــذى يخطئ فى تاريخ الاستيلاء على باري، ويكتبه خلال خلافة المتوكل (٨٤٧ - ٨٦١)، المخطوطة A، المجلد الثانى، الورقة ١٩٨ الوجه الأول والثانى؛ المخطوطة C، المجلد الرابع، الورقة ٢١١ الوجه الأول. لا يبدو أن هذا هو خلفون قاتل خفاجة، الذى تحدثنا عنه فى الفصل السابق.

(3) *Obsitis quidem vestimentis et calciamentis saltem, nec tarabere succinctis, sed solis harundinibus manibus gestantes,* هذا ما نقرأه فى *Historiola ignoti Cassinensis*، الفصل الثامن. وقد شرح البعض كلمة *Tarabere* على أنها *Tabarro* عباءة؛ وصحح آخرون فكتبوا *nec tara bene* إلخ؛

الكنائس لدفع مرتباتهم. وأرسلهم ذات مرة مع أرسو ابنه ضد قلعة «كان» أو «كانوزا» حيث إن هناك شكاً فى الاسم، (1). وهناك لحق بهم سيكونولفو، وهزمهم هزيمة ساحقة حتى إن قلة منهم هم الذين بقوا على قيد الحياة. وقد نجا خلفون، الذى مات جواده أثناء الهروب ودخل بارى سيراً على الأقدام بمشقة كبيرة. إلا أن المسلمين الذين زادوا من عددهم بسهولة، انتقموا انتقاماً شديداً؛ وكانوا يقومون بالغارات وهم ينهبون ويدمرون حتى كابوا، وأحرقوا المدينة التى أعيد بناؤها من جديد بعد ذلك ببضع سنين عند جسر كازيلينو، فى مكان لا يبعد كثيرا عن موقعها القديم(2).

ومن هنا فان سيكونوفلو تنبه، كما يقول إركمبرتو، إلى أنه لا يفل الحديد إلا الحديد، ففى مواجهة الهاجريين العرب الليبيين أتباع راديلكى استدعى الاسماعيليين أسبان كريت بقيادة أبولوفار *Abolofar*(3) الذى كان يحتفظ بمقر قيادته فى تارانتو. وقد دفع سيكونولفو أجورهم من نهب الكنائس بأسوأ مما عمل راديلكى: وكانت سلالتا المسلمين تتباريان فى التمتع بمال أصدقائهم المسيحيين، وممتلكات الأعداء؛ وأرسلوا أسرى الجانبين لبيعهم فى بلادهم. ولا أحد يعرف ما إذا كانوا قد تحاربوا فيما بينهم، أو فعلوا

أى "ملتحفون جيداً": ويبدو لى أن التفسيرين لا يستقيم لهما عود. ويبدو لى أن الأمر يتعلق بنوع من ثياب الحرب، ربما يكون درعاً، وربما يكون بالضبط الجمع *darâri* دراع، الذى شوهه الناسخون بحيث لا يمكن التعرف عليه؛ ولعله اللفظ اليونانى المستخدم فى الأزمنة المتأخرة ταραβεινα والذى يذكره دى جانج فى معجمه اليونانى.

(1) أنظر ملحوظة براتيللى، *Historia Principum Langobardorum* المجلد الأول، ص ٩٨.

(2) راجع *Historiola ignoti Cassinensis*، الفصل الثامن؛ إركمبرتى، *Historia*، الفصل السادس عشر. وحول موقع كابوا الجديدة، انظر ملحوظة براتيللى فى *Historiola* إلخ؛ فى المرجع المذكور، المجلد الأول، ص ٢٠٢.

(3) لم يصلنا اسم هذا الشخص من رواة الأخبار العرب. وإذا أخذناه كما يكتبه المسيحيون فإنه قد يكون أبوالفار، أو *Quel del topo*؛ أبو الفارس، أو *Quel del cavallo* إلخ.

مثل قادتنا فى القرن الخامس عشر. ولا أحد أيضاً يتحدث عنهم فى يوم فوركى كاودينى، حيث اصطدم الخصمان اللونجوبارديان فى عام ثمانمائة وثلاثة وأربعين، وشتت سيكونولفو صفوف بنفنتو فى مذبحة مروعة. ولكن رجال كريت كانوا يساعدونه فى الغارات التى قام بها على نطاق أوسع بعد هذا النصر؛ ولهذا فقد اقتصر راديلكى على مدينتين فقط هما سيبونتو وبنفنتو(1).

ويحكى أن سيكونولفو وأبولوفار عند العودة إلى سالرنو، بعد إحدى هذه الاعمال الحربية، أخذا ينخسان الخيول للتسابق، وأراد الأمير أن يظهر جرأة جديدة يختص بها الشعب الجرمانى للآخر الذى كان ضئيل الجسم ولكنه ماهر ونشيط وجسور. وبعد أن نزلا عند القصر، وبينما كانا يصعدان درج السلم، رفعه سيكونولفو دفعة واحدة من ذراعه، وبعد أن وضعه أعلى من ذلك بثلاث درجات، عانقه وقبله، لتخفيف أو لتشديد الإهانة. وعندما سمح الغضب للمسلم بالكلام، اندفع قائلاً إنه انتهت منذ ذلك اليوم كل صداقة بينه وبين سيكونولفو: وقد اقسم على ذلك بالله، ولم تنفع الاعتذارات فى إبقائه حتى لا يعود مع كل رجاله إلى تارانتو. ومن هناك بعث يعرض خدماته على راديلكى، وهرع إلى بنفنتو، وقام بتجهيز قواته من الخيالة وركض بها فى اتجاه سالرنو: ووصلت هذه القوات إلى نهر توشانو، كما كان يسمى، على بعد ثمانية أميال نحو الجنوب، وقد تركوا فى تلك الأنحاء ذكرى رهيبة لاسم أبولوفار. وأنا لا أرى أى داعٍ يحمل على الشك فى تلك النادرة، حيث يتواءم ذلك المزاج السوقى مع أمير لونجابردى أصابه السأم من أهل كريت، بعد أن لم يعد فى حاجة إليهم. وبعد ذلك يروى راوى الأخبار نهاية

---

(1) راجع *Historiola ignoti Cassinensis*، الفصل العاشر والحادى عشر؛ إركمبرتى، *Historia*، الفصل السابع عشر؛ أنونيمو سالرنيتانو، *Chronicon*، الفصل ٥٦ من طبعة موراتورى، والـ ٧٤ من براتيللى والـ ٨١ من بيرتز.

أبولوفار: بعد أن اشتهر بشأنه الكبير فى الدفاع عن بنڤنتو، فقد أمسك به راديلكى غدراً وظل جسوراً شامخاً، حتى إنه بصق فى وجه الخائن قبل أن يذهب إلى الموت(1).

إن الروايات الشعبية التى نجدها فى هذه الأخبار، حتى وإن أضافت بعض ضربات الرماح، وبعض الأقوال الطريفة، وبعض الانفعالات الدرامية، فإنها لم تغير من أهمية الأحداث. لقد تخلى أهل كريت بالطبع عن تارانتو، حيث نقرأ فى الحوليات العربية الصقلية أن المسلمين زودوها بحامية فى عام ثمانمائة وستة وأربعين؛ وهو ما يتفق مع واقعة أبولوفار، الذي حوصر فى ذلك الوقت داخل نطاق بنڤنتو وقد بقيت الفرقة الأخرى من البربر وعرب أفريقيا التى كانت تسيطر على بارى وكانت تساعد راديلكى، ولكن لم يشر أحد إليها، من عام ثلاثة وأربعين حتى عام ستة وأربعين، حيث إن الكُتّاب المسيحيين فى هذا الوقت سكتوا عنها، وعندئذ بالذات نرى مستعمرة صقلية تعانى فى حصار مسينا وفى حرب ڤال دى نوتو الطاحنة ومن هنا لم يكن بوسعها إرسال تعزيزات إلى البر الإيطالى. وفى غيبة تلك القوات التى كانت فى عام ثمانمائة وأربعين وثمانمائة واثنين وأربعين رهيبة المظهر، استمر الأميران اللونجوبارديان يحنقان فى الاقتتال ولكن دون نتيجة؛ حتى إن سيكونوفلو لم تكن لديه القوة لاقتحام بنڤنتو، ولم يستطع راديلكى استعادة الولاية.

وبحماس جديد أخذ المسلمون يهاجمون إيطاليا الجنوبية عام ثمانمائة وستة وأربعين. ومع إحساسهم بالقوة بعد أن قطّعوا الجيش البيزنطى إرباً (فى عام ٨٤٥) فى صقلية، دفعوا بقوات الجماعة الصقلية وأفريقيا إلى الهجمات، حسب تخطيط موحد واضح، وقد

(1) أنونيمو سالرنيتانو، *Chronicon*، الفصل الـ ٦٦ والـ ٦٨ من موراتورى، و٧٤ والـ ٧٦ من براتيللى والـ ٨١ والـ ٨٣ من بيرتز.

ظهرت أولى القوات فى الوقت نفسه على بحرى إيونيو والتيرانى: فمن ناحية كانوا يضعون حامية كبيرة فى تارانتو(1)، ومن الناحية الأخرى كانوا يعززون قواتهم عند رأس ليكوزا التى ينتهى بها جنوب خليج سالرنو، واحتلوا بونزا، غير عابئين بما إذا كان ذلك يضايق أهل نابولى. لأنهم لم يعودوا يخشون البيزنطيين فى البحر التيرانى، وفى الوقت نفسه كانوا لا يضعون وزناً لرايات بيزا وچنوه ولذا فقد ساد ذلك البحر اتحاد نابولى وجماعة بالرمو، بقوات غير متفقة، ومصالح مشتركة ومصالح متضاربة: أصدقاء متعالون يتبادلون الاعتبار، لا الخوف؛ وكانوا يضعون يدهم علي مقبض السيف وأحيانا كانوا ينزعونه من غمده، ولكن سرعان ماكانوا يعودون إلي السلم. وبعد الاستيلاء علي بونزا، رسا عليها سيرچو قنصل نابولي بسفنه وسفن جاييتا وأمالفى وسورنتو؛ وطرد المسلمين من تلك الجزيرة ومن ليكوزا. وبعد أن لجأ المسلمون إلي بالرمو، عادوا بأسطول أقوي واحتلوا قلعة ميسينو بالقرب من نابولى(2) ولم يوقفهم أحد. ومن المحتمل أن يكون الأسطول قد ذهب لمصاحبة أسراب السفن التى خرجت فى هذا الوقت من أفريقيا لكى تجتاح روما.

(1) ابن الأثير فى فصل "عن حروب المسلمين فى صقلية"، المخطوطة *A*، المجلد الثانى، الورقة ٢، والمخطوطة C، المجلد الرابع، الورقة ٢١٢ الوجه الأول، بعد الاستيلاء على لنتينى يكتب قائلاً: "فى هذا العام نفسه (٢٣٢، ٨٤٦ ـ ٨٤٧) توقف المسلمون فى مدينة ... فى أرض لومبارديا وبدأوا يسكنونها". اسم المدينة مكتوب *Tâbth*؛ وأول حرفين منها مؤكدان تماماً وكذلك النبرة على حرف أ؛ وحرف الـ ب يمكن أن يُحَرّف بحرف ن أو بحرف آخر، والحرف الأخير يمكن أن يكون ت أو ث ... إلخ، ولا أتردد فى إضافة حرف ر، وأقرأها *Târant* بمقارنة جميع العناصر الأخرى من الحروف بالحروف التى كان العرب يكتبون بها ذلك الاسم.

(2) يوهانس دياكونى، *Chronicon Episcop. Sanctæ Neapolitanæ Ecclesiæ*، لدى موراتورى، *Rerum Italicarum Scriptores*، المجلد الأول، الجزء الثانى، ص ٢١٥؛ وغنى عن الذكر أن أقول إننى أخذت منه الأحداث فقط وليس الأفكار التى استخلصها منها. ويحكى راوى الأخبار باستمرار الهجوم على روما، وأنا لا أعلم لماذا ذكر موراتورى فى الحوليات وقائع بونزا إلخ تحت عام ٨٤٥.

وبعد أن تجاوز الأفارقة بسهولة التحصينات التى كان جريجوريو الرابع قد شيدها قبل ذلك ببضع سنوات فى أوستيا، وصلوا إلى المدينة الخالدة. ولما لم يتجاسروا على مهاجمتها، فإنهم انهمكوا فى نهب كاتدرائيتى سان بيترو وسان باولو، اللتين كانتا فى تلك الأيام خارج الأسوار؛ ولكن الحشد المسلح الذى كان يقوم بنهب كنيسة سان باولو، واجهه الفلاحون وانهار بصورة رهيبة وعندئذ تراجع وانسحب الجيش كله. وسار نحو ولاية بنڤنتو، حيث يمكنه الالتقاء مع أشقائه من أفريقيا وصقلية، ونهب فى الطريق مدينة فوندى؛ فى شهر سبتمبر، وقام بحصار جاييتا: وهنا شوهد برتاريو وهو يقاتل المسلمين بشجاعة، ثم أصبح بعد ذلك راهبا فى دير مونتى كاسينو. ومن ناحية، وصل إلى جاييتا رجال لودوڤيكو، فقد تم استدعاؤهم على عجل بعد الهجوم على روما؛ ومن ناحية أخرى كان هناك تشيزاريو ابن قنصل نابولى، مع أسطول من نابولى وأمالفى. واصطدم المسلمون بالفرنجة، وهزموهم فى كمين فى العاشر من نوفمبر؛ وأوشكوا على إبادتهم لولا تدخل تشيزاريو الذى هبط مع رجاله من السفن. وفى الوقت نفسه كانت هناك فرقة أخرى قد وصلت إلى ما يقرب من خمسة أميال من دير مونتى كاسينو، إذ كانت تحرق الكنائس والأديرة، ومنعتها، كما يقال، مياه نهر كارنيللو، التى فاضت بعد أن هطلت الأمطار فجأة: معجزة سان بنديتو، كما كشف لرئيس الدير فى الحلم قديس آخر من ذات نظام الرهبنة. ولم يقل القديس شيئا عن تشيزاريو الشجاع، وهو نفسه الذى عمل على تراجع المسلمين؛ وبعد أن تمركز منذ تلك اللحظة بالأسطول فى ميناء جاييتا، أنقذ أيضا هذه المدينة دون قتال، كما دَوَّن چوڤانى دياكونو. لأنه بعد أن امتد الشتاء، ولم تقدر السفن الأفريقية على تحمل الموقف فى العراء، اتفق قادة السفن مع تشيزاريو على أن يقبلهم من جديد فى الميناء ، بعد أن أقسموا بألا يلحقوا أى ضرر بأحد وأن يعودوا إلى أفريقيا عندما

يهدأ البحر. وقد وثق تشيزاريو بهذا، وحافظ أولئك على عهدهم: ولكن غالبيتهم ماتوا بعد ذلك فى الرحلة، مع احتمال حدوث معجزة أخرى(1).

وتتلألأ من جديد بعد ثلاث سنوات (٨٤٩) كفاءة تشيزاريو العسكرية، مع كفاءة البابا ليونى الرابع. وكان هناك حشد أقوى من الأفارقة قد تجمع فى سردينيا لمحاولة الهجوم على روما من جديد؛ بينما كان ليونى يعمل على إغلاق كنائس الرسل وضواحى تلك الناحية بالأسوار: وكان يلهب مشاعر المواطنين بالمنح، والرعاية التى لاتكل، وبالمواكب الدينية والدعاء بالبركة والشفاء. ولم تكن الأعمال قد انتهت عندما عرف اتحاد نابولى بتحرك الأعداء، ولم يكن يريدهم بأى حال من الأحوال سادة على ذلك البحر، ولذا فقد أرسل الأسطول إلى أوستيا؛ ولحق بهم البابا مع جنود روما؛ وقبل المساعدة بعد أن سأل تشيزاريو حول ما إذا كان يأتى صديقا أم عدوا؛ حيث كانت هناك شكوك كثيرة فى تلك الأنحاء من إيطاليا حول علاقات جمهورية نابولى مع المسلمين! وبعد أن اقتنع بمقصده، استعرض البابا الإيطاليين القادمين من تلك المدن العديدة الذين لم يكونوا على علم بأنهم ينتمون إلى الوطن نفسه: وكان يذكرهم، بدلا من ذلك ، بالأخوة المسيحية، ومعجزات الرسل، والرجاء المشترك فى الله. وبعد ذلك أقام القداس وناول المقاتلين بيديه؛ وبعد أن استعد لأى حدث يحدث عاد إلى روما. وفى الوقت نفسه الذى رصدت فيه السفن الأفريقية فى أوستيا ، هرع جنودنا إلى

(1) راجع *Historiola Anonymi Cassinensis*، الفصل التاسع والتاسع عشر؛ يوهانيس دياكونى، *Chronicon Episcop. Sanctæ Neapolitanæ Ecclesiæ* لدى موراتورى، *Rerum Italicarum Scriptores*، المجلد الأول، الجزء الثانى، ص ٣١٥، ٣١٦، أنستازى بيبليوتيكارى، *.Epitome Chronicon. Cassinens*، لدى موراتورى، *Rerum Italicarum Scriptores*، المجلد الثانى، الجزء الأول، ص ٣٦٩؛ برودنتى تريتشنسيس *Annales*، لدى بيرتز، *Scriptores*، المجلد الأول، ص ٤٤٢؛ يوهانيس دياكونى، *Chronicon Venetum*، لدى بيرتز، *Scriptores*، المجلد السابع، ص ١٨، والعديد من الكتب الأخرى.

السفن بحماس مضاعف؛ وأشعلوا الصدام؛ واستطاعوا أن يؤمنوا حقا
بالمساعدة الإلهية، عندما لم يكن مصير المعركة قد تقرر بعد، فقد
هبت عاصفة شتتت غير المسيحين؛ الذين لم يكن قد اعتاد معظمهم
البحر، وقد ركبوا مراكب بائسة؛ بينما لم يهتز بحارة نابولى وأمالفى
وسورنتو وجاييتا المتمرسين على سفنهم التى ألفوها. ومن هنا كانت
المذبحة الرهيبة للمسلمين الذين غرقوا وضربوا بالرماح وقفزوا إلى
الأرض حيث كان بارونات روما يأخذونهم ويشنقونهم؛ وحتى القساوسة
كانوا يتجاسرون ويمدون أيديهم نحوهم لتقييدهم بالأغلال. وقد زين
ليونى بدروعهم كنائس روما؛ وجعل الأسرى يعملون فى بناء الأسوار؛
وحقق من ذلك مجدا استطاع أن يستحقه بابوات قليلون. (1)

ولم يمض وقت طويل حتى جاء لودوڤيكو الثانى، ابن لوتاريو، بعد
أن استولى على التاج الامبراطورى (٨٥٠) فى حياة أبيه، وبدأ شخصياً
فى قتال مسلمى إيطاليا الجنوبية، الذين عمل ضدهم ما يقرب من
خمسة وعشرين عاما. وبين الهجوم على روما وهزيمة أوستيا، لم يحترم
حلفاء بنڤنتو البلد المجاور. وقد كان يقودهم شخص يدعى مسّار، كما
يسميه الكُتّاب المسيحيون، وكان طبعه الكريم يتعارض مع مهنته الشريرة.
ويحكى أنه فى غارة استمرت ثمانية أيام، فى خريف عام ثمانمائة وستة
وأربعين، خرج من بنڤنتو، وعاث فساداً بعد ذلك فى دير سانتا ماريا
فى تشينجلا ودير سان ڤيتو بالقرب من إيزرنيا؛ وأسقط قلعة تيليزى؛
واندفع حتى مونتى كاسينو وأكوينو وأرتشى، وهو ينهب ويدمر كل شىء،
باستثناء دير مونتى كاسينو : حيث لم يُرد الهجوم عليه عندما لم يترك
كلبه يمسك بأوزة الرهبان، وجرى وراءه بالسوط وانتزعها من فمه،
وتوقف عند باب الدير، حتى لا يدخل أتباعه الآخرون، الأقل وداعة من

---

(1) أناستازى بيبليوتيكارى، *Vita de Leone IV*، لدى موراتورى، *Rerum Italicarum Scriptores*، المجلد الثالث، الجزء الأول، ص ٢٣١، ٢٣٧ والصفحات التالية.

الكلب. وربما كان هذا وفاء منه لراديلكى الذى لم يكن يحب استعداء
رئيس ديرمونتى كاسينو. ولكن فى شهر يونيو فى عام سبعة وأربعين
عندما اهتز بعنف كل الاقليم من الزلزال وتحولت إيزرنيا إلى كومة
من الأطلال، نصح آخرون مسّاراً بانتهاز فرصته ونهب تلك
المدينة، فرد عليهم قائلا: "إن خالق الكون يُسمع الناس هنا
غضبه، فهل يتعين علىّ أنا أن أزيده؟ لا؛ لن أذهب!" (1) وكان هو
أو قائد آخر،فى هذا العام نفسه، يغير للنهب حتى روما مع
السراسنة والمورى، كما تشير أخبار ألمانية إلى العرب
والبربر.(2) ولكن تلك الفرق البائسة، أيا كان قادتها ، لم تكن تميز
الأصدقاء والأعداء، وكانت تسىء معاملة النبلاء أيضا فى بنڤنتو؛
وكانوا يجلدونهم بالسياط الجلدية، كما يقول إركمبرتو، كعبيد
يستهان بهم(3).

وفى الوقت نفسه كان راديلكى يخشى أن يتركه أتباعه فى يوم
من الأيام: وكانت الأهالى تصرخ من كل مكان؛ وكان الرهبان
يضغطون وكانت الأهداف السياسية الصغيرة لتلك الدويلات
الصغيرة شبه المستقلة، التى استمرت تحارب، تتجه الآن لإيقاف
الحرب حتى تخرج من ذلك العذاب الشديد. وعلاوة على ذلك
بات تقسيم ولاية بنڤنتو القديمة مريحا للجميع؛ وكانت هذه
هى الطريقة الوحيدة للاتفاق: وكان هذا يرضى أمراء كابوا
الذين كانوا يريدون الانطلاق من سالرنو فهم لم يعودوا
يخشون اللونجابرد وقد انقسموا، واتجهوا لحماية أنفسهم من
المسلمين. وكان إجراء التقسيم يقوم به جويدو دوق سبوليتو،

---

(1) *Historiola ignoti Cassinensis*، الفصل الثانى عشر والرابع عشر. التاريخ يلمحه
أناستازى بيبليوتيكارى، الذى يتحدث فى حياة ليونى الرابع عن دمار إيزرنيا فى
الخمسعشرية العاشرة.

(2) برودنتى تريتشنسيس، *Annales*، لدى بيرتز، *Scriptores*، المجلد الأول، ص ٤٤٣.

(3) إركمبرتى، *Historia*، الفصل الثامن عشر.

وهو فرنسى وقريب سيكونوفلو؛ وكان مرتشيا، كما يقول رواة الأخبار، وأخذ أموالا من راديلكى ومن نسيبه، وخدع الاثنين؛ ولكن من المؤكد أنه كان يمارس عملاً مفيداً للغاية. نظراً لأنه كان من المستحيل أن يقوم بذلك دون سلطة الإمبراطور وقوته، لذا فإن أهم الرجال فى البلاد توجهوا إليه: وقد ذهب رئيس دير مونتى كاسينو خصيصاً إلى فرنسا وأقنع لودوفيكو بسهولة لكى يأتى. ونزل دون جيش كبير. وبعد أن توجه مع أتباعه وأتباع دوق سبوليتو نحو بنفنتو وهددها بالحصار، تفاوض معه راديلكى فى الخفاء. وذات ليلة، عمل على أخذ مسّار ورجاله المسلمين غدراً، وأرسلهم مكبلين إلى معسكر لودوفيكو؛ حيث قتلوهم جميعاً فى تبلد، عشية عيد العنصرة بضربات الرمح، دون أن يستثنى منهم مسّاراً الكريم. وبعد الخيانة والمذبحة، اللتين جعلتهما الضرورة تبدوان من الأعمال المقدسة، عُقد السلام بين سيكونولفو وراديلكى؛ وتم تقسيم الدويلة إلى إمارتين، بنفنتو وسالرنو؛ ومن بين الاتفاقيات الأخرى اتفق على أنه لا هذا ولا ذاك يجب أن يرتبط بمسلمى إيطاليا، ولا أن يقبل منهم أحداً، سوى أولئك الذين جاءوا قبل الحرب، إذا كانوا قد اعتنقوا المسيحية وظلوا متمسكين بها(1).

---

(1) راجع *Historiola ignoti Cassinensis*، الفصل الثامن عشر؛ إركمبرتى، *Historia*، الفصل التاسع عشر؛ يوهانيس دياكونى، *Chronicon Episcoporum* إلخ. لدى موراتورى، *Rerum Italicarum Scriptores*، المجلد الأول، الجزء الثانى، ص ٣١٦؛ أناستازى بيبليوتيكارى، *Epitome Chronicon. Cassenens*، لدى موراتورى، *Rerum Italicarum Scriptores*، المجلد الثانى، الجزء الأول، ص ٣٧٠؛ أندريا برسبيتيرى برجوماتيس *Chronicon*، § ١٣، لدى بيرتز، *Scriptores* المجلد الثالث، ص ٢٣٦. حيث يجب تصحيح التواريخ؛ أنونيمو سالرنيتانو، *Chronicon*، من الفصل ٦٦ إلى ٧١ من طبعة موراتورى، والفصل ٧٥ إلى ٧٩ من براتيللى و٨٢ وما يليه من بيرتز؛ أدونيس أركيبب، *Chronicon Viennensis*، لدى بيرتز، *Scriptores*، المجلد الثانى، ص ٣٢٣.

ولم يستطع عباس بن فضل، الذى كان يقاتل المسيحيين فى صقلية فى هذا الوقت، تجاهل الواقعة البشعة، فذهب بأسطوله فى العام التالى؛ وهبط إلى الأرض، وهزم المسيحيين فى مصادمات دموية؛ وأرسل رؤوس المقتولين إلى بالرمو، ليبرهن على أنه يستطيع الانتقام للدم المسلم: واستمر القائد الرهيب فى إفساد المحاصيل، والإغارة منتصراً على الأرياف، واعتقال الأسرى فى كل مكان؛ وعاد بهم إلى صقلية(1). وقد حاصروا مدينة تارانتو التى أفلتت من المسلمين فيما قبل واستولوا عليها بعد تجويعها، ولا أحد يعرف ما إذا كان هذا تحت قيادة قائد آخر قبل واقعة بنفنتو أم على يدى عباس بن فضل(2). وعند رحيل هذا القائد يبدو أنه ترك وراءه تعزيزات قوية

أنونيمو كاسينيزى لا يتفق مع سالرنتانو فى التفاصيل وفى اسم القائد الذى تعرض للخيانة، الذى يرى أنه هو نفسه أبولوفار، الذى تحدثنا عنه من قبل؛ ولكن يمكن أن يكون أحدهم قد أخطأ الاسم، والآخر لقب الشخص نفسه؛ أو أن هذين الشخصين ضحيتان للخيانة نفسها. وشهادة أناستازيو التى تحمل بالتحديد تاريخ ٨٥١، وشهادة المعاصر له أدونى رئيس أساقفة ڤيينا الذى يكتب عام ٨٥٠ بالتقويم الميلادى؛ ولقب إمبراطور الذى أطلقه معظم الناس على لودفيكو، وأسباب أخرى قد يطول شرحها، حملتنى على أن أحدد عام ٨٥١ لواقعة بنفنتو، مبتعداً بنفسى فى هذا عن رأى موراتورى، *Annali d'Italia* ، الذى يقول إنه عام ٨٤٨.

انظر الاتفاق الذى نشره أيضاً موراتورى بتاريخ ٨٥١، *Rerum Italicarum Scriptores*، المجلد الثانى، الجزء الأول، ص ٢٦٠، والصفحات التالية، وبراتيللى، *Historia Principum Langobardorum*، المجلد الثالث، ص ٢١٤ والصفحات التالية.

(1) **البيان**، المجلد الأول، ص ١٠٤، تحت عام ٢٣٨ (٢٢ يونيو ٨٥٢ إلى ١٠ يونيو ٨٥٣). وكما يقول هذا المؤلف النابه بصورة إيجابية إن عباساً أرسل الرؤوس إلى بالرمو وعاد بعد ذلك إلى صقلية، فإن من الواضح أيضاً أن المعركة كانت تدور فى البر الإيطالى.

(2) قبل مذبحة بنفنتو كتب أنونيمو كاسينيزى، يقول:
Hoc videlicet tempore Tarantum, fame obsessa, a Saracenis Capitur.
ولكنه لا يضع تاريخاً، ولا يريد الالتزام بترتيب الأزمنة. *Historiola ignoti Cassinensis*، الفصل السابع عشر.

فى بوليا وفى كلابريا(1)؛ حتى إن جماعة بارى استمرت وحدها فى التخريب لسنوات طويلة، وقد ازدادت قوة بهذه التعزيزات أو بمرتزقة آخرين.

وقد اغتصب قائد بارى الذى يدعى مفرج بن سالم سلطة الأمير؛ واستولى، حسبما تقول الحوليات المسلمة، على أربع وعشرين قلعة؛ وشيد فى بارى مسجداً كبيراً، وارتفع وتشامخ جداً حتى إنه كان يريد أن يستأثر بالحكم بعيداً عن خليفة بغداد: أو بمعنى أصح ألا يطيع أحداً. ولهذا الغرض كتب إلى حاكم مصر التابع للعباسيين فقرة من النفاق: أنه لا يشعر برضى الله عنه، ولا عن زملائه، وهو يحتفظ بذلك الإقليم دون تنصيب رسمى؛ ويطلب فى الوقت نفسه من الإمام أن يمنحه الحكم ويخرجه من عداد المغتصبين. ويضيف ابن الأثير الذى نسخ بالتأكيد هذه الصفحات من مذكرات قديمة، قائلاً إن رجال مفرج قد تمردوا بعد ذلك ضده؛ ثم قتلوه؛ ثم مات بعد ذلك الأمير الأغلبى محمد بن أحمد بن أغلب، الذى تندرج فى الإشارة إلى سيرته كل هذه الأحداث فى بارى؛ وهو لا يقول عنها غير ذلك(2). وقد ارتقى محمد العرش فى نهاية عام ثمانمائة وأربعة وستين، وفارقته الحياة فى أوائل عام خمسة وسبعين؛ وفى ذلك الوقت بالذات نحن نعرف أنه قد أطلق سراح السلطان من سجون راديلكى وعاد إلى رجاله الذين كان يقودهم آنذاك عدو له، كان هو قد أبعده عن الجماعة.

---

(1) ابن الأثير، المخطوطة *A*، المجلد الثانى، الورقة ٢٠، والمخطوطة C، المجلد الرابع، الورقة ٢١٥ الوجه الثانى، وهو يروى موت عباس ويذكر فضائله، كتب يقول إنه ضرب كلابريا ولونجوبارديا ووضح هناك جماعات مسلحة. ويبدو لى أن هذا يجب أن يرجع إلى هذا الوقت.

(2) ابن الأثير، المخطوطة *A*، المجلد الثانى، الورقة ١٩٨ الوجه الثانى، والمخطوطة C، المجلد الرابع، الورقة ٢١١ الوجه الأول.

وبالتالى فإن مفرج بن سالم هو ذلك الماكر الذى تحكى عنه الحوليات المسيحية الكثير من الأعاجيب، وسكت المسلمون عن هزيمته وسجنه. ولقب سلطان الذى اتخذه، أو الذي كان أتباعه يدعونه به، كان يتواءم تماماً مع سلطته تلك المشكوك فيها(1). ويفسر الاغتصاب لماذا تركه مسلمو صقلية وأفريقيا عندما أنهك المسيحيون قواه. ولم يتأخر سلطان بارى فى القيام بغارات على بوليا وكلابريا؛ والقيام بالسلب والنهب فى كل مكان؛ واحتلال القلاع هنا وهناك؛ وتجرأ على دفع رجاله بالخيول حتى نابولى وسالرنو. وعندئذ استدعى رئيس دير مونتى كاسينو من جديد الإمبراطور لودوڤيكو، الذى جاء إلى بوليا؛ وأراد أن يجمع قوات الإمارات اللونجباردية؛ وتُرك بمفرده تقريباً، للشك فى أنه كان يريد انتزاع الولاية من المسيحيين والمسلمين على حد سواء: ومن هنا قام بمحاولة لا جدوى منها على مدينة بارى وعاد وهو يغمغم إلى ما وراء الألب (٨٥٣)؛ وكان عليه أن يرى أيضاً إقطاعياً هارباً من حكم عليه لجأ لدى السلطان(2). واستأنف السلطان عندئذ تخريب ولاية بنڤنتو؛ ولم تجد هذه الولاية ملجأ آخر سوى الاتفاق مع المسلمين؛ ودفع الجزية؛ وتقديم الرهائن.

---

(1) دخل لقب سلطان متأخراً جداً فى القانون العام للمسلمين. وحتى منتصف القرن العاشر من تقويمنا نادراً ما نقابله لدى الكتاب العرب ودائماً ما نجده مستخدماً لوصف أمير فعلى. وبعد تفتت الخلافة أصبح يشرع هذا الاسم نحو نهاية القرن العاشر؛ وبعد ذلك جعله صلاح الدين لقباً لامعاً.

(2) راجع إركمبرتى، *Historia*، الفصل العشرون والتاسع والعشرون؛ *Historiola ignoti Cassinensis*، الفصل الثانى والعشرين. ويروى التاريخ فى فرنسا أن لودوڤيكو كان بالفعل قد فتح ثغرة فى بارى عندما أجل الهجوم لليوم التالى بدافع من الجشع وحتى لا ينهب الجيش المدينة، واقترح إبرام اتفاق؛ وقد أصلح المسلمون الأسوار فى الليل حتى إنه اضطر للرحيل. وهى إشاعة تكررت فى جميع الأزمنة لإخفاء خطأ مثل هذه العمليات. انظر موراتورى، *Annali*، ٨٥٢، وهو العام الذى تنسب إليه خطأ، فى اعتقادى، هذه الحملة.

وعندما توجه السلطان إلى الأقاليم الأخرى، فإنه عاث فساداً فى ريف كابوا وكونتسا والمنطقة الواقعة حول كوما وبوتسوولى ولاجوديباتريا، التى كانت تسمى فى ذلك الوقت ليبوريا أو لبوريا، وقد اتسع نطاق اسمها شيئاً فشيئاً ليصبح اسم اقليم وتحول إلى اســم تيرا دى لاڤورو، أرض العمــل(1). وفى النهاية جاء المسلمون إلى كامب نابولى، كما كانت تسمى البســاتين بين بوابة كابوا وســيبتو(2)حيث وقعت مذابـح رهيبـة (فى عـام ٨٦٠؟)؛ وكان السـلطان، كما يقـول أحد معاصريه، يجلس على أكوام من الجثث، وهو يأكل بينها بأسلوب مقزز. وعند عودته إلى داره من هذه الغارة، كاد يقع فى كمين. وبين البلدان الكثيرة التى اجتــاحها من هذا البحـر إلى ذاك، كــان هنــاك اثنــان من الإقطــاعيين الشــجعان، من كبــار الأعيان فى تليزى وبويانو، تجاسرا على خــوض مغــامرة الحـرب؛ واصطحبا معهما دوق سبوليتو بعد أن رجوه كثيراً وأعطوه أموالاً؛ ومع قوة كبيرة من الرجال تربصوا بجيش العدو، وقت غروب الشمس، بالقرب من بارى. وكانت فكرة جيدة نفذت أسوأ تنفيذ، كما يقول راوى أخبار مونتى كاسينو فى أسى. فعندما تنبه السلطان لوجــودهم، انقض عليهــم وأمـر على الفــور بالقتــــال. وكان اللونجارد والفرنجة يهاجمون وهم فى غاية الظمأ، ومنهكون من السير ومشتتون وقد نفد صبرهم. وقد هزمهم المسلمون الذين تجمعوا فى فرقة واحدة وقطعوهم إربا ثم دخلوا بارى. وبعد هذا النصر اتهم الســلطان أهل بنقنتو بأنهم حنثوا بالعهد، وهاجم من جديد ريفهم؛ ولم يترك أرضــاً لم

(1) انظر الدراســـة التى قام بها براتيللى فى هذا الشـــأن، *Historia Principum Longobardorum.* المجلد الثالث، ص ٢٤٢ والصفحات التالية.

(2) انظر ملحوظة براتيللى فى *Historiola ignoti Cassinensis*، فى المجموعة المشار إليها، المجلد الأول، ص ٢٢٢، ٢٢٣.

يلحق بها ضرراً ســوى المدن الكبيرة؛ واحتــل تليزى وأليفى وسيبينو وبويانو وإيزرنيا وكانوزا وكاستل ڤينافرو، ونهب سان ڤينشنسو فى ڤولتورنو، فهرب منه الرهبــان إلى مكان آمن، وأخذ منهم ثلاثة آلاف من العمــلات الذهبية، مهدداً بحرق الدير، ثم انتقل إلى كابوا وهو يصطحب وراءه العربات المملوءة بالغنائم، وجحافل المواشى والأســرى. وعندئذ نقل معسكره إلى تيانو. وهنا أرسل إليه دير مونتى كاســينو شـــماساً يدعى ريچينالدو، واتفق على دفع فدية ذلك الدير يبلغ مقدارها ثلاثة آلاف أخرى من العملات الذهبية؛ وتوجه السلطان صوب قلعة كونزا التى يقولون إنه حاصرها لمدة أربعين يوماً. وهذه الغارات الأخيرة كانت تتوالى بين خريف عام ثمانمائة وخمســة وستين ونهاية شتاء عام ثمانمائة وستة وستين. ويبدو أن محاولة تحديد تواريخ الغارات السابقة ضرب من العبث، لأن رواة الأخبــار لا يكتبــون الســنوات ولا يلتزمون بترتيب الأحداث(1). ومن المؤكد أنه لمدة أربع عشرة سنة كان ذلك الجزء الجميل من إيطاليا نهبا لبضعة آلاف من الناهبين الأغالبة. ولم تستثن صداقة جماعة صقلية نابولى من سلطان بارى، الذى كان قد قطع كل علاقة بالأغالبة، كما قيل سلفاً. وقد كان أمير سالرنو يتخذ موقفاً دفاعياً قدر المستطاع،

(1) راجع *Historiola ignoti Cassinensis*، الفصل الثامن والعشرون، والثلاثون والثالث والثــلاثون، والثغــرات الموجــودة به ينبغى تعويضها بالجـزء الذى أضــافه توستى فى الفصل الثلاثين، *Storia della Badia di Monte Cassino*، المجـلد الأول، ص ١٢٨؛ اركمبــرتى، *Historia*، الفصـــل التاســع والعشــرون؛ أناســتازى بيبليوتيكارى، *Epitome Chronicon. Cassenens.*، لدى موراتورى، *Rerum Italicarum Scriptores*، المجـلد الثــــانى، الجــــزء الأول، ص ٣٧٠؛ يوهــــانيس دياكــــونى، *Chronicon Episcoporum Sanctæ Neopolitanæ*، لـــدى مـــوراتورى، *Rerum Italicarum Scriptores*، المجلد الأول، الجزء الثانى، ص ٣١٦؛ أنونيمو سالرنيتانو، *Chronicon*، الفصل ٦٩ و٨٢، طبعة موراتورى، و٧٧ و٩٠ من براتيللى؛ *Chronicon Vulturnense*، لدى موراتورى، *Rerum Italicarum Scriptores*، المجلد

عن باري؛ واحتل كانوزا علي الجانب المقابل؛ وتمركز بين التلال في ڤينوزا مع معظم قواته، وبعد أن كسب شيئا فشيئا الأرض في عامين من المعاناة، شرع في محاصرة المدينة وإسقاط الأسوار بالآلات. وقد توقف الحصار عدة مرات، وحدث في عام تسعة وستين أنه عند انسحاب لودوڤيكو إلي بنڤنتو، خرج السلطان علي مؤخرة قواته؛ وأخذ منهم عددا كبيرا من الخيالة، وذهب لنهب دير سان ميكيلي في مونتي جرجانو. وبعد ذلك طلب المسيحيون في كلابريا مساعدات من الامبراطور وأقسموا له قسم الولاء والجزية، فانتهز الفرصة مرحبا وأرسل إلي هناك قوات قليلة قامت بجمع قوات كثيرة في البلاد. وهكذا هُزم فى كلابريا ثلاثة أمراء، من بينهم أمير يدعي شينشيمو، كان يحكم مدينة أمانتيا، حيث كان يريد الانتقام لرجاله، فهاجم المسيحيين؛ وقد تم صده فى المدينة؛ وعندما خرج من جديد ليحاول القيام بهجوم على معسكر لودوڤيكو، سبقه هذا الأخير وهزم المهاجمين(1). ومع ذلك، عندما رأى أنه لا جدوى من محاصرة بارى، إن لم تُمنع عمليات الإمداد والتموين والمساعدات من جانب البحر، انضم إلى باسيليوس المقدونى.

---

(1) راجع: *Historiola ignoti Cassinensis*، الفصل الخامس والسادس والسابع؛ إركمبرتى، *Historia*، الفصل الثانى والثلاثون والثالث والثلاثون؛ يوهانيس دياكونى، *Chronicon Episcoporum Sanctæ Neapolitanæ Ecclesiæ*، لدى موراتورى، *Rerum Italicarum Scriptores*، المجلد الأول، الجزء الثانى، ص ٣١٦؛ رچينونيس موناكى، *Chronicon*، سنة ٨٦٧، لدى بيرتز، *Scriptores*، المجلد الأول، عام ٥٧٨؛ أندريا برسبيتيرى بيرجوماتيس، *Chronicon*، § ١٤ و١٥، لدى موراتورى، *Antiquitates Italicæ* ، المجلد الأول، ولدى بيرتز، *Scriptores*، المجلد الثالث، ص ٢٣٦؛ *Adonis Archiepiscopi Viennesis Chronicon*، لدى بيرتز، *Scriptores*. المجلد الثانى، ص ٢٩٣؛ *Annales Bertiniani*، لدى موراتورى، *Rerum Italicarum Scriptores*، المجلد الثانى، الجزء لأول، ص ٥٥٤.

بمجرد أن اعتلى باسيليوس العرش (٨٦٧)، ولمعرفته بأن مسلمى تارانتو، وربما كريت، قد استولوا على بعض المدن فى دالماتسيا وضموا إليها راجوزا، أرسل إلى هناك القائد نيكيتا أوريفا ومعه مائة مركب، ولم يتوقع المسلمون وصوله(1). وحين أراد أن يخرجهم من أعشاشهم على السواحل الإيطالية، طلب المقدونى من جديد أو قبل التحالف مع لودوڤيكو، الذى كان يسيطر على الأرض وهو على البحر. وبالتالى فقد تعاون هو بقوات بحرية، سواء فى البحر الأدرياتيكى أو البحر التيرانى، حيث كان وجوده ضرورياً هناك أيضاً. لأن محمداً ابن أمير صقلية خفاجة، فى شهر يوليو عام ثمانمائة وثمانية وستين، عندما خرج من بالرمو بالأسطول، كان ذاهباً لحصار جاييتا؛ حيث نشر خيالته فى الإقليم، وجمع غنائم كثيرة للغاية، ثم قفل عائداً فى شهر أكتوبر(2). وبهذا يبدو أن جماعة صقلية قد عاقبت تلك المدينة لأنها أطاعت الإمبراطور وربما ساعدته بالسفن. وكانت نابولى، على العكس من ذلك، تبدو فى ذلك الوقت كما لو كانت بالرمو أو أفريقية(3)، كما نقرأ فى رسالة منسوبة

---

(1) *Theophanes continuatus*، الكتاب الخامس، الفصل ٥٣ و٥٤ و٥٥ مع تصحيح العديد من المفارقات التأريخية بشأن مجئ المسلمين إلى إيطاليا. واعتقد أن مهاجمى دالماتسيا هم أولئك الذين جاءوا من تارانتو، لأن بارى كانت محاصرة بالفعل. كوستانتينوس بورفيروجينيتوس، *De Admin, Imperio*، الفصل التاسع والعشرون؛ و*De Thematibus*، الكتاب الثانى، الفصل الحادى عشر.

(2) ابن الأثير، المخطوطة *A*، المجلد الثانى، الورقة ٣٣ الوجه الأول، والمخطوطة C، المجلد الرابع، الورقة ٢٢١ الوجه الأول. واسم جاييتا مكتوب دون نقاط بالحروف، ولكن لا يمكن الخطأ فيه. وسبب هذا العمل العدائى الذى لم يذكره أى راو للأخبار، يبدو لى واضحاً.

(3) افريقيا وضعت هنا كما هو واضح كاسم مدينة. ولكن مدينة المهدية التى كان المسيحيون يسمونها عامة أفريقية، أسست فى القرن العاشر؛ ولم يطلق هذا الاسم أبداً على القيروان عاصمة أفريقيا أو أفريقية الأصلية، تحت حكم الأغالبة. وهذا يؤكد الشك فى أن الرسالة قد كتبها أو على الأقل حرّفها وزينها على طريقته أنونيمو سالرنتيانو الذى كانت المهدية فى عصره مشهورة جداً فى البحر المتوسط.

للإمبراطور لودوفيكو. فقد وجد قراصنة بالرمو الذين كانوا يعيثون فى الساحل كله وبخاصة فى ولايات البابا، فى نابولى، وجدوا مرشدين مهرة يقودونهم؛ وكانوا يشترون منها الأسلحة والمؤن لبيعها فى بارى وتارانتو؛ وعند تعقبهم كانوا يلجأون إلى ميناء نابولى وكانوا يخرجون من جديد للسلب والنهب. وعبثاً حذر الإمبراطور وصرخ الأسقف وشكا العديد من النبلاء فى المدينة: حيث إن قنصل نابولى لم يأبه بلودوفيكو، وسجن الأسقف وعندما أطلق سراحه بعد ذلك أجبره على الهروب؛ وفيما يتعلق بنبلائه الأتقياء، فقد وضعهم فى السجن والأغلال فى أقدامهم. وكان القائد چورچو، الذى أوفده باسيليوس مع أسطول صغير من القوارب لتأمين تلك الشواطئ يقوم بما يستطيع عمله ولكنه كان قليلاً جداً.

وقد تحرك أهل ڤينسيا عندما علموا أن العدو قد قام بالجلاء عن دالماتسيا، وربما تفرق، وأن نيكيتا أوريفا يتعقب أهل كريت. ولكن الدوج أورسو، الذى هرع بالأسطول إلى تارانتو، محا بانتصاره فى عام (٨٦٧) هزيمة رجاله فى عام اثنين وأربعين. وبعد ذلك بعامين أو ثلاثة، نزل رجال الأسطول البيزنطى على الأرض فى بارى، مع تعزيزات من السلاف والكروات، وسفن من راجوزا، وقاموا ببعض الهجمات وسرعان ما انسحبوا لخلاف نشأ مع الفرنجة واللونجوبارد: فقد اتهم هؤلاء البيزنطيين بالقتال دون جدية؛ واتهمهم الآخرون أيضاً بأنهم حفنة من الرجال تمكث هناك، للتسلية والملذات، وأنهم هكذا لن يقتحموا المدينة. وقد تشاجر نيكيتا مع الإمبراطور؛ وبعد ذلك، عندما عاد إلى القسطنطينية أشعل أقاويل دبلوماسية بين باسيليوس ولودوفيكو: تبادل اللوم بسبب مسار الحرب، وتعنت حول الألقاب، وما إذا كان أولهما يجب أن يسمى إمبراطور الفرنجة أم إمبراطور الرومان، وما إذا كان الآخر يجب أن يحتفظ باللقب اليونانى باسيلى؛ وقد أثبتت تلك التفاهات فقط أن الاتفاق بين

الاثنين القويين كان يتبدد عندما يكون النصر فى متناول اليد. ولكن لودوفيكو، مع تلك الحفنة من المقاتلين المرحين دخل بارى بقوة السلاح، فى الثانى من فبراير عام ثمانمائة وواحد وسبعين. وقام بمذبحة كبيرة فيها؛ نجا منها السلطان، لأنه تحصن داخل أحد الأبراج، واستسلم لأمير بنڤنتو، الذى كان مَديناً له، كما يقال، بسبب ابنته التى كانت فى يد السلطان، رهينة أو أسيرة وحماها ذلك الأمير كأنها ابنته. وقد ترك لودوفيكو رجالاً حاصروا تارانتو وقلاع المسلمين الأخرى فى كلابريا؛ وأرسل قوات لتخريب أراضى نابولى، ونشر شائعة بأنه يريد كسر تلك الصداقة المحرمة مع المسلمين؛ وكان يتحدث عن نزوله قريباً إلى مناطق كلابريا، والانتقال إلى صقلية: وهو ما يعنى أنه كان ينوى جنى ثمار انتصاره وأن يحكم بالاسم والفعل فى إيطاليا الجنوبية(1).

ولم يُخف الحماس ضد السراسنة نوايا لودوفيكو هذه، وقد أدركها الحكماء، وكانت واضحة أيضاً للشعب، بسبب غطرسة البارونات القادمين من وراء الألب؛ والإهانات؛ واحتقار اللونجوبارد الذين كانوا زملاءهم فى النصر منذ قليل؛ وصفاقة الإمبراطورة نفسها، التى يروى عنها أنها كانت تقول لنساء بنڤنتو النبيلات إن رجالهن لم يعرفوا الإمساك بالدروع. ولذلك لم يستطع لودوفيكو الذى هجره الإيطاليون محاصرة مسلمى كلابريا. وتحولوا بعد ذلك من الهمس إلى المكائد. واتفق أميرا بنڤنتو وسالرنو معاً ومع أمير نابولى؛ وربما شجعهم قادة الأساطيل البيزنطية الصغيرة، وحرضهم على هذا، كما نقلت الشائعات، السلطان الأسير.

(1) راجع: إركمبرتى، *Historia*، الفصل الثالث والثلاثون؛ أنونيمو سالرنيتانو، *Chronicon*، الفصل ٨٧ إلى ١٠٨ من طبعة موراتورى، و١٠١ إلى ١١٦ من براتيللى؛ يوهانيس دياكونى، *Chronicon Venetum*، الموضع المذكور؛ يوهانيس دياكونى، *Chronicon Episcoporum Sanctæ Neapolitanæ Ecclesiæ* الموضع المذكور، *Chronicon Vulturnense*، الموضع المذكور؛

وقد كان هذا السلطان يبهر أولئك الأمراء المسيحيين الخشنين ببراعته ومستوى تحضر رجاله الرفيع. وقد كتب قسطنطين بورفيروجينيتو(1)، الذى كانوا ينصتون إليه باعتباره مرجعاً فى مجال الطب والطب البيطرى، وكان كاتباً إيطالياً، كتب أن أديلكى، الذى ألقى بنفسه فى مؤامرة ضد الإمبراطور، سأل المسلم النصح فحذره هذا أولاً بقوله: "احترس جيداً لما تفعله لأن المسلمين يعلمون أننى لازلت حياً" وعندما رد عليه الأمير بأن له شركاء كثيرين، اختتم السلطان حديثه قائلاً "إن كان هكذا، أتمم مخططك وبسرعة: وإلا فإنهم سيكشفون أمرك". وتحكى عنه نوادر أخرى منها: أنه طوال الوقت الذى كان فيه فى السجن، كان عبوساً وحزيناً؛ ولكنه فى يوم من الأيام، وفى وجود لودوڤيكو، انفجر ضاحكاً، وهو يرى عربة تسير فى الطريق. وعندما سئل عن السبب فى ذلك، رد قائلاً: «إننى أفكر فى حظ الناس الذى يدور مثل تلك العجلات». ويضيفون

Cronica Varia Pisana، لدى موراتورى، *Rerum Italicarum Scriptores*، المجلد السادس، ص ١٠٧، أندريا برسبيتيرى برجوماتيس، *Chronicon*، الكتاب المذكور، كونستانتينوس بروفيروجنتيس، *De Administrando Imperio*، الفصل التاسع والعشرين، و*De Thematibus*، الكتاب الثانى، الفصل الحادى عشر. *Continuazione di Teofane*، مع مفارقة تأريخية متعمدة، تنسب إلى البيزنطيين الاستيلاء على بارى، التى احتلوها بعد ذلك بسنوات عديدة.

وقد استخلصت العديد من التفاصيل من رسالة لودوڤيكو إلى باسيليوس، التى أدرجها أنونيمو سالرنيتانو ونشرها بارونيو وآخرون. وقد أقريت بالأحداث، مهما بدت لى الرسالة غير أصلية. وقد أقريت بها لأن المؤلف، أياً كان، استطاع أن يحصل عليها من روايات مثل كثيرين آخرين لا يقعون فى الشك؛ أو ربما كانت هذه الأحداث موجودة فى الرسالة الأصلية التى قدم تأويلا لها. ثم إن هذا يبدو لى تأويلا، لأن فيه ذكر لمدينة أفريقيا كما ذكرت سلفا. وللشروح اللغوية الزائدة الموجودة فيها. وأرى ما يؤكد تحريف خاتمة الرسالة، التى يقول فيها لودوڤيكو، لكى يحمل باسيليوس على تقديم مساعدات بحرية له، يقول إنه ينوى أن يخضع نابولى ويفتح صقلية؛ وكانت أولاهما تعترف باسم إمبراطور القسطنطينية، بينما كانت الثانية ملكه جزئياً، حيث كان يمتلك فيها سيراكوزا وكتانيا وكل المنطقة الشرقية تقريباً.

(1) *De Administrando Imperio*، الفصل التاسع والعشرون.

قائلين إنه بخداعه أوهم لودوڤيكو بمكائد اللونجوبارد وأوهم هؤلاء بانقلابات للإمبراطور، حتى إنه تسبب فى اشتباكهم معاً(1). وفى هذا بالطبع حقائق وأكاذيب. ولا تبدو ألفة هؤلاء الكبار مع السلطان مستبعدة، فى الوقت الذى بددت فيه ثلاثون سنة من الحرب والاتفاقات والاتحادات والتجارة الكثير من الأحكام المسبقة بين المسلمين والمسيحيين فى إيطاليا. وهو ما يصلنا أيضاً من جهات أخرى. فقد كان هناك مسلم من أفريقيا، وكان قبل ذلك بعدة سنوات فى سالرنو لشئونه الخاصة، وعندما وجد نفسه فى وطنه فى ذلك الوقت، اقترب من تاجر من مدينة أمالفى، وسأله ما إذا كان يعرف جوايفريو، أمير سالرنو، وعندما رد عليه بالإيجاب، تنحى به جانباً وقال له: "هنا الناس تتسلح ضد سالرنو، أقسم لك بابن مريم الذى تعبدونه مثل الله، اذهب سريعاً وأخبر جوايفريو بذلك؛ وإذا سألك ممن يأتى التحذير، ذكره بأن أحد المسلمين كان يجلس فى ذلك اليوم فى ساحة سالرنو بينما كان الأمير عائداً من الحمام؛ وطلب منه المسلم أن يتكرم ويعطيه المنديل(2) الذى كان يلف به رأسه؛ فأهداه الأمير إياه فى الحال ورد عليه هكذا وهكذا، وعاد إلى القصر عارى الرأس. وذلك المسلم هو أنا". ونحن نقرأ هذه الرواية فى أخبار أنونيمو سالرنيتانو، الذى اعتاد جمع الحكايات المأخوذة من القصص الشعبى. ولكن الواقعة تبدو حقيقية فى الظاهر؛ حتى إن أنونيمو يذكر اسم مواطن أمالفى

---

(1) راجع: إركمبرتى، *Historia*، الفصل الرابع والثلاثون؛ أنونيمو سالرنيتانو، *Chronicon*، الفصل ١٠٩ لموراتورى و١١٧ لبراتيللى؛ *Theophanes continuatus*، الكتاب الخامس، الفصل ٥٦ و٥٧؛ كونستانتينوس بروفيروجنيتوس، *De Administrando Imperio*، الكتاب المذكور.

(2) *Fasciolum*. أراد البعض أن يستخلص من ذلك أن أمير سالرنو كان يضع نوعاً من العمامة؛ ولم يفكر أحد فى أنه كان يمكن أن يكون عائداً من الحمام، وربما من البحر، بالمنديل الذى كان يضعه على رأسه أثناء العمام.

واسم المسلم: فكان أحدهما يدعى فلورو، والآخر أرانى، ومن الواضح أن اسمه العرقى هو حرانى(1).

وقد تسارع التآمر، طبقاً للنصيحة المنسوبة إلى السلطان. وفى شهر أغسطس عام ثمانمائة وواحد وسبعين، بينما كان بارونات لودوفيكو القليلون منتشرين هنا وهناك فى قلاع الدولة، والإمبراطور فى بنفنتو مع حفنة من رجال البلاط، هاجم رجال أديلكى القصر: وبعد أن تحصن الإمبراطور فى أحد الأبراج دافع عن نفسه بشجاعة لمدة ثلاثة أيام، وفى النهاية استسلم أسيراً لتابعه، الذى كان قد حرره قبل ذلك بستة أشهر من المسلمين. وبالتالى فإن الناس فى جميع أنحاء إيطاليا نسوا كما يحدث دائماً أخطاء لودوفيكو وتعلقوا بأفضاله؛ ومزقت الأوراق التى تتحدث عن نكران الجميل والغدر اللذين اتسم بهما أمير بنفنتو، حتى فى أبيات شعرية حزينة باللغة اللاتينية يُحتفظ بنصها(2). وكان يجرى الاستعداد فيما وراء الجبال للانتقام البشرى، عندما انفجر الانتقام الإلهى، كما يقول إركمبرتى، خلال أربعين يوماً، على أيدى السراسنة، الذين هجموا من جديد على إيطاليا. وعندئذ فكر أديلكى فى التخلص من حرج جسيم بالإفراج عن الإمبراطور؛ وجعله يقسم على الصفح عن الإهانة. فكان خائناً عندما أسره؛ وأبله عندما تركه يرحل. وإذا كان قد خرج من هذا الموقف سالماً، فهذه ضربة حظ(3).

---

(1) أنونيمو سالرنيتانو، *Chronicon*. الفصل ١١٠ و١١١ من موراتورى و٩٨ و٩٩ من براتيللى.

(2) نشره موراتورى، *Antiquitates Italicæ*. المبحث رقم ٤٠.

(3) راجع: إركمبرتى، *Historia*. الفصل الرابع والثلاثون، أنونيمو سالرنيتانى، Chronicon، الفصل ١٠٩ من موراتورى، والـ ١١٧ من براتيللى؛ *Chronicon comitum Capuæ*، الفصل الخامس، لدى براتيللى، *Historia Principum Longobardorum*، المجلد الثالث، ص ١١٢ والمصادر التى ذكرها موراتورى، *Annali d'Italia*، عام ٨٧١ و٨٧٢.

ويبدو أن جماعة مناطق كلابريا المسلمة، التى لم تنفصل أبداً عن الوطن الأم، اعتقاداً منها أنها مهددة بعد اقتحام بارى، يبدو أنها طلبت مساعدات من صقلية وأفريقيا؛ حيث جرى الاستعداد للحملة التى أبلغ بها أمير سالرنو، بين الشعور الوطنى والدينى وقوة العائلات ذات المصلحة. وقد وافق سيد العرانق الأبله كما كانوا يسمون الأمير الأغلبى محمد بن أحمد، الذى كان مثقفاً وعبقرية حية وشاعراً جيداً وقناصاً وشريباً ومسرفاً، وافق وسط ملذاته على مخطط كبير رسمه بالطبع أشراف القيروان؛ وقد تألف من أجله جيش إيطالى من عشرين أو ثلاثين ألف رجل، وتحاشيا للخلاف بين هذا الجيش والجيش الصقلى، عهد بهما لشقيقين، هما عبد الله ورباح، ابنا يعقوب بن فرازة، قريبا عباس بن فضل الذى ذكرنا أعماله العظيمة فى صقلية. ولكن عبد الله ورباح، فى الوقت نفسه، كانا قد عينا واليين، أحدهما على الأرض الكبرى، والآخر على الجزيرة(1). وقد نزل عبد الله، كما يبدو، فى تارانتو: ومن هناك دخل مع كل الجيش أراضى سالرنو، فى شهر سبتمبر من عام ثمانمائة وواحد وسبعين(2).

وقد نشر الدمار، واقترب من سالرنو: وعندما رأى أمير هذه المدينة وأمير بنفنتو اللذين كانا قد جمعا رجالها، إنهم غير كافين

---

(1) الكتاب العرب يذكرون لنا ذلك اللقب وذلك الطبع للأمير الأغلبى: واختيار الشقيقين كما ذكرت من قبل (الفصل السابع، من هذا الكتاب، ص ٣٥٣، الهامش٣. والمسيحيون يذكرون، مع شئ من الاختلاف فيما بينهم، عدد الجيش المسلم. ويحصى منهم أندريا راهب بيرجامو ٢٠ ألفاً حاربوا فى كابوا ويضيف قائلاً إن المسلمين رفعوا عدد الجيش عندما سمعوا عن اقتحام بارى، معداً ذلك شيئاً مشيناً لأهلها. إركمبرتى وأنونيمو ساليرنيتانو يذكران أن الجيش بلغ ٢٠ ألفاً.

(2) التاريخ مستخلص من أندريا راهب بيرجامو. وأنونيمو ساليرنيتانو يقول صراحة إن الجيش جاء عن طريق كلابريا.

لمواجهة المعركة، تحصنوا فى المدن؛ وهكذا تفرق العدو أيضاً. وشرع عبد الله الذى عسكر تحت سالرنو فى محاصرة المدينة: وجرى بعض الخيالة حتى نابولى؛ وزحفت فرقتان قويتان، إحداها على بنفنتو والأخرى على كابوا: وقد هزمت الأولى على يدى أديلكى وقتل منها ثلاثة آلاف رجل؛ وشتت أهل كابوا جمع الثانية وفقدت ألف رجل. وفى سالرنو كان جوايفريو يدافع عن نفسه بشجاعة؛ فكان يصد المهاجمين ويواجه الآلات بالآلات، ويقوم بهجمات مباغتة؛ وخرج محاربون من الأبواب يتحدون المسلمين فى المبارزة: وهى أدلة قوية، وحقيقية بالتأكيد، على الرغم من أن أنونيمو يظهرها لنا فى زخرف ملحمى مبالغ فيه. ومن بين القصص الأخرى التى تشبه حدثاً من أحداث «القدس المحررة» يذكر شخصاً يدعى لانديمارو، هبط من السور ومعه بلطة وقام بكل شئ بمفرده لتدمير منجنيق هائل(1). ولكن المدينة بدأت تعانى من الجوع عندما أمدها بالمؤن بشجاعة رائعة مارينو دوق أمالفى، بعد أن أنهى الاتفاق الذى كان يربطه قبل ذلك بالمسلمين. وفى الأرياف كانت مذبحة رهيبة للفلاحين، وكان تبديد الممتلكات، وانتهاك حرمة الكنائس. وكان عبد الله، حسبما يقول أنونيمو، قد أخذ فى الإقامة فى كنيسة سان فورتوناتو، وكان يدنسها بالفضائح والمساوئ. ووضع السرير على المذبح(2).

(1) *Ut machinam quam nos Petrariam nuncupamus construerent miræ magnitudinis et valde turrim unam quæ nunc dicitur Solarata attererent,* هكذا كتب أنونيمو ساليرنيتانو. أنظر الفصل التالى، ص ٤٥٦ - ٤٥٧.

(2) *... atque in Luxuriis et variis inquinamentis fervebat in tantum, ut ille Abdila thorum sibi parari jusserit super sacratissimum altare; ibique puellas, quas nequiter depredaverat, opprimebat. Sed non diu etc.* ولكن الكاهن مبتدع هذه الأسطورة لم يكن يعرف أن الشرقيين ينامون على البسط المفروشة على الأرض؛ وأن عبد الله كان يبلغ من العمر ستين أو سبعين سنة.

وأحياناً كان يجلب إليه فتيات مسيحيات؛ حتى وقعت بعض العوارض الخشبية من السقف وحررت عذراء جميلة، وقتلت الطاغية دون أن يمسها؛ وكان لايزال يُرى أيام راوى الأخبار المكان الذى انفصلت منه العارضة، واقتنع الجميع بالمعجزة. والأسطورة هنا، بين الاختلاقات التى يلاحظها كل شخص، تنقل حدثاً حقيقياً، لأن الحوليات المسلمة تقول إن عبد الله، قائد الأرض الكبرى مات فى هذا الوقت وبالذات فى شهر صفر من عام مائتين وثمانية وخمسين، أى بين ديسمبر من عام ثمانمائة وواحد وسبعين ويناير من عام اثنين وسبعين(1).

واستمر المسلمون فى حصار سالرنو، بعد أن تولى القيادة من جديد شخص يدعى عبد الملك(2): وكانت المدينة على وشك أن تفتح أبوابها بعد أن خضعت للحصار والجوع لمدة عام.

ولم يكن لودوفيكو، فى هذه الأثناء قد خرج من إيطاليا. وعندما رجاه بحرارة رُسُل جوايفريو وأسقف كابوا، واعتقاداً أن السالرنتانى متواطئ فى عمل أديلكى الإجرامى، اعتذر؛ ثم دفعه طبعه الكريم، أو الأمل فى استكمال المخطط القديم لتقديم المساعدة. وأرسل جنوداً يقودها الشاب الصغير جونتار قريبه؛ وعندما جاء إلى كابوا، اجتمع مع المواطنين، حتى إن رهباناً كانوا يتسلحون أيضاً للذهاب للقتال، ووجد ما يقرب من عشرة آلاف من المسلمين غير بعيدين عن المدينة، فى مكان يسمى سان مارتينو. وعلى الرغم من وجود ضباب كثيف، دخل جونتار؛ وشتت

(1) النويرى **والبيان**، المذكوران عاليه، الفصل السابع، ص ٤١٤.

(2) انونيمو سالرنيتانو يسمى القائد السابق *Abdila* عبد الله، وهذا *Abemalech* ابى مالك ويلاحظ فى سالرنو أن أسماء الأشخاص لم تتغير كثيراً، لكثرة التجارة مع المسلمين.

جموع المسلمين وسقط قتيلاً بصورة كريمة فى الميدان. وقد أبيد كل هؤلاء بالسيف أو غرقوا فى نهر ڤولتورنو. وهناك فرقة أخرى، تعقبها الجيش المنتصر بالقرب من بنڤنتو وكسرها كذلك؛ وعاش منها قليلون ذهبوا لبث الرعب فى الجيش المعسكر جنوب سالرنو: وكانوا يقولون إن الإمبراطور كانت تنتظره أياماً عظيمة، هو ومعه كل الجيش المسيحى. وعبثا أصدر عبد الملك الأوامر وترجى، وكان يذكّر أتباعه بأن المدينة كانت تتفاوض بالفعل على الاستسلام. واعتقله المتمردون ووُضع بالقوة فى السفينة وأبحروا بها؛ وجاء الشهاب النارى المعتاد ليثير عاصفة ابتلعتهم. وهكذا بالغ المسيحيون وتضاربت أقوالهم؛ لأن البعض أضافوا قولهم إن فلول الجيش المسلم انسحبت إلى كلابريا فى هرولة(1). وتشير الحوليات الإسلامية إلى انتصارات عبد الله على الأعداء ثم تلوذ بالصمت(2). ولكن *Cronaca di Cambridge*، التى كتبها بالعربية مسيحى من صقلية، تذكر إبادة الجيش المسلم فى سالرنو(3). ولكن التفاصيل مشكوك فيها، فى حين كانت النهاية التعسة للعملية مؤكدة جداً، فى شهر أغسطس عام ثمانمائة واثنين وسبعين.

---

(1) راجع: إركمبرتى، *Historia*، الفصل الخامس والثلاثون؛ يوهانيس دياكونى، *Chronicon Episcoporum Sanctæ Neapolitanæ Ecclesiæ*، لدى موراتورى، *Rerum Italicarum*، المجلد الثانى، الجزء الأول، ص ٣١٧؛ أنونيمو ساليرنيتانو، *Chronicon*، طبعة موراتورى، الفصل ١١١ و١٢١، ومن براتيللى، الفصل ١١٩ إلى ١٢٩؛ *Chronicon Comitum Capuæ* ، الفصل الخامس، لدى براتيللى، المجلد الثالث، ص ١١٢؛ ولدى بيرتز، *Scriptores*، المجلد الثالث، ص ٢٠٥؛ وأندريا برسبيتيرى بيرجوماتيس، *Chronicon*، الفصل الخامس عشر، لدى بيرتز، *Scriptores*، المجلد الثانى، ص ٢٣٦؛ يوهانيس دياكونى، *Chronicon Venetum* الذى يذكر الهزيمة الرئيسة فى تيراتشينا، وعدد القتلى ١١ ألفاً، لدى بيرتز، المجلد السابع، ص ١٩؛ والمؤلفون الآخرون الذين ذكرهم موراتورى، *Annali d'Italia*، اعوام ٨٧١ و٨٧٢ و٨٧٣.

(1) **البيان**، المجلد الأول، ص ١٠٩.

(2) *Chronicon Cantabrigiense*، لدى جريجوريو، *Rerum Arabicarum* ص ٤٢، تحت عام القسطنطينية ٦٣٨٠ (٨٧١ ـ ٨٧٢).

وكان حقيقياً أن هذه الحرب الأخيرة خاضتها جنود إيطالية، معظمها من الجنوب، من سبوليتو وكابوا وسالرنو وبنڤنتو، حتى إن لودوڤيكو بعد الانتصارات الأخيرة لأتباعه، لم يستطع حتى الانتقام من أديلكى، كما كان يريد، وذهب لمحاصرة بنڤنتو. وعندما عاد أدراجه، أخذ يتأرجح بين أعمال الإحسان، ومات بالقرب من بريشا فى أغسطس من عام ثمانمائة وخمسة وسبعين. ولم يستطع طرد المسلمين من إيطاليا وتوحيد شبه الجزيرة من الألب وحتى المضيق تحت صولجان الإمبراطورية؛ وهو مالم تتح فيه فرصة مواتية أكثر من ذلك لأى إمبراطور آخر من شارلمان وحتى فيدريكو دى زڤيڤيا. وفى الحقيقة، تبدو العناصر السياسية بإيطاليا فى عصر لودوڤيكو ضعيفة أكثر من أى وقت مضى: كانت هناك جمهوريتان اثنتان فقط لبعض الوقت، ڤينسيا ونابولى، وكان الاقطاعيون الكبار، من شمال نهر التيبر مطيعين، وفى الجنوب منقسمين؛ وكانت البابوية متعبة من الجهد الذى بذلته للوصول إلى السلطة الزمنية: ومن ناحية أخرى، أراد القدر ألا يحكم أحد فى ذلك الوقت، لا أدريانو الأول ولا إلدبراندو؛ وقد عاش ليونى الرابع قليلاً، وهو رجل قوى بلا عجرفة. ولم تشغل لودوڤيكو، كما حدث لآخرين، أمور ما وراء الألب: وكان شجاعاً ومثابراً فى الحرب؛ وأكثر ميلاً للعدل، ورجلاً بلا رذائل كبيرة ولا فضائل فائقة؛ وكان يتمتع بقدرة متوسطة فى كل شئ. ولذا فقد كفاه أمراء إيطاليا الجنوبية لعرقلة مخططه هذا، بالمناورات التى ذكرتها، ولم ينطق البابوات بحرف واحد لصالح حملة لودوڤيكو، على الرغم من أنهم رجال متوسطون هم أيضاً، يتحركون بقوة القصور الذاتى، بعد أن انسحبوا من العديد من الأقطار فى إيطاليا وروما.

الفصل التاسع

يشير ابن الأثير إشارة خاطفة في ترجمته المذكورة للأمير الأغلبي محمد بن أحمد إلى أنه خلال توليه الحكم (من ديسمبر ٨٦٤ وحتى فبراير ٨٧٥) «احتل اليونانيون العديد من الأماكن في صقلية وأن محمداً أمر بتشييد مراكز حراسة وقلاع على الشريط الساحلي بأفريقيا». ثم ينتقل من تدوينه للحوليات إلى الاهتمام بأمور المسلمين في مدينة باري(1).

ويشير كاتب **البيان**، كما لاحظنا أيضا، إلى أن الأخوين اللذين كان أحدهما قائد صقلية والآخر قائد الأرض الكبرى استطاعا أن يستنزفا قوة المسيحيين ويضعفونهم في عدة معارك شرسة، وكان هذا عام مائتين وسبعة وخمسين (٨٧٠-٨٧١)، دون أن يضيف شيئا آخر(2). ومع ذلك، نرى أن تعاقب الحكام في صقلية كان سريعا. وكما قلنا، فقد تولى محمد بن حسين مهام الحكم لفترة قصيرة جدا بعد أن اختارته جماعة المسلمين حال وفاة محمد بن خفاجة. كما أن رباح بن يعقوب بن فزارة، والذي عينه أمير أفريقيا وتوفي نحو نهاية عام ثمانمائة وواحد وسبعين، حل محله. بانتخاب جماعة المسلمين . أبو عباس بن يعقوب بن عبدالله الذي توفى بعد مضى شـــهر واحد(3) من توليه الحكم. وعلى مايبدو فقد خلفه آخـــر باســـم أحمد بن يعقوب، وكان شـــقيقه، أو ربما

---

(1) ابن الأثير، المخطـــوط(A)، المجـــلد الثـــاني، ورقة ١٩٨الوجه الأول، والمخطـــوط(C)، المجـــلد الرابع، ورقة٢١١، تكرر ذكر هذين الحدثين عند ابن خلدون، *Histoire de l'Afrique et de la Sicile* ص١١٧.

(2) **البيان**، المجلد الأول، ص ١٠٩.

(3) النويري، لدى دي جريجوريو، *Rerum Arabicarum*، ص ١١، وفقا للاسم الذي

كان من عائلة أخرى. فقد اختلف كاتبو الأخبـــار فى هذا الصدد(1) وبوفاة أحمد في عـــــام مائتين وثمانية وخمسين من الهجرة (١٧ نوفمبر٨٧١- ٥ نوفمبر ٨٧٢) أخـــذ مكانـــه ولده ويدعى حســين،

ذكره النويري فلم يكن أبو عباس شقيق رباح، حيث ان يعقوب والد رباح كان يُطلَق عليه ابن فزاره، وإنما يبدو أنه كان ينتمي إلى عائلة أخرى. ربما كان ذات الشخصية التي قفزت إحدى المدونات التاريخية عدة أجيال وصولا إلى أصل عائلته بينما أعطت مدونة أخرى مجرد اسم أبيه فقط.

علاوة على ذلك، ولما كان النويري يذكر لقب العائلة والكُنية وهي أبا عباس في هذه الحالة، ولا يذكر اسم الشخص ذاته، فمن الجائز أن يكون أحمد هو الشخصية نفسها التي يشير إليها ابن الأثير **والبيان**، المواضع المذكورة، ويذكر رامبولدي في *Annali Musulmani*، عام ٨٧٢، أن أبا عباس توفي إثر سقوطه من فوق ظهر جواد، ويستشهد بالنويري الذي لا يعلم شيئا عن ذلك

(1) النويري، الموضـــع المذكور، يذكر أن البديل لأبي عباس بن يعقوب بن عبدالله كان أحد أشـقائه، ولكنه لم يذكر اســمه، أو على الأقـل لانجد اســمه في المخطوطات. وفي مخطـــوطة آخري لابن الأثير، المجلد الثاني، ورقة٨١ الوجه الأول عام ٢٥٧، ودون ذكر الحـــكام الذين ذكرهم النويري بعد موت محمد بن خفـــاجة، يقـــول ابن الأثير إن أحمد بن يعقوب بن مضحي بن ســـلمى خلف محمد بن خفاجة ولكنه «لم يعش طويلا إذ مــات عـــام ٢٥٨هـ». ويذكر كتاب **البيان**، المجـــلد الأول، ص١٠٩ اسم أحمد بن يعقـــوب خلفـــا لمحمد بن خفـــاجة، ويقـــول إنه شـــقيق أمير الأرض الكبـــرى، ولكنه لا يتعمـــق أكثـــر من ذلك في أصـــــل العائلة ويقول إن وفـــاته كانت عـــام ٢٥٨، وإن ولده حسين حـــل محـــله.

ويذكر أبو الفـــدا في كتـــابه *Annales Moslemici* عـــام ٢٥٧، يذكر اســـم أحمد ابن يعقـــوب بديلا مباشرا لمحمد بن خفاجة.

ووسط هذا التفاوت بين المؤلفين يبدو أن النويري، وهو أكثرهم اجتهادا في جمع التفاصيل الثانوية، قد لاحظ وجود ثلاثة حكام تجاهلهم ابن الأثير **والبيان**، لأنهم ظلوا في الحكم لفترة قصيرة جدا. كما لاحظ أن ابن يعقوب الذي لم يذكر اسمه الأول، هو أحمد ذاته الذي ذكره ذلكما المؤلفان الآخران، كما سبق أن أشرت. يتعين عليَّ أن أضيف أنه أخذاً بالأخبار التي جمعها المؤلفون، نخلص إلى أن ثلاث أسر مختلفة تعاقبت على حكم صقلية في أقل من عام واحد. والأسر الثلاث هي:- أسرة يعقوب بن فزارة، ويعقوب بن عبدالله، ويعقوب بن مضحى. ويغلب الظن في وجود بعض الأخطاء في كتابة الأسماء أو قفزات في تسلسل الأنساب. هذا فضلاً عن أنني أشك فيما حرره ابن الأثير، لأن ابن أبّار، وهو مرجع أكبر في هذا الصدد، يتحدث (في المخطوطة، ورقة ٣٥ الوجه) عن يعقوبٍ عاش في الفترة موضع اهتمامنا وهو يعقوب بن مضحى بن سوادة بن سفيان بن سالم،

أو طبقا لرواية النويري، حسين بن رباح، الذي أبقاه أمير أفريقيا(1) في منصبه ثم مالبث أن عزله. حينذاك، وخلال شهر شوال عام مائتين وتسعة وخمسين(أغسطس ٨٧٣)، تولى أبو عباس عبدالله بن محمد بن عبدالله الحكم في صقلية وهو من الأغالبة وابن أول حاكم كانت له مستوطنة ببالرمو، وكان أديباً، وشاعراً، وحافظاً للأحاديث النبوية، وكان قبل فترة وجيزة يشغل منصب والي طرابلس التي عاد إليها بعد وقت قليل، وأصبح شأنه بعد ذلك عظيما بالقيروان: وعلى ذلك فلعله ترك صقلية ليس بسبب بلايا وقعت بالبلاط، وإنما رغبة منه في ذلك؛ حيث تأخر خروجه من عش الزنابير هذا وعودته إلى أفريقيا التي كان قد رحل عنها على مضض(2).

وإذا صدقت رواية النويري، فقد حل محله في عام مائتين وتسعة وخمسين نفسه، أحد أقاربه وهو أبو مالك أحمد بن يعقوب بن

وسالم هو أبو «أغلب»، الجد الأكبر لمؤسس الأسرة. كان يعقوب إذن ابن عم خفاجة أمير صقلية. كما كان له أتباع كثيرون في بلاط الأمير الأغلبي محمد بن أغلب الذي سبق لنا الحديث عنه وقد أُطلِق على سلالته من بعده لقب «اليعقوبية». وهو اسم لم يمثل أي خطر آنذاك.

وأرى أنه من الجائز أن يكون أحمد الذي ذكره ابن الأثير هو ابن ذلك الأخير وأن مضحى ليس ابن سلمى وإنما ابن حفيد سالم الجد الأكبر المشترك لهذه الأسرة ولأسرة الأغالبة.

(1) **البيان**. الكتاب المذكور؛ النويري، الكتاب المذكور.

(2) النويري، الكتاب المذكور، يخطئ ويسميه عبدالله بن محمد بن إبراهيم بن أغلب معتبرا إياه منحدرا بشكل مباشر من مؤسس الأسرة، بينما لم يكن سوى ابن ابن أخيه. ويوضح ابن أبّار أنساب هذه الأسرة، المخطوطة ورقة ٣٥ الوجه الأول. كما يذكر أيضا مايلي: أولا: سنة انتخابه لحكم صقلية وهي توافق السنة نفسها التي يذكرها النويري.

ثانيا: أخبار ثقله الأدبي والمهام التي كلف بها قبل وبعد حكم صقلية.

ثالثا:- أبيات الشعر التي وجهها لأحد أصدقائه الحميمين يعبر فيها عن مدى ألمه لاضطراره تركه حينما ارتقى منصب الحكم.

عمر بن عبدالله بن إبراهيم بن أغلب ويُكَنَّى بالحبشي(1) والذي رحل(2) هو أيضا بعد أربع سنوات.

على مدى ستة أو سبعة قادة عرفتهم الجزيرة من عام ٨٧١ وحتى ٨٧٢ عرِفت على وجه التحديد فصيلة واحدة ومن الخطأ تسميتها فصيلة حرب، حيث توجهت فرقة من الخيالة حتى سيراكوزا عام مائتين وتسع وخمسين (٦نوفمبر٨٧٢ إلى ٢٥ أكتوبر٨٧٣) وطلبت استعادة ثلاثمائة وستين أسيرا مسلما وما أن تسلمتهم حتى عقدت الهدنة وعادت في الحال إلى بالرمو(3). إن عمليات الأسر هذه والتكتم عليها من جانب كاتبي الحوليات من المسلمين، وكذلك تعاقب هؤلاء الحكام الذين توفوا في فترات متقاربة أو استُبْدِلوا بعضهم ببعض، إنما هي عوامل تشير إلى الخطوب الخطيرة التي كانت تحيق بمستوطنة صقلية.

فلما كانت تنزف هي أيضا تحت وطأة معارك كابوا وبنفنتو، وتمزقها الفتن الأهلية، فلم تكن لتستطيع مواجهة جيوش باسيليوس المنتصرة التي يبدو أنها كانت تتجه ناحية الجزيرة بينما كان لودوفيكو واللومبارد يستميتون في معاركهم ضد مسلمي البر الإيطالي. ومن ثَمَّ، فإلى جانب خوفهم من ضياع مدن عديدة وربما أيضا مقاطعات كاملة في صقلية، كان المسلمون يخشون أيضا على أفريقيا: وأخذوا يعززون السواحل، وذلك حسب شهادة ابن الأثير سابقة الذكر والتي يتفق معها كتاب

---

(1) النويري، الكتاب المذكور.

(2) انظر هنا أسماء قائد صقلية وقت ضم سيراكوزا والقادة الآخرين الذين خلفوه لمدة عشرين عاماً. لذلك يخطئ النويري بشكل واضح إذ يقول إن الحبشي حكم صقلية لفترة ستة وعشرين عاما متصلة. يمكن بالحري الاعتقاد بأنه تم خلعه قرابة عام ٨٧٦ ثم إعادة انتخابه نحو عام ٨٩٦، وقت أن ذكر ابن الأثير اسمه.

(3) ابن الأثير، مخطوط(A)، المجلد الثاني، ورقة٨٦ الوجه الأول؛ **والبيان**، المجلد الأول ص١٠٩.

تتمة تيوفان *Continuatione di Teofane* (1).

وبعد وفاة محمد بن أحمد (فبراير٨٧٥)، وهي خسارة كبيرة لشأن المسلمين، وتركه ابناً صغير السن، أقام كبار رجال القيروان على العرش أخاه إبراهيم بن أحمد، وهو من أراد إقصاء الرجال الذين كان يخشى وجودهم بالقرب منه إلى صقلية، ذلك حينما أخذ ينظر في الإعداد لفرض سيادته العاتية على وطنه، كما سنذكر في الكتاب الثالث؛ كما أراد فى الوقت نفسه أن يُشعر باسيليوس أن سيد العرانق لم يعد يملك على أفريقيا. ثم حاول خوض تجربة سبق أن فشل فيها أشهر قادة الجماعة وألمعهم: فأطلق جيشه نحو سيراكوزا(2).

وفي صيف عام ٨٧٧(ثمانمائة وسبعة وسبعين)، وبعد أن قام المسلمون، تحت قيادة جعفر بن محمد، حاكم الجزيرة الجديد، بتدمير محصـول القمح في راميتـا، وتاورمينا، وكتانيا وفي مدن أخـرى لم تذكر أسـماؤها، أخذوا يتلفـون حقـول سيراكوزا(3). وطوقوا

(1) *Theophanes Continuatus*، الكتاب الخامس، الفصل ٦٩، ص٣٠٩. يبدأ كاتب البلاط الفصل بذكر واقعة حصار سيراكوزا في غير تاريخ حدوثها، أي يذكرها بعد انتصار القائد البيزنطي نزار في صقلية وفي كلابريا. فيستهل الفصل بقوله: «أعد برابرة قرطاجنة هم أيضا سفنا كثيرة بعد الهزيمة التي لحقت بهم وذلك خوفاً من أن يهاجمهم أسطول الرومان على أرضهم. ولما عرفوا بعدم خروج قوات الإمبراطورية لمواجهتهم في الربيع ظنوا أنهم انصرفوا إلى قتال آخر، فتحركوا وجهة صقلية بسفنهم. وما أن وصلوا إلى عاصمة الجزيرة (أي سيراكوزا) حتى فرضوا حصارا عليها». من المؤكد أن هزائم مسلمي أفريقيا، التي يُشار إليها، لم تكن الهزائم التي تسبب فيها نزار، والتي حدثت بعد اقتحام سيراكوزا.

(2) على الرغم من أن الكُتَّاب المسلمين لا يتحدثون عن قوات أرسلت من أفريقيا، فإنه يمكن الأخذ بما ورد في كتاب *Continuazione di Teofane* وسوف نرى فيما بعد وبشهادة **البيان**، أنه في هذه الفترة كان هناك اثنان من السجناء من أقارب إبراهيم بن أحمد، وكان ذلك بلاشك بناءً على أمره.

(3) ابن الأثير، مخطوط(*A*)، المجلد الثاني، ورقة١٠٤ الوجه الثاني، ومخطوط بيبرس (وهو نسخة من ابن الأثير) بمكتبة باريس، *Ancien fonds arabe*، رقم ٦٦٩، ورقة٤٢ الوجه الأول. أقرأ في وضوح اسم (*Rametta*) راميتا في هذا المخطوط الأخير وبشئ من الشك في المخطوط الأول.

المدينة(1) بالحصار بعد احتلالهم للضواحي المحيطة بها.

وقبل ذلك بخمسين عاما، كان جيش أسد بن الفرات قد خيم في محاجر السخرة، على بعْد نحو ميل من برزخ أورتيجا(2). وفي هذه المرة اتخذ قائد قوات الحصار من مبنى الكاتدرائية القديمة خارج المدينة مقراً له، كما يكتب الراهب وعالم النحو تيودوزيو الذي ظل مسجونا بها ثلاثين يوماً.

ويخبرنا الراهب أيضاً كيف أن برجاً كان موجوداً على شاطئ البحر عند الميناء الكبير حيث يمتد قرن المدينة الأيمن وكيف أنه تحطم من جراء الحجارة التي كان يلقي بها الأعداء من جانب البر، ثم أنه من ذلك المكان تم الاستيلاء على سيراكوزا.

وبإلقاء نظرة على خريطة المكان سيكون بمقدور أي قارئ إدراك إلى أي مدى يبعد البرزخ الذي يفصل الميناءين، غير أن المدينة، وقت الحصار كانت تقتصر حدودها كحالها في يومنا هذا، على شبه جزيرة أورتيجا. خارج المدينة كانت الضواحي أو بالأحرى الحي الرئيس القديم الذي كان مهجورا منذ وقت قليـل. وهو الحي الرئيس باعتبار أنه كان يضم كنيسـة المطرانية بالمدينة، وكان مهجوراً منذ قليل لأن الكنيسة، المتهالكة وإن لم تتهدم تماما،أصبحت تمثل مقرا مريحا للقائد المسلم. الأمر الذي يجعلني

(1) ابن الأثير، الكتاب المذكور، يقول «تم احتـلال بعض ضواحي» سـيراكوزا. و *La Continuazione di Teofane* الكتـاب الخـامس، الفصـل ٦٩، ص ٣٠٩، يذكر كذلك تخـريب «الـريف والضـواحي» (τὴν χώραν καὶ τά προάστεια.)

(2) انظر الفصل الثالث من هذا الكتاب.

(3) *Cum turris juxta mare, ad ipsum portum majorem edificata, ubi dextrum cornu* (κέρας) *oppidi protenditur ec.* وهـكذا ورد في روايـة م. هاس. إن شبه جزيرة (*Ortigia*) أورتيجا طويلة جدا، والجزء الغربي منها يمتد على هيئة ذراعين، أحدهما يمتد نحو الجنوب ويعمل على تضييق مدخل الميناء الأكبر، والآخر يلتوي ناحية الشمال صوب منطقة (*Maestro*) مايسترو، مكونا البرزخ. ويُطلَق على الجهة الغربية التي تقابل الميناء الأكبر اسم واجهة المدينة ويُطلَق على البرزخ اسم جناح أو قرن مستقيم.

على التو أسطول المسلمين(1)، وظل المنتصر سيداً للبحر؛ فدمر التحصينات التي كانت تُكني آنذاك بالأساور(2) وكانت تقوم بحماية الميناءين، كما أصاب التحصينات الواقعة على الجانبين المقابلين لميناء أورتيجا، أي الطرف الشمالي للميناء الصغير والجنوبي للميناء الكبير. وهكذا تم منع أي عون خارجي عن المواطنين. كما حاول المسلمون شن هجمات بسفنهم الضخمة، ولكن المدينة لم تكف أبداً عن المقاومة ببسالة.

وكان لاستمرار المجاعة أثره الشديد فقد بدأ الشعور بها بادئ الأمرثم اشتد بعد ذلك لدرجة لا تطاق، كما يروي راهب سيراكوزا بكلمات تنتزع ابتساماتنا في البداية ثم لا نلبث أن نقشعر لسماعها: يقول تيودوزيو في أسي شديد «إن الدواجن نفدت بالديار وبات الناس يأكلون مايجدونه من سمين أو جاف حسبما يتوافر، ثم نفدت أيضا الحبوب والخضروات والزيت، أما عن السمك فقد كف صيده منذ اليوم الأول الذي سيطر فيه العدو على الموانئ. وأصبح مكيال من القمح، إذا وُجدَ، يُشـــترى بمائة وخمســين بيزنطية من الذهب(3)، ومكيال الدقيقَ بمائتين، وأوقيتــان من الخبز ببيزنطيـــة(4) واحــدة، ورأس

(1) ابن الأثير، الموضع المذكور.

(2) Βραχιόλιον. ، يستخدم تيوفان في الـ *Chronographia* هذا اللفظ، بداية بمعنى سوار بالمعنى الأصلي للكلمة، أي زينة للذراع (المجلد الأول، صـ٢٢٥ و٤٩١)؛ ثم يستخدمه في صـ٥٤١، بمعنى حصن تابع لباب القسطنطينية الذهبي في الهجمات التي شنها أسطول المســلمين في حصـــار عـــام ٦٧٣ الشــهير. في هذا المقـــام يقـــول نص تيودوزيو مايلي: Τὰ ἀμφὶ τοῖν λιμένοιν τείχη, ἃ δὴ βραχιόλια ὀνομάζουσιν;
وفي رواية م.هاس:- *Mœnia Circa utrumque portum quæ brachiolia vocant.*
وأظن أن لفظ τείχη يجب أخذه بمعنى «حصن» بوجه عام وكلمة ἀμφὶ بمعنى «لدى» بدلاً من «حول». وهذان اللفظان يستخدمان أحياناً بهذين المعنيين ويكفي النظر الى خريطة المكان والتحقق من أن الميناء الكبير يستدير على مدى سبعة أميال حتى نوقن أنه ليس ثمة سور يطوق المنطقة كلها.

(3) Χρυσίνος. ، وضعت الإسم الذي أعطاه الغرب لهذه العملة. ووزن المعدن المقابل الذي كثيراً ما كان يتغير هو ١٣ ليرة تقريباً.

(4) Νόμισμα، لفظ مستخدم بنفس معنى Χρυσίνος.

حصان أو حمار يتراوح ثمنها من خمس عشرة إلى عشرين بيزنطية، بينما البغل الكامل يُقدر ثمنه بثلاثمائة بيزنطية. ولما احتاج الفقراء للخضروات واللحم المجفف الذي اعتادوا أكله، أخذوا يبحثون عن تلك الحشائش المرة رديئة المذاق التي تنبت على الجدران وكانوا يأكلون الجلود النيئة ويجمعون العظام المجردة من اللحم ويطحنونها ويقومون بتليينها بإضافة الماء ثم يزدردونها، وكانوا يقرضون الجلد السميك، ثم ماأن طغى الجوع المسعور على كل شعور بالتقزز وعلى المشاعر الدينية والطبيعية حتى انقضوا على الأطفال؛ وأخذوا يأكلون جثث الموتى في المعركة، وهو الغذاء الوحيد الذي لم يشح. ونتج عن ذلك أوبئة ظهرت في أشكال مختلفة في قساوتها: فهناك من كان يلقى حتفه في الحال إثر تشنجات(1) مروعة، ومن كان جسمه ينتفخ مثل القربة(2)، ومن نخرت الجروح جسده،(3) ومن كان يصاب بالشلل(4). وهكذا عانت المدينة البائسة طوال الشتاء وفترة من الربيع أملا في وصول أسطول القسطنطينية ليحررها.

وحقاً كانت الآمال معقودة على مساعدة باسيليوس المقدونى، ولكن يبدو أن الخرافات والأعمال المخجلة بالداخل قد عملت على إضعاف روح ذلك المغوار. فلقد شغل جنود الأسطول بتشييد كنيسة القسطنطينية(5)، بينما كان منجنيق المسلمين يهدم سيراكوزا. ثم أرسل الأميرال أدريانو، وهو رجل خامل أو فلنقل جباناً؛ فقد أبحر من القسطنطينية على مَهَل قاصداً ميناء مونمبازيا في بيلوبونيزو للراحة. وكانت تنتظرهُ هناك ريحٌ باردة يمكن أن تساعده على الإقلاع

(1) Τέτανος.

(2) ʼΩς ἀσκόν.

(3) هكذا نفترض بعد قراءة ماجاء في النص: καὶ τούτοις πολυμερῶς διατρήσασα
وفي رواية م. هاس *Multis ex partibus terebratos,* .

(4) يذكر النص هنا وهو بالتأكيد غير صحيح، إصابتهم بـ ἡμιπληξία، لما كان (الفالج الشقّي) يعني (شلل نصفي). وحتى هنا أرجع دائماً إلى رسالة تيودوزيو.

(5) جورجيوس موناكوس، *De Basilio Macedone* §.١١، صـ٨٤٣.

إلى سيراكوزا، وإنما تذكر أخبار بورفيروجينيتو في جدية، أن أرواحاً من الجن كانت تجوب غابة إيلوس، وأن جنوداً هاربين من سيراكوزا على متن مركب، أبلغوه بأن رايات المسلمين أصبحت ترفرف على سيراكوزا. وحينئذ هرع إلى القسطنطينية واحتمى في إحدى الكنائس طالباً الصفح من باسيليوس الذي عفا عنه(1).

ويبدو أنه بحصار سيراكوزا براً وبحراً، عاد القائد المسلم إلى بالرمو وكله ثقة بغنيمته، وأنه في الربيع عاود قائد آخر تضييق الحصار(2) في قوة شديدة وكان اسمه أبو عيسى بن محمد بن كُهرب، كبير حُجّاب إبراهيم(3). حينئذ كان برج الميناء الكبير الذي سبق الحديث عنه هدفاً للقذائف. وقرب نهاية شهر أبريل انهار الجانب المتهدم من ذلك البرج، وبعد خمسة أيام سقط أيضاً جزء من الحصن المجاور.

كان المسلمون ينطلقون في هجماتهم حتى وان كان هناك من

(1) *Theophanes Continuatus*، الكتاب الخامس، الفصل ٦٩و٧٠، صـ٣٠٩ ومايليها.

(2) إذا أعطينا ثقة كبيرة للترجمة اللاتينية التي نشرها جايتاني لبعض أبيات تيودوزيو التي وجهها إلي سعادة سوفرونيو، وكان فيما يبدو رئيس أساقفة سيراكوزا، فإنه يمكن الجزم بأن الجانب الأعظم من جيش المسلمين قد عاد إلى قواعده في الشتاء. ولكن كيف يمكن الاعتماد على ذلك إذا كانت الرواية النثرية لاتتحدث عن هذا الأمر وإذا كانت ترجمة الأبيات خرجت بالصيغة التالية؟

Genus Ismael ascendit
Syracusanorum in urbem,
Ambitu ambiens hanc;
Aggressus devicit (devicitur?)
Dolose supervenit extemplo
Per annum etiam navigavit
Post decem autem menses excidit
obsidio urbem.

(3) نعلم من ابن الأثير أن حصار سيراكوزا بدأه جعفر بن محمد حاكم الجزيرة، ونقرأ في **البيان** أنه بعد اقتحام سيراكوزا، قُتِل جعفر بن محمد في بالرمو في عـام ٢٦٤نفسه. من جـانب آخـر، نجـد أن تيودوزيو يسـمي قائد الجيش المنتصر باسم *Busa amirœ Chagebis filius* ويقول عنه إنه شخص آخر غير الأمير الأعلى الذي كان في بالرمو والذي اقتادوا أمامه الراوي مع الأسرى الآخرين. وبتوافق هاتين الشهادتين فيما بينهما، يمكننا الأخذ بهما واسـتبعاد شهادة النويري الذي يختلف معهما وهو لا يتحدث عن اقتحام سـيراكوزا والاسـتيلاء عليهـا في كتابته لتاريخ صقلية. اما في

يهاجمهم من جانب البرج شبه المتهالك والذي كان المحاصرون بداخله قد استعاضوا عن الممر إليه بسقالة خشبية، حتى أن مدخل البرج المنيع واستماتة رجال الحامية المسيحيين في الدفاع أعاقا الهجوم عليه. وأشاد بها تيودوزيو معركة خاضها عمالقة غير مدرك أنه في ذلك المكان نفسه حارب عمالقة التاريخ القديم في الأزمنة القديمة:- أجناد أثينا وقرطاجنة وروما ضد جنود سيراكوزا، حارب مارتشيللو ضد أرشميدس! كانت المدينة قد ضاقت في القرن التاسع، من معبد جوبيتر الأوليمبي ومنطقة ابيبولي إلى شبه الجزيرة، وتقلصت أيضا قرائح الناس من درجة جيلوني إلى مستوى الراهب تيودوزيو، وضعفت النفوس في طـاعتها للطغـاة البيزنطيين وفي أنانية التزمت، كـان الدين يعلمهم أن الموت أفضـل من الانتصار. وإذا كان هذا القول الرنان يختص بالشـجاعة الفردية، فلا بأس به، وقد أصـاب تيودوزيو عندما أطلـق لقب قديس على ذلك الشريف الذي حـكم سيراكوزا خـلال الحصـار، فقد كان يعلم النهـاية التي كانت تنتظره ومع

تـاريخ افريقيـا الـذي نشـره م. دي سـلان في حواشـي ابن خـلدون، *Histoire des Berbères* ص ٤٢٥، ينسب النويري النصر إلى أحمد بن أغلب ليس إلا ظناً منه بأنه كان حاكم صقلية في ذلك الوقت كما لاحظنا في هذا الفصل. أما فيما يتعلق باسم القائد المنتصر على سيراكوزا والذي ماكان ليتجاهله تيودوزيو، فاعتقد أنه يجب أن يُقْرأ أبو عيسى بن «الحاجب» أي حاجب إبراهيم بن أحمد إذ أن الحرفين اللاتينيين *(ch)* هما نقل صوتي للحرف اليوناني، مثل حرف الحاء، الحرف السادس في الأبجدية العربية والذي تبدأ به كلمة «حاجب» والحرفان *g* و*b* يطابقـان في نطقهما الحرفين العربيين **ج وب**. إنه من الغريب العثـور على هذه الكلمـة كما هي لم تتغير على الرغم من أنها مرت بأيدى العـديد من النسـاخ وأحـد المترجمين، حيث ان هذا الجـزء قـد فُقد من النص اليوناني، وشـهادة للحـق يجب عليَّ أن أذكر هنـا أن م. فامين في الكتـاب *Histoire des Invasions des Sarrazins en Italie.* باريس ١٨٤٣، والذي نُشِرَ منه الجزء الأول فقط، ولن تسنح ليَّ إلاافرص قليلة لذكره أقول إنه وفق هو الآخر وأصاب الهدف مثلي وهو يرمي إلى هدف آخر. لقد بدت له كلمة *Chãgeb* تشويه لنطق لقب أسرة محمد بن كُرهب، ولذا وجه إلى تيودوزيو كلمات سيئة بهذا الخصوص لأنه اطلق على هذا الأخير لقب أمير واختتم حديثة بوجوب تصحيح اسم *Mouca fils de l'émir Khareb* أي محمد بن كُهرب، الذي تصادف وكان حاجباً للأمير الأغلبي في ذلك الوقت.

ذلك ظل ثابتاً لا يتزعزع حيال وعود العدو أو نصائح مستشاريه التي كانوا يقدمونها له على استحياء؛ وظل ساهرا لا يكل ولا يمل، خبيرا بشئون الحرب، ومتمسكا بالنظام وسط خمس عشرة أو عشرين ألف نسمة يتضورون جوعا(1).

كانت الحامية، كما كان الحال في الجيوش البيزنطية، تتكون من رجال من شعوب مختلفة فكان هناك الماردايون، ويونانيو البيلوبونيز(2) ورجال من الطرسوسيين(3)، كما لم يغب رجال سيراكوزا عن ساحتهم. وكانت النساء تعاون في القتال؛ أما القساوسة فكانوا يشدون أزر الأهالي ويصلون. واستمر المسيحيون المنهكون في الدفاع عن الثغرة لمدة عشرين يوماً وعشرين ليلة، بعد أن أعياهم الحصار والجوع طوال تسعة أشهر. وتَغَطَّى ذلك الهدف المميت الذي سُمِّي بالمشئوم بالجثث التي تنبئ جروحها التي وصفها تيودوزيو واحدة واحدة، بأن القتال كان بالسيوف، رجلاً لرجل، ومسيحي واحد في مواجهة مائة مسلم، هكذا قال في مبالغة تصـــويرية. كما غلب التعب والحنق المهاجمين الذين كلما صادفتهم كتيبة من الأشباح أو كومة من الحطام، شهقوا والتقطوا أنفاسهم لبرهة.

وصبيحة يوم الحادي والعشرين من مايو عام ٨٧٨(4) بدا كل شئ هادئاً: كان القائد وأغلبية الرجال قد انسحبوا لأخذ قسط من الراحة ولتنــاول شئ من الطعام؛ وظل جوفاني باتريانو يراقب الثغرة من

(1) قمت بهذه الحسبة اعتمادا على عدد القتلى الذين سقطوا عندما تم الإستيلاء على المدينة.

(2) *Theophanes continuatus*، الكتاب الخامس، الفصل ٧٠، ص٣١١.

(3) تيودوزيو الراهب، الموضع المذكور.

(4) *Die prima post vigesimam mensis maij, quarta vero ad eo die quo murus corruit,* كما هو مذكور في الرواية التي نشرها جايتاني ولكن ذلك اليوم الرابع بعد سقوط السور لايتفق مع الحسبة التي أجريت من قبل، لذلك أعتقد في عدم صحة الرواية وأنه يجب تفسيره على أنه *quarta feria* اليوم الرابع أي الأربعاء، وهو بالضبط اليوم الذي اتفق عليه كل من مؤلفى *Cronica di Cambridge*، والبيان.

فوق البرج مع عدد قليل من الجنود. وعلى حين غرة، قرعت في السادسة كل آليات العدو محدثة انفجاراً كالعاصفة، وانكسرت «السقالة» الخشبية التي كانت تصل بين المدينة والبرج تحت قصف الكتل الحجرية التي كانت تنهمر عليه فأحدثت قرقعة عظيمة. هب القائد من على مائدة الطعام وهرول صوب الثغرة وتبعه محاربون ذوو همم، ولكن العدو أضاف إلى الضربة ضربة أخرى فاندفع في الحال نحو البرج وأخذ في ذبح المدافعين عنه؛ واستطاع أن يقتحم المدينة. وأرادت زمرة من الجنود مواجهة العدو أمام كنيسة السلفاتور ولكن قبل أن تتمكن من ترتيب صفوفها، تم التغلب عليها وتمزيقها. وهجم المنتصرون على باب الكنيسة وكسروه؛ ووجدوا بالداخل جمهرة من المواطنين: نساء وأطفال، وشيوخ ومرضى، وقساوسة ورهبان وعبيد: فأقاموا فيهم مذبحة ثم انتشروا عبر الأحياء والطرقات يقتلون ويأخذون الغنائم، واحتمى الشريف ومعه سبعون نبيلاً من سيراكوزا في أحد الأبراج وقبض عليه في الغداة. وهرع فريق إلى الكاتدرائية حيث رئيس الأساقفة سوفرونيو(1) وثلاثة من القساوسة وكان تيودوزيو الراهب من بين هؤلاء الثلاثة فانتزعوا ملابسهم الكهنوتية أملاً في ألا يتعرف عليهم أحد. كانوا يرتدون صديري من الجلد وتواروا بين المذبح الكبير والكرسي الأسقفي ومع ذلك كان سوفرونيو يَعِدهم بوقوع معجزة. وكان الآخرون يتبادلون طلب الصفح عن إساءاتهم كمن يواجه لحظة الموت. ويؤكد تيودوزيو أنهم كانوا يشكرون الله على هذه الضيقة.

وهاهم المسلمون يدخلون المعبد فيُشْهِر أحدهم السيف الذي كان يقطر دماً ويتجه خلف المذبح ويُخْرِج المختبئين خارجاً؛ ولكن دون إساءة في المعاملة ولا تهديد بشرٍ؛ ولما أمعن النظر في مظهر رئيس الأساقفة الوقور ســأله باليونانية: «من أنت؟» ولمــا عرف من هو ســأل عن الأواني المقدســة وطلب اصطحابه إلى المكان الـــذي

(1) هذا الاسم لم يذكره تيودوزيو، ولكن جايتانى يرى لاسباب وجيهة، أن ذلك هو اسم رئيس الأساقفة.

يحفظونها به وكانت تزن خمسة آلاف لبرة من معدن ثمين وكانت مشغولة بدقة متناهية. فأدخل رئيس الأساقفة ومعه رفاقه الثلاثة إلي الحجرة وحبسهم بداخلها. ويكتب تيودوزيو أنه دعا كبار السن من أمته وهم بالتأكيد رؤساء العائلات الموجودة بتلك الصفوف الحربية؛ وأثار مشاعر الشفقة لديهم وأنقذ حياة الأسرى، ويقول الراوي إنه رجل من أصل نبيل ويدعوه *Semnoen* سمنون. وربما كان اسمه (سمعون) وهو اسم عربي. مامن جندي مهما بلغت درجة حضارة أمته، استطاع أن يفوق في إنسانيته سلوك ذلك الرجل تجاه ممثلي دين معاد في مدينة بعد الاستيلاء عليها، وفي حمأة الاندفاع الأولى: ولا حتى الجيوش في يومنا هذا تستطيع أن تفخر بكثرة من أمثال سمعون. إن هذا النموذج في سمو أخلاق القائد وفي نظام الجنود إذ يظهر إلى جانب أعمال التعصب المقيت التي يتحتم علينا قصها، فإنه يدل على اختلاط الأجناس والسلوكيات واختلاط الهمجية والتحضر واختلاط الفرسان وقطاع الطرق داخل جيش المسلمين الذي اقتحم سيراكوزا. وعلى مايبدو كانت جماعة صقلية أقلهم قساوة. وكان سمعون واحداً منها فقد كان يعرف اليونانية.

وبعد أن تم اصطحاب تيودوزيو ورفاق الأسر إلى مقر القائد الأعلى، بالأسقفية القديمة كان حبسهم داخل حجرة. وليقرأ، من يريد، وصفها المقزز في رسالة تيودوزيو. ولكن لا يمكن أن يصمت التاريخ عن القساوة التي كانت تُرتكَب. فقد واصل الغزاة ذبح الجنود والإبقاء على الآخرين أسرى وعبيد(1)، ذلك بعد أن كفوا عن ضرباتهم التي كانت لا تميز أحداً. ولما صعبت عملية انتقاء الضحايا أو ربما تأجل ذلك بفضل حيلة من حيل القادة المتميزين في حضاراتهم فقد مضى بعض الوقت

(1) يقول كتاب *Continuazione di Teofane* بوضوح إن كل الجنود قد قُتِلوا وتم اخذ المدنيين عبيداً.

قبل فرزهم: وبانتهاء أسبوع ذبحوهم خارج المدينة. وكان أولهم بطل الحصار، ذلك الشريف الحاكم الذي لم يذكر تيودوزيو اسمه لأنه معروف لدى الجميع على حد قوله. وقد واجه الموت برأس مرفوع في غير رهبة وفى سكينة حتى أن القائد الذى حكم عليه كان ينظر إليه مأخوذاً من الدهشة، ثُم تم تقييد السبعين أسيراً الآخرين الذين قبض عليهم في البرج مع الشريف والسجناء الآخرين. جعلوا منهم كتلة انطلق الجنود يهاجمونها في قسوة، هكذا استطرد تيودوزيو، ويقتلونهم بالحجارة والعصي والحراب وبأي شئ آخر وصلت إليه أيديهم وأهلكوهم حتى آخر أسير فيهم، ثم أشعلوا النيران في جثثهم، وأما نيكيتا الطرسوسى *Niceta da Tarso* وكان معروفا جداً لدى المسلمين بضرباته العاتية التي اعتاد توجيهها كل يوم لهم وأهانته لأمتهم ولنبيهم، فقد نحوه جانباً وطرحوه على ظهره وأعملوا فيه مائة حربة ومثلوا بجثته (1). تجاوز عدد القتلى في هذه المذابح الأربعة آلاف كما يقول **البيان**. ويذكر ابن الأثير أنهم كانوا آلافاً عديدة، كما أضاف أن «القليل، القليل جداً منهم بقي على قيد الحياة» ويرى أن من بينهم أولئك الذين ألقوا بأنفسهم في مركب ووصلوا إلى اليونان. وبلغت قيمة الغنائم، حسبما يذكر تيودوزيو، مليون بيزنطية(2)، أي مايقدر بنحو ثلاثة عشر مليون ليرة من عملتنا وهي قيمة ليست بالمبالغ فيها نظراً لعظمة المدينة واتساعها، ولاتصل إلى ما نتصوره ونحن نقرأ حوليات المسلمين. إن السلب وجمع الغنائم لم يكن أبداً بهذه الضخامة في أي من كبريات المدن المسيحية. بعد اقتحام المدينة ظهرت وحدات من أسطول يوناني، هاجمها المسلمون وأجبروها على الفرار بعد أن استولوا على أربعة سفن منها وأعدموا رجالها. وطوال شـهرين تقريبا أخذوا يغيرون على التحصينات وينهبون دور العبادة والمنازل: ثم في النهاية أحرقوها،

(1) تيودوزيو.

(2) توجد هذه الفقرة في الجزء الذي فُقِدَ نصه اليوناني.

ورحلوا مع نهاية شهر ذي القعدة. أي مع بداية شهر أغسطس(1). وهذه كانت نهاية سيراكوزا القديمة:- وظلت متاهة من الأطلال دونما حياة(2). ولم يكن بين ربوعها واحد مثل تيوكريتس أو مثل ابن حمديس، ليرثى فيها خراب الأوطان، وإنما حاول ذلك شاعر بيزنطي، وريث منتظر للتاج، وهو ليوني الذي أصبح فيما بعد إمبراطوراً، وكان يُكَنَّى بالعالم وهو صاحب مؤلف في الفنون العسكرية. وبدلاً من أن يأتي للانتقام، راح يندب الواقع الأليم في قصيدتين من شعر متواضع، أسماهما أناكريبونتيك، وقد فُقِدَتا، وما أرى في ذلك من خسارة كبيرة(3).

---

(1) ابن الأثير.

(2) المراجـــع البيزنطيــــة هى: *Theodosii monachi atque grammatici,* *Epistola de expugnatione Siracusarum,* وهي صياغة لاتينية أعدها راهب باسيلي اسمه جوزافا عن مخطوط من دير السلفاتور في مسينا، وقام جايتانى بنشرها، و *Vitæ Sanctorum Siculorum*، المجلد الثاني بالحواشي، ثم قام بنشرها بعد ذلك بيرو....الخ، ثم تلف المخطوط ومعه مخطوطات كثيرة فُقِدَت في أديرة أسبانيا أو دفنت فى الفاتيكان حيث نأمل العثور عليها يوماً ما. ومع ذلك فلدينا جزء من النص في مخطوط باريس والذي لا يصل لسوء الحظ حتى إلى نصف الرسالة؛ ولكنه وصل إلى أيدي أمينة حيث ان م. هاس أجرى له ترجمة لاتينية ونشرها مع الأصل اليوناني بحواشي *Leonis Diaconi Caloensis Historia*، باريس١٨١٩، وهو مؤلف أعيد نشره في بون عام١٨٢٨. وتحذرنا طبعة م. هاس من الثقة الزائدة بأول نسخة لاتينية، فهي تخطئ المعنى أحيــــاناً، وغالبــــاً مايتوه في شروحات وتفســـيرات، و *Theophanes*، *Continuatus* الكتاب الخامس، الفصل ٦٩، ٧٠، ص ٣٠٩ وما يليها، فضلاً عن الإشارات المذكورة في جورجيوس موناكوس، *De Basilio Macedone*، الفصل الحادي عشر، صـ٨٤٣، وسيميون ماجستر، المرجع نفسه، صـ٦٩١، ونيكيتا بافلوجوني، *Vita Sancti Ignatii*، لدى لاب، *Sacrosancta Concilia*، المجلد الثامن، صـ١٢٥٨. ومن الكتاب العرب فقد تناول الموضوع كل من: ابن الأثير والنويري، و**البيان**، المجلد الأول، صـ١١٠، بالإضافة إلى *Cronica di Cambridge* لدى دي جريجوريو، *Rerum Arabicarum*، ص٤٢. إن تاريخ اقتحـــام سيراكوزا يتفق عليـــه تيودوزيو *Cronica di Cambridge*، **البيان** وهو ٢١ مايو. وقد حدد هذان المصدران الأخيران السنة بعام ٨٧٨، وهنا يظهر واضحاً خطأ الذين قالوا إن سيراكوزا تم الاستيلاء عليها عام٨٨٠ حين اتبعوا في ذلك *La Continuazione di Teofane*.

(3) تم العثور على عنوان هاتين المرثيتين الشعريتين بفضل العلامة الهيلليني الصقلي الأصـــل بيتروماترانجا انظر *Spicilegium Romanum* المجـــلد الرابع، روما ١٨٤٠، ص ٣٩.

ثم أملى الراهب والنحـوي تيودوزيو بعد ذلك الرسالة التي استشهدنا بها كثيراً. والتي تتفـق مع عنواني القصيدتين: ورسـالة تيودوزيو تفيض عذوبة وطلاوة كمـا يمكن أن نقول، وهي متقنــة، وإن لم تخـل من جماليات الأسلوب؛ وهي ذات قيمة عالية لما تحتويه من وقائع مهمة ويمكن اعتبارها من بين الكتابات اليونانية الجيدة التي كتبت في القرن التاسع.

وقبل إخلاء المدينة كان المسلمون يرسلون الغنائم والأسرى(1) إلى بالرمو: كان يُلْقَى بهم على دواب الأحمال نفسها في حراسة زنوج غليظي الطباع كانوا يقومون بأحقر الخدمات بالجيش، وكانت الرحلة تستغرق ستة أيام وست ليال في الحر أو في البرد دون توقف للراحة. وفي فجر اليوم السابع، كان الأسرى من أهل سيراكوزا يذوقون مراً جديداً وهم يرون المدينة المزدهرة، صاحبة الشهرة الواسعة، وقد خرجت عن دائرة أسوارها القديمة، وتوجتها الضواحي أو بالأصح المدن الشامخة، على حسب تعبير تيودوزيو حينما كان يصيح قائلاً:- «هيمنت بالرمو المجحفة التي ازدرت أن يحكمها كونتارك وسيطرت، ووضعتنا نحن تحت النير، وهي تهدد بإخضاع الشعوب النائية، حتى سكان القسطنطينية مدينة الامبراطورية».

وهكذا كان الحقد المدني يفتك بالأسير، فيصب جام غضبه على اسم بذاته، ويخلط بين بالرمو عاصمة ولاية تحت حكم البيزنطيين وبالرمو عاصمة المسلمين «تموج بالمواطنين وبالأجانب حتى لتبدو وقد جمعت بها كل أجناس السراسنة من الشرق ومن الغرب، من الشمال وحتى البحر».

---

(1) يؤكد كاتبو الأخبار المسلمون أن الجيش المنتصر رحل عن سيراكوزا بعد شهرين. ويكتب تيودوزيو أنه ظل أسيرا لمدة ثلاثين يوماً وفي هذه الأثناء كان المسلمون يشعلون النار ويخربون المدينة ثم ذكر أنهم أرسلوه هو والأسرى الآخرين إلى مدينة بالرمو تحت حراسة الزنوج؛ مع أنه لم يذكر أنه كان يسير مع الجيش بأجمعه. ولهذا فلا تعارض بين هاتين الشهادتين على الإطلاق.

وخرج جمهور غفير للقاء القافلة، وشاعت البهجة لرؤية تلك الغنيمة، وتعالت الأصوات بآيات من القرآن أسماها تيودوزيو أناشيد الغلبة والانتصار. ويقول تيودوزيو إنهم ساقوا بعد خمسة أيام رئيس الأساقفة ومعه القساوسة إلى الأمير الأعلى، وهو بلا شك والي صقلية. «وكان جالساً على العرش، في رواق(1)، خلف ستر، في استعلاء المغتصبين». وبمساعدة المترجمين ثار جدل ديني قصير بين الأمير ورئيس الأساقفة، ومن محتواه الذي نقله لنا تيودوزيو نتعرف جيداً على أسلوب المسلمين في الكلام. كان المنتصر يتكلم دون غطرسة أو تعصب، وكان الراعي يتكلم بحكمة ووقار. وعندما انصرفوا للعودة إلى السجن، عبروا الميدان الذي يتوسط المدينة، وأغلب الظن أن ذلك الميدان هو الذي يُطلَق عليه الآن إسم ميدان «البلاجو ريالي»، وكان في إثرهم «عدد كبير جداً من المسيحيين يرثون لهم في حرارة ومسلمون كثيرون جذبهم الفضول لمشاهدة رئيس الأساقفة ذائع الصيت». وعن هؤلاء المسلمين لم يذكر تيودوزيو أنهم رفعوا أصواتهم ضد المسيحيين أو أنهم تلفظوا بإهانات وشتائم نحوهم. وتم حبسهم بعد ذلك في السجون العامة(2) التي كانت تحت مستوى الأرض بأربع عشرة درجة، ولم يكن بها أية نافذة بخلاف الباب! وهناك تحت وطأة الحر والظلام والحشرات المقززة والرائحة الكريهة، كان يتكدس زنوج وعرب ويهود ومسيحيون من طرسوس ولومبارديا وصقليون. وقد قام أسقف مالطة والحديد بقدميه، ليعانق سوفرونيو وحكى كل منهما للآخر ماحدث له وبكيا معاً وشكرا الله. ولكن بحلول عيد الضحايا، حسبما يسميه تيودوزيو(3) بالضبط، شرع متفقه(4)

---

(1) *Solarium*، في النص، ولا يوجد نص يوناني.

(2) *Demosterium*، ذكر النص بلا شك δεσμωτήριον.

(3) عيد يحتفل به في العاشر من شهر ذي الحجة، وفي ذلك العام جاء في ١٢ أغسطس ٨٧٨ بحساب علماء الفلك المسلمين، وفي ١٣ من نفس الشهر بالحساب المتعارف عليه.

(4) *Ex iis qui populo præerant.* بمعنى أحد الفقهاء أو الشيوخ.

متعصب يهيج الشعب حتى يشعلوا النار فى ذلك الكاهن المشرك بالله زيادة فى الابتهاج بالعيد، غير أن الرجال من كبار القوم وذوي الحكمة هدأوا الفورة، وأوضحوا كيف أن الشريعة الإسلامية تحرم الضحية بالمكروه(1) وأنه ينبغي حمد الله على النصر، بوسيلة أخرى. «وبهذا كُتِبَ لنا النجاة»، ثم ينهي تيودوزيو رسالته من السجن قائلاً: «ومع ذلك يهددوننا كل يوم(2) بالموت».

وربما أخذت مخاوفه تتضاعف وسط الاضطرابات التي غمرت العاصمة مع الحرب التي اشتعلت من جديد ورجحت فيها كفة الجيوش اليونانية، إلى أن تم تحرير أسرى سيراكوزا(3) عام ثمانمائة وخمسة وثمانين، وعادت فيما يبدو لرئيس الأساقفة وتيودوزيو حريتهما(4).

---

(1) *Non enim hoc fas esse,* هكذا ورد بالصيغة اللاتينية. ومن ناحية أخرى، فماكان المسلمون يقدمون أبداً ضحايا بشرية، مثلما ظن تيودوزيو، فيما يبدو، كما أن القانون كان يحمي حياة القساوسة المسيحيين.

(2) جاء كل ذلك نقلاً عن تيودوزيو، المرجع سالف الذكر.

(3) *Chronicon Cantabrigiense*، لدى دي جريجوريو، *Rerum Arabicarum*، ص٤٢، يرد أنه جاء شخص ما بقصد دفع فدية أسرى سيراكوزا عام ٦٣٩٣. أما رامبولدي ففي *Annali Musulmani* عام، ٨٨٦، ودون استشهادات كعادته، يكتب أنه تم استعادة ٤٢٥٣ أسير كانوا موجودين بسجن سيراكوزا المؤبد وحده، وما يقارب العدد نفسه في القيروان.

ولكن سيراكوزا كانت مخربة واقتادوا منها الأسرى إلى بالرمو، كما يقول تيودوزيو، وقد عاش الحدث؛ وما كان يمكن أن تصل ضخامة عددهم إلى هذا الحد، الذي ذكر أنه تواجد بين القيروان وبين سجن صقلية المؤبد، حتى يرتفع خمسه الذي يخص الحكومة إلى مايزيد على ثمانية ألف. ولذلك تصبح الرواية الشرقية التي يبدو أن رامبولدي أخذ منها هذه الأعداد، تصبح رواية إما قصصية، وإما خاطئة.

(4) حينما لم يجد جايتانى أي ذكر آخر لهم، حيث لم تكن هناك معرفة بمؤلف *Cronica di Cambridge*، ورغبة منه في تضخيم قائمة الشهداء الصقليين، افترض ان سوفرونيو ورفاقه قد ماتوا من أجل إيمانهم.

الفصل العاشر

وحدث فى العام نفسه، ولانعرف قبل أو بعد غزو سيراكوزا، أن قُتِلَ جعفر بن محمد فى بالرمو بيد خدمه وبتدبير قام به أميران من الأغالبة، كانا سجينين فى قصر الأمير، أرسلهما إبراهيم بكل تأكيد إلى هناك، وكان أحدهما شقيقاً له واسمه أبو العقل أغلب بن أحمد، والآخر شقيق والد إبراهيم، وكان يدعى هو أيضاً أغلب بن محمد بن أغلب وكان يُكنَّى بخرج الرعونة. وسواء كان أغلب أرعناً أم لا ، فقد أراد أن يجمع ثمار القتل فاستولى على الحكم وسلم أموره ليد مناصريه. ولكن لم يمض وقت طويل حتى ثار عليه الشعب وطرده هو وجميع المتواطئين معه وأرسلوهم إلى أفريقيا(1). ثم جاء حسين بن رباح(2) إلى الحكم بعد إبراهيم، وكان بالانتخاب، فيما يبدو، حيث سبق أن نجح فى قيادة الجماعة لفترة وجيزة.

وسرعان ما اضطر لمواجهة عنيفة ضد المسيحيين. وفى صيف عـام ثمانمائة وتســعة وســبعين خرج على تاورمينا وهُزِمَ أكثر من مرة. ثم انتصـر فى النهــاية فى معركة داميــة قتـل فيهـا قائد

---

(1) **البيان**، المجلد١، ص ١١٠. لا تذكر هنا درجات القرابة بإبراهيم بن أحمد، لكننا نستشفها من الأسماء.
ترجمتى للكنية جزافية حيث إنها مكتوبة دون تشكيل ويمكن أن تُقرأ (خرج الرعونة) بمعنى "غميمة من الجنون". كما أنه لفظ قابل لتفسيرات أخرى. وعملية القتل هذه ذكرت فى **البيان** بعد الاستيلاء على سيراكوزا. ولكن ذلك لا يؤكد أنها حدثت بعده: وعواقب هذه الجريمة البشعة التى أدرجها **البيان** كلها فى العام نفسه، توحى بأنه إما أن مقتل جعفر كان فى البداية، أو أن الكاتب لا يتحرى الدقة فى التسلسل التاريخى للأحداث.

(2) **البيان**، الموضع المذكور، فى ذلك الموضع نقرأ اسم حسين بن رياح وأقوم بتصحيحه إلى رباح رجوعاً إلى تلك الأسرة اللامعة وسط الجماعة، ولأنه ورد لدى النويرى ذكر شخص باسم حسين بن رباح حاكم صقلية فى عام ٨٧٢، كما سبق وذكرنا فى صفحة ٤٥٢.

الأعداء، الذى يطلق عليه **البيان** لقب الشريف(1). ولعله كان «كريزافى» ذلك، الذى ورد ذكر موته فى هذا العام نفسه فى *Cronica di Cambridge* (2) وكذلك عاد اسم أسرة النبيل للظهور مرة أخرى فى وثيقة من القرن الثانى عشر كما ذُكِرَ أيضاً فى ذكريات الأزمنة اللاحقة ولايزال موجوداً بصقلية. ومن هنا نَرى أن مشركى الجزيرة حسبما يطلق **البيان** على مواطنى الأراضى غير الخاضعة للمسلمين، وقد وضعوا أمام أعينهم ذلك المثال المروع الذى كان لسيراكوزا، فضلوا مواجهة الموت، متحدين فى الميدان على أن يموتوا فرادى خـلف جدران منازلهم. وجدير بالملاحظة أن رد الفعل اليائس نفسه حدث فيما قبل بعد الاستيلاء على كاستروجوفانى. والآن فخلافات المسلمين والاستعدادات التى كان باسيليوس يقوم بها لمحو عار جيوشه، كانت دافعاً لبعث روح المقاومة.

وكان الرهــبان يتعجـلون النزاع، وهم الأداة التى اعـتادت الإمبراطورية البيزنطية استخـدامها، حتى أنهم قـاموا بدور المحــرضين وحـاملى الإنذارات والمســتكشفين أيضـــاً، يعـتمدون فى ذلك على اتضـــاع حـالهم، وعلى ما يوحى به مظـهرهم، وعلى توقير شعب المسلمين الذى كان يعطـف على الفقـراء من أى دين، ويميل إلى الاعتقــاد فى التـطير والخرافــات حتى الأجنبى منهــا والذى كان يولى إنكــار

---

(1) **البيان**، المجلد الأول، ص ١١٠.

(2) *Chronicon Cantabrigiense*، لدى دى جريجوريو، *Rerum Arabicarum*، ص ٤٣، كُتب الاسم فى المخطوطة دون علامات ضبط، فيما خلا الحرف الأخير، ولكنى أعتقد أن الناشرين راعوا تلافى النقص فى العلامات واستكملوها. وعليه فإنه يجب أن يُكتب خريساف. والوثيقة التى تنتمى إلى القرن الثامن عشر والتى نوهت عنها، نقرؤها لدى بيرو، فى *Sicilia Sacra*، ص ٣٩٠. حينما نشب نزاع حول حدود أراض زراعية فى أرض جاليانو، عهد الملك روچيرو، عام ١١٤٢، بالبت فيه إلى كل من الكونت سيمونى والشهير جورچو الأنطاكى، واستمع النائبان إلى أعيان ووجهاء عديدين من بينهم شخص يدعى "كريزافى" وكان من تروبينا. كما أشار إلى هذه الأسره أيضاً بونفيليو، وهو كاتب من مسينا من القرن السابع عشر، كما يشير إلى وجود شعار الأسرة النبيلة، لدى بورمانّو، كتاب *Thesaurus Antiquit Siciliæ*، المجلد التاسع، ص ١١٧.

الذات فى الرهبنة عظيم التقدير.

ظهر فى صقلية فى هذه الفترة راهب قدير، وهو إيليا، من كاستوچوڤانى، سنروى سيرته بعد قليل. كان إيليا قد أبحر فى اتجاه أفريقيا بعد أن ترك أورشليم حيث كان يقيم، ومن أفريقيا وصل على ظهر مركب محمل بالبضائع إلى بالرمو، وهناك قام بزيارة أمه بعد غياب، ثم بعد مرور أيام قليلة، وبالتحديد وقت أن كانوا يجهزون أسطولاً فى ميناء العاصمة، انتقل إيليا إلى تاورمينا ومن هنالك إلى ريچو حيث وجد الشعب بها فى حالة ذعر، فهدأ من روعهم وتنبأ لهم بهزيمة المسلمين. ثم بعد الأحداث التى نحن بصدد سردها، ظهر إيليا من جديد فى تاورمينا، ولأيام قليلة، وعبر إلى اليونان حيث اعتبروه جاسوساً للمسلمين، ثم بعد ذلك أتى إلى كلابريا مرة أخرى، ومنها ذهب إلى روما، ثم مرة أخرى إلى تاورمينا، والغرض من هذه الرحلات واضح جداً ويجب قبول الأمر كما تصوِّره سيرة كُتِبَت بعد موت إيليا بفترة وجيزة، وهى سيرة دقيقة فيما ورد بها من أسماء الأشخاص وأسماء الأماكن، ومن أحداث نعرفها من مصادر أخرى، كما أنها واقعية وبسيطة فى تناول الأحداث الأخرى، والتى تحتل المعجزات فيها مكان زينات العيد المعلقة على أسوار البناء(1).

وكانت نبوءة إيليا من نوع النبوءات التى يمكن أن يتنبأ بها أى أحد. فبعد المكاسب التى حققتها السفن الحربية البيزنطيـــة، فى نابولى(2) على مسلمى أفريقيـا وصـقلية، وفى المشـرق ضد مسـلمى آسيا الصغرى وكريت، حطم فريق الأســـطول الذى كان تحت قيــادة

(1) إن كاتب الحكاية مجهول. وقد قام الراهب اليسوعى الصقلى فيوريتو بترجمة الحكاية الشعبية من مخطوط يونانى من دير السلڤاتورى بمسينا. وقام جايتانى بنشر هذه الترجمة فى *Vitæ Sanctorum Siculorum* ، المجلد الثانى؛ ص ٦٣، وما يليها، ثم أعاد البولانديست طبعها فى *Acta Sanctorum*، ١٧ أغسطس.

(2) رسالة البابا يوحنا الثامن، رقم ٢٤٠ بتاريخ ١٩ نوفمبر ٨٧٩، لـدى لابيـه، *Sacrosancta Concilia*، المجلد التاسع، ص ١٨٤؛ إن موراتورى، *Annali*، عام ٨٨٠، يخلط هذا النصر بنصر آخر نحن بصدد روايته، وكتب بشأنه البابا يوحنا إلى كارلو الكالڤو فى رسالة بتاريخ ٣٠ أكتوبر ٨٨٠، رقم ٢٥٥ (وطبع بطريق الخطأ ٢٤٥).

نيكيتا أوريفا أسطول كريت فى خليج كورنثوس وأشعل فيه النار وأغرقه وأسر أعداداً ضخمة من جنوده، وقادهم للموت من خلال عذابات مروعة، فمنهم من سُلِخَ حياً، ومنهم من غُمِسَ فى القطران المغلى(1). وعلاوة على فظاعة هذه الأعمال، كان البيزنطيون يتفوقون فى عددهم حيث نقرأ أن الأسطول الأفريقى والصقلى الذى تجمع فى بالرمو كان يقدر بنحو ٦٠ سفينة(2) بينما بلغ عدد الأسطول البيزنطى الذى تم إرساله لمواجهته(3) مائة وأربعين سفينة يقودها قائد كان يُدعى نزار، وهو من رجال سوريا كما هو واضح من اسمه، وربما كان من عشيرة المردايين المعتزين بأنفسهم الذين كانوا يناضلون ضد قاهريهم من المسلمين فى قوة داخل وطنهم وخارجه(4) مثلما فعل الأسطول الأفريقى حينما أخذ فى الانتقام من تشيفالونيا وتزانت وكل تلك السواحل، ولعله كان ينوى العبور إلى كالابريا، هكذا فعل نزار، حينما جمع قواته فى ميناء مودونى وأعاد النظام بين صفوف جنوده وعززهم بأفراد من عشيرة المراديين ومن المحاربين من بيلوبونيزو، وخـــرج بغتة للقـــاء عدوه. وفى معركة ضـــارية أحرق أو أسر معظم ســـفنه، وكان ذلك فيما أعتقد، فى أوائل شهر أغســـطس عـــام ثمانمـــائة وثمانين على

(1) *Theophanes Continuatus*، الكتاب الخامس، الفصول ٥٩، ٦٠، ٦١ ص ٢٩٨ وما يليها، وردت الرواية عن هذه الفرق وغيرها بالأسطول البيزنطى فى صقلية وكلابريا قبل غزو سيراكوزا. ولكن المؤلف مجهول الاسم يعترف فى (الفصل ٧١، ص ٣١٣) بعدم تأكده من التسلسل الزمنى للأحداث. ولقد صححته أنا بمساعدة المراجع الإسلامية والإيطالية التى سوف أذكرها فى الهوامش الآتية.

(2) *Theophanes Continuatus*، الكتاب الخامس، الفصل ٦٢ ص ٣٠٢، أرى أنه لابد من استخلاص أنه الأسطول نفسه الذى رآه إيليا فى ميناء بالرمو.

(3) **البيان**، المجلد الأول، ص ١١٠.

(4) *La Continuazione di Teofane*، يذكـــر اســـم نـــزار فقـط. وفـى *Vita di Santo Elia*، سُمِّىَ الأميرال باسيليوس نزار، ولكننى أشك فى أن يكون اسم باسيليوس هو اسم الإمبراطور، وأنه لخطأ فى المخطوط أو الترجمة أُضيف إلى اسم نزار. ونزار اسم من أصل سامى. ولهذا ولأن الأميرال طلب تعزيزات من المراديين فإنى افترض انه ينتمى إلى هذه العشيرة التى أطلق عليها العرب هذا الاسم؛ لأنها تمردت عليهم. وقد كانوا مسيحيين من لبنان، من الجماعة التى تعرف باسم مارونيت.

الساحل الغربى لليونان ذاتها، إيلاد، كما كانت تسمى حينئذ الولاية الواقعة شمال برزخ كورنثوس. ولما لجأت السفن القليلة التى استطاعت الفرار إلى صقلية، أعطى باسيليوس أوامره لنزار بالاتجاه غرباً. وهكذا أتى إلى ريجو، وبعد أن حطم، كما يبدو، ما تبقى من الأسطول الصقلى الذى حاول المناوشة، رسا فى مكان غير بعيد عن بالرمو(1).

وبعد أن سيطر البيزنطيون على البحر، بدأوا يطاردون سفن بضائع المسلمين واستولوا على كميات ضخمة من البضائع القيمة،

(1) لدينا شهادات مختلفة، لا يصعب التوفيق فيما بينها بشأن هذه الهزيمة التى لحقت بأسطول المسلمين فى أفريقيا وصقلية. فكتاب *La Continuazione di Teofane*، الكتاب المذكور، الفصل ٦٢، يذكر عدد السفن الأفريقية، أما الزمن فغير محدد بدقة وغير صحيح؛ والمكان أيضاً غير محدد بدقة، ولكنه يذكر أن العدو عَبَر بحار تشيفالونيا وتزانت، وأن نزار خرج من مودونى، وأنه عاد إليها بعد النصر، ثم أتى إلى بالرمو بعد أن طلب تعليمات من باسيليوس. وفى رسالة يوحنا الثامن، بتاريخ ٣٠ أكتوبر، المرسوم، التاسع عشر (من ١ سبتمبر ٨٨٠ وحتى ٣١ أغسطس ٨٨١) ما يفيد غرض إعلام شارل الكالڤو بأخبار اليونانيين والإسماعيليين حيث يقول:

quia Græcorum navigia in mari jsraelitarum Victoriosissime straverunt phalanges; ومن الواضح أنه يجب أن نقرأ *jsmaelitarum*. وفى *Cronica di Cambridge*، لدى دى جريجوريو، *Rerum Arabicarum*، ص ٤٣، نقرأ أنه "فى عام ٦٣٨٨ (الأول من سبتمبر ٨٧٩ إلى ٣١ أغسطس ٨٨٠) أخذ البيزنطيون سفن المسلمين إلى مكان يُدعى إللادة" هذا اللفظ بالتحديد يُقرأ فى المخطوط باللام مشددة وعلى حرف الـ د نقطة لضبط النطق، وهو الحرف الذى كان العرب يستخدمونه لنقل نطق حرف الـ ذ اليونانى أو اللاتينى لأن حرف الـ د، عندهم دون نقطة يختلط أحياناً بحرف الـ ت عندنا. و(*Ellâde*) هو بالضبط اسم ولاية اليونان نفسها التى تمتد بين بحر وآخر وكانت تضم جزيرة نيجروبونت الموجودة جهة الشرق وليس تشيفالونيا وتزانت الممتدتان ناحية الغرب، ويحدها من الشمال ولاية تسالونيكى ومن الجنوب ولاية بيلوبونيز. وعادة ما يكتب البيزنطيون هذا الاسم بهذا الشكل (Ἑλλάς) وفى حـــالة النصب بهذا الشكل (Ἑλλάδα)، بنفس حروف ونبر الكتابة الصوتية العربية. وابن الأثير، المخطوطة A، المجلد الثانى، ورقة ١٠٩ الوجه الثانى، ومخطوطة بيبرس ورقة ٤٩ الوجه الأول، عام ٢٦٦ (من ٢٢ أغسطس ٨٧٩ إلى ١٠ أغسطس ٨٨٠) يذكر المعركة فى بحار صقلية، والاستيلاء على معظم سفن المسلمين ونجاة ما تبقى منها فى بالرمو. أما **البيان** المجلد الأول، ص ١١٠، فيقول إن حاكم صقلية شن الحرب على البيزنطيين الذين خرجوا بمائة وأربعين سفينة؛ وبعد اشتباك الأسطولين، كان الاستيلاء على سفن أسطول المسلمين وعبر المنتصرون إلى بالرمو.

وخاصة الزيت الذى كانت كمياته كبيرة لدرجة أنهم باعوا اللبرة منه بأوبول(1): وكان النهب مميتاً فى ذلك العام الذى عاشت فيه أفريقيا مجاعة رهيبة(2)، واشتدت مع ذلك الحاجة للمواد الغذائية من صقلية. وفى الوقت ذاته أرسل نزار فرقا من الخيالة لتخريب أراضى المدن الخاضعة لجزية المسلمين: واستمر على هذا النحو عدة شهور وهو يثير الاضطراب فى تجـــارة الجماعة دون أن يغـــامر بالإغارة عليهـــا إلى أن ذهب إلى شـــبه الجزيرة الإيطالية حيث كان من الســهل

وكان ذلك عام ٢٦٦. وأخيراً ما ورد فى كتاب *La Vita di Santo Elia* إذ يذكر أنه تم تجهيز الأسطول فى بالرمو لمحاربة ريجو فى عهد الإمبراطور ليونى الذى أرسل باسيليوس نزار ومعه ٤٥ سفينة ويذكر أن القديس إيليا ذهب من بالرمو إلى تاورمينا وإلى ريجو حيث طمأن المواطنين حتى لا يهربوا، وطمأن نزار حتى يثق فى النصر، وأنه حينما خرج نزار للقاء المسلمين ألحق بهم الهزيمة ودفعهم إلى الفرار وأغرق بعضهم فى البحر أو أخذ الأسرى. وقد يكون تاريخ هذه الرواية هو ٨٨٠، حيث إن ليونى، الذى كان بمفرده فى الحكم فى الفترة التى كتبت فيها هذه السيرة، كان قد انضم إلى والده قبل عام ٨٨٠، وكما أشرت قبلا فإنه كان يجدر إضافة باسيليوس فى النص إلى اسم ليونى وليس إلى اسم نزار. ولكن التحقيقات الزمنية التى أوردها جايتانى فى المرجع السابق ص ٦٨، لا محل لها، وكذلك ما أورده البولانديست الجزء جـ ص ٤٨٣، أما عن مكان المعركة، فإما أنه أختلط بغيره فى ذاكرة إيليا الذى كان يروى هذه الأحداث وهو شيخ مسن، أو خلطه قلم كاتب سيرة القديس، أو أنه حدث اشتباك جديد بين ٤٥ سفينة بيزنطية مع بقايا أسطول المسلمين الذين خرجوا من بالرمو بعد أن وجدوا أنفسهم مهاجمين فى عقر دارهم. وبعد ما قيل حتى الآن، يبدو لى أن الأحداث قد تأكدت بما يكفى. وكذلك أيضاً بالنسبة لتاريخ وقوعها على الرغم من وجود قضية لا أريد الصمت عليها، وهى أن يوحنا الثامن قد انتظر حتى ٣٠ أكتوبر حتى يُعْلِم كارلو الكالڤو بهزيمة للمسلمين وقعت فى أوائل أغسطس. ومع أن تاريخ ٨٨٠ هذا يتفق جداً مع جميع المذكرات والمدونات فمن ناحية أخرى، كانت كل الصلات بين روما وصقلية متأرجحة، وعلاوة على ذلك كانت رغبة البابا يوحنا فى إعلام كارلو بذلك الخبر رغبة غير ملحة حيث كان يداوم فى طلب المساعدات منه لمواجهة المسلمين، وعليه فمن الوارد أن يكون قد مر عليها شهران ونصف الشهر. فى النهاية ينبغى الأخذ فى الاعتبار أن البابا لم يكن يقصد كتابة هذا الخبر بالذات، ولكنه جاء بشكل عارض، فى رده على كارلو الكالڤو الذى كان قد سأله، وربما فى شئ من الخبث عن أخبار اليونانيين والمسلمين.

(1) *Theophanes Continuatus*، الكتاب الخامس، الفصل ٦٤، ص ٣٠٤، ٣٠٥، كان الأوبول يوازى ١/ ٢١٠ من البيزنطية أى نحو ٠،٠٦ من الليرة الإيطالية.

(2) ابن الأثير، الموضع المذكور.

الاستحواز على الأراضى(1). ثم ترك فرقاً من القوارب فى تيرمينى أو فى تشيفالو وبها جنود يواصلون التخريب بالبر(2). وربما فى ذلك الحين عَيَّن باسيليوس إوبراسيو(3) قائداً ثم موسوليتشى ربما لأنه عقد العزم على الأمر بالحرب فى صقلية. ومما هو مؤكد فقد بدأوا حينئذ فى تشييد أو تحصيين مدينة أعطاها البيزنطيون اسم مدينة الملك ، واعتقد أنها مدينة بوليتسى (4) الحالية التى ترتفع على هضبة وسط وادى مادونى الرئيسى على مسافة قصيرة جداً من منابع نهرى إيميرا الشمالى والجنوبى أو، فى قول آخر، النهر الكبير ونهر سالسو. وهذان النهران، إذ يجريان فى اتجاه عكسى، بحيث يتجه أحدهما إلى البحر التيرانى والآخر نحو بحر افريقيا، فهما يقطعان صقلية فى خط متواصل، يحدد التقسيم الإدارى فى ظل حكم الرومان، ثم مرة أخرى خلال القرن الثالث

(1) قارن *Theophanes Continuatus* المرجع المذكور **والبيان**، المجلد الأول، ص١١٠.

(2) لا أظن أن هناك شكاً فى أن تلك الفرق من السفن الصغيرة قد بقيت فى هذه الأماكن بعد رحيل نزار. وأن الميناء لابد وأن تكون ترمينى أوتشيفالو حيث كانت صفوف المسلمين تتدفع ناحية مادونى التى تسيطر من أعلى على ناحيتى الشاطىء.

(3) انظر: ليونسى جراماتيشى، *Chronographia*، ص٢٥٨، وچيورچى موناكى، *De Basilio Macedone*، الفصل العشرين، ص٨٤٥. واتباعاً لهذا الأخير، أغفلت اسم موسوليتشي، الذى أطلقه ليونى على إوبراسيو أيضاً، ويبدو أنه اسم القائد الذى جاء بعده.

(4) ابن الأثير، المخطوطة *A*، المجلد الثانى، ورقة ٢٣ الوجه الأول، ومخطوط بيبرس، ورقة ٦٢ الوجه الأول، وتحت عام ٣٦٨ (٨٨١-٨٨٢) يذكر استيلاء المسلمين على قلعة كان اليونانيون قد أقاموها حديثاً وأطلقوا عليها اسم مدينة الملك. والمقصود بعبارة "حديثاً" عام٨٨٠ لأن قبل هذا التاريخ كان المسلمون هم المنتصرون والمسيطرون فى تلك الأنحاء. أما فيما يتعلق ببوليتسى، فعلاوة على موقعها الذى تشير إليه جميع العمليات الحربية عام٨٨٢، فاسم المدينة يدلل عليها وهو اسم يونانى بالضرورة. Βασιλεόπολις, أو Πόλις, فقط وكان ينطق بالضبط *Polis* بوليس فى القرن الثانى عشر، ذلك ما تشهد به التسمية العربية التى نقل بها الادريسى اسم المدينة نقلاً صوتياً. ولكن ونريش وقع فى الخطأ، فى الكتاب الأول، الفصل الحادى عشر، § ٩٦، ص١٢٨، وأظن انه وجد مدينة الملك فى كاستروريالى دون أن يفكر فى أن الاسم لايمكن أن يكون لاتينياً، ودون أن يعلم أن كاستروريالى أسسها الأراجونيون فى القرن الرابع عشر كما نقرأ لدى فاتزيللو فى العشرية الأولى، الفصل الأول وعند اميكو *Lexicon Topographicum*.

عشر، وكان اسم الولايتين فى السابق ليليبيتانا وسيراكوزانا، ثم أطلق عليهما فيما بعد اسم صقلية ما قبل، وما وراء السالسو أى صقلية الغربية وصقلية الشرقية وتتمثل الأولى منهما فى وادى مازارا بينما تقع الأخرى بواديى ديمونا ونوتو معاً. ومن تلك القلعة كان باستطاعة البيزنطيين السيطرة على المنحدرين بسيادتهم على مرتفعات المادونى، وكان بإمكانهم حصار المسلمين فى وادى مازارا وتأمين المسيحيين من أهالى وادى ديمونى ووادى نوتو. وبعد قرنين من الزمان ولهذا الغرض نفسه أخذ الكونت روچيرو يحصن مدينة بوليتى حتى إنه نُسبَ إليه تأسيسها.

ولما تم استبدال حسين بن رباح بسبب تلك الهزائم أو لعله قُتِل أثنائها وأُعِيد حسين بن عباس(1) إلى حكم الجماعة، أخذ الخيالة القناصة من المسلمين يتدفقون من بالرمو ليخربوا صقلية كلها وكان ذلك عام مائتين وسبعة وستين للهجرة (من ١١ اغسطس ٨٨٠ إلى ٣٠ يوليو ٨٨١)، أى فى صيف عام ٨٨١، وما أن عقد حسين عزمه وعبر الجزيرة وبصحبته غالبية رجاله، حتى راح يحرق الحصاد فى ريف كتانيا. ثم انتقل من هناك إلى ريف تاورمينا(2)، وأخذ يتلف المحاصيل ويقطع الأشجار: فخرج للقائه بارساميو، قائد الحامية، وكان من سوريا كما قد يبدو من اسمه، وانهزم هزيمة قال عنها كاتب سيرة إيليا دا كاسترو چوڤانى إن القديس تنبأ بها (3). وكان المنتصر المسلم، وهو فى طريق

(1) ابن الأثير، المخطوطة *A*، المجلد الثانى، ورقة ١٢٠ الوجه الاول، ومخطوط بيبرس، ورقة ٥٩ الوجه الاول، عام ٢٦٧، **البيان**، المجلد الأول، ص١١١، وابن ابى دينار، مخطوط باريس ورقة ٢١ الوجه الثانى، وبه خطأ فى ذكر اسم إيلياس بدلاً من عباس. كما ورد لقب الأسرة هذا فى ابن ودران على أنه المياس ، مخطوط § ٦، الترجمة الفرنسية فى *Revue de L'Orient* ، ديسمبر ١٨٥٣، ص ٤٢٩.

(2) ابن الأثير، الموضع المذكور.

(3) انظر : *Chronicon Cantabrigiense*، لدى دى جريجوريو، و *Rerum Arabicarum* ص٤٣، و *Vita di Santo Elia da Castrogiovanni* لدى جايتانى *Vitæ Sanctorum Siculorum* ، المجلد الثانى، ص٦٨، ولدى، *Acta Sanctorum*، السيرة رقم ١٧، ص٤٨٣. نقرأ فى الأخبار عن هزيمة برساس فى تاورمينا،

عودته إلى بالرمو، يخرب أراضى بكارة، ولاأعرف جيداً إن كانت ڤيكارى، أو قلعة متهدمة نواحى جانچى وكلتاهما ليستا ببعيدتين عن المكان الذى عزز فيه البيزنطيون قواتهم. فلم يوقفوا غاراتهم على أراضى المسلمين وتسببوا لهم فى خسائر فادحة جداً (1). وهكذا استمر القتال وتفاوتت نتائجه.

وبدأ العام التالى وهو سنة مائتين وثمانى وستين من الهجرة (٣١ يوليو ٨٨١ إلى ١٩ يوليو ٨٨٢) بهزيمة ساحقة وانتهى بانتصارات رائعة للمسلمين. يروى ابن الأثير أن فرقة من الخيالة كان يقودها أبو ثور

ويذكر كتاب *Vita di Santo Elia* اسم برساميوس، ويبدو لى أنها قراءة أفضل، فاسم برسيميوس، وهو كتابة صوتية للاسم السيريانى برسومة، يوجد بالفعل فى بلاد ما بين النهرين منذ القرن الثانى وحتى القرن الخامس الميلادى، كما سبق أن أشرت فى هوامش **سلوان المطاع**، لابن ظفر بالهامش رقم ٤٤ فى الفصل الخامس ص ٣٣٦، ويذكر ونريش، فى الكتاب الأول، الفصل الحادى عشر، § ٩٦، أنه قُتِل من المسيحيين ثلاثة آلاف؛ ويستشهد بابن الأثير فى الهامش رقم ١٤٤. وبهذا يخلَط بين هذه الواقعة وبين التى أعقبتها فى عام ٨٨٢.

(1) ابن الأثير، المرجع المذكور. نقرأ بوضوح اسم بيكارا فى المخطوط، ويبدو أنها كتابة صوتية لبيكاروم، كما نجد اسم ڤيكارى الحالية مكتوباً فى وثائق القرن الحادى عشر اللاتينية، وهى أرض تبعد ٣٠ ميلاً عن بالرمو ونصف هذه المسافة تقريباً عن شاطئ البحر التيرانى. ولكن اسم ڤيكارى نجده مكتوباً لدى الإدريسى بيقو وهو يطابق تماماً إسم Βοιχός الموجودة فى وثيقة يونانية، من القرن الحادى عشر، نشرها بوشيمى *Giornale Ecclesiastico per la Sicilia*، بالرمو ١٨٣٢، المجلد ١ ص ٢١٢، ٢١٣. علاوة على ذلك يتكلم الإدريسى عن قلعة أخرى تقع بالتأكيد قرب جانچى، وهى أرض تبعد ١٤ ميلاً عن بوليتسى، ويرد اسم تلك القلعة مكتوباً فى *Geographia Nubiensis* وهو **ميكاوا**، كما هو الحال أيضاً فى مخطوط الإدريسى بأكسفورد، كما ورد نقارة فى إحدى مخطوطات باريس، أما فى الأخرى، وهى الأفضل، فالاسم مكتوب بها **بقارة**. وهى بدائل مختلفة أفضلها **مقارة** وافتراضنا فى ذلك يقوم على أنه كانت تقع بالقرب من جانچى **إيماكارا** بلينيو **وميجارا** بطليموس. وعليه، يبقى الشك فى وجوب إجراء التصحيح نفسه لابن الأثير ليصبح الاسم **مقاره** أو يجب افتراض أن الأخبار التى قرأ فيها "بقارة" نقلت الاسم بيكاريوم بطريقة مختلفة عن الإدريسى. وهو شك لا معنى له ومن غير الممكن تبديده حيث أن موقعى ڤيكارى وجانچى من المحتمل أن احتلهما البيزنطيون خلال تلك العملية. ومن جانب آخر، فأسماء بيكارو وڤكارو، وڤيكو، وبيكا، إلخ، لابد أن كانت أسماء شائعة فى صقلية، وبالقدر الذى كان يسهل معه أن تختلط ببعضها فى حين يقابل اسم بقار فى العربية اسم Βοῖχος فى اليونانية و«بوارو» و«ڤكارو» فى الإيطالية.

اصطدمت بالجيش البيزنطى فتمزقت تمزيقا لدرجة أنه لم ينج منها سوى سبعة رجال فقط(1). ويشير اسم كالتاڤوتورو(2) الذى يعنى به قلعة أبى ثور وهى تبعد خمسة أميال عن «بوليتسى»، تشير إلى مكان الاشتباك. ويمثل خبر ذلك الحدث الذى ورد فى سطر من سطور الأخبار، نموذجاً للمادة التى يتحتم علينا الاعتماد عليها فى عملنا هذا: فهى معلومات دقيقة أحياناً ولكنها تشبه شواهد القبور، فهى لا ترسم لنا الملامح ولا تكشف الأحاسيس والأهواء والأفكار، وكل تلك الحركة الحيوية التى تُمْتِع وتفيد فى قراءة التاريخ. ولكن الأساطير والحكايات الشـعبية تحل بعض الشئ محل أخبار حوادث التاريخ التى نتشوق نحن إليها والتى لمسها أساتذة الفن الكبار: فالحكايات تكشف لنا على الأقل كيف كانت نشوى الرواة حينئذ، وهى على كل علامة من علامات الحياة. وتتعارض سيرة يونانية فيما يبدو مع سيرة أخرى عربية، فى ذات أمر كالتاڤوتورو، حينما قصتا رؤيتى خصمين فى بضعة هزائم كانت من حظ المسلمين. ففى كتاب حياة اينياتسو بطريرك القسطنطينية المكتوبة باللغة اليونانية يروى نيكيتا داڤيكّ دى بافلاجونيا هذه الواقعة ضمن مائة من معجزات البطريرك: يقول إن موسوليتشى، وهو قائد أعلى بصقلية، حينما روعته أهوال معركة ضارية ضد السراسنة ولم يعرف ماذا يفعل فيها، أخذ يناجى روح اينياتسو البارة، وإن القديس ظهر له فى الجو على حصان أبيض قوى، وأخذ يشير إليه بأن يحرك صـفوف جنـوده فى اتجـاه يسـار العدو، وهكذا فعـل القائد الورع، وعلى عكس المعتاد، انتصر فى المعركة(3): وبدلاً من أن

---

(1) ابن الأثير، المخطوطة *A*، المجلد الثانى، الورقة ١٢٣ الوجه الأول، ومخطوط بيبرس، ورقة ٦٢ الوجه الأول عام ٢٦٨.

(2) «قلعة أبى ثور»، فى الإدريسى، *Calatabutor, Galatabutur*، إلخ، فى وثائق القرنيين الحادى عشر والثانى عشر اللاتينية.

(3) نيكيتا بافلاجونى، *Vita Sancti Ignatii*، لدى لاب، *Sacrosancta Concilia*، المجلد الثامن ص ١٢٤٧.

تذكر رواية المسلمين أسقفاً ياتى ليُظْهِر براعته فى قيادة الحرب، جعلت الحوريات ذوات العيون السوداء الجميلة تنزل من أعالى السماء لتدعو شهداء دين التوحيد إلى حياة جديدة. والراوى هو أبو حسن الحريرى، وكان صقلياً معروفاً بتقواه بين عشيرته وقد توفى عام تسعمائة وواحد وثلاثين ويروى وهو فى شيخوخته أنه: "حين كان وطننا يذخر بفرسان بواسل لم يتنافسوا على إهلاك بعضهم فى حرب أهلية، وحين تحركت مع الآخرين فى عملية ضد الكفار، اصطدمنا بالعدو الذى جعـــل لنا فيها مذبحة. ومن بين الجثث وجدت أبا عبد السلام مفرج بين الحيـــاة والموت، وكان رجلاً صالحاً وَهَب نفسه لعمل الخير والتكفير القاسى عن نفســـه وللنضال فى سبيل الدين، وقد حدثنى بالآتى: "أقسم بالله أننى رأيت أدراجاً كثيرة ترتفع من هذا الميدان إلى الســـماء وتنزل عليها فتيات لم أر طوال حياتى فى مثل فتنتهن وسحرهن الخلاب، وكانت كل واحدة تقترب من أحد شهدائنا وبيدها منشفة من حرير أخضر، فتمسك برأسه وتضعها فى حجرها لتجفف له دماءه النازفة؛ ثم تحمل بعد ذلك الجريح على ذراعيها لترتفع به إلى السماء. ولكن الفتـــاة التى أتت إلىَّ، حينما أيقنت أننى أتنفس، ولت عنى وقد ملأها الحزن وهى تصيح: "ياالسوء حظى، إنه يعيش! ياالعـــارى بين صاحباتى!" ثم تركتنى. وأخذ مفرج يتم حديثه وهو ينتحب "ليتنى أراها بعينى هاتين المفتوحتين الحزينتين. لقد تركتنى تلك الأخت الحلوة: كيف لى أن أكف الآن عن البكاء مالم أعد وألقاها؟". ومنذ ذلك اليوم فصـــاعداً أخذ مفـــرج يتعمق أكثر وأكثر فى التـــأمل فى الذات الإلهية وفى الحياة الأخرى، وأخذ يغالى فى كل غريب فى أســـلوب حيـــاته الزاهدة، فتغذى على الأعشـــاب، وعندما كان يقول أحدهم: "كف عن هـــذا يا أبا عبد السلام(1) فقد عملت ما يكفى لكى تربح الجنة" كان يرد قائلاً: "ياالتعاستى، لا عذر

(1) إن كان اسلوب النداء ودى، فمن عادة العرب النداء بالكُنية أكثر منه بالاسم أو لقب العشيرة.

لى عند ربى". ثم يعود إلى البـكاء واستمر هكذا يتعذب طيلة الست سنوات التى بقيت له من عمره(1).

بعد تنحية حسن بن عباس عن الحكم بعد هزيمة كالتافوتورو، ليحل محمد بن فضل محله، أخذ ابن فضل يكرر ويتبع فى ربيع عام ثمانمائة واثنين وثمانين خطة حسن، فأخذ ينشر فرق الخيالة فى كل مكان لم يَخْضَع فيه المسيحيون، وتحرك هو بنفسه مع الجيش ضد كتانيا. فذهب معه حشد كبير من الرجال، هبوا معاً للجهاد كما يتضح مما كتبه ابن الأثير(2). وبعد أن أتلف المحاصيل بحقول كتانيا، باغت محمد جنود القوارب البيزنطية فهاجمهم، وليس من الواضح إن كانوا قد نزلوا فى الساحل الشرقى أو كانوا بالبر خلف جيش المسلمين، أو أن محمداً قد ذهب للقائهم على الساحل الشمالى بعد أن اجتاز الجبال. وحاربهم وفرق صفوفهم فى مذبحة كبيرة. ثم اتجه لإتلاف محاصيل تاورمينا، وعند عودته اشتبك مع جيش مسيحى أقوى، تم تجميعه على الأرجح من مختلف أقسام صقلية، وشتته وقتل منه ثلاثة آلاف رجل وأرسل برؤوسهم إلى بالرمو. وأفاد من النصر فهاجم مدينة الملك، بوليتسى، إذا صح افتراضى، وسيطر عليها بقوة السلاح وأهلك جميع المقاتلين بها وأسر كل من تبقى(3). هكذا تم إخلاء الساحة ممن تبقى من جنود حملة نزار العسكرية. ولما كانت القوات البيزنطية تفى بالكاد للحرب فى كلابريا فقد تركت صقلية ولعلها تركت بها حاميات قليلة جداً. لذلك انحسرت الأراضى المسيحية فى جبال پيلورياد وإتنا والوادى الواقـــع بينهما.

ولولا وجود أســـوأ عدو للمســـلمين و هـــو الشـــقاق والانقســـام ليعوق

(1) **رياض النفوس**، مخطوطة باريس، ورقة ٧٩ الوجه الثانى إن ترجمتى للرواية أمينة وليست حرفية.

(2) إنه يستخدم لفظى «حشد» "*ragunata*"، و"جمع" "*turba*".

(3) ابن الأثير، المرجع المذكور، **البيان**، المجلد الأول، ص ١١١، تحت عام ٢٦٨، يشير فقط إلى استبدال الحاكم بآخر، ويورد اسمى الحاكم المنحى والمنتخب فى دقة. ويجب إرجاع تاريخ العملية التى قام بها محمد بن فضل إلى عام ٨٨٢، حيث إن عملية إتلاف المحاصيل تحدد الموسم.

طريقهم لاقتحموا ذلك الشريط بقليل من الجهد. فعادة يجد الشقاق فى جو الخصومات طُعماً جديداً له؛ كالجمر المدفون، فما أن يجد فرصته حتى يشتعل ويضطرم. وأخذت علامات النار المشؤومة تظهر بعد نصر محمد بن فضل بقليل: إن الضعف وعدم الثقة هما اللذان أفسدا النصر.

ففى عام مائتين وتسعة وستين (٢٠ يوليو ٨٨٢ وحتى ٩ يوليو ٨٨٣) أخذ محمد يقهر ريف راميتا وكتانيا بالسلب والأسر والقتل ولكنه عاد إلى بالرمو فيما بين شهرى يونيو ويوليو من عام ثمانمائة وثلاثة وثمانين(1) وفيما عدا ذلك لم يتعرض للعدو طوال ذلك العام. ثم حل حسين بن أحمد محل القائد المنتصر، الذى لا نعرف إن كان قد نُحِىَ أم توفى، ومات حسين عام مائتين وواحد وسبعين (٢٨ يونيو ٨٨٤ إلى ١٦ يونيو ٨٨٥) عقب غارة أمر بشنها على أراضى راميتا أتلف خلالها مزارع وكانت الغنائم منها متاعاً ورجالاً. ثم أتى سوادة بن محمد بن خفاجة من أفريقيا لحكم الجزيرة ورغبة منه فى محـــاكاة أبيه وجده فى القيام بعمليات جريئة، لم يقتصر على تخريب الريف فقط وإنما امتد أيضـــاً إلى ضواحى كتانيا(2)، ثم انتقـــل إلى تاورمينا وحارب تلك الحامية التى كانت هناك وأتلف المحـــاصيل وكاد يقترب أكثر من ذلك عندما أتى إليه رؤساء المدينة يطلبون الاتفـــاق معـــه، فعقد الهدنة ثلاثة شهور، وتبادل ثلاثمائة أسـير مسـلم بأسـرى من سيراكوزا وأعاد الجيش إلى معسكره فى

(1) ابن الأثير، المخطـــوطة *A*، المجلد الثانى، ورقة ١٣٣ الوجه الثانى، عام ٢٦٩؛ ومخطـــوط بيبرس ورقـــة ٧٢ الوجـــه الأول، إن هذا الفصـــل الموجز وغيـــره من فصول أخـــرى أيضـــاً تم ذكرها عنـــد م. ديه ڤيرچيه، فى تعقيب يتضـــمنه كتـــاب *Histoire de l'Afrique et de la Sicile par Ibn-Khaldoun* ص ١٣٢ وما يليها. ويجب استبدال اسم ريتا براميتا، ذلك رجوعاً إلى مخطوط بيبرس. كما ورد ذلك أيضاً فى فصل عام ٢٧١ الموجز. ،

(2) يكتب ابن الأثير، بعبارة غير محددة أو ربما نقلها النساخ منقوصة: "تحرك بجيش كبير صوب مدينة كتانيا ودمر ما كان بها".

بالرمو(1). بانقضاء الهدنة، عاود الهجوم على صقلية الشرقية فى مستهل عام مائتين واثنين وسبعين (١٧ يونيو ٨٨٥ إلى ٦ يونيو ٨٨٦)، ولم يظفر إلا ببعض الغنائم(2).

وهكذا أخذ توقف الجهاد لمدة عامين، لأن النفوس كانت قد تهيأت للحرب الأهلية. وفى النهاية، فالانتصارات التى كان يحققها نيشيفورو فى كلابريا والفوضى التى جلبها المسلمون اللاجئون(3) من البر الإيطالى إلى الجزيرة قد اجتمعت مع أسباب الغضب الأخرى لينتهى الحال بالجزيرة إلى إراقة الدماء. وتحارب العرب والبربر فيما بينهما، فى أى يوم بالتحديد لا نعرف ولكنه، كان بين خريف عام ثمانمائة وستة وثمانين

(1) **البيان**، المجلد الأول، ص ١١٣، يقتصر على ذكر اسمى الحاكم المتوفى والحاكم الذى جاء بعده؛ وابن الأثير، المخطوطة *A*، المجلد الثانى، ورقة ١٤٠ الوجه الأول، ومخطوط بيبرس، ورقة ٨٣ الوجه الأول، عام ٢٧١، يروى وقائع الحرب والاتفاق وتتحدث *Chronicon Cantabrigiense*، لدى دى جريجوريو، *Rerum Arabicarum*، ص ٤٣، عن الاتفاقية فقط. وها هى كلمات الكتابين: فنقرأ فى ابن الأثير: "... وكان يهاجم المدينة عندما أتى إليه رُسل حاكم الروم، يسألونه الهدنة وتبادل الأسرى، إلخ" كما ورد فى *Cronica di Cambridge* أن: "أحضر الأُول فى *ûl tî* الفدية وأخرج أسرى سيراكوزا"؛ حسبما ينبغى تصحيح النص اللاتينى، إن ذلك الاسم الذى تنقصه النقاط على حرفين منه، قد تمت قراءته *Buliti* بوليتى، وفى هذا الاسم تَعَرَّف دى جريجوريو ببصيرة ثاقبة على اللفظ اليونانى Βουλευτίς أو أفضل من ذلك λευτής) وكان ينطق *Vulevtis* ، وذلك باعطاء نفس قيمة حرف الـ*V* عندنا لحرفى *G* و*V* لدى اليونانيين. ولهذا فعند استعادة نقاط ضبط النطق أقوم بتصحيحه *Bûlebtî* ويبدو لى أنه جمع Βουλευταί, وهو لفظ كان يعنى فى لغة العصور الوسطى *Decurioni* أعضاء مجلس البلدية العشرة، أى مجلس المشيخة الرومانية فى مجمله *Le curia*.
أظن أن الحوليات الإسلامية جعلت رجال الحكم هؤلاء التابعين للجماعة رسلا للقائد البيزنطى. ومن الجائز أيضاً أن يكون قائد الحامية العسكرية هو الذى وقع الاتفاق وبعض أعضاء المجالس انتقلوا إلى بالرمو لاستعادة الأسرى المسيحيين واصطحاب الأسرى المسلمين الذين ربما لم يكونوا بتاورمينا. على أية حال، فالواقعة واللفظ الذى استخدمه ابن الأثير يدلان على أن الأمر كان يتعلق بتبادل أسرى، وليس مجرد استعادة مسيحيين.

(2) أنظر: ابن الأثير، المخطوطة *A*، المجلد الثانى، ورقة ١٦١ الوجه الثانى، ومخطوط بيبرس، ورقة ٨٥ الوجه الثانى، عام ٢٧٢، **البيان**، المجلد الأول، ص ١١٣.

(3) ابن الأثير و**البيان**، الموضعان المذكوران.

وربيع سنة ثمانمائة وسبع وثمانين: فقد أخذ شعب بالرمو سوادة مع شقيق له وجميع أنصارهم وكبلوهم بالأغلال وبعثوا بهم إلى أفريقيا وأتخذ الشعب له أبا عباس بن على حاكماً من جديد(1). ولكن يبدو أنه بقى يعمل لمدة قصيرة وأن الأمير الأغلبى نجح فى تهدئة النفوس الثائرة، حتى أنه أعاد سوادة ذاته بعد وقت وجيز إلى بالرمو.

وسادت فترة توقف فيها الشقاق، ولكن أصداءها وصلت الأعداء. وحين توفى باسيليوس المقدونى فى هذه الأثناء (١ مارس ٨٨٦)، وانتقل منصب الإمبراطور إلى ليونى الضعيف، تم استدعاء نيتشفورو فوكا لقيادة الحرب فى آسيا الصغرى. وحينئذ كان مسلمو صقلية يجهزون الأسطول لمعاودة الهجوم على كلابريا فى عام مائتين وخمسة وستين (١٥ مايو ٨٨٨ إلى ٤ مايو ٨٨٩). وقدم الأسطول الإمبراطورى من القسطنطينية إلى ريجو للقاء الأعداء، وبعد عبوره المضيق الذى كان قد أخذ اسم ماردل فارو(2) إلتقى بالعدو فى مياه ميلاتسو وربما كان ذلك فى سبتمبر من عام ثمانمائة وثمانية وثمانين. وانتهت المعركة بمذبحة مروعة: انتزعت كل سفن المسيحيين ومات منهم خمسة أو ربما سبعة آلاف بين قتلى بالسيف وغرقى: ويجب تصديق ذلك فمن المؤكد أنه لم يعف قائد المسلمين المنتصر عن الأسرى

---

(1) نقرأ عن الحرب الأهلية بين البربر والجُنْد، أى والقوات العربية فى *Cronica di Cambridge*، لدى دى جريجوريو، *Rerum Arabicarum* ص ٤٣؛ أما الباقى فقد ورد فى **البيان**، المجلد الأول، ص ١١٤. وقد ورد فى هذا الكتاب الأخير، بتاريخ عام ٢٧٣ (٧ يونيو ٨٨٦ وحتى ٢٦ مايو ٨٨٧)؛ وفى *Cronica di Cambridge*، ٦٣٩٥ (١ سبتمبر ٨٨٦ إلى ٣١ أغسطس ٨٨٧).
ونقرأ فى رامبولدى، *Annali Musulmani* سنة ٨٨٧، ما يلى: "إن كاتب *Nighiaristan* نيجياريستان يقول إنه وقعت فى صقلية معرك عنيفة بين أولئك المسيحيين والمسلمين، وقد حقق كلاهما مكاسب على حساب الآخر". قد لا يكون بعيداً عن الاحتمال ان يكون المؤلف الفارسى أو الإيطالى قد فسر أحوال الحرب الأهلية بهذه الطريقة؛ أو لعل رامبولدى، قد أخذ عن طريق الخطأ، هذا الخبر من *Cronica di Cambridge*، ثم استشهد ب *Nighiaristan* نيجارستان.
(2) هكذا يسميه إركمبرتو.

بعد كل تلك القسوة التى تعامل بها نيكيتا أوريفا. وعند إعلان خبر هذه الهزيمة أخذ سكان ريجو والمدن الأخرى والحصون الواقعة بأطراف كلابريا يفرون من بيوتهم وهم يشعرون بسيف المسلمين مسلطاً على رقابهم. وبالفعل نزل رجال الأسطول المنتصر على البر وانتشروا فى مختلف الأنحاء، وجمعوا غنائم كثيرة ثم عادوا إلى بالرمو(1).

وعاد اسم مدينة مسينا يُذْكَر فى كتابات المسلمين فى ذلك الوقت بعد غزوها عام ثمانمائة وثلاثة وأربعين، حيث نقرأ أن مجبر بن إبراهيم بن سفيان قد أُرْسِل ليقود "جيش مسينا وأرض كلابريا بعد معركة ميلاتسو". وهذا هو نص كلمات كاتب السيرة(2). فخلال فترة نصف القرن التى مرت بين الحدثين، الأول والثانى، لم يَرِد أى ذكر لتلك المدينة؛ ولكن من عام ثمانمائة وسبعة وسبعين إلى ما بعد ذلك يرد ذكر آثار تخريب جيوش المسلمين لريف راميتا وهى حصن صغير قائم بين الجبال غرب مسينا، وتبعد تسعة أميال

---

(1) يقول **البيان**، المجلد الأول، ص ١١٤، تحت عام ٢٧٥ إنها كانت "معركة رهيبة" انتصر فيها الصقليون وإنه هلك من الأعداء أكثر من ٧ آلاف قتيل و٥ آلاف غريق. ربما التبس الأمر على المؤلف وهو يقرأ النصوص التى تحمل تقليدين مختلفين، أى النصوص التى تنقل عدد الهالكين فى المعركة ثم المجموع الكلى بما فيه الأسرى؛ أو شئ من هذا القبيل. وهناك أيضاً إشارة إلى هرب المسيحيين من الأراضى القريبة من المسلمين ويجب أن تفسر على أنها أراضى كالابريا وأراضى ريجو بصفة خاصة. ذلك وفقاً لما ورد بنص *Cronica di Cambridge*، وإركمبرتو، *Chronicon Cantabrigiense*، لدى دى جريجوريو، *Rerum Arabicarum*، ص ٤٣، وفيها يصل عدد القتلى إلى خمسة آلاف ويحدد مكان المعركة بميلاتسو وتاريخ وقوعها ٦٣٩٧ (١ سبتمبر ٨٨٨ إلى ٣١ أغسطس ٨٨٩). وكذلك يتحدث ابن الأثير فى الجزء الذى سنشير أليه فى الهامش التالى، فهو يتحدث عن "معركة ميلاتسو". وإن إركمبرتو، *Historia*، الفصل ٨١، يفترض أنها وقعت فى مضيق مسينا. أما رامبولدى فى *Annali Musulmani*، عام ٨٨٨، فهو يكتب: "بعد ان توفى الأمير يعقوب بن أحمد من بنى أغلب وهو أحد قادة صقلية وحاكم مسينا، خلفه آرون الخمس فى حكم المسلمين فى تلك المدينة" ولا أعرف من أين استقى هذا الخبر الأخير. وإنما يبدو لى أن الخبر الأول هو عبارة عن تصحيح جزافى لما ورد من خطأ لدى النويرى.
(2) ابن الأبار، المخطوطة، الجمعية الأسيوية بباريس، ورقة ٣٦ الوجه الأول.

على خط مستقيم(1) وتبعد أكثر من ذلك بكثير عبر الدروب المطروقة من الشمال والجنوب. راميتا أو ريمكتا هى أراض ذات اسم لاتينى ولكنها قديمة وإن لم يذكرها مؤرخون وجغرافيون قبل القرن التاسع. وهى أرض خيراتها متواضعة، وكانت ملجأ مهماً فى زمن الحرب. وهكذا أيضاً على مدى القرن العاشر لم يكن اسم مسينا يُسْمَع إلا قليلاً، أما اسم راميتا فكان مشهوراً بالمعارك والحصارات إلى أن استعادت مدينة الفارو، قبل الفتح النورماندى بقليل، عظمتها القديمة لتعود راميتا إلى حالتها الطبيعية الأولية. وأرى أنه من خلال هذه التطورات يتعين علينا أن نستنتج أن مواطنى مسينا الأصليين وجزءاً كبيراً من الشعب قد توجهوا بعد عام ثمانمائة وثلاثة وأربعين إلى تلك المرتفعات الوعرة ليعيشوا أحراراً، وأن مسينا وقد أصبحت شبه مهجورة، استمرت على وضعها ميناءاً ومركزاً تجارياً بينما أصبحت راميتا تمثل قلعة الوطن القديم.

وكان مجبر رجلاً مقداماً ينتمى إلى عشيرة سفيان النبيلة وهو من أصهار عائلة أغلب(2)، وكان يحظى فى وقت من الأوقات برضا إبراهيم بن أحمد عليه حتى أنه كان يتبارى معه فى رمى الرمح على سبيل التسلية. هذا وقد كان مرشحاً لحكم لاريبوس، ولكنه ما أن استُبعِد بعد ذلك من أفريقيا مثله مثل كثيرين غيره ممن يشبهون الحاكم المستبد حتى عُهِدَ إليه بمهمة قيادة الجيش الخطرة بمسينا. وعندما ذهب مع بضع سفن عسكرية صغيرة فى هجمة على كلابريا، أسره الأسطول البيزنطى الذى كان يقوده فيما يبدو الأميرال ميكيلى، وتم إرساله إلى القسطنطينية، حيث توفى بعد بضع سنوات. واستمرت شعبية

(1) بمقياس الميل الصقلى وفقاً للخريطة الجغرافية. وجدير بالملاحظة أن الإدريسى يورد المسافة نفسها تماماً بالأميال العربية التى تطابق الأميال الصقلية. أما فى القرن الماضى فقد كانت المسافة تقدر بـ ١٣ ميلاً؛ وهى مسافة تم تحديدها بالتأكيد عبر طريق آخر أقل صعوبة. واليوم يبلغ الطريق السالك إليها ٢٤ ميلاً وهو الطريق الذى يمر بسبادافورا.

(2) كان والده إبراهيم شقيقاً لخفاجة أمير صقلية الذى سبق الإشاره إليه. كان سفيان كبير هذه الأسرة شقيق الأغلب الذى لُقبِّت الأسرة باسمه.

مجبر لمدة طويلة بين الناس فى أفريقيا، إذ كانت الألسنة تردد قصيدة شعرية قصيرة قالها مجبر فى أيام أسره الحزينة وبعث بها إلى القيروان، ووصل لنا منها مقطعان: وهو شعر يقوم على محاكاة شعراء آخرين، وأبياته متواضعة تحمل مشاعر حب الوطن، والعتاب على الحظ الذى لم يحالفه والدعاء بأن يخفف الألم عن نفس الأسير من حفظ يوسف من الغواية، وأعطى القوة لأيوب، وأنقذ إبراهيم من حنق الكفار، وأعطى لعصا موسى القدرة على مواجهة سحرة مصر(1).

أما سوادة بن محمد فبعد عودته إلى بالرمو تحرك عام مائتين وستة وسبعين (٥ مايو ٨٨٩ إلى ٢٣ أبريل ٨٩٠) ليهاجم تاورمينا وأخذ يحاصرها دون جدوى(2)، ويبدو أن إبراهيم بن أحمد أرسل معه قوات أجنبية إلى صقلية بزعم الجهاد فى كلابريا، ولكنه كان فى الحقيقة يريد أن يُلَجِّم الجماعة. وبالفعل، نجد أن *Cronica di Cambridge* تذكر أنه خلال مارس من عام ثمانمائة وتسعين هب مسلمو صقلية بسلاحهم فى مواجهة الأفريقيين وقتلوا شخصاً يدعى "توالى". وهو من لا يُعْرَف عنه سوى اسمه أو ربما لقبه(3)، غير أن ذكر اسم الأفريقيين والصقليين، الذى جاء به هنا الكاتب نفسه الذى سبق وتحدث عام ثمانمائة وسبعة وثمانين عن جند وبربر، يُبَيِّنُ أن الصراع كان دائراً بين القوات

(1) ابن الأثير، المخطوطة، الجمعية الآسيوية بباريس، المرجع المذكور وقد ورد ذكر اسم الأميرال اليونانى فى كتاب *Vita di Santo Elia da Castrogiovanni*، لدى جايتانى، *Vitæ Sanctorum Siculorum* ، المجلد الثانى، ص ٧٢، حتى وإن كان نصر الأميرال ميكيلى قد ذُكر فى نفس واقعة الصدام الذى أُسِرَ فيه مجبر. وفى كتاب *Historia de la Dominacion de los Arabes en España*، الجزء الثانى، الفصل ٧٥، أورد كوندى رواية إلى حد ما غير صحيحة فى الجزء الخاص بسيرة مجبر دون أن يستشهد بابن أبّار.

(2) **البيان**، المجلد الأول، ص ١١٥، عام ٢٧٦.

(3) *Chronicon Cantabrigiense*، لدى دى جريجوريو، *Rerum Arabicarum*، ص ٤٢، من المؤكد أن هذا الكتاب لا يشير باسم الصقليين إلى المسيحيين، الذين يسميهم دائماً روم، وإنما يقصد بهذا الاسم جماعة صقلية؛ كما ينهج كتاب العرب جميعاً حينما يقولون: سوريون، مصريون، أسبان، إلخ ويقصدون بذلك المستوطنين من أهلهم فى مختلف تلك البلاد.

التي أتت مجددا من أفريقيا وبين قدامى الجماعة، وإنها ليست حرباً بين السلالتين(1).

تولى محمد بن فضل الذى سبق ذكره حكم صقلية عام مائتين وثمانية وسبعين (١٤ أبريل ٨٩١ إلى ١ أبريل ٨٩٢). ويكرر **البيان** اسمه سنة مائتين وتسعة وسبعين (٢ أبريل ٨٩٢ إلى ٢١ مارس ٨٩٣) ويذكر أنه دخل بالرمو عاصمة الجزيرة فى ٢ صفر(2) (٤ مايو ٨٩٢). إن هذا التاريخ؛ بهذا التحديد إنما هو دلالة على وقوع حدث غير عادى، ولعلها كانت حركة تمرد أو تحزب أو ربما كانت هناك معركة. وتؤكد ذلك الإشارات التى وجدت عند كُتاب آخرين. إذ نقرأ فى تاريخ أفريقيا للنويرى أنه فى عام مائتين وثمانين (٨٩٣ ـ ٨٩٤) أعاد، إبراهيم بن أحمد، إلى منصب **حاجب** أو وزير أول، رجلاً يُدعى حسن بن ناقد وكلفه بمهام أخرى عديدة من بينها إمارة صقلية، وإن حسن خرج على رأس جيش لكى يحارب شعوب تونس. وكل شبه جزيرة شريق(3) كما كانوا يسمون ذلك اللسان من الأرض الذى كان ينتهى برأس بونه والمواجه

(1) يتأكد هذا المعنى للفظ "أفريقيين" من خلال الفقرة التالية التى وردت فى *Cronica di Cambridge*، لدى دى جريجوريو، *Rerum Arabicarum*، ص ٤٣: "هاجم البربر الجند عام ٦٤٠٦، وسلموا أبا حسين وأبناءه إلى الأفريقيين". لم يكن الأفريقيون إذن لا بربر ولا عرب أفريقيا الذين قدموا إلى صقلية وقت الفتح وانضموا إلى الجند، وإنما هم فرق العسكر الذين أرسلهم إبراهيم بن أحمد.

(2) **البيان**، المجلد الأول، ص ١١٦، عام ٢٧٨ و٢٧٩.

(3) إن النويرى هو الوحيد الذى يورد هذه الواقعة فى كتاب *Conquête d'Afrique*، والذى نشره م. دى سلان فى حواشى كتاب *Histoire des Berbères* لابن خلدون، المجلد الأول، ص ٤٢٨. وفيه نقرأ بعد التنكيل بالحاجب ابن صمصام ما يلى: "إن القائد الذى حل محله وكان يُدعى الحسن بن الناقد كان قد باشر مهام أخرى من بينها حكم جزيرة صقلية". غير أن النص العربى يقول فى الحقيقة ما يلى: "وأحل محله حسن بن الناقد وأضاف إلى شخصه مهام عديدة من بينها إمارة صقلية" وعبارة "أضاف إلى شخصه" لا تترك مجالاً للشك لأنها مكونة من الفعل ضاف فى صيغة أفعل ثم استخدم فيها حرف الجر إلى لذا فهى تعنى: "أدمج ـ ضم" ومثلما فسرت أنا نهج م. دى فرچيه حينما أورد هذه الجزئية فى حاشية له على ابن خلدون، *Histoire de l'Afrique et de la Sicile*، ص ١٣٠. أما دى سلان وهو ضليع فى اللغة العربية، وكثيراً ما اضطر إلى تصحيح التعبيرات غير الصحيحة لأولئك

مباشرة للطرف الجبلى غرب صقلية. ومن ناحية أخرى ففى الفترة ما بين عام ثمانمائة واثنين وتسعين وثمانمائة وستة وتسعين لم يُسمع فى صقلية عن أية عمليات ضد المسيحيين، بل شهدت الجزيرة عقد اتفاق بين المسيحيين وبين مسلمى الجزيرة، فى أيام أبى على كما تذكر *Cronica di Cambridge* (1)، وأنه وقع مع سراسنة بالرمو الذين تمردوا على أمير أفريقيا، حسبما يقول چوڤانى دياكونو نابولى(2) وهو يشير بالتأكيد إلى الاتفاقية نفسها. هناك إذن افتراضان: إما أن يكون الأمير الأفريقى قد أراد أن يستغل نصر محمد بن فضل كى يلغى الامتيازات التى كانت تتمتع بها الجماعة ويضعها تحت حكم كبير وزرائه الذى كان مقرباً إليه؛ أو أن يكون المستوطنون قد انتصروا فى مصادمات أخرى، فكلف إبراهيم كبير وزرائه، وقد قمع شبه جزيرة "شريق"، بأن يعبر البحر ويذهب ليقمع صقلية وهو الأمر الذى لم يتحقق بعد ذلك. ويرجح حديث چوڤانى دياكونو الافتراض الثانى وعلى ذلك فقد يكون أبوعلى هو كنية قائد الثورة فى بالرمو.

لم يثمر السلام، وهذا هو اللفظ الذى يستخدمه المؤرخون بدلاً من الاستخدام المعروف فى الحديث عن الاتفاقيات مع المسيحيين،

الكُتاب، فقد خدعه علمه فى هذه الحالة التى نحن بصددها إذ كان يعرف أنه من غير الممكن الجمع بين مهام فى أفريقيا ومزاولة حكم صقلية فى الوقت نفسه، ولكن فى هذه النقطة بالتحديد يتمثل سوء استخدام السلطة الذى كان يتحدث عنه النويرى أو ربما ورد ذكره لدى أحد الكتاب القدامى ونقل عنه النويرى. ومن الواضح أن إبراهيم بن أحمد كان يريد تركيز السلطة فى شخص كبير وزرائه الذى كلفه بمهمة قمع الثورة التى اندلعت فى أفريقيا والتى كانت دائمة الاشتعال فى صقلية.

(1) *Chronic. Cantabrigiense*، المرجع المذكور، إننا نقرأ هنا تاريخ ٦٤٠٤ (١ سبتمبر ٨٩٥ إلى ٣١ أغسطس ٨٩٦)، وفى **البيان**، المجلد الأول، ص ١٢٣ لعام ٢٨٢ (١ مارس ٨٩٥ إلى ١٧ فبراير ٨٩٦). وبهذا ينحصر الأمر فى الستة شهور التى انقضت من أول سبتمبر وحتى ١٧ فبراير.

(2) چوڤانى دياكونو، *Translatio Sancti Severini*، لدى جايتانى، *Vitæ Sanctorum Siculorum*، المجلد الثانى، ص ٦٠، ولدى موراتورى، *Rerum Italicarum Scriptores*، المجلد الأول، الجزء الثانى، ص ٢٦٩.

لم يثمر أية مكاسب للمسلمين سوى تحرير ألف أسير من قومهم، وقد أبرمت اتفاقية هذا السلام فيما بين أواخر عام ثمانمائة وخمسة وتسعين وأوائل عام ثمانمائة وستة وتسعين وحددت له مدة أربعين شهراً. وأعطت الجماعة رهائن يتم استبدالهم مرة كل ثلاثة أشهر، مرة بعرب ومرة ببربر(1). واستحال الأمر إلى دفع فدية ألف مسلم بما يوازيه من غنائم وعبيد وخسائر فى محاصيل كان من المقدر أن يتحملها المسيحيون خلال أربعة مواسم صيف. وكانت الرهائن تسلم من المسلمين للمسيحيين لأنه بمقتضى هذه المقايضة كان المسيحيون يدفعون نقداً أما المسلمون فكانوا يدفعون بالائتمان. وكان اتفاق نصرة بالنسبة لتلك المراكز الثلاثة أو الأربعة التى كانت تحاول أن تدافع عن نفسها بشق الأنفس وهى محصورة فى ذلك الركن الضيق من الجزيرة. ولكنها كانت اتفاقية مخزية جداً بالنسبة للفاتحين الذين تركوا كثيرين من قومهم للأسر، سواء فى صقلية أم فى كلابريا، وما كانوا يضمنون تحريرهم بالسيف. ولم يكن الاعتراف بالانقسام العميق داخل الجماعة أقل مهانة لأولئك أمام المشركين خلال إجراءات استبدال الرهائن: إن العرب والبربر ما عادوا إخوة فى الإسلام! وعند هذه النقطة أنهى حديثى عن وقائع الفتح ولكنى لم أرغب فى التوقف عند عام ثمانمائة وثمانية وسبعين عند الاستيلاء على سيراكوزا، ولا أن أواصل حديثى حتى دخول تاورمينا عام تسعمائة واثنين، وربما كانتا الفترتين الأكثر دقة بالنسبة للأحداث الخارجية ولكن لعبة القوى السياسية التى يجب التركيز عليها أكثر من تركيزنا على أحداث الحرب قد تغيرت بالتحديد وقت معاهدة السلام التى سبق ذكرها. حينئذ تركت الإمارة البيزنطية صقلية شبه هالكة. وحينئذ بدأت المراكز المسيحية المستقلة القليلة تعمل بمفردها، وحينئذ، قامت الجماعة المسلمة تناضل من أجل الاستقلال وهى تمد يدها للعرض الكريم الذى كانت تقدمه لها تلك البقية من السلالة المهزومة، فيما سوف يمثل مادة الكتاب التالى.

(1) **البيان**، المجلد الأول، ص ١٢٣، عام ٢٨٢.

الفصل الحادى عشر

وبينما كان المسلمون فى صقلية فى الربع الأخير من القرن التاسع يعانون الشقاء على هذا النحو تغيرت أماكن وطبيعة الحرب التى كانوا يخوضونها فى البر الإيطالى. ويرجع هذا إلى الأوضاع الجديدة للمسيحيين الذين قويت شوكتهم. فبعد أن نضجت، كما سبق أن أشرنا، ثمار إصلاحات باسيليوس المقدونى، كانت إمبراطورية الشرق لاتزال تحتل أدنى أطراف شبه الجزيرة وتحاول أن تستقطب البابا ببعض الاتصالات، وتنصب الشرك أو تجبر الدويلات الأخرى فى إيطاليا الجنوبية على أن تعود تحت الراية البيزنطية. ومن ناحية أخرى سرعان ما كان قد دب الانقسام فى كيان الإمبراطورية الغربية الشاسع متعدد الأجناس: كان الشجار يدب بين مختلف أمراء أسرة شارلمان بعد أن كان بعضهم قد استحوذ على بعض الممالك والبعض الآخر على ممالك أخرى؛ وتلاشت مع الإمبراطور لودوفيكو الثانى أى مزية لتلك السلالة. عندئذ بدأ أولئك الذين كانوا يطمحون فى مُلك إيطاليا والكيان الإمبراطورى، حينما لم يعد كافيا الحصول على التاج بسواعدهم، بدأوا يتسولونه من البابا الذى كان يجد بفضل الزيادة العددية لطبقة رجال الدين، الوسيلة للتحكم فى اقتراع كبار الإقطاعيين الإيطاليين. وعلى هذا النحو شعرت السلطات الإمبراطورية بالانكسار بشكل أكبر؛ بينما نمت السلطات البابوية ولكنها لم تحمل معها أى تحسن فى أوضاع إيطاليا.

فالسلطة البابوية بما لها من فاعلية على تقسيم إيطاليا، لم يكن لديها أبداً المقدرة والنفوذ على توحيدها، حتى وإن كانت تريد ذلك، وهذا هو الأثر الحتمى لطموح بلا سلاح. وظهر هذا، كما حدث فى مرات كثيرة أخرى، فى عصر يوحنا الثامن (٨٧٢ ـ ٨٨٢)، الذى تأهب لتنفيذ

مخططات الإمبراطور لودوفيكو الثانى لمصلحة المقر الرومانى ضد المسيحيين فى إيطاليا الجنوبية، بزعم أن المسلمين قد يجتاحون دولة الكنيسة بمساعدتهم. وكان يوحنا يعتمد علاوة على النفوذ الزمنى للأساقفة، على الخلافات بين تلك الدويلات ومخاوفها، وعلى القوى المادية التى يمكنه الحصول عليها من كلا الإمبراطورين: من باسيليوس بمساندته فى الاستيلاء على بوليا وبتسوية الصراع المحتدم فى كنيسة القسطنطينية، ومن إمبراطور الغرب فى مقابل التاج. لم ينقصه الذكاء ولا الشجاعة ولا النشاط والمبادرة ولا المقصد الجرئ ولا الإدراك الواعى: كان دائماً على ظهر الجواد، أو فى مركب؛ ملقياً بنفسه بين الجيوش؛ وأصدر حرمانات كثيرة فى إيطاليا؛ وبارك من جديد فوتسيو فى الشرق؛ وكتب كثيراً من الرسائل، وعد كثيراً وصدق قليلاً؛ خادع، حاك المكائد؛ ساعد أسقف نابولى فى قتل أخيه: ورغم هذا كله لم يبلغ مقصده. ولم يغفر له الكتاب الكنسيون هذا الخطأ أبداً. وتواصل الغضب لدرجة حملت آخرين إلى نسبته إلى «الحذر الجسدانى»(1) كما لو كان يوحنا الثامن هو البابا الوحيد الطموح: وكتب الكاردينال بارونيو بدهاء مائع أن ضعف يوحنا الثامن الأنثوى هو الذى أطلق خرافة البابا يوحنا الأنثى(2). وهكذا جرحوه دون أن يلحقوا به كثيراً من الأذى. وعلاوة على ذلك لم تفشل الخطة لضعف أو خوف يوحنا الثامن، ولكن لأن إقطاعيى الإمبراطورية من نهر التيبر وإلى الشمال لم تكن لديهم الرغبة فى طاعة أحد القساوسة؛ ولأنه من التيبر إلى الجنوب وجد أصدقاء فاترين وأعداء لا يعرفون الخوف، عندما شعروا بتهديده لهم وطدوا علاقاتهم مع المسلمين وأطلقوهم عليه.

---

(1) سيفيرينو بينى، فى ملاحظة عن حياة يوحنا الثامن، لدى لاب، *Sacrosancta Concilia* المجلد التاسع، ص ٢، يرسم بهذا صورة للبابا وللجميل الذى قدمه إلى كارلو الكالفو، ويؤكد فى جرأة لاهوتية أن الله عاقبه على هذا بأن جعله يدفع ضريبة إلى السراسنة. كما لو كانت الضريبة تدفع من دم البابا وليس بأموال الشعب!.

(2) *Annales Ecclesiastici*، عام ٨٧٩.

وكانت البلاد التى تلعب بمصيرها على هذا النحو الإمبراطورية الشرقية والبابا والمسلمون، موزعة على هذا النحو: كانت كلابريا وتيرّا داوترانتو تخضع فى جزء منها للقسطنطينية، والجزء الآخر تحت سيطرة المسلمين. ومن طرفى شبه الجزيرة هذين وحتى حدود الدولة الكنسية كانت إمارة بنڤنتو تحتل كل المنحدر الشرقى لجبال الأبنين. أما المنحدر الغربى فكان تحت سيطرة إمارة سالرنو من ناحية الجنوب، وإمارة كابوا من ناحية الشمال: وبينهما، كانت تتمتع بحكم مستقر ويدعمها البحر، جمهوريات نابولى وأمالفى و جاييتا. وفى مجموعها كانت ست دول متأهبة، تسودها ثورة من الغضب وتتوق كل منها لإلحاق الضرر بالأخرى؛ وتملأ الشكوك والوساوس كلاً منها تجاه الأخرى وتجاه القوى الكبرى. وبعد أن انفصلت كابوا عن إمارة سالرنو وتمت مصادرتها من قبل الإمبراطور لودوفيكو الثانى، سقطت من جديد فى أيدى الأسقف لاندولفو الذى ينتمى إلى عائلة مديرى الثروات الملكية أو الكونت كما يطلق عليها؛ وكان رجلاً لا يحكمه دين أو قانون، تمقته الشعوب وبخاصة الرهبان، متذبذباً نظراً للمنافسات بين العديد من أبناء أخوته، وجميعهم جديرون به. إن دولة على هذا النحو تتاخم من جانب الجمهوريات ومن الجانب الآخر الهيمنة البابوية، كانت بؤرة للشقاقات والخلافات.

ولما كانت الأمور على هذا النحو حوالى عام ٨٧٥ بدأ *المسلمون* سلسلتين من المعارك فى إيطاليا الجنوبية؛ بل حربين *متباينتين تماماً*؛ فى إحداهما تم الهجوم عليهم وفى الأخرى كانوا هم المهاجمين، فى إحداهما كانوا يصدون من خليج تارانتو البيزنطيين للدفاع عما بقى من جماعتهم، وفى الأخرى أنشأوا قواعد فى خلجان سالرنو ونابولى وجاييتا للقيام بأعمال سلب فى كل مسرح العمليات وريف روما. وعلى أى حال *سنتناول* وقائع هاتين الحربين وأحوالهما كل على حده.

وعندما نبدأ بحرب كلابريا وبوليا، نرى أنه قبل أو بعد قليل من

موت لودوفيكو، كان أسطول المسلمين فى تارانتو أو كريت قد أبحر فى البحر الأدرياتيكى حتى جاردو وحاول الاستيلاء عليها دون جدوى، وفى طريق عودته (يوليو ٨٧٥) حرق كوماكيو. وعلى اليابسة احتلت جماعة تارانتو مساحة كبيرة من كلابريا بعد أن دعمتها بقايا جيش سالرنو.

فى هذه الغضون قاد كتائب الجيش قائد يدعى عثمان، كان السلطان قد أقصاه من بارى، وقام عثمان بمعاودة الهجوم على دولة بنفنتو. وزحف المسلمون حتى بارى وكانى وهم يغتنمون؛ وهزموا ثلاث مرات سكان أدلكى؛ واجتاحوا ريف بنفنتو نفسها وتيليسى وأليفى؛ وقد سبق أن انهزمت عدة مرات فى الحروب السابقة؛ وفى النهاية توصلوا إلى الاتفاق مع أمير بنفنتو. وقاد هذه الإجراءات اثنان من رفقاء الأسر القدامى لدى السلطان، يدعوهما الرواة عبد الحق وأنّوزو؛ ومن المؤكد أن الأول اسم مسلم، يكتب عبد الحق؛ والاسم الثانى لاتينى بكل تأكيد، حيث يشير إلى أحد المرتدين عن مبادئه الدينية والسياسية. وخرجت أدلكى من المسألة باتفاق جيد فاتفقت معهما على تسليم السلطان إلى عثمان، الذى لم يكن يطلب هذا، اعتقد بدافع التسامح الإسلامى. ومهما روت إحدى الروايات التاريخية الأضرار الخطيرة التى ألحقها سودان بالمسيحيين بعد أن نال حريته وعاد إلى تارانتو، فإنه يبدو لى هنا أن المقصود بالكلام هو السلطان الجديد مستبدلين كالعادة الاسم باللقب؛ حيث تشير الحوليات الإسلامية إلى موت مفرج بن سالم فى تلك الفترة بالفعل والتى تقول الروايات المسيحية إنه تم تسليمه فيها إلى عثمان(1).

(1) قارن إركمبرتى *Historia*، الفصلان ٣٥ و٣٨؛ وأنونيمى ساليرنيتانى Chronicon، الفصل ١٣١ عند براتيللى؛ ويوهانيس دياكونى، *Chronicon Venetum*، لدى بيرتز، *Scriptores*، المجلد السابع، ص ٢٠، وأندريا بريسبيترى بيرجوماتنسيس Chronicon، لدى بيرتز، *Scriptores*، المجلد الثالث، ص ٢٣٧؛ و*Chronicon Vulturnense*، لدى موراتورى، *Rerum Italicarum Scriptores*، المجلد الأول، الجزء الثانى، ص ٤٠٣.

وما أن بدأ الهلع من المسلمين من جديد، وتُوج كارلو الكالفو إمبراطوراً مرة أخرى، وكان لا يمكنه أن يهتم بشئون إيطاليا، حتى أرسل باسيليوس المقدونى القائد جريجوريو بأحد الأساطيل إلى أوترانتو. وتوجه جريجوريو إلى بارى بعد أن استدعاه أهلها الذين كانوا يخشون هجوم عثمان عليهم؛ واحتل بارى باسم الإمبراطورية البيزنطية (٨٧٦)، وأخذ بعض الشخصيات البارزة وأرسلهم أسرى إلى القسطنطينية عربوناً لحكم جيد. ومن هنا فإن أمراء بنفنتو وسالرنو وكابوا بالرغم من حث باسيليوس لهم بحرارة على التعاون ضد المسلمين فى كلابريا والتوسل إليهم بأفضل الكلمات باسم الدين لطرد البربر وحماية الإمبراطورية، وكل فرد يعلم الباقى؛ برغم كل هذا لم يتحركوا. بل إن نابولى، التى لم تكن قد انحنت أبداً للودوفيكو ولم تنفصل عن المسلمين وطدت علاقاتها بهم أكثر من أى وقت مضى؛ وعادت إلى توطيد تلك الصداقة كل من أمالفى وجاييتا اللتين كانتا تتأرجحان من قبل، وانضم إليهما أمير سالرنو نفسه(1).

كانت بوليا وكلابريا، اللتان كان على باسيليوس أن يعمل فيهما بقوة السلاح وممارسات البابا، تخضعان لإمارة بنفنتو قبل الفتح الإسلامى، إن ما يمكن أن نستجليه فى ظلمات تلك الفترة من التاريخ هو أن عنصر البلديات كان يهيمن فى تلك الأقاليم، ولكنه كان مزعزعاً، تابعاً وخاملاً، مختلفاً فى طبيعته عن جمهوريات البندقية وروما ونابولى التى كانت تتمتع بالحرية منذ ثلاثة قرون. وكانت فى أغلبها بلديات صغيرة، وإذا كانت إحداها آهلة بالسكان مثل بارى فإنها كانت لا تبدى فعالية أكبر من تلك الصغيرة: ولم

(1) قارن إركمبرتى *Historia*، الباب ٣٨ و٣٩؛ وأنونيمى ساليرنيتانى *Chronicon*، الفصل ١٣١ طبعة براتيللى، وهى رواية بالنسبة لهذا الوقت وللأوقات القريبة منسوخة عن إركمبرتى، و*Chronicon Vulturnense*، لدى موراتورى، *Rerum Italicarum Scriptores* ، المجلد الأول، الجزء الثانى، ص ٤٠٣، حيث تتباين قليلاً عن تلك الرواية؛ ولوبى بروتو سباتارى *Chronicon*، العام ٨٧٥؛ *Chronicon Sanctæ Sophiæ Beneventi*، عام ٨٧٥.

يعوض ضعف البلديات كل على حدة باتحاد المقاطعة أو النظم العسكرية أو الإدارية أو السياسية أو روح الود، أو على الأقل عادات الرعايا. حتى إنه لما حضر المسلمون إلى هذه المناطق، وكانوا قد عبروا بها لثلاثين عاماً مثل الفرنجة واللونجبارد فى بنڤنتو وسالرنو؛ كانت البلديات قد انصاعت مرة تلو المرة لمن كانت تخشاه أكثر. وبعد عام ٨٧٥ عندما تبدد اسم الفرنجة وظل فى تلك المناطق بعض بقايا المسلمين الذين كانوا يشعرون بالمرارة، كان من السهل جداً على الجيوش البيزنطية القيام بالغزو.

واستسلمت لباسيليوس حصون عديدة فى بوليا، كما يستخلص من الرواية المحورة المشوشة التى نجدها فى تتمة تيوفانى *Continuazione di Teofane*، والتى كتبت بناءً على آخر الأخبار التى تداولتها ألسنة الجميع فى القسطنطينية. ومن بين هذه الوقائع نقرأ مثالاً عظيماً على الشجاعة نجده متكرراً وأكثر مصداقية فى أزمان أخرى ولدى أمم أخرى. يروى أنه عندما تحرك المسلمون ضد إحدى قلاع دولة بنڤنتو أرسل سكانها رسولاً يطلب العون من القسطنطينية، وفى طريق عودته بوعود من باسيليوس أخذه المسلمون ووعدوه بالإبقاء على حياته إذا قضى على أى أمل لمواطنيه فى وصول المساعدات اليونانية. وأجابهم هذا الرجل الكريم بالإيجاب. وعندما قادته مجموعة من العسكر تحت الأسوار نادى مواطنيه البارزين وعرض رسالته، وعندما وصل إلى رد باسيليوس صاح: "عليكم برعاية أبنائى فلم يتبق لى إلا لحظات قصيرة من الحياة. باسيليوس أرسل فعلاً المساعدات". وفى الحال قتله المسلمون؛ ولكنهم رفعوا الحصار. وهكذا ظلت حصون تلك المقاطعة متمسكة بولائها للإمبراطور، هكذا اختتمت أخبار البلاط القصة دون أن تضع فى حسبانها أن ثلاثة قرون من الهيمنة اللونجباردية كانت قد مضت كفترة انقطاع! •

غير أن البيزنطيين ذاقوا العذاب خمس سنوات دون مكاسب يشار إليها سوى إبعاد سالرنو وبعد ذلك بنڤنتو بتدخل من البابا

• لاحظ وصف المؤلف لهذه الرواية بأنها محورة ومشوشة. (المترجم).

عن الارتباط بالمسلمين؛ إلى أن تحطم الأسطول الأفريقى والصقلى على سواحل اليونان (٨٨٠)، وتمت مهاجمة جماعة صقلية فى عقر دارها، فعاود نزار المرور على كلابريا كما أشرنا إلى ذلك فى موضعه. وهنا استحوذ نزار على مساحة كبيرة من المقاطعة بمساندة المشاة والفرسان الذين كان يقودهم بروكوبيو وليون أبو ستيبّى؛ وحطم عند رأس ستيلو أسطولاً آخر وصل ساعتئذ من أفريقيا؛ وطرد المسلمين من كثير من الأراضى المحتلة[2]؛ ولكن عندما عاد نزار إلى القسطنطينية، أدّت الغيرة التى يشعر بها ليونى من بروكوبيو إلى الهزيمة فى إحدى المعارك مع المسلمين. وأخذ ليونى بما تبقى معه من رجال منكسرين تارانتو وأسر كل من عثر عليه فيها من المسلمين أو المسيحيين[3]. ثم تم استدعاؤه ومعاقبته على تركه رفيق السلاح فى ميدان المعركة[4]، وأرسل باسيليوس إلى إيطاليا ستيفانو ماسينسيو على رأس ميليشيات كبدوكية وكارسيانيتى المنتقاة لتنضم إلى فرق تراتشا ومقدونيا. ولما فشل ستيفانو فى هجومه على أمانتيا، قام باسيليوس فى عام ٨٨٥ باستبداله بنيشيفور وفوكا وهو رجل قدير وعظيم، جد سميّه الذى تربع على عرش القسطنطينية.

وأتم نيشفورو الغزو بقوات جديدة من الأناضول علاوة على الباوليتشانى المهرطقين الشجعان الذين نجوا من المذبحة التى تعرضت لها جماعتهم فى الشرق[5]. ولما انكسر المسلحون فى

(1) **تتمة تيوفانس**، الكتاب الخامس، الفصل ٥٨. ولاحظت فى مواضع أخرى أنه عند نهاية الوقائع فى الغرب، فى هذا الوقت يعترف المؤلف بعدم التأكد من الترتيب التاريخى، وكان عليه أن يضيف أيضاً بعض التفاصيل. ويروى تلك التضحية الكريمة للسفير فى صيغة لا نعلم بها إذا ما كان يجب نسبتها إلى حصار كابوا أو بنڤنتو، ولكن يبدو لى أن الأمر يتعلق بحصن آخر لم يتمكن المؤلف من ذكر اسمه.

(2) **تتمة تيوفانس**، الكتاب الخامس، الفصل ٥٦.

(3) قارن **تتمة تيوفانس**، الكتاب الخامس، الفصل ٦٦؛ ولوبى بروتوسبتارى، *Chronicon*، عام ٨٨٠؛ *Chronicon,Barense*، عام ٨٨٠. وطبقاً لهذه الرواية التى نقلها لوبو فإن المسلمين "خرجوا من تارانتو" ولا يشار إلى أسرى.

(4) **تتمة تيوفانس**، الموضع المذكور.

(5) **تتمة تيوفانس**، الكتاب الخامس، الفصل ٧١.

كثير من الصدامات الدموية أحكم الحصار فيما بعد على أمانتيا وسانتا سيفيرينا، وأجبر تلك الحاميات على تسليم حصونها والرحيل مقابل إنقاذ حياتهم وممتلكاتهم فى بالرمو ومواقع أخرى فى صقلية(1). واسترد أيضاً تروبيا؛ وكل كلابريا وأخضع جزءاً من بوليا للإمبراطور. وبعد عام، وعندما مات باسيليوس تم استدعاء القائد المنتصر للدفاع عن مقاطعات آسيا الصغرى(2)، وترك نيشيفورو ذكرى طيبة فى أراضينا عندما رحل عنها. وكان الجنود البيزنطيون معتادين فى تلك الحروب على بيع الأسرى الذين كانوا يقتسمونهم مثل بقية غنائم الحرب: وكان كل الأسرى تقريباً إيطاليين، من سكان تلك الأراضى التى خضعت قسراً للأعداء، أو من الذين اختطفهم دون سبب أخوتهم فى الله. ونظراً لأن نيشيفورو أراد أن يقاتل الجنود الصعاليك فلم يكن قد تمكن حتى ذلك الوقت من أن يجد علاجاً لهذا الإثم، ولكنه عند رحيله صحح هذا الوضع كرجل فطن وقوى. كان الجيش الذى توجه إلى بريندیزی للعبور إلى الشاطئ الآخر يجــر وراءه جمــاعات من هــؤلاء المســاكين لبيعهم عبيداً فى القسـطنطينية: فلم يتفوه نيشيفورو بأى كلمة. أمر فقط أن يصعد على المراكب كل الجنـــود قبل الأسرى؛ وحينما صعدوا على السفن أمر بفتح الأشرعة وأعلن على الأسـرى أنهم أحرار. وأعلن الإيطـــاليون امتنانهم بتشييد نُصب تذكارى على الشـــاطئ مخصص

---

(1) قارن **تتمة تيوفانس**، الموضع المذكور؛ وابن الأثير، المخطوطة *A*، المجلد الثانى، الورقة ١٦١ الوجه الثانى؛ ومخطوطة بيبرس، الورقة ٨٥ الوجه الثانى، عام ٢٧٢؛ **والبيان**، المجلد الأول، ص ١١٣. ويتطابق الترتيب الزمنى للمسلمين تماماً مع الوقت المقدر من البيزنطيين، أى السنوات الأخيرة فى حياة باسيليوس. ويسهل أيضاً التعرف على الأسماء: *Ingifûr* عند ابن الأثير، و*Mh fûr* فى **البيان**، لنيشيفورو، أو طبقاً للنطق اليونانى *Niki fóro* ;(Νικηφόρος) و*s b z na* على سيفيرينا، وعلى أمنتيا *Mf ntia*، التى عند تصحيح نقاط تشكيلها يمكن قراءتها بوضوح مانتيا. ويلزم أن أشير إلى أن هذا الفصل القصير عند ابن الأثير والمأخوذ من المخطوطة *A* قام بنشره م. دى فرچيه فى هامش كتاب ابن خلدون، *Histoire de l'Afrique et de la Sicile*، ص ١٣٦.

(2) **تتمة تيوفانس**، الموضع المذكور.

للقديس الذى يحمل اسمه هذا البطل؛ وكذلك تخليداً للانتصارات وللإنسانية التى أبداها فى الفترة القصيرة من حكمه للمقاطعة حيث عامل الرعايا معاملة حسنة وخفف عنهم الضرائب.

وكان باسيليوس قد أعطى هو أيضاً مثالاً عظيماً على إنسانيته. ومن بين فاعلى الخير الذين جلبوا له الحظ الوفير وخلصوه من الفقر والإبهام، كانت هناك امرأة ثرية تدعى دانيليس، أرملة أحد القواد السلافيين الذى كان يقيم فى بيلوبونيزو؛ وربما من هنا نشأ اسم الشهرة له ابن السلافية، الذى تشير به الحوليات الإسلامية إلى المقدونى(3). وعندما ماتت دانيليس أغدق عليها الإمبراطور باسيليوس التكريم، ولما كانت قد جعلت منه وريثاً على ممتلكاتها التى كان يعيش فيها عدد كبير من العبيد، قام بإطلاق سراح ثلاثة آلاف منهم؛ وأرسلهم ليعمروا بعض الأراضى فى بوليا وكلابريا التى كان قد خيم عليها البؤس من جراء حربها مع المسلمين(4). ولكن أعمال الخير هذه كانت علاجاً عابراً سرعان ما يتلاشى مع موت فاعلى الخير؛ وأولئك الذين كانوا يخلفونه دائماً ما كانوا يسقطون فى إهمال الإمبراطورية المتأخرة وظلمها؛ ويدفعون الشعوب الإيطالية إلى لعن الهيمنة الجديدة بمقدار القديمة وغارات المسلمين السابقة. ولذا نجد الكتاب الإيطاليين فى تلك الفترة حين يعبرون عن آراء أمتهم يتحدثون عن اليونانيين فى حنق شديد. يقول عنهم إركمبرتى إنهم يشبهون الوحوش فى عاداتهم، ووحوش تماماً فى أنفسهم؛ مسيحيون اسماً، وتقاليدهم أسوأ من تقاليد أبناء هاجر؛ قطاع طرق يسرقون السكان المساكين ويجعلون

---

(1) شيدرينوس، الجزء الثانى، ص ٣٥٤. وتتم الاشارة إلى اعتدال نيتشفورو الحضارى فى *Tattica* الإمبراطور ليون، وهو نص يونانى وترجمته اللاتينية § ٣٨، ص ٧٤٢، وترجمة فرنسية لمايزروى، الجزء الثانى، ص ١٦.

(2) ليونيس امبراتورس *Tactica*، الكتاب المذكور.

(3) وهكذا يطلق عليه ابن الأثير مرتين عندما يتحدث عنه فى أبواب الأحداث المختلفة لعام ٢٦٨ و٢٧٠. المخطوطة *A*، المجلد الثانى، الورقة ١٢٣ الوجه الثانى والمخطوطة *C*، المجلد الرابع الورقة ٢٥٩ الوجه الأول.

(4) **تتمة تيوفانس**، الكتاب الخامس، الفصل ١١ و٧٥.

منهم عبيداً وجوارٍ ليتاجروا فيهم مع المسلمين، أو ليرسلوهم هنا وهناك للبيع فى أراضٍ أجنبية(1). وتتناول وقائع القديس بندتّو بكلمات لا تقل حدة غطرستهم وممارستهم للعنف المتواصل؛ وخطفهم للنساء أمام أزواجهن، وردهم بالصفعات واللكمات على من يشتكى الظلم(2). ويضاف إلى اعتياد ومواصلة المضايقات الخاصة نزعة السلب وجشع الحكام واختلاس أموال الدولة، والضرائب الباهظة والرسوم بزعم التسليح، وآلاف أخرى من أشكال الظلم والإجحاف سنشير إليها. ومن هنا نفهم أسباب الزعزعة الدائمة للهيمنة البيزنطية فى كلابريا والأماكن الشرقية فى بوليا، ولماذا سقطت فى أول هجوم قام به النورمان. ومنعتهم المصلحة المشتركة للأمراء والشعوب بعد ذلك من أن يترسخوا فى المقاطعات الأخرى من مملكة نابولى الحالية، والتى سنعالجها الآن ونعود إلى الوراء فى ترتيب الأحداث.

هنا وفى هذا المكان اشتعلت الحرب لاستفزازات يوحنا الثامن، كما سبقت الاشـــارة. وقبل ذلك بقرن كان أدريانو قد حاول بسط يده على نابولى وكل دولة بنفنتو(3). وأحيا يوحنا التطلع البابوى إلى كابوا عندما ساوم على تاج الإمبراطورية كارلو الكالفو الذى لم تكن تلك المدينة تكلفه أى شئ فجدد منحها بالتنازل عنها(4). وأعاد البابا طلبها بهدف استعمالها وليس وضعها مثل وثيقة أخرى فى المحفوظات وتدلل على هذا وقائـع السيادة الاقطـاعية التى تمت

(1) إركمبرتى *Historia*، الفصل ٨١.

(2) *Chronica Sancti Benedicti*، لدى بيرتز، *Scriptores*، المجلد الثالث، ص ٢٠٣. هذا الفصل أحد الفصول التى أضافها الناشرون الألمان للنص الذى نشره بيلجرينى وبراتيللى؛ وهى إضافات مستقاة من إحدى مخطوطات الفاتيكان.

(3) راجع الكتاب الأول، الفصل الثامن، ص ٢٥٩–٢٦٠ وما بعدها.

(4) كتب يوحنا الثامن إلى لاندولفو أسقف كابوا، فى سبتمبر ٨٧٦،إن هذه الأراضى كانت قد سلمت له بصفة خاصة من الإمبراطور، لدى لاب، *Sacrosancta Concilia*، المجلد التاسع، ص ٨، الرسالة التاسعة. وزعم إوتروبيو وهو قس لومباردى عاش بعد ذلك بقرن إضافة سيادة السلطة الزمنية لروما على حكم كابوا، وسانّيو وكلابريا ودوقية بنفنتو وأريتسو وكيوزى فى توسكانا. راجع ســان مــارك فى *Abrégé Chronologique de l'Histoire d'Italie*، عام ٨٧٥.

بعد عدة سنوات: أى الكتابات العامة التى تحمل اسمه والعملة المسكوكة فى كابوا باسمه(1)؛ وجمهورية جايتا التى تحولت إلى إقطاعية لكونت كابوا عندما تحولت إلى السلطة الزمنية للمقر البابوى. وحتى يدرك يوحنا هدفه لجأ إلى الشقاقات الداخلية فى الدول الجنوبية وإلى بث روح العداوة بين الدولة والأخرى؛ ولما اقترب منه بعضها انضم البعض الآخر إلى المسلمين وساعدهم فى حربهم ضد البابا. ولاحظ هذا جيداً المعاصرون عندما نقرأ فى إركمبرتى أن برتاريو رئيس رهبان مونت كاسينو وأسقف تيانو كانا يحذران يوحنا الثامن بألا يزيد الخلافات المدنية فى كابوا اشتعالاً لأن نار تلك الخلافات قد تصل ذات يوم إلى روما ذاتها(2). وينسب إركمبرتى تلك الكلمات إلى الوقت الذى انقسمت فيه أسقفية كابوا، أى عام ٨٨١؛ ولكنها تنطبق بالأحرى على عام ٨٧٥ عندما كانت النار على وشك الاشتعال.

لما كانت أحوال النفوس على هذا النحو فى الوقت الذى حصل فيه كارلو الكالفو على التاج فى روما، فى صيف عام ٧٦ على ما يبدو فقد تم الاستعانة والركون إلى الأسلحة. وسواء قام بعض القراصنة من العرب القابعين فى موانئ نابولى وأمالفى وجاييتا بالتحرك فى اتجـاه أوسـتيا للقيـام بأعمـال سلب(3)؛ أو قامت تلك الجمهوريات وإمــارة ســالرنو بوقف تحالفها مع المسلمين؛ فإن

(1) إركمبرتى *Historia*، الفصل ٤٧.

(2) إركمبرتى *Historia*، الفصل ٤٧.

(3) ويمكن استنتاج هذا من كلام إركمبرتى، الفصل ٣٩، "لما كانت سالرنو ونابولى وجايتا وأمالفى فى سلام مع السراسنة فكانوا يلحقون العناء والعذاب الأليم بروما فى إغاراتهم البحرية؛ ولذا عندما أخذ كارلو الكالفو تاج الإمبراطورية قام لامبرتو وجويدو دى سبوليتو بمعاونة البابا وذهب معهما البابا إلى كابوا ونابولى". ولكن إركمبرتى اعتاد خلط الترتيب الزمنى؛ ويبدو أنه يخلطه هنا عندما استخلص أن كارلو تم تتويجه إمبراطوراً فى روما فى الخامس والعشرين من ديسمبر عام ٨٧٥، ومن المعلوم من رسائل يوحنا الثامن فيما بعد فى هذا الباب أن المسلمين اجتاحوا ريف روما فى صيف عام ٨٧٦، وأن البابا توجه إلى كابوا ونابولى فى نوفمبر من العام نفسه. ولذا من المحتمل أن تكون الغارات على اوستيا كانت قد بدأت فى عام ٨٧٦ بدلاً من العام السابق.

البابا أراد بهذا الزعم أو ذاك القيام بعمل يدلل على سيادته ففرض على تلك الدول حل هذا التحالف: والذى كان يعنى نزع سلاحها، بينما هو من ناحية وباسيليوس المقدونى من ناحية أخرى كانا يستعدان لتجريدها. وردت بأعمال عدائية صريحة. ولا يمكن أن نفهم منشأ الحرب بطريقة أخرى، حيث من غير المعقول الاعتقاد بأن تلك الدول قد دخلت فى تحالف خطر كهذا رغبة منها فى السلب والنهب. وكذلك من غير المعقول أن تكون قد فعلت هذا خوفاً من المسلمين، الذين كان تعدادهم يكفى بالكاد للدفاع عن أنفسهم فى كلابريا، وليس لإخضاع آخرين عند منتصف ساحل البحر التيرانى

ونستخلص من شكاوى البابا أنهم كانوا يقطعون نهر التيبر بالمراكب؛ ثم يقطعون طريقهم على الأقدام أو على الجياد حتى مقاطعة ڤيليترى الحالية وأحياناً ما كانوا يجرؤون على الظهور تحت أسوار روما، وعندما كانوا يعبرون نهر التيبر الكبير كانوا يقومون بأعمال السلب والنهب فى سابينا. وكتب يوحنا يقول "ينتشرون فى الأرض مثل الجراد، ولكى نحكى عن الدمار الذى خلفوه يلزمنا كثير من الألسن فى عدد الأوراق التى تكتسى بها أشجار تلك البلدان. فقد صارت الحقول جرداء، ومأوى للوحوش؛ وهدمت الكنائس؛ وقتل الكهنة وأسروا، وأسرت الراهبات؛ وتم إخلاء السرايات والحصون من سكانها البائسين الذين لجأوا إلى روما؛ وملأوها لحد أن أديرة المدينة ما كانت تكفى لإطعامهم. لقد استنفد مجلس الشيوخ كل ممتلكاته، وأنا لا أتناول طعاماً ولا أنام بسبب استعجال النجدة: وعما قريب، أضاف فى رسالة بتاريخ ٩ سبتمبر ٨٧٦، "عما قريب سيأتون إلى روما ويقتحمونها؛ حيث إنهم يجهزون بالأسلحة مائة مركب وخمس عشرة سفينة لنقل الجياد". على هذا النحو كان يوحنا الثامن يشكو إلى بوزونى ممثل الإمبراطورية فى إيطاليا، وبعد ذلك إلى كارلو الكالڤو وإلى الإمبراطورة والأساقفة الأقوياء فى البلاط، فى الفترة بين الأول من سبتمبر عام ٨٧٦ وآخر مايو ٨٧٧، برسائل

وخطابات متواصلة تتباين قليلاً فى روايتها وتتسم بالرتابة فى كتاباتها لدرجة أنها تبدو مطبوعة على نموذج واحد فقط مدروس(1). وعلى العكس تختلف عن ذلك إحدى الرسائل التى وجهها البابا إلى جريجوريو القائد البيزنطى فى إيطاليا والمؤرخة فى السابع عشر من أبريل عام ٧٧، التى يمكن القول عنها إنها تقع فى المنتصف بين الشكوتين اللتين أشرت إليهما والمرسلتين إلى بلاط كارلو الكالڤو فى الأول من مارس والخامس والعشرين من مايو. وكان البابا يطالب بجرأة فى رسالته إلى جريجوريو بإرسال عشرة قوارب إلى ميناء أوستيا، "لترصد بعض اللصوص من أبناء هاجر الذين يأتون فى الخفاء لسرقة دولة الكنيسة، حيث إنهم لم يتمكنوا، كما هو معلوم لدى جريجوريو، من القيام بأعمال السلب علانية". وهكذا يعلمنا يوحنا الثامن أن نتحفظ على تلك الروايات الفظيعة المؤلفة لاستخدامها مع المؤمنين فى فرنسا وألمانيا. وعند حديثه إلى قواد باسيليوس المقدونى وهم بيزنطيون وأهل جوار، كان لا يمكنه قول كثير من الأكاذيب.

ومن ناحية أخرى كانت نوايا البابا تجاه هؤلاء وأولئك مختلفة. فكان لا يطالب البيزنطيين بشئ سوى الدفاع عنه ضد القراصنة، ووجود قوات كبيرة كان سيسبب له الضيق منها كما يظهر من الكلمات الباردة والمقحمة التى أضافها إلى الرسالة المذكورة ليبين لجريجوريو سروره بأن باسيليوس الإمبراطور، ابنه العزيز، كان ينوى إرسال جيش آخر وأسطول آخر إلى دولة بنڤنتو. وكان يطلب من الفرنجة على العكس من ذلك إرسال جيوش وجيوش، وأن يأتى الإمبراطور بنفسه لتحريره، ليس فقط من أبناء هاجر أولاد الأمة، ولكن أيضاً من المسيحيين أبناء سارة المزيفيين الذين كانوا يضايقونه بالقدر نفسه أو بما يزيد؛ وكان هذا يعنى فى لغة العامة

(1) انظر رسائل يوحنا الثامن، من رقم ١ إلى ٣٥، لدى لاب *Sacrosancta Concilia*، المجلد التاسع، ص ١ وما بعدها، لدى دوكسنى، *Historiæ Francorum Scriptores*، المجلد الثالث، الحاشية، من ١ إلى ١٤. ونجدها فى إركمبرتى، الموضع المذكور.

أنه يتوق إلى أن يهرول الإقطاعيون من إيطاليا الشمالية وكذلك البعض فى فرنسا نحو جاريليانو وفوكتورنو لتوسيع حدود دولة الكنيسة. ولكن كارلو الكالڤو لم يتمكن من ذلك ولم يرغبه. وكل ما أعطاه له يتمثل فى ميليشيات دوقية سبوليتو بقيادة الكونت لامبرتو والكونت جويدو، جيران البابا عدوّان له. وفى الأول من نوفمبر عام ٨٧٦ تحرك يوحنا معها تجاه كابوا ونابولى بزعم التوجه لفض الاتحاد الباغى(1) ولم يتلكأ فى استقطاب أمير سالرنو الذى كان يطمع فى توسيع حدود إمارته على حساب الدول الأخرى مقابل المعونة التى يقدمها.

وتردد سرجو دوق نابولى عندما أغراه البابا بالكلمات الحسنة وبأن نصب أخاه أثناسيوس أسقفاً على المدينة؛ ولكنه عاد ووطد صداقته بعد ذلك بالمسلمين، وحثه على ذلك أمير بنفنتو، وأكثر من ذلك لامبرتو دى سبوليتو الذى كان قد أتى إلى نابولى جندياً من جنود البابا. وبناء على ذلك أصدر يوحنا مرسوماً بحرمان سرجو لما لم يستطع الضغط عليه وترك له أثناسيوس الأفعى السامة وعاد مليئاً بالغيظ إلى روما.

وبعد هذه الممارسات والإجراءات التى لم تثمر شيئاً اشتدت رحى الحرب. وهاجمت نابولى أمير سالرنو الذى انفصل عن الاتحاد. وأمر هذا الأخير حتى يبدى حماسه للأصدقاء الجدد بقتل عدد كبير من المسلمين؛

(1) طبقاً لفقرة إركمبرتى المستشهد بها آنفاً فى ص ٥٠٢، الهامش ٣، قد يبدو أن البابا حضر إلى نابولى وكابوا فى ربيع عام ٨٧٦ على أقصى تقدير. وذكر موراتورى فى *Annali d'Italia* تلك الرحلة بتاريخ يناير ٨٧٧، وبرهن على ذلك بكلمات يوحنا الثامن الذى كان يشكو لأيونى أسقف بنفنتو فى الأول من فبراير قائلاً:
nostro itineri Neapolim nobis ... nuper advenientibus non adhæseris
ولكن *nuper* يجب ألا يؤخذ بهذا المعنى الضيق: حيث نعلم من إركمبرتى أن سالرنو انفصلت عن المسلمين بعد حضور البابا إلى نابولى؛ ومن إحدى رسائل يوحنا الثامن إلى أمير سالرنو بتاريخ ١٧ نوفمبر ٨٧٦ نراه على اتفاق مع البابا. ولذا يبدو لى تحديد توقيت الرحلة فى النصف الأول من نوفمبر. ولكن يلزم التنبيه أن هذه الوثائق لا تعطى التأكيد الذى كنا نتوقعه منها، نظراً لأنها غير مرتبة ترتيباً زمنياً دقيقاً، وينقص بعضها تاريخ اليوم والشهر، وجميعها يعوزها تحديد المكان؛ ومن ناحية أخرى فإن التصنع المعتاد ليوحنا الثامن يفسد دائماً ترتيب الوقائع وجمعها.

وعندما سقط بين يديه بعد ذلك خمسة وعشرون فارساً من نابولى قام بقطع رؤوسهم، كما يقول إركمبرتى، نزولاً على رغبة البابا الصريحة(1).

ومع ذلك لم يؤد فتور كارلو الكالڤو ولا عداوة كونت سبوليتو ولاعنت الجمهوريات إلى زحزحة يوحنا الثامن عن مخططاته. وكان أولئك المواطنون، الذين ارتبطوا لضرورة سياسية بعدو الإيمان مسيحيين، كاثوليك ومولعين بالخرافات بقدر انتمائهم إلى عصورهم؛ وإذا كان القرن التاسع عشر يشهد تفوق الصورة الدينية للبابا على صورة البابا الملك، فلا يثير الدهشة أن يتأرجح أهل نابولى وأمالفى وجاييتا فى القرن التاسع بين مخافتين وأن يكونوا أحياناً على استعداد أن يتركوا الأرض لخليفة القديس بطرس شريطة أن يجلب لهم ركناً صغيراً فى السماء. ومن هنا أصغوا إلى يوحنا الثامن، العدو الغادر والطموح بقدر ما يعلموه. وبناءً عليه استأنف هو بسهولة فى صيف عام ٧٧ التفاوض والمساومة: فلوح أمام أعين البعض منهم بصواعق جديدة من الحرمانات، وأمام البعض الآخر بذهب الرواتب، وقال لآخرين دون أدنى حياء أنه سيقدم لهم كل الخير أو كل الشرور التى يعلمها: لم يعمل رئيس أى جانب ذو خيلاء ودهاء، لم يعمل بقوة أكبر فى تلك الفترة إلا يوحنا الثامن. وعندما دارت وجهته إلى إيطاليا الشمالية دعا أساقفة المملكة وسادتها إلى اجتماع فى راڤينا ليمنع، كما كان يقول، المخاطر التى تواجهها الكنيسة التى يمزقها المسلمون والمسيحيون المارقون؛ ولكن بالرغم من التهديدات بالحرمان لم يتوجه أحد إلى حضور هذا الاجتماع السياسى، حيث كان البابا يريد أن يحل محل الإمبراطور: وهكذا وجد نفسه مضطراً إلى تأجيله، وفيما بعد

(1) إركمبرتى *Historia*، الباب ٣٩. ونستخلص طقس رسامه الأسقف أثناسيوس من رسائل يوحنا الثامن، لدى لاب *Sacrosancta Concilia*، المجلد التاسع، رقم ٥ و٤١، ص ٥ و٢٥.

عالج فيه فقط موضوعات عن النظام الكنسى(1). وفى إيطاليا الجنوبية قادت إجراءات البابا الأكثر حيوية إلى أن يدنو من مقاصده حيث ساعدته الشقاقات العميقة، كما يبدو لى، وشهرة الجيوش البيزنطية. وبوصفه تقريباً حامى تلك الدويلات أو رئيسها أصدر أوامره خلال مارس وأبريل عام ٧٧ للأسقف كونت كابوا وحكام جاييتا ونابولى وأمالفى بالإجتماع فى جاييتا تحت رئاسة اثنين من الكرادلة الموفدين منه لبحث فض التحالف مع المسلمين. ولما كان قد تم إرجاء المؤتمر ونقله إلى ترايتّو فى شهر يوليو حضره البابا شخصياً مع أمير سالرنو: وأسفر عن معاهدة بين البابا وأمالفى، و تدبير مؤامرة على نابولى(2).

وتضمنت المعاهدة أن يعمل أهل أمالفى بعد رفضهم صداقة أهل مدينة نابولى والمسلمين فى خدمة البابا بقوات بحرية، ويراقبوا السواحل مِن ترايتّو حتى تشيڤيتافيكيا مقابل أن يدفع لهُم عشرة آلاف مانكوز من الفضة فى العام(3). وتفجرت المؤامرة فى نابولى فى أواخر أكتوبر أو أوائل نوفمبر. وقبض الأسقف أثناسيوس على أخيه سيرجو، ونصب نفسه دوقاً بدلاً منه، وأرسله إلى قداسة البابا فى روما، حيث أصيب بالعمى ومات بعد ذلك بقليل فى السجن. وأراد البابا الشريك فى المؤامرة والمحرض عليها أن يدفع لأثناسيوس نفقات المؤامرة؛ ونظراً لعدم توفر المبلغ كله لديه تعهد له كتابة بمديونيته بالباقى والذى كان يقدر بألف وأربعمائة مانكوز.

(1) رسائل يوحنا الثامن ٥٥ و٥٦ و٥٧، وفى *Atti del sinodo di Ravenna*، لدى لابى، المجلد المذكور من ص ٤٥ إلى ص ٤٧، ومن ص ٢٩٩ إلى ٣٠٤. وانعقد مجمع الأساقفة فى أغسطس ٨٧٧ وحضره البابا كما نستخلص من وثيقة موقعه منه فى *Sexto Kalendas decembris*، والتى يصححها لابى صواباً فى سبتمبر *Septembris*.

(2) الرسائل ٣٦، ٣٨، ٣٩، ٤٠، ٥٩، ٦٩، عند لابى، المجلد المذكور، صفحة ٣٢ وما بعدها.

(3) المرجع نفسه، الرسائل ٦٩ و٧٤.

وبهذا وفى لغة الكتابة كان يمتدح رسمياً أثناسيوس على شجاعته التى استأصل بها عضواً مصاباً بالسرطان فى جسده وعلى جسارته التى حرر بها العالم من أُلفرنى جديد، طاغية الشعب ومضطهد الكنيسة المقدسة(1).

وأثناء انتصارات البابا هذه، وعندما مات كاولو الكالڤو (أكتوبر ٨٧٧) وانتخب شارلمان ملكاً على إيطاليا، راح البابا يعرض عليه التحالف فى مقابل التاج الإمبراطورى الذى كان يعرضه أيضاً على لودوفيكو البالبو الذى خلف ملك فرنسا: وبه كان يستقطب أدالبرتو، مركيز توسكانا، ولامبرتو كونت سبوليتو، وكان الاثنان من المتحمسين لشارلمان. كان لامبرتو يأتى إلى روما ليسب البابا ويحرض أعداءه عليه؛ ومن الأعمال الأخرى التى اتهمه بها يوحنا فى فبراير ٨٧٨ إرسال رسائل وهبات إلى تارانتو ليجلب منها "جحافل أبناء هاجر". ولما تخلص منه بعد ذلك وحرمه انصرف إلى فرنسا ليروج للإمبراطورية مع اثنين آخرين من الأمراء أو ثلاثة(2). ويبدو لى أنه قبل ذلك وفى أبريل عام ٧٨ عقد هدنة مع المسلمين ودفع إتاوة تقدر بخمس وعشرين ألف مانكوز من الفضة(3). وعندئذ عادت جمهوريتا نابولى وأمالفى إلى إقامة السلام مع المسلمين؛ نظراً لأنهما لا تودان الخضوع لإرادة البابا وسيطرته، وكان السلام مع المسلمين يتلاءم مع مصالحهما التجارية والسياسية. وعلى هذا النحو انتهت الفترة الأولى من الحرب وكان عاراً ليوحنا، وهو عار يستحقه.

(1) الرسالتان ٦٦ و٦٧ لدى لابى، المجلد المذكور. وقارن إركمبرتى *Historia*، الموضع المذكور؛ وأنونيمو سالرنيتانو، *Chronicon*، الفصل ١٣ فى طبعة براتيللى.

(2) الشكاوى ضد لامبرتو نراها فى رسائل يوحنا الثامن، من رقم ٢٠ إلى ٢٧، عند دوكسنى، *Historiæ Francorum Scriptores*، المجلد الثالث، ص ٨٨٠ وما بعدها.

(3) رسالة يوحنا الثامن رقم ٨٩، لدى لابى، *Sacrosancta Concilia*، المجلد التاسع، ص ٧٤.

واللوم عن الفترة الثانية يجب أن يشمل يوحنا الثامن وأثناسيوس أسقف نابولى، الذى كان بدوره يطمح فى توسيع حدود تلك الجمهورية. ولما مات أسقف كابوا (١٢ مارس ٨٧٩)، كانت إقطاعيات منطقة ولاية الكونت قد تقسمت بين أربعة من أبناء إخوته، وحصل واحد منهم أيضاً على لقب كونت كابوا(1)، وكأن ذلك لم يكف لبث الشقاق فنشأ فى العائلة نفسها اثنان من الأساقفة، انقسمت بينهما الأسقفية بعد قليل. ولما كان أبناء العم الأشرار يريد كل منهم سلب الآخر فقد استعانوا بالجيران فى سالرنو وبنڤنتو ونابولى؛ وأدخلت نابولى المسلمين فى اللعبة؛ وتدخل يوحنا الثامن بنفسه بكل تصميم حيث كان قد عاد إلى إيطاليا دون أن يصل إلى اختيار الإمبراطور. وانتهز الفرصة عندما ذهب بنفسه إلى كابوا ليمارس السيادة المزعومة ويحابى باندونولفو الكونت اسمياً، ولكى يصبح كذلك فعلياً كان عليه أن يقر بأنه خادم للمقر البابوى(2). وهكذا ظهرت من جديد وساوس الجمهوريات الثلاث وغضبها تجاه البابا. وعندما أغفل هؤلاء البحارة المقدامون راح المسلمون الذين اجتاحوا فى مارس عام ٧٩ مناطق هيمنة باندونولفو(3)، يظهرون فى مايو ويونيو فى دولة روما؛ أو هكذا على الأقل كتب البابا يوحنا إلى شارلمان ولودوڤيكو البالبو، حيث كان يحث أحياناً هذا وأحياناً أخرى ذاك

(1) كانوا جميعهم أبناء أخوه الأسقف، وأسماؤهم هى: باندونى، لاندونى الأول ولاندولفو. باندولفو ابن باندونى حصل على لقب كونت وحصل على إقطاعيات تيانو وكازرتا؛ لاندونى ابن لاندونى الأول منحت له سيسا وبيرولايس أو كابوا القديمة؛ لاندونى ابن لاندولفو منحت له كالينيو وكاياتسو؛ أتينولفو، ابن لاندولفو، منحت له إقطاعية كالڤو. راجع إركمبرتى، الفصل الحادى عشر، وسلالة كونت كابوا من عمل كاميللو بيلليجرينو.

(2) ويشهد على ذلك إركمبرتى، الفصل السابع والأربعون؛ وليون دوستيا، الكتاب الأول، الفصل الثالث والأربعون، طبعة موراتورى، *Rerum Italicarum Scriptores*، المجلد الرابع، ص ٣١٦.

(3) ونلمح ذلك من رسالة يوحنا الثامن بتاريخ الثالث من أبريل، الرسالة رقم ١٢، لدى لابى، المرجع سابق الذكر، المجلد التاسع، رقم ١٦٨، ص ١٠٩.

على الحضور بجيوش إلى روما(1). وكان بهذا يستأنف اتصالاته وممارساته لدى الجمهوريات الثلاث كى يجبرها على أن تلغى من جديد التحالف مع المسلمين. وطالب أمالفى أيضاً برد الأموال التى حصلت عليها فى عام ٧٧؛ وعندما لم يستردها أصدر حرماناً للمدينة فى شهر أكتوبر(2): ولعدم جدوى هذه الحيلة عاد إلى الإغراءات فعرض دفع الأموال وزيادتها ورفع الضرائب عن تجار أمالفى الذين يأتون إلى أوستيا(3). ورضخت جايتا بعد شئ من المقاومة مما عاد عليها بفقدانها لحريتها وكساد التجارة؛ وأراد البابا أن يتم الاعتراف بسيادة كونت كابوا، وعلى افتراض أنه خادم عظيم للمقر البابوى؛ وسعى الكونت إلى تخريب الأراضى ومضايقة المواطنين لأنهم كانوا يرفضون النير الجديد(4). وتسببت نابولى فى مشاق أكبر وأقوى كثيراً. فقد كان يحكمها أثناسيوس وكان دهاؤه مثل دهاء البابا. وبعد التخلص من الشَرَك الخطير الذى كان البابا يريد إيقاعها فيه أخذ أثناسيوس يسوِّف ويكسب الوقت بإرسال الرسائل (أبريل ٨٧٩) حتى إنه جعله يقدم له الشكر على مودته(5). ولما تيقن البابا بعد ذلك من الخطأ، لجأ إلى أقصر السبل: فكتب إلى الأسقف بأنه قد يجعله يجرب فى آن واحد أسلحته الخفية والظاهرة(6). وبالفعل حرك أسطولاً بيزنطياً وأرسله إلى خليج نابولى حيث هزم المسلمين هناك فى أكتوبر أو نوفمبر ٨٧٩. وبعد فترة وجيزة (١٩ نوفمبر ٨٧٩) وجه البابا الدعوة للقواد للتوجه إلى روما لنوال البركة والشكر، هذا ما نقرؤه فى الرسالة، وكان يرجوهم فى الوقت نفسه أن يرسلوا

(1) المرجع السابق، رقم ١٧٢ و١٧٨ و١٧٩ و١٨٦ و١٩٧ و٢١٦.

(2) المرجع نفسه رقم ٢٠٩ و٢٢٥ و٢٢٧.

(3) المرجع نفسه رقم ٢٤٢.

(4) لين أوستينسيس، الكتاب الأول، الفصل ٤٣، لدى موراتورى، *Rerum Italicarum Scriptores*، المجلد الرابع، ص ٣١٦.

(5) رسائل يوحنا الثامن من رقم ١٥٩ إلى ١٦١، لدى لابى، المجلد المذكور، ص ١٠٥ و١٠٦.

(6) المرجع نفسه، الرسالة ٢٤١، ص ١٧١.

سفناً حـربية تجاه أوسـتيا(1). ووطد علاقته أكثر مع باسيليوس بموافقته فى السـنة ذاتهـا فى مجمع القسطنطينية الذى اعترف بفوتسيو بطريركاً(2). ومن هنا زادت بوضوح حدة المخاطر التى أحاطت بجمهورية نابولى.

وكان هذا سبباً فى تزايد قوات المسلمين فى تلك البقاع. واستدعى أثناسيوس بدلاً من القراصنة الذين كانوا يدخلون إلى ميناء نابولى بين الحين والآخر حشداً كاملاً من قوات المسلمين، وربما دفع لهم نفقات السفر وبالتأكيد وفر لهم مقراً عسكرياً وفرصة للسلب والنهب. وهكذا أقيم بين أسوار المدينة وسبيتو (٨٨٠) معسكر للمسلمين، وكان رباطاً حقيقياً أو قيروان، خرجت منه غارات الفرسان تفاجئ أعداء أسقف نابولى؛ ولم يتمكن الأسقف من منعهم من سلب الأصدقاء ونهبهم أيضاً. وخربوا دولة كابوا وحدود سالرنو وبنفنتو وسبوليتو(3) وريف روما: ويقول إركمبرتى أنه تم سلب الأديرة والكنائس والمدن والقرى الصغيرة والكبيرة والجبال والتلال والجزر على حد سواء(4). وعادة ما كان المسلمون فى غاراتهم يقيمون فى بعض الأماكن الحصينة، ومن هنا كانت تصير مركزاً جديداً للهجوم. وهكذا أقاموا (٨٨٠) فى تشيتارا، وهو موقع بحرى بين سالرنو وأمالفى، وكانوا يجبرون أهل سالرنو للدخول معهم فى عهد؛ مما دفعهم إلى خيانتهم ومهاجمتهم ظناً أنهم مجردون من السلاح: ولكن المسلمين خرجوا للصدام يحملون فى الصف الأول من الجيش على سن أحد الرماح العهد الذى نقضه الأعداء والحقوا بهم الهزيمة فى مذبحة كبيرة؛ وخربوا البلدة ودفعتهم جرأتهم إلى فرض الحصار على

(1) المرجع نفسه، الرسالة ٢٤٠ ص ١٧١.
(2) بارونيوس، *Annales Ecclesiastici*، سنتا ٨٧٩ و٨٨٠.
(3) حدود سبوليتو كانت تصل حتى سور أو بحيرة شيلانو.
(4) إركمبرتى، *Historia*، الفصل ٤٤، والمنقول عن أنونيمو ساليرنيتانو، الفصل ١٢٦ من طبعة براتيللى. ولا يذكر إركمبرتى التاريخ ولكن يدون هذه الواقعة بعد حصار كابوا الذى يرجع إلى عام ٨٨٠.

سالرنو التى طردوا منها فيما بعد لقلة عدد قواتهم(1). وعلى هذا النحو أيضاً كانت زمرة قد تحصنت فى سبيانو بين بويانو وتيليزى: وحاول صدها دون جدوى جويدو الثالث دوق سبوليتو وكاميرينو الجديد، مما اضطره إلى إقامة سلام مع المسلمين، وتبادلا الرهائن لمراعاته(2). وتوجهت فى الوقت نفسه فرقة أخرى من المسلمين ومعها ميليشيات من نابولى وجاييتا لتقتحم حصن بيلانو فى منطقة ولاية كونت كابوا وتم صدها. وفى العام التالى (٨٨١) قام مجموعة من المسلمين وبعض أهالى نابولى ومحازبون تابعون لباندونولفو، حيث كان من المعتاد أن يتبادل أبناء العم المتناحرون فى كابوا الأدوار فكان أصدقاء اليوم يصيرون أعداء الغد، قاموا بالتوجه إلى كابوا، وحاصروا المسرح الرومانى الذى كان بمثابة حصن. وفى العام نفسه ٨٨١ توجه البابا من جديد إلى كابوا ليحيك - ويشعل - المشاجرات(3)، وعندما قسم الإبراشية إلى قسمين رسم لاندولفو وهو أخ باندونولفو أسقفاً فى كنيسة القديس بطرس، التى قام بإحراقها بعد ذلك بقليل المسلمون الذين أرسلهم أثناسيوس(4). وبذلك سأضع نهاية لأحداث كابوا حيث تورطت كل دويلات الجوار وكل القوى القاصى منها والدانى والاقطاعيون الفرنجة فى سبوليتو والمحاربون البيزنطيون ومسلمو صقلية والأساقفة وكثير من الكونت والمتطلعون لمطامع معينة والبابا معهم، تورطوا لسنوات عديدة فى متاهة قبيحة من العنف والمكائد.

وبهذه الطريقة ونظراً لشعور البابا بالعار من مراوغة أسقف نابولى له لمدة عامين فقد عقد مجمع الأساقفة فى روما فى مارس

(1) انونيمو سالرنيتانو، *Chronicon*، الفصل ١٣٦، طبعة براتيللى.
(2) إركمبرتى، *Historia*، الفصل ٧٩؛ وأونيمو سالرنيتانو، *Chronicon*، الفصل ١٤٧ فى طبعة براتيللى. وندرك التاريخ من الترتيب الذى صنفت به هذه الواقعة بين وقائع اخرى اكثر ذيوعاً.
(3) إركمبرتى، *Historia*، الفصل ٤٤. لم يستطع المؤلف نسيان هذا التاريخ نظراً لأنه هو ذاته كان قد تم أسره فى حصن بيلانو، وأخذه أهل نابولى بعد حصار المسرح المفتوح فى كابوا فى ٢٥ أغسطس عام ٨٨١.
(4) إركمبرتى، *Historia*، الفصل ٤٧.

٨٨١، وأصدر قراراً بحرمان أثناسيوس، وهو مقدمة، كما يعلم الجميع للغزو. وجدير بالملاحظة فى هذا الإجراء أن البابا كان يؤكد على تقديمه أموالاً لأثناسيوس حتى يفض تحالفه مع المسلمين؛ بينما فضل أثناسيوس الحصة التى كان المسلمون يعطونها له من غنائم الحرب(1). ولكن الأسقف لم يصبه الخوف فأرسل معاونيه إلى صقلية واستجلب جيشاً أكثر قوة من المسلمين الذين عسكروا مع ملكهم سيكايمو، كما يقول إركمبرتى، وربما يكون سهيماً وهو قائد قبيلة أو عسكر، على سفح فيزوفيو الغربى. واحتفظ التراث بذكرياتهم هنا لوقت طويل؛ ومنها الكثير فى أماكن أخرى، فحينما كانوا يستريحون من الغارات البعيدة كانوا معتادين على الترويـح عن أنفسهـم فى المناطق المجـاورة حتى أنهم لم يتركوا أسـلحـة أو جيـاداً أو فتيـات إلا وحملوهـا إلى المعسكر(2).

وقد دفعت هذه الوقاحة وهى ليست أدنى من حرمانات البابا كما يكتب المؤلف المعاصر، دفعت أثناسيوس إلى أن يتخلص من هؤلاء المعاونين(3). وأطلق يوحنا الثامن - الذى كان يرى المسلمين، بالقرب من روما فعلاً أو كان يخشاهم(4) - تهديداته مقترحاً على أثناسيوس فى مقابل منحه البركة أن يذبح الجنود المسلمين وأن يأخذ بعض المحـاربين الذين أعطـاه أسـماءهم غدراً ويسـلمهم لرسـل البابا الذين بدورهم سـيدبـرون أمر إرسـالهم إلى رومـا(5). ووافـق

(1) يوحنا الثامن، الرسالتان ٢٦٥ و٢٧٠، لدى لابى، المجلد المذكور، ص ١٩١ و١٩٥؛ والثانية أيضاً لدى بارونيو، *Annales Ecclesiastici*، العام ٨٨١، § ٢.

(2) إركمبرتى، *Historia*، الفصل ٤٩، والمنقول عن أنونيمو سالرنيتانو، الفصل ١٤٠، والمطبوع خطأ ١٥٠ فى طبعة براتيللى. واستخلص التراث الشعبى من كاراشولى الذى يذكر هنا المثل الشعبى الذى كان متداولاً فى عصره: "أربعة هى مواقع السراسنة: بورتيشى، وكرمانو، ولاتورّى ورزينا".

(3) إركمبرتى، الكتاب المذكور.

(4) بارونيو، *Annales Ecclesiastici*، العام ٨٨٢، § ٢.

(5) يوحنا الثامن، الرسالة ٢٩٤، لدى لابى، المجلد المذكور، ص ٢١٠، بارونيو، *Annales Ecclesiastici*، العام ٨٨١، § ٦.

أسقف نابولى لاعتياده المكائد. وبالاتفاق مع سالرنو وكابوا ومدن أخرى ومع كل القوى التى تمكنوا من حشدها، هاجموا على غرة المسلمين وطردوهم من خليج نابولى فيما عدا أجروبولى بالقرب من سالرنو حيث لجأ إليها أولئك البواسل فى الدفاع عن أنفسهم.

وقع هذا الحدث كما يبدو فى خريف عام ٨٨٢. وكان يوحنا قد أعد له شاحذاً كل قواه ومن الممكن القول، إنه كان شاهراً دوماً سلاحه ضد المسلمين كما يصور ذلك فى كتاباته إلى ألفونسو الثالث ملك أستوريا عندما طلب منه جماعة من فرسان الأندلس والشمال الأفريقى، ربما من المرتدين عن الإسلام الذين يطلق عليهم الاسم العربى فارس(1). ولكن عندما حقق هدفه فى نابولى وكان بمقدوره أن يواصل إتمام مخططاته الأخرى مات البابا مسموماً بيد خدمه فى الخامس عشر من ديسمبر عام ٨٨٢. أما أثناسيوس تلميذه ومنافسه فى فنون الحكم فقد عاش بعده ستة عشر عاماً: وحاول بدلاً من البابا أن يخضع دولة كابوا وفشل فى هذا مثل يوحنا الثامن، وفى النهاية وبعد كثير من الذنوب انتقل إلى العالم الآخر قديساً إذ يذكرون عنه أنه بالصوم والصلاة قد أخلى أراضى نابولى من الجراد(3).

واستمرت الشرور التى أثارها يوحنا الثامن بعد مماته. وكان اعتداؤه على حرية جايتا قد دفع دوتشيبلى، قاضى أول الجمهورية، إلى طلب المعونة من المسلمين الذين حضروا بطول ساحل البحر حتى بحيرة فوندى، وعسكروا على تلال فورميانى، كما يطلق عليها ليونى دوسـتيا، بالقـرب من إترى؛ ومنها كانوا يهددون أراضى روما. وأصـاب الهلع يوحنـا الثامن فأبدى ندمه

(1) إركمبرتى، *Historia*، الفصل ٤٩.

(2) بارونيو، الكتاب المذكور:

aliquantos utiles et optimos Mauriscos cum armis, quos Hispani cavallos alpharaces vocant.

(3) بطرس سوَديّاكونو، المواصل لعمل چوڤانى دياكون نابولى، لدى موراتورى، *Rerum Italicarum Scriptores*، المجلد الأول، الجزء الثانى، ص ٣١٦.

واستمال مواطنى جاييتا ودعاهم إلى نقض الاتفاق: وأطاعه أهل جاييتا البسطاء فواجهوا خطراً مزدوجاً؛ أى طموح البابا وغضب المسلمين المخذولين. وأنقذهم موت يوحنا من الخطر الأول. وتكبدوا فى حربهم مع المسلمين القتل والأسر، وفى النهاية أجبروا على إعادة عقد الاتفاق وسمحوا للعدو أن يقيم بعيداً قليلاً عن الدول البابوية، فوق بعض التلال التى تقع قريباً من ترابيتو من ناحية نهر جاريليانو، والتى كانت تحمل الاسم نفسه. ويعد هذا أصل مستوطنة المسلمين الرهيبة فى جاريليانو(1).

ولأكثر من ثلاثين عاماً نكلت بضربة تلو الأخرى بتيرّا دى لافورو التى ظلت تحت وطأة الحروب الأهلية: حتى إن الأراضى التى هجرها المزارعون صارت غابات لأشجار البرقوق والحشائش والأغصان اليابسة على حد قول إركمبرتو الذى كان شاهد عيان لها(2). ولا توجد روايات عن تفاصيل الكوارث الكثيرة الأخرى إلا مايخص هدم الأديرة الكبيرة لأن الرهبان رواة هذه الوقائع كانوا لا يهتمون كثيراً بالباقى؛ ولأن الملكيات العلمانية كان المسيحيون قد هجروها وصارت قفراً منذ زمن بعيد؛ ولأن الأديرة كانت لها ملكيات أوسع بكثير من أى من السادة الملاك فقد تم اقتحام دير القديس فنشنسو فى فولتورنو والذى أطلق عليه هذا الاسم لموقعه بالقرب من نبع النهر فى ابراشية إزرنيا، تم اقتحامه من جانب المسلمين، كما يبدو، فى عام ٨٨٢ حينما

(1) ليونس أوستينسيس، الكتاب الأول، الفصل ٤٣، لدى موراتورى، *Rerum Italicarum Scriptores*، المجلد الرابع، ص ٣١٦ و٣١٧. ولا نعلم مصدر إستقائه هذه الحكاية التى لا ريب فيها وهى حقيقة. من المؤكد لم يستخلصها من إركمبرتو ولا من رواية *San Michele in Volturno*، اللذين ذكرهما ونريش خطأ فى *Commentarii*، الكتاب الأول، الفصل العاشر § ٨٨.
ويقول ليونى صراحة أن المسلمين كانوا يأتون من أجروبولى؛ مما قد يؤدى إلى توقفهم فى *Itri* تقريباً فى خريف عام ٨٨٢، وبعد ذلك بقليل فى *Garigliano*، ربما فى عام ٧٧٣ بعد وفاة يوحنا الثامن.

(2) إركمبرتى، *Historia*، الفصل ٥١.

كانوا يقيمون فى خليج نابولى وسلبوه وحرقوه وقتلوا، كما يقال*، عدة مئات من الرهبان الذين مات بعضهم وسلاحه فى يده(1). ومما يرثى له أكثر فى ذكريات الحضارة مصير دير مونت كاسينو الشهير بقداسة مؤسّسه وتاريخ انشائه القديم وتراثه غير المحدود وسلطته الاقطاعية التى مارسها، وبالمحبة والرحمة والحكمة، وبمعارف رهبانه بالنسبة لذلك الزمان الذين يرجع لهم الفضل فى كتابة وقائع وتراجم خاصة بالعصور الوسطى، ونماذج لأمهات الكتب لكثير من الكتاب القدماء. ومثلما حدث لدير فولتورنو كان دير مونت كاسينو قد تعرض للتهديد أكثر من مرة وفرضت عليه الإتاوات فى الحرب الأولى مع المسلمين. وحينئذ حضرت من جاريليانو مجموعة من العسكر المتوحشين دمروه فى عام ٨٨٣ فى هجومين: الأول فى سبتمبر والآخر فى نوفمبر: تحطمت المبانى وأحرقت، وذبح على المذبح رئيس الدير برتاريو، كما تروى روايات القرن الثانى عشر ووقائعه، مع أن المعاصرين لا يشيرون لهذا. ونهض الدير فى الحال من بين الحطام والأطلال أكثر روعة وبهاء وثراء وعزة؛ تحيطه الحصون؛ وصار مقراً لرئيس دير إقطاعى أو حاكم، وعاصمة لدولة متاخمة للمقر

*يشكك المؤلف فى هذه الروايات الموضوعة بعد زمن طويل، لاحظ قوله فيما بعد إن المعاصرين لتلك الفترة لم يذكروا شيئا من ذلك. (المترجم)

(1) إركمبرتو فى الفصل ٤٤ وأنونيمو سالرنيتانو يشيران مجرد إشارة إلى حرق الدير؛ وكعادتهما لا يذكران التاريخ. إن أخبار الدير المنشورة فى طبعة موراتورى، *Rerum Italicarum Scriptores*، المجلد الأول، الجزء الثانى، ص ٤٠٤ وما بعدها تحكى بطبيعة الحال كثيراً من التفاصيل: ولكن المؤلف عاش بين نهاية القرن العاشر وبداية الحادى عشر؛ ويبدو أن روايته مبالغ فيها، على الأقل فى رقم الرهبان المقتولين، الذين يقدرهم بخمسمائة أو تسعمائة؛ كما نجد فى موضعين مختلفين تاريخيين مختلفين للواقعة؛ ففى صفحة ٣٣٢ العام الحادى عشر من حكم باسيليوس المقدونى (٨٧٨)، وفى صفحة ٤٠٠ العام ٨٨٢، الخمسعشرية رقم ١٥. ونرى إذن أن المذكرات التى كانت بين يدى المؤلف، كما يعترف هو ذاته، لا تتفق مع بعضها البعض أدنى اتفاق. ولقد عولت على تاريخ عام ٨٨٢، حيث نعلم أنه قد انقضى وقت قليل بين تحطيم هذا الدير وتدمير دير مونتى كاسينو.

البابوى(1). وبين هذا الدمار ودمارات أخرى مماثلة مرت ثلاث سنوات حتى عام ٨٥. فى تلك الأثناء عاد أسقف نابولى وأمير سالرنو أيضاً إلى احتياجهم للمسلمين الذين دفعتهم إغراءات الغنائم إلى تناسى الخيانات السابقة: وعسكرت إحدى الفرق وهى تتبع أثناسيوس وجوايفريو فى مسرح كابوا المفتوح. وفيما بعد حضر أحد الأمراء من سلالة الأغالبة ليطلب تعزيزات لمستعمرات المسلمين فى كلابريا واجتذب أناساً كثيرة من أجروبولى وجاريليانو وقادهم إلى سانتا سيڤيرنيا(2)، حيث أقام لهم نيشيفورو مذبحة كما قلنا.

ومنذ ذلك الوقت فإن ذلكما المعسكرين اللذين قل قدرهما وضعفت قوتهما لم يسببا بلاءً كبيراً للبلاد. كان أثناسيوس يدفع أحياناً ببعض الفرق العسكرية من أجروبولى لتكبد بعض الخسائر لأمير سالرنو الذى صمد بالمساعدات البيزنطية(3)؛ وأحياناً أخرى كان يبعث بالمسلمين لينزلوا بكابوا ويهاجموها(4). واحتفظت جمهورية جايتا منهم بمائة وخمسين على نفقتها وقد تقطّع الجزء الأعظم منهم

---

(1) بين مختلف التواريخ التى تشير إلى تدمير دير مونتى كاسينو، عولت على عام ٨٨٣، والذى يتطابق مع الخمسعشرية الثانية التى دونها ليونى دوستيا؛ والذى نقرأه من ناحية أخرى عند أنونيمو ساليرنتانو الذى وقعت بين يديه بالتأكيد نماذج إركمبرتو الجيدة للاقتداء بها. وفى عام ٨٨٦ تم استئناف التعمير طبقاً لإركمبرتو، بينما يذكر أنونيمو عام ٨٨٤. قارن إركمبرتى *Historia*، الفصلين ٤٤ و٦١، وأنونيمى ساليرنيتانى *Chronicon* الفصلين ١٣٦ و١٤٤ من طبعة برتيللى، و *Chronicon Vulturnense*، لدى موراتورى، *Rerum Italicarum Scriptores*، المجلد الأول، الجزء الثانى، ص ٤٠٥؛ *Leonis Ostiensis Historia*، الكتاب الأول، الفصل ٤٤، لدى موراتورى، *Rerum Italicarum Scriptores*، المجلد الرابع، ص ٣١٧. ويجدر بنا الاطلاع على عمل حديث فى هذا الخصوص، وهو *La Storia della Badia di Monte Cassino*، ومؤلفه دون لويجى توستى، وهو راهب علاَّمة يضيف بعض التفاصيل التى استقاها من سيرة مخطوطة من *Bertario* ويجملها بحماس محمود له وفى اسلوب راق ونقى، الجزء الأول، ص ٦٣ وما بعدها.

(2) إركمبرتو، الفصل ٥١.

(3) إركمبرتو، الفصل ٥٤.

(4) إركمبرتو، الفصلان ٥٦، ٥٧؛ وأنونيمو سالرنيتانو، الفصل ١٤٢، طبعة براتيللى.

إربا عندما توجهوا مع فصيل متهور إلى تيانو ليواجهوا ألفين وخمسمائة رجل يقودهم لاندونه(1)، ونجا منهم خمسة(2) أشخاص فقط. وذات مرة هاجم جويدو دوق سبوليتو معسكر جرليانو وهزم فرقة كانت قد خرجت لقتاله(3)؛ وبعد ذلك انضم إلى أتينولفو(4)، وفى مسيرته من سبوليتو إلى كابوا وجد فى فوركى كاودينى حران وهو قائد مسلم باسل يقود ثلاثمائة جندى فقتلهم جميعاً بحد سيفه (٨٨٧). وعندما مات كارلو الكالڤو وتوجه جويدو إلى لومبارديا (٨٨٨)، راح المسلمون بدورهم يسلبون ويغتنمون من دوقية سبوليتو(5). وتوجهت فرقة أخرى من أقصر الطرق بعد أن نجحت فى صداقتها مع أهل كابوا، إلى الهجوم على دير سان مارتينو فى مارسيكو، ولكنها وجدت رئيس الدير والرهبان يحملون السلاح وعلى الجياد يواجهونهم ويصدونهم وبعد ذلك قامت ميليشيات أتينولفو ولاندولفو(6) بإبادة هذه الفرقة. وبعد عدة سنوات نرى المسلمين أصحاب تيانو يصدون القائد البيزنطى تيوفيلاتو والذى حضر من بارى(7). ونرى فرقة أخرى من الفرسان من جاريليانو تحاصر قلعة روكا مونتى فى نوشيرا؛ وأخضعتها فعلاً بسبب المياه عندما ساعدت الأمطار على توطيد الحصار فى يوم سان ڤيتو، ولا نعلم فى أى عام(8). وفى عام ٨٨٨ دفع أثناسيوس من جديد أهالى نابولى والبيزنطيين والمسلمين للهجوم على كابوا: وخرج أتينولفو لصد هجومهم

---

(1) انظر الهامش ١ ص ٥٠٩.

(2) إركمبرتو، الفصل ٥٥؛ وأنونيمو سالرنيتانو، الفصل ١٤٢، طبعة براتيللى.

(3) إركمبرتو، الفصل ٥٨، وأنونيمو سالرنيتانو، الفصل ١٤٣، طبعة براتيللى.

(4) انظر الهامش ١ ص ٥٠٩.

(5) إركمبرتو، الفصل ٧٩.

(6) *Chronicon Vulturnense*، لدى موراتورى، *Rerum Italicarum Scriptores*، المجلد الأول، الجزء الثانى، ص ٤٠٧.

(7) إركمبرتو، الفصل ٦٦؛ وأنونيمو سالرنيتانو، الفصل ١٤٥، طبعة براتيللى.

(8) انونيمو سالرنيتانو، الفصل ١٤٥، طبعة براتيللى.

وساعدته قوات أيونى أمير بنفنتو وفرقة أخرى من المسلمين، ودار القتـال فى سـانتو كارتيو فى أفرسا؛ بين المسيحيين فقط، حيث إن المسلمين من هذه الجهة أو تلك قد احجموا عن القتال(1)؛ ولم يمض وقت طويـل حتى أقام أثناسيوس سـلاماً مع كابوا، حيث اتحد كل قواد المسلمين وراحوا يهاجمون فى الوقت نفسه دولتى نابولى وسالرنو؛ ونالت إحدى فرق فرسانهم الهزيمة على يد جوايفيريو عند نوشيرا؛ وسلم جزء منها السلاح وهام على وجهه جزء آخر بين الغابات؛ ومضت فرقة أخرى مع أهل كابوا لتخريب أراضى نابولى(2). وبعد ذلك وعندما استدعاهم أيونى الذى كان قد انفصل عن اليونانيين، توجهوا معه لفك الحصار عن بارى، ولكنهم هزموا على يد النبيل قسطنطين(3).

وتتضح من هذه المعارك أحوال المسلمين فى تلك المناطق: فرق كانت تقوم عند الحاجة إلى تشكيل جماعات من المرتزقة وعندما يحدق بهم الخطر كانوا يحتمون بأوكارهم فى أجروبولى وجاريليانو. ويبدو أنه كان بينهم من عمل بالتجارة أو مارس حرفتين فى ذات الوقت، مرتزق وتاجر؛ ففى سالرنو ذات مرة ثارت الشكوك حول المسلمين عندما حضروا بأعداد غفيرة باسم السلام بينما كانوا يخططون لضربة قبيحة؛ إلا أنه تمت مراقبتهم وحراستهم وبعد ذلك منعوا من دخول المدينة وهم يحملون السلاح(4). وبين مثل هذه الأعمال التجارية واستعمال ميليشيات الدول المسيحية التى كانوا يحاربون معها وبالتالى يتقاسمون معها الغنائم، تآلف المسلمون مع البلاد.

(1) إركمبرتو، الفصل ٧٣.
(2) إركمبرتو، الفصلين ٧٥ و٧٧؛ وأنونيمو سالرنيتانو، طبعة براتيللى، الفصل ١٤٧.
(3) إركمبرتو، الفصل ٧٦؛ وأنونيمو سالرنيتانو، طبعة براتيللى، الفصل ١٤٧.
(4) نقرأ الواقعة عند أنونيمو سالرنيتانو، الفصل ١٥٦، طبعة براتيللى.

هذه الجماعات الأفريقية والصقلية، فى الحقيقة، لم تكن لديها نواحٍ حضارية تنقلها للآخرين، ومع هذا جلبت بعض العادات وروجت وسهلت كثيراً أو قليلاً التأثير العربى الذى نراه فى سالرنو وأماكن أخرى فى القرن العاشر والحادى عشر. ونظراً لأنهم كانوا مفككين وقليلين ومعتادين على التبعية للمسيحيين، ومحرومين علاوة على ذلك من مساعدات الوطن الأم، فقد ظلوا مثل داء متأصل لم يعد الانسان يفكر فى علاجه؛ ولم يكن هناك من كان يخشاهم باعتبارهم غزاه، حتى مجئ إبراهيم بن أحمد الذى سنتكلم عنه فيما بعد.

الفصل الثانى عشر

وإذا ما أردنا دراسة أحوال الشعب المهزوم فى الجزيرة فإنه من المناسب أن نعود بالذاكرة إلى طرق الفتح وتطوراته.

رأينا أن بعض أراضى صقلية قد تم الاستيلاء عليها مصالحة أى بالعهود التى تضمن سلامة الأفراد والممتلكات؛ وبعضها خضعت للجزية، وبعضها الآخر قاومت مقاومة كتب لها الانتصار. ونادراً ما تم تدمير الأولى والثانية؛ وأحياناً أقام المسلمون فيها المستوطنات؛ وفى الأغلب الأعم جعلوها خاضعة لهم بعد أن دمروا تحصيناتها وأخذوا الرهائن ولم يتركوا فى كل هذه الأراضى حاميات لهم. فلم تكن هناك حاميات أو مستوطنات فى المدن الخاضعة للجزية. وقد استمرت الأراضى المستقلة على حالها السابق وما زاد عليه من أخطار وأمجاد وأعمال الحرب المحمومة.

أما عن مسيرة الفاتحين فقد أمكن ملاحظة أنهم كانوا يتقدمون غالباً من الغرب إلى الشرق، وحاربوا هنا وهناك لمدة أربع سنوات (٨٢٧ - ٨٣١) حروباً اختلفت نتائجها ثم توقفت قواتهم فى بالرمو وتسيدوا خلال عشر سنوات (٨٣١ - ٨٤١) على وادى مازارا: وهى منطقة منبسطة غنية بالمراعى والأراضى الزراعية؛ وفيه أقاموا أولى مستوطناتهم ونقلوا إليها الرقيق حتى يزرعوا المزارع التى احتلوها. وفى السنوات الثمانى عشرة التالية (٨٤١ - ٨٥٩) قهروا بعد مقاومة عنيدة وادى نوتو: وهى أراضٍ وعرة قاسية بها جبال أقل ارتفاعاً من جبال وادى مازارا ووديان أقل اتساعاً من وديانه؛ ولا يبدو أن المسلمين أخذوا فى الإقامة به طوال صمود سيراكوزا. وما أن أخمد المنتصرون الانتفاضة المسيحية التى وقعت فى سنة ثمانمائة وستين فى وادى مازارا ووادى نوتو حتى تقدموا إلى وادى ديمونى: وهو إقليم يتكون من سلسلة جبال الأبنين ومن إتنا؛ وبه وديان وجبال جدباء تغطيها أشجار الغابات والحدائق، وهو إقليم

منيع يسهل الدفاع عنه. حقيقةً أنهم احتلوا من قبل مسينا وإحدى المدن البحرية الأخرى فى وادى ديمونى، إلا أنهم لم يتوصلوا إلى أن تتخلى الشعوب المسيحية عن الدفاع عن مواقعها التى انحصرت فى مثلث رأسه كتانيا وتمتد قاعدته من الجبال المشرفة على مسينا وحتى كرونيا، كما أعتقد(1).

اتبعت هنا تقسيم أراضى صقلية إلى ثلاثة أقاليم كان يطلق عليها وديان وهى أقاليم مازارا وديمونى ونوتو، وقد استمر هذا التقسيم مع تغيير طفيف حتى سنة ألف وثمانمائة وثمان عشرة وينسب عادة إلى المسلمين. ولكن هذا الرأى تنقصه الدلائل؛ لأن الوثائق والوقائع التاريخية للعصور الأولى للنورمان عندما كانت الإدارة العامة تتولى كل تقاليد الحكم السابقة تشير إلى وادى ديمونى فقط(2). وليست المذكرات الخاصة بوادى مازارا ووادى نوتو بقديمة أو دقيقة(3). ليس هذا فقط ولكنى أوافق على الرأى

---

(1) هذا ما أظنه، لأن وادى ديمونى، فى عصر الإدريسى (١١٥٤) كان يصل حتى كتانيا، وهذه الحدود ترجع إلى أسباب سياسية وليس أسباب جغرافية طبيعية. وقد امتد وادى ديمونى فى القرن الرابع عشر فى اتجاه الغرب وصارت له حدود طبيعية وهو نهر إيميرا الشمالى الذى يطلق عليه النهر الكبير (فيومى جراندى).

(2) انظر هذه المذكرات فى ص ٥٢٣، الهامش رقم ٤.

(3) تشير المراجع التى أوردها دى جريجوريو فى آراء **حول تاريخ صقلية**، الكتاب الثانى، الفصل الثانى، الهوامش رقم ٢٤، ٢٥، ٢٦ إلى وادى ميلاتو ووادى مازارا ووادى نوتو ووادى أجريجنتو بالإضافة إلى وادى ديمونى. وكان دى جريجوريو، الذى لم تكن لديه فكرة واضحة عن النظم السابقة للنورمان، يفترض أن التقسيم إلى كل هذه الوديان «الذى قد يكون تقسيماً جغرافياً فقط» قد أجراه الملك روچيرو تقسيماً سياسياً. ويتناقض مع نفسه بعد سطور قليلة إذ يؤكد أن الملك روچيرو قد أقام الأقضية الثلاث فى وادى ديمونى ووادى نوتو ووادى مازارا، مما يعنى أن أقاليم ميلاتو وأجريجنتو لم تدخل فى التقسيم السياسى. ويبدو لى أن التفسير الأيسر هو أن لفظ وادى الوارد فى الوثائق المذكورة يعنى أراضى بالمعنى العام ويمكن أعتبار المقصود به مدينة أو منطقة أو إقليم، مثل لفظ إقليم بالعربية الذى نجده فى سجلات الإدارة العمومية والذى ترجم إلى وادى *Vallis* صواباً أو خطأ. كما يمكن أن يكون التقسيم إلى ثلاثة أقاليم قد استخدم بواسطة العرب فى بعض فروع الإدارة واستخدم لفظ آخر فى فروع أخرى. فليس هناك ما يمنع أن يكون إقليما ميلاتو وأجريجنتو على سبيل المثال منطقتى امتيازات وأعطيات عسكرية أعطيت كل منهما إلى الجند.

السائد إذ يبدو لى أن التقسيم إلى ثلاثة أقاليم هو تقسيم قديم عاد من جديد بعد بعض التعديلات الوقتية وأظن أن الفاتحين العرب كانوا يحتاجون إلى تقسيم الجزيرة إلى ثلاثة أقسام. وإذ أرادوا أن يفيدوا من مهام الإدارة البيزنطية فى تحصيل الضرائب على العقارات، وجدوا أن نهر إيميرا الجنوبى وهو نهر إيزونسو يقسم إقليمى ليليبيو وسيراكوزا، ونظراً لأنهم لم يسيطروا على إقليم سيراكوزا بالكامل، فإنهم اضطروا إلى التمييز بين الجزء الباقى للأعداء، وهو وادى ديمونى والجزء الخاص بالمسلمين وهو الجزء الواقع فى الجنوب وأطلق عليه وادى نوتو وبعض الأراضى فى الغرب جرى الخلط بينها وبين إقليم ليليبيو وأطلق عليها وادى مازارا. وطبقاً لهذا الافتراض فإن تقسيم صقلية إلى ثلاثة أقاليم يمكن أن يعود إلى النصف الثانى من القرن التاسع(1).

ويمكن كذلك أن نجد علة الأسماء الجديدة للأقاليم الثلاثة فى ذلك العصر ومن الواضح أن الاسمين الأول والأخير أطلقا على أساس مدينتين. ومن الجائز أن يكون قد أطلق على إقليم ليليبيو اسم مازارا؛ لأن هذه المدينة هى أقرب المدن من ليليبيو(2) الذى لم يتغير كذلك إلى اسم ميناء على (مرسى على، مرسالا)؛ أو لأن ديوان رواتب الجند كان مقره فى مازارا إذ أنه كان خارج مدينتى بالرمو وچرچنتى اللتين كانتا محاطتين بمزارع خاصة. وكان من الممكن أن يطلق على إقليم سيراكوزا اسم نوتو، فقد كانت هى أكبر مدائنه إذ إن سيراكوزا كانت أطلالاً، ولم تعمر قبل القرن العاشر،

(1) يحسن أن نذكر هنا أن الإمبراطور فدريكو قد عاد فى النصف الأول من القرن الثانى عشر إلى التقسيم الرومانى إلى إقليمين وقد استمر هذا التقسيم حتى ثورة العشية ثم رأينا بعد ذلك عودة حكام وديان ميلاتو وكاستروچوڤانى وديمونى للظهور (وثيقة عام ١٣٠٢، فى بيرّو *Pirro*، صقلية المقدسة، ص ٤١٠). وفى بدايات القرن الخامس عشر تم تقسيم صقلية إلى أربعة وديان: ديمونى ونوتو وكاستروچوڤانى وچرچنتى (التعداد الاقطاعى سنة ١٤٠٨، فى دى جريجوريو، **المكتبة الأرجونية**، الجزء ٢، ص ٤٩٠) وفى النهاية تمت العودة إلى تقسيمها إلى ثلاث وديان.

(2) أن تغيير اسم ليليبيو إلى ميناء على يجعلنا نظن أن هذه المدينة دمرت إبان الفتح الإسلامى أو قبله. فنادراً ما اطلقت أسماء جديدة على المدن التى لم تهجر.

أما فيما يتعلق بوادى ديمونى، فإن أصل الاسم يرجع إلى الغابات (*Vallis Nemorum*)، ويرجع إلى شياطين بركان إتنا الذى كان يُعَد فوهة جهنم (*Vallis Dæmonum*)، وأرجعه آخرون أكثر علماً إلى قلعة حصينة جاء ذكرها فى حوليات القرن التاسع، وتم هجرها بكل تأكيد فى القرن الثانى عشر. ويبدو لى أن الأرجح هو أن اسمى الإقليم والقلعة قد ظهرا معاً مما أطلقه عليهما سكان المنطقة كلها بمحض الصدفة: الباقين أى الثابتين على ولائهم للإمبراطورية البيزنطية. ذلك أن أحد رواة القرن التاسع من اليونانيين استخدم بخصوص مدن بوليا التى بقت تحت سيطرة القسطنطينية فعلاً مماثلاً لهذا اللفظ(1)؛ وأحد البدائل التى وصلت الينا بخصوص هذا الاسم هو *Tondemenon* ولا يطلق بلاشك على الأراضى بل على السكان(2). أما إطلاق اسم وادٍ فيمكن أن يكون الأصل فيه عربياً أو لاتينياً على حد سواء(3)، وفى الحالة الثانية كان يمكن أن يكون مناسباً للأراضى الواقعة فى الوادى بين جبال الابنين وإتنا، ولا يثير العجب أن تتصل تسمية يونانية بالاسم العربى أو اللاتينى، خاصة بالنسبة لصقلية فى تلك الحقبة من الزمان(4).

(1) تتمة تيوفانس *Theophanes Continuatus*، الكتاب الخامس، الفصل ٥٨، ص ٢٩٧.
Καὶ τὸ ἀπὸ τούτου διέμειναν πιστοὶ βασιλεῖ τοιούτων ἐξηγούμενοι κάστρων.
ويوجد هذا اللفظ أيضاً فى العهد الجديد، لوقا ٢٢ : ٢٨.

(2) اسم فاعل فعل **διαμένω** (الثابتين) وفى حالة الجر يصبح **τῶν διαμενόντων,** الذى اختصر فى الاستخدام الشعبى إلى *Ton Demenon*.

(3) الاسم العربى ولاية يعنى أراضى وقضاء أو حكم الوالى ويطلق لفظ الوالى على قضاء وولاة الأمر فى الأقاليم والقائمين على شئون خاصة من الإدارة العمومية.

(4) ها هى الكتابات التى ورد بها اسم ديمونى وبدائله كاسم مدينة فى البداية واسم إقليم فيما بعد وذلك حسب الترتيب الزمنى لهذه الكتابات:
أ. سنة ٩٠٢. حصار ديمناش *Dimnsac* (وحرفا *c, s* إذا ما اقترنا بحرف *i* ينطقان مثل نطق *ch* بالفرنسية و*sh* بالإنجليزية). أنظر ابن الأثير، المخطوطة أ، الجزء ٢، الورقة ٩٢ والورقة ١٦٧ الوجه الثانى؛ والمخطوطة جـ، الجزء الرابع، الورقة ٢٤٦ الوجه الثانى؛ ومخطوطة بيبرس، وهو الوحيد الذى يقرأ فيه الاسم صحيحاً. ويكتب ابن الأثير فى هذه الفقرة، بالرغم من أنه عاش فى القرن الثالث عشر، بعض المذكرات عن القرن التاسع.

وكان المسيحيون، الذى كانوا يشكلون الجانب الأكبر من شعب الجزيرة، يعيشون فى ظروف أربعة مختلفة أى مستقلون ودافعو الجزية والموالى والرقيق، وسوف ندرس كل فئة من هذه الفئات.

كانت الشعوب المستقلة عن المسلمين والتى تعيش داخل الأسوار وتخضع بشكل أو بآخر للإمبراطورية البيزنطية تحتفظ بإدارتها ونظمها السابقة على الفتح. وكان بالضرورة أن يجرى لها ما يجرى فى النصف الثانى من القرن التاسع بشأن إقامة البلديات فى وسط إيطاليا فى أعقاب الفتح اللونجوباردى. فنظراً لأن الإمبراطورية لم تكن قادرة على إقامة الحاميات فى كل أرجاء الجزيرة فإنها كانت مضطرة إلى قبول بل إلى السعى لأن تتحمل الأراضى الحصينة لموقعها أو لعدد سكانها مسئولية الدفاع عن نفسها شأنها فى ذلك شأن المدن الإيطالية فى القرن السابع، مما زاد بالضرورة من سلطة وهيمنة كبار رجال الدين، وهم قاعدة الهيئة البلدية.

ب - سنة ٩٦٣. أطلق اسم *Dimnasc* على مضيق جبلى بالقرب من رامتا. أنظر النويرى، فى دى جريجوريو *Rerum Arabicarum*، ص ١٦ وتصحيحه لهذا طبقاً لإحدى مخطوطات باريس. ونظراً لقدم المذكرات فإن ملاحظتى التى أوردتها بشأن ابن الأثير تظل قائمة هنا أيضاً.

جـ - نحو نهاية القرن العاشر فإن سيرة القديس لوقا، رئيس دير أرمنتو فى كالابريا تقول إنه صقلى من دمينا. جايتانى، *Vitæ Sanctorum Siculorum* ، الجزء الثانى، ص ٩٦.

د - مالاتيرا، الكتاب ٢، الفصل ١٢ يكتب فى نهاية القرن الحادى عشر عن نزول الكونت روچيرو للمرة الثانية صقلية (١٠٦٠) ويقول:
Hic Christiani in Valle Deminæ manentes, sub Saracenis tributari erant فى كاروزو، *Bibliotheca Historica*، الجزء ١، ص ١٨١، وفى موراتورى *Rerum Italicarum Scriptores*، الجزء ٥، ص ٥٣٩ وما بعدها. هـ - سنة ١٠٨٢. وثيقة الكونت روچيرو التى يمنحها لأسقف تروينا
...in Valle Deminœ Castrum quod vocatur Achareth, تجدها فى بيرّو، **صقلية المقدسة**، ص ٤٩٥.

و - سنة ١٠٨٤. وثيقة أخرى للكونت روچيرو لصالح دير سانت أنجلو، *de Lisico Tondemenon.* تجدها فى بيرّو، المرجع المذكور، ص ١٠٢١.

ز - سنة ١٠٩٣. وثيقة لنفس الدير وذكر هنا باسم *Sancti Angeli de Lisico de Valle Dæmanœ*، تجدها فى بيرّو، المرجع المذكور.

ويبدو أن المدن الصقلية قد أخذت شيئاً فشيئاً تصبح كونفدرالية بدلاً من أن تكون خاضعة وذلك لأنها كانت قد أعتادت على أن تحارب المسلمين أو تتفق معهم، وأن تتآمر مع الحكومة البيزنطية عندما تقع تحت نير العدو، وأن تأمر بتحركات عسكرية بالاتفاق مع قواد كاستروچوڤانى أو سيراكوزا التابعين للإمبراطورية. ولهذا فإن المؤسسات البلدية التى زالت فى اليونان وفى غيرها تحت حكم باسيليوس المقدونى القوى، والتى محا اسمها فيما بعد ليونى الحكيم كان لابد أن تقوى فى ذلك العصر فى مدن وادى ديمونى

حـ - سنة ١٠٩٦. وثيقة وصف حدود ايبراشية مسينا وتقول:

.....usque ad Tauromenium, et respondet ad Messanam, et vadit usque ad Melacium, et respondet ad Demannam, et inde vadit per maritimam usque ad Flumen Tortum, et ascendit per Flumen ec.

وتذكر الوثيقة نفسها منح *castellum Alcariæ apud Demennam* ، تجد هذا فى بيرّو، المرجع المذكور، ص ٣٨٣. ومن الواضح أن *Demenna* فى كلا الموضعين المذكورين هو اسم إقليم إذ إنه بدءا من ميلاتسو وما بعدها لا نلاحظ أسماء مدن وهى باتّى، وكرونيا، وتشيفالو بل حدود الإقليم الذى كان ينتهى بكرونيا.

ط - وثيقة عام ١٠٩٧ والتى منح بمقتضاها الكونت روچيرو أملاكاً لدير القديس فيليبو دى ديمينا. وهذه الوثيقة منقولة فى وثيقة أدلزيا والكونت روچيرو الثانى، الملك فيما بعد، ومنحت سنة ٦٦١٨ (١١١٠)، ونشرها بيرّو باللاتينية فى ص ١٠٢٧ بتاريخ خطأ ٦٦٢٨. وقد صحح نيكولو بوشيمى هذا التاريخ وطبع النص اليونانى وترجمته الإيطالية فى **الجريدة الكنسية لصقلية**، الجزء ١ (١٨٣٢) ص ١١٣ وما بعدها. ولكن بوشيمى طبع خطأ لفظ **Δε-Μεννα;** ، لأن شرطة الربط، كما يسميها سكان ماوراء جبال الألب، غير معروفة لدى اليونانيين وغير موجودة فى الأصل المملوك لأمير ترابيا، وهذه الوثيقة ذات حروف أنيقة واضحة وضعت صورة منها فى المكتبة الإمبراطورية بباريس.

ى - سنة ١١٢٤. وثيقة لروچيرو الثانى نفسه لصالح الدير نفسه وأطلق عليه *Abbatia in Valle Dæmanis*، تجدها فى بيرّو، المرجع المذكور، ص ١٠٢٧.

ك - سنة ١١٣١. وثيقة أسقف مسينا الذى يجعل خضوع العديد من الأديرة اليونانية بالإيبراشية لأرشيمندت تلك المدينة؛ ومن بينها دير *Sanctum Barbarum in Demeno*. بيرو، المرجع المذكور، جـ، ص ٩٧٤.

ل - سنة ١١٣٤. وثيقة روچيرو الثانى فى نفس الموضوع وفيها تذكر الأديرة الخاضعة للأرشيمندت، ومن بينها *Sanctum Barbarum de Demenna* وغيره من الأديرة المستقلة ومن بينها *Sanctum Philippum de Demenna*، بيرّو المرجع جـ، ص ٩٧٥.

التى حافظت على شرف اسم المسيحية فى صقلية. وهذا ما تؤكده إشارات تاريخية عديدة: مثل ممارسات المسلمين فى ترونيا سنة ثمانمائة وستة وستين؛ ومهمة أحد أعضاء البلدية لتحرير الأسرى سنة ثلاثة وثمانين والعديد من حالات الحرب التى توقفت أو استؤنفت والتى يتضح أن البلديات كان لها دور فيها وليس ممثلو الإمبراطورية. وتدلل المذكرات الكنسية للعصر، والتى سنتناولها فى هذا الفصل، على السلطة السياسية التى اضطلع بها الأشراف: ولم يسلم هؤلاء من سهام النقد التى وجهها الكهنة إليهم ثم اضطلعت السلطة البلدية بالسلطات كافة، أى أن البلديات المستقلة مارست عملها دولاً فى أواخر القرن التاسع وأوائل القرن العاشر عندما تخلت الإمبراطورية عنها بالكامل.

واحتفظت بلديات الفئة الثانية من الشعوب وهى دافعة الجزية بسلطات مدنية مماثلة وإن كانت أقل قدرة وبلا أى عز وفخار. ولابد أن هذا الوضع، فى بدايات الفتح، كان مريحاً لكل من المنتصرين والمهزومين، وبخاصة الرؤساء. وفى الحقيقة فإن قواد المسلمين كانوا يحصلون دون تعب على المال وكانوا يستطيعون تقسيمه بحرية أكبر مما كان متاحاً بالنسبة للغنائم؛ وكان قضاة

م. يذكر الإدريسى الذى نشر مؤلفه المشهور فى الجغرافيا سنة ١١٥٤ بصدد وصف ساحل صقلية على اليمين من بالرمو وقد وصل إلى كرونيا، أن أقليم *Dimansc* يبدأ من هنا كما نقرأ فى أفضل المخطوطات. ولا يتحدث الإدريسى فى وصفه الدقيق لصقلية عن مدينة أو قلعة يطلق عليها *Dimnasc*.

وعند المقارنة بين هذه الروايات وملاحظتى أن الوثائق المذكوره من د إلى م تتناول كذلك الإقليم فإنى أعتقد أن هناك دليلاً على وجود *Demana* القلعة حتى القرن العاشر و*Demana* الإقليم من القرن الحادى عشر وما بعده، ولكن يبدو لى أنه من المشكوك فيه استمرار القلعة حتى القرن الحادى عشر، وأنه من المؤكد أنها هجرت فى منتصف القرن الثانى عشر أو تغير اسمها. أما عن موقع القلعة فليس لدينا ما يساعدنا على تحديده: اللهم إلا اسم المكان الذى نقرؤه فى وصف معركة راميتّا (٩٦٣) والذى يدل على أن *Dimansc* كانت تقع غرب تلك المدينة. ربما على بعد أربعة أو خمسة أميال، فى موقع مونفورتى الحالى: وهو اسم قلعة سجلها الإدريسى، وربما أقيمت بعد الغزو النورماندى؛ وهو كذلك اسم اقطاعية فى العصور النورماندية، كما يذكر معجم أسماء الأماكن، تأليف داميكو.

البلديات يتحاشون مخاطر الحرب بأن يدفعوا لهم ما هو أكثر أو أقل مما كانوا يرسلونه إلى القسطنطينية، كما كانوا يستطيعون توزيع الأعباء على مواطنيهم البؤساء بظلم أكبر لا تسمح به قوانين الإمبراطورية. كما أن الكراهية الدينية والشعور الوطنى والظلم الناجم عن فساد المنتصرين وخلافاتهم كثيراً ما كان يبعد الأذهان عن المصالح المادية ويدفع حكام البلديات إلى النكوص بعهودهم. وحتى لا يظهر ذلك المجتمع أفضل بكثير من المجتمع الأوربى الحالى فيجب أن نضيف تضرر الملاك الذين كان عبيدهم وقاطنو مستعمراتهم يهربون من مزارعهم؛ وعندما تنكسر قيود الرق ويلجأ العبد إلى بلد مسلم ويهتدى إلى الإسلام فإنه يصبح معتوقاً فى الله كما قال محمد(صلعم)(1). يضاف إلى هذا الحاجة التى كانت تدفع المستعمرات الإسلامية للتوسع. ويمكن أن ندرك ما كان يحدث غالباً من ثورات من جانب المدن دافعة الجزية أو من الهجوم عليها لدوافع شتى من قبل المسلمين. وعندما كانت تسقط من جديد فإنها كانت تتحول إلى مدن تابعة: وهكذا فإن عدد المدن دافعة الجزية أخذ يقل شيئاً فشيئاً ثم لم يعد لها وجود.

ومن السهل أن نتخيل النظام الذى ساد خلال الفترة التى استمرت فيها أحوال الشعوب بهذا الشكل. فقد كان على السلطة فى المدن الخاضعة للجزية شأنها فى ذلك شأن المدن المستقلة أن يكون مقرها فى المراكز البلدية التى كانت تدفع للمسلمين الجزية أو الخراج(2) عن حصيلة العقارات الإمبراطورية والبلدية بالإضافة

---

(1) **الهداية**، الجزء ١، الكتاب ٥، الفصل الأول، ص ٤٣٥؛ و*D'Ohsson* *Tableau général de L'Empire Ottoman*، الجزء ٤، ص ٣؛ قدورى، مأخوذ من *Rosenmuller, Analecta Arabica*، § ١٠، ص ٣ من النص.

(2) كان الأمران معاً أى الأمان للأشخاص والضمان للأملاك. وقد اعتادت الأخبار أن تستخدم كلمة الجزية بينما يستخدم الماوردى الخراج فى مبحثه عن القانون العام المعنون الأحكام السلطانية، الكتاب الرابع، ص ٨٣؛ قدورى، المرجع المذكور، § ٤٦، ص ١٢ يستخدم لفظ الجزية.

إلى الجزية عن المواطنين؛ وكانت قيمة الجزية أو الخراج تعتمد على العهود التى كانت تعقد فى العادة - طبقاً لما اتبعه المسلمون - كل عشرة سنوات فى مقابل الأمان. ومن المحتمل اضافة عهد بكشف مؤامرات الإمبراطورية للمسلمين وتسهيل أمورهم، واحترام أفرادهم والحفاظ على ممتلكاتهم كما نرى ذلك فى اتفاق معاوية بن أبى سفيان مع سكان قبرص(1).

وكانت الأراضى التى تم الاستيلاء عليها بقوة السلاح أو بالعهود ترضخ للتبعية كما قلنا قبلاً. وكان المسلمون يعطون الأمان للأراضى الخاضعة بالعهود إعمالاً لنص العهد وللأراضى التابعة بقوة السلاح إعمالاً للإنسانية والاهتمام بعدم خراب البلاد. وإذا ما تركنا الشروط الوقتية أو الظرفية المذكورة فى الرواية مثل تسليم عدد معين من الرقيق والتخلى عن جزء من الملكية وغيرهما من الشروط فإن جوهر الأمان كان هذا: انتهاء السلطة السياسية للمسيحيين، وانتقال أملاك الدولة ومن الجائز أيضاً أملاك البلدية وكل أو جزء من أملاك الكنيسة وأملاك المواطنين الذين قتلوا أو فروا لتصبح ملكاً للدولة الإسلامية. وكان ينتقل مع الأراضى بالضرورة: العبيد أو المستوطنين الذين كانوا يقومون فى العادة بزراعتها لدى السادة السابقين. وكان باقى السكان يستمرون فى العيش طبقاً لقوانينهم وعاداتهم. وكان جميع الأحرار مهما كانت درجاتهم أو أملاكهم سواسية عند المنتصرين ويضمهم وضع واحد وهو وضع أهل الذمة وكان يطلق على الفرد منهم ذمياً وهو ما قد نطلق عليه نحن الخاضع أو التابع. وكانوا يتمتعون عادة بممارسة

(1) ابن خلدون، القسم الثانى، مخطوطة باريس، الملحقات العربية، ٧٤٢، الجزء الثانى، الورقة ١٨١، الوجه الأول. بلغ مقدار الجزية السنوية التى كانت قبرص معتادة على دفعها ٧٠٠٠ دينار وهو المبلغ نفسه الذى كانت معتادة على دفعه للإمبراطورية البيزنطية. أما الشروط الأخرى فإنها تتفق جزئياً مع الشروط المفروضة على أهل الذمة.

حق الملكية بالكامل(1). وكانت الشريعة الإسلامية تحميهم وتحمى ممتلكاتهم بالأحكام الجنائية نفسها التى تطبق على المسلمين(2) وكانت تسمح بكل أشكال المعاملات المدنية بينهم وبين المسلمين حتى الوقف بالوصية(3). وبالاضافة إلى الظروف التى يطلق عليها عن حق الظروف الأساسية، أى ألا يتكلموا دون تبجيل عن القرآن أو النبى أو الإسلام وألا يتفوهوا بألفاظ بذيئة مع المسلمات وألا يسبّوا الجند، وألا يحاولوا تبشير المسلمين، وأن يحترموا أملاكهم(4) كان الذميون يخضعون لثلاث طرق من الأعباء المالية والشرطة المدنية والشرطة الدينية.

كانت الأعباء المالية تتمثل فى الجزية والخراج، وكانت الجزية خاصة بالأشخاص أما الخراج فكان على العقارات الثابتة. وكانت الجزية أى الجزاء تدفع مقابل الأمان للأشخاص والأملاك وكانت عبارة عن ضريبة عن كل شخص تبلغ ثمانية وأربعين درهماً فى السنة(5) على الأغنياء. وأربعة وعشرين على الرجال متوسطى الحال واثنى عشر على المتسولين والرقيق. أما الخراج فيعنى الحصيلة أو الدخل. وكان يستقطع، مثلما تستقطع ضرائب العقارات الثابتة فى أيامنا، على أساس الحصيلة المفترضة على أساس مساحة الأرض وطريقة الزراعة: وكان يقدر فى بعض الأقاليم الإسلامية بنسبة عشرين فى المائة، ولم تتغير قيمة

(1) الماوردى، **الأحكام السلطانية**، الكتاب ١٣ و١٤، ص ٢٣٨ و٢٥٥ وما بعدها؛ **الهداية**، الجزء الثانى، الكتاب ٩، الفصل ٨، ص ٢١١. دى أوهسون *Tableau général de L'Empire Ottoman*، الجزء الخامس، ص ٩٥. ويقول الماوردى أن حق الملكية كان مطلقاً أحياناً وكان يقتصر أحياناً أخرى على الانتفاع فقط.

(2) **الهداية**، الكتاب ٤٩، الفصل الثانى، والكتاب ٥٠، فى الجزء ٤، ص ٢٨٠ و٣٣٢. وهذا هو أيضاً الحال بالنسبة للموضوعات التى لم يحسمها القرآن والسُنة.

(3) **الهداية**، الكتاب ٥٢، الباب الأول، الجزء الرابع، ص ٤٧٣.

(4) الماوردى، **الأحكام السلطانية**، الكتاب ١٣، ص ٢٥٠؛ يطلق على هذه الشروط **مستحق** أى «ضرورية» ويذكر أنه ليس من الضرورى أن يشترط هذا صراحة. أما الشروط التالية لهذا فيطلق عليها **مستحب** أى «اختيارية» وتتبع من عهود صريحة.

(5) طبقاً للوزن تبلغ ٢٨،٨٠ ليرة.

الجزية غالباً، فمع نقص الدخل ظلت الضريبة عالية. وكانت الجزية تلغى على من يعتنق الإسلام. أما الخراج وكان ضريبة ضرورية للدولة، فكان يستمر رغم اعتناق المالك للإسلام أو انتقال ملكية الأرض إلى مسلم(1).

وكانت قوانين الشرطة المدنية جائرة ومزعجة. فكان محظوراً على الذميين حمل السلاح، وركوب الخيل، ووضع سروج على ظهور الحمير أو البغال، وبناء بيوت أعلى أو فى ارتفاع بيوت المسلمين وكذلك استخدام أختام عليها كتابات عربية. وكان محظوراً عليهم كذلك أن يشربوا الخمر فى الأماكن العامة، وأن يشيعوا موتاهم إلى القبور فى جنازات وبكاء وعويل، وكان محظوراً على نسائهم دخول الحمامات أثناء وجود نساء مسلمات أو أن يبقين فيها عند وصول هؤلاء. وحتى لا ينسى الذميون فى أى لحظة أنهم أقل شأناً، فكان يفرض عليهم أن يضعوا علامة على أبواب منازلهم، وعلامة أخرى على ملابسهم، وأن يستخدموا أغطية رأس لها شكل ولون مختلف وأن يرتدوا حزاماً من الجلد أو الصوف. وأثناء سيرهم كان عليهم أن يفسحوا الطريق للمسلمين، وإذا كانوا فى جماعة أن يقفوا على أقدامهم عند دخول أو خروج أحد رجال الجيش المنتصر(2).

وسيبدو عجيباً بعد هذا تسامح القواعد التى تعمل على أساسها الشرطة الدينية التى اقتصرت على منع بناء كنائس وأديرة جديدة وعدم منع ترميم المبانى القائمة(3).

(1) سأتناول هذا الموضوع بالتفصيل وكذلك حق الملكية الزراعية فى الفصل الأول من الكتاب الثالث عند معالجة أوامر السلطة الإسلامية فى صقلية.

(2) من بين الشروط التى يقال أنه تم الاتفاق عليها مع أبناء ويتيزا، مكافأةً لهم على خيانتهم لرودريجو فى يوم جواداليتى، نقرأ أنه قد تم اعفاؤهم من الالتزام بالوقوف عند دخول أو خروج المسلمين. ابن أبى فياض، ذكره ابن شباط، مخطوطة م. روسو. ص ٩٨.

(3) هذه هى حدود هذا الحق بالرغم من أن عمر كان قد منع فى عهده، وهذا ما لاشك فيه، ترميمها.

وكان إلى جانب هذا من حق الكنائس أن تؤول إليها المواريث(1)، وكانت ممارسة الطقوس الدينية فى أماكن العبادة والمنازل تتم بحرية تامة، ولكن كان يحظر إبراز الصلبان أمام عامة الناس وقراءة الإنجيل بصوت عال يسمعه المسلمون، والحديث عن المسيح معهم ودق النواقيس والصنوج(2) بصوت عال. وكان المسلمون لا يتدخلون من قريب أو بعيد فى شئون العقيدة والطقوس والصلوات

(1) عن هذا الحق أنظر **الهداية**، الكتاب الثانى والخمسين، الفصل السادس، المجلد الرابع، ص ٥٣٤ وما بعدها؛ ودى أوهسون *Tableau Général de L'Empire Ottoman*، المجلد الخامس، ص ١٢٠ وما بعدها. ومن نافلة القول أن نضيف أن الكنائس المسيحية فى الشرق تمتلك اليوم عقارات.

(2) كتبت هذا اعتماداً على ما يلى: عهد عمر مع مسيحيى الشام، طبقاً لما أورده ابن خلدون، القسم الرابع، مخطوطة باريس، الملحقات العربية، ٧٤٢. الجزء الرابع، الورقة ١٨١ الوجه الأول وما بعده؛ الماوردى، **الأحكام السلطانية**، الكتاب الثالث عشر، ص ٢٥٠ وما بعدها؛ قدورى وسيدى على حمدانى، نصوص عربية نشرها روزنموللر، *Analecta Arabica*، ص ١٣ وما بعدها فى الجزء الأول، وص ٢٠ وما بعدها فى الثانى؛ **فتوى** ابن نقاش، المتوفى فى القاهرة سنة ١٣٦٢. وقام م. بلين بنشر ترجمة فرنسية لهذه الفتوى فى *Journal Asiatque*. السلسلة الرابعة، الجزء ١٨، ص ٤١٧ وما بعدها، (١٨٥١)، والجزء ٢٠، ص ٩٧ وما بعدها (١٨٥٢)؛ **والهداية**، الكتاب التاسع، الفصل ٨، المجلد الثانى، ص ٢١١ وما بعدها؛ دى أوهسون، *Tableau Général de L'Empire Ottoman*، المجلد الخامس، ص ١٠٤ وما بعدها.
وقد استبعدت الشروط التى استمرت لفترات قصيرة وتلك التى بدت لى نابعة من ظروف محلية. ونظراً لوجود نسخ مختلفة من عهد عمر الذى اتخذ نمطاً لكل العهود الأخرى فإنى أرى أن أعرض ملخصاً وافياً صحيحاً لنصه الذى أورده ابن خلدون فى الموضع المذكور والذى أرى أنه أكمل من النصوص الواردة هنا وهناك بما فيها نص قدورى. وإنى أعده كذلك جديراً بالاهتمام نظراً لصيغته الدبلوماسية ولوجود اسم المسيحيين فى مصر والقدس به ولاعتبار الأرثوذكس مثل طائفة المهرطقين.
«هذا كتاب موجه من المسيحيين فى مصر والشام إلى عبد الله عمر. عندما حضرتم إلينا طلبنا منكم الأمان لأشخاصنا وأبنائنا وأملاكنا وأهل ديننا، وتعهدنا بألا نبنى فى مدننا او حولها أية كنائس أو أديرة أو صوامع جديدة ولا نصلح ما يتهدم منها فى الشوارع التى يقطنها المسلمون. كما تعهدنا بأن ندع الرؤساء والمارة يدخلون هذه المبانى وأن نستضيف فيها ونقدم الطعام لمدة ثلاثة أيام لكل مسلم يطلب منا هذا. كما تعهدنا بأن نمتنع عما يلى:
«أن نقبل فى الكنائس والمنازل جواسيس يأتون لمعرفة أمور المسلمين،
« أن نقرأ القرآن لأبنائنا؛
«أن نبشر بديننا؛

وكانوا يحمون المواطنين المسيحيين من أى طائفة أخرى(1).

وكان الخليفة عمر قد أعطى الأمان بشروط مغايرة قليلاً لمواطنى القدس، وظل هذا الأمان بمثابة قاعدة فى جميع الأوقات، باستثناء التغيرات التى تبعث عليها الظروف أو أهواء المنتصرين. وتم الالتـــزام فى صـــرامة باتفـــاقات التبعية خـــلال ملك الحكام الصارمين أو المتزمتين، وعند تأجج التعصب الشعبى؛ وكثيراً ما كان يتم اهمالها لفطنة وإزدراء من كان بالحكم، ولشهرة المسيحيين باعتبارهم مديرى المدخلات العمومية والأطباء والموظفين ورجال

« أن نعترض على أقاربنا الذين يريدون الدخول فى الإسلام؛
« وأكثر من هذا، فإننا سنسمح للمسلمين بالجلوس فى جماعاتنا؛
«وعند دخولهم سنقف على أقدامنا؛
« لن نقلدهم فى ملابسهم وأغطية رؤوسهم.
« ولن نستخدم أسماءهم أو ألقابهم،
« ولن نركب جياداً عليها سروج.
« لن نحمل السيف ولا أسلحة أخرى،
« لن نمسك أختاماً بها كتابات عربية،
« سنقص شعر الرأس على الجباه،
« سنحتفظ بطراز ثيابنا الحالى قدر الإمكان،
« سنحمل الزنار على خصرنا (حزام من الجلد)،
«لن نظهر الصليب،
«لن نفتح بالوعات فى شوارع وأسواق المسلمين،
« لن ندق النواقيس الخشبية فى أى مدينة يقطنها مسلمون،
« لن نخرج بشموعنا ولا بطاغوتنا (أصنام)،
« لن نقوم بالعويل على الأموات،
« لن نَدَعْهم لدى المسلمين؟
« لن نشعل النار فى شوارع وأسواق المسلمين،
« لن نأخذ عندنا عبيداً لمسلمين،
« لن نحاول النظر داخل بيوت المسلمين،
« ولن نرفعها (أكثر من بيوتهم) ».

وعندما قرأ عمر هذه العبارات أضاف: ألاَّ يضربوا أى مسلم؛ وأن يبرموا الاتفاق لهم ولمن على دينهم (بالتضامن)؛ وعند قبول الأمان بهذه الشروط فإن من ينقضه لن يعد ذمياً، بل خارجاً على القانون. وشمل الأمان أكثر من ذلك المنشقين (المسيحيين) وكتب «عمر يوافق على ما يطلبون».

(1) أنظر أمان عمر فى نهاية الهامش السابق، وفقرة الماوردى هنا، ص ٥٣٤هامش٢.

البلاط وكبار التجار، لأن شأنهم كان يعلو بطرق شتى يستخدمون فيها ذكاءهم ودهاءهم لاحتواء القوة الغاشمة. وكان اليهود، وكما يعلم الجميع يعيشون فى صقلية آنذاك، كانوا يخضعون للقوانين نفسها. وجدير بالملاحظة أن ما كتبته هنا عن الذميين وما سأقوله عن العبيد مستمد من أمثلة بلدان أخرى، ولكن يجب اعتباره مفروضاً أيضاً فى صقلية نظراً لتماثل الأوضاع ووحدة العادات الإسلامية. وسأجمع فى مقام آخر الشهادات الخاصة بمزاولة الشعائر المسيحية فى صقلية، والتى حامت حولها الشكوك بافتراضات خاطئة وقلة اكتراث بالشروط التى أشرت إليها من برهة.

وإذا انتقلنا من أوضاع الذميين إلى المؤسسات المدنية الخاصة التى ظلت فى أيديهم، يلزم التمييز بين الأراضى التى يقطنها مسيحيون فقط وتلك التى يقيم فيها معهم بعض أرباض المسلمين. ومن المحتمل أنه ظل فى الأراضى الأولى بعض بقايا الإدارات البلدية: من رجال قضاء منتخبين بطريقة ما من الشعب ومهمتهم التعيسة هى تحصيل الجزية؛ والعناية القليلة اللازمة بأماكن الإقامة مع عدم توافر الإمكانات، وعلاوة على ذلك حراسة الأسواق وإدارة العدالة المدنية والجنائية فى القضايا التى لا تخص المسلمين. واختصاص القضاء لقضاة مسيحيين فى الأراضى التى نتناولها ليس محل شك، فمن المؤكد أنه كان يمارس فى الأراضى التى يقطنها أهل الذمة مع المسلمين.

هكذا كان حال المدن أو الحصون ذات الأهمية العسكرية أو الاقتصادية الكبرى. وأعتقد أنه ألغيت فيها الإدارات البلدية وعُهِدَ إلى موظفين مسلمين بكل مهام الشرطة المدنية. ولكن من المؤكد أن احتفظ المسيحيون فيها بطوائف الحرف وطوائف القضاء المحلية التى كانت تتوافق فيما بينها فى العصور الوسطى. ولما كانت المؤسسات على هذا النحـــو فى أواخر عهد السيطرة الرومانية(1)، فمن المؤكد أن العرب لم يهدموهـــا، حيث

(1) انظر دينج، *Histoire du Commerce*، إلخ، المجلد الثانى، الفصل السابع.

كانت قواتهم فى حاجة إليها، وربما أسسوها فى الأماكن التى لم تكن مزودة بها، إلا أن تنفيذ قوانين المسلمين الجنائية كان يعتمد على المسئولية المتبادلة لأعضاء القبائل والطوائف. ولإبعاد أى شك، وَرد صراحة فى اللوائح الجنائية أن غرامات الذميين يجب أن يدفعها العاقلة أى المنتسبين إلى هذه الطائفة، ويحظر على المسلمين أن ينتسبوا إلى طوائف الذميين(1).

وتأسيس نظام الطوائف كان يقتضى اختيار رؤساء لهم دورهم فى الوقاية أو درء الجرائم التى ستقع عقوبتها على الجماعة، وأخيراً مزاولة القضاء المدنى الذى كان يُعهد به لهؤلاء الرؤساء أو لقضاة آخرين تعينهم الطائفة. وكان يؤدى إلى ذلك مبدأ الحل الوسط، أو فلنقل حكم محكمين تختارهم الأطراف: وهو قضاء فريد يختص به العرب القدماء، كما هو حال كل شعب بدائى، وقَبِلَ به المسلمون كأى شعب أكثر تحضراً(2)، وكان ضرورياً للذميين الذين لم يشاركوا المنتصرين الدين ولا العادات ولا النظم الإجتماعية، ولا اللغة لقرون عديدة. ويدلل على اتساع ذيوع مزاولة هذا القضاء الإدارى أحد فصول القوانين الإسلامية الخاص بأحكام النزاع بين الذميين حيث يترك فيها حرية الأطراف فى اللجوء إلى القاضى المسيحى أو إلى الفقيه المسلم الذى كان يحكم طبقاً لشريعته(3). ومع ذلك استمرت على هذا النحو هذه النظم بين الشعوب المسيحية فى الشرق، حيث كانت طبقة رجال الدين المسيحى منوطة على الأكثر بالقضاء التوفيقى والإصلاحى ، وانتشر هذا القضاء بينها أكثر

(1) **الهداية**، الكتاب ٥١، المجلد الرابع، ص ٤٥٩.

(2) دى أوهسون، *Tableau général*، إلخ، المجلد الخامس، وهاملتون *Prefazione all'Hedaya* مقدمة **الهداية**، المجلد الأول، ص ٣٤.

(3) «وحينما ينشقوا فى الدين، أو يتنازعوا حول عقيدتهم، فلا غضاضة ولا اجبار على إيضاح أى عقيدة يعتقدون. وإذا لجأوا فى قضاياهم إلى حاكمهم (قاضى عام) لا يمنعوا من التقدم إليه؛ ولكن إذا طلبوا حاكمنا، فعليه أن يحكم طبقاً لشريعة المسلمين، وعلى المتهمين أن يتحملوا العقوبات التى يستحقونها ومن يخرق اتفاق (التبعية) يتحمل التبعات ويصير عدواً». الماوردى، الأحكام السلطانية، الكتاب الثالث عشر، ص ٢٥٢.

مما كان عليه الحال فى الدول المسيحية لرفض الناس اللجوء للقاضى المسلم ولخشيتهم من تحرشه ومضايقاته(1).

وعندما نأتى إلى وضع الخدم، سنترك جانباً أولئك الذين كانوا يعيشون فى المجتمع المسيحى تحت نير القوانين الرومانية العتيق، إلا أن وطأة حالهم كانت تخف فى المدن المستقلة والتى تدفع الجزية، خشية أن يتحرر الخدم والأكرة بانكارهم الإيمان، وسنترك أيضاً جانباً الأهالى التابعين على سبيل المثال للسادة المسلمين. وكان لأصل العبودية عند المسلمين ثلاثة أشكال مختلفة: رجال أحرار أسروا فى الحرب؛ ورجال باعهم مسلمون آخرون أو مسيحيون كانوا قد أخذوهم من بلدان أخرى عن طريق العنف أو الخداع؛ وأخيراً ومما لا ريب فيه عبيد الأرض الذين انتقلت ملكيتهم مع المزارع للمسلمين. ولم يكن أصل العبودية يؤدى إلى تباين أوضاعهم. كان المسلمون يدعونهم دون تمييز رقيق ومملوك(2)، وهى كلمة فظيعة، ولكن الواقع كان اكثر اعتدالاً، فلم يكن القانون يرى العبيد أشياءً أكثر منهم أشخاصاً. وإذا كان جريجوريو الأكبر قد استحق تبجيل الإنسانية لتعاليمه التحررية والتى لم تقترن دائماً بالقدوة، فيجب أن نمتدح محمداً أكثر منه فيما يخص صالح العبيد، فبعد موت جريجوريو بعشرين عاماً حسَّن محمد وضع هؤلاء من ضحايا العنف والتقتير. ونظراً لأنه لم يكن ممكناً، كما لاحظنا(3) إلغاء العبودية فجأة فإنه عمل على تخفيفها والحد منها . والآن كان يأمر باسم الله الرحيم باستعمال الرحمة مع العبيد مثلما مع الأبناء، وذوى القربى واليتامى والسائلين

(1) اختصاص قضاء القناصل الأوربيين فى الشرق مؤسس على مبدأ الحل الوسط. وزكته ونشرته الاتفاقات فى العصور الوسطى لمصلحة التجارة وفيما بعد لضرورات أمراء المسلمين السياسية.

(2) كلمة عبد، التى تستخدم بمعنى صوفى، كما فى عبد الله (خادم الله)، وهى تشير فى القرآن إلى العبيد أيضاً، ثم قصرها بعد ذلك على الزنوج. وفضلاً عن التسميتين السابقتين فكان يطلق على الأبيض أحياناً غلام، التى تعنى بالضبط "*garzone*".

(3) الكتاب الأول، الفصل الثالث، ص ١٤١.

وعابرى السبيل(1) وكان يحث على تمكينهم من تحرير أنفسهم بثمرة أعمالهم(2)، وكان يعد عتق أحد العبيد بمثابة دية لقتل يمكن تبريره(3)، ولعهد لم يتم الوفاء به، ولعدول عن طلاق متسرع(4)، وجعل من حق الأمة التى تنجب ولداً لسيدها أن تصبح حرة(5)، وكان يعد السيد الذى يقتل عبده مجرماً قاتل نفس(6)، غير أنه لم يعمل دائماً على احترام وتنفيذ هذا القانون وألغاه تماماً فقه الفقهاء(7). ولكن ظل الكثير من هذه التعاليم السمحة، ومنها أن العبد طبقاً للشريعة الإسلامية لا يمكن أن يقيد(8)، وأن تحرير الرقبة الذى يمنحه الكرماء بكل رضا والذى يكاد أن ينتزعه القانون انتزاعاً من النفوس القاسية والمتعنتة، كان يتم تنفيذه بعد سنوات عديدة من الخدمة وخاصة عندما يموت السيد ويشهر العبد إسلامه(9). ومن نافلة القول أن أذكر أن العبودية عند عرب القرن التاسع المتحضرين يجب ألا تُشَبَّه بعبودية القراصنة البرابرة، عار أوربا حتى أوائل هذا القرن. وقد يمكننا

(1) كما جاء فى **القرآن**، السورة ٤، آية ٣٦

(2) **القرآن**، السورة ٢٤، آية ٣٣.

(3) **الهداية**، الكتاب ٤٩، الفصل الأول، المجلد الرابع، ص ٢٧٧.

(4) **الهداية**، الكتاب الرابع، الفصل السابع، والكتاب السادس، الفصل الثالث، المجلد الأول، ص ٣٣٢ و٥٥٠.

(5) الهداية، الكتاب الخامس، الفصل السابع، المجلد الأول، ص ٤٧٨ وما بعدها.

(6) **مشكاة المصابيح**، الكتاب الرابع عشر، الفصل الأول، المجلد الثانى، ص ١٦٢.

(7) أنظر الهداية، الكتاب *XLXIII*، الفصل الثانى، المجلد الرابع، ص ٢٧٩ و٢٨٣، وبيدهاوى، *Comento del Corano*، نص عربى، المجلد الأول، ص ٩٩، تفسير الآية ١٧٣ من السورة الثانية، حيث نقرأ محمد يأمر بجلد ونفى أحد المسلمين لمدة عام لقتله عبده. والسبب الذى لم يفسره فقهاء المسلمين يبدو مع ذلك واضحاً. لم يكن القانون يسمح بحكم عام فى القتل، والحكم الخاص فى حالة عبد قتله سيده كان ينتمى إلى نفس القاتل.

(8) **الهداية**، الكتاب *XLIV*، المجلد الرابع، ص ١٢٦، دى أوهسون، *Tableau général de L'Empire Ottoman*، الكتاب الثالث، المجلد الرابع، ص ٢٧٦.

(9) أنظر دى أوهسون، عمل سابق الذكر، الكتاب السادس، المجلد السادس، ص ٥٨؛ وحول مختلف طرق ودرجات التحرير، أنظر كل الكتاب الخامس من **الهداية** المجلد الأول، ص ٤١٩ وما بعدها.

عقد مقارنة مع الدول الكاثوليكية والاقطاعية فى العصور الوسطى ومع الأمتين الفتيتين فى العالم، وكلتيهما مسيحية، إحداهما نموذج لحكم الطغيان والأخرى لحكم الحرية: وقد ترجح دائماً كفة الميزان لصالح العرب.

ومجمل القول أن السلالة المهزومة فى صقلية كانت تعيش أوضاعاً أقل تدهوراً خلال حكم المسلمين عن تلك التى عاشتها الشعوب الإيطالية القديمة فى البر الإيطالى تحت حكم اللونجبارد والفرنجة. وكان عائق اختلاف الديانة يتقلص كل يوم لارتداد التابعين، وبالأكثر من الخدم الذين كانوا يلجأون للمسلمين فى المدن المستقلة والتى تدفع الجزية كى يحصلوا على حريتهم، أو إذا كانوا عبيداً للمسلمين كانوا يتركون عقيدة آبائهم بدعوة من السادة الجدد، ولتأكدهم من معاملة أكثر انسانية لهم، وأملاً فى التحرر والابتعاد عن اخوتهم فى الدين. ولا يبدو لى عسيراً العثور على التقسيم الجغرافى لطبقات المسيحيين الأربع فى القرن التاسع. كان ڤال مازارا مقر مستوطنات المسلمين مكتظاً بالعبيد و التابعين، وكان التابعون يقيمون فى مدن وأراض مع المسلمين أكثر مما يقيمون بمفردهم(1). وعلى العكس من ذلك يبدو أن سكان ڤال نوتو، لمدة قرن تقريباً، من منتصف القرن التاسع إلى منتصف القرن العاشر، يبدو أنهم كانوا كلهم مسيحيين وأن مدنهم كانت تابعة وليست دافعة للجزية(2). وكانت كل المدن المستقلة، كما قلنا آنفاً، وبعض المدن الدافعة للجزية، منحصرة فى ڤال ديمونى.

وننتقل الآن من النظام الاجتماعى والسياسى إلى الأحداث الثقافية

(1) فى الحرب الأهلية لعام ٩٣٨ نرى عدداً كبيراً من المدن والحصون فى ڤال مازارا مشتركاً فيها ومن هنا من المحتمل أن أقام جيل أو جيلان على الأقل من مستوطنات المسلمين فى كل منها.

(2) منذ عام ٨٦٧ وفيما بعد لا نقرأ عن اغارات للمسلمين فى ڤال نوتو، باستثناء أراضى سيراكوزا، مما يؤدى إلى افتراض وضع التبعية، حيث يبدو من الصعب أن مدناً كانت تدفع الجزية لم تحاول كسر القيود. وفى الحروب الأهلية التى جرت فى النصف الأول من القرن العاشر لم يذكر اسم أى مدينة فى ڤال نوتو، أما فى حرب عام ٩٦٩ الأهلية هناك كلام عن اقليم سيراكوزا.

والروحية. وسنعول على المذكرات الكنسية: وهى الحوليات الوحيده للفكر الانسانى فى وقت كان فيه الفكر مقيداً من الدين، وكان يُمارس فقط فيما يحلو للكنيسة. وكانت الثمار الضئيلة لهذا الفكر لصالح الكنيسة واسمها مثلما يضنى الخادم دائماً فى خدمة سيده. وتدفعنا وحدة هذه القوة المحركة للمجتمع البيزنطى فى صقلية لاتباع الترتيب الزمنى وليس التقسيم حسب الموضوعات، مثل الآراء الدينية والشعور العام والآداب والعادات. وربما سينال اعجاب القارئ أيضاً أن يرى بدلاً من الجوانب الايديولوجية صور الرجالات البارزين فى ذاك الوقت، سواء حسنت صورتهم أم ساءت.

ويكفينا عن التاريخ الكنسى ذكر الحدثين الرئيسين به: أى العودة إلى طقس الصور وانشقاق فوتسيو. وزاد أولهما من قوة االإكليروس وكذلك من قوة الأباطرة نظراً لأن شعب صقلية كان متمسكاً للغاية بذلك الطقس. أما انشقاق فوتسيو، وكان نزاعاً قومياً أكثر منه دينياً بين روما والقسطنطينية، لم يؤد إلى قلاقل فى الجزيرة حيث كان البابا قد سقط فى طى النسيان، إذ إنه فى القرن الثامن ودون معارضة أو أسف من الشعوب تم انفصال الكنيسة الصقلية عن المقر فى روما(1). وحينئذ تبعت صقلية بطريرك القسطنطينية. ونال أساقفة سيراكوزا وكتانيا درجة مطران، الثانى منهما دون أساقفة مساعدين، بينما للأول رئاسة كل المقار من كتانيا إلى خارجها: أى مقار تاورمينا ومسينا وشيفالو، ترمينى، بالرمو، ترابانى، ليليبيو، تريوكالا، چرچنتى، تيندارو، لينتينى أليــزا، ومالطه وليبارى(2). وبعد الفتح الإسلامى

(1) لا نعلم التــاريخ، وهــو فى الحقيقــة لا يمكن أن يكون دقيقــاً. ويذكر أسـّمانى فى *Italicæ Historiæ Scriptores*، المجــلد الثـــالث، ص ٤٧٥، عـــام ٧٣٧.

(2) لن أذكر الآراء التى استبعدها بيرّو، *Disquisitio de Patriarca Siciliæ* فى صقلية المقدسة *Sicilia Sacra*، ص ٧٥ وما بعدها، واستبعدها بعض علماء بالرمو ومسينا ومدن أخرى، الذين اختلفوا فى غضب ساذج بخصوص المطارنة الذين تصوروا وجودهم فى الجزيرة قبل القرن الثامن. اقرأ جيداً دى چوڤانى *Codex Siciliæ Diplomaticus*، المبحث الثــــانى، ص ٤١٣ وما بعدهـــا. لقـــد تم اضطهـــاد المؤلف اضطهـــاداً

وهــــدم بعض المدن وتمركز المسلمين فى بعضها الآخر، سقطت عدة أسقفيات أو ظل اسمها فقط، ولا نعلم أى منها سقطت ولا فى أى عام؛ وعبثا سيكون البحث عن آثار هذه التغيرات فى مختلف نسخ القائمة المنسوبة إلى ليونى الحكيم. ولكن من المؤكد أن هذا قد حدث، لأنه كان ضرورياً ولأن توقيعات أساقفة صقلية اختفت شيئاً فشيئاً من محاضر المجامع، ولا توجد إشارة إليهم فى أخبار الوقائع، والوحيد الذى له ذكر قرب نهاية القرن الحادى عشر هو من بالرمو وأطلق عليه رئيس أساقفه، والذى سنعطى لمحه عنه فى المقام المناسب.

وعندما نفتح أجزاء أدب سير القديسين فى صقلية يثير دهشتنا أن عدد الشهداء فى العصر الإسلامى كان ضئيلاً جداً. ولا يكفى لتفسير هــذا إغفال الشهداء الذى حدث بالضرورة فى القرن العاشر والحـــادى عشـــر عندما آمن الســواد الأعظم من الشــعب بإله

مهينــاً لأنه أثبت واقعـــة تاريخية: أما اليـــوم فليس هنـــاك فى كنيسة صقلية من لا يتجاوب مع آرائه.

ونستخلص قائمة الكنائس الصقلية ودرجة المطارنة من مرسوم الأباطرة البيزنطيين، المعروف للعلماء باسم *Dispositio* والمنسوب إلى ليونى الحكيم، ولكن من المؤكد أنه نشر بمحتوى مختلف فى أوقات مختلفة من القرن الثامن إلى الثالث عشر. وقمت بجمع الأسماء الموجودة فى نموذجين، وربما يرجع أحدهما إلى بداية القرن التاسع والآخر إلى نهايته، ونقرأ عن أحدهما لدى دى چوڤانى، المرجع المذكور، الوثيقة رقم ٢٩٢، ص ٣٤١، ولدى أسّمانى، المرجع المذكور، المجلد الثالث، ص ٤٩٠؛ والثانى نقرأ عنه فى أسّمانى فى نفس الجزء، ص ٤٩٣. وترتيب المدن، مع استثناءات قليلة، فى الوثيقة الأولى هو ما قد يقابله من يجوب ساحل صقلية حين يتجه من سيراكوزا إلى الجنوب، وفى الوثيقة الثانية من يتجه على العكس شمالاً. وفضلاً عن هذا لا تتضمن الوثيقة الأولى لينتينى وذكرت تريوكالا باسم كرونيو، ولا نقرأ فى الوثيقة الثانية اسم ليبارى ولا ترابانى، ونجد كاتانيا بين أسقفيات سيراكوزا. ونقرأ بدائل النماذج الأخرى المأخوذة من كثير من مدونات مكتبة الڤاتيكان لدى أسّمانى، المرجع المذكور، من ص ٤٧٥ إلى ٥٣٤. واخبار مطارنة مسينا وبالرمو فى القرن الثامن والتاسع أخبار زائفة كما برهن على ذلك اسّمانى، المرجع المذكور، ص ٤٩٧ وما بعدها، ودى چوڤانى، *Codex Siciliæ Diplomaticus*، ص ٣٩٩. ولقب كبير أساقفة تاورمينا المذكور فى بعض مخطوطات مواعظ تيوفانى شيراميو لا يكفى لبيان أن ذلك المقر كان كرسياً لمطرانية كما سنقول ذلك فى هذا الفصل نفسه.

واحد وبمحمد رسوله. ومع ذلك لما ظل فى صقلية كثير من المسيحيين، وبنيت فى كلابريا أديرة جديدة يلجأ إليها رهبان صقلية، فمن الواضح أن هذا التراث لم يكن لينذثر. ومن ناحية أخرى كان هناك شهداء، فآلاف من المحاربين لما أسروا وعرض عليهم أحياناً طبقاً لقانون الحرب الخيار بين الارتداد عن دينهم والموت، كانوا يختارون صراحة الموت، وفعل هذا دائماً جنود الإمبراطورية البيزنطية. ولكن الإكليروس كان لا يريد قديسين علمانيين وبالأكثر من العسكريين؛ وكان يستبعد بكل تأكيد أولئك الشهداء الذين لم يكونوا متزمتين من قبل فى الدين. ولم يقدم الإكليروس أحداً من رجاله لأن الشريعة الإسلامية تصون حياة القساوسة والرهبان إلا إذا حاربوا المسلمين: وهو ما لم يحدث أبداً فى الكنيسة اليونانية. ولذا كان عدد الضحايا الذين منحهم الاستشهاد صفة القداسة ضئيلاً جداً. ويذكر بين أولئك فى عنفوان الفتح الأول سان فيلاريتو ورهبان آخرون ذكرناهم فى حصار بالرمو (٨٣١) وتم أسرهم أثناء هربهم.

وكان معاصراً لسان فيلاريتو واعظ عظيم وقديس، وهو تيوفانى شيراميو رئيس أساقفة تاورمينا: ويبدو أنه تشريف لشخصه، رغم الاضطرابات الكنسية والسياسية آنذاك لم يتم الموافقة على منحه رتبة مطران وتم سحبها فى الحال من هذا المقر. ولدينا خبر عن أن تيوفانى شـيراميو له مجمـوعة واسـعة من المواعظ اليونانية، والتى تبقى لنـا منهـا أربعـون نموذجاً، الجزء الأعظـم منهـا باسمه(1) وأخرى باسـم جريجـوريو شيراميو، وچوڤانى شيراميـو،

(1) يذكر بوشيمى فى العمل الذى سنتكلم عنه ٣٤ مخطوطاً فى بعض مكتبات أوربا. ولا يبدو لى أنه تنبه لكل مخطوطـات المكتبة الإمبراطورية فى باريس، وهى كالتـالى: *Ancien Fonds* رقم ٥٧٢، ٧٦٠، ١٠٢١، ١١٨٣، ١١٨٤، ١١٨٥، *A*١٨٨٥، ١٢٠٦، ١٢٠٧؛ملحقات يونانية رقم ٣٤ و٣٧١ من قائمة مخطوطات م. هاس، ورقم ٢٧٧ فى *Bibliotheca Coisliniana*. ولا ترجع أية مخطوطة من هذه المخطوطات إلى ما قبل القرن الثالث عشر. وكثير منها لا تحتوى إلا على موعظة واحدة. وينبغى إضافة مخطوطات مكتبة ڤيينا والمسجلة فى قائمة نيسل *Nessel*، الجزء الأول، ص ١٦٣، ٢٧٦، ٣٦٠، ٣٨٦، رقم ٨٢ و١٨٩ و٢٥٧ و٢٧٩.

وشيراميو فقط، وأخيراً باسم فيليبو الذى أطلق عليه كما أضافت المخطوطات، فيلاجاتو الراهب والفيلسوف.(1) ولما أصر العلماء الذين تدارسوا هذه المواعظ على إسنادها إلى مؤلف واحد، عبثاً تجادلوا حول العصر الذى عاش فيه. وأراد لوسكورسو، وهو يسوعى صقلى وأول من نشر فى باريس (١٦٤٤) النص والترجمة اللاتينية لاثنين وستين موعظة، أن ينسبها كلها إلى القرن التاسع، وحاجج دون أن يحالفه الحظ كى يوائم مع هذا القرن بعض آثار القرن الثانى عشر التى نلمسها بوضوح فى بعض هذه المواعظ(2). وعلى العكس زعم العالم جوليلمو كافى أن مجموعة المواعظ تنتمى إلى القرن الحادى عشر، وكان عليه أن يقول الثانى عشر(3). وأكد الرأى نفسه الكاهن نيكولو بوشيمى دا بالرمو (١٨٣٢) شـارحاً الموضوع بالاستناد إلى أخبار مخطوطات أخرى، إحـداها من مدريد وتحتـوى على تسـع وعشرين موعظـة لم تنشر، وربمـا سـرقت من صـقلية(4). ولكن يبدو أن الحقيقـة حسـبما

(1) فيلسوف كان رتبة فى الوظائف الكنسية، مثل مرتل. وتوجد فى وثائق كنائس صقلية فى القرن الثانى عشر والثالث عشر.

(2) *Sapientissimi et eloquentissimi Theophanis Ceramei, Archiepiscopi Tauromenitani, Homiliæ. etc. Lutetiæ Parisiorum 1644.* فى ورقة باليونانية واللاتينية. ونشر بارونيو وجايتانى وعلماء آخرون بعضاً من هذه المواعظ، وبعضها الآخر تمت ترجمته ولكن لم ينشر، بينما قام سكورسو مستعيناً بعديد من المخطوطات بتصويبها وترجمتها واخراجها إلى النور مع النص. وقدم لها بإهداء مسهب إلى مدينة تاورمينا؛ وهو مبحث مشوش فى ترجمة ونقد له؛ كما أنه زود الهوامش بكثير من الدراسات غير المجدية.

(3) كافى، *Scriptorum Eccles. Historia Litteraria*، المجلد الثانى، ص ١٣٢. وتاريخ عام ١٠٤٠ الذى ينسبه المؤلف للملك روچيرو به خطأ يبلغ قرناً كاملاً.

(4) مات بوشيمى شاباً بعد بضعة سنوات من نشره ترجمة لچوڤانى دى بروشيدا ودراسات كثيرة وشروح لوثائق ومقالات الجرائد تدور دوماً حول تاريخ صقلية فى العصر الوسيط. ولما كان باحثاً لا يكل ولا يمل وخبيراً فى فك رموز المخطوطات وعالماً بالمقدسات، ولكنه كان عالماً متواضعاً بالدراسات الهيلينية، وناقداً سطحياً منحازاً غالباً ومحايداً نادراً، فإنه أفاد كثيراً الدراسات التاريخية فى صقلية، إن لم يكن فى شئ ففى مناقشته للمادة التاريخية.
وتملأ دراسته حـول تيوفـانى شيراميـو الثمـانى والأربعـين صفحة الأولى من

اعتقد مونسينور دى چوڤانى الفطن(1) هى أنه يجب الاعتراف بمؤلفين على الأقل لتلك المواعظ: أحدهما من المؤكد عاش فى القرن التاسع، والآخر فى القرن الثانى عشر. وسنرى حالاً الدليل على المؤلف الأول. أما الدليل على الثانى فهو أن خمس عظات(2)، كما نقرأ فى بعض المدونات، تم القاؤها فى قصر بالرمو فى بالرمو أمام الملك، وفى دير سالفاتورى دى مسينا(3)، وفى كنيسة سانتو ستيفانو فى بالرمو ومن منبر كنيسة المطرانية بذات المدينة. ولإبعاد الشك فى أن الواعظ الحديث سرقها كلها من الواعظ القديم، نجد إحدى هذه العظات تتضمن تأبين المنشد الأول فى دير سالفاتورى المذكور(4)؛ وأخرى تعد أدق وصف يمكن عمله لكنيسة بلاتينا فى بالرمو بما فيها من فسيفساء ورخام وبما أثراها به الأمراء النورمان(5). ويبدو أن هذا الواعظ هو فعلاً فيلاجاتو الذى تكلمنا عنه: ويمكننا افتراض أنه أضاف عليها من جانبه فى مواضع هنا وهناك، وأنه ألف بعض العظات، ونقل غيرها نقلاً تاماً من مدونات قديمة، وروج لهـا جميعاً على أنها من وضعه ومن المحتمـل أن عمليـة الانتحال هذه كررها آخرون، وهذا ما قد

Gionale Ecclesiastico di Sicilia، الجريدة الكنسية لصقلية، بالرمو ١٨٣٢. وتحتوى على أخبار ببليوغرافية دقيقة وفهرس أبجدى لمبادئ المواعظ، حيث جمع ما نشره سكورسو ومخطوطات مدريد طبقاً لقائمة *Iriarte*. وعلاوة على هذا، لا يبدى بوشيمى فى هذا العمل نقداً أو ذوقاً جيداً. ويسعدنى أن أسمع أن بيترو ماترانجا، وهو صقلى عالم بالدراسات الهيلينية وكاتب بمكتبة الڤاتيكان، قد شرع فى عمل ابحاث ودراسات عن مواعظ تيوفانى شيراميو. فعلى هذا النحو يمكننا أن نأمل فى عمل جاد عميق وتام حول هذا الموضوع.

(1) *Codex Siciliæ Diplomaticus*، ص ٣١٦ و٤١٠. ولاحظ دى چوڤانى أن تيوفانى الراهب الذى وجهت له رسالة فوتسيو لا يمكن أن يكون رئيس أساقفة تاورمينا. ولكنه يفترض فى بساطة وجود رئيسى أساقفة فى تاورمينا، وهما تيوفانى وجريجوريو عاش أولهما قبل الفتح الإسلامى والثانى بعده.

(2) تلك التى لاحظها سكورسو بأرقام ٥٥ و٢٦ و٦ وغير المنشورة بمخطوط مدريد، رقم ٣٦ و٧٦.

(3) تم تأسيسه فى عام ١٠٩٤.

(4) طبعة سكورسو السادسة. ونقرأ لقب المنشد فى مخطوطة مدريد.

(5) العظة الخامسة والخمسون من طبعة سكورسو.

يفسر اختلاف أسماء المؤلفين الذى نجده فى مختلف المخطوطات(1). وفيما يخص العظات التى لا تحمل سمة واضحة لهذا الزمن، فيبدو أن كثيراً منها يرجع إلى مؤلف القرن التاسع(2).

ودون أن نشتبك فى مسائل فارغة، سنطلق على هذا تيوفانى، الملقب بشيراميو، نسبة إلى وطنه واسم عائلته. ويبدو أنه انتقل من أحد الأديرة إلى كرسى الأسقفية فى تاورمينا، وعندما واجه حنق الحكومة المعادية للصور، تم عزله من الأسقفية، كما يوضح ذلك الاستهلال الساخن لإحدى المواعظ الملقاه من على منبر تاورمينا(3). قال «لقد واصل العيش بمنأى عن أبنائه فى المسيح، عاش تلك المحبة الطاغية، وتاق لرؤيتهم مثلما تتوق الأرض الجدباء المتشققة إلى مياه المطر: وتبددت تجاعيد وجوهنا حين تسنى لنا جميـــعاً العودة إلى تبجيل صورة مريم التى لم ترسمها يـــد إنسان»(4). وبعد قليل وفى ذات اليـوم الذى احتـــفـلت فيــه كل الإمبراطورية باعادة الصور (٨٤٢) عرض تيوفانى بحديث مدو وبليغ تاريخ المعادين للصور. لقد تكهن بعض سحـرة اليهـود بعظمة مستقبل ليونى اساوريكو، ودفعوه ليبدأ الهرطقة. وخلف اساوريكو

(1) تخيل بوشيمى أن تيوفانى غير اسمه أربع أو خمس مرات، وأنه حمل فيما بعد كل تلك الأسماء التى نقرؤها فى المخطوطات. وعادة اتخاذ اسم آخر مع إرتداء رداء الرهبنة معروفة جداً، ولكنها تكفى فقط لتفسير أول تغير للاسم.

(2) فى رأيى أنها كل تلك التى نقرأ عنها فى مخطوطة مدريد «والملقاه من على منبر مقر رئاسة الأسقفية» ويبلغ عددها ست وعشرين منشورة وثلاث غير منشورة. وذلك لأن هناك ملاحظة مماثلة عن بعض العظات التى ترجع دون شك إلى القرن التاسع. ولا يمكننى تحديد عصر عظات أخرى كثيرة. ونقرأ فى بعضها فقط المناسبة التى القيت فيها؛ وفى أخريات اسم الكنيسة دون ذكر المدينة. والموعظة رقم ٧٩ غير المنشورة فى مخطوطة مدريد تم القاؤها فى ريچو. أما الموعظة الواحدة والخمسون فى طبعة سكورسو فتشير إلى أحد المسلمين الذى عاش إحدى العواصف مع المؤلف فى مضيق مسينا؛ ولكن صحبة على هذا النحو كان يمكن أن تحدث فى القرن التاسع كما فى الثانى عشر.

(3) الموعظة الحادية عشر فى طبعة سكورسو. ونجد فى موعظة مخطوطة مدريد رقم ٤٠ هذا التعقيب: «ألقيت من على منبر رئاسة الأسقفية عند العودة إلى صقلية».

(4) Ἀχειρότευκτον. وربما ساد الاعتقاد أنها قدمت من السماء؛ وهى أثر يبارى رسالة السيدة العذراء لأهل مسينا.

فى الإمبراطورية وفى طباع القسوة أفعى ابن تنين، وهو قسطنطين كوبرونيمو: ودعم الاضطهاد ليونى آخر (الأرمنى) وهو غير جدير بمنصب الكردينال وردائه؛ فقد دفعه لهذه الفعلة الشنعاء ذلك الراهب المزيف الذى كان يعتاد الانزواء فى بيت ريفى والخروج عند غروب النهار(1) مثل الخفافيش. وبعد ذلك يحكى حادثه تيودورا الشهيرة والمهرج الذى اكتشفها؛ ويتجنب فى حيطة اسم تيوفيلو القاسى؛ ثم يتطرق إلى مجمع القسطنطينية، وإلى مدح الإمبراطورة التى ردت للكنيسة صور القديسين والزخارف وآيات المجد المنتزعة، ويحث المؤمنين على الاحتفال بالحدث الميمون بالنفور من الرؤساء المؤيدين للقسوة، وتبجيل وتقبيل صور القديسيين، ليس عبادةً للأوثان، ولكن إجلالاً لمن تمثله: وعلى عكس الاستهلال يختتم بتوصية الجميع بالمحبة والرحمة والتوبة(2). وتاريخ عام وشهر ويوم إلقاء الموعظة مكتوب هنا بحروف لا يمكن محوها. وتاريخ القرن مذكور فى موعظتين أخريين حيث يتوجه الواعظ إلى السماء ويدعو بالعون للأباطرة الأرثوذكس ضد أبناء هاجر، الذين يسبون العبادة المسيحية(3)؛ وفى موعظة أخرى

(1) يشير إلى سباتيو الذى نجد اسمه لدى الكتاب البيزنطيين. وكان سباتيو يحتفظ بصومعة لئيم آخر تنبأ بالإمبراطورية لليونى الأرمنى. ولما صار ليونى إمبراطوراً. أرسل من جديد رسائل يستشير فيها العراف، ورد عليه سباتيو بالقول الفظ وبألا يتوقع خيراً طالما يعبد الأصنام. وأراد ليونى أن يتوجه للحديث معه متخفياً؛ ولكن سباتيو علم بذلك من أحد رجال البلاط وسرد عليه كثيراً من النبوءات؛ وجعله يظن أنه يوحى إليه، إلخ، أنظر *Teophanes Continuatus*، الكتاب الأول، الفصل الخامس عشر والسادس عشر؛ وسيمون ماجستر، *De Leone Armeno* الفصل الثالث.

(2) الموعظة رقم ٢٠ فى طبعة سكورسو. ويشير الواعظ هنا إلى صورة مريم التى رسمها القديس لوقا بالشمع والألوان والتى كانت القسطنطينية لاتزال تحتفظ بها؛ ص ١٢٩. ويذكر بارونيو فى *Annales Ecclesiastici*، عام ٨٤٢، فقرة من هذه الموعظة.

(3) الموعظة السادسة ص ٢٦ والموعظة الأربعون ص ٢٨٨. وتذكر مخطوطة مدريد أن الأولى تم القاؤها من منبر رئاسة الأسقفية. والدعاء هنا للأباطرة فى صيغة الجمع، أما فى الثانية فبصيغة المفرد: ويبدو إذن أن إحداهما ألقيت قبل عام ٨٥٤ والأخرى بعده.

يتعرض لملذات النبلاء وجيراننا من طائفة بنى إسماعيل حيث قال إنهم يتبادلون الزوجات(1).

إن هذه الشكوك التى لمسناها فى التأريخ واتجاه الوعاظ، مثل شعراء الهجاء، إلى رسم صور كاريكاتيرية أكثر منها صور حقيقية تدعونا إلى كثير من الحيطة فى استخلاص عادات صقلية المسيحية فى القرن التاسع من هذه المواعظ. والحق أنه يبدو مبالغاً فيه الهجوم الذى وجهه واعظنا على شعب تاورمينا وجهاً لوجه فى يوم عيد القديس بانكراتسيو، أول أساقفة المدينة على ما يعتقد. وعاد تيوفانى بسرعة من بالرمو، وبينما كان يعانى عناء السفر كما يقول، إذا به يصعد على المنبر لينفث غضبته. وتلى نص كلمات الإنجيل: «أنا هو الباب» (يوحنا، الاصحاح العاشر: ٩) وبعد تفسيرها اختتم كلامه بأن الإكليروس قد يحسن صنعاً حين لا يقلد الرعاة المرتزقة واللصوص، ولكن على المؤمنين أيضاً أن يتركوا مثال العناز التى تهرع للسقوط فى الهاوية. وعندما انتقل إلى أعمال القديس الذى يحتفل به قال: «إلى جزيرتنا هذه أتى بانكراتسيو، إلى مدينة تاورمينا هذه، نعم، مدينة الثور والميناده(2) والحماس والهوس، إلى هذه الأرض التى حُكم علينا أن نقيم فيها». وبعد كلمة موجزة عن أصنام فالكونى وليسا وسكاماندرو التى حطمها القديس بانكراتسيو، حث المواطنين «أن يحطموا هم أيضاً أصنامهم، أى أهواء النفس الجامحة، وأن يجتهدوا فى أعمال الخير؛ وخاصة أولئك القادرين، أو نبلاء المدينة القاسية، وراح يكرر النبلاء، أى المنغمسين فى الرذائل(3)». إن رحلة بالرمو والاضطراب السياسى اللذين يمكن تفسيرهما من هذا الهجوم على الكبار قد يشيران إلى زمن ثورة إوفيميو التى كان يحكم فيها

(1) الموعظة الثالثة عشر فى طبعة سكورسو، ص٨٠. فى عصر الملك روچيرو كان هناك كثير من المسلمين فى صقلية، وكان على الواعظ أن يطلق عليهم رعايا وليس جيران.

(2) Πόλιν ταύρου καὶ μενείας.

(3) الموعظة ٥٧ فى طبعة سكورسو، ص ٣٨٥: Οἵ τε γὰς τῆς ἀτεβοῖς προέχοντες πόλεως, τουτέστιν οἱ ἐπὶ κακίᾳ περιφανέστεροι.

ميكيلى البالبو، والتى لم يتعرض فيها لخطر كبير الذين يقدسون الصور. وقد يمكن إرجاع موعظة أخرى ألقيت يوم الاحتفال بالقديس بانتا ليونى إلى عصر تيوفيلو، عندما وبخ الواعظ الحاضرين بأنهم أتوا للحفل لبيع البضائع وليس لسماع كلمة الله، واستفز بكل تأكيد السلطة الزمنية، حينما ذكر أن المسيح قد أرسل تلاميذه مثل حملان وسط الذئاب، وتوقع أن ملوكاً ورؤساء وطغاة سيثورون ضد تعاليم الإنجيل(1). وتناولت موعظة أخرى خطيرة سلوك الأفراد. كانت هناك حالة جفاف حادة تعانى منها البلاد، والأرض لا يمكن حرثها لا بالمحراث ولا بالفأس(2). وأفاض الواعظ المنزعج من حديثه لأناس أصابها الهلع فى وصف الكارثة العامة وإن لم يخل حديثه من صور حية وقوية. ولما ألهب عاطفة السامعين عاد بدافع من مسئوليته إلى سبب كل الشرور وهو الخطيئة. وصاح «إن هذا السوط يلهبنا لأننا نتآكل من الحسد، ونريد أن نتعالى على المتضعين؛ إننا نستمتع بآلام الآخرين، ويمزق بعضنا بعضاً بالتشهير، وتركنا أنفسنا تحت سيطرة أطماع بلهاء؛ لقد أفسدتنا الرذيلة(3)؛ وصرنا ذئاباً جياعاً نلتهم ما لغيرنا؛ نغتاظ أسوأ من الجمال، فلا رحمة بالفقراء ولا احترام للكنيسة. ورسل ووزراء الكنيسة (هكذا يواصل العظـــة فى حماس) أليسوا على قائمة الفضــــائح، ألا يتبادلون السباب؟، ألا يتباغضون، ويبحثون عن الثـــأر، ويحيـكون المكائد فيما بينهم، ألم يظلوا صـــامتين عندما رأوا الخطيئـــة تتفشى؟ ولم يلتفت العلمانيون فقط إلى حدب الرهبــــان وليس إلى حدبهم هم؟ ماذا! أليست المدينة مملوءة

---

(1) الموعظة ٥٨ من طبعة سكورسو. ومن المؤكد هذه اللغة أو اللهجة كانت غير معتادة على المنابر خلال حكم روچيرو.

(2) Οὔτε τὴν σκάφησιν. ويبدو أن اشتقت من هذه الكلمة اليونانية كلمة «نقب الأرض حول الكرْمة» التى تنطق سكوا سارى فى لهجة صقلية، وتستخدم عند الحديث بصفة خاصة عن الكروم. وأعتقد لذلك أن المؤلف يشير هنا إلى زراعة العنب.

(3) لا تسمح لياقة عصرنا بترجمة حرفية لعبارة "θηλυμανεῖς," التى أخذت عن أرميا، الاصحاح الخامس: ٨.

بالرذائل، إنى أســـمع القســم كل يوم، رغم إننى سبق ونبهتكم إلى تحاشيه(1)، حذرتكم من غضب الله: لِمَ الدهشة إذن من جنى مثل هذه الثمار وحصد ذلك الحصاد، وما العجب فى أن يعاقب الله الجميع بخطأ القليلين، حتى الحيوانات والأرض، ألم يصبها عقاب خطايا البشر؟»(2). ولا نعثر فى كل هذا الكلام على حرف واحد يدل على زمانها. ولا أقل من أن يدفعنى ذلك التحذير من القسم وتلك الإشارة إلى مساوئ الإكليروس، يدفعنى إلى التفكير فى إرجاع هذا الحديث إلى القرن التاسع أكثر منه إلى النصف الأول من القرن الثانى عشر.

والفقرات السابقة هى مثال لأسلوب تيوفانى. ولا يبدو لى أسلوباً مملوءاً بالمحسنات بالقدر الذى كان يتسم به الذوق العام فى تلك الفترة. فسرد الأحداث على العكس بسيط فى الغالب، واضح، متلاحق ويُذكّر بماورليكو الذى عاش بعد ذلك بثمانية قرون وولد فى تلك السلالة اليونانية الطيبة التى كانت فى ڤال ديمونى؛ ولكن واعظ تاورمينا كان لا يحتفظ دائماً باعتدال مَسَّاح ومؤرخ مسينا، والذى اعتاد أن ينسج المواعظ بأفضل صيغة. وبعد استهلال موجز ولطيف يذكر نص الإنجيل ويفسره بوضوح، ويسهب بفطنة، قلما وجدناها فى تلك الفترة، فى تفسير المبادئ الأخلاقية أكثر من الخوض فى الكلام عن أفكار لاهوتية مجردة. وحين ننظر إلى أعمال تيوفانى من أى جانب نرى أنها أحد أحسن نماذج العظـات لدى اليونانيين فى العصــــور المتأخرة(3). وســأترك لآخرين البحث والتحقق من أن أحـد البحــوث التعليمية الذى يوجــد فى

---

(1) ونعثر فعلاً فى الموعظة رقم ٢١ من طبعة سكورسو على تحذير بالكف عن الشجار والقسم. ولا نستخلص من هذه الموعظة ولا من الموعظة رقم ٦٢ مكان إلقائهما.

(2) الموعظة رقم ٦٢ فى طبعة سكورسو.

(3) هذا هو رأى كافى، *Scriptorum Eccles. Historia Litteraria*، المجلد الثانى، ص ١٣٢؛ ورأى فابريتشو، *Bibliotheca Græca*، المجلد العاشر، ص ٢٣٢؛ ناهيك عن راى سكورسو قليل الشأن. وحتى اليسوعى البالرمى الذى يكتب هو ذاته بأسلوب مصطنع يقول أن تيوفانى متكلف فى الكتابة.

شكل مخطوطة بتورينو قد كتبه تيوفانى، ومن هو مؤلف المواعظ المختلفة الأخرى التى تقتنيها على شكل مخطوطة مكتبة ڤيينا وباسم چوڤانى شيراميو(1).

وفى ذات الوقت جنى صقليون آخرون الثمار بطريقتهم عندما زجوا بأنفسهم فى قلب الصراع ضد مناهضى طقس الأيقونات. وتبوأ المرتبة الأولى بينهم سان ميتوديو، الذى ولد فى عائلة معروفة فى سيراكوزا، وتم توجيهه لدراسة قواعد اللغة والتاريخ والبلاغة، وأرسل وهو شاب إلى البلاط، ولكنه أصيب فيه بالملل، فارتدى مسوح الرهبان بعد إقناع أحد الرهبان له، وبعد أن وهب كل ممتلكاته إلى الفقراء حباً فى الله. وهكذا أجبر تعفن الإمبراطورية المتأخرة النفوس الذكية للفرار إلى الأديرة، التى لم يلجؤا إليها قبلا بدافع من الزهد، مما جعل المجتمع المدنى يفقد قوته، بينما تزداد قوة المجتمع الدينى الذى كان يستنفذها فى منازعات لا طائل منها. ومع ذلك زج ميتوديو بنفسه بين فتن العالم. ولما كان ميتوديو يتحدث اليونانية واللاتينية بطلاقة حيث ولد فى صقلية تم إرســاله ذات مرة إلى رومـــا، فعاد منها متأجج المشاعر بحماسة أرثوذكسية وتجاسر على السلطة المدنية، إذ ناصر بكل قواه نيكسفرو بطريرك القسطنطينية، الذى عندما طُرِد (٨١٤) اضطر إلى اللجوء إلى روما وأقام فيها حتى موت ليونى الأرمنى (٨٢٠). وحينئذ أرسله البابا قاصداً رسولياً لدى ميكيلى البالبو، ولما اعتقد هـذا الأخيـر أن البـابا متمرد عليه وأن ميتوديو يفوقه فى التمـرد وقد ولد تابعاً له، فما أن وقع بين يديه، حتى أمر بضرب القـاصد بالعصـا؛ ونقله إلى جزيرة صغيرة يطلق عليها سانت أندريا، ويذكر آخرون أنها جـزيرة أنتيجونو، فى بحر مرمرا، وأودعه هنـاك فى سـجن تحت الأرض مع اثنين من المحـكوم عليهما فى جرائم، وأبقى جثمـان أحـدهما بعد موته مع رفيقيه الأحياء فى السجن. وبعد

(1) المدونة ٢٢٢ فى مكتبة تورينو، و٢٢٩ فى مكتبة ڤيينا، واستشهد بهما بوشيمى فى ص ١٣ وأنقل عنه هذه المعلومة. ونجد مخطوطة ڤيينا التى سبق ذكرها فى قائمة دانيل دى نيسيل، الجزء الأول ص ١٦٣، و*Codd. Theolog*، رقم ٨٢.

سبعة أعوام، وحينما أخذ تيوفيلو يدقق بعقله الجامح فى محاولة لقراءة لا أعرف بالضبط أى كتاب، أرشده أحد رجال البلاط، فأرسل الكتاب إلى ميتوديو وأعجب بتفسيره، فأراد العالم بجواره، ومنحه أجراً وهيأ له الإقامة فى البلاط، وبعد قليل عاد يذيقة العصا والسجن، حيث إن الصقلى العنيد كان يتناول فى حضرته أسانيد لصالح تقديس الأيقونات. ولكن بعد تحريره فى نزوة جديدة من نزوات الإمبراطور، راح ميتوديو الرجل الفطن يجادله بنفسه، وزعزع من براهينه، ومن المؤكد أنه استثاره لدرجة أن تيوفيلو وقد أصبح لا يمكنه البقاء بدون ميتوديو وخشية من أن يجلب له الخلاف فى القسطنطينية، كان يسحبه وراءه فى نزواته الحربية. ومن المعلوم أنه بعد موت تيوفيلو كان أول شئ قامت به الإمبراطورة تيودورا لوضع حد للهرطقة هو طرد البطريرك چوڤانى ليكانو مانتى بالعنف. وحل محله ميتوديو، الذى كان بمثابة رئيس الأرثوذكس، لعلمه وورعه وقوة عزيمته، ومن المؤكد أيضاً لممارساته تلك التى كان يشك فيها تيوفيلو. وزاول سلطات البطريرك بجدارة. فقد أفحم بسهولة أعداءه الذين اتهموه باغتصاب أمرأة؛ فلا يصدق هذا على رجل فى عمره منهك الجسد منهك القوى وفاقد شعر رأسه وأسنانه من جراء سجن مناهضى تقديـس الأيقونات(2) الذى كـان قاسيـاً عليـه. وقدَّم بعد ذلك أقصــى ما يمكن تقديمه لرفاقه الذين أضطهدوا من قبل، حيث عمـل على نقل جثث الذين مـاتوا فى المنفى إلى القسطنطينية.

(1) هكذا يعتقد مؤلف تتمة تيوفانى *Continuazione di Teofane*.

(2) على حد قول تتمة تيوفانى *Continuazione di Teofane* ترافع ميتوديو عن نفسه أمام المحـكمة بهذه الطـريقـة: *Paulum se athrono subrigens, sinumque ad se colligens, verenda nuda ostendit, miraculo arefacta.* ويروى بعد ذلك المعجزة، فعندما كان فى روما يصلى للقديس بطرس كى يخلصه من الأهواء الشهوانية بدا له المعلم فى الرؤيا: *eam tangendo partem, libidinis sensum extinxit.* وعلى هذا النحو كانوا أشراراً اولئك الطغاة.

ومـات هو فى العام التالى (٨٤٧) وخَلَّف سيرته قديساً وعديداً من المدايح والكتابات التعليمية(1).

وخَلَف ميتوديو ابن الإمبراطور ميكيلى رنجابه، واسمه نيتشيتا، وأطلق عليه اسم إنياتسيو بعد تنصيبه بطريركاً: وهو رجل ضعيف تقى، صار على غير المتوقع وجيهاً وقديساً؛ لأنه كان عدواً لفوتسيو. وانشقاق فوتسيو الذى كان يختمر من قرون للتنافس بين كنيستى روما والقسطنطينية اشتعل بسبب الأحقاد السياسية ضد البابوات ومكائد البلاط فى القسطنطينية: ومع هذا فالحق أن أول الشرر ألقى به جريجوريو أسبستا، أسقف سيراكوزا(2). ولذا منعه أنياتسيو، خلافاً لنصيحة المقربين له، من حضور حفل سيامته، بتهمة التعدى على النظام تعدياً لا أعرفه، ومن المؤكد أنه كان تعدياً بسيطاً جداً حيث أنه لم يذكر صراحة أبداً(3). ويتساءل كاتب سيرة القديس اينياتسو متعجباً، «ولكن من ذا الذى يتمكن أن يصف بالكلمات كم من الفضـائح أعقبت ذلك؛ وكم من الوعيد بالانتقـام ألهب صدر هذا

(1) ونجدها فى تتمة تيوفانى *Theophanes Continuatus*. الكتاب الثانى، الفصل الثامن، والكتاب الثالث، الفصل الرابع والعشرون، والكتاب الرابع، الفصل الثالث والخامس والعاشر؛ وعند سيمون ماجستر، *De Theophilo*. الفصل ٢٢ و٢٣ و٢٤، وعند چورچ الراهب *De Michaele et Theodora*، الفصـل الأول والثـانى والثـالث، وفى *Acta Sanctorum*، ١٤ يونيو، من ص ٩٦٠ إلى ص ٩٧٣، والمواعظ الأخرى التى استشهد بها مونچيتورى، *Bibliotheca Sicula*. المجلد الثانى، ص ٦٦ وما بعدها؛ والتى أوردها لوبو *Histoire du Bas-Empire*. الكتاب ٦٨، § ٢٨ الكتاب ٦٩، § ٢٤ الكتاب ٧٠ § ٤ و٥ و٧ و١٤.

(2) يطلق عليه كُتاب البابوية ووثائقهم، وهى الوحيدة التى لدينا، لقب الأسقف، ولا تعترف له برتبة المطران الجديدة.

(3) نيتشيتا بافلاجونى، *Vita Sancti Ignatii*. إلخ. باليونانية واللاتينية، لدى لاب، *Sacrosancta Concilia*. المجلد الثامن، ص ١١٩٩، يقول «إنه أُتهم فى القسطنطينية ببعض الاتهـامات ἐπ' ἐγκλήμασι δέ τισιν وحـــكم عليه فى رومـا بخرق القواعد»، ولكن رسالة نيكولو الأول بتاريخ ١٣ نوفمبر عام ٨٦٦، فى المجلد نفسه، ص ٣٢٦، تُكذّب الخبر الثانى. وقال سيمونى *De Michaele et Theodora*. فى الفصل الثانى والثلاثين، إن البطريرك ميتوديو قد عزله فعلاً، لأنه رسم شخصاً يدعى زكريا (ربما أسقف تاورمينا)، وكان مبعوث ميتوديو إلى بلاط روما ولأخطاء أخرى. وهذا العزل كذّبه نيتشيتا الذى ينسبه بالفعل إلى اينياتسو. خلاصة القول أنه عند اعتلاء هذا كان جريجوريو متهماً، ولا غير.

الصقلى الشامخ(1)، الذى عندما لقى فوتسيو رفع من شأنه وكرمه؟(2). وعلاوة على رباطة جأشه وجسارته وحدة طباعه وزهوه بنفسه كان جريجوريو أسبستا يتمتع بعقل راجح وبكلام ذى مغزى، وبالعلم العظيم والتقوى وبعادات صالحة، ويقول كاتب سيرته أن الأسوأ من هذا أنه كان أيضاً مصوراً ماهراً(3): وأساء استعمال الرسم فى كتاب صغير راح يحكى من خلال سبع منمنمات ما كان يتأجج بداخله: أى عدوه فى صورة المقبوض عليه، والمعزول والمكبل بالأغلال وقد طوقت رقبته، والمحكوم عليه، وأخيراً فى صورة سياقه إلى التعذيب(4). وقبل أن يصل غضب رئيس الأساقفة إلى هذا الحد كان البطريرك قد أصدر قراراً بعزله فى مجمع سنة (٨٥٤)، ولما أوعزوا إليه بأن يحمل قضـيته إلى البـابا استنكف جريجوريو أن يعود كرسى سيراكوزا ليخضع لكرسى روما، بعد انفصـاله(5)، أو بمعنى أصـح لم يكتف بالخلاص من المشكلة دون أن يثأر من إنياتسيو. وعندما لم يخفف من غلو أسبستا تملـق(6) إينياتسيو له، راح يعمـل على تشـويه سـمعته فى أرجـاء المدينـة وعلى تدبير المـكائد مع الأساقفة والقساوسـة السـاخطين؛ ونشـأت علاقة مع فوتسيو، حامل درع الإمبراطور

(1) نيتشيتا، المرجع المذكور، ص ١١٩٩. وأورد اليسوعى التيرولى ادر الذى كتب فى القرن السابع عشر، ولا أعلم لأى داع، هذه العبارة: *et improbita tem illius probi Siculi.* والنص هو : καὶ μνησικακίαν τοῦ δεινοῦ ἐκείνου

(2) Καθηγητὴς καὶ ἱεροτελεστής.

(3) Ζωγράφος.

(4) نيتشيتا، المرجع المذكور، ص ١٢٢٦. ويضيف المؤلف أن الكتاب أُخذ من بيت فوتسيو وقُدم إلى مجمع الأساقفة عام ٨٦٧ وتم احراقه.

(5) هناك إشارة لهذا النداء فى رسائل نيكولو الأول، لدى لاب، المرجع المذكور، المجلد الثامن، رقم ٧ و٨ و٩ و١١، ص ٢٨٨، ٢٨٩، ٣٠٣، ٣٢٠، ٣٢٦، ٣٣٥، ٣٧٥ وفى محاضر بابوية أخرى فى ص ١٢٧٤، ١٢٨٣، ١٢٩٥ و١٣٣٢. وكلها وردت فى فترة يختلط فيها إتهام جريجوريو الأول مع إتهام آخر أكثر خطورة وهو مشـــاركته فى مجمـــع أساقفة القسطنطينية فى عام ٨٦١. أنظر أيضاً نيتشيتا، المرجـــع المذكور، ص ١١٩٩؛ وبارونيو *Annales Ecclesiastici*، عام ٨٥٤.

(6) نيتشيتا، المرجع المذكور، ص ١١٩٩.

الأول، والمعروف بأصالته فهو رجل فذ غزير العلم، ومتحدث لبق، ورجل دوله يحترمه العالم تشيزارى باردا الذى كان يسوس الإمبراطور والإمبراطورية. ولكى يوازن كل القوى ألقى البطريرك الضعيف بنفسه بين ذراعى البابا بندتو الثالث وعمل على إقرار روما إدانة أسقف سيراكوزا(1)؛ الأمر الذى عده فوتسيو وباردا دليلاً على السيادة. واحتدم النزاع بالإهانات الشخصية: وفى النهاية تم طرد إنياتسيو من البطريركية، وأعيد تنصيب فوتسيو بطريركاً وقام برسامته أسقف سيراكوزا (٨٥٨) الذى أصابه الاحباط من مواصلة اضطهاد العدو الذى سقط. ولا يلزم أن نضيف أن البابا والبطريرك الجديد راحا يتنازعان؛ حيث إنهما كى يجدا سبباً لاحتدام الأحقاد الدنيوية راحا يتجادلان حول انبثاق الروح القدس؛ حتى أن فوتسيو تجرأ بعزل البابا (٨٦٧)؛ وتدهورت الأمور لحد النميمة: حيث نجد ميكيلى الثالث يشتكى من البابا نيكولو الأول الذى كتب له بلغة بربرية وشيتيه، وكان يقصد اللاتينية؛ فرد عليه نيكولو رداً مفحماً بأنه من الحماقة فعلاً التقليل من شأن تلك اللغة وأن يريد أن يطلق على نفسه رغم هذا إمبراطور الرومان(2).

وحالف الحظ إنياتسيو فى الحال عندما قام باسيليوس المقدونى باعادته إلى مقر الأسقفية حتى يتخلص من مشكلة لا طائل منها(3): وحينما حضر إلى المقر مائة أسقف اجتمعوا فى مجمع وأدانوا أخويهم الاثنين، المذنبين بعدم رضا الأمير عنهما. وهنا برز فوتسيو وجريجوريو أكثر عظمة عن ذى قبل حيث انهالا بكلمات الإزدراء فى وجه القضاة الجبناء (٢٩ سبتمبر ٨٦٩)(4). وبعد عشرة أعوام وبعد وفاة إنياتسيو واعتلاء

(1) ونقرأ هذه الواقعة فى المرسوم الثانى لمجمع أساقفة روما عام ٨٦٣، لدى لاب، الجزء C، ص ١٣٢٢، ولدى بارونيو، *Annales Ecclesiastici*، عام ٨٦٣.

(2) أنظر رسالة نيكولو الثامنة، لدى لاب، الجزء C، ص ٢٩٨.

(3) قد يكون من غير المفيد تجميع استشهادات حول واقعة الانشقاق الشهيرة جداً، والتى نستخلصها من أعمال المجامع ومن حياة القديس إينياتسو، إلخ.

(4) أنظر ردودهما فى الصياغتين المختلفتين لأعمال هذا المجمع، إحداهما باليونانية والأخرى باللاتينية، لدى لاب، الجزء C، ص ١٠٦١ و١٣٠٧ و١٣١١ وما بعدها.

فوتسيو من جديد كرسى البطريركية إذ به يعطى مطرانية نيقية إلى جريجوريو عن جدارة، ولكن جريجوريو مات فيها بعد فترة وجيزة(٨٧٨)، وتم الاحتفال بذكراه وقام بتأبينه بطريرك القسطنطينية، الذى يتفوق بمعرفتـه وعلمـه على أى رجل آخـر فى ذاك الزمـان(1). وعاش صقليان هذه اللحظة المهمة من الخلافات الكنسية الرئيسة التى احتدمت فى القرن التاسع بين الشرق والغرب: وانتهت الأولى منها على يد ميتوديو، بينما أشعل الأخرى جريجوريو أسبستا.

وظهر فى كلتيهما، ولكن ليس بين أوائل من ظهروا، سان جوزيف الذى أُطلق عليه إنوجرافو (كاتب المدائح) وهو أيضاً صقلى. ولا نعلم فى أى مدينة وُلد، ولجأ مع أبويه بلوتينو وأجاثا إلى بلبُونيسو هرباً من قسوة المسلمين، كما يقول الراهب كاتب الترجمة وربما كان تلميذه، والذى أضاف عبارات مبهمة عن مذابح وسرقات، وإهانات عذب بها البربر صقلية، هذه الجزيرة النبيلة بذكر ديونيزيو وسان جوزيف كاتب المدائح. وفى سن الخامسة عشره دخل سان جوزيف أحد أديرة تسالونيكا: كان دارساً متوحداً وصامتاً، يقمع ذاته بالصوم، ويضرب صدره بالحجارة، وكعادة الرهبان اليونانيين كان يعترف بأنه مذنب غير جدير بالكهنوت الذى ناله رغماً عنه علـى يد أحد القديسين الذى أراد أن يستغله فى إثارة القلاقل على المعادين لتقديس الأيقونات(2). وحين أرسـل لاقتضـاءات طائفته فى روما سـقط فى يد القراصنة المسلمين الذين اقتادوه معهم إلى كريت حيث راح يحث أسقفها ضد الهرطقة، ويشـجع أحد رفقاء السـجن على الاستشهاد عندما كان على وشك انكار الإيمان المسـيحى. ولما اختفى من سجنه بأعجوبة

(1) نيتشيتا، المرجع المذكور، ص ١٢٥٨، وبارونيو، *Annales Ecclesiastici* عام ٨٧٨.

(2) يذكر كاتب السيرة أسماء سان جريجوريو ديكابوليتا وليونى الأرمنى دون شك. ولكن هذا الأخير مات قبل أن يحتل المسلمون صقلية. ولذا فإن لم تكن الواقعة ملفقة يلزم تصحيح الأسماء.

سافر جواً إلى القسطنطينية. وعندئذ توجه إلى تسّاليا ليؤسس ديراً تكريماً للقديس باروتولوميو الذى أتى له فى الرؤيا ليقدم له جميلاً ويباركه وجعله شاعراً. ويختتم كاتب السيرة كلامه بقوله ولكن شعره يخلق وئاماً روحانياً، ويمحو الغضب؛ ويبعث على زرف الدموع، وترجمته كل أمة للغتها، وهيا ألقوا جانباً كل الشعراء الآخرين، فيكفيكم كاتب المدائح!

وعلى الرغم من تفاهة هذا الكلام فإن التاريخ يمكن أن يستخرج منه نفعاً. فتذكر لنا الرواية الثانية كيف أن كاتب المدائح أخذ يكتب الشعر فى سن النضوج نتيجة الدراسة، وكيف أن اليونانيين فى القرن التاسع عملوا كثيراً على تقليد القدماء، حتى أن شغلهم الشاغل كان أن يضعوا على عرش أبوللو أحد القديسين المسيحيين. وكانت هذه الحركة الأدبية وهى تتأجج فتوة فى مجتمع صار هرما، كانت قد ظهرت فى النصف الأول من القرن كما تبرهن على ذلك أعمال تيوفانى شيراميو، وحياة ميتوديو، ومواقف تيوفيلو معه، والآخر الشهير بعالم الرياضيات ليونى الذى صار بعد ذلك أسقف تسالونيكى. ويبدو أن تيوفيلو نفسه هو الذى بدأ(2)، وأتم من بعده شيزارى باردا خلال حكم ميكيلى الثالث، تأسيس أكاديمية فى قصر الإمبراطورية يطلق عليه مانياورا، حيث كانت تلقى فيها دروس فى الفلسفة والعلوم البحتة بما فيها الموسيقى(3)؛ ولما انتظمت الدراسات وتزايد عدد الأساتذة، بدأوا يقرؤون فى الفلسفة والهندسة والفلك وقواعد اللغة اليونانية: ونعلم فضلاً عن ذلك أن متخصصين كانوا قد بدأوا تعليم فن الشعر فى القسطنطينية، وذهب آخرون بحثاً عن كنوز المعرفة القديمة والأدب

(1) عندما ظهر له سان نيكولو فى الرؤيا أعطى له مدونة عظيمة الفائدة ولذيذة الطعم ليأكلها، حتى أن القيود انفكت بها وانفتحت بها بوابات الأسوار. ورأى القديس جوزيف أنه ينتقل فى الحال إلى القسطنطينية.

(2) هكذا يقول سيمون ماجستر، *De Theophilo*. الفصل العشرون.

(3) *Theophanes Continuatus*، الكتاب الرابع، الفصل السادس والعشرون والسابع والعشرون. وينسب راوى الوقائع المجهول هذا التأسيس إلى باردا، ولكنه يذكر صراحة أن استئناف الدراسات قد بدأ من قبل.

هنا وهناك بأديرة اليونان(1). ونسب مؤرخ عظيم(2) هذه الانتعاشة فى الدراسات لرغبة واتت البلاط البيزنطى فى التبارى مع الخلفاء، ولم يكن هذا هو السبب الوحيد ولا السبب الأول لهذه الانتعاشة. فمن المعتاد أن تنشأ الحركات الثقافية فى أوساط الشعب: وقد شحذ نزاع تقديس الأيقونات الذى أزعج المسيحية منذ أكثر من قرن العقول والهمم مثله مثل أى حدث جلل.

كان المعادون لتقديس الأيقونات يبحثون عن أسلحة تؤيدهم فى الفلسفة، وخرج من بينهم فعلاً أول أستاذ فى أكاديمية مانياورا. وعلى العكس نجد مؤيدى تقديس الأيقونات وكان يلزمهم لتحقيق مقصدهم أن يستوصوا بالاهتمام بفلسفة الجمال وبالاجتهاد فى تقليد الفن الساحر عند الكلاسيكيين من أهل الأمم القدماء، بأحسن صورة ممكنة: إذ ليس من قبيل الصدفة أن تظهر العلامات الأولى منه فى صقلية؛ لأن الجزيرة كانت تتشيع بحرارة تشيعاً أقل خطراً. من هنا راح الراهب الصقلى يقرض الشعر الدينى الذى بدأه غيره من قبل، ولكن بمستوى أقل. وراح ينظم الشعر سماعياً وليس بإعمال قريحته: وأسعفته اللغة اليونانية بطواعية كلماتها وموسيقاها، أما أفكاره ومشاعره التى تدفعنا الآن إلى النعاس فكانت آنذاك تسعد السامعين: وهكذا أوجد مؤمنين جداً بتقديس الصور؛ وجلبت له الدراسة المنحازة، وهى أسوأ ما فى العصر، والجديد الذى أودعه فى تلك المؤلفات شهرة عريضة. ونفاه تيوفيلو إلى كيرسون فى أقصى البحر الأسود. ولما عادت الصور على هياكل الكنائس، زاد تقدير البطريرك إنياتسيو (٨٤٨) له وكلفه بحراسة الأوانى المقدسة فى إحدى الكنائس الكبرى. وبعد وفاته صار سواء لصيته الأدبى أم لبراعته. حيث يمدحون إينوجرافو لقدرته على قراءة الأفكار فى عيون الآخرين. صار صديقاً حميماً ويقولون أيضاً مستشاراً لفوتسيو. وإلى

(1) *Theophanes Continuatus*، الكتاب الرابع، الفصل التاسع والعشرون.

(2) جيبون، *Decline and Fall*، الفصل الثالث والخمسون.

جانب ذلك دخل قائمة القديسين(1).

وطالما كان من الضرورى أن نتناول الشعر الدينى، فإننا سنتكلم هنا عن سيرجو، وهو راهب فى أحد أديرة سان كالوچيرو ربما يقع على جبل بالاسم نفسه بالقرب من شكّا. ولدينا أخبار عن سيرجو فى نشيد طويل ومقطوعة آخرى له نجد نصهما اليونانى فى دير سان فيليبو دى فراجالا القديم فى صقلية. وقد أُلقى النشيد فى يوم الاحتفال السنوى بسان كالوچيرو، وأمام حشد من الرهبان والشعب: ومن المؤكد أنهم كانوا يعيشـــون بين أخطـــــار بالغة حيث نجد المؤلف تـــارة يوجـــه صـــلاته ودعاءه للقديس كالوچيرو كى ينقذ البـــلاد من تهديدات وتخريب وهجمـــات الأعداء، وتارة أخرى يتوجه إلى أم المسيح ليتوسل الخلاص من نير بنى إســماعيل، وكثيراً ما كان يعود إلى هذا الموضـــوع. ولذا يبدو لى أن شـــكّا فى تلك الآونـة كانت مدينة تدفـــع الجزية وعلى هذا النحـــو كانت تعـــانى النير والأخطـــار. والدعـــاء للأباطـــــرة الأرثوذكس لا يســـتبعد هذا الافتراض، ويعطينا وميضاً لكشف تلك الحقبة: وهى - على ما أعتقد - الاثنا عشر عاماً الأولى من ملك ميكيلى الثالث (٨٤٢ - ٨٥٤)، عندما كانت والدته هى التى تحـــكم البلاد باســـمه وقامت كثرة من حصون الإقليم الذى تقـــع فيه شكّا بتوقيع اتفاق مع المســـلمين خرقوه

(1) هناك مدونتان لترجمة القديس چوزيف كاتب المدائح، نشر إحداهما جايتانى، *VitæSanctorum Siculorum*، المجلد الثانى، ص ٤٣ وما يليها، وبولاندستى، *Acta Sanctorum*، ١٣ إبريل، ص ٢٦٦ وما يليها، والأخرى البولاندستيون فقط، المرجع المذكور؛ والنص اليونانى للأولى المصوب وفقاً لمخطوطة بالڤاتيكان موجود فى نهاية كتابهم، ص ٣٤. ويعتقد أن النسخة الأصلية كتبها شماس يدعى يوحنا بناءً على الأخبار التى كان يزوده بها تيوفانى، تلميذ إينوجرافو (كاتب المدائح). وفضلاً عن المعجزات هناك أخطاء جسيمة فى الترتيب الزمنى الذى طبقاً له جعل جايتانى كاتب المدائح يعيش ١٧٠ عاماً. وقلل البولاندسيتون من هذه المدة قرناً، ومع ذلك لم يمحوا التناقض الذى أورده كاتب الترجمة عندما ذكر هروب چوزيف صبياً من صقلية بعد احتلال المسلمين الذى بدأ فى عام ٨٢٧، وذكر أنه صار كاهناً فى عصر ليونى الأرمنى الذى مات فى عام ٨٢٠. ويرجع موت القديس چوزيف كاتب المدائح إلى مؤامرة فى عام ٨٨٣.

بعدها بقليل(1). ولا نعلم هل عاش فى هذه الفترة ذاتها قسطنطين صقلية الذى ترك لنا مقطوعة شعرية واحدة ليست كاملة(2).

وبدلاً من الوقوف عند هذه الأبيات الهزيلة لعصر ساده الاضمحلال يجدر بنا أن نعثر على مدونة أخبار يونانية يبدو أنها غير منشورة، وقعت عليها أعين بعض علماء القرن السادس عشر: ولكن اندثر أثرها بعد ذلك. وهذه المدونة تنتسب لشخص يدعى چوڤانى دى صقلية، تبدأ كالعادة من قصة خلق العالم وتواصل روايتها حتى عام ثمانمائة وستة وثمانين، وهو العام الذى يفترض أن يكون المؤلف قد مات فيه. وربما كان هو الصقـــلى أو تـــربوى صقلى ممن يشير إليهم شيدرينو وچوڤانى شيليتز بين كُتَّـــاب التـــاريخ البيزنطى الســابقين على القـــرن الحادى عشر(3). ربما يكـــون هو چوڤانى صقـــلية نفسه الذى علق على فن الخطابة عند إرموجينى(4). والمـــدونة الإخبـــارية محفوظـــة فى *Biblioteca Elettorale palatina*، ويبدو أن ســـيلبورجس رآها هنـــاك؛ وثقة فى روايته وفى بوسڤينو سجل ڤوسيو چوڤانى صـــقلية بين المؤرخين البيزنطيين وزعم انتقـــال المخطوطـــة من مكتبة بلاتينا إلى مكتبـــة الڤـــاتيكان(5). ولا أعلـــم على أى أســـــاس يؤكد

(1) جايتانى، *Vitæ Sanctorum Siculorum*، المجلد الأول، ص ١٢٨ وما يليها، وبولاندستى، *Acta Sanctorum*، ١٨ يونيو، المجلد الثالث (فى يونيو)، ص ٥٩٦ وما يليها حيث نقرأ بعض مقتطفات النص اليونانى. وقد أرجع جايتانى تأليف الأنشودة إلى عام ٨٧٠ وتبعه فى هذا البولاندستيون.

(2) سكويل، *Histoire de la Litterature grecque profane*، ترجمة فرنسية فى عام ١٨٢٤، المجلد الرابع، ص ٤٨.

(3) أنظر شيدرينوس، طبعة بون، المجلد الأول، ص ٤ والهامش، فى المجلد الثانى ص ٧٤٨. ويطلق عليه شيدرينو Σικελοῦ، ومخطوطة أخرى تضيف عليه διδάσκαλος وطبقاً للمكانة التى يسندها له شيدرينو فإنه سيكون قد عاش نحو نهاية القرن العاشر.

(4) داينليس دى نيسل، *Catalogus... Bibl Vindobonensis* (١٦٩٠)، الجزء الأول، ص ١٤، رقم ١٠ § ٣.

(5) فوسيس، *De Histoiricis Græcis* (ليدن ١٩٥٠)، الكتـــاب الرابع، الفصـــل ٢١، ص ٤٩٩، وكمـــا اســـتشهد بـــه تمامـــاً مونچيتـــــورى، *Bibliotheca Sicula*، ص ٢١٢.

سكول أنه عثر على المخطوطة فى مكتبة ڤيينا، وبتكملة لها حتى عام ألف ومئتين واثنين وعشرين(1)؛ ولكن يمكننا الاعتقاد أن ذلك خطأ من عالم اللغة الألمانى البارز وإلا لكان ـ ناشرو بون العلماء قد نشروا هذه المخطوطة فى المكتبة البيزنطية، وكنا سنجدها فى قائمة دانيل دى نيسل. ويظل إذن الشك حول ما إذا كان الكتاب قد فقد، أو بقى مهملا فى طى النسيان فى مكتبة الڤاتيكان، أو نشر باسم مؤلف آخر وليكن ميكيلى جليكاس الذى يطلق عليه أيضاً الصقلى والذى كتب موجزاً تاريخياً هزيلاً منذ نشأة العالم وحتى عام ١١١٨.

وبعيداً عن الوطن والمخاطر عاش صقليان بارزان آخران، هما أثناسيوس أسقف مودونى وبيترو أسقف أرچيقى والذى كتب تأبين أثناسيوس. وعندما أخذ يروى سنوات حياة أثناسيوس، ذكر بيترو صقلية كابن محب لها ولو بشكل بلاغى: وكلماته هى الوحيدة التى تعكس محبة للمدينة نجدها فى كتابات قساوسة القرن التاسع الصقليين. «فى البداية كانت السماء وطن أثناسيوس، ثم كتانيا وصقلية، هكذا يقول الواعظ؛ تلك الجزيرة الشهيرة التى باستطاعتى أن أمتدح موقعها واتساعها، جمالها واعتدال هوائها، مياهها الصحية وغاباتها وحدائقها الكثيفة، وحكمة رجالها وحيطتـــهم وقوة بأسهم وعدالتهم، وباستطاعتى أن أذكر العديد من الشخـصيات البـارزة التى ولدت فيها، ويكـفى أن أذكر القديسة أجاتا العذراء التى يوقف رفاتها اندفاع الحمم من بركان إتنا. ولا يليق بى الاستمتاع بمديح وطن أرضى لأن أثناسيوس لما انخرط فى العشق الإلهى احتقرها كمنفى. ولقد بزغ من غروب وأطلال الوطن ضوء جديد لرجل عظيم. وصقلت المحن روحه كما تنقى النار الذهب، وكما تمتحن العواصف والسيول المندفعة صلابة المنشآت. وكانت طائفة من بنى إسماعيل وهاجر قد حضرت لتعاقب

(1) *Histoire de la Littérature grecque profane*، ترجمة فرنسية لعام ١٨٢٤، المجلد السادس، ص ٣٧٠.

انحرافنا وإصرارنا على الخطيئة، من منطلق الثأر للعدالة الإلهية، فنهبوا وأفسدوا العديد من المدن، وارتكبوا المذابح فى حق المدنيين والفلاحين: فقتلوا بعضهم بالسلاح، وأهلكوا بعضاً آخر بالجوع أو فى خضم البحر: وقيدوا آخرين بقيود أبدية من العبودية وأثقلوا آخرين ببؤس لا يطاق، كما أرغموا البعض على الفرار من صقلية والترحال فى أراضٍ أجنبية. من بين هؤلاء كان والدا أثناسيوس اللذين فرا بلا تذمر من قضاء الله إلى باتراسو فى بيلوبونّيزو، لعدم استطاعتهما الإمساك عن ذرف الدموع على حال المؤمنين وعلى خيرة القديسين والكهنوت الملكى وقد وطأه البغاة؛ ولم يتحملا الاحتقار المتعالى والتهكم على أحوالنا السيئة». بعد هذا الاستهلال الذى ترجمته فى إيجاز بعض الشئ، تأتى الحياة الدينية: كيف دخل القديس شاباً الدير، وكيف صار رئيساً عليه، وبعد ذلك كيف تم اعتلاؤه كرسى أسقف مودونى: وعندئذ تألق بفضائل الأسقف راعى النفوس: فكان تقياً ورحيماً وقوياً ومواسياً للمكروبين وثائراً للمقهورين. «وصاح الواعظ، هذه هى الفلسفة الحقيقية، وليست فلسفة سقراط». ومن ثم فمن البداية إلى النهاية كان يمدح أسقف مودونى للفضيلة التى تعلمها من سقراط ربما أفضل من أى شخص آخر: أى محبة الناس دون وساوس دينية. غير أنه ربما لم يكن يروق لرجال الدين آنذاك أن يتحدث فلاسفة مانياورا كثيراً عن عالم أثينا. واختتم التأبين بذكر قائمة من المعجزات وقعت عند قبر أثناسيوس الذى مات، كما يبدو، فى عام ثمانمائة وخمسة وثمانين(1).

ويتضح لنا من تلك المدونة أن المؤلف لم ينأ بنفسه بعيداً عن عيوب كتابات العصـــر الأدبية، ومنهـــا الزخرفة اللفظيـــة، والخطابة بأحكام عـــامة، والتكلف فى إبراز حـــرارة مشـــاعر تفتقدها الروح. وتوجه

(1) هذا التأبين الذى يحمل اسم المؤلف تُرجم إلى اللاتينية عن النص اليونانى فى دير السلفاتورى دى مسينا، ونشره جايتانى فى *Vitæ Sanctorum Siculorum*، المجلد الثانى، ص ٥٢ وما يليها ونشره البولاندستيون بتعديلات كثيره فى *Acta Sanctorum* بتاريخ ٢١ يناير.

بيترو، المدعو بالصقلى نسبة إلى وطنه، إلى أديرة القسطنطينة بحثاً عن حظ أطيب عندما هرب مع كثيرين آخرين خلال حرب المسلمين. ونحو عام ثمانمائة وسبعين أرسله باسيليوس المقدونى ليتفاوض فى تحرير الأسرى فى تفريكا، وهى مدينة تقع بين قيصرية وتريبسوندا، بين الفرات والبحر الأسود، والتى يطلق عليها اليوم خطأ ديفريكى، وكانت آنذاك المقر الرئيسى للهراقطة من أتباع باولو داسامُستا (باوليتشانى). وهذا الاسم اتخذته لنفسها طائفة كانت تمزج بشكل غريب بين ثنائية المانوية وبساطة الكنيسة المسيحية الأولى، وترسخت هذه الطائفة فى أرمينيا وفى أقاليم أخرى فى آسيا الصغرى، ولكنها بعد أحداث اضطهاد عديدة كانت على وشك الفناء التام عند انتعاش تقديس الصور. وتباهى الجند الذين أرسلتهم تيودورا لقتال الهراطقة من أتباع باولو داسامُستا بسقوط مئة ألف ضحية قتلوهم بالسلاح وبالحرق والغرق؛ ولكن بقايا الشعب المطرودة حملت فى يأس السلاح، وعينت قواداً لها وانضمت إلى المسلمين: وثأروا لأنفسهم على مدى ثلاثين عام من الحروب، فاجتاحوا الأقاليم المجاورة للإمبراطورية وتمركزوا فيها؛ وهى الأقاليم التى تردد باسليوس المقدونى فى الهجوم عليها. ومن هنا كانت وفادة بيترو الصقلى الذى لم يستمل إلى السلام هؤلاء الثائرين الجسورين ولكنه استعاد منهم الأسرى واكتشف علاقاتهم مع البلغار، وفى جداله مع كبار علماء الهراطقة تارة ومداولاته مع الأرثوذكس الذين وجدهم هنا وهناك تارة أخرى، تمكن خلال تسعة أشهر أقامها فى تفريكا من جمع المادة العلمية لتاريخ تلك الهرطقة، وكتبها فى الحال وأهداها إلى رئيس أساقفة البلغار الجديد. وفصّل فيها بجلاء الست نقاط الرئيسة لتلك الهرطقة وأصلها وتحول المعتقدات عندها، واستنبط بحس الناقد، ورتب وعرض عرضاً فنياً الأحداث الحقيقية الناجمة عن تلك الأخطاء الميتافيزيقية: مثل الاضطهاد والتمرد والحروب. ويمكن القول أنه تاريخ يسمو على تلك الفترة لـو لم نلاحظ فيه عيـوب الصـياغة المشـار إليها آنفـاً، ومـا هو أسـوأ من ذلك ألف مـرة فساد الحس الأخلاقى؛

وأقصد الرضا الدينى الذى يتضح فى سرد تعذيب الهراطقة أتباع باولودا ساموستا والتهكم من الضحايا(1). ومات بيترو الذى صار أسقفاً بعد هذه المهمة، كما يبدو، نحو عام ثمانمائة وتسعين.

وتشير رواية مأخوذة من (سير القديسين اليونانية)، ولكنها ليست خرافية على أية حال، إلى شهادة أربعة صقليين فى الحقبة نفسها، وهم جوفانى وأندريا وبيترو وأنطونيو، وكان أندريا أباً لبيترو وأنطونيو. بعد غزو سيراكوزا تم استعبادهم واقتيادهم إلى إفريقيا لدى الجبار إبراهيم بن أحمد الذى أنشأ الشابين على التعاليم الإسلامية، ولما وجدهما ذا كفاءة وحسنا التربية والسلوك استخدمهما فى الأعمال العمومية: صار أنطونيو جابيا للضرائب(2) وبيترو قائماً على بيت المال، وليس هذا غريباً. وحيث إنهما كانا لا يزالان يحتفظان فى قلبيهما بعقيدة الآباء، كشفتهما الصدفة أو أحد الأعداء. وحكم عليهما إبراهيم بالموت لأنهما مرتدان: وعندئذ تم الزج بهما فى السجن وتمزيقهما بالضرب وتكسير عظامهما وتشويههما بالكلاَّبات الملتهبة. وفى خضم عمليات التعذيب الجسدى هذه أمر الطاغية بإحضار الأب وفصل رأسه عن جسده بنفسه. وعندما أخرج أندريا من السجن، حيث صار هرما، ضربه بالرمح فى صدره، وبينما كان الرجل ينظر إلى السماء شاكراً على نعمة الشـهادة أجهـز عليه بضـربة أخـرى وشج رأسه. ومثل هذه التفاصـيل الدقيقة والتى من الممكن فى حـالات أخرى أن

---

(1) بيترو الصقلى، *Historia de Manichœis*، ترجمة لاتينية لمخطوطة مكتبة الڤاتيكان، فى *Maxima Bibliotheca Patrum*. المجـلد السـادس عشر، وأنظـر أيضـاً حـول اضطهادات الهراطقة أتباع باولودا ساموستا، *Theophanes Continuatus*، الكتـاب الرابـع، الفصـل السـادس عشر؛ وجيبـون *Decline and Fall*، الفصل ٥٤.

(2) فى الترجمة التى نشرها جايتانى نقرأ *Genicus* وتفسر «جابى». وفى الحقيقة الفعل *gena* يعنى «جمع» والاستشقاق *gen âia* يعادل «غرامة» و«ضريبة» بشكل عام كما لاحـظ كاترميـر فى، *Histoire des Sultans Mamlouks*، المجـلد الأول ص ١٩٩. و*Géni* قد تعنى بالفعل مُحَصِّل.

تشكك فى صحة الرواية نجدها هنا تؤكدها حيث يتعلق الأمر بإبراهيم. فاسمه واسم باسيليوس الأمير المعاصر له وعمليات اقتحام سيراكوزا الواردة فى الرواية كلها عناصر تضيف لها مصداقية(1).

وتعد مواقف چيوفانى راكيتّا، الملقب بالقديس إيليا الشاب والذى سبق أن أشرنا إليه، من اللحظات التاريخية العظيمة. فقد ولد لعائلة نبيلة فى كاستروچوفانى عام ثمانمائة وثمانية وعشرين أو تسعة وعشرين(2)، وعندما كان صبياً فى الثامنة من عمره رأى القرطاجيين يجتاحون المدينة كما تقول الرواية: وفى الواقع يتوافق ذلك الوقت مع احتلال ضواحى كاستروچوفانى (٨٣٧). وهرب الوالدان مع ابنهما وبقية ما يملكون إلى قلعة سانتا ماريا حيث عاشوا فى طمأنينة، وذات ليلة بدا لچيوفانى أنه يسمع هاتفاً من السماء ينذره بخطب ويكلفه بمهمة مواساة اخوانه فى الدين المسيحى. وفى الثانية عشرة من عمره، ولما لمع فى دراسة الكتابات المقدسة والمواظبة على أداء الصلوات، بدأ حجاب الغيب ينكشف أمام عينيه: تنبأ كيف أن الأعداء سيقتحمون القلعة، وكيف سيقتل هذا وذاك. ويبدو أن القديس قد قص ذلك حين تقدم فى العمر وتحدث صراحة عن النبوءة. ربما لم يكن كذباً تاماً: ربما كان قد اعتقد ذلك هو نفسه، وإلى حد ما كان يصدق بأنه يرى بحواس أخرى غير حواس باقى البشر. لقد خلقت له مخيلته المشبعة بالرعب من المسلمين، ومن الإرهاب الدينى، والنوائب الوشيكة، وعناية السماء المتواصلة، خلقت له طيفاً وبدا له أن الله أرسله: شعور مسبق، وبدا له وحياً، وعندما حدث وتحققت نبوءته، كان ذلك دليلاً لا يقبل الشك على إدراكه للنبوءة. ولما كان منغمساً فى التنبوءات لم يستطع الشاب أن يتوقف عنها، وعندما أصبح رجلاً ناضجاً رأى النبوءات تعود بالنفع عليه وعلى غيره، على الأرواح وعلى

(1) جايتانى، *Vitæ Sanctorum Siculorum*، المجلد الثانى، ص ٥٩.
(2) يقول كاتب السيرة أنه مات عام ٩٠٤، فى الثمانين من عمره: مما يعنى فقط أنه كان يقترب من الثمانين.

الأجساد، على الكنيسة وعلى الإمبراطورية: ولقد أتاحت له آلاف الحالات أن يستغل الحقيقة فى غاية طيبة، دون مصلحة خاصة، وذلك لأن إدعاء المجد لا يبدو للبشر نفعاً شخصياً.

وبعد هذا القول، يمكننى أن أتتبع الرواية خطوة بخطوة. فلما أصاب سكان قلعة سانتا ماريا الهلع من كلمات الصبى انجذبوا تجاهه وراح هو يفند المعاصى ويوصى بالتوبة وعمل الخير ويذكر بأنه طبقاً للإنجيل فإنه لابد أن تقذف فى النار كل شجرة ملعونة. وأثارت حكمته هذه دهشة كثيرين ولكن الأغبياء والحثالة أداروا له ظهورهم، كما يقول كاتب السيرة فى مرارة: ويبدو لى طبيعياً أن الفقراء لم يظهروا أية حماسة فى الدفاع عن نظام اجتماعى ظالم على هذا النحو. وكان الشاب الفاضل من أوائل من تقابلوا مع النوائب التى كان يتنبأ بها. فعندما خرج من القلعة يروح عن نفسه صادفته جماعة من فرسان المسلمين، فأسرته وباعته إلى أحد المسيحيين الذى كان يعمل تاجراً فى تلك البضاعة حيث وضعه على سفينة للمسلمين مع مائتين آخرين من العبيد. وعندما خرج مبحراً فى اتجاه أفريقيا حررته سفينة يونانية خرجت من سيراكوزا: وعاد چوڤانى وكان قد تنبأ بذلك أيضاً إلى ذويه. وبعد ثلاث سنوات فقد والده. وبينما كانت تصارعه مشاعر متناقضة بين البر بوالدته والرغبة فى الترحال ليعطى مجداً للإيمان نفذت الإرادة الإلهية عندما تم أسره فى غزوة ضارية للأعداء، واشتراه أحد المسيحيين واقتاده إلى أفريقيا حيث تم بيعه لمسيحى آخر كان تاجراً للجلود وكان ثرياً أوكل إليه إدارة منزله عندما أعجب بمظهره الجميل وتواضعه ونزاهته.

وسنترك وراءنا واقعة أخذت من قصة يوسف الصّديق: وإن كنا لا نعرف مدى صحتها، وأقصد هنا أننا لا نعرف إذا ما كانت من عادة السيدات المسيحيات فى أفريقيا وصقلية وكلابريا فى ذلك الوقت، الأصباغ الحمراء والبيضاء(1) التى كان يدهن بها الوجه ولا

(1) نقرأ فى الترجمة اللاتينية *Fuco et Cerussa*. ومن المعروف أن هذا هو

نعرف أى أدوات(1) من حديد كانت تجعد بها شعرها زوجة التاجر تلك، التى كانت تصر على غواية جوڤانى. وعندما اتضحت براءته عتق نفسه بنفسه مرة أخرى بنتاج عمله وهى وسيلة من وسائل التحرر المعروفة بالفعل طبقاً للشريعة الإسلامية التى كانت سائدة بالضرورة بين التابعين المسيحيين. ثم ذاعت شهرته بعد ذلك عند المسلمين والمسيحيين على حد سواء لمعجزات الإبراء من الجروح والأمراض: وهو أمر كان يحدث منذ قرون عديدة وحتى يومنا هذا، ومع هذا لا يزال يحدث فى الشرق لمن له دراية بالطب أو يتمتع على الأقل بالدهاء والجرأة. واستغل القديس حرفته أياً كانت فى خلق مؤمنين جدد ربما فى مصر. وعندئذ واجه المخاطر، عندما اتهمه فقهاء المسلمين أو بالأحرى رجال الدين اليعاقبة(2): ولكن حاكم الولاية أطلق سراحه من السجن، فتوجه إلى القدس بعد ذلك بقليل. وهنا وفى هذه المدينة كرمه البطريرك وأعطاه مسوح الرهبان وأطلق عليه اسم إيليا. وأقام ثلاث سنوات فى القدس، زار نهر الأردن وجبل طابور وجبل سيناء، ثم جاء إلى الإسكندرية. وتأهب للذهاب إلى بلاد فارس ولكن الاضطرابات التى ثارت هناك أجبرته على التوقف بأنطاكيه.

وكما تقول الرواية زاره من جديد الهاتف الإلهى الذى اعتاد التحدث إليه فى الرؤى فى أنطاكيه وحثه على العودة إلى الوطن. وكان صوتاً داخلياً فى نفس كريمة تدرك انقلاب الحظ على

أبيض الرصاص، والكلمة الأخرى تعبير غير محدد. وأذا عثر فى النص اليونانى على φῦκος، كما هو محتمل، فهذا يشير إلى الأحمر المستخلص من نوع من الطحالب.

(1) *Calamistrum*، حديد يجعد به الشعر.

(2) تنسب الرواية، الاتهام إلى كبار الإسماعيليين: وتقول أنه تم تبليغ الاتهام إلى الخليفة (أمير المؤمنين) وكان يحتوى على عنصرين رئيسين: الأول احتقار النبى ونبوءاته، والثانى «الدعوة إلى دين جديد والقول بأن ابن مريم متحد إلى الأبد وواحد فى الجوهر مع الآب والروح ... ويبدو لى الآن أن هذه ليست لغة المسلمين ولا ابتداع من كاتب السيرة. وعلى الرغم من بعض الصعوبات التى قد تتلاشى إذا توافر لدينا النص اليونانى، فإن الاتهام قد كتبه متعصبون فى الكنيسة القبطية وأن الاضطهاد له قد حدث فى مصر. ويمكن أن يقودنا إلى الخاتمة نفسها موقف تحريره الذى أمر به حاكم الولاية بالرغم من الرجوع إلى الخليفة.

المسلمين فى الغرب، أو نصيحة من أحد البيزنطيين: أو من بطريرك القدس نفسه الذى كان معتاداً على مناصرة بلاط روما المزمع آنذاك على المصالحة مع باسيليوس المقدونى. ولما عاش إيليا نصفه يفكر فى صقلية ونصفه الآخر فى بلاد المسلمين ولما كان متحمساً للدين، إذا به يتذكر ذويه ولم لا؟ ووطنه أيضاً، ما سنحت له الفرصة فى الإرسالية السياسية التى كان يجب أن تصاحب جيوش باسيليوس فى صقلية.

ولقد سبق وقصصنا(1) كيف عاد إيليا إلى الجزيرة عام ثمانمائة وثمانين ليرى والدته مرة أخرى وليراقب قوات المسلمين ويشجع الشعب ويحث القادة البيزنطيين على الحرب. وفى مسيرته حمل بكلماته الموجزة(2) والمتفقهة فى الدين كثيراً من غير المؤمنين على اعتناق الدين والإيمان به. وبعد نزول نزار فى بالرمو انتقل الراهب الصقلى من ريجو أو بالرمو إلى تاورمينا(3) حيث أقام فيها بضعة أيام واصطحب منها شاب من عائلة نبيلة ومنحه مسوح الرهبان واسم دانيال، ولما استشعر بهزيمة القائد بارساميو أبحر تجاه بيلوبونيزو. ويروى لنا كاتب السيرة معجزات كثيرة قام بها إيليا، وإنه بالرغم من ذلك تم القبض عليه هو ودانيال بتهمة التجسس فى بوترانتو نحو عام ثمانمائة وواحد وثمانين(4)، وسجنهما الحاكم ايبينو، ولما أطلق سراحهما عند وفاة الطاغية فكرا فى الذهاب إلى روما، ولكن نظراً لمنعهما من القيام بتلك الرحلة توقفا فى كورفو حيث استضافهما وكرمهما الأسقف، وفى النهاية راحا يؤسسان صومعة فى وادى سالينى بين كابو دلاّرمى وبينتيداتّولو

(1) الفصل العاشر، ص ٤٧٢ وما يليها.

(2) أقرأ فى السيرة عند جايتانى، المجلد الثانى، ص ٦٧ ـ ٦٨.

(3) يقول كاتب السيرة إن القديس إيليا أتى إلى بالرمو، وأنه عندما أبحر أسطول المسلمين تجاه ريجو حجز أهل ريجو الذين أرادوا الفرار، وبعد ذلك ذهب من بالرمو إلى تاورمينا. وإذا لم يوجد أى ارتباك فى النص يمكننا أن نفترض أنه عاد إلى بالرمو ربما مع الأسطول البيزنطى، ومن هناك إلى تاورمينا.

(4) ورد هذا الحدث كحدث معاصر لهزيمة بارساميو عند تاورمينا فى عام ٨٨١. أنظر الفصل العاشر ص ٤٧٨.

فى كلابريا، أمام تاورمينا. ولاتتفق هذه الأحداث كما لاحظتها فى مواضع أخرى مع الإرسالية الدينية الخالصة، ويبدو أن إيليا كان يقود من ناحية عمليات ضد المسلمين فى صقلية، ومن ناحية أخرى كان يناصر الرهبان الذين كانوا لا يطمئنون إلى استقرار فوتسيو على كرسى البطريركية، خاصة بعد موت چوڤانى الثامن (٨٨٢). وقد قام إيليا بالفعل برحلة روما فى عصر ستيفانو الخامس (٨٨٥ ـ ٨٩١)، وبعد عدة سنوات قضاها فى كلابريا ينبعث من حوله عبق القداسة بإبراء المرضى والتنبوءات بإغارات المسلمين وتسخير الريح والمطر والقيام بمعجزات حتى وعلى سبيل المزاح، مما كان يعود عليه دائماً بحب الشعب واحترام الكبار له. وعندما عاد من روما تنبأ لأهل ريجو بنهب وشيك للمدينة (٨٨٨)، ولما اعتكف فى الوقت المناسب فى بارتراسو، عاد وظهر فى ريجو عندما علم برحيل الأعداء؛ وعندئذ رجع إلى صومعته: ويقول كاتب السيرة إنه تجنبا لتعلق الشعب به أو بالأحرى الإقامة الخطيرة على مضيق مسينا ذهب ليقيم ديراً فى مكان آخر، وكما أعتقد، على جبل بين سيمينارا وبالمى، وأطلق عليه سانت إيليا ولاتزال الكنيسة موجودة بالمكان. وفى رحلاته العديدة فى أطراف كلابريا كان يحث المؤمنين فى كل مكان على الابتعاد عن المسكرات والشهوات والنزاعات إذا أرادوا أن ينجوا بأنفسهم من بلايا تلك الحروب. وأمثلة إبامينودا وشيبيونى التى كانت تتضمنها تحذيراته فى بعض الأحيان توضح أنه لم يقصد بإصلاح العادات الصلاح العقائدى فقط، ولكنه كان يهتم بالسلوك الدنيوى بشكل مباشر. ومما تضيفه السيرة ويسهل تصديقه أنه عندما أعيد النظام وتعدل بين رجال قائد أسطول فى كلابريا يدعى ميكيلى، تبعاً لنصيحة إيليا، حصل على النصر فى إحدى المواجهات التى كانت معركة صغيرة لم ترد فى الروايات.

وددت قص مواقف إيليا دا كاستروچوڤانى بالتفصيل لأنه يبدو لى نموذجاً للحمية الدينية وشعاع الفضيلة الوحيد الذى تبقى فى صقلية. إن عقلية السلالة المهزومة تتمثل على أفضل وجه فى هذا

الراهب المواطن، طوال حياته التى امتدت منذ الهجمات الأولى للمسلمين وحتى إتمام الفتح، أى فتح تاورمينا. أما كيف حضر إليها وبأية كلمات ولهجة مأسوية نبه المواطنين للمصير الذى كان حتمياً عليهم، هذا ما سوف نقصه فى الكتاب الثالث عند تناول تلك الحروب. ومن ناحية أخرى لم يتصور إيليا، أو كاتب السيرة، أى جديد فى هذا اللقاء، حيث فرَّ منه القديس كدأبه قبل وصول الأعداء. ذهب إلى أمالفى، وعاد إلى كلابريا، وقام بمعجزات أخرى، فساعد كولومبو وهو المتمرد الجسور، وترك قائد الإمبراطورية الذى أبى العفو عن كولومبو يموت، والتمس العفو هو بنفسه من ليون الحكيم مقابل الذهاب لزيارة الإمبراطور فى القسطنطينية. وكان ليونى، مثلما يعلم الجميع، قد عزل فوتسيو من جديد ليقدم معروفاً لروما، وداهن الإكليروس وأغدق عليه كى يحتفظ فى سلام بالجميلة زويه *Zoe*؛ ويؤكد لنا كاتب السيرة أن ليونى طلب بالفعل من صانع المعجزات الصقلى الابتهال من أجل الإمبراطورية ولهذا انتقل إلى تاورمينا. والآن وما أن وطئ السفينة وفاءً بوعده الجديد لليونى، شعر أثناء الرحلة باقترابه من الموت، وذهب يقضى نحبه فى دير بجوار تسالونيكى فى السابع عشر من أغسطس(1) من العام الرابع بعد المئة التاسعة، وكان قد طلب نقل جثمانه إلى دير كلابريا، وهو ما حدث بالفعل، ومُنح هذا الدير هبات ثمينة وأملاك من الإمبراطور المتدين غاية التدين، كما يقول كاتب السيرة. وحسب رأيه كان إيليا على مشارف الثمانين من عمره، الأمر الذى يتطابق مع ترتيب الأحداث التاريخية التى تروى، كما يتلاءم ذلك السن المتقدم مع حالة الغضب العارم وتقلب

(1) التاريخ على هذا النحو فى النص اليونانى لدى البولاندستى، أغسطس، المجلد الثالث، ص ٥٠٨. فى الترجمة اللاتينية نقرأ تقويم السادس عشر *Kalenolas augusti*، الذى يوافق السابع عشر من يوليو ويتطابق بصورة أفضل مع أحداث تسالونيكى التى وقعت بعد بضعة أيام.

المزاج التى بدت فى التصرفات الأخيرة من حياته(1).

لكن السواد الأعظم من الرهبان المعاصرين لإيليا كانوا يفضلون حياة التقوى على حياة الإقدام والمخاطر. ويُذكر منهم القديس ليولوكا دا كورليونى، الذى لم ينشأ كما تقول الرواية لا على الحرب ولا على الفلسفة الباطلة، ذات يوم وقد أرهقه رعى القطعان فى مراعى أبيه، ذهب يقص شعره فى دير القديس فيليبو دارچيرا حيث حذره أحد الرهبان الكبار من النوائب التى كانت تشرف على صقلية فلم ينتظرها. وفر إلى روما حاجاً فقيراً. ثم أسس ديراً فى كلابريا: وأخذ يُكفر عن ذنوبه فى عذابات غير معهودة وبانهماكه فى المهام الخدمية، ومات كما يقول كتاب سير القديسين فى أوائل القرن العاشر الميلادى. لكن أصل الرواية مشكوك فيه، ولم يفطن الكاتب عندما أشار لفرارين لليولوكا لدى وصول الفندال ثم من بعدهم المسلمين إلى المعجزة الكبرى التى كان يصنعها(2).

ولن أتكلم عن القديسة أوليفا البالرمية التى أبعدها ذووها إلى تونس، وحكم عليها بالموت تعذيباً، فعندما خرجت أكثر حيوية من الزيت المغلى ولم تمسسها النار، قتلها فى النهاية سيف الأمميين، أو الفندال أو المسلمين، ولا أحد يدرى من منهم: والرواية مستحيلة ولا يمكن تحليلها(3). كما تبدو لى على شاكلتها رواية

(1) الحياة المجهولة للقديس إيليا الشاب، مترجمة من مخطوطة يونانية فى دير سلفاتورى بمسينا، ونشرها جايتانى، جايتانى، *Vitæ Sanctorum Siculorum*، المجلد الثانى، ص ٦٣ وما يليها، كما نشرها البولاندستى، *Acta Sanctorum*، ١٧ أغسطس ص ٤٨٣ وما بعدها. ولم أهتم بالملحوظات التاريخية للطبعتين عندما وجدت دليلاً أكثر تأكيداً فى تاريخى احتلال ضاحية كاستروچوفانى واقتحام تسالونيكى. وأغفلت تكرار عدة معجزات وتفاصيل خبر نقل جثمان القديس إيليا إلى كالابريا.

(2) هذه السيرة اللاتينية المستقاة من مخطوطات بالرمو ومازارا وكورليونى نشرها جايتانى، *Vitæ*، إلخ، المجلد الثانى، ص ٨٠، ونشرها البولاندستى استناداً لإحدى مخطوطات روما، *Acta Sanctorum*، غرة مارس، ص ٢٧.

(3) لدى جايتانى، *Vitæ*، إلخ، المجلد الثانى، ص ٨٤، ومن إحدى مخطوطات كنيسة بالرمو.

القديسة ڤينيرا داجالا، التى أبت الزواج فقتلها الأخوة الأمميين نكاية بها(1). إلا أن العالم اليسوعى مؤلف المجموعة لما أبى استبعاد هذه الأسماء ذات الشعبية العريضة فى صقلية ولما وجد عدداً ضئيلاً للغاية من القديسين فى عهد المسلمين، أضاف الفتاتين ببراعة. وعلى هذا النحو وصل إلى إحصاء عشرات من الشهداء الذين رُفعوا لمرتبة القديسين، ومنهم القديس بروكوبيو أسقف تاورمينا، والذى تشهد على موتته البطولية ذكريات أصلية، سنرويها فى الكتاب اللاحق، مع مذابح تلك المدينة.

وبعد أن طفنا فى التراجم التى عرضناها بحثاً عن سبل الحضارة التى تبقت فى صقلية المسيحية فى القرن التاسع فسوف نجد الدين فقط، وسوف نكتشف أن الدين كان يشبه آنذاك نباتاً يتغذى على شجرة يسيطر عليها، فلا تصل إليها العصارات الحيوية فتمتد براعمه بدلاً من براعمها. وسنعرض من التحضر المظهرين الأساسيين فقط، أى النشاط الفكرى والروابط الأخلاقية والروحية فى المجتمع. ويتضح فى المظهر الأول أن الدراسات الدينية التى أنعشها القديس جريجوريو فى الجزيرة، ثم أخذ نشاطها يقل شيئاً فشيئاً لكى تنبعث مرة أخرى خلال النزاع ضد المعادين لتقديس الأيقونات، هذه الدراسات أتت ثمارها فى مواعظ تيوفانى شيراميو وفى أشعار القديس جوزيبى كاتب المدائح وسيرجو وكتابات الراهب تيودوزيو(2) وبيترو الصقلى، وفى المعارف التى كان يتسلح بها جريجوريو اسبستا للثأر، وهذه كلها كانت تساعد على انتعاش الآداب فى عاصمة الإمبراطورية. لكننا لا نعثر على أى علمانى فى هذه القائمة، ولا على أية دراسة علمانية. ويتضح أن الروابط الأخلاقية، وهى أسمى غايات الدين كما كان يظن آباؤنا اللاتين، كانت مهملة وغير فعالة. غير فعالة فى العادات التى نكتشف فيها انفلات الشهوات غير الانسانية والتزمت، وهما متوافقان

(1) المرجع سابق الذكر، المجلد الثانى، ص ٨٦.

(2) انظر الفصل التاسع من هذا الكتاب الثانى.

فى أغلب الأحيان. وهى عديمة الفعالية أيضاً فى العلاقات السياسية حيث كان الجزء الأعظم من صقلية يحنى عنقه بلا اكتراث للمسلمين. لم أقل إن الدين كان السبب الوحيد لحالة الضعف الشديد هذه، أو ذلك الذى كان يعد ديناً فى الإمبراطورية المتأخرة، ولكنى أؤكد أن أثر الدين كان قليلاً أو معدوماً فى الحفاظ على الدولة التى كان الدين يعد العنصر الحيوى الوحيد فيها. وفى الحقيقة لا نعثر فى وقائع الفترات الأولى من الحرب ورواياتها على أثر لدفاع شارك فيه رجال الدين بعزيمة الرجال، بل نرى على العكس أن القديسين كانوا يسارعون إلى الفرار من الجزيرة. وكان إسهام الشعور الدينى فقط عندما ثارت الشعوب اليائسة لأسباب أخرى، وحينما أرسلت الإمبراطورية البيزنطية التى استعادت همتها جيوشاً، وعندما أخذت جماعة من الشعب، بعد أن تنفست هواء الحرية، تحافظ على حريتها بنفسها: وخلال تلك الأحداث كان دور القساوسة والرهبان - دائماً - دوراً ثانوياً، ولم يظهر بينهم من هو مثل بييرإريميتا ولا سافونارولا. ولم يولد أبداً رجال مثل هؤلاء فى المجتمع البيزنطى، الذى كان يشكو شيخوخته وسط الرذائل التى لاحظناها منذ قليل فى شعب صقلية المسيحى فى القرن التاسع، والتى رأيناها فى الجزيرة بأكملها فى فترة ما قبل الفتح. أما عن شكل المجتمع الإسلامى فى الجزيرة فى هذا الوقت ذاته، فهذا ما سأحاول جاهداً تصويره فى الفصل الأول من الكتاب التالى.

الفهرست

ملخص فصول المجلد الأول

المقدمة

ملخص الفصول

الكتـــــاب الأول

الفصل الأول

الفصل الثانى

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الفصل السادس

الفصل السابع

الفصل الثامن

الفصل التاسع

الفصل العاشر

الكتاب الثانى

الفصل الأول

الفصل الثانى

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الفصل السادس

الفصل السابع

الفصل الثامن

الفصل التاسع

الفصل العاشر

الفصل الحادى عشر

الفصل الثانى عشر